د. ديدار فوزى روسانو

مذكرات مناضلة



(صورة) يوم الاستقلال فى الجزائر
المصدر : هنرى أليج « حرب الجزائر »

... رسائل إلى حبايبي ...

الكتاب الأول

الجزائر و فلسطين

ترجمة
د. مراد خلاف



دار العالم الثالث

ستة عشرة عاما على استقلال الجزائر! وركزوا اهتمامهم على خيط من الخيوط يرتبط بالواقع فعلاً... ويتصل بالدور الذي لعبته مجموعة أبو نضال ...(وهو من الكوادر القديمة في منظمة التحرير الفلسطينية انشق عن المنظمة، معترضا على كل حوار يجرى مع إسرائيل). وكانت مجموعته قد اغتالت لتوها سعيد حمامي، ممثل منظمة التحرير الفلسطينية في لندن، (نشر في مناسبتين مقالات في جريدة ألتايمز تحبذ الانفتاح). واشترك مع عصام السرطاوي أيضا ...(مستشار رئيس منظمة التحرير الفلسطينية)، في ندوة ناقشت النزاع الدائم الدائر في صفوف الصهاينة من اليسار الإسرائيلي. وكانت الصحافة قد كشفت عن المحادثات السرية التي نظمها هنري كورييل في باريس، وأجراها هذا المستشار الفلسطيني وأعضاء (من الصهاينة) في (المجلس الإسرائيلي من أجل السلام بين إسرائيل وفلسطين)، والذي كان تحت رعاية منديس فرانس... الرئيس السابق للمجلس.

وكان من المعروف تماما في فرنسا وفي الجزائر، ما قام به هنري كورييل من نشاط سري تضامناً مع الكفاح المسلح من أجل تحرير الجزائر. ولا يخفي على أحد ...ألقي القبض عليه وسجن لمدة عامين (حتى نهاية الحرب) مع غيره من مناضلي جبهة التحرير الوطني. ويبدو أن اليسار المصري لم يعر الأهمية التي يستحقها هذا العمل النضالي سوى ما جاء ذكره إحقاقا للحق... في كتاب جيل بيرو (رجل من نسيج خاص) المترجم إلى العربية، ورغم أننا كوّنا مع هنري مجموعة صغيرة من الشيوعيين المصريين الملتزمين، مع اشتراك مواطنين فرنسيين وأوروبيين أيضا، خاضت عملية نضالية سرية تضامنا مع حركة تحرير شعب واقع تحت الاستعمار الكولونيالي، وهي حركة تعلن انتمائها إلى العروبة والإسلام.

علما بأن العمل النضالي لهنري كورييل المؤيد للحوار الإسرائيلي العربي، قد نوقش على نطاق واسع في مصر، ولكن غالبا ما شوه أو على أقل تقدير أسيء فهمه حتى من جانب اليسار المصري. وبكل تأكيد، كان التفكير في هذا الموضوع مسألة شائكة في سياق الحروب الإسرائيلية العربية المتتابعة، وشاركت المجموعة القديمة في باريس- زملاء من أصل يهودي في المنظمة المصرية "حدتو"- في هذا العمل النضالي الذي واصله هنري بعد ١٩٦٧ وحتى يوم اغتياله ... وهذا في إطار الحوار الإسرائيلي الفلسطيني.

واصلنا عمله النضالي بصورة أو بأخرى حتى اتفاقات أوسلو.

وبعد اغتيال هنري نظمنا جمعية أصدقاء هنري لتحقيق هدفين: بكل تأكيد أولا مطالبة السلطات الفرنسية إلقاء الضوء على هذه الجريمة، ولكن الأهم من ذلك تفسير تصرفاتها، وتبديد الغموض الذي يلفها. كنا جميعا معنيين... فلقد أشار الغرب بأصبع الاتهام - أثناء هذه الفترة الزمنية وهي فترة الحرب الباردة- إلى الأعمال النضالية التي قامت بها مجموعات شيوعية واعتبرها أعمالا شيطانية ..!

... ويستمر الاستجواب بدون إنقطاع... ولكن يلاحظ أن ردود الفعل في اليـوم الأول ...قد تكون ضرورية لإنقاذ زميل، أو جوازات سفر...!! أما ما يأتي بعد ذلـك من تصرفات في صباح اليوم التالي مثلا فقد تكون غير محسوبة بوجه سـليم .... بـل وخطيرة أيضاً: فأقل خطأ من جانبك يعطيهم المبرر لإساءة معاملتك - وينطبـق القـول المأثور... من جعل نفسه عظمة أكلته الكلاب... لذا من الأفضل المحافظة على جـو من الإحترام...!! أو اللامبالاة ...لاخلق شعور بالعداء-[٦٦].

باختصار... توقفت عملية استجوابي بعد الليلة الثانية -بسبب ما ورد في مفكرتي من رموز- ولكن لم يكن هناك شيئا يخشى عليه هذه المرة ... وقادني من جديد ضبـاط الـ DST دون تفسير إلى الخارج، وكان الليل قد خيم على المدينة ... حركـة المـرور كثيفة... جلست على مقعد السيارة الخلفي ... بين اثنين من المخبرين السريين.

شعرت باضطراب الجالسين:

لا يكاد يتوقف المخبر السري الجالس بالقرب من السائق عن الالتفات إلى الخلـف، والنظر في المرآة العاكسة... ؟!!

نظم " الاخوة ...!" عمليات هجوم جسورة كثيرة ضد مراكز الشرطة...

لذلك فوجود سيارة خلف سيارتنا تخلق لديهم شعورا بالقلق ... قـد تكـون هـذه السيارة التي تتعقبنا خطوة في عملية معدة لإنقاذ أحـد المنـاضلين المقبـوض عليـهم ؟ واقتنصت هذه الفرصة الجيدة: وأصبحت أكرر حركة بيدي اليسـرى... كـأني أوجـه إشارة متفق عليها... وقد أغير من حركتي هذه عندما أرتب شعري بأصابعي.

وفجأة ...أوقفوا السيارة على قارعة الطريق بمحاذاة الرصيف، وخرجوا منـــها، تركوا السيارات التي كانت ورائهم تمر ...

وصلنا إلى مقهى الدبيلوماسي ... تنتشر مثل هذه المقاهي في كل أحياء باريس.

لم يكن يوم المقابلة ولا الساعة المسجلة في مفكرتي صحيح... وكـانت فرصـة لطلب فنجان قهوة كبير ساخن كابوتشينو ارتشفته بسرور ... كانت قهوة جيدة.

ولما كنت جالسة أمام مرآة كبيرة... بدأت مرة أخـرى فـي التظـاهر بعمـل إشارات.

فجأة ساورني القلق: انتقل المخبران الجالسان بالقرب مني إلى الطاولات الأخـرى بالقرب من باب الدخول ...ويعود آخرون مرة أخرى إلى طاولتهم ... أصبح واضحـا

---

٦٦ كل هذه المعلومات جزء من المحاضرات التدريبية التي كانت تلقى على المناضلين.

أن المقهى كله قد "أعد"، بالعدد الضروري من المخبرين السريين٠٠٠ وقد انتشروا كرواد للمقهى في كل مكان.

وكان هذا المقهى مكاناً للمقابلات٠٠٠ وقد يتعرف علي أحد المناضلين المارين في الشارع، ويأتي لسؤالي عن الأخبار الجديدة٠٠٠ فالصحافة -كانت خاضعة للرقابة في ذلك الوقت- لم تذكر شيئاً يتصل بالقبض علينا٠٠٠ وقد تنتهي هذه الكوميديا الساخرة بدراما مأساوية ٠٠٠ وتأتي الرياح بما لا تشتهي السفن ٠٠٠!!

خرجت من المقهى. وعندما حاول المخبرين السريين التظاهر بالإبقاء على أمام الباب ٠٠٠ تظاهره بالانفعال. كانوا يتحدثون في نس الوقت؟ عن سيارة واقفة عند منعطف الشارع٠٠٠!! هل كانت تنتظرني ؟ كنت قد قررت أن أجذب الأنظار إلينا -حتى أنبه المناضل الذي قد يمر بنا بحقيقة ما يجري-٠٠٠ وأنا متأكدة أن المخبرين السريين لن يلجأ أحدا منهم إلى استخدام العنف في وضح الطريق٠٠٠

قلت صائحة بأعلى صوتي، وأنا أتوجه نحو السيارة الواقفة: سيدي٠٠٠!! "*يعتقد هؤلاء السادة وهم من المخبرين السريين التابعين لجهاز المخابرات DST أنكم في انتظاري، وأن لدينا ميعاداً للتقابل*". وضحك بهدوء. أما المخبرين السريين فقد أصابهم الضيق والملل، وقرروا المغادرة٠٠٠ بعد أن اعتبروا العملية كلها مجرد حرث في البحر، ومضيعة للوقت٠٠٠

أما الفصل الأخير من هذه المسرحية٠٠٠!!فلم يسدل الستار عليه بدون مجهود٠٠٠!! : أعد بأسلوب فني لم أكن أتصور أني قادرة على إنجازه٠٠٠!!

وحتى أنجو من عطلة نهاية أسبوع يعدونها خصيصا من أجلي٠٠٠!! على الأقل هذا ما تصورته٠٠٠ تساءلت ... كيف يمكن حصر أي محاولة لانتزاع المعلومات مني، وذلك بإبقاء المحاولة في حدود مرسومة لا تتجاوز عملية الاستجواب التي يديرها -السادي السلوك- الذي يملك في حوزته أدوات قمع بحجم عشرة أمثال ما كان له من سلطات٠٠٠!!!؟ وهنا نتوقف ونكرر فقط ولكن بشيء من التغيير ٠٠٠!! *ليس لدي ما أقوله*" ٠٠٠ ومكنني ذلك من التقاط أنفاسي وتجميع طاقتي المشتتة٠٠٠ وعندما أكون بمفردي أتخذ بعض أوضاع اليوجا وأقوم ببعض حركاتها الرياضة .

ولم يتوصل عميل المخابرات الفرنسية البائس -المصري أصلا -إلى شئ عندما استجوبني .

وانحصرت بقية محاولات الترويع في مجرد إبداء ملاحظات يهمسون بها فيما بينهم -"*لا ينبغي التردد في استخدام الأساليب المعروفة ...!! سننجح في إجبارها على الاعتراف* "-.

لم تؤثر تلك المناورات علي بالمرة. إلا في جزء من الثانية٠٠٠!!

بدون أن يقولوا شيئاً، أشار إلي أحدهم بيده لكي أصعد إلى الطابق العلوي٠٠٠- الغرض من هذا الطابق معروف فلقد تحدث عنه المعتقلون الجزائريون في جريدة *ليومانيتيه* ٠٠٠ولاحظ المخبر السري الذي كان يرافقني في الصعود- ولحسن الحظ لم يكن كالآخرين- ترددي٠٠٠!! قال لي" *اطمئني ٠٠٠ هل تصدقين ما يقال عنا٠٠٠؟ وعن ممارستنا*" -لم يكن سبب صعودي إلى هذا الطابق المشئوم٠٠٠ في حالتي٠٠٠ إلا لعمل بعض الصور الفوتوغرافية لإعداد بطاقات البيانات الممغنطة-.

أما باقي ما يدور في هذه الجلسات٠٠٠ فكانت مثارا للعجب٠٠٠!!! فكان منهم - من يتقمص شخصية أب الأسرة الحنون- يحدثني عن العار الذي سوف تشعر به بناتي عندما يقرأن في الصحف خبر إلقاء القبض علي٠٠٠ ويذكرني بأعمالي الطيبة٠٠٠!!! عندما أعطيت أحد المحتاجين ثمن استئجار سيارة أجرة "تاكسي" - تعقبوني التقطوا صوري منذ أن تركت الفندق ؟٠٠٠ أو عندما أكد الواعظ الأخلاقي -المتصنع المتعجوف -أنه سيعرف كيف يخضعني ٠٠٠عندما قال لي ٠٠٠"*ألا تعلمين أن أحد الذين تعرفينهم من الشواذ* "-

والعميل الآخر- ذو الصوت الحنجوري النحاسي الرنان- الذي اتهمني بأني أعشق العمل التخريبي لأني -حسب اعتقاده- لم يكن لدي عشيق٠٠٠!!

وأخيراً العميل -المثقف المتحذلق المغالط الذي كان في الدور العلوي- يتحدث عن خبايا الصراع الصيني السوفييتي - مبديا ازدرائه لثقافة زملائه الرديئة التافهة، وهو الرجل العليم بالأمور ... هو الذي وضع نهاية للمقابلة التي لم يتحدث فيها سواه٠٠٠ وانسحب متعللا بوجود أعمال أخرى كثيرة عليه أن يعتني بها.

ولما جاءت أول أيام عطلة نهاية الأسبوع -في فترة بعد ظهر يوم السبت- أعددت موقفا دفاعيا.

انتشر جو يشوبه القلق في مكاتب جهاز الأمن الداخلي الفرنسي DST ٠٠٠؟

عندما عدت من زيارة٠٠٠!! المراحيض -الكريهة- يصحبني دائماً أحد المخبرين، -لا يسمع سوى صوت كعب حذائي الذي يدق على البلاط -قطعة الكاوتش التي كانت تغطي الكعب انفصلت عنه، وأضاف صدى هذا الصوت إلى إيقاع مشيتي نغمة عسكرية٠٠٠ سمعت أصواتاً هامسة تقول -" *ضايقوها حتى تنهكوها* "-٠٠٠ - *لا تتركوا لها فرصة الراحة*"- كل هذا الهمس يدور بالقرب من الباب المفتوح قليلا في الغرفة التي استضافوني فيها منذ اعتقالي!!!

وكنت أمارس في الفترات الفاصلة بين كل عملية استجواب وأخرى- وفي المساء قبل أن أنام- ولبضع دقائق حركات رياضة اليوجا٠٠٠ وضع الوقوف مقلوبة على الرأس لإروائه٠٠٠!!! وبذلك تمكنت من تفادي الأرق.

هل كانت كل هذه الترتيبات من أجلي ؟

لا أود المخاطرة: عندما يأخذوني لاستجواب جديد، سوف أطلب الذهاب إلى الطبيب للفحص ! عادة ضغطي منخفض، مع ميل للإغماء -استفدت منه لأقصى حد-.

سجل الطبيب الضغط وكان ١٢ على ٨ درجات ٠٠٠!! وحقيقة ٠٠٠استغربت تماما هذا القياس٠٠٠ لكني مع ذلك طالبت بصرف أدوية. وعندما سألني٠٠٠ كواجب الطبي -ولكي يبلغ جهاز الأمن الداخلي DST بأن كل شيء يسير على ما يرام ٠٠٠وفقا للتقاليد، والأعراف المتبعة في مجتمع متقدم ...!!- هل لديك أي شكاوى؟؟ ٠٠٠أجبته بصورة غير مباشرة، حتى أعلمه أن الاستجوابات التي تتكرر في كل ساعة من الليل والنهار، سوف تنتهي لا محالة بإغمائي٠٠٠ وأضفت-لا شك تدركون ذلك بسبب سني !. وحتى يتفادى التعرض لأي مساءلة--حرر استمارة لصرف بعض الأدوية.

بعد ذلك بدأ الفصل النهائي للمسرحية ٠٠٠؟ تطلب الأمر الحصول - ابتداء من هذه الليلة -على هذه الأدوية من إحدى الصيدليات الساهرة٠٠٠ وأوصلوني بالتليفون مع رئيس المكتب: حصلت على أدويتي فوراً٠ وبمنتهى الراحة لم يقلقني أحد حتى صباح يوم الاثنين٠٠٠

عندما يوجد المرء في الحجز ٠٠٠معنى ذلك أنه تحت إشراف، ورعاية البوليس الذي- يعتبر أن من واجبه ضمان أمن وصحة الشخص المحتجز- وذلك في مجتمع يزعم التقيد بمبادئ الديموقراطية .

ولم تجر إلا مقابلة واحدة بعد ذلك٠٠٠ مع أحد رجال البوليس ممن يعهد إليهم إثبات محضر أقوالي كتابة: وكان من رجال المقاومة القدماء ضد النازية، حدثني عن ماضية، بلكنة سكان مرسيليا.

تركنا مكاتب جهاز الأمن الداخلي DST يوم الثلاثاء ٢٥ أكتوبر. ونعلم أنه في بلد يطبق فيه النظام الديموقراطي ٠٠٠تحترم أيضا قواعده داخل السجن.

لم تتمكن ماري كلود بوشو، زميلة كريستيان عندما كانت في الحجز من كبت خوفها٠٠٠ وأخذت أضحك: فهي الوحيدة التي اعتقلت بعد عملية التمشيط الواسعة !

يا لعجائب الأمور ٠٠٠كل هذه الجلبة والحديث عن الوسائل المتقدمة والمتطورة التي توضع رهن تصرف البوليس الفرنسي -ليتمخض الفيل فيلد فأرا٠٠٠ ماري كلود ! مع الإعتذار٠٠٠-

كان هنري محقا عندما قال "*يكفي فقط حد أدنى من الاحتياطات*" .

وكنت صادقة تماما عندما قلت لماري كلود -التي كانت تبكي مشمئزة من قذارة الزنزانة التابعة لمكاتب الشرطة -كانت سويسرية- الأمر في الواقع لا يستحق كل هذا٠٠٠ فما هو الضرر الكبير الذي سنقاسي منه لو نمنا تحت غطاء من الصوف ترعى فيه حشرات القمل٠٠٠؟!! وما الخطب إن وضعنا رؤوسنا على مخدة يملؤها البق المهروس٠٠٠؟!! وما الذي سيحدث لنا إذا استنشقنا رائحة المجاري العفنة المنطلقة

صاعدة من فتحة المرحاض حتى تصل إلى سقف الزنزانة... ما هي الخطورة في ذلك ...؟!! طمأنتها أن غدا -لناظره قريب- وسوف نرتشف معا فنجان من القهوة بالحليب... و-بلا شك- سيكون ساخنا...!! وهي شابة تتميز بالهشاشة... انجذبت إلى هذا الميدان ولكنها لم تتوقع أن تكتشف عالم مليء بالخشونة، والعنف، والفظاظة، تفوح رائحته الكريهة... وعيونها مليئة بالدموع مستندة برأسها على كتفي... قبلت في النهاية ماري كلود أن تترك نفسها تغط في النوم. وشعرت بمزيد من الخفة، وحركت ذراعي فوق رأسي -كما لو كانا جناحي طائر يرتفع بي من على الأرض-.

لا مكان للراحة...

بعد مغادرتي الحجز "التخشيبة"، نقلنا إلى سجن لا بتيت روكيت ....لم تكن المعيشة بين جماعة من الناس تضايقني ... بشرط حصولي على حجرة خاصة بي ... !! وكانت في انتظاري لدى وصولي إلى السجن ...!!! كما حصلت أيضا داخله على ظروف معيشية قد تصيبني بعقدة ذنب...

قال أخي عندما وصله خطابي... *"عندما علمت ما تمتعين به من ظروف معيشية في السجن ...تصورت أنك تقيمين في فندق بلازا - أثينيه -"* وهو من أرقى الفنادق الباريسية التي نزلت فيها أحيانا عندما- دعتني أختي-.

لأكن صريحة ...

لم أتصور أبدا أن يكون لي حجرة بأكملها بمفردي ...! وضعت غطاء من مادة البلاستيك ذات لون أحمر فاقع -تسهيلا للتنظيف- فوق الطاولة . ولم أصدق إني أقرأ، وأكتب، وأستمع إلى الأخبار- كان عندي راديو ترانسيستور-، وأدخن، وأشتري حاجاتي من (الكانتين) المقصف، بل أتمتع بأطباق المأكولات الصغيرة الطيبة المذاق - مثلا - البيض المقلي في زيت الزيتون الذي أعدته فيرا، أو لبن الزبادي -صنعناه... بترك الزجاجة عدة أيام على حافة النافذة- وهو لا يخرج عن كونه لبن رايب- أو مربة البرتقال الموضوعة في كأس تقدمه إلينا جاكي كفاتح للشهية. بل تطل نافذتي على فناء السجن ...! وهي مفتوحة دائما حتى في المساء ... وفي شهر ديسمبر، ويناير، وفبراير ... دون أن أشعر بالبرد بفضل حركات اليوجا التي كنت أمارسها صباحا ومساءا ...

نتعود بسرعة على حياة السجن ... كالمستشفى ... مع وجود ميزة واحدة وهي عدم إصابتنا بأي مرض... ووجودنا بين رفاق.

لكن يجب تفادى الثرثرة: فأنها تثير ذكريات ...لا داعي لها ...وتترك شعورا بالاكتئاب لعدم استخدام كل هذه الأيام في شيء مفيد في الخارج...!! فقط القراءة، والتثقف، والرياضة البدنية المقوية للجسم...!! بسرعة تقيمون حاجز مع الخارج. أنها مسألة تتعلق بالكفاح للبقاء على قيد الحياة.

واتفقنا على تلقي الزيارات عندما لا تكون زيارات صداقة ...!! حدثت بالتأكيد توترات -لم تكن المساعدة المقدمة إلى جبهة التحرير الوطني الجزائرية حكرا على تيار دون آخر ... ولا كان الجزائريون يتساهلون في وطنيتهم ... فقد كانوا ذوي حساسية شديدة-.

ولعبت ميشلين وهيلين دور الحكم في عنبرنا عندما -تثور الخلافات وتصطدم الفرنسيات- وكنت أحكم بين الفرنسيات الماركسيات، والوطنيات الجزائريات عندما يختلفن .. وكان ذلك استثناء.

أرسل لي هنري - بواسطة ميشيل بوفيلار ... محاميتنا - أخبارا عما يحدث...

لم يكن لاعتقالنا أي تداعيات ...واستمر النشاط خارج السجن.

هل أنا في حلم ؟ ...

الجميع يتذكر ... وجه مبلل بماء المطر، وشعور جارف بالحب ... ومناضلين ينشدون النشيد الأممي وهم في حفل يحيون فيه المغني الأعجوبة بول روبنسون .. وهم في نشوة -في أحد أيام الأحد من شهر سبتمبر- في حدائق فانسان في باريس، في الحفل الشعبي الذي تقيمه جريدة ليومانيتيه -جريدة الحزب الشيوعي الفرنسي- ...

نحن الذين جئنا من مصر ... كنا مجبرين على إخفاء مجرد قراءتنا للكتب الماركسية !.

هل نحن في حلم ؟ ... نشعر بالسعادة عندما نستطيع الكتابة العادية بدون حبر سري، ونؤكد ...حتمية انتصار الشعب الجزائري ... ولن تفيد السجون ولن تغير من ذلك شيئا...

كان شريف طبيب -مسجونا لما يقرب من عقد من الزمن- يبعث لي بتوصيات محددة: أن آكل الزبدة... وأن أضيف القفز ضمن حركات الرياضة البدنية اليومية -من أجل تقوية القلب، والأهم من كل هذا المواظبة على الخروج إلى- حوش السجن- للرياضة اليومية.

من حقنا أن نخرج مرتين في اليوم -من زنزاناتنا- من ١٠ إلى ١١ صباحاً ومن الساعة ٣ إلى الساعة ٤ بعد الظهر-: -حوش في منتهى الصغر- ولكننا استخدمناه في تمارين الركض تتبعها حركات رياضية أثناء المشي، وحولناه إلى حلبة للجلسات الرياضية الحقيقة، أضفنا إلى ذلك كرة الفولي بول، وتمكنا من الحصول على كرة وشبكة، وكأطفال مصر ... اعددنا كرة " كره شراب" من الجوارب القديمة واستغنينا بذلك عن الشبكة-.

وكانت الرياضة البدنية الجماعية تمارس في الداخل، وفي نهاية الفترة الصباحية: حركة ديناميكية لتجنب ترسب طبقات الشحم ... وحركات يوجا لاكتساب المرونة ولراحة الذهن...

استمرت ميشلين وزينة في القيام بتدريبات اليوجا بصفة منتظمة ... كما مورست أيضا دروس خاصة للمحافظة على مرونة التفكير وتقوية الذاكرة!!!

درست لي كريستيان زيبير اللاتينية، وبدأت دراسة اللغة العربية في الصباح الباكر ... قبل الخروج إلى "الحوش" الفناء- وهي الساعات التي أشعر فيها بأكبر قدر من اللياقة البدنية ...!- أطلقوا علي في النهاية اسم "حماتي". ولم يكن هناك متسع من الوقت لعمل شيء آخر. ولا حتى طرح أسئلة بشأن القضية التي كان لها دوياً هائلا عشية إلقاء القبض علينا.

عندما ناقشنا فكرة الهروب من السجن حلت عبارة "الزنزانة" محل "الغرفة".! ومثل جميع الآخرين ... فكرت في الهروب أثناء المشوار الذي قطعته سيارة السجن للذهاب إلى دار القضاء ...وبطبيعة الحال فكرت في ذلك عندما كنا نسير في ممرات قصر العدالة -وهو المكان الذي ترددت عليه كثيرا عندما كان شريف مسجونا في باريس-.

كان علي أن أرفض هذه الفكرة تماما ؟! القيود الحديدية حول رسغي -الأصفاد ...؟! يصعب علي التوجه في الاتجاهات الصحيحة ...!!! وأستطيع أن أجزم أن مثل هذه المغامرة ستنتهي من حيث بدأت ...أي أمام مكتب القاضي من جديد...!!!

لم تسنح لي إلا فرصة واحدة للقيام بالرحلة من السجن إلى قصر العدالة والمثول أمام القاضي... وكان ذلك عقب ليلة الحجز ... لا نرى شيئاً من باريس ولكننا نسمع مجرد أصوات الشارع.

في قصر العدالة ... الذي نصله في الصباح الباكر لنمكث اليوم بأكمله في زنزانة ضيقة، تسمى "حجرة الفئران" -الدكه والجدران كلها مزينة بالقذارة ...تملؤها الكتابات والرسومات الخليعة... أمتثل أمام قاضي الأمور المستعجلة في فترة ما بعد الظهر - المثول أمامه لفترة وجيزة .. ولم يكن لدي كالمعتاد ما أقوله- بعدها نعود إلى السجن في حوالي الساعة السابعة أو الثامنة مساء. يوم طويل لا فائدة منه يعكس اللامبالاة ... بل الجانب السادي للمسئولين عن مؤسسة السجون ... اكتسبوا هذه الخشونة من البيروقراطية التي مارسوها على مر السنين. بل أصيبت الموظفات -الراهبات- السجانات... بنفس الداء

كيف نتعجب إذن مما آل إليه سلوك هذه المسجونة العصبية المختلة ذات السبعة عشر ربيعا، وهي من المجرمات الجنائيات الأحداث من مدينة فيرسن ؟ توجه الإهانات إلى الأخت الراهبة التي تجلس في ركن وتخيط بعض الأقمشة، وهي جالسة على الناحية الأخرى من القضبان الفاصلة للزنزانة ... صائحة بأعلى صوتها موجهة إليها كلمات بذيئة ... تعيرها بكونها على ما هي عليه ...!

بعد أن هدأت ثورتها وبصوت مهيب يخرج من حنجرتها ومن أعماق قلبها ... تذكرني بصوت ميمي ؟! مكررة ورائي الجملة تلو الأخرى- نشيد المبعدين عن وطنهم-

... والنشيد الأممي. سلوك عدواني تحول إلى نشيد للمقاومة والقتال ٠٠٠وافقت عليه الأخت الراهبة السجانة بإيماءة من رأسها ... ولمجرد لحظة من الزمن شعرت أنها أخذت مكانها الذي تستحقه ٠٠٠ عندما غنت ... واحتلت مكانا استأثرت به ٠٠٠وعن طريقها استأثرت به الشبيبة المعذبة في الأرض.

أما في سجن لابتيت روكيت ٠٠٠فلقد اختلف الوضع ولم يقتصر على مجرد تعرف بسيط على المكان. ناقش الزملاء من شبكة جانسون- وقد مضى عليهم ثمانية شهور في السجن- عدة مشاريع للهروب.

وحال وصولي إلى السجن سجلت في القائمة...!!

بعد مضي سنة بأكملها كان علي إنجاز أعمالا كثيرة !٠٠٠وكان هنري ما زال مسجونا.

غادرت بناتي أرجليس جازوت وسافرن مع والدهم إلى اليابان. وتبقى ثلاثة أعوام أخرى على الإفراج عن شريف.

استحوذت علي رغبة في القراءة، ودراسة اللاتينية، والاسترخاء٠٠٠ نحن لسنا آلات ... أليس كذلك ؟! ولكن هل يصح أن ترفض شيوعية عملا نضاليا ؟ على الأقل حصلت على وعد -من المحامي مراد أوصديق-٠٠٠ متى غادرت السجن بأني سأنضم إلى صفوف المقاومة في الجزائر.

لم أترك فرصة لظهور شيء يكشف عن ضيقي ...ففي المساء في زنزانتي، والراديو الترانسيستور مغلق، والأضواء مطفأة حتى لا يلاحظني أحد٠٠٠ بدأت في حفر، واقتلاع راقات رفيعة من الحديد من سريري، مستخدمة طرف مقص أظافر ... لكي أكتم غيظي ! "*يا إلهي ... لماذا أنا ؟*" .

تضمن مشروع الهروب من السجن جوانب متعددة. أولاً الجانب السياسي:

الهروب دل على ثقتنا في انتصار النضال من أجل تحرير الجزائر، ويثبت أنه عندما تكون القضية عادلة، فإنها توحد في نضال مشترك كل من الشيوعيين الفرنسيين والوطنيين الجزائريين، والمثقفين والعمال.

تناولت -من ناحية أخرى-عملية الهروب جميع السجينات اللاتي صدرت ضدهن أحكاما تتراوح بين خمسة إلى عشرة سنوات سجن -وهو ما كان ينتظرني أيضا من حيث المبدأ-

لم تضف إلى هذه القائمة السجينات اللاتي سيتم قريباً الإفراج عنهم -حتى لا نعرضهن لاحتمال تمديد مدة العقوبة في حالة الفشل ...-.

وللبعض ... وهذا ما قالته لي هيلين ... كنت أمثل في هذه المغامرة عنصرا مطمئنا...!

ضمت القائمة ثلاثة فرنسيات منهن اثنين من الشيوعيات ميشلين فوتـو، وهيلين كيونا والعنصر الثالث عاملة جاكلين كاريه، واثنتان من الجزائريات زينه حارج - أخت عمر المحكوم عليه غيابيا بالإعدام- وفطيمة حمود ٠٠٠طالبة٠٠٠ وشيوعية مصرية وهي .... أنا .

لم أعر اهتماما إلى كثير من التساؤلات ... لأني ركزت اهتمامي دائما على أنشطة لا تترك لي مجالا كبيرا لالتقاط الأنفاس ٠٠٠ ولكن اليوم -وقد يكون سبب ذلك ٠٠٠ الحركة النسوية التي أثارت انتباهي- أطرح على نفسي عدة أسئلة. لما لم تستغل جبهة التحرير الوطني الجزائرية هروبنا استغلالا سياسياً ؟!! فلقد سئلنا تفصيلا عن هذه التجربة -مع تسجيل دقائقها- في قاعدة نادور العسكرية في المغرب، وكان ذلك أثناء احتفالات العقد الدولي للمرأة[٦٧] .

ألم تكن هذه فرصة سانحة لإعداد تقرير وثائقي حول ما قمنا به من عمل؟!! وكان التليفزيون الجزائري يعرض أفلاما قصيرة، وطويلة تناولت المجاهدات. علما بأن جزائريات مناضلات قد شاركن أيضا في عملية الهروب؟

هل لأن المرأة الجزائرية لا ينتظر منها اتخاذ أي مبادرات، وأن نشاطها النضالي لا ينبغي أن يتجاوز عتبة تقديم المعونة للمجاهد ؟!وشد أزره ٠٠٠؟

هل لأن العنصر الشيوعي هو الذي كان غالبا بين المشاركات من غير الجزائريات؟!

هل كان السبب هو ارتباط الهاربات من السجن باتحاد الجزائريين في فرنسا ؟! .

فريقنا من المناضلات ... كان متفوقا ...

أعدت خريطة سجن لابتيت روكيت قبل وصولي، وبدقة ملفتة للنظر أوضحت لي ميشلين -وهي تحمل أعلى درجة أكاديمية AGREGEE وهيلين التي كان بإمكانها أن تكون عالمة في الرياضيات ٠٠٠- تاريخ هذا السجن الذي يعود بناؤه إلى القرن التاسع عشر ٠٠٠ أي بعد الثورة الفرنسية، ومع ذلك حافظ المهندس المعماري على طابع المباني المنتشرة في عصور محاكم التفتيش الكاثوليكية -وكانتا من المعاديات للتوجهات الكنسية المكثلكة- ...

تتوسط أركان المبنى٠٠٠ المصلى الموجودة في البرج الرئيسي ... وعدد ست عنابر -منها عنبر السجينات السياسيات المعتقلات بسبب مساعدتهن جبهة التحرير

---

٦٧ الذي بدأ في ١٩٧٥ بمؤتمر عقد في المكسيك.

الوطني الجزائرية- ... والفناءات داخلية يربط فيما بينها رواق ٠٠٠ممشى دائري، وخارجي٠٠٠ ويطل على شارع ميرلان. وانتشرت الأجواء الكنسية في مبنى السجن مدعومة بوجود موظفات للمراقبة-حارسات- من الأخوات الراهبات من دير -المسيح ٠٠٠ مريم ٠٠٠ يوسف-.

ويحق لهيلين أن تشعر ما يحيط مفهوم المحبة المسيحية من رياق ونفاق ٠٠٠فلقد عانت كثيرا مما سمعته من كلام وصدى -وكله يعود بها إلى أعماق طفولتها- بل يقشعر بدنها حتى من مجرد الأصوات والألوان ٠٠٠ وباختصار جو الكنائس والأديره٠٠٠

أما أنا٠٠٠ لم أضطر إلى التحرر من القبضة الكاثوليكية الرومانية، لذا كنت أشعر بالإعجاب نحو سجاناتنا من الراهبات -كما كنت أعجب بالممرضات الراهبات في المستشفى الفرنسي في القاهرة .. عندما كنت ألد بناتي-. بل وجود الراهبة الأم كان يبعث عندي شعورا بالراحة:

كانت أيرلندية ... تتحدث الفرنسية المهذبة بلكنة شعرية ... كبيرة الحجم٠٠٠ وجميلة ٠٠٠يميل لون عينيها إلى اللون الرمادي مصطبغا بلون العواصف، ... وهي في عنفوانها ... وتتميز عن غيرها بذكاء حاد ... أو هكذا تصورنا ٠٠٠!! لأننا كنا نجهل مواطن الضعف فيها.

وكانت تظهر لمرات قصيرة ونادرة ... وغير منتظمة أيضاً ... مما أجبرنا على اتخاذ الحيطة والحذر. وكانت الأخت هيرمانس المشرفة الوحيدة على عنبر السياسيات في السجن تدفعنا إلى الشعور بالعطف نحوها : كبيرة السن ... سمعها ثقيل ... يصيبها الهلع بسرعة لأقل علامة تنبؤ بإصابة إحدى السجينات بأزمة عصبية٠٠٠ مصابه بهوس النظافة٠٠٠ تنادي الجميع بـ -*يا٠٠٠ صغيرتي*- حتى حفيظة السمينة ذات الصوت الخشن ... بل حتى أنا ٠٠٠!!! وقد بدأ يعلو شعري الشيب

وتصيح بأعلى صوتها في السابعة صباحاً معلنة -وهي تهز حزمة المفاتيح التي تحملها - ...

"*هيا لتناول اللبن ؟ أو تقدموا إلى الدش ؟*" ... وفي كل مرة تستعمل مفتاحها الكبير لفتح أقفال زنزانتنا ... وفي فترة بعد الظهر والمساء ٠٠٠تعلن بأعلى صوتها - *الحساء ! هيا٠٠٠هيا٠٠٠ يا صغيراتي !*"- ولو أن حالتها مؤثرة إلا أنها لم تكن تبالي بي ... وأبادلها نفس الشعور ... في حقيقة الأمر لم تكن تبالي بنا جميعا: فلقد بلغت من العمر أرذله ٠٠٠ لا شك أنها لم تكن حياتها سهلة٠٠٠ ولا عجيبة ٠٠٠ولم تتخللها تقلبات عاصفة٠٠٠ ولم تكن مثمرة. ونراها وهي تقدم أقصى ما عندها من جهد لإقناع إحدى السجينات المتقاعسات بالانضمام إلى الآخرين في الدش أو إلى الجلوس حول المائدة ... تقوم بذلك لأنها قد روضت لكي تنجز واجباتها ... لا أن تهتم بمعاناة نفسية قد تصيب الآخر ٠٠٠!! لا شك أنها أقامت هذا الحاجز منذ زمن بعيد.

وكنت أواصل الكتابة إذا في هذا السياق وفي المكان الذي أوجد فيه وحسب إمكاناتي. أولاً ... لأقدم ما يمكن من شهادات أضعها تحت يد الكاتب الذي اهتم بإجراء تحرياته عن نضال وحياة هنري كوريل. وللمساهمة في إعداد دروس التدريب والتكوين التي طلب مني الاستمرار في تقديمها للمناضلين في حركات التحرير. وهذا هو سبب توخي الدقة في التفاصيل المعنية بإلقاء القبض علي، وهروبي من السجن في إطار تأييدنا كفاح جبهة التحرير الوطني الجزائرية. وبعد تجميع وتنسيق كل هذه الشهادات أصبحت المادة جاهزة ... وهي المادة التي ارتكز عليها الكتاب الذي صدر في ١٩٩٧. وعندما اقترح رئيس دار العالم الثالث وزميلي محمد الجندي نشر هذا الكتاب في مصر ووافق صديقي مراد خلاف على نقله إلى العربية، فضلت أن أقسمه إلى كتابين، وبدأت بالكتاب الأول الذي تضمن نشاطين سياسيين قد يكونا السبب الذي دفع إلى اغتيال هنري وهذا بعد أن تناولتهما الوسائط الإعلامية على نطاق واسع. ويسبق هذا السرد عدداً من التوضيحات ظهرت في المؤلف الأصلي تحت العنوان الفرعي "علامات على الطريق" ... وذلك لتسهيل فهم خط سيري ولإلقاء بعض الضوء على المشاكل العامة التي نوقشت في وقت صدور الكتاب بالفرنسية . واكثر هذه المشاكل خطورة، كانت مشكلة الحرب الأهلية في الجزائر، واغتيال إسحاق رابين على يد طالب من اليمين المتطرف الإسرائيلي.

لم تعرف مصر الاستعمار الكولونيالي بالمعنى الحرفي للعبارة... نعم عرفت الاحتلال العسكري والهيمنة الأجنبية. ومع ذلك احتفظت بلغتها وعاداتها وتقاليدها، ومارست جماعات مستقلة ذاتياً إدارة البلاد، وورثت أساليبها من العصر العثماني، واشتركت جامعات ونخب كثيرة في هذا المجهود. أما في الجزائر فلقد انقلب كل شئ رأسا على عقب... مستعمرة كولونيالية استيطانية يمارس فيها أبشع أنواع الاستغلال ... ويتغير المجتمع وتتغير الثقافة... وبعد كل تمرد تصادر أراضي جديدة، مما دفع السكان الريفيين باستمرار إلى النزوح. ومنع تعليم اللغة العربية في المدارس العامة، ومن استطاع إلى ذلك سبيلا ...لم يتجاوز مستواه مستوى المرحلة الثانوية، ووجد بطبيعة الحال عدد صغير من الجامعيين من الجيل الجديد يعرب عن نفسه بالفرنسية ويكتب بها. وقامت جماعة العلماء –أي النخبة المحدودة العدد ذات الثقافة العربية التي لم تناد بالاستقلال– بنقل تاريخ عربي إسلامي يرتبط بالأسطورة أكثر منه بالحقائق التاريخية. وحددت هوية الجزائري دينيا، ويحددون هم انتمائهم دينيا ... وعندما استعاد الجزائري هويته وأرضه اختار لذلك عبارات عقائدية وسمى مقاتليه مثلا (مجاهدين). واستعاد الجزائري كرامته عندما تحرر من براثن السلطة الأجنبية المهيمنة التي مجدت الماضي المسيحي اللاتيني، وازدرت ما أضافه التراث الثقافي العربي الإسلامي.

وكانت نجمة شمال أفريقيا، وهو حزب أسسه في ١٩٢٦ مسالي حاج، قد ضرب جذوره بين جموع العمال المهاجرين في فرنسا... وهو أصل الحركة الوطنية الشعوبية الجزائرية، ودعمه في بادئ الأمر الحزب الشيوعي الفرنسي. ولكن قرار الحظر الذي

ويبدو أن واحدة فقط هي التي نجحت في النفاذ إلى روح هذه الجثة الضخمة... لكي تغرف منها شيئاً من الدفء الإنساني: وهي كريستيان زوبير ...شابة حسنة التربية -من أسرة بروتستانتية ...على ما أعتقد- رقيقة ...على وشك الإفراج عنها بطريق رسمي... اشتركت رغم ذلك بالكامل في إعداد عملية الهروب. وكانت بالفعل حبوبه.

وكنا نتنزه كأننا في بيوتنا في قطاع معين من السجن... بينما نضع اللمسات الأخيرة لمشروعنا، واستمر ذلك كل يوم الخميس في فترة ما بعد الظهر من كل شهر.

كنا نرفض -من حيث المبدأ ...هكذا نقول- حضور حفلات الأفلام السينمائية التي تنظم للسجينات، وحصلنا على المفتاح الذي يفتح الأبواب الفاصلة بين العنابر، وهو مفتاح واحد ضخم الحجم... اشتد سواده من كثرة استخدامه لحبس المعذبين في الأرض لأكثر من قرن من الزمن

ها ...هو يتحول بمعجزة إلى مفتاح يفتح أبواب مملكة السماوات...

وعندما استكملت تفاصيل العملية ...أصبحت الخطوات العملية خطوات سهلة ... هذا المفتاح من المفاتيح التي تحملها الأخت الراهبة هيرمانس ...تأخرنا ميشلين وجاكي وأنا في قاعة الطعام ... أعددنا عجينه من لباب الخبز ... وعندما تضع الراهبة حزمة المفاتيح على الطاولة، وتتركها لغرض ما -درسنا حركاتها وعاداتها المتكررة الصغيرة- ... تنتاب فيرا حالة عصبية في زنزانتها ...! وتنادي كريستين الراهبة هيرمانس لتساعدها، وتصطحبها وتقف في الممشى الخارجي المؤدي إلى قاعة الطعام، وتقف هيلين لتسد الطريق. وكان هذا كافياً تماما لوضع المفتاح على لباب الخبز وطبع نسخة منه. بعد ذلك تترك المهمة لبراعة ومهارة جاكي ... وكانت قد نجحت أن تمرر من الردهة التي تفصل بين عنابرنا، والتي نتقابل فيها مع زوارنا ... حزمة مفاتيح من مختلف الأشكال والأحجام، ومنشارين معدنيين صغيرين، وكماشة، ومبرد، وخيط من مادة النايلون ... باختصار ما هو ضروري من أدوات تحتاجها حرفية مثلها.

يجب الإسراع في العمل -لب الخبز يجف بسرعة ولا يصلح بعد ذلك- .. و ها هو المفتاح --الذي قامت ببرده جاكي من حزمة المفاتيح- ينجح ومن أول تجربة.

حصلت جاكي على شهادة تأهيل مهني في الكهرباء ... يبلغ طولها متر ونصف ... رفيعة القوام رشيقة ...متواضعة ولكنها متأكدة من نفسها... أقلقتها بعض الشيء تلك المسافة الفاصلة بين وسط المثقفين الذي تتردد عليه - جندها جاك فين - ووسطها العمالي، باريسية المزاج والعادات، دوما واقعة في الحب -...!!! - ذات مرونة تثير الإعجاب، مكافحة ضد حالات الحصر النفسي التي تعاني منها، وعلى أهبة الاستعداد لإلقاء نفسها في النار من أجل الآخر، ومصممة على المضي إلى الأمام... راضية عن اختياراتها النضالية التي تضفي على حياتها معنى ... - بعد انتهاء حرب الجزائر، صارت ماوية وذهبت إلى الصين، ثم أصبحت شيوعية فقط !!

وقبل وفاتها بسرطان الرحم... وقد تابعت تقدم المرض وهي واعية ... علمت بمرضها عندما سألت عن أحوال المناضلات القدامى من سجن لابتيت روكيت وتمكنت من مقابلتها مرة أخرى مع هيلين وفيرا وتحدثت إلينا قليلا قبل أن تنتهي حياتها في مستشفى في حي آليزيا وعندما قلت لها -لأنها كانت تحب التأنق ...-وكانت هذه حقيقة بالفعل -أنها لم تتغير، وأنها على ما كانت عليه، وافتها المنية وهي راضية ...وطلبت في وصيتها أن تدفن في إحدى القبور الجماعية للفقراء... كواحدة من بنات الشعب الفرنسي .

ولن يفهم إلا من كان سجينا سبب الشعور بالخفة والنشاط الذي كان ينتابنا عندما نتجول في الطابق العلوي، ولا يتجاوز عددنا اثنين في كل مرة للتعرف على المبنى بشكل دقيق. وحتى هذه اللحظة كان مدى الرؤية محدود، بل تطلب الأمر في بعض الأحيان أن نقف على أطراف أصابع القدم، لكي نتمكن من رؤية الطوابق العلوية للشقق الموجودة في المباني المواجهة الواقعة على امتداد شارع ميرلان، أمام الردهة الأفقية في عنبرنا، تقطعها في منتصفها ردهة عمودية ...الممشى المعلق ببرج متوسط ... كان مصدر تخيلات كثيرة عندما نراه -من على بعد ... والذي علينا أن نمر من فوقه في يوم ما ...

وشاهدنا مسرح للعرائس الصينية الذي جلبته بعض السجينات العابرات من الجزائر- جاكلين جيروج أو جميلة بو باشا... لا أتذكر جيدا-. وأصبح -منذ ذلك الحين -كل شيء مرتبا في أذهاننا وفي صلة وثيقة بتفاصيل شارع ميرلان المواجه.

وعندما ننظر من بعيد داخل الردهة العمودية، تبدأ سلسلة الزنزانات من اليسار بقاعة الطعام وتنتهي بزنزانة هيلين رقم (٧٧)، وعلى الجانب الأيمن تبدأ بزنزانة كريستين وتتبعها زنزانتي، وبعدها زنزانة فيرا ثم جاكلين (٨٦)، وفي النهاية غرفة المكتب وهي زنزانة أيضا... تجلس فيها الراهبة هيرمانس... ولا توجد فيها إلا نادراً. أما الردهة الأفقية التي تمتد على الجانب الأيمن ...بها زنزانات سيسيل ديكوجيس وماريت وحفيظة، وتنتهي بالباب الموصل إلى الدرجات التي نصعد بها للوصول إلى حمامات "الدش"، وعلى الجانب الأيسر مشيلين رقم (٧٦) وباقي الزنزانات الأخرى ... وأعدت قاعة بها أنابيب وحنفيات للمياه الباردة، كنا نغتسل فيها في الأيام التي لا نتناول فيها حمام دش، وفيها نغسل الأطباق، وغيرها بعد الانتهاء من تناول الوجبات، وهناك عنصر هام وهو ... المرحاض الذي يستعمل أثناء -النهار فقط - يخصص لكل زنزانة جردل صحي... لاستخدامه أثناء الليل- وبه أول ثقب في الجدار الدائري للبرج الواقع على زاوية مع الجدار الذي يفصل عنبرنا ... والذي كان بالنسبة لنا يمثل نهايته.

كان مصرحا لنا السير في العنبر من الساعة السابعة صباحا حتى السابعة مساء. ومن عاداتنا التجمع في مجموعات متفاهمة بالقرب من المدفأة الضخمة المصنوعة من الزهر التي توقد بالفحم وتلتصق بالجدار، وهو مواجه للزنزانات الواقعة على الردهة العمودية على اليسار، وكان يستخدم قبل حلول الشتاء البارد كمخبأ لأدوات جاكي ...

ساورنا الأمل بعد نجاحنا في فتح جميع الأبواب الحديدية التي كانت تفصل بين العنابر أن نعثر على طريق -طبيعي-٠٠٠ للخروج٠

وخططنا لهروب جميع السجينات السياسيات تقريبا، البالغ عددهن في ذلك الوقت خمسة عشر سجينة. وعهد إلى كل من هيلين، وأنا بعمليات استكشاف الأماكن الواقعة تحت الدرجات في ساعة تناولنا "الدش" وبينما ننتظر دورنا. وفي هذا المكان وجدنا بابا٠٠٠ لم تجدي نفعا معه مفاتيحنا الأعجوبة: تطلب الأمر طبع نسخة أي طبعة من القفل باستخدام عجين الشمع للمحافظة على التفاصيل ... عملية صعبة تحمل مخاطر كثيرة ... أوصلتنا إلى طريق مسدود٠٠٠ نوع من المخازن ذات السقف المفتوح ... دون صلة بالخارج! وارتضينا رغما عنا بالطريق الأكثر صعوبة ومعاناة : نشر القضبان٠٠٠ صنع سلم للنزول والصعود، ثم التدريب على الانزلاق عبر قضبان عمودية لهيكل سرير قديم،

بعد أن تخلصنا من نشر الجهة العمودية للقضبان الصغيرة التي كانت تتقاطع مع الكبيرة. أي إجراء التمارين العملية على كل ما يتصل بعملية هروب حقيقية ! وكنا نفكر بالطبع في مزراب مياه الأمطار الذي يوجد بزاوية الفناء المخصص لنا ... والذي يوصل من أعلى بسطح مائل نحو الفناء، والشارع. ولكنه كان أملس لدرجة لن نتمكن قط من تسلقه٠٠٠!!

وفي الوقت نفسه تدور عجلات المصنع ...! كان علينا أولا أن نجد وسيلة لتشغيل آلية فتح أبواب الزنزانات من الخارج والداخل وكانت كلها ملساء ٠ وقد استخدمنا أداة - خطاف - صنعته جاكي بجزء من ملعقة: وتميز بسهولة إمساكه باليد، والتعامل مع الجزء المتحرك من القفل -المزلاج -أي لسان القفل٠ ومن مساوئه ٠٠٠؟ سرعان ما يتغير شكل الخطاف بسبب كثرة الاستخدام٠٠٠ كان علينا أن نفتح مجموعة من الزنزانات في اليوم المشهود٠٠٠ نجحنا في سد وجه النقص هذا - بفضل عبقرية هيلين - وذلك بتصنيع سلسلة من الخطافات الفاتحة من سلك من الحديد أخذناه من شماعة ملابس إضافة إلى مشابك الشعر، ولفافات الشعر ... كل هذا أنهى قلقنا من حدوث ما لا يحمد عقباه ... وتعطل هذه الأدوات ! ... يمكن عمل أي شيء باستعمال سلك حديد وبعض الصبر. تعالوا ٠٠٠ نشاهد فيلم أخرجه إبراهيم تزاكي -بعنوان أطفال الريح- حيث يقوم الرجال الصغار بتصنيع أدوات لقطع العشب تدور على نفسها مصنوعة من سلك حديد مأخوذ من السياجات المحيطة بالغيطان. ولكن السؤال هو كيف نفتح من الداخل قفلاً يوجد جسمه على جهة الخارج ؟! فلن نطلب بأي شكل من الأشكال أن تساعدنا الراهبة هيرمانس على فتح أول إغلاق الأقفال !!! جرت مناقشات طويلة، ونفذت محاولات عديدة كان مآلها جميعا الفشل .

بعدها ظهر الحل ... ميشلين ! الطويلة الممشوقة القوام بذراعيها الطويلتين٠٠٠ بارعة ومرنة -وكنت آمل أن تساعدني رياضة اليوجا أيضاً ... ومن خلال فتحة باب الزنزانة -التي نشرت شبكتها الحديدية الفاصلة بعناية ولكن بطريقة تسمح بإعادة وضعها

في مكانها مرة أخرى- وبذراعها الأيسر استطاعت أن تصل من ناحية اليمين إلى القفل من الخارج٠٠٠ وشغلت لسان القفل بواسطة المخطاف٠٠٠ بعدها رفعت ضبة القفل وبذلك انزلق العمود الذي يحول دون فتح الباب ناحية اليسار ٠٠٠براعة عجيبة ! كررت ونجحت التجربة في كل مرة ولعدة مرات. وشعرنا بالثقة، أعدنا وضع الشبكة الحديدية في مكانها بعناية ٠٠٠وأزلنا جميع آثار النشر بواسطة فرشاة للألوان المائية. بدأنا بالفعل في التحكم والسيطرة التامة على ما يحيط بنا ... !

إن تصنيع سلم سيستخدم في الهبوط إلى الفناء الداخلي-مع ضرورة إيجاد وسيلة لإخفائه داخل السجن- ثم تسلق سور السجن الذي يفصله عن الشارع- أمر صعب للغاية-.

بدأنا في صنع أول أجزاء السلم من قطع من الخشب قابلة للطي ومن قضبان منزوعة من قطع الأثاث الخشبي الموجودة في زنزاناتنا- ومأخوذة أيضا من قاعة الطعام: من الطاولات والمقاعد ومن القضبان التي تشد أجزاؤها، وننتزع صفائح الحديد من الإطار الحديدي للأسرة -الملة- ثم نقوم بثقبها لتمرير المسامير ... وكل ذلك يتم باستخدام مقصات الأظافر ... الأداة الوحيدة المتوفرة لدينا وبصبر لا نهاية له٠٠٠ ولكن أثمرت الجهود في النهاية. ومع ذلك اضطررنا إلى هجر هذا المشروع: ففراغ قاعة الطعام من المواد اللازمة لتصنيع الأدوات -كلما تقدم العمل- ومع ارتفاع الجدار للإطلال على الخارج كان لا يزال يمثل مشكلة -مما يمثل مشكلة، لأن استكمال السلم يحتاج إلى قضبان أفقية ومستعرضة كثيرة حتى يصل ارتفاعه إلى قمة ارتفاع الجدار الذي بلغ سبعة أمتار ! وحتى إذا نجحنا في تقسيم السلم إلى عناصره الأولية وتجميعه في كومة واحدة فأين نخفي هذا السلم الخشبي؟ كيف يمكن التحرك بهذه الأداة المعرقلة عندما ننفذ العملية النهائية؟؟!! وكم هو الزمن اللازم لكي يعاد تركيب السلم وعناصره متى وصلنا إلى الفناء؟

ليس غريبا أن أكون أكثر الناس معارضة للمشروع٠٠٠ يسهل تصنيع سلم من الحبال، ولكن يستدعي الأمر العثور على طريقة لتسلق الجدار٠٠٠؟!! ميشلين كانت على اتصال بالخارج ... طمأنتنا: متى وصلنا إلى الفناء، نعلن وجودنا بإلقاء قطعة نقود إلى الناحية الأخرى من سور السجن ويلقي الموجودون في الخارج حبل قوي به عقد من النوع الذي يستخدم في تسلق الجبال، ويربط في آخره ثقل مثبت يسحبه إلى أسفل٠٠٠ ومن ميزات هذا الحبل أنه يثبت في الفجوة الموجودة على الناحية الأخرى الخارجية من الجدار-

ويوجد في أعلى سور السجن خليط -ميول سادية لا شك!! أصيب بها من قام بتصميم ذلك- من الزلط والزجاجات المكسورة وقطع الزجاج هدفها وضع العقبات أمام من يود المرور عن هذا الطريق.

سلم الحرية٠٠٠

مجموعة من الأقمشة، وعصي من الخشب تم صقلها، وأسلاك حديد، وكثير من -جوارب النايلون المقوى- وكل هذا ينبغي أن يتحمل وزن ٦٠ كيلوجرام ... باختصار خليط من كل شيء إلا الحبال كما نعرفها...!!!

نجحت ميشلين ببراعة في إعداد السلم بخيوط معقودة كلها مربوطة بخيط من النايلون، تم تجميعها وتمررها عبر الردهة بواسطة جاكي إضافة إلى كمية من المناشير الصغيرة.

وأصبح من الضروري العثور بسرعة على مكان لإخفاء كل هذه الأشياء اتقاء لحملات التفتيش الغير منتظرة وفي فترات الاستيقاظ الصباحية. وحتى هنا لم يتعلق الأمر إلا ببعض الأشياء عديمة الأهمية -من حيث منظرها- يكفي لإخفائها رفع بعض البلاطات ووضع هذه الأشياء تحتها ثم إعادة البلاطات إلى مكانها.

لذلك ، ونتيجة سرعة تطور العمل وما جمعناه من عناصر ،أصبح الخطر... أن يتحول عنبرنا إلى مخزن كبير... ولكن يختلف الأمر في حالة سلم يتكون من مجرد حبال !

يجري التفتيش بعناية بالغة على جميع الزنزانات: اخترنا زنزانة فارغة قريبة من مكتب الراهبة هيرمانس فتحناه دون عناء باستخدام -الخطاف العجيب !- ولو أخضعت هذه الزنزانة إلى التفتيش... فلن يترتب عليه ظهور أي أثر- لأن الزنزانة فارغة... فضلا عن احتمال أن تفلت من عملية تفتيش عامة... لأنها فارغة...، وأخيراً لأنها تقع بالقرب من مكتب الأخت الراهبة مما قد يمثل عاملا يصرف النظر عن إمكان شغله بسجينة جديدة ...

كانت هيلين أكثر قوة مما تبدو عليه حقيقة... انتزعت البلاطات التي تخفي حفوة -لا شك استخدمت من قبل...!! واستخدمناها مرة أخرى كمخبأ. ولكن تطلب الأمر الحفر تدريجيا إلى عمق أكبر بسبب حجم السلم ...؟!! بينما كنا نكتم ضحكاتنا ... ونتساءل هل سينهار سقف الزنزانة التي توجد أسفل هذه الحفرة ؟!!!

اتخذ المشروع شكلا محدداً، ونظمنا كل الأمور في العنبر. وحتى هذه اللحظة لم نتدخل في المسائل والأعمال اليومية، وتحت نظرات الراهبة هيرمانس اليقظة تغسل إحدى السجينات الجنائيات الردهات، والقاعات الجماعية، وتنظف المدفأة.

تدخلنا حتى نغير من العادات: كانت زنزانة جاكي تفتح في الصباح -قبل الزنزانات الأخرى- حتى توقد المدفأة، ثم نتولى -في شكل مجموعات من اثنين- مسئولية نظافة العنبر.

أشادت الأخت الراهبة هيرمانس بسلوكنا... وسارت الأمور على ما يرام: ولم تعد هناك مشكلة في الاتصال بالعنابر الأخرى، ولم تعد تتولى خدمتنا سجينات جنائيات ...؟!! وعلى أية حال كان هذا أمرا مستهجنا من السجينات السياسيات .

و أسفاه ...على الجهل بظروف الاحتجاز داخل سجن للإصلاح والتهذيب ...وعدم قيام مصلحة السجون بالتفتيش... وعندما نسمع في الليل صرخات هستيرية ... دون أن يثير ذلك اهتمام بعض المثقفين الفرنسيين ...الذين يفضلون بدلا من ذلك شجب نظام السجون في البلدان الشرقية...!!!.

السيطرة فعلاً ... على كل شئ يدور في عنبرنا، والمحافظة على درجة من اليقظة وضمان المراقبة المستمرة... بسبب زيارات الراهبة الأم غير المتوقعة...!!...كانت ترى وتسمع جيداً، وكادت تفاجئنا، عندما كنا ميشلين، وهيلين، وأنا منهمكات في دراسة خريطة السجن ! وتحوطنا كذلك من زيارات -مدير (مأمور)السجن- ترافقه الأخت الراهبة هيرمانس ... مثل اليوم الذي فاجأنا فيه أنا وهيلين في قاعة الطعام منكبين على لعبة الشطرنج... ووجوهنا قد اعتلاها الحمرة بعد المجهود الذي بذلناه لانتزاع قضبان الحديد... فاجأنا المأمور ... وبسرعة جلسنا أمام طاولة الشطرنج المعدة مسبقاً نحاول أن نتذكر ماذا كانت النقلة التالية ... وهو يمدحنا على هذه التسلية الذكية وحسن استخدامنا لأوقات الفراغ ! ولم نتوقف عن الضحك في نهاية اليوم حتى عندما أصبحنا لوحدنا داخل زنزاناتنا... واستمر ضحكنا الذي كان يساعدنا في التغلب على ما نشعر به من قلق. لم يكتشف شيء ... رغم التفتيش... فلم يتطلب الأمر إلا أن ننظم أنفسنا.

كومة من الخطافات لفتح الزنزانات... سلم من الحبال طوله كاف للوصول إلى الفناء طوله ٥ أمتار- بل أطول من ذلك -إذا بدأنا من علو عنبرنا ... الدعم من خارج السجن مأمون لعبور الجدار(سور السجن)... لبس كامل رياضي مع السترات (بلوفر) ... كنا في فصل الشتاء ...عشرين فرنك فرنسي جديد لكل مجموعة مكونة من ثلاثة سجينات، ويحملن كذلك عنوان لمخبئ -لم تعرفه إلا ميشلين وهذا لدواعي الأمن-

اخترنا شهر رمضان لتنفيذ المرحلة النهائية للعملية.

تضاء الأنوار في العنبر ابتداء من منتصف الليل حتى الواحدة صباحا للسماح للصائمات بتناول وجبة السحور، وسجلنا موعد مرور الراهبة هيرمانس - كان عادة... بين الساعة الواحدة والخامسة صباحا- كما قلل الصيام عدد الزنزانات الواجب فتحها. وكان من الطبيعي أن تطلب زينه حراج وفاطمة حمود... وأنا!!!؟ -في تصور الفرنسيين... بما أني مناضلة مصرية إذا أنا عربية ولا يمكن أن أكون إلا مسلمة !- أن نتقدم بطلب للبقاء معا في نفس الزنزانة - ...!!!

نجتمع نحن الثلاثة لتناول الوجبة العائلية الأخيرة قبل الصيام-يعد الصيام مظهرا من مظاهر الشخصية والهوية الوطنية الجزائرية- ...وعلى أية حال كنت سأصوم تضامنا مع المناضلات الجزائريات السجينات.

خصصت لنا الزنزانة رقم (٧٤) الواقعة على الناحية اليسرى للممر الأفقي القريب من زنزانة ميشلين ومن المرحاض وانخفض عدد الزنزانات الواجب فتحها من ٦ إلى ٤ زنزانة . ولم يتبق أمامنا سوى الانتهاء من نشر القضبان.

نشر القضبان الحديدية التي يبلغ سمكها ثلاثة إلى أربعة سنتيمترات، باستعمال مناشير صغيرة من المعدن- ليست أمراً هيناً !- رغم أننا نمتلكك أربعة من هذه المناشير ،إلا أننا نعلم من واقع خبرتنا -جربنا ذلك في الهيكل المعدني لسرير هيلين ...- أن مجرد التخلص من أحد القضبان العمودية سوف ينجز العملية٠٠٠ وهذا عندما ننشر عند نقطتين متباعدتين على عمود واحد حديدي فإن المسافة الواقعة بينهما تكفي للانزلاق عبرهما إلى الخارج -ولكن بشيء قليل من العذاب-.

درست تفصيلا٠٠٠ الحركات المطلوبة: اليدين ممسكتان بالعمود الأفقي الذي يفصل بين القضبان العمودية، نمرر القدمين إلى الأمام، وبهدوء نستمر في الانزلاق عبر المساحة الفاصلة حتى نتمكن من الوقوف٠٠٠ ثم نستند إلى النتوء الذي يمثل حافة المبنى تحت النافذة، ونستمر بعد ذلك في الانزلاق ببقية أجزاء الجسم حتى الكتفين٠٠٠ ثم نمرر كتفاً بعد الآخر -كما يجري في حالة ولادة تحتاج إلى مساعدة خارجية- وبعد تسليك ذراع٠٠٠ بمسك بالحبل ٠٠٠نمرر الرأس٠٠٠ وندور حول نفسنا -لنسلك الذراع الثاني- . وعندئذ نكون على استعداد للهبوط٠٠٠

لا يوجد أسهل من ذلك ٠٠٠!!!؟ استخدام سلم من الحبال٠٠٠ ودون الشعور بالدوار بسبب الارتفاع ،لأننا لا نرى الأرض٠٠٠!!!؟ وكل ذلك شئ ٠٠٠ولكن من الضروري أن ننتهي من عملية النشر أولا ...وهذا شئ آخر!!!

صرت أفهم -من أول الخطوات العملية- الفرق بين المنشار ونصل المنشار٠٠٠! وبعد كثير من التردد، عقدنا العزم على أن نعود مرة أخرى إلى نافذة المرحاض٠٠٠ تبين لنا أن النوافذ أكثر سهولة عند محاولة نشرها ٠٠٠فضلا عن أنها تطل على الفناء الخارجي٠

كانت هذه النوافذ موجودة على طول الردهة الممتدة أفقيا في عنبرنا. وتقع هذه الردهة في مواجهة الطبقات العليا من المباني القائمة على شارع ميرلان، التي تسكنها أسر موظفي السجن٠٠٠ إذن يمكن اكتشاف ما نقوم به.

لم يعلم -من ناحية أخرى- إلا عدد قليل من السجينات بمشروعنا٠٠٠ كان علينا أن نتوقع عدد كبير من حالات التوقف عن العمل عند مرور بعضهن٠٠٠ علماً بأن عملية النشر بما في ذلك الهروب نفسها، يجب أن تتم في فسحة محددة من الوقت -يجرى فحص القضبان كل يوم ثلاثاء وجمعة-. وكان الوصول إلى نافذة المرحاض سهلا: وكانت فتحة المرحاض فتحة (تركية!) مرفوعة فوق سطح الأرض على عتبة. ويوجد مغلق شباك من الخشب مثبت في موضعه ... تصوروا قليلا، مصراعي الشباك -يفتح في اتجاه الداخل- وقضبان الحديد مركبة في شكل شبكة. ولحسن الحظ، -ولو لم يكن كذلك- لاضطررنا هجر المشروع- فلقد كان المصراعين الملعونين مصنوعين من شرائح خشبية رفيعة بينها فواصل وموجهة نحو الأرض٠٠٠

أصبحنا نرى الخارج... ومررنا أنصال أدواتنا للوصول إلى القضبان الحديدية التي علينا نشرها.

أجادت جاكي عملية مراقبة للفناء: استخدمت الطرف الأحمر للعصي الحديدية لتقليب الفحم المشتعل في المدفأة. وثقبت ثقباً على ارتفاع العينين في إحدى الشرائح الخشبية على ناحية اليسار حتى لا تضايق من يقوم بالنشر، ويشترك في عملية النشر فريق من اثنين. أضفنا مرآة عاكسة (للخلف): بين شريحتين، ووضعنا عمود في وضع رأسي يدعم عمود آخر في وضع أفقي وثبتنا عليه مرآة صغيرة نرى منها الحارس في مكانه في مدخل الفناء. أدخلنا تحسينات على النظام في اليوم الثاني ورفعنا راقه خشبية وثبتناها بمساعدة عصاتين -يكفي استخدام مشابك شعر-: وهكذا ندور الراقه الخشبية في كل اتجاه، وتقفل راجعة من تلقاء نفسها إلى وضعها الأول عندما نسحب اليد الممسكة بالمنشار، أي بمعنى ...عندما يظهر خطر، سواء من الفناء أو من العنبر.

بلغنا جميعا حالة من الهوس...!!! عندما شرعنا في نشر -من على بعد وبوضع الجسم مائلا- المسافة الفاصلة بين الرقائق الخشبية- التي تغير شكلها وأصبحت كالشبكة- بنصل عار -دون سند آخر سوى يدك اليسرى- ويثبت المنشار في موضع النشر بصعوبة ...وإذ نجده قد التوى.

وكثرت مرات التوقف: الأخت الراهبة هيرمانس تدخل العنبر، وهنا تشعر إحدى السجينات -التي لا تعلم شيئاً عن عملية النشر... أو من اللاتي يعلمن- بحاجة لإفراغ ما في جوفها وهذا شئ طبيعي... أو يقوم الحارس بدورية في الفناء، وتعود السجينات الجنائيات إلى زنزاناتهن بعد انتهاء العمل في ورشة السجن، ويسمعن الصرير المنتظم لحركة نصل المنشار وغيره: تستبدل الفرق المكلفة بالنشر من حين لآخر... بسبب الإرهاق، الجسدي والمعنوي لأن حركة المنشار إلى الأمام والخلف وبميل الجسم لا تعطي إلا نتائج ضعيفة.

وزدنا من عدد ساعات العمل: نظمت فيرا وميشلين مشاهد لمسرح العرائس ولتلهية ابنة هيلين عندما تزورها. كان مشهدا رائعا مأخوذا من مؤلفات الكاتب الفرنسي موليير، ورقصات جزائرية، وأغنيات، وموسيقى عالية لتغطية صوت النشر، وحقق نجاحاً كبيراً إلى درجة أن أحدا لم يفكر في الذهاب إلى المراحيض !!! ولكن لا يمكن الاستمرار هكذا إلى ما لا نهاية... ولا حتى جلسات الخياطة، وأعمال التريكو (النسيج المسرود) التي نظمتها فيرا في زنزانتها ما كانت تكفي لوحدها. ولم تسر عملية النشر التي بدأت بعد ظهر يوم الثلاثاء في أعقاب التفتيش الدوري على القضبان الحديدية سيراً حسناً؟!! فلم نكن قد انتهينا بعد -بحلول يوم الأربعاء في ساعة تناول الحساء- من عملية نشر النقطة الأولى على العمود المعدني. قامت ميشلين بعملية النشر في المساء... استمرت مدة ساعتين كاملتين، وراقبت هيلين الردهة التي يمكن أن تظهر منها الأخت الراهبة هيرمانس من موقعها داخل زنزانتها، بواسطة استخدام المرآة العاكسة. وعندما دقت الساعة الرابعة صباحاً كانت ميشلين قد أصابها الإعياء تماماً، وجلست داخل زنزانتها... ولم تكن قد بدأت بعد في نشر النقطة الثانية على العمود ...

الفصل الأخير... يشتعل بالنشاط...

تحققنا من درجة التمرين الجيدة التي وصلت إليها الذراع اليسرى لميشلين ومرونة أصابعها من خلال عملها الليلي. وتأكدنا من ساعة الدورية الأخيرة للحارس في الفناء - قليلا قبل الساعة السادسة صباحاً-. ولكننا لا نعلم شيئاً عن الدوريات التي تسير خارج سورالسجن... قررنا دون تفكير آخر أن ساعة الصفر ستكون يوم الخميس هذا، وهو بالضرورة آخر يوم -لأن يوم الجمعة هو يوم التفتيش على القضبان- وأن نعلم جميع السجينات في العنبر بمشروعنا.

كان شيئاً لا يمكن تصوره : لم تعن هذه العملية جميع السجينات ... وقد استرحن في زنزاناتهن، أو اجتمعن في مجموعات للقيام بخياطة التريكو... وبذلك سيطرنا تماما على المرحاض ...!!

ولم نتوقف إلا- لفترة قصيرة وضرورية-لتناول وجبة الإفطار. وتولت كريستيان - مساعدتها -عندما لم يأتي دوري بعد في النشر - برفع صوت راديو الترانسيستور إلى أعلى درجة... والقيام بأعمال التنظيف باستخدام سطل ماء... وتنظيف زجاج نوافذ الردهة أيضا... وأثنت عليها الراهبة هيرمانس -"*هذا جيد يا... صغيرتي !*" - كلما مرت على عنبرنا. وفي يوم الخميس المشهود، وبينما أراقب من خلال ثقب مغلق الشباك، شاهدت رجلين يدخلان ويخرجان من الفناء، وهما يحملان أشياء كثيرة متنوعة... ومنها سلم...!! قاموا بوضع كل هذه الأشياء في مستودع يقع على امتداد الرؤيا عندما أنظر من خلال الثقب إلى المكان الذي يبدأ منه الحارس دوريته وناحية شارع ميرلان. لم نفكر أبدا أننا سنحتاج إلى سلم... ثم أن هذا السلم كان قصيرا جداً بينما يبلغ ارتفاع السور سبعة أمتار، ورغم ذلك سجلت كل هذه التفاصيل بصورة تلقائية في رأسي .

انتهينا من العمل في نهاية فترة ما بعد الظهر: خيط أمسكنا به جزء من العمود على مستوى النقطة الثانية... استأنفنا النشر بعد آخر دورية تقوم بها الأخت الراهبة هيرمانس وكان مغلق الشباك جاهزاً لينقب للمرة الأخيرة: وأنهت جاكي باستخدام اليد الحديدية المستخدمة لتقليب الجمر -ذات الطرف المتوهج احمرارا -إذابة إطار النافذة. ونظمت حفيظة حفل وداع في زنزانتها، وسقطت دموع ميرا وكريستيان، وانتظرنا وقد نفذ صبرنا أو كاد... الدورية الأخيرة للأخت الراهبة بعدها تطفأ الأنوار في الساعة الواحدة والنصف صباحا... وقت كاف للاستعداد حتى الساعة الثانية والنصف: ملابس رياضية وأحذية خفيفة، بودرة من أجل إطفاء لمعان الشعر الأبيض... شكل مانيكان (دمية) صنعت من غطاء مخدة محشو تمدد على الأسرة تحت الغطاء، عدد اثنين أو ثلاثة مخاطيف مفاتيح متروكة على الطاولة لكي نعلم المحققين فيما بعد بأن موظفي السجن لم يساعدوا في فتح الزنزانات... واضطرت ميشلين أن تعيد قفل ثقب المراقبة لمرور دورية غير متوقعة. وصاحبت عملية نقب مغلق الشباك ضجة عالية كانت سببا في عذاب

استمر مائة سنة ...!أو هكذا تصورنا٠٠٠!! شعرت بـــه السـجينات المنتظـرات فـي الزنزانات -ودون شك السجينات اللاتي لن يهربن معنا: حجرة الأخت الراهبة هيرمـانس كانت تقع -إن أسعفتني الذاكرة- على الناحية الأخرى من الباب الذي يطل علـى منفـذ الدرج، وهذا طبيعي فلم تسمع شيئاً -ولا أدري إذا كانت ميشلين قد نجحت فـي إضافـة منوم إلى كأس الماء الذي تشرب منه الراهبة ٠٠٠؟ ولم يحدث شئ في الأماكن الأخـرى؟ انتظرنا بعد أن خرجنا من زنزاناتنا -قبل الساعة الثالثة صباحاً- مـرور أخـر دوريـة للحارس٠٠٠ نترك له وقتاً حتى يبتعد عن الفناء، ويعود إلى موقعه ليغط في النوم. و هـا ٠٠٠نحن على أتم استعداد للهبوط.

لم يكن هناك شيئاً سهلا٠٠٠ كل شيء صعب. ظهر دون أن نتوقع سلك كهربائي- ضغط عال- يمتد لصق الحائط خارج المبنى تحت العتبة التي سنقف عليها بعد خروجنـا من نافذة المرحاض ؟

هل نسينا ... ؟عندما سنبحث عن مكان نقف عليه على الحافة خـارج النـافذة قـد نصطدم بهذا السلك الكهربائي، بل قد يطلق جهاز إنذار٠٠٠ حاولنا بكل الطرق أن نعزله بغطاء ملفوف بواسطة حبل٠٠٠ ولكن، دون فائدة. قررت جاكي أن تمر الأولى من خلال النافذة في مكان هيلين. شخصية جاكي هكذا: تقلق بسهولة، ولكنها جسورة -عندما يتعلق الأمر بالآخر-. ولم يكن هذا وقت ولا مكان تصحيح شيء أو تعديله. وشوشات مكتومـة تصدر عنا ... وتنجح في المرور ...!!!

وتبين أنه سلك كهربائي عادي ... أصوات غير متوقعة: أسفل النافذة -من هـذا المكان لا نستطيع رؤية ما يحدث فيه من ثقب المراقبة- كومة من الحديد ملقاة في شـكل هرمي٠٠٠ سقطت جاكي فوقها وفقدت حذاء (باليه خفيف). ويجب في مثل هذه العمليات أن تكون الأحذية مرنة، وخفيفة وتثبت برباط . وكل السجينات اللاتـي يرتديـن أحذيـة راقصات باليه فقدن في وقت أو آخر واحدة أو اثنين من هذه الأحذية بينما لم يفقد شـيء من أحذية (التنس) لأنها مثبته جيداً على القدم حتى نهاية العملية. و- كل بدوره - عندمـا يصل إلى أسفل يمسك بلا صوت ٠٠٠-بسبب وجود كومة الحديـد٠٠٠ طـرف السـلم لتسهيل الهبوط السريع من عليها الدور.

بعد مناقشة قصيرة تركت مكاني لميشلين لتأتي في المؤخرة. وفـي ذلـك الوقـت سمعنا صوت خشخشة٠٠٠ ورنة قطعة النقود التي ألقيناها على الناحية الأخرى من جـدار السجن عندما ارتطمت بأرض شارع ميرلان.

سرنا بمحاذاة الجدار ٠٠٠ نكاد نلمسه ٠٠٠منحنيات الرأس لتفادي الكشـافات التـي تضيء المكان كالنهار، نسمع سقوط قطعة النقود من ناحيتنا ... معنـى هـذا أن الـذي سيساعدنا كان موجودا في الميعاد.

عندما وقع نظري على الحبل الذي ألقوه عبر الجدار ...عقد صغيرة ؟ كأنه خيـط رفيع (حبل غسيل) يستخدم في بلادي لتعليق الملابس الخفيفة المغسـولة لتجـف علـى

أصدرته حكومة ليون بلوم ١٩٣٦، بموافقة الحزب الشيوعي الفرنسي استبعد الأحزاب المتتابعة التي نظمها مسالي حاج[٢]. وقررت مجموعة صغيرة بدء الكفاح المسلح في أول نوفمبر ١٩٥٤.

سمعت من تحدث عن أحمد بن بيللا وكنت آنذاك في مصر أثناء أزمة السويس، ولم تظهر أسماء القادة الجزائريين الآخرين إلا بعد أن اختطفت فرنسا طائرة تقل محمد بو ضياف وحسين أية أحمد. وقد نشطت هذه المجموعة الصغيرة باسم جبهة التحرير الوطنية، وعندما اتسع نطاقها أصبحت هي الحركة المسيطرة والمهيمنة. ولم يتعلق الأمر حقيقة "بجبهة" وفقا للمعنى الحرفي للعبارة ...فلقد كانت العضوية فيها أيضا على أساس فردي. ورفض مسالي الانصياع، وقرر تأسيس حزب منافس، باسم الحركة الوطنية الجزائرية. واقترفت المذابح وأقتتل الاخوة. ثم اعترف بجبهة التحرير الوطنية على نطاق دولي بعدما خرجت منتصرة من الصراع الذي دار بينها وبين منافستها.

وضم مؤتمر سومام[٣] عقد في ٢٠ أغسطس ١٩٥٦ المجموعات المشتتة، وحدد ميادين القتال في كل منطقة. وسد الطريق أمام أعضاء قيادة الجبهة وأغلبهم ناطق بالفرنسية وذلك في معرض صعودهم الاجتماعي... وعندما وقفت لهم السلطة الكولونيالية بالمرصاد واستبعدتهم من مجال العمل السياسي. وتكونت القاعدة من روافد اجتماعية مختلفة أغلبها ريفي، بينما تشرذمت المجموعات القبائلية وقسمت إلى تقسيمات إدارية "دوار" وأدخل العمل بالملكيات الخاصة منذ صدور قانون١٨٦٣ (مجلس الشيوخ الاستشاري). وظلت الثقافة السياسية في الريف كما هي في المدينة متشبثة بالفكر الديني. وسعت الروح الوطنية الجزائرية بحثا عن وحدتها وكان ذلك في إطار الدين وفي نطاق إضفاء مثالية على العلاقات الاجتماعية التقليدية، ولكن وجدت مع ذلك إرادة لخلق عالم جديد. ولكن تقسيم البلاد إلى ولايات أدى إلى ظهور جزر متناثرة من المصالح الإقليمية أدى إلى نشوب صراع للاستحواذ على أجهزة حزب الجبهة.

وسارعت مجموعة الشيوعيين المصريين في المنفى في فرنسا إلى تأييد جبهة التحرير الوطني مع هنري كورييل مع الاسترشاد بالمبادئ اللينينية التي تدعو إلى ضرورة دعم نضال حركة تحرير مناهضة للكولونيالية وجواز ذلك انطلاقا من البلد الأم،

---

٢ أسماء مجموعة التسعة: مراد ديدوش(قتل في يناير١٩٥٥)، ومصطفى بن بولعيد(قتل في ماسرس١٩٥٦)، والعربي بين مهيدي(قتل في ماسرس١٩٥٧ أثناء معركة الجزائر الكبرى) ، وربا ح بيطاط (ألقي القبض عليه في مارس ١٩٥٥)، كما ألقي القبض على حسين أية أحمد ، وأحمد بن بيللا، ومحمود بو ضيف، ومحمد خيضر في طائرتهم التي اختطفت(اغتيل خيضر في مدريد في ١٩٦٧). وواصل كريم بلقاسم فقطك النضال والمقاومة في منطقة القبائل حتى عام ١٩٥٦ وأصبح عضوا مهما في حكومة الجمهورية الجزائرية المؤقتة، وعضوا في فريق التفاوض في ايفيان(اغتيل في دوسولدورف في ١٩٧٠)

٣ السومام أحد أودية الجزائر في المنطقة الجبلية الواقعة بين القبائل الكبرى والصغرى وينتهي في خليج بجايه

شرفات المنازل. وفي طرفه قطعة صابون كثقل٠٠٠!!! ألم يكن بوسعهم اختيار شيء أقل ثقلاً٠٠٠!!!؟ وماذا أيضا ؟ الحبل معلق فوق رؤوسنا ...لا نستطيع الإمساك به٠٠٠!! توقف في منتصف الطريق عند رميه قبل أن يصل إلى منتهاه. وبمساعدة جاكي - رفضت فكرة بناء شكل هرمي من سواعدنا للتسلق فوقها- ساندتنا ميشلين وفاطمه وهن الأكثر قوة من الناحية الجسدية، ووقفت أنا وزينه على أكتافهن، وهيلين التي كانت مارست رياضة تسلق الجبال٠٠٠ تسلقت فوق أكتافنا. وأمسكنا بقدميها لنثبتها ونساعدها على الوصول إلى قطعة الصابون المعلقة في الحبل. لم يكن ذلك ممكنا ... وهيلين لم تكن بوزن الريشة على أي حال ٠٠٠ صرخات للنزول من فوق هذا الهرم البشري٠٠٠ فلم نعد نحتمل الثقل٠٠٠ بنينا الهرم البشري مرة أخرى ... وحملت هيلين بيدها هذه المرة عصا٠٠٠ لمست بها قطعة الصابون، وجذبتها إلى أسفل مع الحبل٠٠٠ وأمسكت به وشدته٠٠٠ ينزلق الحبل إلى أسفل بعض الشيء ثم يتوقف عن الحركة ٠٠٠وتقف هيلين على أكتافنا البائسة ... ولا تستطيع القفز من عليها لتصل إلى أعلى الجدار، وتفك الحبل من موضع انحشاره بين قالبي الطوب. صحيح٠٠٠ لم يضيفوا أكثر من هذا لإعاقة تسلقنا هذا الجدار ... !!! وانبعجت طبقات الهرم البشري٠٠٠ فلم يعد يتحمل الثقل٠٠٠ أما من الناحية الأخرى من الجدار٠٠٠ لا شك أنهم سيستعيدون الحبل لرميه مرة أخرى ؟ وننتظر منحنيات الرؤوس ٠٠٠ صوت محرك٠٠٠ ثم انطلق المحرك بعيدا... سكون تام ٠٠٠!!! الحبل لا يتزحزح ... !!؟ لقد غادر من كان على الناحية الأخرى من السور٠٠٠(الملاعين !) .

هذه ليست قصة بوليسية . أنها أحداث معاشه. ولا تسعفني الذاكرة لأسرد أشياء أخرى كثيرة. وبقرون استشعار ... نفتش في تسجيلات طبقات المخ. أما ميشلين فتحاول تذكر تفاصيل خريطة السجن. وذهب بعضنا ليطوف بالفناء: إحذر ليس في اتجاه اليمين ... فلو سرنا في هذا الاتجاه لوصلنا إلى كشك الحراسة أمام باب الدخول. يسار في يسار ... بخطوة سريعة لأنه في الساعة الخامسة صباحا- كما نعلم- قد تمر دورية الحراسة الأولى٠٠٠ قاربت الساعة الرابعة صباحاً. ينبح كلب صغير مثير للسخرية. صه٠٠٠ ! عدنا مرة أخرى إلى من ينتظرنا أسفل الجدار٠٠٠ هذه المرة لم نسترسل في الضحك. شاهدنا الكشك ذو السقف المائل على شكل مثلث على يميننا ملاصقا للجدار الدائري. نظرنا إليه٠٠٠وقلنا إن استطعنا الوصول إلى السقف فسنعبر السور.

وعندئذ سألت جاكي ... هل تستطيعي أن تقفزي من هذا العلو ؟ ترد هيلين بشكل عدواني لن أتردد في ذلك. الدكه !٠٠٠ لاحظنا وجودها على الجانب الأيسر. نستطيع أن نستخدمها إذا ما أوقفناها بصورة عمودية: يبلغ طولها أكثر من مترين ويمكن استخدام القضبان المتشابكة كدرجات. وفجأة تذكرنا السلم ؟ وبينما أنقل مع هيلين الدكه ، ذكرت لها مرة أخرى ما شاهدته ٠٠٠ وجود سلم داخل المستودع٠٠٠ يكفي أن نجد طريقة لكسر (طبلة المفتاح) . وفجأة تسقط الدكه التي نجحنا في تثبيتها لتصعد عليها -على الأقل واحدة منا- إلى سطح الكشك محدثة ضجة عالية ! وكأننا أصبنا جميعا فجأة بالصمم،

وغابت كل واحدة في التفكير في شئ ما٠٠٠ لم يكن ذلك بسبب شعور بالفزع٠٠٠ ولكن بالأحرى وجود حالة من الفوضى٠٠٠!! فلم يعد للخطة وجود٠٠٠!!

بدأتها جاكي٠٠٠ صارت تكرر دون توقف أنها فقدت أحد أحذيتها (الباليه) لحظة هبوطها إلى الفناء. لم أحتاج إلى تركيز فكري في شيء بالذات ٠٠٠لأني كنت أنفذ في الواقع برنامج محدد أعره انتباهي، ونصحتها بالبحث عن هذا الحذاء ناحية كومة الحديد. وتوقفت عن الحديث عن "السلم" في المستودع لكي أشترك في بناء الهرم البشري.مع هيلين في أول الأمر. وفي النهاية لم يتبقى سواي عمود الوحيد الباقي من أعمدة الهرم البشري الذي كنا نقوم ببناءه عندما كنا أطفالا ... وبفضل هذا السلم البشري (القصير) مر الجميع من فوق السطح وانتقلوا إلى أعلى للجدار. إلا أنا٠٠٠ ما العمل ؟ لا فائدة من التفكير في الدكه. أمامي برميل فارغ ؟ يسهل تحريكه عندما ندحرجه٠٠٠ وحركته٠٠٠ وأصدر ضجة رهيبة : لا٠٠٠ لم يفد كونه أقصر مما يجب٠٠٠ جلست القرفصاء بعيدة عن الكشافات، أتابع زميلاتي يسرن على الحافة العليا للجدار كالقطط٠٠٠ أنوار كاشفة ثم ظلال كأنها مسرحية لهامليت ... أحبس أنفاسي. أصوات أقدام تقترب ... هل انتبه الحارس إلى الضجة ؟ ينبغي الركض نحو كومة الحديد، حيث يوجد سلم الحبال٠٠٠ لأجذب انتباهه بعيدا عن الجدار. ولكن ها هي زينه! التي كانت على قيد أنمله من النجاح وقلت لها بعد كل هذا المجهود٠٠٠ وتعودين من أجلي !!؟ ٠٠٠وكان ردها ٠٠٠لا لن أغادر دون ديدار. أصوات أخرى تقترب. ها٠٠٠ هي جاكي ! لا تستطيع أن تقفز عبر الحائط ... كما قالت هيلين. فضلا عن شعورها بالدوار من المرتفعات...

تخفي هيلين تحت مظهرها الهادئ، ومناقشاتها المنطقية، طبيعة مشبوبة بالعاطفة. كان من الواضح أنها على استعداد لعمل أي شيء٠٠٠ وصلت إلى نقطة اللاعودة٠٠٠ وقالت أنها سوف تقفز٠٠٠ وهي ذات شخصية دائما تتقدم للأمام، ٠٠٠ ولم أفكر في أن أعلم ميشلين بذلك٠٠٠ وهي تواصل تحليلاتها للإمكانيات. هل كان تفكيرها سليماً ؟ يفترض تدلى الحبل من الناحية الأخرى نحو الشارع. وأنا ؟ ألم أكن أعلم ما يجري على الناحية الأخرى من الخارج ؟ تنبع مني بعض مشاعر الأمومة لأنهن جميعاً أصغر مني سناً !!؟ هل هي رغبة فقط لكي أكون متميزة دائماً ؟ أنا لا أساوي شيئا عندما نتعرض لمسائل تتعلق بالتحليل النفسي٠٠٠!! وما أعلمه يقينا ٠٠٠ بدون زينة وجاكي كنت سأفشل في الهروب. حاولنا ونحن نجري نحو الحبل ٠٠٠دون نجاح أن نفهم هيلين وفاطمة -وقد وصلت ميشلين إلى الشارع- بأنه يجب أن نزحزح الحبل من مكانه الذي أنحصر فيه حتى نستطيع أن نتسلق الجدار. ولكن لم تفهم شيئا من هذا العلو و٠٠٠ ها هي النواقيس قد بدأت تدق٠٠٠ تنادي الراهبات للحضور إلى المصلى لممارسة الصلوات الصباحية، ولم يسعنا إلا أن نبدأ مرة أخرى عملية استخدام السلم البشري القصير ليصلنا إلى سطح الكشك ثم الانتقال إلى حافة السور وإنما هذه المرة مع الانتفاع بوزن جاكي الخفيف. وصعدت مع زينة على السطح وتعلقنا بيد وثبتنا قدمينا على قرميد السطح -يا إلهي ٠٠٠كان السطح يميل ميلا حادا جدا - هيلا ٠٠٠هوب ٠٠٠سحبنا إلى أعلى جاكي.

كانت العملية صعبة ولكن تميزت بالبراعة. وما كان بإمكان ميشلين أن تفعل أحسن من ذلك. أما الباقي: فالزحف على أربع على السطيحة المستوية للسور الدائري المغروس فيه شظايا الزجاج، هذا صحيح... قطع الزجاج المكسور، وسدادات الزجاجات، والزلط وقد تآكلت بعض الشيء مع مرور الزمن، وصارت العملية بالنسبة لنا كلعب الأطفال. وتقدمنا في زحفنا على امتداد ٢٠٠ أو ٣٠٠ متر تفصلنا عن مكان الحبل وبدون تسرع، بل استطعنا أن نتمتع بمشاهدة الشارع الذي بدأت تدب فيه الحياة كما لو كنا جالسين في مسرح روماني مفتوح. هب ...!!هب ...!! فجأة... حادثة أخيرة: الخاتم الذي كنت أضعه على إصبع الخنصر في يدي اليسرى ... هدية من والدتي ينحشر في السور... واستشطت غضبا ... ضربة قوية من قبضة يدي اليمنى -لا يزال أثره على الخاتم- خلعت به الخاتم من حيث كان محشورا . هوب...!! مرة واحدة في أقل من الثانية هبطنا إلى الشارع. لن أنسى أبداً ما شعرت به من خفة سرت في اوصالي عندما لمست قدماي الأرض -وعندما أكتب عن هذه اللحظة بعد انقضاء عشرين عاما من وقوعها أشعر برغبة في الوقوف والرقص فوق مقعدي، وأدور حول نفسي وأطير في الهواء- وكررت في نفس الوقت ...لا ينبغي أن أركض حتى لا أجذب إلينا أنظار من يوجد في الشارع... ولكن هيهات...!! ركضت كالأخريات بسرعة الريح .

كان هذا تصرفاً تميز بالحماقة ...! أن تتسلم واحدة منا فقط العنوان -أفلم يكن سلوكنا في مقر البوليس السري الفرنسي DST أو أثناء المحاكمة كافياً لبعث الثقة في حالة وقوع حادث؟!!. ينبغي أن يكون لكل مجموعة مكونة من اثنين عنوانا تحمله كل واحدة . كما كان ينبغي لكل منا أن يحمل مبلغاً يستطيع أن يدفع به أجرة التاكسي -لم نحصل إلا على ٢٠ فرنك فرنسي لكل مجموعة مكونة من ثلاثة أفراد...؟!!- لا ينبغي أن تكون قواعد الأمان قواعد -دوغماتية أو منزلة-: ينبغي تعديلها حسب الحالة. وهنا، يعتبر هروب ستة مناضلات مرة واحدة من الأمور غيرالعادية...!! ولن أعقب على الاستعدادات الخارجية لهروبنا، حتى لا أحرك السكين في الجرح... فمهما كان الأمر وافق هؤلاء الزملاء على القيام بالعملية. وباختصار، وأنا أرغي، وأزبد ضدهم، شكرت المصادفات الممتازة! وكنت من بين اللاتي حصلن على عشرين فرنك فرنسي... ولكن إلى أين نذهب ؟

محيت العناوين التي كنت أحتفظ بها في ذاكرتي قبل إلقاء القبض علي عند أول استجواب.

اشتهر الحي الثالث عشر في باريس بكثرة المناضلين ... اذهب بي إلى مترو بلانش ...هكذا طلبت من سائق التاكسي الذي ركبته بالقرب من ميدان فولتير... استغربت عندما وصلت لأني لم أتعرف على المكان، كان علي أن أتعرف عليه بسرعة. فلقد كنا في حي بيجال -عندما نزلت من التاكسي اشتريت خريطة مترو، وعرفت ...كان علي أن أطلب منه أن يوصلني إلى ميزون بلانش. وكان وجودنا في حي بيجال فرصة طيبة ! كانت ... جاكي حافية القدمين -طلبت منها أن تترك الحذاء الآخر- .

ففضلنا أن نتسكع في هذا الحي، ونتظاهر بأننا سياح··· هذا الرجل الذي يسير وراءنا···!اعتقدت جاكي أنه بدون شك يتعقبنا؟ وحتى أسكتها بدأت التحدث بالإنكليزية بصوت عال... وتحدثت كثيراً نيابة عن الأخريات لأني الوحيدة التي أتحدث بهذه اللغة. كان علينا أن نستقل سيارة تاكسي أخرى ونتوجه إلى أرصفة نهر السين ... ها··· هي المعجزة ! تتذكر زينة فجأة عنوان إحدى المواطنات الجزائريات . أف ... تنفست الصعداء ! ولكننا سنعود أدراجنا في النهاية إلى الحي الذي يوجد به السجن ··· ثم أن هذه الصديقة من السجينات السابقات أفرج عنها بكفالة ! ولكن مهما كان الأمر ... كانت جزائرية.

هل هي ذكرى لما قصه علي هنري بشأن الإغماء ...؟!! ···إغماء هذه المرأة من الخوف -كانت بلجيكية على ما أعتقد ...- وهذا يجعلني أتصور تلك الوجوه المكفهرة التي تقابلنا لو طرقنا باب إحدى الأسر الفرنسية دون إعداد مسبق···!! وأعتقد أن هذا فعلا ما دفعني إلى نسيان هذه العناوين بالكامل بعد مضي أربعة شهور تقريبا من إعتقالي··· - ومع هذا ينبغي التغلب على هذا النسيان - وارتفعت درجة الحرارة في التاكسي الثاني الذي ركبناه··· وحتى لا نعطي العنوان الصحيح تماما إلى السائق، اخترعت رقم ··· وا ···حسرتاه لم يكن موجوداً: وجدنا أنفسنا أمام حائط مقابر بيير لا شيز. هنا يكفي··· قف هذا ممتاز ! هذا ما قلته حتى أضع نهاية للجو الذي انتشر فيه اللبس. وعندما قدمت له الأجرة، رأيت يدي لأول مرة وقد انتفخت وتمزقت تماماً ··· لونها تحول إلى الزرقة -

ما اسم الصديقة الجزائرية ؟ فوراً وعند سماع صوت زينة··· فتحت لها الباب وأدخلتنا وأجلستنا وغيرنا ملابسنا وارتدينا جونلات. ولكن يجب التحرك دون تأخير··· تبعناها ونحن ملتصقين بالجدار في شكل طابور حتى الفندق المجاور- يحرسه الجزائريون- قابلونا بارتياب كبير··· ووضعونا في غرفة. ولكن عندما انتشر خبر هروبنا، بدأت أطباق الكسكسي المشهورة تقدم إلينا مع صخب وسعادة. حتى أننا كدنا نسمع زغاريد··· رغم أن الجزائريين- كما نعلم- لا يظهرون عواطفهم بالصورة التي اعتاد عليها الشرقيون··· ومجرد وجود زينة··· وهي أخت أحد المسئولين عن منظمة العمليات الخاصة المحكوم عليه غيابياً بالإعدام، اعتقلت وهي تحمل حقائب مليئة بالمدافع الرشاشة··· رغم شكلها الجميل وكأنها لوحة الجاكوندا ···!! كان هذا كافيا ليبعث فيهم الشعور بالفخر، وغيرها من العواطف الجياشة وها··· هم مواطنو الجزائر مستقبلا يحرسوننا ،والرشاشات في أيديهم··· منتشرين على طول الدرج من أعلى حيث توجد غرفتنا إلى أسفل الدرج··· نسمع من حين لآخر من يصيح (إيشكون) بغضب ردا على طرق على باب الفندق، وفهمت فوراً أنهم لن يترددوا في إطلاق النار إذا ما حدثت عملية تفتيش روتينية، وأن هروبنا في مثل هذه الظروف سيتحول إلى مذبحة ؟

ولهذا كان البقاء في فندق -يعج بالجزائريين- يتعارض تماماً مع أبسط قواعد الأمان. ومع ذلك كنا مضطرين للبقاء في الحجرة حتى المساء··· فرصة للاستراحة

والاسترخاء قليلا... لم أكن مضطرة لاتخاذ مبادرات أخرى... ولا توجد حاجة لمراقبة شيء ... ولو كان عندي قلم وبعض الأوراق لاستطعت أن أبدأ دراسة أي موضوع... كل شيء على ما يرام... لولا هذا الصداع النصفي الذي أصابني بسبب الآلام والجروح التي أصبت بها في اليدين والركبتين نتيجة السير فوق سطح السور المثبت عليه قطع الزجاج المكسور... وفجأة تعود ذكرياتي إلى مناظر جدران الفيلات البورجوازية في مصر التي توضع عليها أيضا قطع الزجاج المكسور لإبعاد اللصوص. وعند القيام بعملية –وهذا لحسن الحظ – يصبح التركيز على العمل نفسه هو الذي يبعد المرء عن كل شعور آخر. ولكن عندما نستريح تعود الآلام إلى الظهور. ولم أفكر ... كان يكفي تناول حبتي أسبرين !

في الانتظار...

تم إجلاؤنا عن الفندق- كل بدوره- في الساعات الأولى من المساء، ودلفنا من باب خلفي يطل على أرض منبسطة تقف عليها السيارة (الحاملة) تحت مراقبة مراد أو صديق اليقظة.

كنت أرتدي معطف مطر، وأضع وشاحاً على رأسي، وأجلس في الركن الخلفي بالقرب من نافذة السيارة الصغيرة العادية... وإلى جانبي محامية من بين مجموعة المحامين عن – جماعة الجزائريين في فرنسا – ماري كلود راديزويسكي وهذا تحوطاً من وقوع حادثة في الطريق... !! الجو بارد وجاف في شهر فبراير ...وها... هم يضعوني في مخبأ في حيي المفضل، وهو الحي الخامس، عند شاب يعمل كممثل مسرحي... مفلس... يغادر المنزل عند الفجر لينبش صناديق القمامة في السوق المعروف باسم لي هال يجمع خرق القماش لبيعها فيما بعد. وكنت أتحرق شوقاً للنزول معه. لكنه لم يجرؤ على خرق التعليمات، وخجلت من الظهور بمظهر الإنسان العاطفي – الناس في الشرق يركبهم الغرور كلما تقدم بهم العمر... يعتقدون أن ذلك يكسبهم مزيدا من الهيبة والسلطة...!!!

وعلمت من جرائد الجمعة مساء، وصباح يوم السبت أن المحققين ما زالوا يتخبطون- خبط عشواء- : لم يصدقوا أننا عبرنا من خلال قضبان الحديد المركبة على نافذة المرحاض...!! ولم يفهموا كيف توصلنا إلى فتح أبواب زنزاناتنا –رغم أننا تركنا لهم الخطاف بشكل ظاهر على الطاولة...!!- اتهموا الراهبة البائسة الأخت هيرمانس بمساعدتنا... بل اعتقدوا أن جهودا كبيرة بذلت من خارج السجن... وقد تكون عن طريق أعضاء جبهة التحرير الوطني الجزائرية –رغم أننا تركنا لهم الحبل –الخيط البائس- المحشور في الجدار ليستدلوا به على طريق هروبنا !! هذا يؤكد أن أجهزة الشرطة السرية ليست دائما بارعة... إنهم لا شك سيصبون جام غضبهم على الزميلات الباقيات في السجن... هل سيدفعن الثمن ؟ وبالذات... فيرا كنا نعرف: أن الأمر لن

يكن سهلاً بالنسبة لمن ظل في السجن. أما مصير مدير السجن ٠٠٠فلم أكترث : أن يوقف موظفا عن أداء وظيفته لا يعتبر أمرا خطيرا٠٠٠ سوف يعالج الأزمة بطريقة أو بأخرى.

أرسلت إلى بناتي في اليابان نسخة من جريدة فرانس سوار كإشارة٠٠٠

ويا٠٠٠ للغرابة٠٠٠ فلقد حل محل الشعور الفرنسي السائد بالعداء نحو المرأة شعور آخر يحمل التقدير بل نوع من الاعتزاز الوطني –فلقد كانت الهاربات كلهن تقريبا من الفرنسيات.

تم إجلائي بعد ذلك بعدة أيام للإقامة في حي أقل اكتظاظا، وفي شقة أكثر أمنا، ودون تعرض المضيف إلى خطر٠٠٠ وصلت إلى مبنى حديث مكون من عدة طوابق دون أي مباني أخرى مواجهة له٠٠٠ استديو مجهز بالكامل لكنه غير مسكون إلا- من حين إلى آخر –تملكه مخرجة شابة للأفلام التليفزيونية لطيفة جدا٠٠٠ تمر مرة في الأسبوع لتشتري احتياجاتي من الغذاء. وعندما تمر تسنح الفرصة لسؤالها عن آخر التطورات، والأخبار٠٠٠ وأيضاً لكي آخذ حماماً –ففي المباني الحديثة يسمع سريان الماء في الأنابيب في الطابق الأسفل، وكان هذا الطابق مسكوناً-. وأعددت لها سيناريو تمثله في حالة إلقاء القبض علي وأنا في شقتها٠٠٠

وبالتلصص بطرف العين من وراء الستائر المفتوحة قليلاً، لاحظت من على بعد الدكك المقامة على أرض منبسطة ممتدة بحذاء جسر هوائي يمر عليه خط السكة الحديد٠-٠٠٠ستتظاهر أنها وجدتني في هذا المكان عندما كانت في طريقها لتجديد هواء الاستديو –وهذا في اليوم الذي يسبق إلقاء القبض علي٠٠٠ وتستمر في التظاهر بأني كنت منهارة واضعة رأسي بين كفي ٠٠٠ وتتذكر أني قلت لها أنهم!!٠٠٠ سرقوا حقيبة ملابسي، وحقيبة يدي في المحطة٠٠٠ وأني أجنبية ...ونظرا لعمري، وهندامي ... صدقت كلامي وهزها ما أصابني من نحس، وعرضت علي أن تستضيفني في شقتها التي لا يوجد بها أحد في الوقت الراهن، حتى أتصل بأسرتي. ولكنها قالت لي بصراحة أنها لا تعتقد في أي كلمة مما تقوله٠٠٠ –أبي شخصية معروفة في أوساط التليفزيون والسينما، ثم أنه وقع على بيان الـ ١٢١-. وأفهمتها بسرعة أن الأمر لا يتعلق بمصداقية ما تقوله ٠٠٠ولكن بالقدرة على اختلاق عذر ما حتى لا تتهم في قضية تمس أمن الدولة٠٠٠

كان الاختباء في باريس يمثل مخاطرة: يجري تمشيط العاصمة وضواحيها بعناية، ورغم وجود –ستة مخابئ- لم تستخدم من قبل، وإنما تقع كلها في وسط لا يمكن أن نعده مفتون بالقضية الجزائرية ولم يكن تعاطف سكانه معها أمراً مؤكدا٠٠٠! ولكن الاختباء في الأرياف أكثر صعوبة وتعريضاً للخطر. ثم مخاطرة أكبر إذا ما تم إجلاؤنا إلى خارج فرنسا٠٠٠ فكل الطرقات المتجهة نحو الحدود ولا سيما نحو الحدود البلجيكية–استخدام الدرب سيرا على الأقدام عبر الأردين كان سهلاً- تمر فيه دوريات قوات الأمن الخاصة CRS. فلو وقعنا في قبضتهم مرة أخرى–ولو حتى واحدة منا- فيعني ذلك –في تصور

الصحافة الصفراء، والإعلام الذليل- أن الهاربات قد نجحن بصورة مميزة وبشجاعة وبراعة في محاولتهن... وإنما للأسف لم يسعفهم التنظيم السياسي الذي لم تتوفر له إمكانيات كافية لحمايتهن. ولذلك مكثنا مختفين مدة شهر بأكمله.

مضى الشهر بسرعة وأنا منبطحة على الأرض... أضع مصباح صغير (سهاري) أسفل السرير الذي يستخدم كدكه أيضاً ...لمنع وصول الضوء إلى مستوى النافذة.

كان صديقي طوال هذه الليالي هو أرسين لوبين للكاتب موريس بلان... وهي شخصية جذابة تابعتها كثيراً أيام شبابي، وأستمع إلى الشاعر المغني الممتاز ليو فيري بصوت منخفض.

طبعاً في مثل هذه الظروف الممتازة .لا يعتبر الاختفاء لمدة شهر دون حركة أمراً مأساويا...!! انضمت إلي زينة لعدة أيام قبل إجلائها. بدأت الحلقات تضيق أكثر، وأصبح من الصعب إيواء شابة جزائرية ألقي القبض عليها وهي تحتفظ بمدافع رشاشة ! طلبت أن تظل معي في نفس المخبأ -وأظهرت في السجن وأثناء الهروب مشاعر كأننا أفراد عشيرة واحدة، ولكن من أعمار مختلفة ....

وتحت إشراف ونظرة كاترين سوفاج الخبيرة... قامت بتغيير معالمنا وأجادت تنكرنا... زينة في صورة فتاة تتمتع بفتنة طاغية، ذات شعر أسود منفوش -كانت شقراء وعيونها خضراء- أما أنا فغيرت لونٍ شعري إلى اللون الأشقر... شعر أملس وملصوق ببعضه، وحواجب تم إزالتها تماماً وأعيد رسمها بالقلم، كأني عازبة فاتها قطار الزواج...!! تود أن تخفي عمرها ولا تنجح في ذلك- يا للهول ! ...بعد هذا التغيير، التقطت صورنا، وتسلمنا بعد ذلك بيومين بطاقات شخصية من سويسرا (القطاع الألماني)، وكان علينا أن نحفظ ظهراً عن قلب تفاصيل بيانات البطاقات -كانت أم زينة ألمانية، ولكن أنا !. وغادرنا في الفجر... كل واحدة في اتجاه يختلف عن الأخرى، بفارق سلعة من الزمن، ومن طرق مختلفة.

كرست إمكانيات كبيرة لإجلائنا. خصصت لي على امتداد الطرق الفرنسية سيارتين مراقبة. وصلنا في نهاية الطريق... إلى غابة بها بعض الأحراج... وهناك... إنتظرني اثنان من المناضلين البلجيكيين ليتولوا بقية العملية. وكانوا شبابا صغار السن، ولذا لم نتمكن من التظاهر بأننا زوجين أو أصدقاء في نزهة بريئة... وسار أحدهم مستكشفاً، والآخر خلفي... وعبرت معهم الأردين، وهي في الواقع هضبة. لا توجد سهولة أكثر من ذلك ... ومع ذلك استغرق العبور ساعة... صاحبها القلق. ولم أطلب الاشتراك في وضع خطة الإجلاء أو حتى معرفة تفاصيلها حتى -لا أضايق أحدا...-، رغم أني لا أتحمل وضعاً ألعب فيه دورا سلبيا رغم أنه يعنيني، -فضلاً عن عدم معرفتي بهذا الممر- ثم بعد قضاء شهر مختفية في مساحة صغيرة، بنوافذ مغلقة، وستائر مسحوبة، فوجئت بنفحة الهواء النقي... كل خطوة خطوتها يصاحبها صوت

خشخشة يصدر عن احتكاك قماش السروال الجديد المصنوع من القطيفة والمخطط... وكأننا نعلن عن عبورنا بالنفخ في بوق... يوم من أيام الربيع الجميلة، به طراوة منعشة ومشمس -كنا في آخر شهر مارس-.

نفس الاحتياطات استمرت على الطرق البلجيكية: كانت بعض التصرفات التي يمارسها البوليس على ناحيتي الحدود... يتظاهرون أن الشخص المحتجز على الأرض البلجيكية كان موجوداً في منطقة حدودية، ويعاد بالتالي إلى القطاع الفرنسي... ولذلك لم نسمح لأنفسنا بالابتعاد قيد أنملة عن تنفيذ الاحتياطات بحذافيرها. ولكن استغرقنا في الضحك هيلين، وميشلين، وجاكي، وأنا عندما تذكرنا التفاصيل وأحداثها، عند تواجدنا بعد ظهر ذلك اليوم في شقة تقع في وسط مدينة بروكسل، ونقص هذه التفاصيل على أسماع من نظموا عملية إجلائنا عن باريس. وهي مرة واحدة لم تكرر بعد ذلك : لم تقص أي واحدة منا هذه التفاصيل كما يفعلن قدامى المجاهدات ... كما منعت أيضاً تعليمات الأمان الاتصال بيننا . أحتفظ بذكرى أمسية طويلة قضيتها مع ميشلين، بحثاً عن مسارح غنائية صغيرة يغني فيها السود، وتقع في الطرقات المكتظة في وسط المدينة، وأتذكر أني أمضيت بعد ظهر أحد الأيام مع هيلين بحثاً عن كاترين سوفاج في قهوة وجيهة، وأمسية أخرى أمضيتها مع ميشلين لمشاهدة فيلم من إخراج أنتنيوني، (العقدة)، مع الممثلة الجميلة جان مورو، والممثل ماستورياني في دور ممل، شعرت بالضيق عندما تناول عجز البعض في إقامة الاتصالات، والمصير المنفر للأوساط البرجوازية الاجتماعية المغرورة في مدينة ميلانو الحديثة.

هذا معروف جيداً : بعد انتهاء عملية امتصت كل طاقاتنا فإننا نتطلع للابتعاد عن العناصر التي اشتركت فيها ونبحث عن مقابلة مشاركين غيرهم، وأعني بذلك في حالتي الاتصال بالذين يمكنهم إرسالي إلى مواقع المقاومة كما تعهدوا.

انتظاراً لحدوث ذلك... اختفيت عند إحدى المساعدات الاجتماعيات وهي سيدة محبوبة تبلغ من العمر خمسين عاماً ... ألقنها بعض حركات اليوجا لكي أخفف لديها حالات الصداع النصفي وآلام الرقبة...

ولم أصدق ...أنه من الممكن أن توجد مثل هذه الإزدواجية... كيف يمكن أن يكون الإنسان ثوري، ويعادي في الوقت نفسه الشيوعية من أعماقه...؟!!! : كان لابنة السيدة التي تستضيفني -وهي طالبة في كلية الطب- صديق من كوادر جبهة التحرير الوطني الجزائرية...!! يتشدق بخطاب مليء بالكراهية ضد الشيوعيين...

وعندما لم تشركني مجموعة بروكسل الصغيرة بسرعة في الأنشطة -انتظرت أحياناً أسبوعاً كاملا للتحدث مع أحد أعضاءها...- قررت أنا وجويس أن نأخذ دروساً في مصارعة (الجودو)...!! يعطيها مجاناً أحد الزملاء وهو مناضل -من أجل ...!! لست أدري أي قضية...!!- لكي نرفع من درجة، ومستوى ردود الفعل. وأخيراً نجحت في الحصول على ميعاد مع جانسون.

حضر جانسون إلى مطعم للوجبات السريعة ترافقه كريستيان فيليب. وكنت سعيدة للغاية لرؤيته مرة أخرى. ولكني غادرت المقابلة وأنا واجمة ؟!: بدلاً من أن نتّحدث عن المقاومة، احتل ملف النزاع بين جانسون - وكوربيل المساحة الزمنية للمقابلة كلها. كانوا محقين تماماً: بعد أن وافق هنري أن يتولى مسئولية الشبكة... لم يوافق على عقد مناقشة مفتوحة وصريحة مع جانسون وكانت كريستيان شاهدة على هذا التصرف... ولم أتمالك نفسي... انتقدت هنري على ذلك...!! ولم أوافق على أسلوبه، ولكني أيدت موقفه: فلقد احترق جانسون في باريس، وكان هنري على حق عندما أمن- دون انتظار- استمرار توفير الخدمات إلى المناضلين الجزائريين.

حقا ...لا يجمع سيفان في غمد...!!-لم يتسع المكان لوجود رئيسين في شبكة واحدة ولا يمكن أن تقف هذه الشبكة على قدميها إلا بالاستناد إلى مدى نجاح العلاقات الشخصية، بل حتى مع ضرورة توفر قدر كبير من الكياسة ودماثة الخلق-كل يستعين به حسب أسلوبه الخاص-.

وبدأت الانتظار مرة أخرى... مضى أسبوع... ثم إسبوعان... وشهر بأكمله ... شهر ونصف الشهر ... تخللتها زيارة ليوسف حزان ...وزيارة من أختي. ولم يتبق إلا نشاط نضالي واحد نقتسمه أنا وجويس التي كانت مسجلة في الجامعة وبلانش التي عادت مكتئبة من تونس وتقتصر على ربط خيوط حزم الجرائد والكتب وإرسالها إلى الزملاء في سجن فرين، كما كنا نفعل في الماضي مع الزملاء المسجونين المصريين.

لم أهرب من السجن لأكتفي بهذا النشاط...!! وظلت مجموعة بروكسل تبعدني عن أي شيء آخر . وكان هنري صادقا عندما كتب إلي يقول "*أن من الأفضل النضال في شبكة أوروبية عن محاولة الانضمام إلى قوات المقاومة الجزائرية المعسكرة في المغرب*" ...ولكن ما العمل عندما تنتشر العصبيات بين بعض أعضاء هذه المجموعات... ؟ وأعترف أن وراء إثارة كل هذه الردود التفصيلية ...التي تناقش تعليمات هنري... كنت ارغب في -الحقيقة- جس نبضه.

قبلت هيلين- بعد تردد - أن تغادر مع مجموعة مكونة من عدد قليل من المناضلات، لم يكن بينها ميشلين -ظلت في روما كما كان متوقعا- وقامت بأعمال بحث للناشر فيرتينيللي.

قررنا عدم المرور بتونس. ولقد اشتهرت المغرب بالانضباط والجدية .

توجهت إلى روما أولا، وعثرت على جاكي، وجلوريا وبوجلان أيضا. تولى جاك فين جميع الإجراءات، وأسهم في ذلك الطبيب بلحروف، المسئول عن جبهة التحرير الوطني الجزائرية في أوروبا.

مضت عدة أسابيع- الوقت كان كافياً- زرت أختي الكبيرة التي كانت تسكن في مدينة فلورنس -كانت هذه آخر مرة أراها فيها-. وأمضيت يوماً على شاطئ البحر مع بلانش-... حضرت لقضاء بعض الأعمال، وودعت ميشلين. كان الوقت كافيا لإعداد

وثائقنا الجديدة. واستلمت هذه المرة بطاقة شخصية فرنسية أصلية... خالية من البيانات، واستكملتها ببياناتي... ممتاز: لم يتحرك جندي قوات الأمن الخاصة CRS ساكنا... عندما فتش القطار في اليوم الذي تمت فيه محاولة اغتيال ديغول في بتي كلامار، واستخدمت هذه البطاقة حتى بعد انتهاء الحرب. وحصلت عليها بفضل مساعدة أحد المتعاطفين مع جبهة التحرير الوطني الجزائرية العاملين في إحدى البلديات الفرنسية في الأرياف. وكنت أعتز بها جداً ولكنها فقدت... باختصار دخلت بهذه البطاقة إلى المغرب مع جاكي وجلوريان وبوجلان بدون مشاكل. تولى أحد المسئولين من جبهة التحرير الوطني الجزائرية الإشراف على إجراءات الشرطة والجمارك. وكأننا مندوبين نقابيين نستقبل في بلد اشتراكي !

بلد... كأنه حلم من الأحلام

قوى لدي جان دريش الإحساس بمساحات الفضاء الجغرافية وقد ميز ذلك منهجه في معالجة قضايا البيئة والبشر. تلقى دريش تقديرا كبيرا في المغرب: فلقد درس -إبان فترة الحماية الفرنسية في الجزائر- في إحدى مدارس الليسيه التي تردد عليها كثير من المناضلين المستقبلين المناهضين للإمبريالية، مثل بن بركة

واعتبرت السلطات الفرنسية دريش-محترف تخريب !!!- وشخصية أكثر خطورة من غيرها لاستناده إلى العلم، وكانت محاضراته الدقيقة بما تحمله من حرارة وتفاؤل تحلق بك في السموات...!! -وظلت لم يمسسها أحد لأكثر من عشرين عاماً -عثرت عليها عندما اشتركت في ندوة لطلبة العالم الثالث نظمت في معهد الجغرافيا في باريس-. منع من تدريس المواد المتصلة بالمغرب الأكبر في مدرسة اللغات الشرقية في باريس- كان يعترف "بحقيقة وجود المواطنة الجزائرية"- وكان عضواً في لجنة أودان، وتصفحت بشغف محاضراته المطبوعة على الرونيو. لم ينجح كاتب آخر في أن يثير خيالي بالصورة التي قام بها جان دريش.

وكنت أنتهز الفرص -أثناء السنة التي أمضيتها في المغرب وما بعدها أيضاً- لكي أسير في هذه الطرقات حتى لو التبست على منعطفاتها وتعرجاتها. ولقد برعت الكولونيالية الفرنسية في المغرب -وفي الجزائر أيضا- في تمهيد شبكة من الطرق البرية -فضل الإنجليز في مصر بناء السكة الحديد-.

لم أهتم كثيراً بمنطقة الريف: لم أعرف تاريخه في ذلك الوقت... وكانت أشجار البلوط الفلينية، وأحراجه، وقراه المتناثرة على قمم الجبال وعلى منحدرات الأودية... تشبه أي سلسلة من سلسلة جبال البحر الأبيض المتوسط... شريط ساحلي تهيمن عليه جنوباً سلسلة من الجبال الجيرية المتكلسة... تشبه في تضاريسها... تضاريس القبائل الكبرى. وعندما نصل في الفجر إلى الطريق المؤدي إلى تطوان، تتناثر المنازل الزرقاء وهي غارقة في حمرة مغطاة بملطخات من اللون البنفسجي... نسيم ينشر طراوة حاملا

دون أي إسقاط على ما سوف يصبح عليه مستقبل المجتمع بعد التحرير من الكولونيالية... سوى اعتبار هذا النضال جزءا من مسيرة الإنسانية جمعاء نحو التحرير. وهذه ما هي إلا خطوة واحدة اكتسبت أهميتها على هذا الأساس ...ففي التحليل النهائي تتبع هزيمة عسكرية في معركة ما انتصار في الميدان السياسي . وتبين صحة هذه المقولة بعد الحملة العسكرية على بورسعيد في ١٩٥٦ وأثناء العدوان الثلاثي الذي أعقب قرار الرئيس عبد الناصر تأميم شركة قناة السويس العالمية . ولكن تطلب الأمر في الجزائر اندلاع حرب دموية – عديمة الفائدة –استمرت لأكثر من ثمانية أعوام قبل أن تنتصر القوى الوطنية في المعركة السياسية.

لم أكن أعرف الجزائر بعد ... وعرفني إلبير لانتان بأحمد بن بيلا وفرحات عباس في مكتب جبهة التحرير الوطنية في القاهرة –وهو صحفي كان في زيارة للقاهرة ... من "الأقدام السوداء"– وكانت هذه أول مرة أسمع فيها عن القضية الجزائرية. ولم أراهم إلا في ١٩٦٢ بعد الاستقلال. وقد كان الاتصال سهلاً بما أننا تعودنا الإعراب عن أنفسنا بالفرنسية. وبذلك، وفي فرنسا وابتداء من نوفمبر ١٩٥٧ ناضلت إلى جانب هنري وأيدنا اتحاد الجزائريين في فرنسا التابع لجبهة التحرير الوطني. واستبعد هنري في ذلك الوقت من قيادة الحزب الشيوعي المصري الجديد وصدر قرار بحل مجموعة الشيوعيين المصريين في المنفى المعروفة باسم "مجموعة روما"[٤]. واصبح بذلك الذين يختارون هذا الطريق أحراراً في تقديم الدعم لهذه القضية، وهي قضية قريبة من اهتماماتهم ، لأنها ارتبطت في شكلها السري بنضال شعب يسعى للتحرير من السيطرة الأجنبية. وفي هذه الحالة بالذات، لم يقتصر على دعم نضال يزاوله بعض "الزملاء" من تنظيم حدتو[٥] ولكن بالأحرى استهدف كسب تأييد دولي من أجل نضال تحريري لشعب يرزح تحت وطأة الكولونيالية التي نددت بها منظمة الأم المتحدة.

وتغير التزامنا في إطار إيجاد حل للنزاع بين إسرائيل والعرب عندما أصبح فيما بعد نزاعاً بين إسرائيل وفلسطين. وكانت الحركة الشيوعية الدولية – أثناء فترة الانتداب البريطاني كلها– تعتبر الصهيونية كحركة كولونيالية استيطانية تنتزع ملكية أراضي السكان المقيمين عليها، وذلك في تحالف وثيق مع الإمبريالية البريطانية. وقعت تغييرات في ١٩٤٧، عندما وافق الاتحاد السوفييتي (وكذلك الولايات المتحدة الأمريكية وغالبية الدول في ذلك الوقت) على الحل الذي عرضته منظمة الأم المتحدة ... والذي يقضي بتقسيم فلسطين إلى دولة يهودية ودولة عربية. وسارت الحركة الشيوعية المصرية ممثلة

---

٤ أنظر الكتاب الثاني.
٥ الحركة الديموقراطية للتحرر الوطني.

معه رائحة النعناع٠٠٠ وشعرت كأني قد وصلت إلى المكان الذي كنت أحلم بـه دائماً، وأتصور أني سكنته في حياة أخرى[٦٨] سعيدة٠٠٠!! وعلى الجانب الأطلسي- هذه المرة- على الأرض المسطحة، افتتنت بـ مدينة أرزيله. واستطعت أن أتمتع مرة أخرى بحضور زميلي موريان٠٠٠ واستمعت إلى الحلاق الشاب يغني- للترفيه عن نفسه كل مساء- أغاني بالعربية وبالأنغام الأندلسية، مستخدماً صوته الموهوب الخارج من حلقه بعذوبة وبفن رفيع ٠٠٠!!؟كيف ومن أين تعلمه٠٠٠؟ لا أدري٠٠٠!! وهو جالس على مقهى تظل أبوابه مفتوحة حتى بزوغ الفجر، ويدخن فيها الكيف، كما هو الحال في جميع مقاهي المغرب، وتعلق بنا -قد يكون بسبب بعض الخيالات التي راودته- عندما ظهرنا كأننا سنساعده على الخروج من جحره ليطوف العالم ٠٠٠وكنت على استعداد لتحقيق حلمه دون تردد، ولكن ما بالأمر حيلة-أين الإمكانيات لمقابلة مصاريف تدريبه الفني٠٠٠ كانت حباله الصوتية أعجوبة حقاً يا ٠٠٠للخسارة !!؟؟

طنجة في صيف ١٩٦١... مدينة المهربين، والمضاربين، والسائحين العاطلين٠٠٠ كانت بالنسبة لنا نحن٠٠٠ جون ماري بوجلان (الجنرال) وجان لوي أوجبيه (الكونت)، وأنا (المركيزة)٠٠٠ مصدر للبهجة٠٠٠ نتجول طويلا في القصبة[٦٩] النظيفة التي يتخللها الهواء النقي- وهو حال جميع أسواق المغرب- ٠٠٠ لم أفهم حتى الآن ما هي المعجزة٠٠٠!!! جمعت هذه الأعداد الكبيرة من السكان في كتلة واحدة رغم اختلاطهم تماما، وهم من غير موزعين على جزر إثنية كما هو الحال في القطاع الفرنسي ... الجميع يتحدث الأسبانية[٧٠]. ويرتدي الرجال على رؤوسهم قبعات الخوص الضخمة، تتدلى منها قصاصات الصوف وقطع المعدن ذات الألوان الباهرة مثل تلك التي يرتديها في القاهرة بائعو مشروب عرق السوس الذين يطوفون وهم يدقون بصاجاتهم النحاسية التي يحملونها في أيديهم. نتسكع عندما يأتي المساء في -المدينة الدولية-حافظت على جاذبيتها، وعلى عيوبها، ونواقصها حافظت الأحياء القريبة في الميناء على ما كانت عليه قديما - ولم يكل جون ماري عن سرد قصة ما شاهده٠٠٠ عندما سألت أحد الأطفال بالعربية٠٠٠ ولم يفهم ما قصدت إلا عندما سأله جون ماري نفس السؤال بالفرنسية ! أحب جداً التجوال في مدينة بمصاحبة جون ماري: فهو يحب التعرف على كل شيء ٠٠٠الناس والأشياء٠٠٠ ويشعر عندما يوجد في أي مدينة وحتى في ظلام الليل بأنه في بيئته.

---

٦٨ كيف لي أن أعلم أنه في ذلك المكان الساحر الذي يخلب الألباب ومنذ وقت قريب وفي إحدى الفيلات السرية التي تشرف عليها جبهة التحرير الوطني الجزائرية تمت التصفية الجسدية لعبان رمضان بواسطة بوسوف!!! (أنظر جريدة ألجيري - أكتويليتيه ٢٤-٣٠ أغسطس ١٩٨٩).

٦٩ هو اسم موقع في منطقة السوق في وسط المدينة قديما وتحميه القلاع والأسوار في شمال أفريقيا -المترجم

٧٠ القطاع الأسباني المحتل حتى عام ١٩٥٦

وعندما قدمنا مدينة الرباط ، قيل لنا بمنتهى البساطة٠٠٠- أنهم لا يعرفون ما الذي يمكن أن يفعلوه بنا !- بعد كل هذه السنين من النضال، وما تحملناه من مخاطر٠٠٠ من حقنا أن نتمتع بأسبوعين عطلة على شاطئ البحر وفي الجبل. بل يمكننا مشاهد عرض عسكري لقوات المقاومة الجزائرية في المغرب، وأن تستضيفنا في مختلف مراحل الطريق أسر جزائرية تسكن المغرب. وهو أسلوب للتعود على البيئة المحيطة. وبالفعل استضافونا خمسة أو ستة مرات مع سائقنا ومساعده٠٠٠ وكان استقبالا حافلا -كانت هذه الأسر ذات وضع يتميز عن وضع الأسر المغربية لأنها تحمل الجنسية الفرنسية ولو أنهم من مستوى اجتماعي متشابه، ولا تجرؤ هذه الأسر على تغيير أسلوب استقبالنا- كما قال أحد المناضلين من جبهة التحرير الوطني الجزائرية٠٠٠ ضخم الجثة- يكفيه التظاهر بالجلوس مكان رب الأسرة حتى يسرع الأخير بتسديد اشتراكاته للجبهة ٠٠٠ وغير ذلك من خدمات٠٠٠ نعم ٠٠٠ هكذا أيضا كانت تتعامل جبهة التحرير الجزائري٠٠٠

وكان خط سيرنا يتلاءم مع طبيعة فصل الصيف: أمضينا الجزء الأكبر من هذه العطلة المفروضة علينا في السهول الأطلسية. وعند ذهابنا إليها مررنا بمدينة مكناس وفاس الواقعتين على الهضبة الوسطى -الجزء الأكثر ارتفاعاً من الهضبة المغربية التي تميل هابطة نحو المحيط- ويتجاوز ارتفاع الأطلس المتوسط ثلاثة آلاف متر هابطا نحو الداخل.

أمضينا الليلة في فاس في قصر تركي قديم، تسكنه أسرة جزائرية، يتلخص عملها في مرافقة النساء إلى الحمام٠٠٠ قدمت لنا أطباق المشوي -خروف بأكمله- وبطيخ. وسعدنا -بعد حرارة المدينة القديمة في فاس التي كانت كالفرن ٠٠٠- بالانتقال إلى إيفران، ثم أزرو، بلاد جوها معتدل تنتشر فيها غابات وتنبت فيها أنواع كثيرة من أشجار البلوط وأشجار الأرز العجيبة ٠٠٠ثم عندما نضيف إليها القرى الكولونيالية المجاورة، يبدو وكأننا في أحد جبال سويسرا. ونتشاهد المباني المربعة الشكل ذات أبراج أربعة تحيط بالفناء٠٠٠ الذي يستخدم كمخازن جماعية، وأمكنة مؤقتة للإقامة٠٠٠ وأسفل ذلك، أماكن الإقامة الدائمة٠٠٠ مبنى ذو جدار قوى يحيط بفناء داخلي لإيواء البهائم- صورة لما يعرف بالقصور الصحراوية-.

تؤدي الدروب القديمة في مراكش إلى الأطلس المتوسط، وأبدى المرافقون - وكانوا على حق - عدم ارتياحهم لتكديس سبعة منا في سيارة واحدة -صحيح -أنها واسعة مثل السيارات الأمريكية- ولكن هذا كل ما في الأمر ٠٠٠علينا بعد ذلك تحمل بسرعة الحرارة . فضلا عن ذلك ٠٠٠لم يكن أمامنا متسع من الوقت.

خرجنا من قصبة تدلا، وواد زم، وخوريبجا، باتجاه السهول الساحلية المفتوحة المطلة على المحيط: سهل دوكالاس وقد قسم بعناية فائقة إلى قطع أرض زراعية، دون وجود أثر للأشجار، يحده من الشرق شاطئ صخري يسمى "سيتات" ومفض إلى الميناء البرتغالي الجميل مازاجان- واسمه الآن- الجديدة- مرفوع على قمة صخرية٠٠٠ أعيد

تجهيزه لتصدير المنتجات الزراعية. أثار إعجابنا٠٠٠ ولم يتوقف ٠٠٠هذا التنوع الهائل للمناظر الطبيعية وحضارات هذا البلد٠٠٠ وكأنه بلد ٠٠٠كحلم من الأحلام!!!

لم أعد أتذكر اسم المكان الذي به شاطئ كبير من الكثبان الرملية٠٠٠ تدحرجنا فيه كالمجانين أنا ٠٠٠و(الكونت) قبل أن نلقي بأنفسنا في البحر الهائج٠٠٠ كاد يغرق فيه٠٠٠ ومن بعده جلوريا. وقد استنجد بي (الجنرال): كنت بعيدة أعوم في مياه البحر، اسمع بصعوبة كما هي الحال دائما عندما أخلع نظارتي٠٠٠!!!- ولم أفهم القصد من حركات ذراعيه وهو يلوح بيديه من موقع المراقبة على الشاطئ؟؟ في النهاية خرجت من المياه أبحث عن مساعد السائق، ووجدته يرتجف ٠٠٠بعد محاولته إنقاذ جلوريا التي تعلقت بعنقه، وكادت تسحبه إلى داخل البحر وإلى الأعماق، واضطر إلى تركها ٠٠٠وكان منهك القوى-ويفضل في مثل هذه الحالات إما أن تتوفر معدات الإنقاذ ٠٠٠أو يجمع الشخص ما لديه من قوة لينقذ نفسه، ويبتعد لوحده عن التيار الذي يسحبه، وعن الأمواج التي تقلبه. وتحديدا نحن نتكلم عن المحيط الأطلسي ... هذا ما قامت به جلوريا عندما تركها، وأطلقها منقذها لتواجه مصيرها٠٠٠!! وخرجت سالمة من المحيط في نفس اللحظة التي سحبت فيها جثة غريق٠٠٠ أوف !٠٠٠ لم تتحسن بقية الرحلة ... انطلقنا بالسيارة لنحاول تفادي فترة الحرارة الشديدة٠٠٠ ونكسب بعض الوقت٠٠٠ وأصيبت السيارة بعطل فني مما أجبر جان ماري وجان لوي على انتظارنا، وتوجهنا نحن إلى كراج، واضعين على رؤوسنا فوط مبلولة لتقينا من القيظ٠٠٠ ورجعنا إليهم بقطع الغيار الضرورية لتصليح السيارة -أما هم فلقد مكثوا كل هذا الوقت تحت وهج الشمس الحارقة، بجلودهم الأوروبية اللبنية اللون ... !!-. مرت الطوابير العسكرية التي قابلناها في الطريق بالقرب من الدار البيضاء دون أن نشاهدها٠٠٠ كانت مغادرة إلى مدينة أخرى٠٠٠

الدار البيضاء! أخيراً ٠٠٠ فتحة سهل "شاويا" لم تكن ذات أهمية: نتاج نموذجي لنمو غير منظم مع وجود مساحات واسعة٠٠٠ أقيمت على مشارف المدينة أكواخ الصفيح ٠٠٠ لم نكن نعلم أنها تضم طبقة بروليتاريا على قدر كبير من النشاط النضالي. وكنا ننتظر -في (فيدال) ٠٠٠ وهو ميناء صغير بديع - وصول الصيادين في نهاية فترة ما بعد الظهر بصيدهم٠٠٠ عرفني بيلو فيما بعد بصائدات السردين.

مدينة أخرى "صافي" برتقالية اللون ٠٠٠ مقامة على حافة نتوء صخري ينحدر نحو المحيط.٠٠٠ نجحت في مشاهدة تفاصيل الميناء الذي تخصص في صيد اسماك السردين بفضل النظرة الثاقبة المجربة لعزيزنا فرانسوا بيلو. فلقد ذهب إلى هناك ليصور فيلماً عن صائدات اسماك السردين وكفاحهن اليومي، وكانت مهمتي هي تنظيم استجواب النساء لأغراض الفيلم ٠٠٠وفي ساعة القيظ ... اختفيت عن الأنظار لأغطس!! ... ثم أغطس!! ... ثم أغطس!! في مسبح ممتلئ بمياه البحر، ارتفعت برودته بمرور التيار الذي يحمل السردين. كأني قطعت هذا الطريق الطويل لمجرد التعرف في نهايته على هذا الشعور الرائع الذي سببته مياه البحر الباردة ٠٠٠!!

تعرفت في الرباط على فرانسوا بيلو وزوجه فرانسواز ذات الشخصية المؤثرة ٠٠٠كأنها خرجت لتوها من تراجيديا إغريقية٠٠٠ ذات عيون كبيرة زرقاء ٠٠٠ تسكن في نفس الشقة التي يسكن فيها جان ماري بوجلان وآن بريس٠٠٠ خصصتها لهم جبهة التحرير الوطني الجزائرية. وكان جان ماري يبحث معه جاهدا عن سيناريو لأحد أفلامه، واستمتعت بنغمة الدعابة التي سادت مناقشة ذهبت في كل اتجاه. وكان بيلو شخصية فريدة من نوعها: كاتب، ومخرج سينمائي، ذو حساسية مرهفة، طويل القامة جميل الطلعة٠٠٠ فر من الخدمة العسكرية حتى يتهرب من الاشتراك في الجيش الفرنسي الذي يخوض حرب الجزائر. لا شك لو كانت الظروف مغايرة لتألق في مجتمع من نوع آخر٠٠٠ ومرت السنين وإذ بي٠٠٠ في باريس ٠٠٠أجلس بالقرب من سريره وهو يحتضر، وأمسك بيده لساعات طويلة٠٠٠ يتوفى وقد أفرط في شرب النبيذ، والكحول الإيثيلي الذي كان يعينه على التحمل٠٠٠ فلقد سئم الحياة... وبهدوء٠٠٠ قلت -أنه أنتج لقطات تصويرية ممتازة-، إلا أنه لم يتمكن من تسويقها ٠٠٠!! لم يزاول هذا العمل لكسب المال ٠٠٠ ولكن لمجرد البقاء على قيد الحياة، وحتى يتحقق له ذلك كان مضطرا إلى عرض أفلامه٠٠٠ وهذا هو السبب الرئيسي لوفاته ولم يناهز عمره أربعين عاما.

استأنفنا الانتظار لما عدت من مدينة صافي٠٠٠

الرباط ٠٠٠مدينة تعج بمباهج الحياة المختلفة: العاصمة الإدارية ونموذج حي للهندسة المعمارية للحقبة الكولونيالية، صممت على هيئة مربع -كانت الكولونيالية الفرنسية تحلم بالإمبراطورية الرومانية كما كانت روما تحلم بأثينا- ويسهل اختراقها سيراً على الأقدام، يفوح منها عطر الورود حتى يكاد يصيبك بالدوار ... وإن رغبتم تناول أطباق مغربية٠٠٠ أمامكم القصبة٠٠٠ نتناول الطعام واقفين وندفع ديناراً واحداً لشراء كريات اللحم المفرومة اللذيذة مع الخبز، أو نجلس في مطعم متواضع بنصف دينار نتناول فيه الشربة المغربية - أفضل من مثيلتها الجزائرية-. ولكن لا ينبغي أن نحلم بمأكولات كثيرة لأنها مكلفة، كانت توجد أيضا القصبة القديمة- الموحدية والميرانيدية- التي تشوف على نهر بو رجراج الذي يفتح مصبه على البحر ٠٠٠يملأه الوحل على اتساع المنطقة الواقعة بين الرباط والرباط سالى. نذهب جماعة لارتشاف أكواب الشاي بالنعناع، ولتناول الحلوى التي تقدم للجالسين على شرفة، ورصيف المقهى.

وفجأة، كان علينا استيعاب أبعاد المعلومات التي وصلتنا: لم يرغب جيش التحرير الوطني في وجود النساء بين صفوفه٠٠٠ لا جزائريات ولا أجنبيات٠٠٠ ولا حتى ممرضات٠٠٠ حدثت أحداث مؤسفة في الماضي ...

تفكك العرى الوثقى٠٠٠

عندما وصلت إلى المغرب،اتصلت بالقنصلية المصرية للحصول على جواز سفر جديد٠٠٠ جواز سفري القديم احتجزه مكتب إدارة السجون، مع رخصة القيادة الفرنسية، مما سبب متاعب كثيرة لأني كنت أستخدم من حين لآخر السيارة.

وتزامنت زيارتي مع تمزق -الجمهورية العربية المتحدة- واستيقاظ هوس معـــاداة الشيوعية.

صعب القنصل الأمور... وكلف أحد الموظفين -من المخـــابرات- باســتجوابي تفصيلا - يا... لسذاجتي...!!! اعتقدت أن دعم القضية الجزائرية سوف يحيي فيــهم شعور التعاطف... بل لم تذكر الجرائد المصرية أي شيء عن هروبنا...؟

ونفذ صبري عندما بدأ في الطعن في عدم قــدرة الجزائرييــن التحــدث بالعربيــة بصورة سليمة... وقلت بكل برود... صحيح، الجزائريون لا يعربون عـــن أنفســهم بلغتهم كما يجب... ولكنهم دون شك يعلمون تماما كيف يوقـــدون نـــيران الثــورة ... وكانت نغمة صوتي، ولو أنها عدوانية ...ولا تتسم بحسن التصرف، إلا أنها وضعــت نهاية لعملية الاستجواب... وحصلت فوراً على جواز سفر. فكان هذا البائس يعلــم أنــه معرض للنقل من وظيفته إلى مكانٍ آخرٍ إذا ما بعثت بشكوى ضده... فقد كان الكفـــاح لتحرير الجزائر كمانعلم... أمراً مقدساً عند عبد الناصر.

إقامتي كانت مشروعة... وحسب الأصول، وكنت قد استوفيت جميع مــا يلــزم ...وممنوعة من الاشتراك في المقاومة...

طلبت حضور بناتي إلى المغرب... انتابني شعور ملح لم يتركني أن يكونوا معي لكي أعتني بهم. وكانت سمعة مدرسة الليسيه الفرنسية في الرباط جيدة، وفي اليابــان... حيث يعمل والدهم كسفير، واجهوا مشكلة اللغة... وبالذات ابنتي نيفين ... الواعــدة، التي كانت تعد في ذلك الوقت شهادتها التكميلية. كيف أقول ذلك دون أن أبـــدو متكلفــة: يمكنهم التطور في هذه البيئة ثقافيا ...أعلم أن جبهة التحريـــر ســتوفر لـــي وظيفــة. وانتظرت حدوث ذلك ...أعددنا مع هيلين -انضمت إلينا- ملفات تتكون من مقتطفــات الصحافة لإرسالها إلى المفوضية الجزائرية -كانت هيلين أيضا المتحدثة في برنامج إذاعــة "صوت الجزائر" باللغة الفرنسية- ولدي سكن، وكل احتياجاتي مستوفية، وأتلقـــى مرتبــا صغيرا، كتبت إلى نيفين... كان الجواب جافـــا: رفــض والدهــا تمامـــا...؟ بســبب أفكاري!!! -لم يمنعه ذلك بعد مضي سنوات أن يرسل إلي بسرعة ابنتي الصغيرة دون أن يكترث لما صار إليه وضعي الذي أصبح في ذلك الوقت وضعا غير ثـــابت-. وبنظــرة للوراء- أستطيع أن أفهم صعوبة العلاقات الأسرية عندما يميز القانون عضواً دون الآخــو في الأسرة الواحدة.

ودون مزيد من التفكير ... وفي نفس الساعة- قررت قطع الحبـــال الواصلــة - سأظل رهن إشارة أي واحدة من بناتي... ولكني قطعت العـــرى... وغـــادرت إلـــى الجنوب.

اقترح علينا أحد الصحفيين الأمريكيين حضور أعياد التمر... سلكنا هـــذه المـــرة الطريق العادي الذي يصل بين الرباط - قصبة تادلا - بني ملال.

يشتهر الميدان الفسيح في مدينة مراكش عاصمة الأسرات الصحراوية التي واصلت غزواتهم نحو الشمال... بمجالس الرواة من الشعراء، والحواة، والرفاعية (بأفاعيهم) وبائعو الأشياء البسيطة المختلفة، والتعاويذ، وبجماعات الطوائف الدينية الصوفية، يختلفون فقط في كيفية مناشدتهم الله وذكره بلا إنقطاع... يتمايلون يمينا ويسارا حتى تخور قواهم تماما.

وتخطف المناظر الطبيعية الأنفاس... عند المرور عبر مراكش حتى ورززات، عبر الأطلس الأعلى... في المنطقة الواقعة بين جبل توبكال، وإيغيل، موبجون، وكلاهما يبلغ ارتفاعه ٤ آلاف متر... روعة المناظر التي يصعب وصفها : يرتفع الجبل فجأة أعلى مدينة سوس، ودادس، ونشاهد عندما نعبر المضيق الموحش الذي حفرته عوامل النحر والتآكل الطبيعية في العمق ... خضرة النخيل. لم نتوقع أن نرى كل ذلك في هذه اللوحة الصحراوية الرائعة... وتوجد في المنطقة عادة جبال ثقيلة وقديمة ... ثم هذا الضوء والألوان المتعددة -البنفسجي والأخضر الساطع، وتختفي تماما الألوان المائعة - ها... هي المساكن -قرى محصنة، ومنازل كانت قلاعا قديمة تسكنها الأسر الكبيرة، ومنازل مبنية بالأحجار أو من الطوب الآجر... ذات أسطح منبسطة... كلها بالفعل ألوان ومباني صحراوية.

ويظل الأطلس الصغير، منطقة مناخية للمتوسط، تشاهد فيها الكثبان الرملية المنتشرة في أحواض. وصلنا بالمرور عن الطريق التقليدي القديم الواقع بين جبل باني وجبل سرغو إلى واحة... لم أعد أتذكر اسمها. وهنا بدأت آن ولم يبلغ عمرها في ذلك الوقت عشرين عاما في الوثوب بمرح بين النخيل، متسلقة إياها، بلياقتها البدنية العجيبة. وقدمت لنا -تحت ظلال الخيام الملكية المنصوبة على الرمال- أطباق المشوي والكسكسي، والتمر والرايب، مجاناً. وبينما كنت في وسط السوق... وفي الهواء الطلق سحرني إيقاع موسيقى صادرة عن جوقة صحراوية... لاحظت أن هناك مصور سينمائي يلتقط لنا صورا ...لا ضرر من ذلك...!!-ولكن ... ردود الفعل السابقة بسبب ظروف الكفاح السري تعرضنا أكثر للإصابة بالحساسية من أي شيء قد يترك أثوا يدل على وجودنا في مكان ما.

ولدى عودتنا اقترحوا علينا خوض تجربة من نوع جديد: تدريب مهاجرين جزائريين من الشباب ذوي مستويات تعليم مختلفة، تتراوح أعمارهم بين ١٤ سنة و ٢١ سنة.

قدم اليوغسلاف[٧١] هدية لجبهة التحرير الوطني الجزائرية في المغرب- مبنى جاهز للتركيب ومعدات، وتجهيزات مدرسية-. ودارت الفكرة حول إنشاء مدرسة ثانوية في

---

٧١ هذا العصر السعيد عصر المثل الثورية الذي انتهى في يوغوسلافيا المتناحرة... ولم تكن قد ظهرت بعد أي نزاعات في يوغوسلافيا حول خطوط وحدود فاصلة

مدينة وجده التي تقع في الناحية الأخرى أقصى جنوب المغرب... في منطقة مترامية الأطراف تتكون من سهول استبسية عشبية مرتفعة -وهي من أكثر السهول رتابة- وتقع بالقرب من الحدود الجزائرية.

وكلفنا بإعداد المناهج الدراسية والقيام بالتدريس.

لم يكن هذا ميدان للمقاومة بالمعنى الذي تعودنا عليه... ولكن -وهذا على أقل تقدير... وأمام زملائنا الذين ما زالوا في السجن... كان علينا أن نعظم الاستفادة من عملية هروبنا. وبما أني اخترت أن أفصل العرى الوثقى...!!! فضلت أن أعيش حياة قاسية، وأكثر قربا من مستوى القاعدة. ووافقت هيلين على خوض هذه التجربة، وكذلك الزوجين أوجيه. ورفضتها جاكي: إما أن تعمل في مجال الإلكترونيات مرة أخرى وإما تغادر المغرب... وهي من البروليتاريا... فرنسية حتى النخاع... تشعر بالحزن لأنها لم تحصل على وجبتها من قطعة اللحم المشوية، والبطاطس المحمرة، وجبنها من نوع الكاممبير... وكأسها من النبيذ الأحمر من زجاجة مخصصة للمائدة... وهذا تجده على الأقل متوفرا في الرباط.

رغم قراري فصل العرى الوثقى كان هنري يكتب إلي بانتظام -أرسل إلي أجمل خطاباته أثناء إضرابه عن الطعام-. وأحطته علما قبل مغادرتي الرباط للالتحاق بوجده، باتصالاتي مع -لجنة تنسيق حركات التحرير في المستعمرات البرتغالية- وبوجه خاص اتصالاتي مع مارسيليوني دوس سانتوس من موزامبيق[٧٢] وأكينو دو بارجانسا من جلوة[٧٣] الكاتب في مجلة *تون موديرن*. وعن طريق الدكتور خطيب من قدامى رجال المقاومة في منطقة الريف[٧٤] المتمردة... وهو اليوم على رأس الحركة الشعبية للفلاحين ويناضل من أجل تحقيق الاشتراكية على أسس إسلامية ويستند إلى قوة قبائلية من سكان البربر الجبليين، مؤيداً -النظام الملكي الدستوري- شأنه شأن جميع الأحزاب الأخرى. وأصبح الدكتور خطيب وزيراً كلفه الملك باتصالات مع حركات التحرير.

لم أقابل أثناء السنوات التي أمضيتها في المغرب -صيف ١٩٦١ - صيف ١٩٦٢- ممثلين للمعارضة المغربية اليسارية المشروعة. وكان بن بركة -الذي لم أكن أعرفه في ذلك الوقت- مبعدا في منفى اختياري في الخارج... ولم اسمع بقادة الاتحاد الوطني للقوى الشعبية UNFP، والاتحاد الوطني للطلبة المغاربة UNEM، أو UNT الاتحاد المغربي للعمل - قدمنا إليهم المساعدات فيما بعد- عن طريق مارك أوليفيه[٧٥]... وهو

---

٧٢ أصبح وزيراً للخارجية بعد الاستقلال وتوفي بعد ذلك.
٧٣ اغتيل مع ساموِرا ميشيل.
٧٤ منطقة جبلية شمال المغرب يسكنها البربر-المترجم
٧٥ وهو الآن باحث في الـ CNRS-CIRSS في مدينة جرونوبل.

شاب تمرد ورفض الخدمة العسكرية٠٠٠ وكان على اتصال بالحركة النقابية المغربية. أعد بالاشتراك مع بول بولو مشروعا رائدا لتكوين، وتدريب الشباب حول تجربة زراعة بنجر السكر في بقعة من الأرض المروية. وكان اتصالنا الرئيسي مع -وجه النحس!!!- الجنرال ديليمي[٧٦] ٠٠٠وأترك هذا الموضوع لعناية جان ماري لكي يقص عليكم مغامرته السيئة الطالع التي كادت أن تودي بحياته[٧٧] ٠٠٠!!! ومع ذلك كان يتصرف معنا بلياقة٠٠٠ وضع تحت تصرفنا سيارة (سبور) حمراء استطعنا قطع المسافة بين الربط - ووجده - الرباط بسرعة ١٤٠ كيلومتر في الساعة -على الطريق المعبد- وكانت هذه السرعة تمثل أداء ممتازا في ذلك الوقت.

استغربت كثيراً من انتشار جو الحريات في المغرب. وكان الملك الحسن الثاني الذي وصل إلى سدة الحكم[٧٨] ينفذ برنامج الملك محمد الخامس٠٠٠ ويعد أول دستور للمغرب بعد الاستقلال -وضع موضع التنفيذ في ديسمبر ١٩٦٢-. بالطبع كان الحزب الشيوعي ممنوعاً -باسم الإسلام- ولكن بغض النظر عن ذلك٠٠٠ كان هناك تساهلا كبيرا مع قادته ويتعامل معهم بكل احترام وتبجيل - قتل كثير منهم في الكفاح المسلح من أجل الاستقلال- وتلقت كثير من مطبوعاتهم -الجريدة الأسبوعية- المكافح -والشهرية - المبادئ- التقدير الكبير. لم أحاول معاودة الاتصال. واحتفظت بذكرى شعور صاحبه بعض الضيق عندما اتصلت بالدكتور هادي بيسواك، رغم تميزه بالرقة في معاملاته الشخصية: لم يوافق في ١٩٥٩ على طلب قدم له لكي يساعد في توزيع -نداء من أسر المعتقلين السياسيين المصريين- أثناء انعقاد أحد اجتماعات الجامعة العربية ٠٠٠وقال أن ذلك قد يعتبر بمثابة اعتراف فعلي من حزبه بمنظمتي ٠٠٠وبمساعدة بولو طبع وسحب النداء في إحدى الإدارات الوزارية، ووزع بالبريد !- ومن اللافت للنظر ٠٠٠ ودون أن أعي ٠٠٠ كنت قد قطعت صلتي بالماضي٠٠٠ ولم يظهر من بين طياته سوى هنري.

---

٧٦ الجنرال ديليمي من بين وظائفه ٠٠٠مدير عام الأمان الوطني ، ورئيس الجهاز السري المشهور بساديته ومساونه الأخرى تحت قيادة الجنرال أوفقير الذي أعدمه فيما بعد بناء على أوامر الملك الحسن الثاني عام ١٩٧١ ٠ودبر الملك في ١٩٧٦ حادثا وهميا بمساعد وكالة المخابرات الأمريكية قضى به على أوفقير لأنه كان قد دبر انقلابا ضده٠٠٠

٧٧ "وقع على مسمعي وبمحض المصادفة – وذلك في إحدى الأمسيات- حديث سري يدور حول عملية تواطؤ بين شبكة تابعة لمنظمة الجيش السري الفرنسي وأفراد من حاشية القصر٠٠٠ بينما كنت أتحدث مع بو عبيد وفي حالة اكتشافي كنت سأدفع حياتي ثمنا٠٠٠

٧٨ ثلاثين عاماً من السلطة جعلته ملكا ساديا (أنظر جيل بيرو: صديقي الملك، جاليمار ١٩٩٠ يباع أيضاً في شكل كتب للجيب).

أين هم الثوار... ؟؟

غداة وصولنا إلى مدينة وجده ...نزلنا في بيت على شاطئ البحر- وجاءت هيلين، وجاكي لتلقي نظرة- ومعنا زينه وقد صففت شعرها تصفيفة رائعة ...بعيونها الخضراء، و فاطمه الماهرة. كانوا قد الحقوهن بالهلال الأحمر الجزائري... وحصلنا على إجازة لمدة أسبوع قضيناها معاً في بلدة سيده، وهي محطة حدودية مع الجزائر - ضللت الطريق في صباح أحد الأيام، وعدت إلى صوابي... وإلى الواقع فجأة عندما سمعت أزيز طائرة تحلق فوق رأسي... وكنا في المساء ننام على شاطئ البحر، ملتفين بأغطية عسكرية: فصل الصيف فصل طويل في المنطقة الشرقية من المغرب، وكانت كل هذه المنطقة واقعة تحت سيطرة جبهة التحرير الوطني الجزائرية... ليالي طويلة نتطلع فيها إلى النجوم... تتخللها ثرثرات... وعبارات تفصح عن اليقين بأن : الجزائر عندما تصبح حرة ستكون بلد العمال، وعندئذ يحصلون على مسكن، كما ستؤكد النساء وضعهن، وسيسترد الأطفال على مدارسهم وحدائقهم ... حدائق كثيرة، ومسارح عرائس ... وستصبح الجزائر اشتراكية.

ويغلبني النعاس، وأنا أهتز من صوت البحر ورتابة أمواجه ... واسمع أطراف حديث عن بلد لا أرى منه إلا شريط صغير من أرضه ...ومن على بعد... ومن موقعي على الحدود!!!.

وانتقلت في وجده إلى سكن مناسب تماماً -ثلاثة غرف أنا وهيلين، مما سمح لكل واحدة منا الحصول على غرفة مستقلة تفصلها قاعة... بدأنا هذه التجربة النضالية الجديدة مع الزوجين أوجيبه. وفجأة وجدنا أنفسنا في عالم يمتلئ باللاجئين والجنود ...كلهم ينتظر العودة إلى بلاده من المغرب.

واختلف الأمر بالنسبة لنا : تحملنا مسئولية كاملة... ولم نكن نخضع لأي رقابة. صممنا المناهج الدراسية في الرباط وقررنا أن نعد الطلبة الراغبين لامتحانات -شهادة الدراسة التكميلية وشهادة البكارلويا- وينبغي أن تنصب كل دروس العلوم الإنسانية، والاجتماعية على موضوع الجزائر، والمغرب الكبير، وأفريقيا. ووزعت هيئة التدريس بطريقة عادية كالآتي: جان لوي وبيريت أوجيبه لتدريس الرياضيات، وهيلين لتدريس الآداب، وأنا أتكفل بتدريس المواد التي تعودت عليها -التاريخ، والجغرافيا، والإنكليزية-، ويدرس العربية مدرس جزائري، وأخيرا تتولى جبهة التحرير التدريب والتكوين السياسي للشباب، وإدارة المدرسة.

أطلق عليها اسم مدرسة بن باديس الثانوية وهو -اسم أول عالم وطني أحيى الهوية الوطنية الجزائرية في إطار الثقافة الإسلامية-.

كنا نعلم تماماً أننا سنتكفل بالتدريس لشباب لم يعد مقبولا في المدارس المغربية المكتظة، ولأنهم قد رسبوا في الامتحانات. استقبلنا في المدرسة حوالي ٨٠ من أبناء اللاجئين -من مدرسين، وتجار، ومزارعين- يمكن تصنيف الكثير منهم كمجرمين

أحداث. قسمناهم إلى ثلاثة فصول، على أساس القواعد المدرسية التقليدية: بشكل عام فصل ٦/ ٥، وفصل ٣/4 وفصل ١/٢. لم تكن هذه المدرسة تقترب بأي صورة من الصور من شكل المؤسسات التعليمية التقليدية، لا في مضمون مناهجها ودروسها، ولا في الأسلوب البيداغوجي التعليمي المتبع، ولا في طبيعة العلاقات بين المدرسين والتلاميذ. وكان هذا رائعاً. وكنا نأمل في إيلاء أهمية أولى للتكوين السياسي لمواطني جزائر المستقبل، ولكنه اقتصر على بعض الدروس بالعربية!!! تناولت بعض المبادىء المدنية المتعلقة بسلوك المواطن بالاستناد إلى علم الأخلاق الإسلامي...

ولم يعد يوجد شيء يشبه حياتي السابقة. أصبحت عضو أجنبي في جبهة التحرير... لم أحاول التعرف على ما يجري داخلها... بل لم أعد أعمل في السر.

ولكني كبقية أعضاء الفريق، لم أتوقف عن سلوك مسلك المناضلة. مما كان سبباً في نجاح تجربتنا... حقق أفضل التلاميذ قفزة نوعية، واقترحوا علينا -في الربع الدراسي الثاني- التكفل بالتدريس في الفترة المسائية في -فرق متناوبة- في حملة لمحو الأمية بين الكبار. وأضفنا عبارات جديدة إلى كتاب المرشد الذي تلقيناه لمحو الأمية بين العمال المغاربة: مثل الثورة، والإصلاح الزراعي، والنظام التعاوني للإنتاج/ والتسويق، والتعليم الاشتراكي ... -ويتهموننا اليوم بأننا حاولنا أن نحشد الأفكار لتوجيهها سياسيا... ألقيت الدروس بالفرنسية وبالعربية. وأراد فلاح من بين العمال-وهو الوحيد - أن يواظب على دروس محو الأمية بالعربية.

ولا تختلف التجهيزات والكتب الدراسية عما يوجد في مدارس الليسيه الفرنسية العادية. لم تكن كتب التاريخ والجغرافيا تتناول الجزائر. كان علي أن أصمم الدروس - واستعنت بالدروس التي أعددتها في باريس للتحضير للامتحانات- وكنت قد تركتها في حقيبة مفقودة في مكان ما- ثم طبعتها على الإستنسل ... وكان علي أن أتعود مع الصغار على الأساليب البيداغوجية للتعليم، وإعداد اللوحات التي تمثل الأدوات التي كان يستعملها إنسان ما قبل التاريخ، ولوحات آلهة فرعونية أو إغريقية في العصور القديمة ما قبل سقراط، أو التي تعالج الفن الإسلامي الأندلسي.

- كان علينا أن نخصص على الأقل أمسية واحدة من كل أمسيتين لفصول محو الأمية. وفي نهاية العام- وبسبب كثرة العمل والإرهاق- أصبحت نحيفة كالظل. ولكني أقسمت بالا أعود إلى الماضي.

ووجدت أن الأوضاع في وجده -لا أدري ما هو الحال في أماكن أخرى... - وسط اللاجئين تبعث على الأسى. ما عدا العمال من أصحاب الامتيازات!! - من سائقين، وميكانيكيين، وإداريين يعملون لحساب جبهة التحرير - وأرباب الأسر الذين يتصرفون بمعرفتهم... مع الاحتفاظ بقرون استشعار تطل على الناحية الأخرى من الحدود التي كانوا يمتلكون فيها قطعة أرض أو تجارة صغيرة.

في "حدتو" في نفس الطريق٠٠٠ بالتالي عارضنا جميع الحروب التي نشبت بسبب هذا الصراع، ابتداء بحرب ١٩٤٨ التي أشعلتها الدول العربية ضد قرار تقسيم فلسطين إلى دولتين.

ورثنا في هذه المنطقة تداعيات نجمت عن إنفاذ اتفاق وقع عليه سراً في ١٩١٦، في بداية الحرب العالمية الأولى، وقعه موظفان ساميان أحدهما إنكليزي (مارك سايكس) والآخر فرنسي (جورج بيكو) لتقسيم الولايات العربية التابعة للإمبراطورية العثمانية على القوتين العظميين الإمبريالية التي وجدتا في ذلك العصر، وهما بريطانيا العظمى وفرنسا. وظهرت صعوبة الوضع عندما لم تستوف العهود والوعود المقدمة للعرب لحفزهم على التمرد على السلطان حليف ألمانيا والإمبراطورية النمساوية الهنغارية، وسعى الإنجليز في نفس الوقت إلى اجتذاب تأييد اليهود في العالم، ومن بينهم الذين هاجروا إلى الولايات المتحدة الأمريكية ولكن أيضا من وجد منهم في الإمبراطورية الروسية الهرمة التي بدأت تتحلل، ممن لحقتهم عمليات الإبادة الجماعية (بوجروم)[6]. ويعود تاريخ الخطاب الذي أرسله الوزير الإنكليزي لورد أرثر جيمس بلفور، إلى اللورد والتر روتشيلد إلى ٢ نوفمبر ١٩١٧. وينص على أن "حكومة صاحبة الجلالة تنظر بعين راضية إلى إقامة موطن وطني يهودي في فلسطين" ، كما أكد "أنه لن يمارس أي عمل قد يمس الحقوق المدنية والدينية للجماعات من غير اليهود، المقيمة في فلسطين ولا بالحقوق والوضع السياسي الذي يتمتع به اليهود في أي بلد آخر".

وبعد الإعلان عن حق إقامة وطن يهودي في فلسطين بدأ صراع بين حركتين وطنيتين كانا في سبيلهما إلى التكوين والظهور تطالبان بنفس رقعة الأرض التي اعتبرتها الديانات التوحيدية الثلاث أرضاً مقدسة٠٠٠ وفي كلا الحالتين لعبت الجماعات الموجودة في الشتات دوراً حاسماً . وأدت أحداث تاريخ هذا الصراع المعروفة جيداً إلى إقامة دولة إسرائيل، وإلى نشوب خمسة حروب وانتفاضتين، دون أن يؤدي ذلك بعد٠٠٠ إلى إقامة دولة فلسطين. وأصبحت إسرائيل قوة عسكرية نووية تتلقى دون تحفظ ودون توقف دعما من الولايات المتحدة الأمريكية ، وحتى وقت قريب كانت تتلقى تأييد أغلبية الرأي العام الغربي. ولعبت- في النهاية- نتيجة حرب الخليج الأولى من أجل تحرير الكويت التي احتلتها العراق - الولايات المتحدة الأمريكية دوراً حاسما وضغطت على حلفائها العرب للدعوة إلى عقد مؤتمر سلام في مدريد في أكتوبر ١٩٩١.

لأول مرة جمع المؤتمر حوله وفوداً جاءت من بلدان عربية، ومن فلسطين ومن إسرائيل. وأجريت في موازاة ذلك سراً اتصالات مباشرة بمساعدة النرويج بين منظمة

---

[6] وهو مصطلح باللغة الروسية يحمل معنى الدمار الكامل الذي يستخدم لوصف ما آلت إليه الطوائف اليهودية في أوروبا الشرقية والوسطى.

أما الباقي ... فيعيش خاملاً في المعسكرات. صحيح لم يفتقر أحد إلى شيء: كان الهلال الأحمر الجزائري والجمعيات الخيرية الأجنبية -كثيراً ما كانت اسكندنافية- توزع الأغطية والمأكولات الضرورية -الدقيق، والسكر، وحليب البودرة، والزيت- بل حتى الجبن. وتشاهد في كل ساعات النهار رجالا- رغم أن لديهم لياقة بدنية- مستغرقين في النعاس مستلقين على حصرهم... وقد أصابهم الضعف والهزال من هذا الفراغ المفسد الذي فرض عليهم فرضا. دون أن نود جرح شعور أحد... فهؤلاء سكان تقرر التضحية بهم !!!ومن الواضح أنهم لا يمثلون أي أهمية بالنسبة للمسئولين السياسيين... ويتبقى بعد ذلك الجيش.

لا تسعفني ذاكرتي لأسرد تفاصيل الجولة التي قمنا بها... وصلنا إلى المعسكر الحربي في نادور، وهنا أتذكر تماما سحر المناظر على الطريق الذي يخلب الألباب ...عبرنا واد مولويا... الذي تجري فيه المياه بسخاء في هذه البقعة الجافة من البلاد.

استقبلنا أحد المفوضين السياسيين بخطاب تقدمي، وبحفاوة، وتشريف كاملين، وألقيت علينا أسئلة. مثل ما هي انتماءاتنا ...وكيف كانت عملية هروبنا، وهذا كما قال، لإضافته على وجه التحديد إلي دروسهم... وتسلمنا منه -شهادة تقدير لإنجازنا الدروس التكميلية- تشبه تماما ما كان يحصل عليه في حقب البطولة الأسطورية الجندي البولشفي. كما أكد المفوض في حديثه على وصف مستقبل الجزائر، ومؤكدا على قيام عصر البناء الوطني والعدالة الاجتماعية في المستقبل.

لا أنسى زيارة أخرى: في منطقة الإحراج الجنوبية في منطقة بو عرفة – فيجيج[79]. نشاهد أولا دوار من الخيام لنساء، وأطفال وكبار في السن. وفجأة يأتي في بداية الفترة المسائية الشباب من كل صوب وحدب بملابسهم العسكرية، ويحيطوا بنا، ويسألونا ويقصون علينا بصوت خفيض ما كان من أمرهم بينما ينكشون الصحن الضخم المليء بطعام الكسكسي المشتعل ... من لا يعرف مثل هذه الساعات التي انتشرت فيها الثقة وحرارة المشاعر بين مناضلين من أجل قضية واحدة ... فلقد فاته شيء غال من الحياة...!!

ومرة أخرى الجيش: شاهدنا بو مدين وهو يلقي خطابا على المقاتلين الجزائريين من أجل الحرية في الخامس من يوليو ١٩٦٢ يوم الاستقلال... خطاب مباشر ... يبعث على الثقة ...بعد كل ما سمعناه من مزاحمات ومنافسات دارت في تونس أو بين عشيرة! أولاد... بو سوف[80] الذين كانوا في الرباط... أو بعد ما شاهدناه من صور المنسيين من النضال من أجل التحرير الذين أصيبوا بالخمول في معسكرات اللاجئين في وجده . وتأكد هذا الانطباع عندما تقابلت مع بعض أعضاء قيادة الجيش في تلمسان.

---

٧٩ موقع قريب من الحدود الجزائرية تعبره وحدات المناضلين للقيام بعملياتهم الحربية ضد قوات الاحتلال الفرنسي- المترجم.

٨٠ كان مسيطرا -في هذا الوقت- على جبهة التحرير في المغرب، ويعتبر من القادة المؤثرين في المنظمة مع بو ضياف وكريم بلقاسم وبن طوبال وقد صنف من بين فريق الصقور مع بن طوبال .

جو يفوح منه عبير الياسمين...

باريس، مارس ١٩٩٢

قلما يدور الحديث عن روعة وتنوع البيئة النباتية الإفريقية... !! يا ترى ...هل يقصد من ذلك عدم جرح شعور الغير ... !! حيث يتعرف فقط الذين يشبعون بطونهم دون غيرهم على رائحة الزهور وأشجار البرتقال والياسمين...!! وفي جزائر اليوم يشبع كثير من الناس بطونهم...

ترددت في وقت تدور فيه من جديد أعمال العنف-علماً بأن محمد بو ضياف[٨١] لا يستطيع أن يفعل شيئا-أن ألقي الضوء على نصوص تناولتها بعد شعوري بالغضب من قدامى "الأقدام الحمراء" الذين أنكروا كل ما أسهمت به تجربة صارت الآن إلى طريق مسدود...!!! دون أن يتساءلوا عن أسباب إفلاسهم -كثوار أوروبيين... عندما أخفقوا في تغيير نظام عالمي يخنق ويفسد مجتمعات العالم الثالث. ولقد أعددت هذه النصوص - ويمكننا أن نقول بنظرة إلى الوراء- في وقت أعيد فيه من جديد طرح قضية المشروع الاشتراكي ...ويعيدنا هذا كله إلى السنوات الأولى للجزائر المستقلة... -وأرى ضرورة التنويه إلى أن هذه السنوات هي السنوات الوحيدة التي اشتركت فيها في جهود البناء والتشييد الوطني-

ولو أن تذكر ما ورثه المجتمع لا يكفي لإلقاء الضوء على أسباب ما آل إليه كل شيء الآن: نظام كولونيالي من بين أكثر الأنظمة المهينة لكرامة الإنسان، ثم ما خلفه من تلف وخراب عم البلاد بسبب اندلاع حرب من أكثر الحروب تهلكة، ومجتمع تحطمت هياكله وبنيته التحتية، وانتشرت فيه الأمية، بل يرفض شاب من قرية ندروما -وهو بالمناسبة ابني بالتبني- يجيد القراءة والكتابة الذهاب إلى دورة تدريبية في منطقة القبائل الكبرى... لاعتقاده أن الأطفال من غير منطقة القبائل يغتالون...!! هكذا كانت عزلة مناطق البلاد وتفككها...

جنيف، ديسمبر ١٩٧٩

عندما ركبت القطار من المغرب إلى الجزائر في يوليو ١٩٦٢، قصدت رؤية هذا الشعب الذي حقق استقلاله غلابا... شاهرا سلاحه، على عكس ما حدث في باقي أنحاء أفريقيا التي استعمرتها فرنسا وإنكلترا... وكأن استقلالهم قد منح إليهم، ولم يكن نتيجة نضال...

---

٨١ أحد المؤسسين الأوائل لجبهة التحرير الوطني الجزائرية، استقال من المكتب السياسي بعد الاستقلال ونظم حزب معارض -حزب الثورة الاشتراكية- ونفي في ١٩٦٣ إلى المغرب وظل هناك حتى أستدعي بسرعة ليرأس الجزائر بعد الأزمة التي ثارت إثر إلغاء نتيجة الانتخابات، وسعى في ذلك الوقت لكي يحيي تجمع من أجل تجديد البلاد لكن سرعان ما اغتاله ضابط من المجموعة المكلفة بحراسته في ٢٩ يونيو ١٩٩٢.

وبما أني أردت مشاهدة كل شيء، طلبت إجلائي بالقطار مع اللاجئين الجزائريين العائدين من المغرب بدلاً من السفر بالطائرة مع هيلين. ولم آسف على شيء٠٠٠ رغم شدة الحرارة والقيظ٠٠٠ لا شك الذين يعرفون سهول المغرب الشرقي المرتفعة- وبطء القطارات المغربية، وتوقفها الذي لا ينقطع على الحدود من أجل التحقق من أوراق إثبات شخصية المسافرين، والازدحام المعتاد في وسائل مواصلات البلدان المتخلفة٠٠٠ بل كان الوضع هنا أكثر اكتظاظا ٠٠٠ تطلب الأمر إجلاء أكبر عدد ممكن في أقصر وقت ممكن ٠٠٠- قد يستغرب البعض من قراري هذا ٠٠٠ولكن بفضل هذا المشوار، الذي قطعت جزءا منه في سيارة أجرة جماعية، وأيضاً بعد الوقوف على قارعة الطريق أطلب من السيارات المارة أن تأخذني ، استطعت التعرف على الأرض المحيطة وما عليها من بشر ٠٠٠

لم أتوقع، بعد ما رأيته من مشاعر وطنية ضيقة الأفق للكادر الذي تقابلت معه في بروكسل ، وفي الرباط- قد يكون السبب هو وجودهم في ظروف مقاومة صعبة٠٠٠!- أن أجد سكانا لا يحملون أي مشاعر عنصرية، ولا كراهية للذين كانوا بالأمس فقط يتجاهلونهم، بل يسومونهم العذاب .

وكان هذا الاكتشاف مصدر راحة، وسعادة في آن واحد ٠٠٠كما لو كان المرء يغطس في بحر من مياه باردة في يوم ملتهب الحرارة !

وشاهدنا هذا الجندي الفرنسي الشاب الذي أرسل لإخماد الفتن، وفرض السلم على شعب لا يعرفه، يصيبه الغثيان من كثرة الكراهية التي يشعر بها على أرض، وتربة المستعمر القديم.

وانضم إلي ابني بالتبني شوال، في يوليو ١٩٦٢ في مدينة مغنية وهو أول مكان توقفت فيه، واستقبلت استقبالا حافلاً من أفراد أسرة حروات كمدرسة٠٠٠ واضطررت مجبرة أن أغادر حمام السباحة لأن جنود الوحدة العسكرية الفرنسية المجاورة اعتقدوا أني فرنسية أصاحب شباب جزائري٠٠٠ وكان الوضع يهدد بعظائم الأمور. وزرت فيما بعد على الطريق المؤدي إلى ندروما، أسرة شوال وتعرفت على جدته العجيبة٠٠٠ وركبنا سيارة نقل عسكرية فرنسية ٠٠٠واضطررت تحمل -دون أن انبس ببنت شفه- أفكار الكراهية التي حملها شباب هذه الوحدة العسكرية٠٠٠ وهم تقريبا كأطفال صغار شقر وزرق العيون- تقمصت شخصية صحفية إيطالية تقوم ببعض التحقيقات- كان الجو خانقا٠٠٠ شباب لا يدري ما الذي يدافع عنه ٠٠٠ويتظاهرون لكثرتهم، وهم مدججون بالسلاح بالقوة والعجرفة- قد يكون لإخفاء قلقهم٠٠٠ بعد أن ساقهم أبناء جلدتهم إلى هذا الجحيم.

لا أعلم شيئاً عن الفترة التي تخللتها حسابات التصفيات الدموية بين الجزائريين، ولا شيئا عن الاغتيالات التي ارتكبتها جماعة OAS، ولا الصراع الداخلي الذي مزق الجماعات الجزائرية المختلفة المتنازعة على السلطة. إلا أني أعلم فقط ، كما يعلم

الجميع، أن الـ GPRA جيش التحرير الشعبي الجزائري خسر المعركة... لأنه واجه قيادة الجيش الخارجي. ولقد سنحت لي فرصة الاستماع إلى ما يقوله قادته عندما كنت في زيارة لمدينة تلمسان.

ولم أستغرب بتاتاً عندما قابلت جان ماري بوجلان يتسكع بفضول مثلي في طرقات المدينة مع ميشيل رابتس[٨٢]، وكان قد نجح هذا الأخير في مقابلة بومدين وأعد مقالا عن موضوع النقاش لجريدته.

سنحت الفرصة للتعرف على القومندان جمال[٨٣]، الذي يتشدق بمقولات لفانون، وتعرفت على بومدين ذو العيون التي تشبه نظراتها نظرات صقر يصيب ضحيته بالشلل... عيون صقر من جبال قسنطينة...!!! وبدى لي أن تحفظه الشديد يعود إلى شخصيته الجادة لا لأسباب تتصل بمشاعر تتعلق بحرج ما. ولقد دعانا – وهو الوحيد– القومندان سليمان[٨٤] إلى تناول وجبة صغيرة في الموقع... وشعرت أنه لا يسيطر تماما على قواه العقلية، وأنه كغيره من المتلهفين على السلطة، ولكنهم جميعا من الوطنيين – على الطريقة الناصرية–. ولا يشبهون المرتشين الفاسدين الدمويين– على الطريقة التشومبية–.

وفي الجزائر تعرفنا على عمر أو صديق[٨٥] وهي شخصية مؤثرة عايشت فترة – المنطقة الحرة– من يناير حتى يوليو ١٩٦٢، وهي المنطقة التي نظمت حسب مبادئ الكومونة الاشتراكية... حدثني بكل حماس عنها كفترة ثورية... تدفع المرء ليتجاوز كل العقبات... ويتحقق حل المشاكل التي انبثقت من الوضع الذي أفرزته أعمال الإرهاب التي اقترفتها منظمة OAS وكان وضعا خاصا صعبا للغاية...

---

٨٢ تحدثت عنه سابقاً: تأسست الدولية الرابعة في ١٩٣٨ وانفصل عنها واشترك بكل طاقته في دعم الثورة ضد الكولونيالية، ولا سيما الثورة الجزائرية... أقام لها مصنعاً للأسلحة في المغرب ولطباعة الأوراق النقدية المزورة ...حكم عليه بالسجن ١٨ شهرا في هولندا شديد الحماس من أجل الإدارة الذاتية، ظل قريبا من بن بيللا، وهو شخصية مثيرة للعجب بطاقته المتفجرة، كنت أقدر فيه ثبات مزاجه، وكان يقول لي بكل جدية وقد تجاوز الثمانين سنة من عمره وأنا تجاوزت سبعين سنة، *"يا ديدار يجب أن نقوم بالثورة"*... بينما نناقش الوسائل الكفيلة بتهريب إفراهام صرفاتي من سجنه المغربي ! .... توفي من وقت قريب في أثينا في١٦ فبراير ١٩٩٦ وقد بلغ من العمر ٨٥ سنة.

٨٣ هو شريف بلقاسم، أصبح السكرتير الخاص لبن بيللا، وأقمت اتصالات بينه وبين منظمة التضامن، وكان هذا الاتصال صعبا لأنه كان يشك في وجود مصالح غامضة أحاول تحقيقها "أنتي تفعلين أكثر من اللازم" هذا ما قاله لي هنري، عندما نبهه أحد أعضاء منظمة التضامن، وكان يتردد على جمال شاربي، عضو بمجموعة وجده الذي شارك في الانقلاب ضد بن بيللا وأصبح بعد ذلك وزيرا أثناء حكم بو مدين ثم صعد بعض الوقت إلى قيادة الحزب ورئاسته إلا أن تاريخه المهني لم يستجب للتوقعات.

٨٤ أحمد قايد، نائب في أول جمعية وطنية ووزير للسياحة، بعد الانقلاب أصبح عضواً في مجلس الثورة، ووزير للمالية، ثم مسئولا عن جهاز الحزب ١٩٦٧ - ١٩٧٢، يعترض على الثورة الزراعية التي نادى بها بو مدين، غادر الجزائر إلى المغرب في ١٩٧٢ حيث وافته المنية في نفس السنة.

٨٥ نفي إلى باريس، والتحق بالعمل في مصنع وأصبح عضواً في اتحاد النقابات CGT وانضم إلى جبهة التحرير الوطني الجزائرية في ١٩٥٥، وترأس بعثة كوناكري في ١٩٦٠، وأصبح مستشارا سياسيا للمنطقة الحرة، التحق بعد ذلك بالسلك الديبلوماسي ثم طلب الإحالة إلى التقاعد مبكراً، وقد توفي منذ وقت قريب

لم أتمكن من استيعاب مضمون المشروع السياسي للولاية الرابعة٠٠٠!!! وكنت على اتصال دائم مع محمد بو ضياء٠٠٠ الذي تحدثت عنه سابقا، وهو من أبناء القصبة -مرتبط بشبكة ياسف سعدي وعلي لا بوانت، أي "الغارة"- وهو مؤلف مسرحي عرضت إحدى مسرحياته على خشبه أحد المسارح الباريسية٠٠٠ عاش حياته المزدوجة دون صعوبات ٠٠٠كمثقف وكمناضل ثوري ٠٠٠أنشأ مع جان ماري بوجلان المسرح الوطني الجزائري.

واستضافنا بو ضياء٠٠٠ أنا وهيلين عند أمه وحدثني عن مشروع بن بيلا باعتباره المخرج الوحيد للإفلات من استئثار الأسر البرجوازية الجزائرية الكبيرة بالسلطة[٨٦]٠٠٠وهم من الناحية الفنية أكثر المجموعات استعدادا لإدارة البلاد، ناقش ممثلوهم في اجتماع الصخرة السوداء- وهي الآن منطقة باسم بو ميرداس انتقلت إليها الحكومة، وجعلتها مقرا لها عندما كانت لا تزال فرنسية- توليهم شئون بلادهم المحررة.

ولم تتوقف الجزائر عن الغليان ٠٠٠

تلمست وجود جو خاص عندما نزلت من القطار الذي حملني من وهران : أي الجو الذي يولد بعد قيام علاقات اجتماعية تحررت من أغلال القيود.

وفاح عطر الياسمين في الجزائر في صيف ١٩٦٢ ٠٠٠

فتح سائق سيارة الأجرة التي أقلتني من المحطة ٠٠٠باب السيارة لكي أتمتع بهذا الجو الرائع: بعد القيام بجولة أعلى مرتفعات الجزائر العاصمة - مروراً بفيلا سوسيني التي يغلفها الحزن[٨٧] والسواد - متوقفاً في بعض الأماكن لكي أشاهد المدينة وهي تنحدر نحو الميناء٠٠٠ قبل أن يقلني إلى العنوان المحدد، ورفض قبول أجرته٠٠٠ لأني كنت - من الأخوات من بلاد عبد الناصر - تحدثت إليه بعربيتي الدارجة المصرية التي فهمها بالكاد٠٠٠ انتقلنا للإقامة في شقة فارغة في شارع ليس دو باك، هيلين وآنيا فرانكوس وأنا ثلاثة أجيال مختلفة٠٠٠ لا أدري كيف حصلنا على هذه الشقة٠٠٠!! عثرنا على ثلاثة حصر وافترشناها كرياش وحيد٠٠٠

بدأت طلقات الرصاص تدوي في شوارع الجزائر العاصمة٠٠٠ ولم يغير هذا من عاداتنا: نتسكع في كل أوقات النهار، بل حتى بزوغ الفجر ٠٠٠ مثل ذلك اليوم الذي خرجنا فيه بعد حفل عشاء عند جاك شاربي[٨٨] ٠٠٠ لم يفكر أحد أن يرافقنا حتى نعود إلى

---

٨٦ أقام مجموعة ذات مصالح اجتماعية محددة٠٠٠ قطع الطريق عليها عسكرة جهاز جبهة التحرير الوطني الجزائرية.

٨٧ أحد أماكن التعذيب الشهيرة -المترجم.

٨٨ ممثل كوميدي، من أسرة يهودية فوق العادة، كان أبوه نقابياً ثوريا، وانتحرت أمه عندما جاء البوليس لاعتقالها أثناء المقاومة ضد النازية حتى لا تجبر على الاعتراف، ألقي القبض عليه في فبراير ١٩٦٠ مع أعضاء شبكة جانسن، حصل على إفراج طبي، وهرب لكي ينضم إلى الجيش الشعبي الجزائري في تونس، تعرفت عليه في وجده حيث حضر إليها لإجراء تحقيق مع شباب اللاجئين الجزائريين، ينكب اليوم ليرتب محفوظات متلفزه عن أحداث المقاومة أثناء حرب الجزائر.

منزلنا، باستثناء دورية عسكرية راكبة ٠٠٠حدث نفس الشيء في وهران عندما رافقتني بالليل إلى فندقي دورية مشابهة بعد أن ضللت الطريق في الشوارع الخالية.

كنا نتسابق في الأيام الأولى -بعد وصولنا- لاستطلاع الأخبار، وكنا نقيم إما في فندق آليتي أو في فندق سان جورج٠٠٠ ونتحاشى الصحفيين الذين يتربصون، ويترقبون فرص تحقيق سبق صحفي -هذه هي مهنتهم- بينما يستمر قتل الجزائريين لا لشيء٠٠٠ وكنا نسعى للحصول على تعقيبات الكادر الجزائري، وذلك في محاولة للتعرف على الأوضاع٠٠٠ مثل تعقيبات محمد بن يحيى البارعة[٨٩].

نفذ صبر الشعب من النزاع المهلك الدائر بين العشائر المتنافسة، والهرولة من أجل الاستيلاء على السلطة.

شعارات حملها المتظاهرون -سبع سنين بركات !- في شوارع الجزائر العاصمة، يطالبون بالخبز والعمل٠٠٠ حاول المؤيدون لكريم بلقاسم[٩٠]، في ميدان الحكومة أن يساعدوه على تجاوز بوابة القصر المغلقة للانضمام إلى المجتمعين في الداخل: كانت البوابة مرتفعة ومن الواضح أن كريم قد فقد - من جراء جلوسه المستمر في المكاتب - خفة الحركة التي لازمته في أعوام المقاومة.

بعد أن ألقيت الخطب الراديكالية على العمال المتجمعين في ميدان أول مايو استجابة لنداء قادة الاتحاد العام للعمال الجزائريين UGTA[٩١]. انفض العمال وتركوا الميدان دون أدنى إرشاد أو تعليمات من قادتهم ٠٠٠ ولحسن الحظ يتبقى بعد كل ذلك سكان القصبة٠٠٠!!!

ساند هنري ومجموعته في باريس في بداية الأمر، ومثله اتحاد الجزائريين في فرنسا التابع لجبهة التحرير في فرنسا، الحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية GBRA التي كانت موجودة في ذلك الوقت في تونس في ١٩٥٦، وكان رئيسها في ذلك الحين بن خده

---

٨٩ من الـ UGEMA عضو في مكتب فرحات عباس ١٩٦٠، مفاوض في مولان وفي إيفيان، سفير في موسكو وبعد ذلك في لندن أثناء فترة بن بيللا، أصبح وزيراً للإعلام، والتعليم العالي والبحوث، والمالية والشئون الخارجية، توفي في مايو ١٩٨٢ في حادث غامض عندما سقطت طائرته في إيران.

٩٠ بعد أن كان أحد رؤساء المقاومة، استبعد من الحياة السياسية، بعد انقلاب يونيو ١٩٦٥، نظم معارضة للرئيس بومدين وحكم عليه بالإعدام غيابيا، اغتيل في غرفة في أحد فنادق فرانكفورت في أكتوبر ١٩٧٠، ثم شرف بعد وفاته ودفن في مقابر المجاهدين في الجزائر العاصمة في ١٩٨٤.

٩١ أنشئ في فبراير ١٩٥٦ ويطالب باستقلال الجزائر كأساس رئيسي يفضي إلى "توازن في العلاقات بين السكان، محدثا نموا وتنمية في الصالح الوطني، مع استغلال موارد التربة الجزائرية"، وكنتيجة للقمع الذي أصاب الحركة النقابية ورغم شدة القمع استمر الجهاز قائما بفضل وجود الجهاز المركزي في الخارج- في تونس- وركز منذ ذلك الوقت جهوده في التمثيل على النطاق الدولي، مع الاحتفاظ باستقلاله علما بأن الجهاز المركزي كان قد أصابه الوهن بسبب سيطرة القوى الوطنية على الحركة النقابية -كما هو الحال في غيره من البلدان المستعمرة- وأيضا بسبب القمع.

وساندته في الداخل ولايات قسطنطينية، والقبائل، والجزائر الكبرى، وكذلك المنطقة الحرة في الجزائر العاصمة، واتحاد نقابات العمال الجزائريين UGTA .

وكان حزب جبهة التحرير الذي قاد الكفاح المسلح من أجل التحرير، قد تحلل[92]. لم يتبق بعد ذلك إلا وحدات الجيش في الخارج تساندها ولايات وهران، وجبال الأوراس. وفي وجده وتلمسان والجزائر العاصمة... ومع بو ضياء كنت أتعاطف مع هذا الجيش الذي كان يعلن أنه لا يرغب في وجود طبقة جديدة من النهابين في الجزائر، واستمر في تضامنه مع حركات التحرير في العالم.

وعلمت فيما بعد أن مهدي بن بركه كان له نفس الموقف-بينما كنت في السجن- وأن بو معزة نادى بأفكار تذهب في نفس اتجاه بن بركه. وعلى أية حال كلف جيرولد بالذهاب إلى تلمسان ليعرض على بن بيللا الذي كان يؤيد جيش بو مدين، مشروع إقامة منظمة جديدة لمساعدة حركات التحرير يكون مقرها في باريس ... وأفرج عن هنري في شهر يونيو ... وتمت هذه المقابلة مع الرئيس بن بيللا تقريباً في الفترة بين ١٢ يوليو و ٤ أغسطس.

تطورت الأوضاع بسرعة... مصادمات في ٢٩ أغسطس حدثت في أعلى حي القصبة، احتل آلاف المتظاهرون الشوارع لمنع الرمي بالرصاص... وقفت نساء حي القصبة بصدورهن أمام الرصاص المنهمر في محاولة لوقف المذبحة. وتمكنت قوات الجيش الخارجي في ٣٠ أغسطس أن تشق طريقاً لتدخل منه إلى العاصمة، وعرف فيما بعد بالجيش الوطني الشعبي ALN. و أعلن المجلس الوطني في ٢٦ سبتمبر قيام الجمهورية الجزائرية الديموقراطية الشعبية، وشكلت في ٣٠ سبتمبر الحكومة الجزائرية برئاسة بن بيللا... واستقبل كاسترو بن بيللا في هافانا في ١٦ أكتوبر... وعقدنا في أكتوبر أيضاً في باريس أول اجتماع سري -للكونجرس- وهي قيادة منظمة مناهضة الكولونيالية والفاشية، يدعمها معنويا وماليا بن بيللا ...حملت هذه المنظمة فيما بعد اسم منظمة التضامن.

الجزائر ... هل تتحول إلى شيء آخر ... ؟

لا يسمح تسلسل الأحداث التاريخية الإقليمية بالتعرف على الأسباب التي دعت إلى حدوث التفاوت والاختلال الأيديولوجي الذي نراه قائما بين قيادة الثورية الجزائرية،

---

٩٢ بناء على ما قاله عبد السلام بلعيد - مخطط عملية تأميم قطاع النفط والتصنيع في الجزائر، دفعت جبهة التحرير الوطني ثمن ضعفها في نشأتها: كانت مجموعة محدودة، بدأت العمل دون قيادة مؤكدة ودون أية استراتيجية سوى العمل على إفشال مخططات النظام الكولونيالي، ومن هنا جاءت عملية تصفية الحسابات والإبعاد والفصل من الوظيفة -أنظر هذه المقابلات مع علي الكنز في كتابه بعنوان: "أثناء الأزمة" طبعة بوشين، الجزائر، ١٩٨٩-.

والقيادة الفيتنامية، رغم أن الاثنين متخرجين من نفس المدرسة الفرنسية. ولم يلعب المثقفون في الحالة الأولى دوراً قيادياً، أما في الحالة الثانية قام منظر ماركسي بقيادة الكفاح المسلح. واختير هنا، وهناك التحرير الوطني كهدف للنضال، وهنا، وهناك كانت جهود الشعب بأكمله موحدة، وتقوده جبهة واحدة، ولكن هنا تحديدا فهي جبهة وطنية، بينما هناك فهي شيوعية رغم أن الاثنين يعترفان بالمكونة الوطنية للصراع...

ورغم افتراض وجود التعارض -المتعذر تبسيطه وتغيره- بين الإسلام والشيوعية فهذا غير مقنع في حد ذاته: ولم يمنع ارتباط المجتمع السوداني في الشمال بالإسلام أن يمارس الحزب الشيوعي السوداني تأثيره في المثقفين، واستمر ذلك لمدة تزيد على ربع قرن من الزمن.

أما في حالة الجزائر فلم يكن تأخير اعتراف الحزب الشيوعي الفرنسي - والحزب الشيوعي الجزائري- بعمق الفجوة القائمة بين المسلمين، والأوروبيين كافيا، فلقد كان المثقفون المتأسلمون -العلماء- غائبون عن الساحة أيضاً، وعن قيادة جبهة التحرير. كما ينبغي أن ندخل في الاعتبار الصدف التي حدثت : فمع وجود نظام رئاسي قوي، قد يصبح البديل -اتحاد مع فرنسا - وهو ما اقترحه ديغول غداة تحرير فرنسا ... وكان من الممكن فرضه على الواقع. ومهما يكن من أمر، ورغم أن ما وقع من أحداث في أول نوفمبر ١٩٥٤ قد يكون من فعل مجموعة صغيرة تعد على أصابع اليد، إلا أن الشعور الوطني المستقطب كان كافياً من حيث القوة لكي يلتحم "المسلمون" حول قيادتهم... وهذا على الأقل أثناء فترة الكفاح المسلح ضد نظام كولونيالي اعتبر هذه الأرض مجموعة من الأملاك الشاغرة ووقف عليه...!!!

واليوم، يتفق الجميع على أن سبب مأساة الجزائر المستقلة، هو عدم نقدها للتوجهات الوطنية الجزائرية نقدا تاريخيا... كما أنها ألقت بظلالها على الدور الذي لعبه قائد هنا أو هناك تبعا للعصر قيد الدراسة، بينما يدرس في المدارس تاريخ الإسلام فقط .

وأثناء سنوات إقامتي الأولى في الجزائر كان من الممكن لمس ما ذهبت إليه مختلف الإسهامات من عمق : أدرج الشيوعيون الطبقة العمالية في إطار القوة الاجتماعية التي تلعب دوراً ضاغطاً، وطور -العلماء- مفهوم الوحدة، وسهل -الإستيعابيون ودعاة التكيف- الانفتاح على الثقافات الأخرى.

ومن ناحية أخرى كان للشيوعيين التأثير الأكبر في قراري البقاء في الجزائر: لقد استقلوا القطار بشيء من التأخير بسبب انصياعهم إلى تعليمات الحزب الشيوعي الفرنسي، ولتقييمهم أسباب حدوث المذابح التي ارتكبت ضد -المقاومة الحمراء- ولم يكن لهم حق إنشاء حزب، وإنما كانوا كثيرين منهم في الاتحاد الوطني للطلبة الجزائريين، وكذلك في تيار اليسار في جبهة التحرير الوطني، وبين صفوف شباب جبهة التحرير الوطني.

" *ينبغي أن تبقي معنا يا ديدار، للنضال في أوساط الشباب مع عبد العزيز بو تفليقه*[٩٣] *الأخ الشاب الديناميكي*" هذا هو ما قاله لي بن بيللا في أحد الأيام بينما كنت على وشك أن أغادر مع هنري مكتبه. ولكن هنري لم يشجعني على البقاء في الجزائر، وكان يكره الانفصال عن من هم قريبون منه، وعلى العكس من ذلك عرض عمر غربي – من جبهة التحرير في المغرب – علي عدة مرات وظيفة في وزارة الشباب (القادمة)، حيث كان يعمل مديرا لمكتب الوزير –بعد ذلك انضم إلى بو تفليقه عندما انتقل إلى الشئون الخارجية، ثم انتهى به المطاف سفيراً.

كنت أسافر في رحلات مكوكية في الفترة من يوليو إلى نوفمبر ١٩٦٢ بين الجزائر وسويسرا مروراً بتونس.

وهنا قام أعضاء جهاز الشرطة السرية التونسية باستجوابي بإسلوب فيه شئ من الخشونة، وبإلحاح لكي أشرح لهم طريقة هروبنا، وانتقالنا عبر فرنسا إلى الخارج ... وعندما واجهتهم بأن مثل هذا الطلب يثير شكوكي في انتمائاتهم... !! اصطحبوني في زيارة لمكاتبهم لكي أتأكد من أنهم لا يعملون في لحساب البوليس السري الفرنسي !.

وأصبح اسمي سوزان في سويسرا...!! كلفني الذين صاروا فيما بعد أعضاء في منظمة التضامن، بتنشيط مجموعة لمساعدة حركات التحرير، واستأجرت غرفه في مدينة لوزان. وقام نيلز أندرسن بعملية الطباعة . وكان يأتي من فرنسا مارتن فيردليه لكي يراجع تطورات النشاط في لوزان، ودخلت سرا إلى فرنسا لحضور بعض الاجتماعات. وأصبحت الجزائر في ١٩٦٢ العنصر الحاسم في حياتنا ونشاطنا السياسي. واستطاع هنري أن يقيّم بسرعة الامتيازات التي يمكن أن نحققها بعد قيام علاقاتي السياسية الخاصة مع الرئيس الجزائري... وكان يتولى شخصياً الاتصال بعبد الناصر للإفراج عن شريف الذي كان لا يزال قابعا في غياهب السجون المصرية.

وذكرت هنري بالرسائل التي يملؤها الحماس التي حررها في اليوم الثالث عشر من إضرابه عن الطعام في سجن فرن... وقد تناولت المهام الثورية التي تنتظرنا.

وهنا أعترف، بأني سئمت فكرة النضال بصورة دائمة في سويسرا وكانت تضجرني... وهذا بسبب رتابة النشاط النضالي ...

---

٩٣ اليوم رئيس الجمهورية، كان وزيرا للشباب والسياحة في الفترة بين ١٩٦٢ حتى ١٩٧٩ ثم وزيرا للخارجية، قريبا من بو مدين كان من بين أعضاء فريق وجده الذي أعد الانقلاب ضد بن بيللا، سعى الرئيس الشاذلي- دون أن ينجح في ذلك –أن يغرقه في مسائل تتعلق باختلاس الأموال، كان دائماً يساعد في تقديم الخدمات إلى حركات التحرير، واشترك في تأبين الشخصية الاستثنائية التي تمثلت في صديقنا المأسوف عليه، وأخينا في النضال .. هنري كورييل (أنظر خطابه أمام "أصدقاء الجزائر"، باريس، يونيو ٢٠٠٠).

أولاً كانت هناك مسألة الالتحاق بمكتب في طريقه إلى الظهور على مستوى الرئاسة، تعالج فيه جميع أوجه النشاط والعلاقات القائمة مع حركات التحرير. وكانت المهمة الأولى -حتى في هذه اللحظة- تتلخص في السعي حثيثا لإيجاد جوازات سفر للمناضلين من أنغولا والبرتغال أو غيرهم ومعاونة بن طرفه وهو رفيق درب قديم -كنا قد مررناه عبر الحدود أثناء الحقبة البطولية ...-.

" *ينبغي غداة الاستقلال، سرعة الاستفادة من سخاء وكرم المقاتلين القدامى لكي يستفيد بدورهم الذين ما زالوا يناضلون ٠٠٠و ا حسرتاه فإن هذا السخاء لا يستمر طويلا٠٠٠!!*" هذا ما كان يهمس به هنري إلي٠٠٠

كانت المعونة المالية لمنظمة التضامن تصل مباشرة: فكان الرئيس يمنحها من مخصصات الرئاسة ليضع تحت تصرفنا مبالغ يسلمها أثناء وجودي إلى روبير دافيزييه، وأفهمني بابلو -الذي وجدته في أحد لجان تجنيد الكوادر اليسارية الأوروبية- بأني أضيع وقتي هدرا٠٠٠ وأن فرجيس سيقف ضد ترشيحي[٩٤]. وبذلك انتهى بي المطاف إلى تكريس جهودي للاعتناء بقضايا الشباب كما طلب مني ذلك بن بيللا ،وبعيداً عن الأشياء الصغيرة التافهة، والشخصيات من فصيلة الزواحف اللافقرية الانتهازية المتسلقة٠٠٠!!

ولم آسف على ذلك٠٠٠

يمثل الشباب أولوية في إستراتيجية ثورية. وقد نجح بو تفليقه٠٠٠ الذي يتمتع بحيوية فوق العادة٠٠٠ وبسرعة٠٠٠ من ترفيع إدارة أحد أمانات الدولة، وحولها إلى وزارة لشئون الشباب، والرياضة، والسياحة مع تشجيع الحرف اليدوية ٠٠٠ بل حتى إحياء تقاليد فن المطبخ الجزائري، التي قضت عليه أيضا الكولونيالية٠٠٠!

كلفت في البداية بإعداد نشرة يومية للوزير، ثم توليت إنشاء مركز وثائق تابع لبيوت الشباب ملحقة بالوزارة، وأخيراً قمت بتنظيم مكتب دراسات يغطي مختلف الإدارات، ملحق مباشرة بالوزير. كما كلفت بدراسة٠٠٠ ثم تنظيم النشاط التطوعي للشباب. وليس غريبا أنها الفترة التي ولد فيها هذا الجهاز، وهي الفترة التي سبقت الفترة التي فعلت البيروقراطية والروتين فعلها عندما قضت على الأخضر واليابس٠٠٠

وبدأت تجربة النشاط التطوعي بافتتاح معسكر صيفي، تردد عليه حتى المناضلون الكوبيون٠٠٠ ولقد حشدنا كل طاقاتنا لإنجاحه ٠٠٠ وكانت هذه أول مرة في حياتي -وسوف تكون الوحيدة- التي أكلف فيها بعمل على الصعيد الوطني بعد الاتفاق مع السلطات٠٠٠! وبمساعدة الجيش،. قمت بهذا العمل بالاشتراك مع المستشارين

---

٩٤ فهمت حينذاك، أن الأمر قد يعود إلى صلاتيَ مع هنري، ولكن صححت فيما بعد وقيل أنه بسبب صلاتيَ مع الرئيس بن بيللا، ويبدو أن فرجيس الذي كان يناوئني كما قيل أيضا كان من عشيرة خيضر المناهضة لبن بيللا٠٠٠

التحرير الفلسطينية والحكومة الإسرائيلية كانت محصلتها إبرام اتفاقات أوسلو... مما مكن من عودة منظمة التحرير الفلسطينية إلى فلسطين. ومن اللافت أن بعد اغتيال هنري استمرت المجموعة التي أسسها في باريس في نشاطها لتسهيل- بصورة أو بأخرى- الاتصالات بين الفلسطينيين والإسرائيليين المتعاطفين مع التعايش بين الدولتين.

ووصلت المجموعة إلى نهاية نشاطها حتى قبل ١٩٩١.

هنا توقفت أيضا مذكراتي عند هذه النقطة.

اليوغوسلاف، وكوادر من الاتحاد الوطني للطلبة الجزائريين، ومن شباب جبهة التحرير، ومدربين بعضهم كان مسجوناً أثناء الحرب، وأصبح يقود هذه المعسكرات كوادر من وزارة الشباب، والتعليم الوطني، والزراعة، وأيضا باشتراك موريان، الذي تبينت إمكاناته الهائلة وقدراته الكبيرة··· رغم ميله القوي لإيقاد نيران قد تفضي إلى كوارث···!! اجتمع بوتفليقه بنا-اليوغوسلاف وأنا- بانتظام أثناء المرحلة التحضيرية التي استمرت عدة شهور، ولكنه لم يكن يزورنا في الميدان مثلما كان يفعل - بن بيللا-··· ليترك لي حرية اتخاذ المبادرات اللازمة لتنظيم النشاط، كما أعفاني من مصادر الإزعاج الإدارية، وكان يشجعني علنا أن استخدم مكتبي في الوزارة – الذي لم يغادره هنري أثناء إقامته في الجزائر- من أجل تقديم الخدمات للمناضلين من حركات التحرير··· كانت بالفعل حقبة سعيدة مليئة بالأمل···

تشبثنا في ١٩٦٢ حتى ١٩٦٥ -حتى بعد ما حدث من تغيير في السلطة- بهذا الأمل الجنوني··· بأن الجزائر، لن تكون كغيرها من بلدان كثيرة في العالم الثالث وقعت في مصيدة المستفيدين بغير وجه حق وقيدتها البيروقراطية بأغلالها. ووقعنا فريسة خيالنا ···واستسمنا ذا ورم ··· !! كما لو كان بإمكان هذا الشعب المحطم الهياكل، والأمي المتردي في مستنقع البؤس المنفر الكريه المنتشر على نطاق البلاد واتساعها··· أن ينتقل بضربة – عصا سحرية. ! من وضع التخلف إلى الاشتراكية ···!! ورغم تكاثر صور السكان الذين ينبشون الأراضي القاحلة في منطقة الأوارسنيس حفاة في منطقة مليئة بالأفاعي··· وبطون أطفالهم المنتفخة التي أكلها الجرب··· بينما يكفي استخدام مرهم رخيص لمدة ثلاثة أيام للقضاء على هذه الحشرات القذرة··· كيف يمكن نسيان كل هذه التداعيات التي تتولد عن هذه الحلقة المفرغة للكولونيالية··· كيف ؟- بل لن نذهب بعيدا ···فهذه هي العاصمة نفسها، التي غزاها الأهالي الذين لا يستطيعون سداد إيجارات بسيطة حددتها لهم إدارة الأملاك الشاغرة··· وكانوا بدورهم ضحايا يعانون من نفس الكارثة المنتشرة في ربوع البلاد وأصقاعها. ومع وجود البطالة المستشرية في كل مكان وصعوبة تشغيل المؤسسات التي هجرها الكادر الأوروبي. ونلاحظ فيما عدا الأراضي التي كان يحتلها المستوطنون والتي انتقلت إلى قطاع الإدارة الذاتية··· كيف يتصرف ملاك الضيعات الكبيرة وكأنهم إقطاعيون جدد··· وهل يوجد أجرأ من الذباب ···!![٩٥]

وبدون شك كان الشعب يتطلع إلىالاشتراكية··· ومع ذلك: انضم إلى المقاومة المسلحة من أجل إنشاء الوطن الجزائري المسلم··· وأيضا من أجل إنجاز الثورة الاجتماعية التي تستند إلى مبادئ العدالة والمساواة.

---

٩٥ الذباب يقف على عين الحاكم ، وعلى أنف الأسد من" كليله ودمنه"-المترجم

تميزت الجزائر بقيام المؤسسات التابعة للدولة، كما تأثرت النخبة بما يجري في فرنسا، وتمارس وهي تحت حكم ديغول، تصميم البرامج الاقتصادية والاجتماعية التي تشرف على تنفيذها الدولة.

ولم تزل الأمة الجزائرية في المهد. وكان ينبغي دعمها... وإذا ما تركنا ذلك... أيعني هذا التفكير في إنشاء دولة - اشتراكية !؟ لا شك كانت هناك تحفظات فيما يتصل بالنهج النظري -قيادة يقال عنها أنها تنتمي إلى البورجوازية الصغيرة... وكتلة من الفلاحين... وأمة في طريقها للتكوين، يصول ويجول فيها -في ذلك الوقت- رجال مقاومة يهددون الأمن والسلم المدني، ولكننا رغم ذلك كله اندفعنا ورؤوسنا محنية في اتجاه ضد مسار العاصفة، واشترك معنا اليوغوسلاف والكوبيون.

ماذا سيحدث إذا كانت الإدارة الجزائرية غير شيوعية وعلى عكس ما هي عليه في الصين !؟ وماذا لو- عكس كوبا- توجد الأغلبية في الأرياف !؟ وماذا لو يدور الهمس بأن جبهة التحرير الوطني الجزائرية قامت بتصفية بعض عناصر المقاومة أثناء حرب التحرير !؟

عندما نساهم في عمل، وأيدينا حره غير مقيدة... نترك التنظير... ونسمو إلى مصاف الآلهة. ولما لا الاشتراكية ؟ ألم تكن الجزائر بلد استضاف الحركات الثورية ؟ ألم تصيغ نخبها مواثيق اشتراكية؟... لم نأتي بقرني حمار...![96]

أما فيما يتعلق بالمناضلين الأمميين... ولا سيما، وبوجه خاص الذين لم يصابوا بحساسية من الإسلام -الذي ألصقت به اتهامات نتيجة قرون من صراع دار من أجل السيطرة بين المسيحيين والمسلمين ابتداء بالحروب الصليبية، وانتهاء بتفكك الإمبراطورية العثمانية"رجل أوروبا العجوز"، مع تهديد من اعتنق الإسلام بأنه من عبدة الشيطان... ولم يكن الحوار -الذي تناول مفهوم التحرير- حوارا فلسفيا ولا أخلاقيا، ولكنه انطلق ليصيغ استراتيجيات مباشرة قابلة للتطبيق... وفي الجزائر التي أنهكتها الحرب، وبعد خوض تجربة كولونيالية مريرة افترست أفضل الأراضي... لم نتوقف عن التردید - وان لم يكن ذلك كافيا -أن مجرد إضفاء الطابع الاشتراكي على ضيعة كبيرة في القطاع الزراعي الحديث... إذن لا هي نزوة ولا هو نوع من الوهم السقيم... !! وموروست الإدارة الذاتية على أرض الواقع، داخل الضيعات الزراعية منذ أن بدأ الملاك الأوروبيون في المغادرة.

فضلا عن ذلك كان هناك عامل أخر يحرك مخطط الاندماج على الصعيد الوطني: كان على السكان تحقيق هذا المخطط عندما يمارسون حق تقرير المصير... وكان العمل التطوعي جزءا من هذا المخطط.. غير أن مشاريع أخرى ثورية وجدت أيضا طريقها إلى الساحة.

---

٩٦ لم نكذب... مثل عربي قديم-المترجم

النموذج الصيني...!

تعج الجزائر المستقلة بالمنظرين النابهين الراشدين...!! رغم أن المثقفين الجزائريين لم يلعبو دوراً قيادياً في النضال من أجل التحرير.

واتجهت نية بعضا منهم إلى العودة إلى نقطة الصفر والقيام بثورة اجتماعية،ولم يكن رميا للكلام على عواهنه...

بل أرادوا ثورة طبقاً للنموذج الصيني...!!!

ومنهم عبد القادر عبد الرزاق... حفيد الأمير عبد القادر، الذي اتهم بخيانة القضية الجزائرية... شخصية فريدة ...ماركسي محنك. ومع ذلك لم أتمكن من أن أتعامل معه بجدية... عرفته أثناء حرب التحرير. عندما وضع نفسه في خدمة جيش التحرير الوطني ...

اختفى عند أسرة جروتييه في جنيف في ١٩٥٩ أو ١٩٦٠وحدث ذلك -بلا شك- بعد اشتراكه في المشاجرات الداخلية المشتعلة في تونس... وصدفة، تعرفنا عليه أنا وهنري. كان قد انتهى لتوه من تأليف كتاب تناول الصراع العربي- الإسرائيلي[٩٧].عمل ضخم متفاوت القيمة، يحمل بين طياته كثير من التشويش والغموض، مما ترك لدي شعورا بالانزعاج والضيق بسبب احتقاره الذين لحقت بهم الهزيمة في الحروب...!!

وبمحض المصادفة أيضاً، وجدت عبد القادر في الجزائر. استضافه أحد "الأقدام السوداء" من أصل يهودي، وهو مدرس كان قد ساعد جبهة التحرير الوطني الجزائرية أثناء حرب التحرير، متزوجا من شابة رائعة . وكان عبد القادر يتردد على المناضلين الذين وفدوا من كل مكان، ومنهم هيلين وأنا. وأثناء الشهور التي مكثت فيها في الجزائر ولم أسافر إلى سويسرا، لتطوير علاقات، واتصالات منظمتنا الجديدة، كنت ألتقي عبد القادر وزوجه كثيرا، وكنت أحب أن أستمع إليه وهو يتفلسف... ونظرا لخبرته العسكرية كنت أفكر في تجنيده لقسم التدريب والتكوين في المنظمة. ولكن لم يؤد مقابلته مع هنري إلى أي شيء ملموس... لم يهتم عبد القادر إلا بالثورة في الجزائر. وأيقن بعد مشاهدته ... وأنا أيضا فشل الحشود التي نظمها الاتحاد العام للعمال الجزائريين، وصار يشك في سلامة مشروعه: كان يريد أن ينشئ أول كومونة صينية في منطقة القبائل الكبرى.

صاحبته مع مدعوين آخرين في زيارة للموقع المقترح الذي يوجد بالقرب من منطقة دراع الميزان.

---

٩٧ دار نشر ما سبيرو في ١٩٦١.

وكان عبد القادر يتمتع بقوة بدنية، وقدرة كبيرة على التحمل، وبالتدريب الضروري لإنجاح تنظيم للمقاومة. كما أن حججه استطاعت إقناع المقاومين السابقين الذين خاب أملهم بعد الاستقلال. إلا أني لم أقتنع أنه من شأني أن اشترك في تنظيم للمقاومة داخل الجزائر ٠٠٠!!! فضلاً عن أني لم أفهم الغرض من مشروعه!!: لم تتحقق الثورة الاجتماعية بعد، هذا صحيح، ولا شك أن الصراعات التي دارت بين الأخوة في قيادات حزب التحرير للاستيلاء على السلطة كانت من الأمور المقلقة والمحيرة ٠٠٠وتطرح التساؤلات لما سيؤول إليه مصير ومستقبل البلاد٠٠٠؟ وما من شك يمكن الاعتماد على العاملين في الريف: فلقد قاوموا نزع ملكية أراضيهم، وانضموا إلى جبهة الكفاح المسلح، واخذوا بزمام المبادرة، وقاموا بإدارة الضيعات المهجورة. ولكن يجب لتحقيق نجاح المشروع الوثوق في قيادته. ويبدو أن مشروع عبد القادر لم يثر اهتمام المناضلين المحليين كما يصعب عليه شخصياً٠٠٠ بسبب شكله٠٠٠ أن يدعي أنه واحد منهم: فهذه أول مرة في حياته يضع فيها قدمه في الجزائر !

توقفت عن مقابلة عبد القادر بعد قبولي وظيفة في إدارة الأمانة التنفيذية، التي صارت بعد ذلك بقليل وزارة الشباب والرياضة والسياحة: وأفهمتني زوجه أنه عندما قبلت هذه الوظيفة فهذا معناه أن لدى اتصالات مع من في السلطة٠٠٠ ومعنى هذا أنني أقف بالنسبة له في صف الأعداء.

لم يعد هناك متسع من الوقت ٠٠٠فأنا مثقلة بالمطالب في سياق عملي في الوزارة، وبعدها بقليل بدأت عملية تنظيم معسكرات التعمير، وكثرت مطالب حركات التحرير التي فتحت مكاتبها في الجزائر العاصمة، ثم مجيء وذهاب هنري المتكرر، لم يعد لي متسع من الوقت والفراغ لمقابلة الأصدقاء القدامى، كما لم يتسع الوقت أيضا لمقابلة عبد القادر الذي لم يعد يهتم بنشاطنا. وسمعت من ذكره بالاسم في المقر الرئيسي للبوليس في الجزائر العاصمة عام ١٩٦٣.

لم أفهم شيئاً في البداية٠٠٠!!! ما هي الأسباب التي جعلتهم يلقون القبض علي٠٠٠ !! أرسلوا اثنين من أفراد الشرطة للسؤال عني في مكتبي٠٠٠!!! لماذا لم يذهبوا إلى منزلي٠٠٠؟ ٠٠٠لأول مرة كان عنواني صحيح ! .

بذلت جهدي في البداية لتهدئة ابني بالتبني- كنت أحاول أن أضمه إلى أحد الدورات التدريبية التي تنظمها الوزارة- ٠٠٠عندما أثار ضجة ٠٠٠رغم أنه يخشى البوليس كأي طفل آخر من الشعب، وبفضله أفرجوا عني في الفجر: قلب الوزارة رأسا على عقب، وأيضا مكتب الوزير، بل حتى الوزير نفسه. ولم أفهم وأنا في مقر الشرطة الغرض من استجوابي٠٠٠

تحدثوا معي عن قيامي باتصالات مع منظمة صهيونية ٠٠٠!!!

هل كل من أسلم متأسلم !!!؟؟

وهو أمر ليس بغريب بالنسبة لشيوعية من أصـــل يـــهودي تعيــش فـــي وســط عربي... وكانوا حديثي العهد بالمهنة، لا شك أنهم وطنيون، متألمون من اضطرارهــم استجوابي... نظراً لماضي الكفاحي. وفهمت بعد قليل، وفـــي النهايـــة مـــا يحــاولون معرفته...

كان علي أن أكبت بصعوبة رغبتي في الضحك: فلقد كانت القصة تتعلــق بحفيــد الأمير.

كان عبد القادر قاب قوسين أو أدنى من تحقيق مشروعه... فلنقل بشـــيء مــن التحديد... تمكن من أن يضع يده على مزرعة في دراع الميزان وبدأ في تحويلها إلـــى معسكر للتدريب، ومستودع للسلاح لكي يستخدمها رجال المقاومـــة فـــي المســتقبل... وعكف مع مجموعة من الشباب -أساساً من "الأقدام السوداء"، والأجانب- علـــى تنظيــم جماعته التي تضمنت جزائرية أيضاً -رفيقة كنت قد تعرفت عليها في الرباط، وانتهى بــها المطاف وتزوجت من جلادها الذي كان يسومها العذاب.

ألقي القبض عليه قبل أن يبدأ في التدريب: استرعى انتباه رجال الشرطة الفضوليين تحركات الشاب الذي كلف بقضاء المشتروات من القرية المجاورة بســبب مبالغتــه فــي الحذر[٩٨]... عندما سار محاذياً للجدار حتى لا يتعرف عليه أحد ... واقتفوا أثـــره حتـى مدخل المزرعة. وعندئذ أطلقت الفتاة الشابة التي كانت قد تسلقت أحد الأشجار للمراقبـــة إشارة الإنذار، وسقطت من أعلى الشجرة وكسرت ذراعيها.

كان هناك من يعتقد بوجود مؤامرة صهيونية لقلب السلطة: وقد يخدع من يشـــاهد البطاقة الشخصية الفرنسية التي يحملها عبد القادر متنكرا تحت اسم دافيد... وبصورته ...بمنخاره المعقوف (القبائلي)، وبعيونه الزرقاء، وقد يخدع المرء ويعتقــد أنـــه مـــن طائفة اليهود الأشكيناز... كما أن الأصل اليهودي البولندي لزوجه قد دفع أيضا إلى هـذا الإعتقاد...

ولم يصدقني أحد : لا... لا يمكن أن يكون هذا هو حفيد الأمير...!! وبمحـــض المصادفة كانت بطاقتي الشخصية الفرنسية -كنت استخدمها في الانتقال في أوروبا، وهــي بطاقة صالحة تماماً.. تحمل ختم نفس البلدية الموجودة في أرياف فرنسا- موجودة فـــي حقيبتي. والآن بيدي ما يثبت ما اقوله... بدأت أشرح أصل ومنشأ هذه البطاقة[٩٩]. وهنـــا تركني الشرطي -بسرعة الريح- الذي كان يقوم باستجوابي فجأة... ونســـاني تمامـــا. وكان عبد القادر يحاول في القاعة المجاورة تجنيد مندوب الشرطة شـــارحا لـــه أهـــداف

---

٩٨ وهكذا جنت على نفسها براقش- المترجم

٩٩ استولت جبهة التحرير الوطني الجزائرية في فرنسا على مجموعة كبيرة من البطاقات الشخصية الفرنسية مـن أحدى البلديات الموجودة في أرياف فرنسا واستخدمتها أثناء حرب التحرير.

الكومونة الصينية- عبد القادر هذا العفريت ٠٠٠ !!رفض أن يستقبل الرئيس بن بيلا، ورفض أن يسمح له بدخول زنزانته٠٠٠ وهنا تبدو عظمة هذا الرئيس فلقد قرر الإفراج الفوري عن زوجه٠٠٠ كما أفرج -بسرعة- عن عدد من أفراد الجماعة نفسها !.

واستجوبت في الفجر -رغم كل شيء- مرة أخرى قبل الإفراج عني.

ولكن هذه المرة وجدت نفسي أمام أصحاب مهنة محترفين٠٠٠ استشطت غضباً كما حدث لي في تونس، وضربت بقبضتي سطح الطاولة: ماذا ٠٠٠! هل تجرؤن على اتهام هنري بأنه عميل للصهيونية ؟!! وبعدها بمدة فهمت سبب القبض علي: وقصة ذلك أن أحد المناضلين الشباب الأسبان من جبهة التحرير الشعبي -التي نظمت إضرابات أبريل ومايو ١٩٦٢- أرسلته منظمة التضامن في باريس إلى الجزائر، وهو يتمتع بشخصية لطيفة جدا٠٠٠ غلبتني مشاعر الأمومة نحوه ٠٠٠آمن بالفعل بمشروع حفيد الأمير٠٠٠ وقبض عليه مع الآخرين، وعندما استولى عليه الخوف، تخلص منه بأن اتهمني بأني كنت المسئولة عن تعريفه بعبد القادر. وكان هذا صحيح تماما : فصديقي الثوري الأسباني أعرب عن رغبه في مقابلة ماركسيين٠٠٠ ولم يكن بوسعنا أن نجد له أحسن من أفضل المنظرين على الساحة في الجزائر[١٠٠] ٠٠٠ هذا شئ ٠٠٠أما أن نعتقد أن هذا معناه أننا سعينا لإشراكه في برنامج للمقاومة في الجزائر فهذا عار عن الصحة ![١٠١].

من المضحكات المبكيات[١٠٢]... هذا شيء أما أن نتحدث عن مؤامرة إمبريالية ضد الثورة الجزائرية٠٠٠ صرح بذلك وزير الإعلام مولود بلحوان في مؤتمره الصحفي بتاريخ ١٧ أغسطس ١٩٦٣ فهذه إرهاصات وتخريف ٠٠٠الميدياقراطية[١٠٣] ٠٠٠ما زالت الصحافة خاضعة للرقيب وهي كذلك حتى الآن٠٠٠ واتهم عبد القادر في مقال في صحيفة الشعب الصادرة في ١٨ أغسطس٠٠٠ وهي أمامي الآن٠٠٠ بأنه -يعمل لحساب فرنسا- ٠٠٠كان بالفعل من بين أفراد المقاومة الفرنسية للاحتلال النازي ! واتهم أيضا بأنه إقطاعي -كان يملك كالآخرين أراضي ورثها في الجزائر. واعتبروه خائناً ... ! ماذا٠٠٠ ! هكذا دون ذكر كلمة واحدة عن اشتراكه في حرب تحرير الجزائر... هذه الشخصية لو كانت تعيش في ظروف أخرى لجعلت تصرفاته الصبيانية هذه منه بطلا من الأبطال.

---

١٠٠ أعط القوس لباريها-مثل عربي قديم-المترجم

١٠١ لا يجوز الخلط بين رمضان وشعبان-المترجم

١٠٢ وكم ذا بمصر من المضحكات، ولكنه ضحك كالبكاء-أبي الطيب المتنبي-المترجم

١٠٣ أي سلطة الإعلام- المترجم.

لا تنطوي مغامرة حفيد الأمير على أي مغالطة تاريخية: كان الجو غداة الاستقلال يميل إلى الاصطباغ بلون الحمرة -لون الثورة-... وسارع بن بيللا، الذي ارتبط بعبد الناصر -الذي أعلن في ميثاقه الجديد عن قيام اشتراكية خاصة من أجل مصر- إلى زيارة كاسترو *"إحدى قوى الطبيعة"* كما كان يقول عنه تشيه جيفارا واعترف به بطلا من أبطال النضال ضد الإمبريالية منذ الإنزال في خليج بلايا جيرون، وإعلانه أن كوبا ستصبح اشتراكية، بينما كانت يوغوسلافيا من ناحية أخرى مصدر إلهام لرجال من الجيش مثل بوتفليقه. وتكونت لجان في المؤسسات من أجل الوقوف ضد محاولات التخريب التي تقوم بها منظمة الجيش السري الفرنسي OAS وأيضاً في الأراضي الزراعية المستغلة، بعدما سارع الملاك الأوروبيون إلى مغادرة الجزائر ...مما دفع العمال إلى التصرف بمعرفتهم عندما لم تقم بذلك وحدات الجيش ...كما كان الحال في منطقة وهران... فلقد تولوا جميع الواجبات الثورية ... وأعمال الحصاد وقطف العنب. وكما كان الحال في جميع الثورات الشعبية -كومونة باريس، والثورات الروسية والإسبانية- تناقش قضايا الإدارة الذاتية. وجربت يوغوسلافيا هذا النظام منذ ١٩٥١، وصدر في الجزائر مرسوم ينص على تنفيذه ابتداء من مارس ١٩٦٣.

ولم يتوقف بن بيللا عن أن يردد قائلا ...بأنه *لم يقم إلا بإضفاء المشروعية على ظاهرة تلقائية كانت موجودة، وكل ما فعله هو صبغها بالطابع الرسمي...* وكأنها دعوة لإلقاء نظرة شاملة جديدة على المجتمع الجزائري، ثم أن قبول فكرة تكوين مجموعات المنتجين قد ساعد بطبيعة الحال على الوقوف ضد قيام نموذج الدولة المتسلطة والمركزية. ولم يسبق أن اجترأ أحدا وقدم صيغة مماثلة لهذا المشروع، ولا تضمنه أي برنامج ولا استأسد عليه أي حزب ولا أي حركة سياسية جزائرية، ولا حتى الحزب الشيوعي الجزائري -فلم يتجاوز برنامج جبهة التحرير في ١٩٦٢ -الذي تمت صياغته في طرابلس -عن الحديث عن إصلاح زراعي، وتأميم الثروة المعدنية والطاقة فقط-

لست أدري إذا كان بن بيللا قد بنى قراره على تحليل نظري... أعلم فقط أن المرسوم الرئاسي الصادر في مارس اكتسب شعبية كبيرة، وثبت صحة المقولة المنادية بضرورة النزول إلى الشعب إذا ما أراد أن يباشر مقاليد السلطة، وكما كان الحال في يوغوسلافيا -وبدون أي تحدي- لم يهدف نظام الإدارة الذاتية الجزائرية إلى قطع علاقاته مع السوق الدولية. مع الفارق، وهو أن القطاع المدار ذاتياً في يوغوسلافيا كان مستقلاً، أما الجزائر فلقد ورثت النموذج الكولونيالي للدولة المستبدة المتسلطة والمركزية. وبسرعة كبيرة نجحت الإدارة البيروقراطية في الواقع في"بقرطه" والسيطرة، وإملاء قواعدها على القطاع المدار ذاتياً، مع حق الإطلاع على مجريات الأمور داخل المؤسسات.

ويتبقى أن نقول أن مبدأ الإدارة الذاتية قد حقق شرعيته بواسطة سلطة لم تدع أبدا أنها في يوم من الأيام تنتمي إلى البروليتاريا... وهذه -في الواقع- حالة تاريخية فريدة

قد تثير مشاعر مختلطة من الاكتئاب الممزوج بالحماس في آن واحد...!! ولم يكن هناك باحثون اجتماعيون أو اقتصاديون جزائريون للقيام بدراسة هذه الظاهرة: فمن بين كل أربعة جزائريين كان هناك ثلاثة أميين... بل حتى على مستوى رؤساء الضيعات الزراعية المدارة ذاتياً والغنية جداً ...وادي شيليف مثلا... كانت نسبة الأميين بينهم ٧٢ في المائة -تبعاً لنتائج المسح السكاني لعام ١٩٦٦ .

أعلن بن بيللا عن صدور المرسوم الرئاسي الخاص بالإدارة الذاتية في خطابه الافتتاحي في أول دورة تدريبية تطوعية كان قد نظمها مكتب الدراسات الذي أشرفت عليه.

وكنت سعيدة كل السعادة بأن وضعي كأجنبية -تنازلت مبدئياً عن حقي في اكتساب الجنسية الجزائرية- لم يستبعدني من هذه التجربة... بل ناداني الرئيس بن بيللا "*بالأخت الثورية*". وتمسكنا في الواقع بمبدأ الإدارة الذاتية في إطار مخططاتنا لتشغيل معسكرات البناء والتعمير التطوعية... وكان هذا الاتجاه صدمة لعقلية الموظفين المغلقة، ولكننا تسلمنا أعباؤه ابتداء من أول دورة تدريبية للشباب – تكونت من فرق تطوعية أعلنت بشكل ما عن بداية انطلاق مشروع الجماهير الشعبية المسلحة التي أراد أن ينظمها بن بيللا ليحدث توازن في القوى الموجودة على الساحة مع الجيش... وقد يكون ذلك من بين العوامل التي أدت إلى سقوطه؟؟ ... واستمر شكل الإدارة بدون عائق، وتحددت تدريجيا أهداف النشاط .

ولم يكن من الممكن أن يقيد النشاط التطوعي في دائرة مفهوم ضيق يهدف إلى تحقيق مردود اقتصادي: وما من شك أن التشغيل المجاني لمعسكرات الشباب، وتنظيم دورات تدريبية مهنية وأنشطة ثقافية، ستكون أكثر تكلفة في النهاية بالمقارنة بتعيين عدد من أصحاب المرتبات المتخصصين في أعمال، وأشغال تشييد الحواجز أو غيرها. وأعتبر الكادر الزراعي في النهاية أن هذا المشروع الاجتماعي مشروع شاذ نظرا لبقاء معدلات البطالة المرتفعة على حالها. إلا أننا نجحنا في إلقاء الضوء على الجوانب الإيجابية للمشروع مثل: تعبئة الشباب من جميع المناطق للالتفاف حول أهداف عمل وطني.

تسببت عوامل التشيع والتعصب الإقليمي في ظهور أزمة بين المتطوعين ...كما أيقظت فيهم روح المبادرة والتنافس. كنا نعتقد ...على أية حال-وقد تأكد ذلك فيما بعد- أن الأوضاع الفوضوية التي استشرت في الجهاز الإداري في القطاع الزراعي لم تسمح بتنظيم عمل الآلاف من أصحاب المرتبات لإنقاذ سد ودفده من تراكم ترسبات الوحل... وهو الهدف المحدد لهذا العمل ...علما بأن تحقيق هذا الهدف لا يكون إلا بمساعدة تطوعية من الجيش والمناضلين السياسيين.

ونجحنا في تنفيذ العمل. ويحمل الذين اشتركوا في إنجاز هذا الصرح الضخم ذكريات تثير الشجون... وكثرت المتاهات وتعددت تعرجات الصراعات الداخلية بين أجهزة البيروقراط في مختلف الوزارات... ولكن المتطوعون الذين ينجزون في الميدان

-وينبغي أن نعترف بذلك -٠٠٠كانوا من الشباب والمستشارين، والأميين وقصتهم قصة أخرى ٠٠٠

لم يكن لديهم أي تطلعات لصعود السلم الإداري أو المهني٠٠٠ أو لتحقيق أي مكاسب أخرى

وكانت الصعوبات التي أحاطت بظروف العمل، والمعيشة في معسكر البناء تعوض بتقصير مدة العمل في الميدان. كان علينا أن نواجه طبعاً الأحكام المسبقة، والانتهازيين، وفاقدو الاعصاب٠٠٠ أما الجيش الذي كان يوفر لنا مع ذلك الوسائل المادية لكي نستطيع التحمل، لم يكن مسلكه مشرفا تماما: مصادرات تعسفية، ونهب منظم يقوم به الذين ارتدوا بالفعل في وقت متأخر الزي العسكري.

وليفهم المناضلون أن الاشتراك في نشاط بناء عندما تتحول ألوان الأفق إلى اللون الأحمر٠٠٠ وعندما تكون المادة الخام ٠٠٠من الشباب المستعد للبذل والعطاء٠٠٠ المتطلع إلى المستقبل، هي من أكثر الأنشطة المحفزة، حتى إذا قورن ذلك بعمل تعبوي الغرض منه القضاء على نظام مستبد ٠٠٠ولقد ساهم الشيوعيون الجزائريون في هذا النشاط بكل ما ملكوا من طاقة ومشاعر ٠٠٠ وعلى نحو خاص اتحاد الطلبة الجزائري، وشباب جبهة التحرير الوطني.

لا أعلم إن كانت هناك قصة أخرى تثير الشجون مثلما تثيره قصة الشيوعيين الجزائريين[١٠٤] ٠٠٠ من الذين ينتمون إلى الأقلية المستوطنة٠٠٠ يعرضون حياتهم للخطر عندما يتولون عملية توسيع نطاق نشاط القسم التابع للحزب الشيوعي الفرنسي

منعت مدونة التبعية الأهلية وهي- الإدارة المحلية للمستعمرين - إنشاء الأحزاب، والنقابات المستقلة عن البلد الأم٠٠٠ حتى في المدن الصغيرة التي تقطنها أغلبية من المسلمين الواقعة في داخل البلاد. وأصبح الحزب الشيوعي الجزائري مستقلا ذاتيا في ١٩٣٩. وقامت فيما بعد حكومة فيشي بحله، وكانت أكثر فترات نشاطه هي الفترة من١٩٤٥ حتى ١٩٦٢ ٠٠٠رغم التقديرات الخاطئة التي لم يحالفها الصواب في تفسير أحداث مذبحة سطيف[١٠٥]، وعجزهم عن فهم أبعاد الطلقة النارية[١٠٦] الأولى في مرتفعات جبال الأوراس[١٠٧] ٠٠٠ التي أعلن دويها بداية الثورة.

---

١٠٤ في الفترة السابقة للاستقلال ل، أنظر إيمانويل سيفان: الشيوعية والوطنية في الجزائر، ١٩٢٠ - ١٩٦٢، باريس ١٩٧٦.

١٠٥ عام ١٩٤٥ وهو عام انتصار فرنسا على النازي٠٠٠ ألقيت أثناءه الوعود جزافا ٠٠٠ وآمن بها الحزب الشيوعي الجزائري

١٠٦ ومعظم النار من مستصغر الشرر-مثل عربي قديم-المترجم

١٠٧ أول نوفمبر ١٩٥٤ في الأوراس

انضم الحزب الشيوعي الجزائري في ١٩٥١ إلى جبهة الأحزاب الوطنيــــة. كمـا اشترك مع أعضاء الــ UTMA والــ MTLD وحزب "العلماء"، في المؤتمر الوطني للمعسكر الديموقراطي، وكانت النتيجة أن ألقي بالجميع في السجن ...!!!

وابتداء من ١٩٥٢ -المؤتمر السادس- ارتفعت نداءاتهم بالمطالبة بجزائـــر حـرة ومستقلة، واصطدموا في البداية مع الأوروبيين، الذين شعروا بـــأن حياتـــهم ومقدراتـــهم مهددة، وأن الأمر سينتهي بهم إلى قطع الحبل السري مع فرنسا... بل واجه الوطنيـــون الذين لا يعترفون بالجنسية الجزائرية إلا للمسلمين تهديدا. وكان الكادر يقف وحـــده.فـي الميدان -لم يوجد سوى مايوه وموريس لابان - وهما أصلاً من المستوطنين الأوروبييـــن -... ويكتب عبد الحميد بن زين[١٠٨] عن هذه الأحوال-وهو متألم- في الجريدة التي كان يديرها، أما الباقي فكم عدد الذين صفقوا عند سماع ما اقترفته اليد الحمـــراء - عصابـة إرهابية - من جرائم، هذا إن لم يشترك بعضهم فعلا في عملياتها[١٠٩]!.

نستطيع أن نتخيل ما سيكون عليه الوضع ...لو توفرت العوامل لبنـاء اتحـاد يضم كيانات ثقافية مختلفة مستقلة كانت موجودة على الساحة في الإمبراطورية الفرنسـية السابقة... أو حتى لو قامت جزائر فرنسية... هذا إن كان ذلك ممكنا ...؟ ولكن لـم يكن ذلك ممكنا ...فلم يكن هناك أخيب من قابض على الماء... فلقد وقف المستوطنون الأوروبيون كتلة واحدة ضد حصول من يمثلون الأغلبية على حق المواطنة ... ويؤكـد لنا التاريخ أن العصيان المسلح كان هو العامل الذي فتح الطريق على مصراعيه.

بادرت مجموعة من الكوادر في نوفمبر ١٩٥٤ بالاتصال بقـــادة جبهـــة التحريـــر الوطني الجزائرية، ومنهم موريس لا بان، المقاوم الســـابق ضـــد النازيـــة. واصطبغـت المحادثات في أكتوبر ١٩٥٥ بالطابع الرسمي، وأيد بشير حاج علي[١١٠] أســـلوب الكفـاح المسلح -وهو الشخصية القيادية الثانية في الحزب الشيوعي الجزائري- كما تبنـت.هـذا الأسلوب مجموعة مختلطة من الطلبة - أنشئوا ورشة لصنع المتفجـــرات فـــي الجزائـــر العاصمة- ولجنة تحرير شبه عسكرية في وهران، وخلايا مقاتلـــة فـــي قســـنطينة وفـــي بون[١١١]، وتركز نشاطها تحديدا في جمع الأموال والمواد الطبية على أن تشحن بواســـطة الإسعاف الأحمر...

---

١٠٨ المسئول في الجزائر العاصمة عن إصدار جريدة ألجيه ريبيليكان، عندما تتاح له الإمكانيات، ورغم التـــهديدات الموجهة ضده.

١٠٩ يعلمنا التحقيق الصحفي لباتريك روتمان -على القناة الفرنسية الثالثة، ٢٧ يناير ١٩٩٦- حرب الجزائـــر في فرنسا، بأن الأمر يتعلق بفرقة كوماندوز إرهابية تابعة للدولة ينظمها الجهاز السري للمخابرات الفرنسية SDEC.

١١٠ توفي منذ وقت قريب.

١١١ تعرف باسم مدينة عنابه منذ الاستقلال وهي المدينة القديمة للقديس اوغسطين-المترجم

علامات على الطريق...

أمضيت عقد من الزمن في ترتيب مذكراتي المبعثرة، (من أجلكم يا حبايبي)، وإن كنت قد ترددت... فقد أضطر إلى معالجة بعض جوانب حياتي الشخصية التي -لا تعني في قليل أو كثير الآخرين- لذلك تعمدت تأخير دنو هذه اللحظة، مفضلة العكوف على تسجيل بعض جوانب نشاطنا السياسي.

واليوم، أصبح من الضروري العودة إلى هذا العمل للمرة الأخيرة ...فقد تزايدت سرعة إيقاع الحياة، والتاريخ، وأصبح الجميع يعلم أن خنق العالم الثالث[1] بالمطالبة بخدمة الدين الخارجي، وسداد أقساطه، والحركة المدمرة لرؤوس أموال المضاربات،والحديث الذي لا ينتهي على كل هذه الأمور ...! كلها في الواقع محصلة حاصل، تراكم عليه غبار الزمن، ولو أنها مازالت حتى اليوم ...أمرا مستهجنا.

أصبح لزاما عليّ أن أضع الأمور في نصابها وفي إطار جديد، وبسرعة... بدأ العد التنازلي، ولم يتبق لي من الزمن إلا أرذله...![2]

شرعت فورا في تحديث ما ورد في تلك المذكرات، مع تفسيرها في الحواشي عند اللزوم- لكي لا يعتري نصها الأصلي أدنى تعديل- ولتظهر في صورتها كما هي دون تغيير، عاكسة عناصر، وأحداث جرت في نطاق نشاطي النضالي، وتتناول المجالات التي تطرقت إليها في بحوثي، أو تلك التي تخللها -أثناء فترة من الزمن- نشاط عملي بناء كبير. و ها... قد اعتور هذا النشاط التغيير... !

تعرضت الفئات الحاكمة للكشف والتعرية، وصارت تتنازع اليوم فيما بينها مستندة إلى أيديولوجيات غريبة عليّ... أليس لكل ثقافته ... أو هكذا يقال ؟ !

أما ثقافتي...!

فهي الثقافة التي تمهد أمامي الطريق... لتبني الأهداف الثورية لحركة الهنود الأمريكيين (الشباس)[3]...!؟ التي تطالب بتطبيق الإصلاح الزراعي، وبحقوقها الأساسية، واستعادة كرامة الشعب، والأمة الهندية الأمريكية بعد طول غياب...!

---

[1] مصطلح ظهر لأول مرة في مقال صغير للعالم الديموغرافي والاقتصادي الفرنسي ألفريد سوفيه**Alfred Sauvy** نشرته صحيفة (الأبزرفاتور)بتاريخ ١٤ أغسطس١٩٥٢ عندما قال :*"إن العالم الثالث المتجاهل،المستقل المحتقر مثلما كان الأمر مع – **Tiers-Etat** – يود بدوره أن يمثل شيئا* ".–و"**Tiers-Etat**" تسمية أطلقت على فئات المجتمع الأخرى(من غير النبلاء والإكليريك التابعين للكنيسة الحاكمة تحت نظام الحكم الملكي القديم قبل الثورة الفرنسية)– المترجم–
أصبح هذا المصطلح (العالم الثالث)– لفترة من الزمن حقيقة تاريخية– يعكس وضع الكولونيالية السياسي الجديد المحتضر، وعاملا مولدا لوحدة جديدة متكاملة كانت حتى ذاك الوقت غائبة ومهملة.

[2] السؤال الذي أجراه شكسبير على لسان أحد شخوصه" إذا لم أتكلم أنا فمن ؟ وإذا لم أتكلم الآن فمتى ؟ –المترجم

وصدرت تعليمات، للمحامين بأن يتولوا الدفاع عن المناضلين من جبهة التحرير الوطني الجزائرية أمام المحاكم، والاتصال بالجنود وتوزيع المنشورات في المعسكرات تنادي بوقف القمع، وأمتنع عمال الموانئ عن إنزال شحنات السلاح على الرصيف ... كلها أعمال وأنشطة أدت في النهاية إلى اعتبار الحزب الشيوعي الجزائري حزباً خارجاً على القانون.

أما الباقي فهو معروف··· ولا أستطيع أن أمنع نفسي من الشعور بالسعادة عندما أتذكر حجم النضال المشترك الذي كانت تمثله -المقاومة الحمراء- المستقلة في جبال أوارسينيس··· كانت جذور الحزب الشيوعي الجزائري ضاربة في عمق المنطقة، وينتمي المقاتلون إلى الجماعتين -جماعة عبد القادر جيروج، وموريس لا بان، ومحمد بو عالم، سكرتير النقابة العامة لعمال الميناء في وهران ...-. وأنضم الضابط الفرنسي تحت التدريب -برتبة صول- واسمه مايوه وهو من مستوطني الجزائر، وابن السكرتير العام الشيوعي للاتحاد العام لعمال وموظفي البلديات- إلى المجموعة التي هربت من الجيش الفرنسي حاملة معها شحنة كبيرة من السلاح والذخيرة نقلتها في أحد سيارات النقل التابعة للجيش الفرنسي··· واستولي حزب جهة التحرير الوطني الجزائرية على ثلثي هذه الأسلحة.

بدأت المقاومة في التحرك ابتداء من شهر ابريل حتى يونيو ١٩٥٦، ثم مزقتها القوات المسلحة الفرنسية إربا ··· لم يقم على قبر الصول مايوه في الجزائر المستقلة···!! أي نصب تذكاري··· ووقع اختيارنا على منطقة الأوراسينيس للقيام بنشاطنا الوطني التطوعي إحياء لذكراه ···ولنتوج ثراه بإكليل من جهود المناضلين الشباب···

ود فده···

انجذبت إلى الجزائر عندما تعرفت على أقاليمها أثناء عبوري منطقة وهران، وعند سلوك مسارات جديدة عبر منطقة القبائل، والأوراس، وجنوب الجزائر العاصمة، وقسنطينة.

لم يثر هذا كله ذكرياتي في مصر··· ولو أننا كنا نتحدث بالفرنسية هناك أيضا···

لم يعرف الجيل الذي تردد على مدرسة الليسيه الفرنسية في القاهرة في أعوام الثلاثينات أي سهولة عند محاولة إقامة علاقات صداقة بين الفتيات والفتيان مثلما كانت الحالة في الجزائر ···رغم أنهم مع ذلك يأتون من أوساط تمتعت بميزة التردد على المدرسة المختلطة، أو الذين ترددوا على دور الشباب في ١٩٦٣ وكانوا يرقصون آنذاك في الشوارع ابتهاجا··· ولقد تأثرت بشدة عندما اندمج الطلبة مع الشباب الأمي -أو شبه أمي- الوافد من داخل البلاد··· لدى وصولهم إلى معسكر البناء التطوعي. وأعجبت

أيضا بالمستوى الذي وصل إليه شباب الكادر السياسي الذي اشترك في هذه العملية النضالية التي تطلبت لبدئها تكريس عدة شهور من التخطيط والمناقشة.

ولم نحتاج في الوزارة لتحديد مجالات الاختيار بين العمل التطوعي أو الخدمة العسكرية أو المدنية. فالعمل التطوعي كان بمثابة نوع من التدريب السريع، يكمل الخدمة الإلزامية في الجيش... وكان هذا العمل يستند إلى التطوعية. وبناء على خبرتي النضالية في هذا الميدان كان من الضروري وضع شرط تقييدي على حملة الدبلومات الجامعية ... وهو قضاء شهر للتدريس في المعسكر: كنا في حاجة إلى هؤلاء الطلبة للقيام بالتدريس، ونعلم أن الدولة تقدم إليهم جميعا منحة دراسية. ولم تقم سلطة عليا بإدارة هذا العمل ... ولكن أشرفت عليه هيئة تنفيذية ممثلة للفئات المختلفة. وكان بن بيللا من أكثر المؤيدين... كما جعل من نجاح هذا العمل أحد أهدافه الرئيسية... بينما قدم الوزير كل الوسائل اللازمة لإنجاح هذه العملية دون أن يذهب إلى أبعد من ذلك شخصيا...

وبدأت العملية بأول دورة تدريبية كان الهدف منها تكوين مدربين من الأفراد الدائمين في معسكرات البناء، وبمساعدة إدارة الشباب ورئيسها هيرفي بورجس[١١٢]، ومشورة فريق من المناضلين اليوغوسلاف[١١٣]. وكان المسئول السياسي لهذا الفريق - وأصغرهم سنا- اليوغوسلافي ميركو بولفيك، عضو اللجنة المركزية لرابطة الشيوعيين اليوغوسلاف -أما الباقي فمن الفنيين-. وكان ميركو شديد الحساسية ... وأكثر مما ينبغي لمسئول سياسي... يتأرجح بين السعادة والبهجة الخفيفة، ثم يعتريه شعور بالكرب. ولكنه كان قريباً من قلوب الشباب... وكان يجيد الرقص...!! وشعرت بسعادة لاشتراكه معي في العمل، وكان فارق السن بيننا سببا في الشعور بالتحرر ولم يكن ذلك عقبة في علاقاتنا، واستطعت رأب الصدع الذي يتسبب فيه من حين لآخر تنافر الطباع والأمزجة بين كل من موريان وبولفيك.

وصدمنا فجأة في دورة التدريب الأولى بثقل البيروقراطية الموروثة عن الفترة الكولونيالية: كيف يمكن أن نعهد بوظائف إلى شباب لم يوظف من قبل في أي وزارة، ولم يحصل على التدريب التقليدي لتنفيذ أعمال مكتبية؟ دارت مناقشات حول الموضوع استمرت عشرات الساعات... ووجدنا مخرجا في نهاية المطاف ... ونفذت الدورة التدريبية في مركز للتكوين يقع في ديلي إبراهيم من ٢٨ مارس إلى ١٩ إبريل ١٩٦٣ لا شك أن الآنسة فرولين مديرة المركز كانت على قدر كبير من الشجاعة... فلقد ظلت في وظيفتها رغم تهديد منظمة الجيش السري الفرنسي OAS ويعود ذلك إلى ظروف نشأتها

---

١١٢ رئيس مجلس إدارة القنوات العامة التليفزيونية الفرنسية حتى وقت قريب.
١١٣ من كان بإمكانه توقع الانحرافات والصراعات المأساوية الاثنية التي حدثت فيما بعد في بلادهم...!!؟

٠٠٠ وهي تصر على احترام الانضباط التام، كما تعودت أن تطاع ... وأن يخدمها أهل البلاد ٠٠٠ وهي عانس٠٠٠ لذا تجمعت عدة عوامل جعلت من الصعب أن تتفق مع محاولة لإعادة تأهيلها٠٠٠!!! بينما يدفعها لتغيير أسلوبها في العمل شباب متعطش لعلاقات من نوع جديد، وأخيراً كنت بدوري أدفعها للإسراع في إنجاز العمل ٠٠٠ وكانت تعمل حسابي -كانت هناك زيارات فجائية للرئيس، وقمنا في إحدى المرات بمباراة حبية لكرة القدم صورها بولفيك-، أما هي فقد انزوت في الجناح الذي خصصته لنفسها ٠٠٠!

وجاء المتدربون وعددهم ثمانون شاب من مختلف الوزارات ٠٠٠من جبهة التحرير الوطني، ومن الكشافة الإسلامية ... ولكن أغلبهم كان يبحث عن وظيفة. ولهذا كانوا جادين أثناء الدروس، يتابعون المناقشات -بعد قضاء يوم من العمل لاستزراع نباتات صغيرة، تم استنباتها في مشاتل،أقيمت في غابة "بينم". ويشاهد من يرغب ٠٠٠وسائل تصوير الأفلام الشعبية التي يدير جلساتها فوتيه أو يمارس البعض الرياضة البدنية٠ وغطت آنيا فرانكوس ٠٠٠وهي صحفية بالصفحة(بالقطعة) هذه الدورة التدريبية لنشرها في جريدة أسبوعية جزائرية٠٠٠ وحكت قصتنا، وما قمنا به من عمل في رواية بعنوان "الأبيض والأحمر"، دار جوليارد ١٩٦٤.

وأحدث افتتاح الدورة التدريبية ضجة إعلامية كبيرة عندما حضرها الرئيس بن بيللا وأعلن صدور مرسوم الإدارة الذاتية٠

ونظمنا في نهاية الدورة حفل ثقافي : أبدع موريان الذي كان في الجزائر بمحض المصادفة ! وظل يساهم في إعداد الدورات التدريبية، وإنجاز المهام المحددة في الميدان دون توقف.

اقتبس تنظيم العمل النموذج اليوغوسلافي: معسكر صيفي ليتمكن الطلبة من الحضور٠٠٠ وفرق إقليمية للارتباط عن كثب بالواقع قدر الإمكان٠٠٠ ولأن الشباب سيعود إلى قراه فيما بعد ٠٠٠ولتحقيق تدوير شهري لفرق التدريب٠٠٠ ليتمكن أكبر عدد ممكن من الشباب من التعرف على جوانب التجربة المختلفة.

تناول العمل الإنتاجي٠٠٠ استصلاح التربة وزرع الغابات التي دمرتها وأحرقتها سنوات التمشيط، وقنابل النابالم٠٠٠ مثلما قام به الأمريكيون في فيتنام فيما بعد.

يتبقى اختيار الموقع: يتولى الدراسة تينو جرونباك - الذي كان مسئولاً في ذلك الوقت عن السياحة الشعبية في الوزارة، ونجحت في توظيف موريان في الوزارة- يقدم الاثنان دراسة عن ود فده، التي تقع في منطقة الأوارسينيس، منطقة ٠٠٠المقاومة الحمراء. فضلاً عن اعتبار المنطقة رمزاً ثورياً، وجد في هذا الموقع سداً - خزان مهدد بتراكم الأوحال -منطقة خصبة ولكن ضعيفة الهطول- تتطلب لحمايتها تشييد الحواجز

الجدارية الترابية المزروعة بالأشجار –التكسيات–[114] وهو عمل يعتبر سهلا من الناحية التقنية. وتطل على السد من أعلى المرتفعات ثكنات أقيمت لإيواء وحدات من الجيش الفرنسي، وهي في حالة جيدة ٠٠٠مما سيخفض كثيراً من تكاليف بناء أماكن للإقامة في المعسكر. وأخيراً يضيف التقرير أن الموقع يوجد في منطقة تتمتع بالطراوة في فصل الصيف.

وكان التقرير مقنعاً في كل ما عرضه من أفكار، ولكن اكتشفنا فيه عيبا ٠٠٠ وكان عيبا مهما . فقد كان الموقع من أكثر المواقع القاحلة في الجزائر: جبل متآكل، ذو لون أبيض ساطع يخطف الأبصار، يتحول إلى سعير حارق بسبب انعكاسات وهج الشمس.

ولم تتوقف مساوئ الموقع عند هذا: منعت السباحة في مياه السد بسبب الطفيليات٠

وعندما قمنا بشق عصا الطاعة سرا٠٠٠ اضطررنا صعود سلم مكون من ٣٨٠ درجة أنا والرفيق البلغاري المسئول عن الرياضة البدنية للسباحة في البحيرة في ساعة القيلولة، أو قبل وجبة بعد الظهر بقليل !٠٠٠ وأحتفظ بذكرى جميلة لمناظر الألوان الهادئة في الفجر، وتدور في رأسي ذكريات دوريات الحراسة مع حرحات – جاءنا من وزارة التعليم الوطني– وهو من أفضل العناصر التي استمرت في النشاط التطوعي، اكتشفناه أثناء الدورة التدريبية الأولى.

قبل وصول المتطوعين في أول مراحل العملية، شحن الخيط الواصل بين بولفيك – موريان بشحنة كهرباء قوية صاعقة... لم يقتصر الأمر على مجرد اختلافهما حول اختيار موقع معسكر البناء الذي كان سيبدأ عمله في الصيف٠٠٠ ولكن أيضا عندما تبين عدم استكمال الاستعدادات الأخرى، ولم نكن على علم بذلك: كان موريان مكلفا مع أورباح بالشئون اللوجستية –جاء أورباح من مركز الشباب التابع لوزارتنا٠٠٠ ألقي القبض عليه وعذب أثناء الحرب، وكان من عشاق العمل التطوعي، ولم يحيطنا هو أيضا علماً بذلك. وكان موريان وكله عقد نفسية يتصرف بشناعة. وبولفيك أصبح فجأة –وقد أفسدته العيوب– يتفوه بملاحظات فظة وكلام جارح بسبب غياب بعض اوجه الانضباط، وعدم الشعور بالمسئولية لدى رفاق الحزب السابقين الخ... ولم يكن ذلك منصفا ٠لأن موريان ترك صفوف الحزب الشيوعي الفرنسي، وهرب من الخدمة العسكرية[115] وناضل في صفوف المعارضة السرية أثناء حرب الجزائر٠٠٠ ووقفت في صف موريان: ولو أني مع بولفيك كانت تواجهنا مشقة العمل يوميا حتى منتصف الليل٠٠٠ ولكن على الأقل

---

١١٤ **عبارة هندسية معمارية تستخدم كثيرا في هيئة قناة السويس–المترجم**

١١٥ كان الحزب الشيوعي الفرنسي يعارض الهروب من الخدمة العسكرية أثناء حرب الجزائر–المترجم

تمكنا من إنجاز هذا العمل مع تواجد مكاتب، وسيارة تحت تصرفنا! وكان من الضروري التوقف فورا عن الاستمرار في هذه الانتقادات والبدء فورا في التنفيذ العملي.

إن إحدى السمات المميزة للتخلف ... هي ضحالة المعلومات... وفد إلينا شباب كثير يعتقد أنه سوف يتلقى دورات تدريبية مهنية. بعضهم غادر دون أن يصعد إلى المعسكر. البقية، وهي الأغلبية كانت تحمل مراتب النوم على ظهورها، ويصعدون إلى المعسكر لتناول الطعام المكون من الخبز والسلاطة في الأيام الأولى.

لا أستطيع أن أفسر السبب الذي دفعهم إلى قبول هذا الجحيم ... !! إلا لأنهم يريدون الاشتراك في هذه التجربة لأنها تستجيب إلى بعض طموحاتهم ؟! وكانت مداخلاتي نادرة أثناء اجتماعاتنا اليومية... وبئس مصير البيروقراطي الذي يحاول أن يفسد علاقاتنا...!!

مثل مصطفى مولر[١١٦]، هذا الرجل الكسكاس[١١٧] الموظف في مكتب الوزير... لا أذل من وتد... اعتقد أنه يستطيع أن يفرض سلطته على من يشاء، واستخدم الشباب لخدمته شخصياً –بل وصل به الأمر به إلى أن يطلب منهم تلميع حذائه... !، استدعيته لمقابلتي –دافع عن نفسه... بل وصل به الأمر إلى التضرع تقريباً، مما أخجلني... بعد ذلك لم يكن يحمل لي إلا مشاعر الحقد والكراهية ... وكلما سمع اسمي يرغد ويزبد ... وهذا ما ذكره لي أحد الذين جالسوه مصادفة. ولم يرتبط ذلك بنزاع شخصي ...على الأقل من جانبي... وإنما نشأت الاختلافات بيننا حول قضايا تكوين الشباب.

وكان أعظم أعضاء الفريق اليوغوسلافي... طبيب من أكثر الفنيين الأجانب تميزا ...اسهم في النشاط ابتداء من المعسكر الوطني الأول في ود فده في صيف ١٩٦٣ ... واعتبرته يمثل تمثيلا كاملا – صورة المناضل الشيوعي– لتوازنه، وما يحمله من مشاعر إنسانية، وضمير مهني...

اضطر في أحد الأيام أن يعالج خمسين شخصاً ...وأنا منهم ...اصيبوا بالتسمم من أكلة – كسكسي– قدمت في وجبة العشاء. وأفلت من هذه المشكلة بدون خسارة (كالشعرة من العجين) وبهدوء... وكأن أحدا يستطيع المساس به أو أن يؤثر عليه... ولا حتى زوجه، التي طلبت الالتحاق به في معسكر البناء، ولكنها فزعت أمام الصعوبات. وكان يعتني أيضاً بصورة مؤثرة جداً بهؤلاء البؤساء المساكين من فقراء

---

١١٦ من أصل ألماني قدم خدمات كثيرة أثناء حرب التحرير الجزائرية بعد أن فر من الخدمة العسكرية في الفرقة الأجنبية، واعتنق الإسلام وأصبح جزائريا، كان يتشدق بخطاب يساري وإنما سلوكه الفاشي سلوك شخص مختل عقلياً، ووزع تقريرا تسلمته الرئاسة –أطلعني عليه وقرأته– يتهمني فيه بمحاولة إشباع الشباب بآراء شيوعية، بينما يعلم الجميع وهو منهم أني رفضت بالذات القيام بالتدريس لاعتقادي أن هذا النشاط يعود على نحو خاص إلى الكادر الجزائري.

١١٧ عبارة عربية تعني قصير النظر–المترجم

القرية، حفاة الأقدام في أرض تكثر فيها الأفاعي، وبطون أطفالهم المنتفخة وقد نخرها الجرب -وكنا قد افتتحنا عيادة طبية لعلاج الفلاحين-.

وكان من الأفراد العابرين ••• مجموعة من المستشارين الدوليين يلقون محاضرات برعوا في توجيه الانتقادات••• ولكنهم تهربوا من حل مشاكل محددة ظهرت نتيجة نقص التجهيزات اللازمة للقيام بتدريب مهني••• سمعنا جعجعة ولم نر طحنا •••مجرد لغو فارغ ... دون أي مبادرة. وشعرنا بالزهو للفارق الذي يوجد بيننا ••• رفعوا شكوى للوزير، جعلتني أنفجر ضاحكة عندما أبلغني بها واحد منهم ••• وعلمت أيضاً أنهم رفضوا العودة إلى معسكر البناء. صحيح كانت الظروف صعبة••• ولكن التجربة كانت في حد ذاتها مثيرة••• أولاً بسبب التغيرات السريعة الحاصلة في صفوف الشباب •••بل أخاطر وأقول أن التجربة كانت بالفعل تجربة ثورية.

بعد مضي أقل من شهر، جاءتنا شخصية عدوانية، من النوع الذي يقول *أنا لن تنطلي علي هذه الحيلة ...*"، كان هذا الشاب يبكي بحرقة أمامي لأن فريقه لم يكسب علم المعسكر الذي كان سيحتفظ به حتى حلول ميعاد عملية التقييم القادمة ...! ولم تقتصر المشاكل على كسب مباراة كرة قدم••• ولكن في الاهتمام بعملية بناء حواجز ترابية مزروعة -تكسيات- والمحافظة على نظافة المعسكر، والانتظام في حضور الدروس!

ولن أنسى هؤلاء الشباب الذين يروحون ويغدون في المعسكر وهم ينشدون "*هيا هيا •••يا شبان هيا هيا •••هو* ! تحت وابل من المطر، بعد أن رفضوا الامتثال لنصائح الطبيب الذي منعهم من الخروج -شاهدوا البارحة فقط الفيلم السوفييتي المشهور الذي تدور أحداثه حول بناء خط سكة حديد تحت الثلوج المتساقطة- كنا نرغب ونحب أن نعمق علاقاتنا مع هؤلاء الشباب••• ولكن اقتصر دورنا على إثبات •••أن سنوات الحرب الثمانية وما صاحبها من دمار وخوف، وعنف وكراهية لن تمنع توجيه طاقات الشباب في قنوات تنظيمية في إطار عملية للبناء••• وأنه من الممكن أن نؤمن لهم في موازاة ذلك تدريب أولي سريع دون أن نقبع ساكنين عند مستوى اللغو الخطابي •••!!!

ومع ذلك ابتلع هؤلاء الشباب الآتين من القرى الموجودة في داخل البلاد، بنهم الخطابات الوطنية، ولم يكن منهم من يشعر حتى ذلك الوقت بوجوده كإنسان•- اهتزت مشاعرهم وانفعلوا عند سماع الشعارات الضخمة التي تنادي بالإسلام والعروبة يتشدق بها هذا الديماغوجي[١١٨]- قيل أنه ذبح سكان قرية عن بكرة أبيها لأنها أقامت علاقات مع الفرنسيين-. وكان بن بيللا أيضاً يلقي خطابات رنانة، إلا أنها كانت منصبة على الإدارة الذاتية، وعلى تحرير المرأة. وقد تعلق بكل جوارحه بقيم الإسلام••• وهي العروة الوثقى بين الجزائريين••• ساعياً لتعريف الجميع بذلك بما فيهم أصدقاءه ••• الأقدام الحمراء

---

١١٨ محمد سعيد منفذ مذبحة ميلوزا.

– وهي مجموعة أغلبيتها من الفرنسيين والأوروبيين من تيار اليسار الذين ساعدوا في عملية البناء بعد الاستقلال – ولم يتردد في خطاباته الموجهة إلى جماهير الفلاحين المدعوين للمشاركة في التجمهر أمام المنصة التي يقف عليها، في مناشدتهم لإرسال بناتهم إلى معسكرات البناء.

لم يغتبط القرويون بذلك...: فالتحرر من الأحكام المسبقة مسألة تحتاج هي الأخرى إلى فترة تعود.

ارتدت الشابات في الأيام الأولى للمعسكر مثلنا زي تدريب عسكري -وتميزت عن غيري بارتداء قبعة من ولاية تكساس الأمريكية، هدية من موريان... أحمي بها رأسي من أشعة الشمس الحارقة... وتساقطت عليهن الحجارة دون أن نكتشف من هم الذين قاموا بإلقائها من موقعهم في الصفوف الموجودة أعلى المرتفعات...!! ورغم وجود الاحتياطات لتفادي ما لا يحمد عقباه ...!! كان الشباب والشابات يقيمون في ثكنات منفصلة... ولكن لم يمنع ذلك من ارتباط أول زوجين في نهاية فترة التدريب في المعسكر... عندما تقدم علال يحياوي[119] تلميذ فوتييه لخطبة إحدى المتطوعات التي أصبحت زوجه... وقد استطاعوا التعرف على بعضهم البعض في الخفاء!

استمر حضور المحاضرين، والمهتمين بالسينما والمسرح إلى معسكرنا طوال مدة وجوده. وكان مصطفى كاتب- وهو مسئول عن المسرح الوطني الجزائري- يتجول هنا وهناك... مشاهدا صامتاً، كما أقام على نحو دائم محمد زينهت الممثل الكوميدي الشعبي، ومخرج مسرحيات صغيرة تعرض شخصيات من أبناء الشعب الجزائري. وكان عندنا الكوبيون... ولقد أبدى سيرجويرا -إيل كومندانتي- رفيق النضال مع كاسترو الذي أصبح سفيرا في الجزائر اهتمامه بما نقوم به في المعسكر، وكان حلقة الوصل بين منظمة التضامن، والجزائر العاصمة...وأرسل إلينا جوقة أفريقية - كوبية رائعة: وحالما وصلت المعسكر صاحبها الشباب وهم يرقصون، وانتشرت مشاعر الحب والأخوة بدون تحفظ -نفس الدم الحار، ونفس حب سماع الإيقاع الموسيقي...!!! بل قال لي بن بيللا أنه لم يتمكن من أن يمنع نفسه... وانضم إلى الراقصين على المسرح!. وعرضت الجوقة اليوغوسلافية المتألقة عروضها على مسرح كبير قمنا بصنعه بأيدينا، وأضاءت بأدائها اليوم كله.

وأثارت هذه التجربة الأولى لإنجاز نشاط وطني تطوعي نظمته بالكامل الوزارة -تضمنت دورة تدريبية لتحسين أداء الكادر في إطار العمل المنتج والتطوعي- اهتمام منظمات الشباب الأخرى. أقام عبد المجيد بن ناصر مسئول منظمة شباب جبهة التحرير الوطني لمدة من الزمن في معسكرنا، ولكن صحته كانت قد اعتلت وأصابه الضعف

---

١١٩ أصبح مدير إنتاج في المكتب الجزائري للسينما.

بسبب السنوات التي أمضاها في السجن، ولذلك لم يتمكن من متابعة إيقاع نشاط المعسكر. وأما نور الدين زينين[١٢٠] المسئول عن اتحاد الطلبة الجزائريين فقد سارع بالاشتراك قلباً وقالباً في هذه التجربة، وحضر إلى المعسكر كلما كان في استطاعته ذلك: وكان مثال المناضل الكفء والكريم، يجمع بين صفات الدقة والصرامة، والتسامح والرأفة، دائماً مشغول البال بإقامة علاقات إنسانية مع الشباب- رغم أنه مجرد عابر -وعند اختتام الدورة التدريبية، وبعد أن ألقى خطابه، قام بتسليم أفراد الفريق الواحد بعد الآخر شهادات تثبت اشتغالهم في معسكر البناء... وكان محبوباً من الجميع ... يحمل على رأسه - عفرة الأسد - لا شك أنه من برج الأسد . على عكس الانتهازي الكسكاس... الذي كان يظهر هنا وهناك.

ظل بعض الضيوف الفرنسيون -بعد مغادرة بن بيللا الحفل الختامي في المعسكر- لتناول كأس من النبيذ مع المهندس اليوغوسلافي، الذي يحظى مزاجه المعتدل دائما بتقدير واستحسان الجميع . وكادت أن تتحول هذه الجلسة إلى مأساة: فجأة وصل أورباح بدون مقدمات... لم يوافق على تهريب النبيذ إلى داخل المعسكر، وهدد بطلب تدخل البوليس !

وعندما استدعيت، بذلت معه كل المحاولات لكي أقنعه بأهمية العمل المنجز -وقد أنجز بالفعل -وأنه يستحسن عدم الإلحاح على هذا الطلب ... وأن نتجاوز خرقاً بسيطاً للقواعد كإدخال مشروب كحولي إلى المعسكر... ولولا وجود حرجات ومساعدته ما كان بوسعي أن أتوصل إلى نتيجة إيجابية بمفردي. إلا أننا استطعنا في نهاية الأمر أن ننهي هذه الدورة دون حدوث أضرار ...

وكانت هذه هي سنة الإعداد والتحضير... وكان الهدف هذه المرة القيام بعملية على نطاق واسع، وباشتراك كثير من المعسكرات الأخرى الموزعة في أماكن مختلف على امتداد التراب الوطني ...يشترك فيها آلاف الشباب... وكانت هذه السنة سنة لا يمكن توقعها ... أثبت كادر الشباب في ود فده أنه قادر على إدارة عملية في ظروف صعبة للغاية، ويكفي أن نوفر له وسائل للاستمرار، ونمتنع عن زرع العقبات والأشواك في طريقه. وبهذا التصور تم إنشاء جهاز السكرتارية التنفيذية، وهو جهاز لإدارة العمل التطوعي، يجمع ممثلين عن الوزارات المعنية -الشباب، والتعليم الوطني، والزراعة-، ومنظمات للشباب -شباب جبهة التحرير، واتحاد الكشافة الإسلامية الجزائرية SMA وبطبيعة الحال الجيش-.

---

١٢٠ أصبح عضوا في حزب اليسار الاشتراكي الجزائري السري... وهو الحزب الذي أنشئ مع اشتراك كوادر شيوعية قديمة بعد انقلاب بو مدين، وغاص في النشاط السري من يوليو ١٩٦٥ حتى أكتوبر ١٩٨٨ ، توفي من وقت قريب في المنفى في باريس... هذا هو زينين...

بعد عودتي من مصر – كنت قد ذهبت لرؤية شريف، الذي أفرج عنه بعد أن أمضى فترة حكم صدر ضده بالسجن عشرة أعوام لأسباب سياسية٠٠٠!!!! ونجحت في مغادرة مصر رغم القيود ٠٠٠!! ولا مناص من أن أذكر أمر مخجل٠٠٠ فلقد رجع الفضل استيفاء إجراءات سفري والتغلب على العراقيل إلى تدخل الأخضر إبراهيمي[١٢١] !!٠٠٠ سفير الجزائر في القاهرة٠٠٠.

بدأنا بتنظيم ندوة في المدينة الجامعية في بن أكنون في ٢٩ نوفمبر ١٩٦٣ – وعثرت صدفة بعد ذلك على موضوعات المناقشة– واشتركت جميع المجموعات التي نظمت بصورة تلقائية في إطار العمليات التطوعية ولا سيما الأخوة سيدي بو مدين، كما أظهر جمال الشاب قدرته على تطبيق منهج بيداغوجي متطور في أحد مراكز العناية بالأطفال اللقطاء –افتتحه بالاشتراك مع حداد–، أما الأخ الأكبر سنا رشيد، فقد نظم النشاط في المنطقة الريفية المعروفة باسم واد هيربيل. وكانوا يتناقشون ويتشاجرون حول كل شيء ومنها نظام محو الأمية –مع موكران ٠٠٠وهو من التعليم الوطني٠٠٠ تقلد فيما بعد وظيفة المسئول عن التكوين المهني في مؤسسة سوناتراك.

وفي وجده تركنا الخيار لمن يطلب متابعة دروس محو الأمية إما بالفرنسية أو بالعربية٠ وعندما أعترف بالعربية لغة وطنية رسمية أصبحت العربية إلزامية، وأثارت المنازعات الوطنية المتطرفة مشاعر التوتر والفزع بين الشباب٠٠٠ وكانت العواطف متأججة : مدح كاتب من اليسار وهو ألبير كاموس اللغة اللاتينية، ولم تكن المطالبة بالعربية كلغة رسمية في ذلك الوقت من المطالب الفورية للحزب الشيوعي الفرنسي٠٠ إلا في سنة ١٩٤٦. ولو كان قد وقع الاختيار على اللغة الدارجة لأصيبت الجزائر بخسارة لأنها ستعزل عن العالم العربي، فضلا عن أننا لم نر أي مصداقية إذا ما اعتبرت اللغة الدارجة العربية أفضل من غيرها، وأنها تتفوق على سائر اللهجات الدارجة البربرية وخلافها التي يتحدث بها أكثر من ثلث السكان. ومع ذلك فإن الإصرار على تعميم العربية بسرعة– وهو المطلب الذي نادت به النخبة الحاكمة الناطقة بالفرنسية– كان يبدو مريبا بالنسبة لي –هل هو للاحتفاظ بالمناصب العليا في الدولة وفي القطاع الخاص في هذه الدائرة؟– ٠٠٠وسادت اللغتين في معسكرنا٠٠٠

تقرر استمرار عملية ١٩٦٤ في ود فده– في الفترة من شهر إبريل حتى شهر يوليو وذلك لتفادي أشهر الحر.

كرست وقتي ابتداء من شهر فبراير للاستعداد لهذه المناسبة. وكانوا ينظرون إلى في الوزارة كأجنبية بلغت من العمر٤٣ عاما٠٠٠ غريبة الأطوار٠٠٠ هبطت بينهم

---

١٢١ استمر في السلك الدبلوماسي ونشط على الصعيد الدولي، ولا سيما عندما اشترك في تسوية الصراعات بين الأخوة في أفريقيا الشرقية.

كمستشارة فنية –وكان هذا هو اسم الوظيفة التي يلحق بها الأجنبي في الوزارة... ولاحظوا أني أفضل أن يكون مكتبي في معسكر البناء. كنت أحب بالطبع الجو النضالي الموجود في المعسكر. وكان هناك سبب آخر لتجنبي العمل داخل مكاتب الوزارة –التي هبطت فيما بعد إلى مستوى أمانة فرعية تابعة للدولة بعد أن كانت وزارة: عندما حل صادق باطل، محل بوتفليقه –الذي عين وزيراً للخارجية بعد وفاة محمد خميستي– ولم تكن له أبعاد شخصية بو تفليقه، ولم يختلف عنه موظفو مكتبه– وهل يستقيم الظل والعود أعوج ...!!!– وكانت زينه ملوك الموظفة النشطة الوحيدة، وهي صيدلية ذات موروث تلقته من حقبة النضال من أجل التحرير ...بل أجزم بأن نشاطها كان نشاطا مذهلا.

بعد تسلمي متأخرات مرتبي لمدة عام، اشتريت سيارة فولكس فاجن صغيرة، ولم أعد أعتمد على أحد في تنقلاتي، وبسرعة مارست عادتي في الهيام على وجه الأرض ...

أصبح معسكر ود فده صالحا للسكنى تماماً، ما عدا البرد القارص الذي يهبط علينا أثناء الليل – وكنت أرتدي – غندورة وهي عباءة جزائرية–يرتديها سكان منطقة الهضاب العليا: أقمت في مساحة سكنية متكاملة تتكون من غرفة للنوم ومكتب، وتليفون. بل كانت يساعدني سكرتير وهو زيدي... ضخم الجثة من منطقة قسنطينة، وقد امتنع ولو مؤقتا عن ممارسه بعض الأفعال... !! كيف أصف ذلك...؟ أعمال إجرامية يقترفها مجرم من الأحداث... إلا أننا لا نستطيع أن نعده كذلك الآن ... فقد بلغ عمره أكثر من ٢٦ سنة...!! وكان بارعا في تقليد الشخصيات مستخدما ما يتوفر من مواد مساعدة –ولو لم تعارض منظمة التضامن تجنيد الجزائريين لكان من الممكن أن يقوم بعمل رائع في مجال التكوين والتدريب الذي استطعنا أن ننظمه في الجزائر العاصمة. وأعتقد أنه كان يحرس غرفتي بالليل وهو حامل سلاحه... لكي يحول دون اقتراب الخنازير البرية أكثر من اللازم من باب غرفتي ... وكنت أرى هذه الحيوانات البرية المتوحشة في الصيف تمر تحت نافذتي المفتوحة. وكان زيدي يحل محلي في غيابي.

وبفضل التليفون وسيارتي الفولكس استطعت أن أعالج فورا حالات ضيق النفس التي كانت تصيب مايو التي أثقلتها المسئوليات في الجزائر العاصمة –يرسل لنا الزملاء في باريس باستمرار مزيداً من المناضلين لإيوائهم. كنت أحب قيادة السيارة في الفترة المسائية عندما تكون الطرق خالية تماماً. ولدى عودتي أغادر الجزائر العاصمة في الواحدة صباحاً للوصول إلى المعسكر في الفجر –تستغرق الرحلة حوالي أربع ساعات بالسيارة أخذا في الاعتبار التعرجات الجبلية. وفي بعض الأحيان يقلق خلوتي من يطلب نقله بالسيارة... مثل القروي الشاب الذي طلب نقله وكان في منتهى السعادة لأنه قطع بعض الطريق بالسيارة بدلاً من السير على الأقدام... ولكنه طلب مني التوقف قبل دخول القرية لكي ينزل من السيارة حتى لا يشاهده أحد وهو جالس بالقرب من امرأة تقود سيارة...!! بل وفوق ذلك امرأة أجنبية...!!!

بصورة عامة...

ثقافة... تقترح إحياء حركة من نوع آخر، بنفس المطالب، وقد لا تحققها إلا كوكبة[4] أخرى...!!!

باريس - مارس ١٩٩٠

استعادة صور من الماضي

كانت البداية...محاولة تذكر بعض الأحداث الماضية في سياق حاضر حي ديناميكي، مع تجميع العناصر المادية... رأيت أنها ربما تساعد في إلقاء بعض الضوء على نضال هنري وتزيل بعض الأوحال التي لطخ بها بعض السفهاء من ضعاف النفوس نشاطه الثوري[5]

أمسكت بخيط الذكريات التي تشتتت في خضم نضال كان قد ابتلعنا لفترة عقد كامل من الزمن.

و ها أنذا أتحرر اليوم أيضا من قيود، والتزامات الاشتراك اليومي المنتظم في حملة دولية لإيجاد حل للقضية الفلسطينية –وأتحول إلى مغالجة مادة قد تكشف في طريقها مصادفة بعض معلومات أخرى شخصية ...!

كيف حدث هذا التحول في اهتماماتي؟!!

نتيجة تقلص إمكانيات النشاط المتاحة..(ومع ذلك،أستطيع أن أؤكد- لو كان الغرض من هذا العمل إعداد فيلم وثائقي يستعيد صور حقبة تاريخية من نشاط حركات التحرير الوطني مثلا، فقد يصبح مثل هذا العمل عاملا محفزا لإنجاز المهمة...). ولكن...!

سبب ابتعادي عن مجال هذا النشاط ... هو ما انتابني من ضيق، عندما أمارس نشاطا سياسيا في نطاق محدود مثل (المشاركة في إصدار نشرة نضالية مثلا)، لأنه يتعذر

---

[3] تقع جنوب شرق المكسيك على الحدود مع جواتيمالا، والشباس ولاية يتكون الكثير من سكانها (٣٠ %) من الهنود الأمريكيين، وتتجاوز مؤشرات الفقر فيها المتوسطات الوطنية .أدت الاتجاهات الرامية إلى طرد الشباس وتهميشهم، بإبعادهم عن أراضيهم نحو أراضي أخرى قاحلة تقع على المرتفعات، حتى تستغل أراضيهم الأصلية في مشروعات الإنتاج التصديري، إلى انتفاضتهم في ١ يناير ١٩٩٤ .وتنفرد هذه الحركة كحركة جديدة من نوعها فهي تسعي لإجراء حوار مع الحكومة، ولا تناضل من أجل الاستيلاء على السلطة، ثم أنها اقترحت مشروع حضاري جديد أعلنه باسمها القائد ماركوس.

[4] أي من أجل عولمة (كوكبة) مختلفة عن تلك التي يدعو إليها النظام النيوليبرالي .

[5] ذا كان الصمت حاضرا والكلام غائبا ومجمل الظروف على ما هي عليه ما سبق منها وما لحق ... ما أرى وما يرى الناس ...إذن إلى متى ... ؟وإلى أين... ؟؟!!–المترجم

وجاءتني فكرة لم أقيمها كما يجب ٠٠٠؟ أن أجذب اهتمام شريف -وهو طبيب- إلى ما نقوم به من عمل: ولكن كيف يتحقق ذلك في مثل هذا الجبل وفي جو قارص البرودة٠٠٠ !! وكيف كان بإمكانه أن يستوعب أهمية هذا المكان التاريخي الذي لا علاقة له به٠٠٠!! فقد ظل سجينا لعشرة أعوام٠٠٠ وكاد أن يصاب باكتئاب. ورغم ذلك تمتع على الأقل بقيادة السيارة في هذه البيئة المليئة بالمناظر الطبيعية الجميلة -لا يوجد اليوم مثيل للجزائر٠٠٠ وسيأتي الوقت دون شك الذي يقرض فيه الشعراء الشعر ٠٠٠ وبعد أن التقى شريف علي الشلقاني[١٢٢] وزوجه وتقابل مع زينه ملوك وبن بيللا، وطرح عليهم الأسئلة. جمع هذه المقابلات في تحقيق نشر له في القاهرة تناول فيه المشروع الاشتراكي في الجزائر المستقلة.

ونصحته بالا يحاول الاندماج في هذه العملية، وأن يغادر الجزائر لكي يعود للنضال في مصر.

أنجز العمل على مرحلتين: المرحلة الأولي-من ١٥ إبريل حتى ٢٠ مايو- واقتصر على ود فده، وكرس الجانب الأكبر منه للتمرين والتدريب المهني في القطاع الزراعي. وتواجد الفريق اليوغوسلافي -الذي تجدد أعضاؤه بالكامل باستثناء بولفيك- في الموقع أثناء المرحلة التحضيرية، ولكن وزع أعضاء الفريق القديم ٠٠٠الذي أحاط بالشباب كالسوار بالمعصم في معسكرات أخرى: اثنين في ود فده لحماية السد ضد زيادة تراكم الوحل، ومعسكر دولي من الخيام في واد ياس ، على الحافة السفلي من سلسلة جبال ديجورجورا٠٠٠ تكفل به اورباح وكان عليه أن يظل في وظيفته حتى انتهاء أعمال بناء وتشييد ١٨٠ مسكناً -عانى القرويون معاناة شديدة من الحرب- وقدم فريق سوفييتي مساعدة فنية ومادية -تكونت من لجان فنية ومعدات- وأخيراً معسكر المزرعة في أزفون، الواقعة على شاطئ القبائل، كلف به حرحات.

وقد بذلنا٠٠٠ موريان وأنا ٠٠٠الكثير حتى تعود القيادة السياسية للعملية إلى الحزب وكان بوعلام ماكوف[١٢٣] يمثل الوسيط المميز: وعندما تغير الوزير وأصبحت الوزارة أمانة فرعية تابعة للدولة انكمش نشاطها السياسي، وأصبحت مجرد قناة لنقل الأموال٠٠٠ ومسئولة نظريا عن مكتب الدراسات، وكلفت بمتابعة جميع التجارب التي كانت ذات صلة بالوزارة. ولكني كنت مشغولة بود فده أكثر من أي شيء آخر٠٠٠ واكتفيت بعملية مراقبة عرضية بالنسبة لباقي النشاط ٠٠٠ أتواجد كثيرا في ود ياس - منطقة في القبائل الكبرى-، بناء على طلب أورباح، وهو شخصية خجولة ذات مزاج

---

١٢٢ زميل مصري سأتحدث عنه في مكان آخر، وكان في ذلك الوقت من مستشاري علي زموم رئيس البلدية في منطقة تيزي وزو.

١٢٣ اليوم مسئول عن قسم تابع للحزب الشيوعي الفرنسي في أحد ضواحي باريس.

صفراوي غضوب -وقد رأينا ذلك- تعرف على مناضلة من الحزب الشيوعي الفرنسي وتزوجها -وافتها المنية في ظروف مأساوية بعد مرور عدة سنوات من الزواج، تاركة له ابنة- وكان معسكر البناء يتبع بلدية القبائل الكبرى، أي يتبع زميلنا علي زموم[١٢٤]. وكثيراً ما نخرج أوراقنا، في الذهاب إلى المعسكر والعودة منه، يحقق فيها رجال بو مدين مره، ويفحصها رجال المقاومة التابعين لآية أحمد[١٢٥] في المرة الأخرى.

وكانت أزفون تمثل تجربة من نوع آخر: مدرسة/مزرعة ...افتتح معسكر البناء في الصيف، قام بتصميمه موريان مستخدماً في ذلك رقته، ولطفه، والحجج الثورية التي يحاول أن يقنع بها زينه وأنا، وتلقى في النهاية الأموال اللازمة لبدء مشروعه، أخذ مني حرحات ...ودعى زملاء مدربين للانضمام إليه كنا قد ورثناهم من شبكة الدعم: ليكليرك وزوجه أوجييت دي مولان ... لا أملك إلا ذكريات قليلة حول هذا المشروع الذي لم يطلب مني سوى أن أكرس له ليلة واحدة لتقييمه مع موريان في موقعه... خرجنا بعدها لنستنشق نفحه من الهواء النقي المنعش، وتوقفنا نتابع مناظر خارجة عن المألوف... عملية إنزال أسلحة، شحنت في قوارب مطاط إلى خليج صغير لا يبعد كثيراً عن الشاطئ الذي سرنا إليه ...! لنشاهد السماء بنجومها المتلألئة. أكد موريان بأن الأمن العسكري يعذب المقاومين بالقرب من -المزرعة/ المدرسة- ووعد بأن يكتب شيئاً عن هذه التجربة.

بعد المرحلة الأولى من العملية في ود فده، وبعد أن رفعت تقريري إلى الأمانة التنفيذية - عثرت عليه في الملفات التي أنقذت من الأوضاع المتفجرة التي حدثت بعد ذلك- عدت إلى الجزائر العاصمة لإعداد المرحلة التالية: توجيه ٢٠٠٠ إلى ٤٠٠٠ متطوع -لم يتمكن قطاع الزراعة تجنيد شباب للعمل في المعسكرين بدون مرتبات- أقمت مكتبي في مقر شباب جبهة التحرير، مع اشتراك رشيد سيدي بومدين وأحد القادة العسكريين الشباب من جيش التحرير الوطني -نسيت اسمه- وهذا لأني لم أعد أتحمل الجو الذي كان في الوزارة. وانتهت العملية بنجاح في ود فده واستمرت بعد ذلك في ود ياس. لم يعد الكادر الشباب بحاجة إلى وجودنا. مرة تلقيت دعوة جديدة للالتحاق بوظيفتي في الوزارة... وقدمت على إثر ذلك استقالتي في نهاية شهر ديسمبر ١٩٦٤.

---

١٢٤ انخرط وهو صغير السن في النضال المسلح ، ومكث عدة أعوام في السجن، صديق حميم لكاتب ياسين، مثال للمثقف الملتزم الذي يناضل في الميدان -لم يترك أبداً الجزائر، ويعيش منذ عدة سنوات في قريته، الواقعة أسفل جبال جورجورا حيث يكتب مذكراته ويناضل في أحد المنظمات غير الحكومية المحلية.

١٢٥ كان معارضاً لبن بيللا والتحق برجال المقاومة في منطقة القبائل الكبرى، ألقي القبض عليه وصدر ضده حكم بالإعدام، استطاع أن يسوي خلافه مع بن بيللا، ولكن ألقي في السجن بعد انقلاب بو مدين، وهرب منه فيما بعد.

استطاع هنري أن يدبر لي مرتبا صغيرا -صرفته لي مجموعة باريس المصرية-: وكلفت بمتابعة نشاط لجنة لتقديم المعونة للثورة الكنغولية أراد بن بيللا تنظيمها، وقمت كذلك بتسجيل اسمي في الجامعة.

انتهت الحفلة...

استرعى انتباهي في معسكر ود فده ما يشعر به الجزائريون من نكد وكآبة في المزاج، فلم يعد قدامى المجاهدين يقصون أحداث المقاومة، ورفضوا أن يشمروا عن سواعدهم، مما زاد من شعور أورباح بالغم والاكتئاب، ولم يكن يعرف الشباب الآتي من الداخل كيف يغني، ولا كيف يصفق. ولحسن الحظ وجد الطلبة الشيوعيون، واليوغوسلاف الأفرو/كوبيين ... مما خلق جوا أخرا ... والغريب في الأمر أن العاصمة أيضا لم تنج من هذا المزاج النكد.

وتوصلت إلى تفسير نظري... وافقت عليه في النهاية يا جان ماري... وهو أن العنصر القبائلي في ذلك الوقت كان يمثل الأغلبية في الجزائر العاصمة... وقد دعم هذا الجبلي ...المهاجر للضرورة صورة الشخصية المغلقة والطبيعة التشاؤمية التي انتشوت في ظروف الاستيطان والحرب. وقد جاء بن بيللا وهو أيضاً من السهول الغنية في منطقة وهران، حاملا معه بعض حرارة المشاعر اليهودية العربية التي ولدت في الأندلس. ومرة أخرى بعد انقلاب ١٩ يونيو ١٩٦٥ أصيبت الجزائر العاصمة بالنحس.

حزنت كثيراً بسبب الانقلاب: فلقد استهدف رئيس أقدر له حماسه في خلق جزائر جديدة ...حقيقة كانت القوة الدافعة التي كان من المفروض أن يمثلها الحزب الشيوعي الجزائري المحظور، موجودة في جناح اليسار في حزب جبهة التحرير، ولكن مع ذلك يصعب علينا أن نعرف حزب جبهة التحرير بأنه حزب فريد من نوعه، ورغم أن جريدة ألجيه ريببلكان[١٢٦] أي -الجزائر جمهورية- استمرت في الظهور... وكان محمد حربي[١٢٧] يدير مجلة ريفيليسيون أفريكان .إلا أنه كان مخترقا من جانب تيارات متعددة.

وتأثرت أيضا لأن بوتفليقه كان من بين الفريق الذي أسقط بن بيللا. وتركت العنان لمشاعري عندما تقابلت مع هنري: ودون أدنى شفقة حلل سبب ما آلت إليه هذه الشخصية

---

١٢٦ جريدة الحزب الشيوعي الجزائري القديمة

١٢٧ ماركسي مستقل لا توجد حاجة لتعريفه فهو معروف بكتاباته التي ألقت الضوء على تاريخ الحركة الوطنية الجزائرية، كان مديراً للمجلة من يونيو ١٩٦٣ حتى سبتمبر ١٩٦٤، سجن بدون محاكمة بعد الانقلاب، ثم وضع تحت الإقامة الجبرية، ونجح في الهرب فيما بعد ونفي إلى فرنسا في ١٩٧٣ حيث قام بإلقاء محاضرات في جامعة باريس ٨، وما زلنا ننتظر بفارغ الصبر تحليله لتجربة الإدارة الذاتية الجزائرية.

التي ساعدت كثيراً في انطلاق نشاط منظمة التضامن٠٠٠ وهذا صحيح٠٠٠ عندما قال هذا كله يتعلق بالصراع بين العشائر ٠٠٠ ولكن تظل الخيارات الأساسية دون تغيير.

اكتسب مكتب التضامن في الجزائر أهمية بافتتاح دوراتنا التدريبية٠٠٠ إيف وهو مدرس رياضيات، برع في دروسه العملية، وسهلت لنا مونيك روميت الرقيقة اتصالاتنا مع الوافدين من أمريكا اللاتينية. ومن ناحية أخرى كنا نعد بحماس مهرجان الشباب مع علي زموم الذي حضر من القبائل، وبو علام معقوف. وأحدث الانقلاب صدمة مروعة. جمع ابني بالتبني -وقد زاد توتره- مجموعة من الشباب جالوا في الطرقات طوال الليل -يوم ٢٠ يونيو- يهتفون يحيا بن بيللا ٠٠٠وتطرق النساء على مواعين الطعام من فوق شرفات منازلهن، وهن يمارسن موروث من الحقبة السابقة. وكتبوا على الجدار عند مدخل المبنى في شارع دانتون، الشعارات منها -فليسقط بومدين- باستخدام عصا من مادة حمراء لا تقبل الذوبان كنا نستخدمها في دورات تدريب المناضلين -نقل إلينا هذه الطريقة أحد الثوريين من فنزويلا-. ولكن لم يتعد الأمر هذه الأعمال ٠٠٠فبعد الذي حدث في إندونيسيا[١٢٨] والكنغو[١٢٩] وما آلت إليه الأمور كان ذلك كافيا لدفعنا إلى الاكتئاب.

عندما اصدم في شيء٠٠٠ أنام أو أغادر المكان. في هذه المرة كنت مضطرة للبحث عن أماكن لاختباء المناضلين الجزائريين٠٠٠!! ومنهم بوعلام معكوف، وأثنين آخرين من الزملاء. ولم يكن من السهل العثور على أماكن إقامة -لم تطرق من قبل. فجميع الزملاء الذين أعرفهم الموجودين حولي كانوا أصلاً من شبكة الدعم. وبذلك فتحت لهم ملفات عند أجهزة الشرطة. كان هناك بالفعل السفارات الصديقة -مثل سفارة كوبا- التي اقترحت المساعدة، ولكن كيف نقوم بهذا العمل دون أن يلقى القبض علينا. عرفني اسموبيل، وهو زميل من منظمة التضامن بصديقة شابة٠٠٠ جوهرة فريدة٠٠٠ عزيزتي كلود٠٠٠ قدمت الخدمات على أساس شخصي -وبطبيعة الحال لن يكون هنري هو الذي يعاتبني على حماية مناضلين-. فكل واحد منهم ثمين وعزيز: وكل من لم يجد مخبأ أعتقل٠٠٠ بعضهم في أعماق الجنوب٠٠٠ بل وقيل لي أنهم عذبوا ببشاعة.

وبانتهاء مهمتي غادرت، واتجهت مع موريان: أولاً إلى المغرب ثم أسبانيا ثم جبال البيرنيه -سيراً على الأقدام-٠٠٠ إلى أن وصلت إلى فرنسا. وكم سعدت عندما تعرفت بجد موريان وتذوقت نبيذه الخاص الذي يحمل طعم البندق.

---

١٢٨ سوكارنو المقاتل من أجل تحرير إندونيسيا وأول رئيس للجمهورية، وأحد الدعاة مع نهرو لعقد المؤتمر المناهض للكولونيالية في آسيا ومنها الصين - ماوتسي تونغ وفي أفريقيا مصر عبد الناصر، وذلك في باندونغ في إبريل ١٩٥٥، ونفي في ١٩٦٦ـ ليحل محله الجنرال سوهارتو، الذي أطلق حمامات الدم ضد الشيوعيين وحلفائهم.

١٢٩ كنا تعلم مضمون المذكرات التشاؤمية التي وضعها تشيه جيفارا فيما يتصل بالإمكانيات الثورية المتاحة في أفريقيا ونشر جزء منها بعنوان (السنة التي لم نذهب فيها إلى مكان محدد)، طبعة بيتابيه، باريس ١٩٩٥.

واضطررت عند وصولي إلى باريس تحويل مساري إلى بلغراد –وهو الهدف من هذه الرحلة– وهذا لأتولى مهمة دائمة في إطار دورة تدريبية مخصصة للمعارضين العراقيين[١٣٠]– واتخذنا قرارا – في الكونجرس السنوي لمنظمة التضامن– بالمضي قدما في هذه الأنشطة: وعلى حركات التحرير أن تمول الخدمات التي تطلبها. ونتيجة مزاولة النشاط السري في فرنسا –وأنا لست فرنسية، ولا جزائرية، ولم تكن تعنيني في شيء قرارات العفو التي صدرت في صالح الآخرين – إن وضعي غير القانوني كان من الممكن أن يؤدي إلى ظهور مشاكل أكثر تعقيدا، لو أصبحت مناضلة دائمة في منظمة التضامن. وبما أن الجزائر العاصمة ظلت بؤرة التقاء وتجمع للحركات المختلفة، قررت العودة، رغم إنذارات بوجلان بسبب التهديدات التي كان يوجهها إلي مولر الكسكاس... وقد أصبح رجل الجيش الذي يتبع بو مدين بعد أن استولى هذا الأخير لتوه على جميع السلطات.

وفي الجزائر العاصمة، وها... قد انتهت الحفلة... لم يخطئ هنري: ظلت الخيارات الأساسية كما هي، وظلت الخطابات الرسمية مناهضة للإمبريالية ومن أجل الاشتراكية. وبرزت أهمية بناء الدولة. لم يكن هناك حديث عن الجيش، ولكن كما كان الحال في مصر الناصرية، كان مفهوما أن الجيش يمثل القوة الوحيدة المنظمة والضامن لاستقلال الدولة ووحدة الأمة –وعارضه آية أحمد في القبائل الكبرى، وطاهر زبيري في الأوراس رغم أنه كان رئيس أركان حرب بو مدين... ولكن لم يحققوا شيئا، وفشلوا لاعتمادهم على قوى إقليمية–. ففي الجزائر مثل مصر، لم تكن الوظيفة الجديدة للجيش هي ضمان الدفاع عن الدولة، بل مثلت السلطة القائمة[١٣١]. وظهرت صورة الأحزاب الوحيدة قوية لما ألقته عليها الصحافة من نعوت وأوصاف، أما الجيش فيظل صامتا، لا يتحرك إلا ليقوم بانقلاب أو يعوق دون حدوثه... !!!. ففي الجزائر مثلما كان الحال في مصر يضمن –من وراء الستار– أن تخطو البلاد خطوات نحو التقدم وأن يتمكن الشعب من الإعتماد على نفسه لتنفيذ إصلاح زراعي، وتأميم المؤسسات الأجنبية، وإعادة توزيع عادل للدخول ... وإنما شريطة أن تظل الجماهير هادئة...

استمرت الجزائر في مساندة نضال التحرير حتى وفاة بو مدين، واقتصرت على النضال ضد الكولونيالية، وضد الفصل العنصري –في جنوب أفريقيا–. وعلى أية حال لم

---

١٣٠ كانوا معارضين شيوعيين للسلطة العسكرية الجديدة التي أطاحت في فبراير ١٩٦٣ بالرئيس عبد الكريم قاسم وأعدمته بعد محاكمة صورية، كما ذبح في نفس الوقت الشيوعيين الذين كانوا يؤيدونه... ولم يكن الحزب الشيوعي العراقي قد حصل على اعتراف دولي وكان من أهم الأحزاب الشيوعية في المنطقة كلها، يجمع بين صفوفه جميع الإثنيات والأديان الموجودة في العراق ولاسيما العرب الشيعة وهم الأغلبية.

١٣١ أليس الأمر كذلك في إسرائيل؟!! فبعد انقضاء نصف قرن من الزمن منذ إقامة الدولة لم يؤد ذلك حتى الآن إلى ولادة فكر سياسي مدني بالرغم من تعدد الأحزاب وحرية الصحافة؟!! وانتشار الحريات الديموقراطية.

يكن لمؤتمر القارات الثلاث الذي أعده بن بركة صدى، وهو المؤتمر الذي انعقد -بعد اختفاءه على نحو إجرامي- كما كان مقررا في مدينة هابانا في يناير ١٩٦٦، وقررت منظمة الوحدة الأفريقية عدم التدخل في الشئون الداخلية للدول الأفريقية.

وانتهت حقبة من الزمن ٠٠٠حقبة سنوات المعجزات الخارقة٠٠٠ عندما كان رؤساء الدول في أفريقيا السوداء يساعدون الثوار -نتذكر كوامي نيكروما من غانا، وموديبو كيتا من مالي، وسيكوتوري من غينيا، وجوليوس نيريري من تنزانيا- أو الحركات النقابية التي تنجح في قلب نظم تحت إمرة الكولونيالية والنيوكولونيالية وبواسطة الإضراب السياسي -فلنتذكر الأمجاد الثلاثة في أغسطس ١٩٦٣ في برازا-[١٣٢]. وتقويض نظم دكتاتورية عسكرية -أكتوبر السوداني في ١٩٦٤[١٣٣] وعندما قام الثوار في ستانللي فيل بدعم من منظمة الوحدة الإفريقية بتلقي الأسلحة السوفيتية بواسطة مصر الناصرية عابرة لأراضي السودان، أو أيضا في الكاريبي، استطاع رجال كاسترو إحباط عملية إنزال عسكرية نظمتها أجهزة المخابرات الأمريكية في الجزيرة عام ١٩٦١، وفي مصر عبد الناصر الذي سار في طريق الاشتراكية العلمية ٠٠٠ميثاق ١٩٦٣ وفي الجزائر بن بيلا الذي نادى بالإدارة الذاتية عام ١٩٦٣، أو عندما درس تشيه جيفارا إمكانيات تنظيم مقاومة في أفريقيا وفي أمريكا اللاتينية لتخفيف الضغط الواقع على فيتنام.

ولأن الجزائر طردتني، ورافقتني حتى المطار قوة من الشرطة٠٠٠ لست أدري لماذا٠٠٠ ؟؟ قررت عندما وصلت إلى سويسرا أن أهتم من هناك بمساعدة حركات التحرير ٠٠٠ ولكن قررت الصدف غير ذلك٠٠٠ !!

بدأت في إعداد دبلوم المعهد الإفريقي في جنيف عندما أرسل لي والد بناتي، ابنتي الصغيرة دون أن يعطيني فرصة لالتقاط أنفاسي -لا شك يا ميرول أنك عندما تشحذي همتك في أمر ما تتحول الحياة إلى جحيم لا يطاق٠٠٠ ولم تكف بضعة ساعات من العمل المتقطع لسداد مصروفات دراستها-. وهنا تدخلت أختي وفتحت لي باب العمل في معهد للبحوث في قضايا العالم الثالث. حلم تحقق !٠٠٠ لكن تبين بعد ذلك أن المعهد مرتبط بمنظمة دولية لتكوين وتدريب العمال٠٠٠ وا حسرتاه كان يتبع منظمة صهيونية -هذا ما قاله لي يوسف حزان عندما استشرته بالتليفون٠٠٠ ويترتب عليه إن مارست العمل فيه أن أضطر إلى قطع صلاتي مع حركات التحرير العربية٠٠٠ ولم يكن أمامي عندئذ إلا أن أعود أدراجي إلى الجزائر: وتدخل بوتفليقه، وألغي قرار الطرد، وحصلت على وظيفة

---

١٣٢ نعني بذلك الإضراب العام في ١٣ و١٤ و١٥ أغسطس ١٩٦٣ الذي دعت إليه النقابات في الكونغو برازافيل لمعارضة إقامة حزب واحد وبسبب القرارات الصادرة بمنعها من تنظيم اجتماعات سياسية رفض جنود الدرك، وجنود الجيش الأوامر الصادرة بالقمع، وأجبروا الرئيس فيلير يويلو على الاستقالة وكان هذا هو الدور السياسي الحاسم للحركة النقابية وإحدى الأدوار الاستثنائية الحدوث في أفريقيا قاطبة.

١٣٣ أنظر الكتاب الثاني، وكتابي بعنوان : السودان إلى أين٠٠٠؟ دار العالم الثالث القاهرة ٢٠٠٢

دائمة في المؤسسة الوطنية للهيدروكربورات سوناتراك ولم آسف على هذا الخيار الإلزامي: استطعت الذهاب إلى الجامعة لحضور محاضراتي التي كان يلقيها أساتذة ممتازون مثل رينيه جاليسيو[١٣٤] وأندريه برينون...[١٣٥] وأوستورج[١٣٦] كما تابعت النشاط وحدي، وأشرفت على العلاقات القائمة بين منظمة التضامن والجزائر العاصمة...

وإن كانت ابنتي مايرا تنفر تماما من الدراسة، فإنها على العكس لها قدرة عجيبة، واستعداد فطري بدني للقيام بحركات اليوجا التي تعلمتها مني[١٣٧] ... وعندما تمكنت ابنتي نيفين من الانضمام إلينا ...عادت أجواء الاحتفال إلى الظهور... بل حتى أفريقيا اشتركت معنا في هذا الاحتفال[١٣٨].

ولد الأمل من جديد في العاصمة : ناقش الطلبة اليساريون في جامعة الجزائر العاصمة قضايا العمل التطوعي لمساعدة الفلاحين-إقتداء بالنموذج الكوبي . كما قاد بومدين سلسلة من الأعمال الثورية: الزراعية والصناعية... بل والثقافية، ولكنها ضيقة الأفق ولم تتجاوز الإطار الوطني

وباغتيال جون كيندي في نوفمبر ١٩٦٣ وإقالة خروتشوف ١٥ أكتوبر ١٩٦٤، وتفاقم المنافسات الصينية السوفييتية، أصبح العسكريون اكثر بطشا والأجهزة السرية أكثر عدوانية ... واستمرت الحرب دون هوادة ضد فيتنام.

ما يصعب إدراكه ...!

جنيف، يونيو ١٩٩٢

اغتيل في مصر الكاتب الصحفي المثقف فرج فوده، بعد تعرضه لحملة إعلامية مسعورة هاجمته بسبب مقالاته التي كانت تفرق بين ما لقيصر لقيصر ...وما لله لله... ولكن مصر تستطيع أن تلتف حول التطرف الديني الذي يلجأ إلى ممارسة الاغتيالات، وهذا دون التعرض لانفجارات اجتماعية... ولم يكن من المؤكد أن يكون هذا أيضا هو مصير الجزائر.

---

١٣٤ مؤرخ وعالم اجتماع مدير معهد المغرب/أوروبا في باريس الضاحية ٨ يلقي محاضرات قيمة، ويشارك بالكامل في تنظيم ندوة حول اغتيال ونضال هنري كوريل في نوفمبر ١٩٩٨ وفي تأسيس جمعية "ذكرى،الحقيقة، والعدالة" فيما يتصل بالاغتيالات السياسية في فرنسا

١٣٥ عالم جغرافيا تتخصص في دراسات التنمية في الجزائر.

١٣٦ عالم جغرافيا من "الأقدام السوداء" لم يغادر الجزائر بعد الاستقلال ، تلميذ جون دريش ، توفي في حادث سيارة.

١٣٧ وهي اليوم تعطيني دروساً في اليوجا.

١٣٨ الاحتفال بمهرجان القارة الإفريقية في ١٩٦٩.

وأستطيع أن أفهم لماذا يجد الشباب في البحث عن شكل من أشكال الترابط المنطقي بين الماضي والحاضر... ولاسيما عندما يذخر هذا الماضي بالأمجاد ... حتى لو كانت خادعة ...وهذا رغم كون الفراغ السياسي لثقافي حاليا دليل على تدمير العلاقات بين البشر. وأعلم مسبقا ...أنه بدون مشروع لتصحيح المسار الاقتصادي والاجتماعي، فإن الذين استقطبوا متمردي أكتوبر ١٩٨٨ ...بعد أن بطش بهم الجيش في مذبحة دموية رهيبة... لم يكن بوسعهم حل الأزمة... إلا إذا قاموا بدورهم بممارسة أساليب قمع غير محجمة.

ونوقشت في الثمانينات في الجزائر قضايا أخرى. وكانت قضية تناولت حقوق الهوية البربرية أو المساواة بين الجنسين من بين جملة قضايا أخرى ، أو تلك التي ترتبت على فشل القومية العربية: بعد اتفاقيات كامب ديفيد، وانقسام القادة العرب وبعد تعليق عضوية مصر في جامعة الدول العربية التي انتقلت إلى مقرها الجديد في تونس في ١٩٧٩ ...وما اتسموا به من سلبية، وعدم اكتراث بالهجمة الإسرائيلية على بيروت ١٩٨٢، كل ذلك أبرز أوجه الصدع الكثيرة. بل لم يكن من الممكن أن نقفل راجعين لنتعلق باشتراكية جزائرية،-وهي قضية طرحت من جديد على بساط البحث أثناء مرض بومدين وبعد وفاته - ونادى الرئيس الشاذلي وهو -رجل الجيش بالطبع- بالانفتاح على السوق العالمية، وأنزل الستار على مشروع النظام الاقتصادي الدولي الجديد الذي طالبت به دول العالم الثالث، عندما نادت بتحقيق المساواة في إطار من المبادلات التجارية المنصفة، وبثبات معدلات أسعار المواد الأولية... وهو مطلب فوري معقول نادى به الرئيس ميتران في مدينة المكسيك العاصمة في أكتوبر ١٩٨١ أمام عشرة آلاف شخص.

دونت المذكرات القليلة التي سوف تطلعون عليها فيما بعد ...بمناسبة العودة المتكررة من حين إلى آخر إلى الجزائر أثناء إطلالة العقد الذي بشر بقرب قدوم الأزمة الجزائرية في الأعوام الأخيرة للقرن العشرين- وهذا ما أستطيع قوله اليوم بنظرة إلى الوراء ...

الجزائر، الأحد ٣ فبراير ١٩٨٠

شعور حاد ،ورغبة قوية في الغوص في باطن الأمور... هذا ما تثيره خطابات سيرج ميشيل... لم أره منذ أيام بن بيللا... وكنت أذهب بانتظام لأراه مع هنري، مبهورة بهذا المغامر المحروم من الوطن،لا حزب له ... يهتم بجدية بولديه، ويحمل في داخله طاقة حية لا تضاهى... مولود في فرنسا... من أسرة روسية، قاتل في صفوف جبهة التحرير الوطني الجزائرية... ويتولى حالياً منصب مدير الصحيفة اليومية ألجيه - سوار.

غادر الجزائر عام١٩٧٠ وشغل منصب مستشار لدى حكومة كونغو برازافيل، ثم أنتقل بعد ذلك إلى غينيا - بيساو . وعندما تجاوز سنه الخمسون عاما... فرغ صبره

ولم يعد يتحمل أفريقيا، والثوريون، وأكلة اللانغوست -البحرية[139] ٠٠٠!! وراح يتطلع إلى العيش في مجتمعات الوفرة. وكان يقول لنا أنـه ليـس بثـوري خـائب الظـن٠٠٠ !!! ولا بمكتئب -ويصر على ذلك-، غير أنه لم يعد يثق في القيادات السياسية الأفريقيـة٠٠٠ رافضاً كل عرض جديد للاشتراك في النشاط٠٠٠ رافضا قضايا الجماعة لكـي ينصب اهتمامه على الفرد.

ويستمر سيرج في حوار من طرف واحد، يقاطعه هنا وهناك جان ماري بوجـلان الذي يقوم بإيقاظ ذاكرته عندما تخونه أحيانا.

ولأول مرة أغتنم فرصة الاستماع إلى عرض لتجربة لم ينتـج عنـها أي شـيء ملموس.

لم أعد أحتمل، وبادرت بالهجوم٠٠٠ أن يصعب إدراك سبب الحيرة التي وقع فيـها النظام الذي تطور بمساندتنا٠٠٠ حسنا ... هذا شئ، أما أن يحّمل الوزر، وخيبـة الأمـل على عاتق الآخرين ٠٠٠أليست هذه نتيجة ناجمة عن تصور مثالي لأوضاع وحياة بشـر ؟!! ٠٠٠وبأي مسمى٠٠٠؟!! وهل لنا الحق في الإصرار على تحقيق ثورة كاملـة علـى أرضية من التخلف٠٠٠!!! وكيف ذلك ؟!! بينما نتعود بسرعة على مجتمـع اسـتهلاكي على الطريقة الأمريكية ؟ ولما الإصرار على أن تكون هذه التجربة بمثابة رسالة للعـالم ...!!؟؟ وهي حقائق تتبدل وتتغير باستمرار٠٠٠ إن سيرج مثله مثل الآخرين يحمل بين ضلوعه غرورا واستعلاء لا حدود له٠٠٠ بل قد يقترب ذلك مـن جنـون العظمـة٠٠٠ عندما يعتقد أن النظرية التي توصل إليها اليوم هي دائما النظرية الوحيدة الصالحة.

إذا ماذا تريدون٠٠٠؟؟؟ أن ننصح الشباب بإدارة ظهورهم لنضال أسـتولي علـى ألبابنا ردحا من الزمن ٠٠٠ ؟!! وأن نترك للخبراء التكنوقراط تماما، مسـئولية توجيـه مصائر الشعوب٠٠٠ ؟ وأن نصاب بالهرم المبكر قبل أن نتمكن من العيش ٠٠٠؟.

لا توجد رسائل منزلة، ولا أنبياء سياسيون٠٠٠ وهذا لا يمنع مـن أن نفكـر فـي أخطائنا. والاعتراف بنزوعنا الطبيعي- في حالة النضال الجماعي لإنجاز هدف التحريـو- إلى أن نضع في المرتبة الثانية الحقوق الخاصة بالمرأة مثلا٠٠٠ وأن نعتبر مـن حيـث الأساس أن كل شيء ثانوي بما في ذلك الأساليب الشـمولية التـي قـد تمـارس أثنـاء النضال٠٠٠ بل يصل الأمر إلى درجة تحريم انتقاد القادة٠٠٠ !! بكل صراحة أقـول٠٠٠ رغم ذكاء هنري الحاد٠٠٠ أن الحديث عنهم بنغمة تشوبها السخرية كانت مـن الأمـور المنعشة حقا ٠٠٠ كما نرفض الاتهام بعدم العناية بالفرد٠٠٠ فهذا تعتيم على ما قمنا بـه من تدخل للدفاع عن قضايا أفراد، وللإفراج عن متأسلمين٠٠٠ حتى من نعتبرهم من ألـد أعدائنا.

---

١٣٩ جراد بحري-الإستاكوزا

ويهاجم سيرج -الثوريون الغربيون- الذين تحدوا قيام جهاز الدولة في أفريقيا، متناسين أن من بين أحلامهم أيضا حلم تصفية جهاز الدولة في يوم ما ...! هذا صحيح... إنما يصول ويجول تجار الأسلحة : ودون وجود جهاز دولة تشن العشائر الحروب، ويقتتل الأخوة لضمان التحكم والسيطرة على العلاقات... كما لم تفد المذابح في شيء، ولم تحل مشكلة. صحيح... ينجح انحراف السلطة... والميل نحو تبني نظام شمولي- فوق كل شيء- في إخفاء التحدي شبه المرضي للقوى الاجتماعية المنظمة التي ترغب في المحافظة بدورها على سيادة الخضوع كما كان الحال أثناء وجود المستعمر... ولن توجد إذن حاجة للحديث عن حقوق الأقليات في إطار هوية ثقافية على الصعيد الوطني... مثلاً كما هو حال سكان منطقة القبائل...!!! وعندما أثرت هذا الموضوع تغيرت سحنة، ونظرة وزيري السابق، وصارت نظراته حادة كالفولاذ... ومع ذلك لا بد أن نقول ...أن عملية إعادة توزيع الموارد التي تولتها الدولة في الجزائر أدت إلى تصفية بؤر البؤس والأمية... ولا يمكن الاستهانة بذلك.

أكتوبر ١٩٨١

انتقلت فورا من سرد ذكريات حقبة نضالية إلى إعداد البحوث... وترددت في تكريس سنة كاملة لدراسة موضوع تنظيم الأسرة ... الموضوع لا يجذبني. إلا أن الدراسة تمولها اليونيسيف... وتمكنني في الوقت نفسه من العودة إلى معالجة المشاكل التنموية في البلاد التي أقيم فيها... صحيح لم أسكنها إلا قليلاً منذ ١٩٧٢، ولم أعطها بعد حقها من الدراسة. ونظريا، تبنيت مقولات الاقتصاديين الماركسيين من العالم الثالث ... التي تقول بعجز النظام الرأسمالي عن إنجاح عملية إدماج المجتمعات القديمة المستعمرة أو التابعة، رغم استثمار رؤوس الأموال الأجنبية -كما كان الحال في البرازيل[١٤٠]- ويجري الحديث عن "معجزة"- بينما أحدثت التوجهات الحضرية المهمشة شقوقا عميقة في مجموعات اجتماعية كاملة من السكان، وغرقت مساحات هائلة في منطقة الأرياف الواقعة في الشمال الشرقي من البلاد في شبه مجاعة. وتطلب الإسراع في عملية التصنيع انتهاج سياسة مديونية هائلة، كما أفضت الإجراءات المفروضة من المنظومة المالية الدولية إلى تمرد الجياع ...وأحداث أخرى عنيفة من نهب وغيره. ولقد أدى تركيز الثروة لدى حفنة من الأغنياء في بلدان أخرى، وصعوبة وصول الطبقة العاملة إلى سوق السلع الاستهلاكية، وتوقف الإصلاحات الزراعية التي لا غنى عنها (مساحات الأراضي المستغلة المقدرة بأكثر من ١٠٠٠ هكتار تمثل ٤٥٫٥ % من

---

١٤٠ صنف البنك الدولي البرازيل في المرتبة الثامنة من حيث معدل النمو، ولكن تصنيف الاونكتاد وضعها في المرتبة ٥٨ من حيث معدل نمو الموارد البشرية .

عليّ عندما أشارك في هذا النشاط، وبسبب انشغالي به، أن أحدد ما يلزمني من الوقت أكرسه لإعادة قراءة المذكرات، وتجميع شتاتها .ولو أنو أن أكتب قصة محكمة الأركان...ومهما يكن الأمر يلزمني وقت ...!!

مرة أخرى... علما بأن إعداد ورقة عمل تتناول توجهات قوى الإمبريالية المالية، أو التي تعالج الحرب بين شمال وجنوب السودان –التي قد تطرقها أحد المنظمات غير الحكومية التي تملك باعا طويلا في ممارسة الضغوط– هي في الحقيقة من الأعمال التي تجذبني، ولا يجذبني الحديث عن النفس، والخوض في الخصوصيات. ..إلا إذا أسرني حنين طاغ للعودة إلى الماضي، ولم يكن هذا هو شأني...! أو مثلا، وجود رغبة للاستعانة بأمثلة من الماضي لإجراء المقارنات ...ولم يحدث ذلك...!

إن ما أثار شغفي في البداية...هو التنقيب عن الذكريات المتناثرة مما حفزني على الاستمرار في البحث– ونعلم... أنه من الصعب أن يتحرك هذا الشعور الدفين بمجرد إشارة يد بسيطة..!

تعمدت أن يكون أسلوبي في القيام بهذه العملية أسلوبا يشبه ما يقوم به جهاز التصوير...! يركز على مقاطع مختارة...! إذن مقاطع من تاريخي الفردي، والجماعي، مصورا أشخاصا في قمة الذكاء، والروح المستقلة، والفكر الحر، ممن أحببتهم بعمق ...

هل كان لتفكك النظم الاشتراكية في أوروبا الشرقية دورا في تحول اهتمامي إلى هذا العمل؟ –لم يكن نشاطنا مبنيا على محاكاة النماذج، وعندما تحطم يزول النشاط..!!– بل كان ذلك بسبب فشل تنظيم ما عرف(بلقاءات حول هنري كورييل)[٦] التي لم تنعقد أصلا... وكان ذلك بمناسبة ذكري انقضاء أول عقد على اغتياله.

كان هدفنا هو تنظيم مناقشة عامة بين مناضلين غربيين، ومن العالم الثالث لتحديد الاحتياجات، والمتطلبات اللازمة لتحقيق تضافر النشاط الثوري في ذلك الوقت،

وأصبح من الضروري الاعتراف بنهاية فترة نشاط سياسي على امتداد عامين، علما بأن العناصر التي قامت بهذا النشاط، ولو لم يجمعها حزب، كانت تمثل أعضاء فريق متماسك... ولد نتيجة للجهود والمثابرة التي بذلها هنري– تركت آثارها حتى بعد وفاته– لكنها لم تتمكن من الاستجابة تماما لتداعيات الأوضاع ومستجداتها،

بل تجاوزنا آخرون في بعض المجالات التي تعودنا العمل فيها، ونعني به مجال الحوار الإسرائيلي/الفلسطيني.

---

٦ لقاءات حول هنري كورييل: مشروع منتدى يهدف إلى متابعة النشاط السياسي في إطار الشمال والجنوب وتحت ظروف جديدة . وكان هذا المنتدى هو المنتدى الأكاديمي (الجامعي) الأول الذي عقد بالفعل بعد انقضاء ٢٠ سنة على اغتيال هنري... ولكنه كان أقل طموحا . ورغم ذلك تكونت جمعية مناهضة للحصانة الضبابية التي تغلف جوانب الجرائم السياسية الكبرى.

المساحة الكلية المزروعة، فضلا عن وجود ١٢ مليون فلاح معدم) وهذا حتى بعد إعادة " دمقرطة" النظام في١٩٨٦ (وصل العسكر إلى السلطة في ١٩٦٤)، مما دفع الكنيسة إلى الوقوف في صف المعدمين .

إن ظهور أحزاب العمل التي تمثل فئات المجتمع المنتظمة في نقابات (ومن بين قادتها انياسيو داسيلفا المشهور باسم لولا – وينتمي لهذه الفئة) تضم بين صفوفها عمالا، ومثقفين، وأعضاء الكنيسة، مكنت من تغيير مقومات الوضع بعد انتخاب لولا رئيسا للدولة (انظر الدراسة التفصيلية الممتازة لجاكي بوفيه : التصنيع والتنمية في البرازيل من القرن ١٦ حتى القرن ٢١ –دار لرماتون عام ٢٠٠٠)

يدفعني الواقع اليومي الجزائري إلى التساؤل ٠٠٠هل تمتلك رأسمالية الدولة القدرة اللازمة للتغلب على أعناق الزجاجة، والانسدادات التي تواجهها المجمعات الإنتاجية الضخمة، رغم وجود معدلات نمو صناعي أعلى في ذلك الوقت مما يوجد في البرازيل٠٠٠؟؟

وهنا تزداد المتطلبات ضخامة بالمقارنة بأي مكان آخر: وإذا ما أفرغ مبدأ الإدارة الذاتية بصورة تدريجية من مضمونه، يظل مع ذلك توزيع الأرض حقيقة راسخة٠٠٠ حتى مع وجود استراتيجية للتنمية تستند إلى التصنيع ٠٠٠ وكان من الممكن تمويل هذا التحول بدخل النفط المؤمم منذ ١٩٧١.

ولا يعتبر من باب المصادفة أن ينعقد المؤتمر الرابع للبلدان غير المنحازة في الجزائر العاصمة عام ١٩٧٣ وأن يعلن فيه عن مشروع النظام الاقتصادي الدولي الجديد٠٠٠ ولم تعتبر مصادفة أن يقدم رئيس الجزائر هذا المشروع إلى الجمعية العامة للأمم المتحدة باسم مجموعة الـ ٧٧

وعندما انعقد المؤتمر الأول لاقتصاديي العالم الثالث في الجزائر١٩٧٦ استفادت جماهير الشعب من حركة ديناميكية استمرت عدة عقود، هذا رغم وجود فساد٠٠٠!! ولكن لا يقارن ذلك بالفساد الذي استشرى في البرازيل٠٠٠!!

وازداد عدد الطلبة من مجرد أفراد قلائل، عند الاستقلال إلى ٥٧٠٠٠ طالب في ١٩٧٩. ولم يتوقف العدد عن الزيادة مع افتتاح مراكز لجامعات جديدة في كل مكان تقريبا٠٠٠ واستفادت وهران من فريق مؤهل وعلى درجة عالية من الكفاءة.

ويجري الحديث بصورة رسمية٠٠٠ عن فشل إستراتيجية كان بوسعها "أن تضمن عملا دائما لمجموع الذكور من السكان قبل نهاية العقد ١٩٧٠ – ١٩٨٠"، وورد ذكر هذا الهدف في ديباجة خطط التنمية لأعوام ١٩٧٠ – ١٩٧٣ و ١٩٧٤ – ١٩٧٧.

ويتبين من ذلك بوضوح٠٠٠ أن القطاعات الاجتماعية تجرجر خطاها وأصبحت في المؤخرة٠٠٠ وكثيرا ما يحدث انسداد في قنوات توزيع السلع الاستهلاكية، والزراعية ذات الجودة المرتفعة ٠٠٠وا حسرتاه ! ٠٠٠ معظمها مصدر إلى الخارج٠٠٠ مع

ملاحظة إهمال الإسكان، والتدريب المهني، وتكوين وتدريب اليد العاملة المحلية في مجمع صناعات الحديد والصلب في منطقة الحجار التابعة لمدينة عنابه، ويستمر التدريس في النهار، والليل في المدارس التي لا تكاد تغلق أبوابها... ويلاحظ التصرفات العدوانية للأطفال في الشارع ... وتتحول الأحياء الشعبية إلى أحياء تسول بسبب الافتقار إلى المبادرات... بينما تزداد فخامة الفيلات المملوكة للأفراد التي تحيطها الجدران من كل جانب.

ورغم ما شاهدته من بؤس منتشر غداة الاستقلال إلا أني أقف مبهورة من سرعة التقدم الذي أحرزته الفئات الاجتماعية التي كانت حتى ذلك الوقت غير قادرة على الحصول على العمل المدفوع الأجر المنتظم، ولا التعليم الأساسي للأطفال، ولا الرعاية الطبية الأولية. ولاحظت في الفترة من ١٩٦٩ حتى ١٩٧١ وأنا لا أزال أعمل كمترجمة تحريرية وفورية في معسكر بناء مجمع شركة الحديد والصلب في الحجار، الجهود التعبوية التي أنجزت بنجاح.

وينبغي أن أشهد اليوم أنه كان من الممكن لمبدأ الإدارة الذاتية المطبق على نطاق البلاد أن يرفع من مستوى وعي العمال، وكان من الممكن أن يمتص الإصلاح الزراعي والتصنيع البطالة المتفشية... ولكني أشهد أيضا أن الإسقاط الجماعي لعملية النهوض الاجتماعي العام، والمتواصل يتحول إلى طوباوية ...!!! كيف هذا ؟ كيف يمكن أن يحدث ذلك مع ما يتوفر من دخل يتولد من المنتجات النفطية...؟ وكيف نصل- كما وصل غيرنا في أماكن أخرى- إلى الاعتقاد في هذه الكتلة الهلامية من البرامج التي لا تلقى العناية الكافية وتزاح في النهاية جانبا... لتوضع على الرف !! ثم تظهر سلسلة من المجتمعات المختلفة التي لا تستطيع التعايش فيما بينها بدون هيمنة الجيش... مجتمعات غابت عنها التنظيمات الهرمية البنيوية للقيادات الإقليمية القديمة، التي كانت ضمانا لاستقرار الدولة !

أين نضع يدنا لنتحسس موطن التمزق ؟

نعلم دون شك ...وهذا أساسي ؟... أن شبكة عصابات أصحاب الامتيازات ...من الذين استفادوا... كما وصفهم المؤرخ الاجتماعي الجزائري مصطفى الأشرف... قد قامت بالسطو على الأسلاب الهائلة التي تركها النظام الكولونيالي... ولقد تعرفت على بعض هذه الفصائل، وأسلوب عملها ... وذلك عند إعداد معسكرات البناء التطوعية ...كانوا شديدو الثقة بأنفسهم ...يسيطرون على الجهاز اللوجستي لتموين وإمداد المعسكر باحتياجاته ، وامتدت اتصالاتهم إلى الخارج...

ومع تزايد زخم، وحماس الحركة التي أدت إلى إنشاء اتحادات الفلاحين، وتنمية التعاونيات، عبأت طاقات شباب النخبة، الذين حصلوا على تدريب جيد... وينبغي أن نذكر أن الجامعة استقطبت أفضل الأساتذة -تابعت محاضرات بعضهم مع نيفين -.

وكانت هذه الحركة من الأهمية حتى أن الهمس الذي كان يدور حول حدوث بعض فضائح الرشوة التي كانت تدفعها الشركات الأجنبية لبعض الأفراد للحصول على عقود ... وأشياء من هذا القبيل ... تبدو لنا قليلة الأهمية وتافهة بالمقارنة بما يتم إنجازه.

وعندما عدت لزيارة موقع المعسكر لاستكمال بعض جوانب التحقيق، اكتشفت وجود- القرى الاشتراكية- وذكرتني بمعسكرات تجميع الأهالي[١٤١]، وهناك أيضا تمنع النساء من زراعة حديقة خاصة أو تربية حيوانات منزلية... ولكن ترتفع عقيرة من ينادى باحترام التقاليد ...!! بينما تفرض عليهن هذه التقاليد إبعادهن عن الأنشطة الإنتاجية...! ويعتقدون... عملا بمبدأ احترام التقاليد...!!! بضرورة إبقاءهن محجوزات رهينة المنازل...!! ولا يوجد ما يبعث على الحزن أكثر من مشاهدة هذه القاعات المهجورة... كانت مخصصة لتكون مراكز ثقافية... حتى العاصمة أصبحت صحراء ثقافية قاحلة ...آه ! يا نيفين أين ذهبت كل هذه الآمال التي أفرزها المهرجان الإفريقي ١٩٦٩ ؟!!: بل لم يعد لمخرجي الأفلام السينمائية الوسائل الكافية لإنتاج الأفلام... حتى معرض الأفلام -السينماتيك- هذا المركز الذي كان يغار منه هواة الأفلام من الأوروبيين... هل تتذكرين يا مايرولي ؟ لم يعد الآن إلا مقبرة لكومة من المقاعد المكسورة.

اكتشاف سعيد... !؟ كائن اسمه المرأة الجزائرية...!!

أقابلها في كل مناحي الحياة الاجتماعية : في ميدان المهن العلمية، والمهن الحرة... تترأس وتدير -مراكز حماية الأمومة والطفولة- ... مسئولة أيضا عن مراعاة الفواصل الزمنية المطلوبة بين الولادات باستخدام أدوات منع الحمل... حاضرة أيضاً في الهيئات التمثيلية المحلية. ولكن... تواجه بجدار مرتفع من التمييز عندما تحاول الوصول إلى مرحلة التعليم العالي ... !!

وتبينا أن عقد الاجتماعات السياسية في المساء- قد يكون متعمدا في بعض الأحيان- مما يستلزم- نظراً لعدم توفر الأمن في الشوارع- أن تطلب من زوجها أو أخيها أن يصطحبها. والغريب، أن المرأة عندما تكون في منصب مساو للرجل تكون أكثر نضوجاً وأكثر ثقافة منه... وفي النهاية عثرت على تفسير منطقي لذلك: تحمل المرأة من نعومة أظفارها مسئوليات أسرية، وقد تنكب فضلاً عن ذلك على الدراسة،

---

١٤١ بناء على خطة الجنرال شال، وأثناء تنفيذ برنامج -فرض السلم- الذي قام به الجيش الفرنسي ليستفيد منها بصورة متواصلة على الصعيد الإقليمي ولفرض سيطرته على الأراضي، وذلك بإقامة معسكرات تجمعات المدنيين المسلمين بالقرب من مراكز عسكرية فرنسية، بهدف توجيه ضربة قوية لوحدات جيش التحرير الوطني، وذلك بقطع طرق الوصول إلى القواعد الشعبية وهي بمثابة احتياطي خط الرجعة العسكري وقواعد تموينه

والإعداد المهني··· ولكن ليس من حقها التمتع بمظاهر الترفيه التي يتمتع بـــها أخيــها مثلا···

وقد تمكنت بفضل ذكاء وديناميكية كوادر مثـل البروفسـور جـانين بلخوجـة أو الدكتورة مليكة لادجالي الباحثة المتقدة الحماس، والمتمرسة··· أن أفهم سبب رفضهـــن الشديد لمدونة قوانين الأسرة: إن نجاح التصويت[١٤٢] سيؤدي إلى حبس المرأة داخل الـدور الوحيد الذي خصص لها··· وهو دور الزوجة أو الأم··· بل رغـم أن ميثـاق ١٩٧٦ كان ينص على أن النهوض بالمرأة هو من معطيات الثورة الثقافيـــة، وباعتبارهــا أحـد المتطلبات التي تستلزمها العملية الجدلية لإحراز التقدم، إلا أنه نص أيضا صراحة علـــى دورها في الإنجاب–كواجب يتمتع بالأولوية– ... ودورها في المحافظة على قوة العمـــل من الذكور···!! ومع ذلك، استقر الرأي في النهاية علـى ضـرورة تخفيـض معـدل المواليد···!! وتم الاعتراف بذلك رسمياً باعتباره أمرا لازما.

ولهذا كلفتني اليونيسيف القيام بهذه الدراسة ··· واكتشفت فجأة عند الاطلاع علـــى الوثائق القديمة··· أن منشأ الممنوعات، والمحظـــورات الدينيـــة المتصلـة بموضـــوع الإجهاض في الجزائر إنما يكمن في تعاليم المسيحية: عملاً بما نصت عليه أحكام القـانون الفرنسي الصادر في ١٩٢٠ بمنع الإجهاض ···بينما اختلف الأمر في مصر، وسـمحت به السلطات الدينية من قديم الزمان ···!! وفتح الباب لمناقشة الوضع الاجتماعي للمـرأة على مستوى جامعات الجزائر في العاصمة، وفي وهران، مع التنويـه بضـرورة إيـلاء الأهمية لهذه القضية.

المهم، هو شجب هذه العادات الكريهة المنفرة··· حتى نحـــافظ علـى احترامنـا لأنفسنا ···إن جاز لنا القول؟ ثم من الذي يوافق على الاغتيالات الأسرية ؟؟: في الفـترة من ١٩٦٢ حتى ١٩٧٨ وفي ولاية واحدة وهي تيزي وزو، تم إزهاق أرواح ٣٢ امــرأة منهن ١٩ شابة بالخنق أو بالاغتيال بطرق أخرى، وكثيراً ما جرى ذلك داخل دار الأسـوة نفسها، وأحياناً تقوم به الأم ···وهذا عندما تخرق الفتاة مبادئ العلاقات الجنسية خرقاً قـد يكون مؤكدا أو احتمالا··· هذا ما ذكرته لنا ماري فيرول في أطروحتها للحصول علـــى درجة الدكتوراه· ولكن علينا أن نصرح على أية حال بأن عدد هذه الاغتيالات الأســرية أقل مما كان عليه أثناء العصر الكولونيالي··· عندما كانت السلطات الفرنســية تطلـق العنان للأهالي ليفعلوا ما يحلوا لهم

وبفضل جهود النساء الشجاعة مثل جانين بلخوجة، مكنت الفتيات الصغار اللاتي حملن سفاحا ...–– كما يحدث في أي مجتمع··· ولا تخلوا منها المجتمعـــات المسـلمة

---

١٤٢ في صيف ١٩٨٤

التي تعرف كغيرها الاغتصاب، وارتكاب المحارم-- أن تضع حملها في أحد المستشفيات سرا.

وبينما كنت أقوم بالتحقيق الذي كلفت به ... صادفت فتاة صغيرة لم يتعد عمرها إثنى عشر ربيعا أغتصبها أبوها وحملت منه سفاحا، ولجأت -لتحمي نفسها من القتل- إلى هذا المستشفى وا حسرتاه ... تدار هذه المراكز بسرية تامة ...بسبب الافتقار إلى الوسائل الكافية، لاستقبال حديثي الولادة ولحماية الأطفال من اعتداء مجموعات المتزمتين من المتمسكين بأهداب الفضيلة ... ! وفي الواقع هذه إحدى صور الخراب الاجتماعي تجعلنا نستنتج ... أن الأطفال الذين لم يحالفهم الحظ، ولم تعاجلهم المنية، أصبحوا مختلين عقليا[١٤٣].

باريس في ٢٩ يناير ١٩٨٢

تأثرت من فيلم ميشيل خليفي- ذكريات خصبة- واعتذرت عن قبول دعوة لحضور حفل عشاء مع مجموعة من الأصدقاء، وفضلت التجول في شوارع باريس، في ساعة يخف فيها الضجيج، وتكتنف المدينة غلالة من الهدوء.

ينبغي أن أبدأ في سماع هؤلاء المثقفين الملتزمين، مثل ميشيل خليفي... فلسطيني من سكان إسرائيل، وإبراهيم تساكي الجزائري، والاثنان من مخرجي الأفلام الشديدة الحساسية والمؤثرة... جعلتني أشعر فجأة بالألفة نحوهم، وقد بلغوا درجة من نضوج الوعي، دون أن يشوب نشاطهم أي مظهر من مظاهر الحيطة والحذر مما قد يعطي انطباعا بأنهم قلقون على مستقبلهم المهني...!!

وكان هذا هو سبب الحوار الذي دار... استنادا إلى خبرتهم الثورية، وبالرجوع إلى خبرتنا كمناضلين منتمين إلى العالم الثالث... وقد خاب ظنهم في المشروع ذي النزعة الوطنية... ووجهوا إلينا اللوم لتبني "نظرية المراحل".

وفي الجزائر، اضطررت إلى التقاط الأنفاس لكي أتحمل ثورة إبراهيم تساكي، بينما كلود، وهي المضيفة الممتازة الكاملة ...تروح وتجيء في دار بوجلان المخربة وهو غائب، متفرغة تماماً لمهامها... وقد تاهت في أحلامها الصعبة المنال لاستعادة شقة رائعة تتكون من ثلاثة غرف احتلها بعض الأفراد غصباً أثناء تواجدها بالخارج في

---

١٤٣ وبعد انقضاء عدة أعوام على هذه الدراسة، حاول المثقفون الجزائريون... ومنهم مخرج السينما صادق كبير، والبروفسور والعالم السيكولوجي محفوظ بوسبسي، وممثل المسرح المشهور عبد القادر علولا، وغيرهم طرح وفتح باب المناقشة العامة لأحد الأفلام بعنوان -المطيشين باللهجة الدارجة- ولكن بدون نجاح، أنتجه التليفزيون الجزائري ولم يعرض أبدا- اغتيل بوسبسي وعلولا عام ١٩٩٣

عطلة. وكانت هذه عادة شائعة بين من لهم علاقات مع من في السلطة... التزمت الصمت تماما وأنا أستمع إلى هذه القصة ... رغم أني كنت أغلي من الداخل.

وبانتهاء النضال ضد الكولونيالية ... وانقضاء عدة سنوات على الجهود المبذولة وحتى لا يتحول المجتمع مرة أخرى ويعود القهقرى... ويأخذ شكل المجتمع القديم... وقفنا دون حراك، وامتنعنا عن التدخل... وتنازلنا عن قطع الأرض الواحدة تلو الأخرى بحجة تحقيق البناء الوطني، ولاعتبارات تتعلق بمناهضة الإمبريالية... !! حتى وجد الجيل الجديد ...!! الذي نعقد عليه الآمال ... نفسه بغتة وقد بلغ من العمر ٣٥ عاماً ...واقفا خالي الوفاض... وبلا مشروع،

هذا الجيل الصاعد... لا يعلم ما الذي يفعله بتاريخنا، بل لا يخطو خطوة مهما صغرت للتعرف عليه... وهذا رغم أنهم ينتمون إلى من رفض الغوص في مستنقع الفساد وأعاد للشعوب كرامتها، وعلى عكس رؤساء دول من مستويات دون المتوسط... دائما على أهبة الاستعداد لتبديد المكتسبات، أو التنازل عنها بأبخس الأسعار ... تسلموا مقاليد الحكم دون عناء يذكر، ومع وجود أجهزة قائمة يستعينون بها. هاكم من جديد ودائماً باسم هذه المرحلية الشهيرة... تكافحون بجنون لخلق دولة فلسطينية.

صحيح ... يا إبراهيم تساكي ...المرحلة هي مرشدنا. استخدمت أنا أيضاً في عملي لتدريب الشباب في وجده وفي ود فده، نظرية البناء الوطني، والاستقلال الاقتصادي كرؤوس موضوعات مرجعية لترسيخ التحرير، واشراكهم في النضال الحزبي. وأتذكر أثناء الفترة الأولى من عقد الاستقلال، وقبل أن يصاب جهاز الدولة بشدة بالبيروقراطية، أن الحزب كان يضم بين جنباته كافة التوجهات والتيارات، وكنت أشجعهم على الالتحاق بالجيش- ففي الجزائر كما هو في مصر أيضا، وبشرط عدم التقليل من خطورة ما يشعر به الضابط من ازدراء نحو أفراد الشعب- لأن الجيش من الأماكن التي يجري فيه تدريب متطور. ولكن هل ما نقترحه يستحق كل هذه المرارة ؟ قد يكون ذلك بسبب النضال في الحزب الوحيد المرخص له بمزاولة نشاط سياسي؟ هل هو بسبب الاستناد إلى التوجهات التي تفضل التنمية المتكاملة ؟ هل هو بسبب النهوض بكيان الدولة... لا مجرد الإشادة بأجهزتها ؟ هل هو بسبب تفادي إحداث صدع في صفوف النخبة، والطبقات الشعبية للحيلولة في محاولة لمنع انتشار البيروقراطية التي تعرقل المبادرات... لكن ما الذي جرى ليحدث كل هذا التمزق ؟.

ظهرت بوضوح في ١٩٧٦ مساحات تفكير غائبة ... أثناء المناقشات العامة التي سرعان ما تم إطفاء جذوتها -استخفاف مذري بالمواطنين- وكانت المناقشات قد تناولت الميثاق الوطني... ومن الواضح، السبب الذي جعل السلطات السياسية تسارع

عمداً إلى إبعاد الطبقات المتوسطة- رغم أهميتها[١٤٤]- عن الاهتمام بشئون البلاد ...؟؟- بل دفعنا ذلك إلى التساؤل ... إن لم تكن هذه الصعوبات اليومية وسيلة أخرى لإبعاد أكثر؟-. كما أعد كل شيء في الجامعة من أجل كسر شوكة ديناميكية اليسار وتحطيم عناصره... سمعت أنهم هوجموا بقضبان حديد حملها المعارضون المتأسلمون دون أن تحرك الشرطة ساكنا، وهددت الطالبات المقيمات في المدينة الجامعية أيضا. ثم يصعب مناقشة أي موضوع بينما يصول ويجول الرقيب حاملاً قلمه كسلاح باتر يستأصل به ما لا يروقه في الصحف، والأفلام والمسرحيات ... علما بأنها تخضع كلها لرقابة الوزارات؟ وكيف يمكن إجراء حوار عندما لا توجد مساحة ثقافية مستقلة ؟ ولا يسعنا إلا أن نقول أنه في الجزائر... كما كان الحال في مصر... احتلت عملية التعامل في إطار علاقات معقدة مع السلطة أهم مساحة من التفكير المتاحة لقوى اليسار... هذا اليسار الذي ضايقوه... وتعقبوه حتى فقد القدرة على ممارسة الخدمة الاجتماعية المدنية. وتصلبت بدون توقف قنوات التفكير الثوري الواحدة تلو الأخرى.

ويتبادر إلى الذهن السؤال... هل يمكن إجراء عملية تقييم علمي إذا جمد ما يحيط بالجزائر وانتزع منه ؟ بينما لا زال نظام الفصل العنصري يحكم أفريقيا الجنوبية[١٤٥] وتستمر إسرائيل في احتلال أراضي الفلسطينيين؟

و لو لم يكن تركيز التكوين، والتأهيل، والتدريب قائما وملتصقا بالواقع الملموس ... لفضلت بدلاً من ذلك مشاركة خليفي في أحلامه بقيام ثورة في منطقة الشرق الأوسط.

أغضبه ارتيابي هذا... وأوشكت أن أسخر منه -لو حدث ذلك لكان عملا إن دل على شئ فهو يدل على الحمق فضلا عن أنه تصرف شرير ... أرجو أن تعذر مجربة قديمة يا خليفي ... فلا أعتقد ما تعتقده... أن إنتاج الأفلام في بروكسل، دون إزعاج وإقلاق أجهزة قوى الاحتلال سيسهل ولادة خطة عظيمة قد تلقى نجاحا في مستقبل بعيد... على عكس مشروع متواضع، يمكن تنفيذه مباشرة، من شأنه أن يخفف من عناء الرازحين تحت نعال الاحتلال الثقيلة.

كانت من بين أحلام الجيل السابق ...تحقيق تكافل وتعايش بين الجزائريين... وكان من بينهم من أسف على فشل محاولات الدمج مع فرنسا، متناسين أن أصحاب الامتيازات القدامى يمنعون وصول القوى الجديدة التي سوف تخلفهم ...!! ولذا عرقل المستوطنون الفرنسيون حصول اليهود في الجزائر على الجنسية الفرنسية...!! بل حدثت صولات وجولات بين جموع السكان المنتمية إلى نفس الثقافة ... كما لم ينجح

---

١٤٤ ٥ آلاف امرأة تظاهرن في ٢ يناير ١٩٩٢ في شوارع العاصمة مما يثبت ذلك تماماً ...
١٤٥ انتهي هذا النظام في آخر ١٩٩٤.

اللاجئون الفلسطينيون في الحصول على جنسيات البلدان العربية التي استضافتهم باستثناء الأردن، ولم تستطع الجماعات السكانية في الأقاليم ذات الخلفية التاريخية المختلفة من الاندماج في دولة ذات توجه وطني مركزي إلا بالنزوع إلى القوة -كما كان الأمر قديما في فرنسا-.

وينبغي على جموع السكان -انتظارا لظهور شكل سياسي جديد- أن تتمكن من المعيشة على مستوى معين دون أن تقف دائما على حافة الهاوية في محاولة للبقاء على قيد الحياة... ولا يفوتنا أنهم ما زالوا تحت نير الاستغلال، ولكنهم يسيطرون مع ذلك بصورة أفضل على مصائرهم.

باريس في ٢٩ سبتمبر ١٩٨٤

مضى عقد من الزمن... وهذا دون شك يمثل أقصى حد لما يمكن أن تذهب إليه تجربة ديناميكية سواء على المستوى الفردي الأسري أو على مستوى الأمة.

فعلى مستوى الأسرة... وبعد انقضاء فترة من الزمن، قد يفسخ الزوجان عقد الزواج... أو قد يستمرون في علاقتهم الزوجية استنادا إلى المكتسبات السابقة... ويقبلون ما هو متاح من الحلول التوفيقية.

هذا هو حال المثقف الملتزم. ففي حالة جغلول وهو عالم اجتماعي جزائري متفتق الذهن، ألغى عقده مع الدولة القومية التي أرادها مختلفة عن الدول الأخرى التابعة للكولونيالية، بل مختلفة عن أي دولة أخرى معاصرة... ويعود منشأه إلى جيل بومدين... لم يقبل غياب المشروع السياسي. "*يتطلب الأمر وقفة لتقييم مجمل الوضع*" --كما يقول- *لا أكثر من سنتين إلى ثلاثة سنوات*"- يؤكد أنه "*هذا كاف لتسوية بعض المشاكل الأسرية...*". وأصر على أن يقول ذلك...!!!

الجزائر ... صحيح، تدور في حلقة مفرغة، وما أن بدأت سيولة حركة المرور وانسيابها بحرية مرة أخرى... حتى شرع المثقفون والتقنيون من الفنيين من عهد بومدين في المرور في هذا الطريق دون استرعاء الأنظار... فلقد اشترك المنفيون من أفراد الجيل السابق- على الأقل هؤلاء الذين استطاعوا العودة إلى الجزائر فضلا عن الكوادر الجديدة- مرة أخرى، ومن جديد في مشروع ديناميكي: وتنعكس أفكارهم في الإستراتيجيات ذات المنحى الاشتراكي للتنمية، ويظهر ذلك أيضا من مضمون نص ميثاق ١٩٧٦ ولقد برز بينهم مثقفون بارعون، مثل جغلول... وغيره كثيرون. ولكن ما الذي حدث بعد هذا ؟

يستمر الإدعاء مثلاً بأن الحزب يجلس متربعا على قمة جميع المؤسسات... وهاكم بعد أن فرضت عليه تعليمات غير متسقة، وعزل عن الفئات الشعبية ...وأقام

مقره في قصر الحكومة القديم... حيث، -كما قال لي موريان- يستقبل أحد الموظفين الزائرين وهو يرتدي حلة تشريفات سوداء وقفازات بيضاء...!

ولكننا استهدفنا أنا وموريان من هذه الزيارة الجديدة، ومن تجولنا بالسيارة، أن نشاهد الوجه الآخر للجزائر... نبحث عن ثوار قدامى الذين وفدوا من كل مكان حتى قبل وصولنا إلى الجزائر. رحلة بدأت من جنيف إلى بيربنيان وكاتالونيا في فرنسا، ثم ألميرا في أسبانيا، ومليله في المغرب الأسباني، ومغنية في الجزائر، وتلمسان، ووهران مع توقفنا مدة طويلة في مستغانم لزيارة شوال، ثم مرورا بود فده ولامارتين، لمشاهدة مرة أخرى معسكر البناء التطوعي، ومقبرة المجاهدين، ثم وصلنا إلى الجزائر العاصمة، حيث ركبنا المركب عائدين إلى مرسيليا، ثم صعودا في الطريق المؤدي إلى جرونوبل في جنوب فرنسا مع البيات ليلة عند جان ماري قبل أن نفترق أنا وموريان .

اصطحبنا جغلول في وهران لنشاهد المدينة. لم تشبه صورتها ما كانت عليه في نهاية الحقبة الكولونيالية... النساء في كل مكان -وكأننا في القاهرة-: في الجامعة وأيضاً في الشارع... يقمن بتنظيم حركة المرور ! ونشاهد بعد ذلك على الطريق المغادر للمغرب- حيث ينتشر البؤس المخيف ملاصقاً للفيلات الفخمة- مباني المساكن شعبية في كل مكان... ولكني أتساءل... لماذا تترك الفنادق والمباني، والفيلات دون صيانة وترميم معرضة لمعاول الهدم ؟؟ كل هذا الذي كان موجوداً وقائماً في ١٩٦٢ ؟ وكان يكفي أن تحظى ببعض العناية والصيانة - لو كنت تستطيعين مشاهدة كيف كانت الفيلا التي سكنت فيها في بادئ الأمر يا ماري إيميه...!!!؟ كأن الدولة غير موجودة بالمرة... لم نعد نفهم شيئاً...!!! .

بلا ترتيب ... ![١٤٦]

باريس في ٢٩ يونيو ١٩٩٢

اغتيل محمد بو ضياف في مدينة عنابه ... يبدو أن من خطط هذه العملية هم بعض رجال القيادة العسكرية... لم يكن بو ضياف من أعضاء هذه القيادة... شخصية تتميز بالطهارة والقسوة على النفس... ينتمي إلى الجيل القديم الذي أشعل ثورة التحرير... يرفع الشعارات قديمة من أجل حشد القوى الاجتماعية، والخروج بالبلاد من حالة اليأس.

---

١٤٦ أحيانا لا تتسق تواريخ هذه المذكرات حرفيا مع محتوى النص بسبب تحديثه ومطابقته للواقع-المترجم

أيدته النساء. واستدعاه من منفاه في المغرب أعضاء اللجنة القيادية العليا في الدولة التي حلت محل الرئيس الشاذلي بعد استقالة في فبراير، وبعد ما شعروا بالعجز الشديد أمام موجة العنف التي انتشرت[١٤٧] منذ تعليق نتيجة الانتخابات التشريعية في يناير. وبغية مساندة توجهات بو ضياف قام مدير الجريدة اليومية -الوطن- التي كانت تمثل تيار الجيش- ولنقل للتبسيط التيار اليساري-بدعوة المثقفين الملتزمين إلى ندوة دولية حول العلاقات بين الشمال والجنوب... وكان ذلك بمناسبة الاحتفال الثلاثيني بالاستقلال. ودعينا نحن الأعضاء القدامى في شبكة الدعم كتقدير لنشاطنا في الماضي... وأدى اغتيال بو ضياف إلى إلغاء كل شيء. ووقع أصدقاء الجزائر في لبس ... ولم أدري ما يمكن عمله في هذه الحالة... وبدأت في تجميع والتقاط قصاصات الصحف من هنا وهناك... وتراكمت على الأرفف، ثم بدأت في ترتيب المذكرات التي تحدثت عما كانت عليه الجزائر في الماضي...

بو حنفية - الجمعة ٣٠ ديسمبر ١٩٧٧

لم آخذ قسطي من الراحة والنوم في هذه الليلة: يبدو كما يقال ...أن بخار المياه الخارجة من مركز العلاج والنقاهة مفيد لمرضى الربو، وأنه يتمتع بخصائص منشطة... ثم لأني ركزت فكري على هنري[١٤٨] وتحول كل ذلك إلى كابوس... عادة أحب بصورة عامة أن أنهض في الفجر. وغادرت الجزائر العاصمة ...فلم أستطع التنفس بسهولة بسبب الربو، وأصبحت حالتي الصحية لا تحتمل... كما لم أصطحب معي ملفات أطروحتي، ولا آلة الطباعة التي لا تفارقني... رغم ذلك لم أستطع مقاومة الرغبة في ركوب الحافلة لدى عودتي من مصحة العلاج بالمياه الطبيعية. وكان الجو يناسبني ...السماء مفتوحة ذات لون يميل إلى اللون البني الغامق في الصباح، ولكن الجو جاف ومنعش صباحا ومساءا، وحار في فترة ما بعد الظهر... وأحببت كثيرا هذه المنطقة. فعندما تبدأ في عبورها: تقابلك الجبال التي تآكلت أطرافها الملساء، مشاهد طبيعية مفتوحة كأنها مساحات شاسعة من الصحراء، واستنشقت الهواء بعمق ... كان الجو في ذلك الصباح مغطى بالسحب، ولكنه يتمتع بطراوة. جلست على صخرة تشرف على مجرى ضيق لأحد الينابيع التي تتدفق مياهها بسخاء. ومن على بعد، تصعد أبخرة مياه الينبوع الساخن. ومن هذا الموقع استطعت أن أشاهد المياه – وهي وريد الحياة للمنطقة- والصخور والمنازل المطلية باللون الأزرق -مثل تلك الموجودة في تطوان المغربية التي احتضنتنا ...وهي ما زالت في رقادها قبل أن يهل فجر يوم صيف مليء

---

١٤٧ ٤٠ ألف قتيل في نهاية ديسمبر ١٩٩٥.

١٤٨ أمضى أيام أعياد نهاية السنة في باريس وكان لا يزال خاضعاً للإقامة الجبرية منذ أكتوبر ١٩٧٧.

وباختصار كان ذلك مؤشرا على اقتراب انتهاء الحاجة إلى خدماتنا!!

استطاع هنري دون أن يشعر بحاجة إلى إلقاء كلمات رنانة أن يعبأ الطاقات بفاعلية.

وقد تكون مناسبة جيدة لوضع الأمور في نصابها.

ونستطيع أن نقول... لم ينجح أحد في الاستحواذ بصورة قسرية على هنري... لا طوائف، ولا منظمات، ولا رجال، ولا نساء. ولقد تعمد تأكيد ذلك صباح أخر عيد ميلاد له... وهو منشرح الصدر مغتبط بطراوة الصباح المنعش... عندما رافقنا إلى منزل ديدييه موتشان[7] في شارع فيرني- القائم في الحي الذي توجد به مدرسة اللغات الشرقية التي أعرفها جيدا -لكثرة ترددنا عليها...

تنشيط التاريخ

يكرر المثقفون في الغرب -منذ انهيار البيروقراطيات الاشتراكية- أن التاريخ لم يعد مبدعا. ويغوص البعض، ممن يأنف الاستسلام، والركون إلى السلبية، في تعرجات الفكر السياسي الموصوم بالعجز عن صنع القرار.

كما لو كان من السهل على الأجيال السابقة...! أن تحدد طبيعة علاقات الهيمنة، وأن ترتب الأولويات القابلة للتحقيق بسهولة... !!

أما جيلنا...! جيل الأربعينات... من طليعة الذين رفعوا راية الشيوعية، في مصر الشبه مستعمرة، وشبه الإقطاعية، فلقد أيقظ حركة مناهضة لقوة عظمى تمثلت في ذلك الزمن، في بريطانيا العظمى...

كنا نحن -الشيوعيون الملتزمون- ندعمها في حربها ضد ألمانيا النازية، مدافعين عن مصالح طبقة العمال المنتظمة في نقابات... الواقعة تحت تأثير البرجوازية...! وفي مجتمع ارتبط معظمه بالأرض، وبالإسلام... مجتمع لم يتعود تطبيق قواعد التنظيم السياسي السري، ولا تتوافر له وسائل اتصال... عدى انتقال الأفراد على الأقدام لإنجاز المهام. وأصبحنا نتيجة لذلك أبطال في السير على الأقدام...! وورثنا ثقافة عرفت بحسن التصرف، والحذق في أحلك الظروف !! (الشطاره...) صفة عرف بها السكان البسطاء في المناطق الحضرية، الذين يكافحون يوميا لانتزاع لقمة العيش...

---

[7] كادر مناضل من اليسار الاشتراكي الفرنسي.

بالألوان التي يعشقها شعب البربر، وأتجنب أن يقع نظري عفواً على زوايا قذرة. ففي هذا الجو الجزائري الثوري العشوائي ٠٠٠إذ بنا نلاحظ فجأة غياب حزب بولشفي٠٠٠ !!

يتمتع سكان بو حنفية بجمال طبيعي٠٠٠ الرجال طوال القامة مقارنة بسكان السواحل. وكما هو في كل مكان ٠٠٠عندما تتجهون إلى الداخل، نجدهم يرتدون عباءة تسمى في شمال أفريقيا –جلابة–. ويضفي هذا الرداء عليهم هيبة . أما النساء ؟ فيرتدين ثوب خارجي –الحائج– أبيض اللون يغطي الرأس ولا يرى منه سوى عين واحدة٠٠٠ هكذا العادات أو التقاليد سمها ما شئت٠٠٠ !!! وترتدي النساء في المغرب ثوبا بلا أكمام يسمى –الغندورة– ذو ألوان زاهية، مع فتحات جانبية ٠٠٠للمغرب تقاليد حضارية قديمة. ولقد أثبتت ينابيع المنطقة فائدتها. لم أشكو من الروماتيزم ٠٠٠وتريحني حمامات الطين ٠٠٠ وهي عادات مكلفة جذبتها ورائي من بقايا ومخلفات أيام العز في الماضي، ولكن مع الفارق ٠٠٠أستطيع اليوم أن أتحمل تكاليفها الزهيدة كالآخرين في الجزائر الشعبية٠٠٠ أتردد على الحمام(المغطس) صباحاً وبعد الظهر. وتغلق المصحة أبوابها يوم الجمعة. ويبقى الحوض الجماعي مفتوحا في الهواء الطلق ٠٠٠ تتجمع فيه مياه الينبوع، ويمكن أن نغوص فيه ٠٠٠ولكن ببطء ٠٠٠القدمين أولا ثم الذراعين ٠٠٠ وأحب أن أتجول حول الحوض وأن أجالس جماعات من الناس ٠٠٠ يبدو من أول وهلة أنه من الصعب التقرب إليهم والتحدث معهم، ولكنهم مع ذلك على أتم استعداد للحديث متى بادر أحد الأشخاص بذلك. وبالأمس ارتدى أحد الشباب لباس سباحة، وغطس عدة مرات في الحوض. وخرج وجسده يرتعش بقوة ––كانت درجة حرارة المياه لا تقل بأي حال من الأحوال عن ٥٠ درجة مئوية ! –.

توقفت عن تناول وجباتي في فندق جراندهوتيل بعد أن وعدوني كل يوم بحجز غرفة لي في اليوم التالي٠٠٠ فضلت في نهاية الأمر الفنادق المتواضعة الملحقة بالحمامات: وهنا نجد فيها صغار الموظفين، أما في الفنادق الأخرى فيوجد فيها رؤساء الأقسام والمدراء. جماعات سكانية حققت استقرارها بعد أن تسلمت مرتبات منتظمة. وكان كاسورال –مؤسسة التأمينات الاجتماعية الجزائرية– تدير المركز. وجميع المترددين عليه للعلاج من الجزائريين، بما في ذلك الذين يمرون فقط للغطس في الحمام. أما الذين يزورون هذا المستوصف على حسابهم فلهم فنادق أخرى تحت تصرفهم. أنا فضلت هذه الفنادق، واستحسنت الأمر عندما علمت أن جميع الفنادق يؤمها الحاصلون على تأمين اجتماعي. ويتبقى أن ننجح في ضم بقية السكان المنسيين ––في دوارهم– المقيمين على جوانب التلال المحيطة. ومع هذا لا توجد كما يوجد في المغرب مثلا تلك السحابة من الأطفال المتسولين الذين يهجمون على الناس٠٠٠ ولا توجد مظاهر البؤس السافر الذي صاحب هذا الشيخ الوقور السائر على قدميه على طريق طازا جيرسيف حاملاً عصاه، رمزاً للقيادة والعظمة أكثر منها عصى يتكأ عليها، يطالبني بنبرة آمرة أن أسلم إليه ما تبقى من وجبة الطعام التي انتهينا من تناولها، وهو جالس تحت شجرة: بعض

الخبز والزيتون في وعاء يضعه في سرة من الخيش المهلل المليء بخرق القماش وقطع الخبز.

وفي اتجاه السد على الجانب الآخر من الحوض الجماعي التابع للمستوصف، ينبش الأطفال-- وقد بلغ بعضهم من العمر إثنى عشر سنة-- من سكان الدوار المجاور-... أكوام القاذورات بحثا عن فتات الطعام ...وكأنهم خرجوا لتوهم من فيلم سوفييتي جرت أحداثه أثناء الحرب الأهلية... !!! يرتدون سترات، وسراويل مهلهلة، وقطعة قماش ممزقة تغطي الرأس، وعصا للنبش في أكوام القمامة. وكانوا يبحثون أيضا عن أعقاب السجائر لتدخينها... لا لاستخلاص التبغ منها، وإعادة لف بقايا التبغ (السبارس) لبيعه كما يفعل أطفال مصر البؤساء ...فئات من السكان بنفس القدر من الحرمان ولكن يختلف سلوكها: عندنا في مصر فهم أكثر شطارة، وخيالهم واسع، وأكثر حنكة ... أما في الجزائر ظلت الأمور على حالها ...مادة خام...!! ولا تزال تنتشو بينهم العقلية الرعوية ولكنهم يتميزون بالمحافظة على تضامنهم الأسري.

الجزائر، الجمعة ٢١ يوليو ١٩٧٨

توجهت سيراً على الأقدام إلى منزل مبارك أمازوز[١٤٩]: عندما فرغت بطارية سيارتي، ولم أستقل الحافلة... اغتنمت الفرصة وتمتعت بمساحات الفضاء الواسعة: لا يغادر الجزائريون في العاصمة، في أيام العطلة، بيوتهم إلا في وقت متأخر من النهار، ويمر عبر مجموعة الأروقة المقنطرة في شارع باب عزون الهواء النقي الذي يصل حتى ميدان الشهداء متخللاً الطرقات المتقاطعة مع الشارع الرئيسي... شارع أول نوفمبر... أحب المدينة التركية القديمة المطلة على البحر، التي اندمجت في محيط الجزائر العاصمة... مدينة القراصنة قديماً، وميدانها الفسيح -صحيح كان هذا الميدان في الماضي سوق يبيع فيه النخاس الأسرى- ثم أتمتع بمشاهدة الجوامع ...وبالذات جامع المرابطون الذي يعود بناؤه إلى القرن الحادي عشر، وفناؤه الذي يتميز بالتقشف... تتخلله الأعمدة المطلية بالجير الأبيض، ثم الميناء الذي تحيط به كل هذه المنازل التي يبدو وكأنها قد أصابها النسيان، ولم يعد تجديدها لأن ساكنيها من الفقراء، كانوا قداحتلوها بوضع اليد ...بعد أن لفظتهم الأرياف وأتون الحرب.

وامازوز، الذي نحبه جميعاً، هو صديقي الجزائري الوحيد: أشعر بالراحة عندما أكون معه، وأقدر روحه المرحة، وأستفيد من معارفه الواسعة العميقة عن الحضارة العربية الإسلامية. ويسكن المبنى الذي تقابل فيه المهدي بن بركة مع هنري -وكنت

---

١٤٩ رئيس مجلس الإدارة السابق للمؤسسة الوطنية للنشر والتوزيع "سنيد" تابعة للدولة والمؤسسة الوحيدة القائمة عندئذ.

بمصاحبتهما- وهما من الشخصيات السياسية المذهلة... ينتميان إلى بلدان تابعة... مختلفة كل الاختلاف: فمن ناحية اقتلع هنري من مسقط رأسه، أما المهدي فجذوره كانت لا تزال ضاربة في أعماق التربة الوطنية. يمكن التعرف عليهما مع ذلك عن طريق كيفية تصورهم لواقع العالم الثالث، ولقدرتهم على التغلب على الأزمات مع اتساع أفقهم، وفي افتتانهم بالنشاط النضالي العملي بل في مزاجهم اللاذع الساخر عند انتقادهم للناس، والأوضاع. اغتيل الاثنان لأنهما كانا يعيشان في نهاية عصر: بن بركة، عاش في عصر رجال الدولة الثوريين، وعاش هنري في عصر البعثات المسلحة[١٥٠] والاغتيالات التي تنظمها الأجهزة السرية. ولهذا السبب لن نعلم أبداً كيف، ولا من ارتكب هذه الجرائم النكراء؟. ولكن مهما حدث ... فلن ننساهم أبداً.

بو سعده الاثنين ٤ فبراير ١٩٨٠

اللوحة تعكس منظر مجموعة من المنازل ذات شرفات تقع في مكان بهيج في جنوب البلاد تنتشر فيه أشجار النخيل. كنت أحب أن أمارس الرسم: جلست في شرفة غرفتي في الفندق، أبحث بلا طائل كي أعيد إحياء التفاصيل أمامي على الورق... أما الصورة الفوتوغرافية... فإنها لا تترك في الذاكرة شيء... طق ... وهذا كل ما في الأمر! ...يرسم إيتيان دينيه[١٥١]، الذي اعتنق الإسلام، لوحات عرض فيها صور نساء قبيلة ولد نايل. وكان السكان الذين يترددون على بو سعده يأتون من الهضاب العليا: نراهم وهم يرتدون -البرنص... العباءة- ويسيرون بخطوات كلها هيبة وعظمة... على خلاف سكان الجبال المتمسكين بأرضهم... أما الآخرين فهم من مربي الماشية... شبه رحل يتجولون في مساحات الفضاء الكبيرة بآفاقها البعيدة المفتوحة. حضرت هنا في بداية الستينات، عندما رتب بن سالم لنا... هيلين وأنا —وهو أحد الهاربين من سجن فرن...-- زيارة لقريته مزهوا بها وهو يشعر بالفخر... كانت توجد في ذلك الوقت فنادق فخمة مثل فندق -القايد- ولم يكن هناك تفكير في بناء مطار... مساحات فضاء مترامية حتى نهاية البصر. ولكن بو سعده تحتفظ بطبيعتها وشخصيتها ... بسوقها الذي تنتشر فيه روائح الحيوانات مختلطة برائحة التوابل... تتدلى على جدران الحوانيت السجاجيد الكبيرة ذات الألوان البربرية البراقة، ويواصل الرجال خياطة الملابس وأعمال الإبرة -تريكو- في الهواء الطلق.

يا لها من فرصة للتمتع بهذه اللحظات النادرة الأبدية... مثل الاستماع إلى هذا المغني العجوز من الجنوب --هل تتذكر يا جان ماري ؟- الذي ارتفعت عقيرته بالغناء

---

١٥٠ حل محلها عمليات القصف بالقنابل الذكية...!!

١٥١ أعماله معروضة في متحف الفنون الجميلة في الجزائر العاصمة، وقد أغلقت أبوابه بعد اغتيال مديره أحمد آلسيلح.

في إحدى الأمسيات الرمضانية[١٥٢] وعلى شاشة التليفزيون: لم يكن يصدر صوته من حنجرته، ولكن من داخل رأسه وفكره٠٠٠ يصاحبه شاب نافخ على الناي٠٠٠ هؤلاء الفقراء المساكين المهلهلين يعزفون، ويغنون قطع موسيقية صوفية رائعة٠٠٠ يا للعجب!!!

الجزائر العاصمة ٥ يونيو ١٩٨٠

مسرحية بعنوان"خيانة فلسطين" ألفها بالعربية الدارجة كاتب ياسين٠٠٠ لم أفهم مقاطع كثيرة من النص، ولم تستطع فاطمة ٠٠٠ وثقافتها قبائلية، أن تساعدني. وظلت مشاعري وعواطفي٠٠٠ مشتعلة حتى نهاية فصول المسرحية، وعند إنشاد نشيد الأممية ارتفعت حرارتنا !

لقد افتتنت بكاتب ياسين: وكما كان الأمر في عصر البطولات، فقد تخندق في سيدي بلعباس مع جوقة مكونة من الشباب الهواة ليحاول إحياء مسرح يتحدث إلى الشعب[١٥٣] الجزائري٠ ويعمل كاتب ياسين -دون احتياطات أو أقنعة خطابية- على هدم الخيالات التي ترفع مَلوك الماضي في عصر ما قبل الكولونيالية إلى مصاف الأبطال، وهم ملوك لا أكثر ولا أقل، ومجرد سفاكو دماء، يمارسون الاضطهاد ٠٠٠ ولا يختلفون عن ملوك النظم الحاكمية الذين يدعون أنهم منزلون من عند الله ٠٠٠ وفي زمن لم يكن يقارن فيه المثقفون المصريون بعد المجتمعات الغربية بمجتمعهم: فكانوا يعرضون بذكاء صوراً مأخوذة مباشرة من المعاش اليومي٠٠٠ كما انبهر المؤلفون الناطقون بالفرنسية مثل آلبير كوسيري[١٥٤] الذي يعيش في باريس أكثر مما عاش في القاهرة٠٠٠ من الشعب المصري الصغير الذي يسكن المدن. وكان الغرب في ذلك الوقت بعيدا٠٠٠ أما اليوم، فإنه يدير جميع الشركات٠٠٠ وتصطدم إسهامات الاقتصاديين مثل سلرسو خبيرتادو، وسمير أمين، وجوسيو دي كاسترو، وراؤول تريبش أو جنار ميردال، بالآلة الجهنمية التي لا يستطيع أحد، ولا شيء أن يوقف دوراتها.

---

١٥٢ لم تكن هناك إشارة في ذلك الوقت إلى ما سوف يحدث في المستقبل من مذابح باسم الدين.

١٥٣ مثل المسرحية التي منعت تحت ضغط الإخوان المسلمين، متذرعين، وهذا خطأ، بأنها تناولت النبي محمد بسبب عنوانها – محمد يحمل حقيبته--، وليسجلوا انتصارهم، أدوا الصلاة على خشبه المسرح في اليوم الذي منعت فيه المسرحية من الظهور٠ ومن ذلك الوقت أضطهد رجال المسرح إلى أن أدى ذلك إلى اغتيال المخرج الدرامي الكبير الناطق بالعربية، عبد القادر هلولة، وهو في عنفوانه وبينما يقود جوقة من الممثلين الكوميديين الذين أدوا أدوارهم بالعربية الدارجة على مسرح وهران.

١٥٤ حصل على جائزة الفرانكوفونية ودعاه الرئيس ميتران لحفل وضع الحجر الأساسي لمكتبة الإسكندرية الجديدة.

الجزائر العاصمة، اسبتمبر ١٩٨٢

تأثرت بشدة بسبب ما حدث في الموسم الصيفي المأساوي[١٥٥] ٠٠٠ لم أتمكن من الحصول على موافقة لعرض ورقة بحث تتناول المرأة الريفية الفلسطينية في الندوة التي نظمتها أفارت AFART[١٥٦] المنعقدة في الجزائر العاصمة ٠٠٠وأقل ما يقال ٠٠٠كان عذر البعد الجغرافي مثير للسخرية ٠٠٠وهو سبب رفض الورقة٠٠٠!! ففلسطين مرتبطة ثقافيا بأفريقيا الشمالية٠٠٠!!

وكان الجو العام غريباً: غمامة من الرمال أو المطر. ومر الوقت بطيئا وكأنه قون من الزمان ... ! لم أستطع أن أفتح نافذتي لأتمتع بمنظر شجرة تين أو لأستمع إلى زقزقة العصافير ٠٠٠ أعددت بسرعة أوراقي الإدارية للحصول على تأشيرة مغادرة[١٥٧] ٠٠٠ وقمت بتنظيف الطابق العلوي للفيلا الخاصة بماري إيميه٠٠٠ بل نجحت في تثبيت مصراع النافذة حتى تظل مفتوحة لأتمتع بمنظر شجرة التين٠٠٠

لم أنجح في إقناع هنري سار[١٥٨] أن يضم جهوده إلى جهودي لكي نرتب الطابق الأسفل، الذي امتلئ بالغبار، وأوراق شجر جافة، وأعشاش العنكبوت. وتدهورت حالة الفيلا كما ازدادت أوضاع التسول، والتشرد التي سادت حي بن أكنون ٠٠٠وكذلك تفكير هنري سار٠٠٠ الذي لم يعد يقوم بشيء٠٠٠ استقال من وظيفته٠٠٠ لا يكف عن الأكل، والشرب٠٠٠ لا يغتسل إلا عند الضرورة القصوى٠٠٠ يتردد على السوق مرة في الأسبوع٠٠٠ ويتردد على شاطئ البحر فقط عندما يكون الجو صحوا. بل رفض أن يركب الراديو الذي يعمل بالبطاريات٠٠٠ كنا قد عثرنا عليه صدفة بين كومة يصعب وصفها ٠٠٠تتكون من علب وآنية وأوعية زجاجية مهملة ترتبط بعضها ببعض بخيوط أعشاش العنكبوت٠٠٠ يتظاهر بالقراءة ولكنه في الواقع يقلب صفحات الكتب والخرائط الطبوغرافية للأماكن والمناطق التي كانت جزءا أساسيا من حياته. يحب أن يذكر تجاربه، وتجارب غيره في أفريقيا. تأثر من الفراغ٠٠٠ وأظهرت له غضبي من هذه التصرفات العبثية٠٠٠ لم أستطع عمل أكثر من ذلك٠٠٠!!

---

١٥٥ العدوان الإسرائيلي على لبنان مذابح صبرا وشاتيلا انظر الجزء الخاص بـ "فلسطين".

١٥٦ رابطة النساء الأفريقيات من أجل بحوث التنمية.

١٥٧ كنت في ذلك الوقت لا أزال أقيم في الجزائر العاصمة ولكني هجرت منزلي الذي أستولي عليه أفراد أسرة ابني بالتبني.

١٥٨ وهو عالم جغرافيا ممتاز مرتبط وجدانياً بالجزائر، أصابه اليأس بسبب فشل مشروعاته، توفى منذ ذلك الوقت.

٣ سبتمبر

يستمر هطول المطر دون توقف ٠٠٠ انقشعت السحب، وأضاءت أشعة الشمس السماء واستطعنا الذهاب صباح ذلك اليوم إلى السوق٠٠٠ ومعنا أحد أهالي منطقة - أوفيرن في فرنسا- وهو هنري يتحدث اللغة --أوسيتانية-- وهي لغة قديمة منتشرة في تلك المنطقة، ومتزوج من جزائرية - أخذ يسبح بحبات مسبحة ذكرياته عن اكنون، والحدرة، ثم تحدث عن المنطقة التي جاء منها بكل مشاعر الحب. ولم يكن وزوجه من المستوطنين ٠٠٠ الأقدام السوداء ٠٠٠ وكان ينتمي إلى فئة الجغرافيين التي تفتتن بالأرض وتنكب على دراستها. أما أنا فمولعة بمذاق وطعم التمر --العنابي-- وبالتين، وبالجمبري القريدس، وبالأسماك الأخرى الطازجة التي يزخر بها البحر المتوسط الجزائري. كنا قد دعونا فاني كولونا -التي تمتلك موهبة نادرة وهي ٠٠٠تجميل البيئة المحيطة بها، وقد ركزت على مشاهد، ومظاهر منطقة الأوراس كموضوع لدراستها٠٠٠- لتذوق بعض المأكولات.

٦ سبتمبر

كان المستوى الثقافي للشابات من النخب الأفريقية مبعث دهشة٠٠٠ وكانت مداخلاتهن وبياناتهن متماسكة ومحكمة الأركان ولا تعتمد على شئ مكتوب. ولا سيما اللاتي تابعن دراستهن في الجامعات البريطانية أو الأمريكية٠٠٠ وصفوا لي ظروف الاستعدادات الناقصة عند استقبالهن ٠٠٠وهذا مما يرثى له ٠٠٠ بينما تمتلك الجزائر البترول٠٠٠ ولكنه بلد يقع مع ذلك في إفريقيا ٠٠٠ينبغي ألا ننسى ذلك!! ولا تعير اهتماما للبحوث الجامعية. بذلنا جهدا- قدر طاقتنا- أنا وكلودين شوليه[١٥٩] لتحسين الأوضاع.

لم يتغير الجو كثيرا: جو حار ثقيل يترك وراؤه في الحلق طعم الغبار، وسماء مغطاة بالغيوم، وأمطار لا تنقطع، وتتبدد السحب في السماء قليلا ولكنها لا تسمح بالتردد على شاطئ البحر.

باريس، ٨ نوفمبر ١٩٨٤

أمضينا أسبوعا غريبا في الجزائر العاصمة لم أشعر من جرائه بشيء٠٠٠ باستثناء الزيارة التي قمنا بها إلى قصبة بو ضياء٠٠٠ نرى نفس الأطفال البؤساء كما كان الحال في أغسطس ١٩٦٢ ٠٠٠نفس أماكن السكنى الضيقة، والجدران المليئة بالشعارات٠٠٠

---

١٥٩ باحثة اجتماعية جزائرية معروفة في مركز البحوث الجامعية في الجزائر العاصمة (CRUA).

وبو ضياء هذه الشخصية المتفجرة بالحيوية ! لماذا نكبح دموعنا يا هيلين؟[160] ... عظيم ... جرحت راحة يدي، وأنا أحاول النزول على سلم قديم من سطح منزل وافقت الأسرة المقيمة فيه على أن يصطحبنا مرشدنا لزيارته من الداخل[161] ... ألم نكن من أصدقاء الجزائر ؟ تغلب الفضول علينا... عندما وقفنا أمام اللوحة التذكارية لمأساة مقتل علي –الغارة–- وحسيبة بن بو علي، واثنان من المناضلين الآخرين... وشى بهم خباز، ورفضوا الاستسلام، واستمروا في إطلاق الرصاص حتى الموت.

قمنا بزيارة القصبة حسب البرنامج ...بعد انتهاء الاحتفالات الرسمية. وتجولت وأنا سعيدة، وصاحبتني هيلين، وقابلنا مرة أخرى مناضلين قدامى منسبين تقريباً : نيلز أندرسن ومرسيل منفيل، وروبير دافيزي، وجاك شاربي، و ميشيل بوفيلار، وآندريه ماندوز، وجورج ماتييه.

استقبلنا استقبالا فخماً في فندق الجزائر سابقا– سانت جورج– وكان رهن تصرفنا حوض سباحة تميل مياهه إلى البرودة ...كنا الوحيدين الذين استخدمناه، هيلين وأنا، وأحياناً دومينيك داربواه... يوم من السير على الأقدام، والاستحمام في البحر، والجلوس على شاطئ خال من الناس في منطقة سيدي فيروج في منطقة ستاويلي—والغريب لم يدع بوجلان ولا موريان إلى احتفالات الذكرى الثلاثين لقيام الثورة –-أما باقي الوقت فلقد شاهدنا فيه المظاهرات القوية الجيدة التنظيم ...وهي تليق بالفعل بجزائر عصرية... بعيدة كل البعد عن المعاناة اليومية لسكان وسط المدينة... من وسائل مواصلات مثلا المزدحمة عن آخرها ... كنا على وشك أن نفقد أحذيتنا من شدة الزحام ...!!

وعند التقدم لمصافحة الرئيس الشاذلي سقط قناع وجهه الجامد عندما جاء دور ميشيل فيلار (ميشيل ... يا بنت الإيه – !): عرفته باسمها ثم أضافت كلمة –فلاجه[162]– وقد يفسر ذلك سبب حضورها أمامه بملابس –غير مكوية– وتنتعل صندلاً في قدميها ...–فقدت حقيبتها في مكان ما بين المطار والفندق–.

وأعقب ذلك مرور الاستعراضات التقليدية ...ثم الاستقبال الحافل في قصر الثقافة الجديد، والوقوف لحظة صمت أمام نصب الشهداء: وهو نصب تذكاري أقيم في ذكرى المجاهدين الذين سقطوا في ضاحية ديار المحصول، شيد في أعلى تل ...ورفض رفضاً جماعياً لأنه تكلف الملايين، وصممه مهندس كندي... وشعرت بسعادة عارمة عندما تقابلت صدفة بخالد محي الدين. ووقف عرفات إلى جانب بورقيبه وهما الرئيسان الأجنبيان الوحيدان المدعوان إلى هذه الاحتفالات –-وبضغط من سوريا رفضت الجزائر

---

١٦٠ علمنا باغتيال بو ضياء في ذلك الوقت .

١٦١ لا تدعو الأسر الجزائرية الغرباء لزيارة ديارها من الداخل–المترجم

١٦٢ اسم يطلقه الفرنسيون على ثوار الجزائر ضد فرنسا .

أن يعقد المجلس الوطني الفلسطيني اجتماعه في العاصمة كما كان الأمر في العام السابق -. امتنعت عن كل شيء حتى الاستماع إلى انتقادات الصحفيين... لم يجبرنا أحد على قبول تلك الدعوة، وكنت أتابع بنظري كل شيء، وأستمع، وأسأل من بعيد كأي غريبة.

شجع قرار العفو العام --وهو أساس دعوتنا-- وجود جو يدعو إلى التوفيق. ونظم قدماء اتحاد الجزائريين في فرنسا مثل -عمر بو داوود، وعلي حارون، وآية مختار-الذي طلب مني أن أحيي بالنيابة عنه بلانش، -وقدور المعروف باسم الشهرة بيدرو ...- حفل استقبال على شرفنا... أمسية لها ذكريات وقصص. يطور بن طوبال بذكائه الحاد النظريات المتعلقة بهذه أو تلك من قضايا الثورة الجزائرية ...تذكر الماضي ويعمل على تجنب الطرق المسدودة في الحاضر... !!. ودافع سيمون مالي الصحفي المناضل عن ملف القضية الفلسطينية، ولو بنبرة تكاد تقترب من نبرة المحاضر الذي يلقن درسا... كما هو حال الشرقيين من جيله... وإنما برقة اليهودي السفراد ...وكان هنري يشك في انتماءاته دون أدنى دليل ... !!

انتهت هذه الأمسية بالدعوة إلى وليمة تليق بعظماء القوم، وذلك في الفيلا التي يملكها القائد بن شريف[163]، وهو مضيف شديد العناية بضيوفه، يلبي أقل رغبة للمدعوين. وكان كل من مندوز وميشيل التي أقنعتني بقبول الدعوة يحتلان في الحفل أعلى مراتب الشرف ...ترددت في بداية الأمر -يدور الهمس عن فظائع كثيرة ارتكبتها هذه الشخصية-: لكن نيكول دريفوس نجحت في أن تضع الأمور في نصابها، وتعيدنا إلى حقائق الحياة، ووجدت في الحفل دافيزي، وحتى نلز المنتمي إلى الماوية ! وضاهى هذا الحفل في عظمته ولائم العصر العثماني: قدم خروف كامل مشوي على طبق كبير على الشرفة، بداخله أطعمة لذيذة، كما قدمت في الحديقة القهوة والشاي بالنعناع الطازج، مع حلويات شرقية .

ذكريات يقصها سعد دهلب كيرمان بدون قلق ... ميشيل أنيقة وفي منتهى السعادة والمرح... فقد عثرت أخيرا على حقيبتها الضائعة...

انتهى بالفعل الخيار الاشتراكي. رغم أن الشاذلي -وهو الرئيس الجديد الذي اختاره الجيش- كان قد أقسم اليمين على مواصلة السير في الطريق الذي رسمه هواري بومدين من أجل دعم الخيار الاشتراكي الغير قابل للتصرف—جريدة المجاهد ١ فبراير ١٩٧٩.

لم يعد يتبقى شيء من كل ذلك.

---

١٦٣ قائد الدرك الوطني من ١٩٦٢ حتى ١٩٧٧، وكغيره كثيرون ممن سلك مسلك الملوك الصغار !

مرة واحدة فقط شاهدت عبارة الاشتراكية في أحد الشعارات المرفوعة في الاستعراض حملها أناس من القطاع الزراعي[١٦٤]. ولم يعد تحليل هنري صالحا للتطبيق... فلقد قرر الفريق الجديد في السلطة قطع كافة علاقاته مع الخيارات الأساسية التي تولدت عن حرب التحرير. ومن ناحية أخرى فقد الحزب عقيدته في عصر بو مدين، عندما أهمل تطبيق بنود الميثاق، وتربعت شخصيات مثل شخصية قايد أحمد، ثم مسعدية على رأس جهاز جبهة التحرير الوطني الجزائرية. وأصبحت البلاد بلا مشروع قومي... !! واقعة تحت سيطرة الذين يقومون بنبش ما تبقى من المكتسبات التي حققتها الجهود المبذولة في الماضي بغية الاستيلاء عليها...

ديسمبر ١٩٨٧

انعقد الملتقى الدوري في الجزائر العاصمة من ١٠ إلى ١٣ ديسمبر لمناقشة مؤلفات الكاتب فرانس فانون الذي توفى بعد أن أصيب بمرض سرطان الدم عشية التحرير الجزائري، وكان قد كرس حياته للثورة. نظم هذا الملتقى مركز فنون رياض الفتح... أنشئ مبناه بشكله اللاإنساني ...على قمة تطل على العاصمة ... أروقة تحف بجانبيها متاجر الكماليات والسلع الترفيهية، ويحرسها أفراد من الأمن يصطحبون كلابا مدربة... أليست هذه إهانة لذكرى فانون...؟؟

تألمت أشد الألم عندما مرت حافلة الركاب التي نقلتنا من فندق الجزائر... إلى مكان الملتقى... بأحياء شعبية مهجورة قريبة الشبه لما يوجد في القاهرة. أردت أن أستنشق بعض الهواء النقي من أعلى هذا المكان... وهذا بعد قضاء يوم بأكمله لم تتوقف فيه المناقشات حول عصر كولونيالي مضى...!!! وفجأة وجدت نفسي وجها لوجه أمام مجموعة من تلاميذ المدارس ... وهي مجموعة مختلفة تمام الاختلاف عما كنت أعرفه.

لا شك أن الجزائريين يختلفون باختلاف وتنوع أحيائهم الشعبية...

وأستطيع أن أقول ...مع استئناف النشاط في المنطقة... ورغم اطروحات قدامى المناضلين في هذا الملتقى ...إلا أنه ظل دون إسقاط على المستقبل... ولا حتى في مجال المساعدة المقدمة إلى حركات التحرير رغم وجود مانفيل[١٦٥].

علمت أيضاً بشيء من الضيق من جيلول ملايكه- وهو حلقة الوصل الأخيرة التي كانت لدينا... أن المكتب الذي كان يتولى رعاية نشاط حركات التحرير داخل جبهة التحرير الوطني الجزائرية قد توقف عن العمل وأوصدت أبوابه تماما...

---

١٦٤ تسقط نهائياً هذه العبارة في عام ١٩٨٨.

١٦٥ نظم مركز فرانس فانون ، وهو محامي مشهور دافع عن المناضلين من حركات التحرير.

كان سبب قبولي الدعوة التي أرسلها لي جوزيه فانون[١٦٦]- وهي أيضا حلقة الوصل الأخيرة التي كانت لنا في الجزائر العاصمة، وكانت قد تولت إدارة البث الإذاعي الذي عالج قضايا حركات التحرير في أمريكا اللاتينية- هو إعادة تنشيط الاتصال استعدادا لعقد ملتقى هنري كورييل.

وبفضل دعوة عشاء مع بول نيوتين... مدير مكتب جان ماري تيجيبوا[١٦٧]، وبحضور تيجيبوا رئيس جبهة تحرير الكاناك في جزر كاليدونيا الجديدة الواقعة في الإقيانوس، سمح لي بالمضي قدماً في هذا المشروع . ولكن لم يحضر ممثل أنجولا ... ولم يتناول الكلمة عضو من أعضاء الكونجرس الإفريقي الوطني ...وقامت بذلك آن ديسيز[١٦٨] من المجموعة الفرنسية المناهضة للفصل العنصري ...ووقفت متحدثة عن أفريقيا الجنوبية -صحيح كان مؤتمر كتاب أفريقيا الجنوبية منعقداً في ذلك الوقت في هولندا ...وقد يكون هذا هو السبب!

شعرت بسعادة لا توصف عندما التقيت أخيرا بالمناضلة اللامعة جميلة بوحريد[١٦٩]، وعندما تحدثت أيضا مع بو علام أوصديق الذي كان قد اختفى عن الأنظار منذ الستينات، وعندما عثرت مرة أخرى على سليمة بو عزيز ...الديناميكية التي استأنفت نشطها من جديد، وتقابلت في مجال نشاط المرأة هذه المرة بجاكلين جيروج[١٧٠] ... واستطعنا تحمل الحياة بفضل صداقتها الحميمة ...في عصر انتشر فيه الغموض، والتعتيم، وضرب الشباب بالهراوات... كما تجاذبت أطراف الحديث لبعض الوقت مع بوتفليقه -وكان في أحسن حالاته- في الأمسية التي نظمت على شرف حضور المؤتمر- كما تقابلت مرة أخرى مع قدامى "الأقدام السوداء"، وقد ابتلعتهم تماماً أنشطتهم المهنية، مثل الدكتور جيروميني أو الباحثة الاجتماعية كلودين شوليه، وتحدثت قليلاً مع الملحق الثقافي اللطيف في سفارة أنجولا، أرليندو باربيتيوس، وقد استرعى اهتمامه المعلومات المتصلة بخط سير هنري الكفاحي -وكان أرليندو من أصل يهودي- واستطعت بفضل موريان أن أتقابل مع قدامى شباب المتطوعين.

---

١٦٦ زوج فرانس فانون، ويا للأسف الشديد... انتحرت في الجزائر العاصمة في ١٩٩٠.

١٦٧ اغتيل في ذلك التاريخ

١٦٨ محررة ومحققة صحفية توجد اليوم في راديو فرانس أنترناسيونال في جوهانسبرج.

١٦٩ كما ذكرت من قبل ...ألقي القبض عليها وعذبت وهي لم تبلغ بعد العشرين من عمرها ...أثناء معركة الجزائر العاصمة عام ١٩٥٧، وأثار حكم صدر عليها بالإعدام حملة تضامن واسعة رفعتها إلى مصاف البطلات في العالم العربي ...وقرر رئيس الجمهورية الفرنسية كوتيه العفو، وخفف الحكم إلى السجن المؤبد .

١٧٠ وهي في غنى عن التعريف -نشرت مذكراتها تحت عنوان: "دوار وسجون"،(دار بوشين -الجزائر العاصمة) و"موسم الكرز" (باريس، ١٩٩٣..)

ونجح نشاطنا السياسي في الإفلات من تعقب، ومضايقات خمسة أجهزة[٨] مختلفة ومتخصصة للبوليس .

لا شك أن هنري كوربيل تمتع برهافة الحس التاريخي... عندما حدد هدف التحرير الوطني كهدف أولي للمنظمة الشيوعية التي ساهم في تكوينها مع رفاقه في مصر، وأيضا عندما حدد فيما بعد في فرنسا أحد الواجبات السياسية في شكل تضامن مع حركات التحرير في البلدان التابعة .

واقتفينا أثره... ولم نفرض في إطار نشاطنا أي نوع من المحاذير أو القيود... ولتستخدم الشعوب ما يحلو لها من وسائل من أجل تحقيق تحررها ..!!.

وأصبحنا بمحض اختيارنا من النشيطين نناضل في حركة ثورية منتصرة...

وأجبرت الأمم المتحدة على رفع درجة تمثيل حركات التحرير الوطني، وأكسبتها في محيطها مفهوما متماسكا لا يمكن التغاضي عنه...

واعترفت بمنظمة الكونجرس الوطني الإفريقي(ANC) ومنظمة التحرير الفلسطينية كمراقب، وبانضمامهما إلى صفوف المنظمة الدولية كمنظمات تبنت الكفاح الثوري المسلح... !!

وانهار صرح نظام الفصل العنصري (Apartheid) -الذي بدا وكأنه أبدي...!!- ولكنه بعد أن نجح في إفراغ الجماهير السوداء من شعورها بإنسانيتها... ورغم ذلك أصرت مجموعةANC على أن تتمسك الجماهير السوداء بزمام مستقبلها دون أن تمارس أي نوع من الإقصاء[٩] .. .

أما أجيال المناضلين من العالم الثالث، ومن الجماعات الشيوعية والمسيحية من المتعاطفين الأوروبيين مع النضال من أجل التحرير- الوحيدين الذين أعرفهم حق المعرفة- فلقد كان تحرير المستعمرات البرتغالية في أفريقيا- بالنسبة لهم- ونهاية العدوان العسكري الأمريكي ضد فيتنام، واحتضار نظام الفصل العنصري، هو العامل الذي قلب هذه الصفحة من التاريخ وهي الصفحة"التي تأثرت بالمفهوم الماركسي للعمل الثوري، وبمطالبة الوطنيين بعدم المساس بكرامة الإنسان، والبعد التحرري للعقيدة ... مع التنويه إلى ما قدمه الاتحاد السوفييتي من مساعدات من الخمسينيات حتى السبعينات ...!"،

وهذا هو ما أعتقده، وتبينته على الأقل من خلال تجربتي الشخصية.

وتظل قضية فلسطين كما هي...!!!

---

[٨] جهاز البوليس السياسي (القلم المخصوص)، وإدارة البحوث الجنائية ،والمخابرات العامة للجيش،والبوليس السري البريطاني ، والبوليس السري الخاص بالملك.

[٩] دون إقصاء البيض عن الحياة السياسية- المترجم

لم أكن أعرف فرانس فانون، ولم تكن مؤلفاته من بين مراجعي: وإنمـــا أفضـــل قضايا الاقتصاد، والاجتماع٠٠٠ رأيت أن نهجه فـــي التحليـل النفســي بغــرض فــهم الكولونيالية، وتبريراته للعنف الفردي باعتباره عنصرا يحقق الطهارة والنقاوة٠٠٠ غريبـــا علي!! وكما استغربت أيضاً كيف يخصص للفلاحين ولأشباه البروليتاريا في المستعمرات دورا طليعيا ثوريا. اعتبرت ما وجهه من انتقاد لاذع لليسار الفرنسي متماد في البســاطة، والتسطيح، وكان قد وضعهم جميعا في سلة واحدة، كما استغربت ما كــان يتوقعــه مــن الاتحاد السوفييتي الذي كان عليه أن يساعد دون أي خلفيـــة سياســـية، أو عندمـــا نـــادى بالانفصال عن أوروبا ٠٠٠ واختراع بشرية جديدة ٠٠٠ دون أن يبين وســـائل تحقيــق ذلك٠٠٠ !! ولكنه لم يكن قد بلغ من العمر حينذاك سوى ٢٦ عام٠٠٠ كمـــا اســـتغربت عندما قرر قبول الجنسية الجزائرية ٠٠٠ وكان حري به أن يظل منتمياً إلى جزر الأنتيــل السوداء التي ينحدر سكانها من أسر العبيد الأفارقة٠٠٠ مما يؤدي حتما إلى إضافة بعـــد جديد للنضال التحريري الجزائري.

ولم أستطع أن أسير على الطريق الذي سار عليه فانون عندما شعر بخيبة الأمـــل من الأحزاب الوطنية٠٠٠ فتوقعاتي لا تذهب بعيدا ٠٠٠وتتوقف عند اضطلاعـــها بـــدور قيادي في النضال من أجل التحرير من سيطرة أجنبية، ولا تذهب إلى أبعـــد مـــن ذلـــك ٠٠٠مثلا لكي يصبحوا أبطال تحرر اجتماعي٠٠٠! ولم تغير تلك المقدمة التـــي أعدهـــا سارتر شيئا، وأعتبرتها٠٠٠ –-وأعتذر لأصدقائي ثوار ١٩٦٨ في باريس- قد بـــالغت في التسطيح والتبسيط السياسي٠٠٠ وإذ أقول هذا ٠٠٠أثار فانون اهتمامي فيما بعد حيــث كان لفكره أثر –وذكرت ذلك سابقا- على ضباط الجيش الجزائري، وأيضا على حركـــات تحرير مسلحة في الغرب،| ولاسيما حركة الفهود السوداء الأمريكية٠ واقـــترح وزيـــري السابق عبد العزيز بوتفليقه[١٧١] عندما قابلته في جنيف، بإعادة ترتيب المذكرات المـــأخوذة من المحاضرات السياسية- ولكن لم ينجح المشروع- التي كان قد ألقاهـــا فـــانون علـــى الضباط الشباب، والضباط التوعية السياسية(كوميسير سياسي)أثناء الفصل الدراســـي٠٠٠ وذلك في المنطقة الجنوبية ٠٠٠ وهنا لمست ما خلفه من آثار، وعلى العكس يتبيـــن مـــن القراءة المتأنية لأعمال فانون العلاقة الوطيدة القائمة بين فكره والتجربة الجزائرية: التـــي تبنت شكلا من أشكال النضال الذي نادى به منشقون يستندون إلى فئات من الفلاحين الذين سكنوا المدن، فضلا عن أشباه البروليتاريا الموجودين في العاصمة. ولكن كلمة حق واجبة : فلقد تميزت أعماله المبكرة بانتقاد مظاهر اليقين الزائفة التي يولدها الكفاح المسلح.

حدثني دونالد كوكس أحد قواد حركة الفهود السوداء الأمريكية عن تأثير فـــانون على الكفاح المسلح الذي تبنته هذه الحركة التي تأثرت أيضا بالماوية، وبطبيعـــة الحـــال

---

١٧١ الرئيس عبد العزيز بو تفليقه

بمالكوم إكس. كما استجابت بعض أفكاره القوية مباشرة لتساؤلات أول من قام بتنظيم حركة الفهود السوداء: وهي آراء تبشر بضرورة عودة الخاضعين للكولونيالية٠٠٠ إلى انتهاج وممارسة العنف ٠٠٠ وأن الفهود السوداء خاضعة لنظام كولونيالي داخلي، ويهدف نضالهم إلى التحرر من الاستلاب النفسي٠٠٠ وهم على قناعة تامة باندلاع الثورة من بين صفوف أشباه البروليتاريا٠٠٠ وشاطرهم في هذا الاعتقاد جماعات من الأمريكان البيض، وجماعة الفهود السوداء الإسرائيلية –ولكن دون أن يشهروا السلاح- ٠٠٠ ثم نادوا بضرورة بناء الاشتراكية لإعادة توزيع عادل للثروات٠٠٠ وأكدوا أهمية السلوك الذي يتمتع بالنقاء الثوري٠٠٠ وأفضى كل هذا بسرعة إلى وقوع انقسامات ٠٠٠!! وباختصار ٠٠٠ اهتممت بهذه الأفكار في إطار دراسة تاريخية تناولت المؤثرات التي يتعرض لها المثقفون في المستعمرات أثناء عملية نضال من أجل التحرير من رقبة الكولونيالية٠٠٠ وليس باعتبارها أفكارا يخرجها فانون من جعبته كمنظر للثورة٠٠٠ وكان فانون بالفعل على العكس من ذلك ٠٠٠ في طليعة المتخصصين في مهنته. ويشهد على ذلك عندما أشاد به الدكتور بوسبسي[١٧٢] الطبيب النفسي الجزائري المشهور على النطاق الدولي.

فكرت في البداية أن أخصص أسبوعاً إضافياً وحيداً أظل فيه في الجزائر العاصمة لمقابلة ومناقشة أمازوز من جديد٠٠٠ والالتقاء قدامى المتطوعين٠٠٠ لكن صعوبة المواصلات العامة التي يواجهها الركاب يوميا٠٠٠ وهو أسوأ حالا مما يوجد في القاهرة٠٠٠ حال دون ذلك٠٠٠ ساعات كاملة في انتظار الحافلة ٠٠٠ثم الهجمة التترية لركوبها٠٠٠ مع ندرة سيارات الأجرة٠٠٠ وعدم وجود مياه الشرب٠٠٠ لم يكن هذا هو حال فندق الجزائر بالطبع٠٠٠!! حيث يشبه تدفق مياه الاستحمام الخارجة من الصنابير ما يوجد في أحسن فنادق أوروبا٠٠٠ بينما تظل القصبة عطشى لأيام عديدة وتعوزها مياه الشرب٠٠٠ كل ذلك جعلني أهجر هذا المشروع٠٠٠ وتمكن سيرج ميشيل - كانت له اتصالات مع الأجواء العليا في السلطة- أن يحجز لي مقعد في الطائرة المغادرة٠٠٠ قابلني موريان٠٠٠ قبل أن أغادر ٠٠٠ وقلبي يعتصره الحزن: قد نعزو هذه الأزمة إلى ما يغلف الوضع من تعقيدات ٠٠٠ وللفجوة الفاصلة بين الذين يسيطرون على دواليب الحكم من ناحية، وبين هؤلاء الذين ينتظرون بلا طائل تحسين معاشهم اليومي ، وهذا كله يغذي عوامل الانحراف٠٠٠ ويزداد عدد المكبوتين ٠٠٠ ويبدأ الجميع في التطلع إلى حدوث انفجار[١٧٣].

---

١٧٢ اغتيل-كما ذكرت- في يونيو ١٩٩٣ بعد أن كرس حياته لعلاج المعوقين ذهنياً.
١٧٣ في أكتوبر ١٩٨٨ حدثت مذبحة للقائمين بالعصيان-من كان يعتقد حدوث ذلك!- قامت بها قوات حفظ الأمان التي كانت السبب في أول شرارة اشعلت الفتيل.

جنيف، الثلاثاء ٢ أكتوبر ١٩٩٠

وحتى لا أرفض دعوة قدمتها لي هذه الشخصية الأسطورية المنبثقة عن عصر المبادرات البناءة، التي لا تزال تشمر عن ساعديها حتى لو بلغت من العمر ٧٤ عاما ... قضى منها خمسة عشر سنة في غياهب السجون، اشتركت في رحلة العودة إلى الجزائر... جزائر بن بيللا[١٧٤] . لم يكن هناك مدعوون رسميون من الوفود الأوروبية: فقط أصدقاء من قدامى المندوبين ...مثل المندوب البريطاني كين كوتس، وأوتيللو كارفالو، بطل ثورة -ورود القرنفل الحمراء[١٧٥]، تحف به باقة من الأصدقاء، وهو في أتم لياقته البدنية... فضلا عن وجود الشخصية التي لا تكف عن الغليان- جان زيجلر ...الذي لا يزعجه احتمال سحب حصانته البرلمانية، وهو-مندوب اشتراكي في المجلس الفيدرالي الاتحادي في برن عاصمة سويسرا... معرضا باستمرار للمضايقات... فلقد أدان في الكتاب الذي ألفه أخيرا عمليات غسل أموال المخدرات في البنوك السويسرية- وميشيل بوفيلار محامية بن بيللا المعروفة بحماسها الشديد عندما كان مسجوناً، يصاحبها بيير كليمان الذي يحتفظ بذكرى حية لمقابلاته مع هنري في السجن، وبالطبع موريان وكل أفراد الفريق الفرنسي لبابلو ... وكان من بين المناضلين من أجل التحرير... والفلسطيني ألبير أغاسريان عضو الطائفة الأرمنية في القدس الشرقية، ومناضلين أكراد، ومنهم الزوجة النمساوية للرفيق القائد الكردي الإيراني النابغة غاسيملو ... الذي اغتيل في غرفة بأحد الفنادق ...كانت قد استخدمت كفخ لاصطياده ...وكان بن بيللا قد حذره -كما قال لي- من المضي في هذه المقابلة التي نظمتها الأجهزة الإيرانية ... ومن بين الصحفيين مناضلين شباب من لونغوماي، وراديو زون، ومن قنوات الإذاعة الفرنسية بيير سوراه من القناة الثانية الفرنسية، ومن الصحف اليومية ومن لموند، وليبراسيون وبالطبع من جين أفريك... يا لها من مشاعر فياضة ... عندما رأيت مرة أخرى حاميد بيراده، الذي غاب عن الأنظار منذ ربع قرن.

وعند وصولي ...وقد قاربت الساعة منتصف نهار في أحد أيام شهر سبتمبر، حاول كثيرون إفشال رحلة عودة بن بيللا إلى الجزائر، وانهمرت معاول الهدم : لم يدع ممثلون رسميون... وأعيد المدعوين الذين لم يكن لديهم بطاقة دخول... مثل كين كواتس... حتى الفلسطيني حامل جواز السفر الأردني... فضلاً عن ذلك ...تحيز التليفزيون الجزائري واقتصر على عرض صور مشاهد الفوضى... كما اشتركت معها دور الصحافة التي خفضت في بياناتها أعداد الذين حضروا هذه المناسبة ...وتواجدوا من الثامنة والنصف صباحاً قبل إقامة حواجز الشرطة، وبلغ عددهم ما بين

---

١٧٤ نجح فريدريك ميتران في أن يعرض في برنامجه (عند فريد) زملاء بن بيللا المقربون ومنهم زوجه.

١٧٥ اندلع العصيان العسكري في البرتغال في إبريل ١٩٧٤، ووضع نهاية للحرب الكولونيالية الدائرة وللنظام الفاشي، اهم فيما بعد بالتآمر، وسجن، وأطلق سراح أوتيللو بعد ضغوط دولية.

١٥ إلى ٢٠ ألف مستقبل... أسمتهم وسائل الإعلام المغرضة "بالمتفرجين الفضوليين" ، بينما بلغت تقديرات أحد أعضاء فريق بومدين القديم ...-العالمين بالأمور- ما بين ١٥٠ إلى ٢٠٠ ألف، وقدرت رويتر عددهم ب ٥٠ ألف . وقد أثار محضر التحقيق فيما حدث موجة اعتراض واسعة بين الصحفيين الجزائريين بسبب التحيز المرفوض من أساسه لإحدى وكالات الأنباء المحلية، ثم لما عرضته القناة الفرنسية TF1 والقناة الخامسة الفرنسية -وهي الإذاعات التليفزيونية الوحيدة التي يمكن مشاهدتها في الجزائر العاصمة في ذلك الحين- ولما نقلته من أنباء دون التحقق من صحتها، كما استنسختها جريدة لموند بنفس الشكل ...!

لم أتمكن من سماع خطبة بن بيللا التي ألقاها بعد رسو سفينته في الميناء. ولا أستطيع أن أجزم بأنه أطلق نداءات مشتعلة دفاعاً عن صدام حسين... وسارعت بمغادرة السفينة مع موريان قبل أن تتعقد الأمور، فلم افقد بعد ما اكتسبته من خبرة في معالجة مثل هذه الأوضاع... ونجحت في تفويت الفرصة على الأجهزة التي تريد إبعادي والعودة أدراجي من حيث أتيت... وبلغت سعادتي أقصاها عندما وجدت في استقبالي جميلة بوحريد، وعدد من قدامى المناضلين الذين غابوا عن الأنظار منذ الانقلاب ضد بن بيللا مثل بن ظرفة، وآية الحسين... ووجدت نفسي أقف على حافة المنصة وفي موقع في الميناء يصعب أن أرى منه أو أن أسمع شيئا...وتوخيا للأمانة أود أن أصدق أن بن بيللا أطلق العنان في خطاباته البلاغية ينادي فيها الشعب الجزائري أن يتضامن مع الشعب العراقي، وللتظاهر دون تحطيم شيء، وأصر على أن يعلن ذلك أمام سفارة الولايات المتحدة الأمريكية ...ولكن لم يكن الشعب الجزائري يهتم بالمرة بأزمة الخليج[١٧٦] ... ويعود الفصحاء من أصحاب الخطابات البلاغية إلى الظهور من غياهب الماضي المنصرم ...ومع ذلك لا ندري ما هي المبررات التي تجيز ترك العنان فقط للخطباء الزاعقين من المتطرفين الدينيين ليرعوا في هذا الفضاء لوحدهم كما يحلو لهم ؟! ولكن لا يكفي عكس صورة ما يدور في مجرد عبارات لاذعة ساخرة[١٧٧] . وقد حل محل الاهتمام بمضمون المؤتمر الصحفي اعتبارات تتعلق بالسبق الصحفي، وكل ما أخرجه جورج ماريون -جريدة لموند- من جعبته كملاحظات هو عندما كشف خطأ في عبارة استخدمت عندما ذكرت " الحية الصهيونية الرقطاء"وهي عبارة مستقاة من كتيب يعرض بالصور خط سير المناضل بن بيللا ، والعبارة مأخوذة بدورها من نص نشر عام ١٩٨٢ ...دون أن يذكر هذا الصحفي أيضا أن عام ١٩٨٢ هو عام غزو لبنان ومذابح صبرا

١٧٦ إنها الحرب وقصف السكان العراقيين بالقنابل التي غيرت الأوضاع ويعرف من كان خاضعاً للكولونيالية قديماً رائحة العدوان التي تزكم الأنوف.

١٧٧ وأعني بذلك دانيال شندرمان الذي برع منذ أن اكتشف تخصصه: حتى أني لم أتوقف تقريباً عن شراء جريدة لموند إلا لأقرأ انتقاده الساخر لبرامج التليفزيون، في حلقته بعنوان "وقفة عند بعض المشاهد" على القناة الفرنسية الخامسة .

وشاتيلا !. وإذ نقول ذلك ، فإن لم يسارع بن بيللا بإحاطة نفسه بالسياسيين الواعين داخل صفوف حزبه الجديد وهو"الحركة الديموقراطية الجزائرية" فإنه سيفقد تأثيره المعنوي.

ومع وجود موريان كنت أعرف أني سأقابل مناضلين نشيطين٠٠٠ كثير منهم راعه حجم الأزمة التي أغرق الرئيس شاذلي البلاد فيها[١٧٨] ويسعون لحشد التوجهات الديموقراطية المختلفة، مع استخدام الضغوط اللازمة لدفع هذه القوى للتطلع إلى التغيير ٠٠٠ والاستجابة إلى احتياجات أكثر فئات المعدمين في المجتمع. وأعجبت بآراء بو سعد وهو من عصر بومدين٠٠٠ أثناء إقامتي القصيرة في الجزائر العاصمة٠٠٠ وهو بطبيعة الحال يناصر جورباتشيف ٠٠٠وكان متشائماً. ويردد أنه حتى هذه اللحظة، تبددت طاقات كثيرة في مشاجرات ومشاحنات بين الشخصيات السياسية٠٠٠!!؟ *وتفاعل مناضلون كثيرون بعودة آية أحمد في ١٥ ديسمبر ١٩٨٩، وانتظرته في المطار جمهرة رهيبة من الناس، ولا أدري ما الذي كان يمثله لهؤلاء الشباب٠٠٠!! كانت ظاهرة فقدان الذاكرة من القوة بعد الاستقلال٠٠٠ حتى أنه في الفصل المدرسي الذي توجد فيه حفيدتي بالتبني، لم يكن لأحد فكرة عن من يكون بن بيللا إلا الذي تصوروا أنه قد يكون من الحركيين القدامى[١٧٩]! ٠٠٠ولم يتمكن الحزبان اللذان يحملان برنامجا متشابها تقريباً، ويستندان إلى نفس منطقة القبائل، وهما RCD - التجمع الثقافي الديموقراطي لسعد سعدي- وجبهة القوى الشعبية لآية أحمد- من التوصل إلى تفاهم بينهما، بل لم يصلوا في شهر يونيو الماضي إلى أي اتفاق بشأن الانتخابات الإقليمية لاختيار أعضاء المجلس الشعبي المحلي، والمجلس الشعبي للولاية.*

وتتردد نفس النغمة في كل مكان٠٠٠!! رغم استحسان قدامى المجاهدات عودة المنفيين *كما كثر عدد العائدين كلما كان هذا أفضل* " هذا ما قالته لي زينه، وكنت قد اتصلت بها فور وصولي إلى الجزائر العاصمة: تظاهرن وحشدن أنفسهن من أجل المطالبة بحل الجمعية الوطنية٠٠٠ ومعظمهن من جبهة التحرير الوطني الجزائرية، وهي الجبهة التي انحازت لتؤيد مدونة قوانين تنظيم الأسرة ٠٠٠!! ولم تكن قد عرضت بعد المدونة على القضاء للنظر في مدى اتساقها مع بنود وأحكام الدستور٠٠٠ أما الخطاب الذي يتناول موضوع احترام العادات٠٠٠ أتذكر لوحات رسمها الرسام الفنان شارل هنري فافروه[١٨٠]٠٠٠ عرضت في الجزائر العاصمة، ومنها لوحات خلدت نساء وهران وقسنطينة ومشاهد نساء صحراويات يسرن دون خمار، ودون حجاب، ولا حتى

---

١٧٨ أقيل من وظيفته عام ١٩٩٢ في أعقاب الأزمة التي ثارت بعد إلغاء نتيجة الانتخابات.

١٧٩ من الحركة الجزائرية٠٠٠ وهم الجزائريون الذين خدموا في الجيش الفرنسي أيام الحرب الجزائرية (١٩٥٤-١٩٦٢) قوة عسكرية محلية مكملة، ومنهم من فضل البقاء في الجزائر بعد الاستقلال وذبحوا عن بكرة أبيهم٠٠٠ أما الذين غادروا إلى فرنسا فقد غرقوا في مستنقع التاريخ المنسي.

١٨٠ عضو قديم في شبكة الدعم ٠٠٠اليوم مدير متحف الإليزية في مدينة لوزان بسويسرا.

الغلالة التركية... كما عبرت إحدى اللوحات عن امرأة تظهر بمظهر لا يقل حرية وفخراً وفضيلة عن زوجها، ويعود المشهد إلى أعوام ١٨٥٦-١٨٥٧، ومن الواضح رسمت هذه اللوحات في تاريخ يعقب اندلاع المقاومة التي قادها الأمير عبد القادر الجزائري ضد الاحتلال الفرنسي... ورغم أن هذه المقاومة كانت قد قامت باسم العروبة والإسلام...

وكان أناس كثيرون يأملون توصل كل من بن بيللا وآية أحمد -الواحد له ثقله في الوسط الاجتماعي الوهراني... والآخر له ثقله في منطقة القبائل-- إلى المحافظة على بداية الاتفاق المعقود بينهما قبل عودتهما من المنفى... ودون أن يغرقوا أنفسهم أكثر من اللازم في خيالات سقيمة ...! وماذا عن حزب اليسار الاشتراكي الجزائري؟ ...موقفه سليم: بدأ بتنظيم جبهة لمساندة برنامج التصحيح الاقتصادي، ولحماية الحريات الديموقراطية... ولكن لم يعد حزب اليسار الاشتراكي الجزائري من الأحزاب القادرة على الحشد... وماذا عن جبهة التحرير الوطني الجزائرية ؟ لم يسمع صوتك يا كاتب ياسين[181]... وأما الجبهة الإسلامية للإنقاذ فما أمرها ؟ يبدو أنها استفادت من الفوضى التي عمت في أعقاب حمام الدم في أكتوبر ١٩٨٨[182]- ٥٠٠٠ قتيل في غضون يومين أو ثلاثة أيام فقط...!!- والسبب أنها نجحت في الانتخابات التي أجريت في الولايات وفي البلديات في ١٢ يوليو ١٩٩٠ وبأصوات عمالية في وقسنطينة، والحجار في عنابه، كانت قد انضمت للإعراب عن سخطها لتصرفات السلطة القائمة. ومع وجود الجبهة الإسلامية للإنقاذ قضي على كل أمل في الإصلاح، وسعوا إلى تأطير المجتمع في قوالب ثابتة.

إني مستعدة للاستماع... ولكن أين ذهبت هذه الجزائر التي كانت بمثابة أرضية للتفكير والمبادرات من أجل إحداث تنمية متكاملة لمجتمعات العالم الثالث ؟؟!! وما زلنا، ولم ننتهي من مناقشة هذه القضايا مرة أخرى عام ١٩٧٣ !! هكذا... اختفت في لمح البصر وبعد جيل واحد !!!؟ يا ترى من أين بدأ الصدع ؟هل الرفض الدائم لاقتسام السلطة؟ هل هي نزعة شمولية للسلطة حالت دون أن تنتظم التيارات المختلف داخل جبهة التحرير الوطني الجزائرية في قوى اجتماعية مستقلة، علما بأن نفس هذه السلطة قامت بترويض الاتحاد العام للعمال الجزائريين ؟ وبدوره ألغي الاتحاد الوطني للطلبة الجزائريين، وترك حقل التعليم لترعى فيه فلول المتأسلمين. ونجحت قوات الأمن في نهاية المطاف في ردم الفراغ بسلاحها... وقبره خفية وفي السر.

---

١٨١ نادى بالالتفاف حول راية جبهة التحرير الوطني الجزائرية الجديدة قبل موته (في جرونوبل في ٢٨ أكتوبر ١٩٨٩).

١٨٢ لا يمكن مقارنة ذلك بالانتفاضات التي حدثت في ١٩٦٤ و ١٩٨٥ ضد عبود والنميري في السودان... كانت الإضرابات والمظاهرات تستجيب إلى نداءات لتحقيق الحرية السياسية، أما في الجزائر فكانت تطالب باستيفاء الاحتياجات الاستهلاكية.ويتبقى أن نقول أن الحركة أدت إلى إصدار قانون ينهي نظام الحزب الواحد في ١٩٨٩

هيا يا أصدقائي ! إن تاريخ الشعب الجزائري لم يبدأ إلا من قريب. وسيخلق حتماً أشكالاً جديدة للخروج من هذه الأزمة[183]... ولكن ما زالت توجد مجموعة رائعة من النساء المتعلمات الوافدات من كل مكان... ثم أني أحيي النساء والغناء... وعذوبة الإنشاد الصوفي في أعالي جبال الأوراس، وفي بطن الصحراء الشاسعة... وأنغام الموسيقى الأندلسية في منطقة وهران الجميلة. وألوان الغناء الشعبي في الجزائر العاصمة... ولكن ما زلت أتساءل لماذا كل هذا العنف ؟

183 نتذكر في نوفمبر 1995 الاشتراك الكبير للناخبين في أول انتخابات رئاسية تجرى في الجزائر... رغم تهديدات الجماعات الإسلامية الجزائرية، ثم الإفراج عن المتأسلمين المعتقلين، والخطابات المؤيدة للديموقراطية التي صدرت عن الحزب الإسلامي حماس الذي أصبح أول حزب في المعارضة، ومساندة اتحاد النقابات للأمين زروال، وهي شخصية اشتهرت في الجيش بالنزاهة ... تعترض على ممارسات العملاء ومحبذة للإصلاحات، ينتظر منها أن تكبح متطلبات معينة لصندوق النقد الدولي... كلها أخبار تبعث على الأمل في بزوغ إمكانيات لإدارة الأزمة التي استمرت لما يربو على عقد من الزمن، واصطبغت بصبغة قاتلة ومأساوية... ولكن لم يتوقف البطش والعنف ... وتستمر النخبة من الطبقات المتوسطة في تمزيق بعضها البعض إربا إربا، ويزداد فقر السكان، وهم الذين يدفعون ثمن العنف والثأر. ولكن من الذي يهتم بالسكان في عصرنا هذا ؟

الجزء الثاني

فلسطين

يوجد طريق يوصلنا من الإنسانية عبر الوطنية إلى البهيمية
هذه مقولة لأحد المفكرين من غير اليهود[1]

سار على هذا الدرب الشعب الألماني حتى منتهاه
وهو الدرب الذي وطئناه منذ حرب الستة أيام
يشايا هو ليبوفيتز (ايزكور[2])

ينبغي أن نتوخى الصراحة مع جماهيرنا، لأن عدم الكشف عن الحقيقة كلها هو أسلوب ما لاحتقارهم
أبو أياد (الفلسطينيون بدون وطن)

إني أحلم باليوم الذي يقول فيه الفلسطيني قدسنا ويعني بذلك الفلسطينيين والإسرائيليين، وعندما يقول الإسرائيلي قدسنا ويعني بذلك الإسرائيليين والفلسطينيين
فيصل الحسيني (١٣ مايو ١٩٩٥)

---

١ المؤلف الشاعر الدرامي، الموظف فرانز جريلبارزر ، المولود عام ١٧٩١، في فيينا ... أثناء حكم أسرة هـــابزبورج لإمبراطورية متعددة الجنسيات

٢ اسم فيلم وثائقي بالعبرية

ولكن ... لا يعاد صنع التاريخ !

باريس، أكتوبر ١٩٩٣

بحلول اليوم الثالث عشر من شهر سبتمبر، وهو يوم الاحتفال بعيد ميلاد هنري، تم التوقيع على اتفاقات أوسلو في واشنطن. وبشعور جارف من السعادة، والنشاط -كنت مثل هنري أتفاءل بمثل هذه العلامات المتزامنة...!- اتصلت بالتليفون بالمقربين مني لكي أبلغهم بهذا النبأ وبالمصادفة السعيدة. ولم يكن لهذا الشعور أية علاقة مباشرة بمحتوى الاتفاق، الذي تم التفاوض بشأنه سراً في أوسلو: بل كان الفلسطينيون الذين حبذوا الحوار يعترضون عليه لأنه لم يقدم أي ضمانات لانسحاب إسرائيل من جميع الأراضي المحتلة في ١٩٦٧، ولا ضمن حق عودة لاجئ ١٩٤٨. ومع هذا تطلب الأمر كي نصل إلى هذه النقطة معاناة خمسة حروب، وانتفاضة استمرت عدة سنوات في الأراضي الفلسطينية المحتلة[3]، وحدوث أعمال عنف مميتة من جانب أو آخر، حتى يجتمع العرب والإسرائيليون حول مائدة واحدة في مدريد ثم في واشنطن منذ ١٩٩١، فضلاً عن أن هذه الاجتماعات قطعت الطريق على دور الأمم المتحدة وقزمتها

ويحاول المؤرخون إلقاء الضوء على هذا الوضع المعقد، وتتداخل وتتشابك تطلعات التيارات الوطنية العربية المحلية في محاولتها السيطرة على المنطقة في أعقاب احتضار الكولونيالية، وكذلك المصالح المتنافرة لقوى السيطرة والهيمنة وبوجه خاص مصالح القوى الإمبريالية في تلك الحقبة، ومع ذلك فإنها مسئولية الواحد كما هي مسئولية الآخر فيما حدث من انزلاق إلى الطريق المسدود ...حاملين معهم إلى الهاوية قرار أصدره المجتمع الدولي، وأعده تفصيلاً كل من الاتحاد السوفييتي، والولايات المتحدة الأمريكية دون اعتراض صريح من جانب إنكلترا التي أوشكت فترة انتدابها على فلسطين على الانتهاء. قرار وافق عليه الشيوعيون العرب وهم أقلية، والصهاينة ذوي النزعات الاشتراكية[4] وهم أغلبية – وكان يتنبأ بإقامة دولة عربية ديموقراطية في خضم محيط منطقة تعج بالنظم الشمولية -. ولو طبق هذا القرار لتجنب حدوث ولادة ظاهرة جاءت

---

٣ اندلعت الانتفاضة الثانية التي بدأت عام ٢٠٠٠ بعد نشر هذا الكتاب " بالفرنسية"

٤ صرح المؤرخ الإسرائيلي زيف سترنيل في " جذور إسرائيل بين الوطنية والاشتراكية" –دار النشر فيار١٩٩٦ بما يأتي– *أعلن الآباء المؤسسون .....عدم النجاح في تركيب التيارين لأنهما متناقضين من حيث الأساس... الحركة الوطنية الصهيونية لها شخصية منفردة بينما قيم الاشتراكية هي قيم عالمية، وهناك حقيقة أخرى وهي أن الحركة العمالية التي مارست السلطة السياسية والاقتصادية والثقافية في إسرائيل دون انقطاع منذ ١٩٧٧ (ومجددا من ١٩٩٢ حتى ١٩٩٦ –ثم من ١٩٩٩ حتى صعود شارون إلى السلطة عام ٢٠٠١).* أعطت الأولوية لتحقيق الثورة الوطنية بسيرها في أعقاب البرجوازية ، ووضعت مبادئ المساواة الاشتراكية التي دافع عنها البوند– الحزب الاشتراكي اليهودي الذي تأسس في روسيا ١٨٩٧– في المؤخرة... ولهذا تقلصت تجربة الكيبوتس ذات المنحى الاشتراكي، ولم تتجاوز نطاق القطاع الزراعي.

أفلم تلاحظوا ...تبلور الكفاح المسلح اليوم، والصراع الإقليمي من جديد حول نماذج لكيانات قديمة؟... ولما لا ؟

ولتحدث تحولات... من خلال تطور علاقات السلطة مع هذه الكيانات الإقليمية[١٠] ...!! ليكن ...! قد تختلف أو لا بسبب اللغة مثلا، ولكنها قد تبدو مع ذلك على استعداد للتفاوض، رغم أعمال العنف... !!

وقد لا تعرقل بناء نظام اقتصادي عالمي جديد...؟

وقد تحدث هزة تهدد بانفجار الكوكب بأكمله...!!- قد يعود سببها إلى مجرد الفشل في إيجاد تعريف محدد لعلاقات السيطرة مثلا، أو كنتيجة للكشف عن دور الهيمنة[١١] في عرقلة التنمية- علما بأن كل ذلك لا يفيد إلا في تحقيق الأرباح والمكاسب المالية...!!

إذن من الذي يتحمل المسئولية ...؟

تتحمل الأجيال الحالية هذه المهمة... وهي الأجيال المنوطة بتعريف الأشكال الجديدة من النضال التي تتجاوز- "قد يكون ذلك ممكنا هذه المرة٠٠ شرط توافر إرادة سياسية "- صلاحيات نظام يتولى إدارة نموذج من شأنه أن يزيد بلا هوادة من حجم السكان، والمجموعات المهمشة[١٢]... كما أنها تتحمل مسئولية تقليص النطاق الذي تتفاعل فيه عوامل النكوص، والتقهقر، والانكفاء...

بمعنى آخر تنشيط الاهتمام من جديد ...! بالتاريخ...!!

ولم يكن التباين، وتنوع الأوضاع الإقليمية، ومواجهات الثقافات في نفس الحيز داخل الدولة من الأمور الجديدة على الذين عاشوا أحداث العالم الثالث في الستينات، والسبعينات(وأنا منهم..!) ...ولقد أجبرتهم هذه الأوضاع على الخوض عميقا في محاولة علاج مشاكل التخلف...

وقد استفادت بلدان العالم الثالث -في خضم هذا الازدهار الأيديولوجي التنموي- من صياغة المخططات العشوية التي وضعها خبراء ينتمون إلى هيئات متخصصة، ووكالات تابعة لمنظمة الأمم المتحدة... تمولها قروض ائتمانية من البنك الدولي -وهي من وظائفه الأساسية -!!.

---

١٠ مثل السودان مستقبلا، عندما يتوصل إلى إبرام اتفاق بين الشمال والجنوب لتكوين وحدة أو اتحاد -المترجم

١١ واجهها المشروع الناصري لتحقيق الاستقلال الاقتصادي والتنمية – المترجم

١٢ إن التضخم السكاني أي زيادة الكم العبثي للوجود، وهو نوع من الانقراض الحضاري السلبي وليس الإيجابي ٠٠٠يخضع للتشجيع المؤسسي – رغم التظاهر بالعكس- على الإفراط البيولوجي مما يحد من المنفعة الحدية للإنسان ٠٠٠ويزيد من فرص الطغيان ،والاستبداد-- المترجم

بعد ذلك في صورة ملايين اللاجئين، ومئات الألوف من القتلى، وآلاف الأطفال المصابين بصدمات نفسية انفعالية من جراء عنف المقاومة ضد الاحتلال. وكل هذا بسبب خطأ ارتكبه من يدعون الطهارة، من الصقور في كل مكان. ولكن ... لا يعاد صنع التاريخ!.

بذل زملاء كورييل منذ قرار التقسيم، وفي جميع الحقب جهودا كبيرة لتطبيق قرارات الأمم المتحدة: رقم ١٩٤٧/١٨١، الذي تقرر على أساسه التقسيم، والقرار رقم ١٩٦٧/٢٤٢، الذي أكده القرار ١٩٧٣/٣٣٨، وينص على رفض الاستيلاء على أراضي بالحرب، ويؤيد القرار إنشاء الدولتين على أن تعيشا جنبا إلى جنب في سلام، وعلى حق دول المنطقة في رسم حدود مستقرة ومعترف بها. كما قاد الزملاء المعركة على مستوى القاعدة مع الشيوعيين والقوى الأخرى الحليفة، وفي أحيان أخرى على مستوى القمة مع شخصيات حيثما استطاعوا إلى ذلك سبيلا، ومن مواقعهم أينما وجدت. وبالفعل أيد هنري في إطار هذا النزاع العمل الثوري الذي يحبذ الحوار، والبحث عن حلول توفيقية[5]. ويتبين أن هذا في مصلحة الشعبين والحركات الوطنية في المنطقة بأسرها بدءا بالحركة الوطنية المصرية. ولم يمنع ذلك من أن تستمر المقاومة المسلحة الفلسطينية بغية استعادة أراضيها.

وتتحدث المذكرات التالية عن الجهود التي بذلت، وكذلك عن الفرص الضائعة ...

جنيف، ١٣ أكتوبر ١٩٧٩

أيدت جميع الأحزاب الشيوعية قرار التقسيم بعد اعتماد الاتحاد السوفييتي، واستمر هذا التأييد قبل وبعد إقامة دولة إسرائيل. كما أيدته رابطة الشيوعيين العبريين، وعصبة التحرر الوطني[٦]، المقصورة على العرب وأيضاً فيما بعد الحزب الشيوعي الإسرائيلي – ماكي بالعبرية– والحزب الشيوعي الفلسطيني. واكتسبت حركة –قبل إقامة الدولة اليهودية– اليشوف أي–التوطين اليهودي في فلسطين– درجة كبيرة من الأهمية بحيث لم يكن من الممكن بعد ذلك اعتبارها كتلة غير مميزة متحالفة مع الإمبريالية البريطانية –

---

5 حول استراتيجية الحلول التوفيقية، أنظر مقتطفات النصوص التي لم تنشر لهنري كورييل، بيبل ميديترانيين، إبريل–يونيو ١٩٧٩، الصفحات ٩٧–١٢٤.

٦ فتح الحزب الشيوعي الفلسطيني أبوابه ابتداء من عام ١٩٢١ إلى ١٩٤٣ لليهود والعرب، وكان بطبيعة الحال مناهضا للصهيونية، ويعمل في السر –مثلما كان الحال في مصر– عثرت على وثائقه في لندن، **Public Record office**، وفي القدس(أرشيف دولة إسرائيل، ومركز أرشيف الصهيونية)، وفي تل أبيب أرشيف (أركيون ها أبوضه، وهاجاناه) ،وهي باللغة اليدش والعبرية والعربية وظهرت منظمة جامعة التحرير العربي وصحيفتها –الاتحاد– في عام ١٩٤٣ واستمر الحزب الشيوعي الإسرائيلي في إصدارها حتى اليوم، ولقد عالج رفعت السعيد في مؤلفه " القضية الفلسطينية" الصادر في بيروت١٩٧٤ اليسار الفلسطيني، وللحصول على معلومات حول هذه المسألة ،أنظر المقال بالإنجليزية لأكسن فلورس، " الحزب الشيوعي الفلسطيني أثناء فترة الانتداب" مختصر لمصادر البحوث الحديثة، وصدرت في النشرة الربع سنوية (شعوب البحر الأبيض) في باريس أبريل/يونيو ١٩٨٠ ص ٨٤–٨٧

التي كانت قد قاتلتها– بينما جعل عمق الشعور بالانتماء الوطني العربي واليهودي من احتمالات احتضان مشروع إقامة دولة ثنائية يهودية وعربية مجرد خيال سقيم.

ويظل باقيا من هذه الفترة، حزباً شيوعياً تقبل لوائحه المفتوحة الأعضاء من الجانبين مهما كانت الانقسامات اليهودية العربية بينهما٠٠٠ وهي لم تؤثر على موقفه من التقسيم. وكانت حدتو التي تولدت عن عملية الاندماج في ١٩٤٧ تتخذ نفس الموقف، وعارضت "الحرب التي شنها الرجعيون العرب" في ١٩٤٨. ولكن تبين مع تعاقب السنين أنه لم تعد توجد إلا مجموعة الزملاء المنفيين –بسبب هذه الحرب– يقودها في باريس هنري– هي وحدها الوريث الذي ضمن استمرار الروابط مع الحزب الشيوعي الإسرائيلي. وبرزت أهمية هذا الموقف السياسي٠ ولم تحتاج مجموعة الزملاء في المنفى إلى عمل حساب الالتفاف لتفادي المقاطعة أو قلم الرقيب المسلط دائما. وكان من الواجبات التلقائية التي كلف بها يوسف حزان إرسال جريدة الحزب الشيوعي الإسرائيلي بالعربية (الاتحاد) إلى الزملاء في مصر وأيضا إلى البلاد العربية الأخرى٠

بينما حبذ الشيوعيون التقسيم إلا أنهم اعترضوا على الأيديولوجية الصهيونية المبنية على أسطورة الحق التاريخي للشعب اليهودي في استعادة أراضي الأجداد بكل السبل الممكنة. صحيح، كان هدف إقامة دولة يهودية يعكس حقائق مأساوية، ولم يكن الشروع في إقامة وطن يهودي في فلسطين يعتمد على استشارة أغلبية السكان من غير اليهود في ذلك الحين داخل هذه الولاية العثمانية.

ترعرعت شخصيا في كنف فئة اجتماعية مميزة في مصر، لم أهتم بالقضية اليهودية، ولم أطرح أية تساؤلات. إلا أنه من اللافت للنظر، وكمؤرخة، أذكر ٠٠٠ قاوم الشعب العبري في روما –صلب قادة المقاومة– كما استمرت اليهودية قائمة رغم طرد اليهود[7] من أسبانيا في نهاية القرن الخامس عشر بواسطة الملوك المسيحيين، واستمرت رغم مذابح استئصال اليهود في القرنين السابع عشر والقرن التاسع عشر في بولندا وفي روسيا، ورغم الإبادة العرقية النازية. كما أقول أيضا أن ازدهار اليهودية في الشتات كان ذو طابع مختلف[8]: فتطورت اليهودية السفراد في منطقة حوض البحر الأبيض المتوسط – ولغتهم اللادينو وهي لغة حديث مشتقة من الأسبانية– في أندلس القرن الثامن والثاني عشر– في تعايش وتكافل مع الثقافة العربية، أما في أوروبا الوسطى والشرقية، فلقد ازدهر اليهود الاشكيناز في بولندا التاريخية، التي كانت تضم في ذلك الحين أوكرانيا، – القرن الثالث عشر / القرن السابع عشر– مكونة مجتمعاً منفصلاً، بلغة مشتقة من الألمانية

---

٧ والمسلمون أيضا٠٠٠

٨ الثقافة اليهودية(اليهودية/العربية /والثقافة اليدش) تتجاهلها الدولة اليهودية الجديدة، ومن اللافت أن الصهيونية تقول برفض ماضي الشتات، وترسخ الشعب اليهودي في وطنه التاريخي٠٠٠ أي إسرائيل ، ولكن على أن يتحرر من الفكر الديني الذي يذكره بالشتات ٠٠٠

(البيدش)، في وسط تحف به جموع السكان السلاف. ويجدر ملاحظة أن الأيديولوجية المناهضة للسامية هي التي أفرزت حملات الإبادة العرقية، ومنبعها الفكر الأوروبي، علماً بأن المضمون الإثني، والديني للتيار الوطني اليهودي ازدهر وتطور في بيئة مشبعة بقصص أسطورية، واحتفالات وطقوس دينية، ولم يتمكن في الحقيقة التيار العلماني من التغلب عليها باستثناء مجموعات هامشية حتى اللغة التي اختارتها الدولة اليهودية الحديثة لغة قديمة قابلة للكتابة فقط، وهي اللغة العبرية... لغة النصوص المقدسة، ومع ذلك فلن هذا التيار يمكن مقارنته لتشابه بعض جوانبه مع التيارات الوطنية الأخرى السائدة في المنطقة... وهذا رغم ضبابيته بادعائه الاشتراكية، ولم يكن غريباً استمرار هذا الشعور بالانتماء إلى جالية أو جماعة متميزة في هذه الإمبراطوريات -العثمانية وفي باقي أوروبا الوسطى والشرقية- التي تكونت هياكلها من كيانات اثنيه ودينية. ولقد تحقق التحول والانتقال من الشعور بالانتماء إلى جماعة اجتماعية إلى ظهور وعي وطني يهودي بتأثير الصهيونية السياسية، ولقد انبثقت عن - كما كان الأمر في حالة التيار الوطني المصري- التيار الأوروبي الحديث، بل يلاحظ أنه حتى ذلك الوقت لم تعرف نفسها إلا كجماعة متميزة عن المجتمع الذي تعيش فيه، ولكن مع ذلك لا يعتقد أن اليهود أبدوا أي رغبة في إقامة دولة في الأعوام القليلة التي سبقت نهاية القرن التاسع عشر.

ودفعت قضية دريفوس في نهاية القرن التاسع عشر إلى ظهور رغبة لتجميع من في الشتات في أوروبا. وتفضيلا في فلسطين حيث كان لليهود فيها أول وأطول تجربة تاريخية كدولة مع تقديسهم مدينة القدس. وسهلت الممارسات الكولونيالية التصرف في الأراضي التي أقامت فيها شعوب غير اوروبية...!! لتنفيذ هذا المشروع: علماً بأن المصادفة التاريخية، فضلا عن عمق ذاكرة الاضطهاد، وما صحب ذلك من حملات إبادة عرقية هي التي تكشف السبب الذي جعل اليهود في الشتات يمولون المشروع [٩]

وقاوم الحاخام الأكبر في استنبول -حاييم ناحوم أفندي هذا المشروع، وهو الذي أصبح فيما بعد الحاخام الأكبر في مصر- كما رفضته المنظمات اليهودية في إنكلترا، وفي الولايات المتحدة الأمريكية، التي انتشرت فيها التوجهات العلمانية، فضلا عن ظهور الدعوة للاندماج في المجتمعات المحلية التي أيدتها حركات المثقفين المنطقيين في حركة هاسكالا - كانت قد استلهمتها من الحركة الألمانية "الأضواء"-. ثم جاءت النازية لتكتسح أمامها كل التحفظات: ولكن رغم ذلك تستمر البشرية في المقاومة من أجل البقاء، وتتطلع كل فئة اجتماعية مضطهدة و/أو التي أنزلت إلى مرتبة اجتماعية أدنى إلى الأخذ بزمام مصيرها يوما ما. وفي الواقع تعتبر خصوصية الصهيونية سببا من أسباب صعوبة

---

٩ قامت الوكالة اليهودية بشراء الأراضي بأسعار مميزة وأنشأت المنظمة الصهيونية العالمية (أسسها تيودور هيرتزل) صندوق وطني يهودي عام ١٩٠١ واعتبرت تلك الأراضي من ذلك الوقت فصاعدا من أملاك الشعب اليهودي غير القابلة للتصرف

تصنيفها: فهي حركة وطنية لجماعة مضطهدة مبعثرة الأعضاء، تبشر بالتجمع والحشد وتقوم بنضال من أجل التحرر من بريطانيا في أراض تنازلت عنها ووهبتها هذه الأخيرة، ونولد عن ذلك النضال إرادة حماسية للبناء الوطني في إطار ينحو نحو الاشتراكية – حركة التعاونيات الكيبوتس– وتؤيد تطوير جهاز مركزي نقابي فريد يفتح أبوابه للجميع – الهستدروت–[١٠] وهو بالفعل سلطة قائمة لاتخاذ قرارات عملية وحقيقية وإنفاذها على مستوى الدولة التي تعلن عن كونها جمهورية ديموقراطية، وفي موازاة ذلك تشتري وتستوطن الأراضي رغم إضرار ذلك بالسكان المقيمين عليها، وتعلن عن أحكام قانونية حصرية[١١]، كما تضطهد السكان الذين احتلت أراضيهم بالقوة بفعل الحروب. وقد تفيد الحركة الوطنية الأفريكان[١٢] كنموذج للمقارنة، وإنما في جزئية منها فقط، لأن الأيديولوجية الصهيونية تمجد "عمل اليهودي" بينما أيديولوجيات الفصل العنصري تمثل أداة استغلال قوة عمل الأهالي الأصليين في أفريقيا الجنوبية.

ويلاحظ أن العقيدة الوطنية في مصر لا تعتبر عقيدة عربية[١٣] أصيلة[١٤] ولا هي دينية عقائدية[١٥] والقضية الفلسطينية لا تشغل إلا اهتمام الإخوان المسلمين . صحيح ناضلت منظمات شيوعية ضد الصهيونية[١٦] بل تكونت رابطة مناهضة للصهيونية[١٧] وإنما

---

١٠ تأسس في عام ١٩٢٠ وتتكون قيادته من قيادات عمالية ومن حركة –اليشوف– القيادة الجديدة للدولة اليهودية حتى عام ١٩٧٧.وكان الهستدروت منذ تأسيسه مؤسسة مستقلة ذاتيا سواء في علاقاتها مع القوى المهيمنة للانتداب ، وأيضا في علاقاتها مع المنظمة الصهيونية العالمية. ومن ناحية أخرى لم تضطر الحركة النقابية –كما كان الحال في البلدان الأوروبية –أن تواجه برجوازية نشطة مالكة للامتيازات ، ولا اضطرت إلى التحالف مع قوى اجتماعية أخرى داخل جبهات ... وهي منظمة فريدة من نوعها يملكها أصحاب المرتبات ...ولا تطالبهم بالانحياز إلى الاشتراكية ولا للصهيونية. ولكن لم يحول ذلك دون تحولها إلى منظمة شمولية رغم تطورها، .ويسيطر الهستدروت القابع على قمة البناء الوطني على شبكه خاصة به للخدمات الصحية والتعليمية الابتدائية، ولها تشكيلها العسكري –الهاجاناه–الذي أصبح تساحال –جيش الدفاع –بعد الاستقلال، كما تملك مصرفها المالي. ولكن لم يعتني المجتمع الهستدروتي بالاستحواذ على الإمكانيات التي تمكنه من إحداث نقلة نوعيه ليتحول المجتمع إلى مجتمع يحقق المساواة بين أعضائه، ولم ينجح التيار التثقيفي العمالي في مقاومته وتم تصفيته –...ولم يتبق على الساحة إلا الخطاب الوطني (الذي استلهم من دروس التاريخ والأساطير التي تعتمد على نصوص التوراة، والتنظيرات الصهيونية، ليشكل كيان المجتمع).

١١ تؤدي الأسطورة القبلية التي تنادي بالوحدة الاثنية التي تستند إلى روابط الدم إلى استبعاد من هم ليسوا من اليهود.

١٢ حركة مستوطنون هولنديون أتباع عقيدة كالفن ، رست سفنهم –بعد فرارهم من التعصب الديني في أوروبا– في منطقة الكاب في جنوب أفريقيا في منتصف القرن ١٧ واعتبروا أنفسهم من شعوب الله المختارة.

١٣ لم يشترك في المؤتمر العربي الأول أي مصري ، وهو المؤتمر الذي انعقد في باريس عام١٩١٣

١٤ يعالج هذا الموضوع في الكتاب الثاني في الجزء الخاص بمصر، لنتذكر هنا فقط أن العقيدة الوطنية في القرن التاسع عشر تمثل أيديولوجية رومانسية قوية منتشرة بين صفوف النخبة الأوروبية ، ولكنها تستجيب إلى طموحات العامة ، ولذا عندما يتعلق الأمر ببلد مضطهد يسعى للتحرر من هيمنة ما... وهو ما يؤيده كل من ماركس وإنجلز (مثل ايرلندا في عصرنا هذا)تختلط مفاهيم الانتماء إلى وطنPatriotism ومفهوم العقيدة والأيديولوجية الوطنية Nationalism(يستخدم مصطلح واحد في مصر للإعراب عن المفهومين). ولقد قسمت الدولية الاشتراكية الثانية في ذلك الوقت المجتمع إلى طبقات، وميزت المستغلين عن المستغلين، وهنا حدثت الصدمة التي أثارها العمال الفرنسيون والألمان عندما اظهروا استعدادهم للتقاتل فيما بينهم (حرب ١٩١٤) دفاعا عن الأيديولوجية الوطنية لكل منهم ...!! وألقت الدراسات الضوء على طبيعة الأمة ودورها في التطور التاريخي الحديث للمجتمعات الإنسانية، وهي الدراسات التي ظهرت في

منظمات شيوعية ضد الصهيونية[16] بل تكونت رابطة مناهضة للصهيونية[17] وإنما كان ذلك قبل تأييد الاتحاد السوفييتي للتقسيم، وكانت المساهمات مقدمة من مجموعات ليست لها تأثير كبير. ويذكر ريمون اسطنبولي أن جريدتنا -الجماهير، التي كان يساهم في إعدادها بوصفه قانوني عربي- كانت تؤيد التقسيم قبل منعها من الصدور، ولم يثر هذا الموقف أي عداوة في الأوساط الشعبية -ولم يكن ذلك غريبا على زوج أحد الضباط الوطنيين المعارضين لحرب ١٩٤٨-. إن تأييدنا قد تجاوز النزاع: فلقد تعلق الأمر كما كنت أقول، بإقامة دولة عربية ديموقراطية، إلى جانب دولة يهودية على أن تستغل فيها الأراضي على أساس مشترك جماعي اشتراكي (وفي مصر تسيطر على نسبة ٣٥ في المائة من الأراضي الزراعية نسبة لا تتجاوز ٤ر٠ في المائة من الملاك العقاريين، وأكبر هؤلاء كان الملك فاروق شخصيا- والعمال في إسرائيل منظمين في حركة نقابية مركزية -بينما منعت في مصر-٠٠٠ وكان الدعم بلا حدود، لأن الاتحاد السوفييتي أعد القرار مع الولايات المتحدة الأمريكية للخروج من هذا الطريق المسدود، ووقف نزيف الدم، اخذا بعين الاعتبار حقوق الشعبين في المعيشة في فلسطين ورفضهما العيش في دولة واحدة.

وبتأييد التقسيم تورط الشيوعيون المصريون في قضية لم تكن تعنيهم مباشرة، وتحملوا مخاطر لا حدود لها. وعلى سبيل المثال عندما يرفض أحد الميكانيكيين في الجيش أن يعمل ساعات إضافية محددة كإسهام في المجهود الحربي، أو عندما يشجب أحد الضباط المحتوى الرجعي لفكرة التدخل العسكري أمام الجنود الذين يوجدون تحت قيادته معرضا نفسه للإعدام بالرصاص. كانت هذه الأعمال والمواقف رائعة وسخية.

أما في ميدان القتال فأول من شغلتهم هذه القضية كانوا من الإخوان المسلمين، وبعض الضباط الوطنيين القريبين منهم، وكانوا يتصرفون كأبطال، مثل ناصر الفلوجة. ولكن كل ذلك من أجل ملك يتاجر في الأسلحة الفاسدة التي تنفجر بين أيديهم ... هذا الملعون -كما كان يقول أبوكم بعد عودته من الجبهة- ولعنه الفلسطينيون المضطرين إلى هجر أراضيهم عنوة بعد الهزيمة العربية. فلقد كان على الشعب الذي كان ينتظر إنقاذه أن يدفع بعد ذلك الثمن غالياً: وانتقل قطاع غزة إلى الإدارة المصرية، وألحقت الأراضي الواقعة غرب نهر الأردن"الضفة الغربية" وهي الأراضي المفروض أن كون جزءا من الدولة العربية التي أشار إليها قرار التقسيم بالملك عبد الله وملك إمارة شرق الأردن.

السبعينات والثمانينيات ومنها كتاب ايريك هوبزبون -الأمة والعقيدة الوطنية منذ ١٧٨٠ ، البرنامج وأسطورة الواقع- دار نشر ليمبرج ١٩٩٠

١٥ الذي أصبح الشعار المرفوع " الدين لله والوطن للجميع"

١٦ إيسكرا، والفجر الجديد.

١٧ بمساهمة مجموعة إيزرا هراري.

وبقيام المملكة الأردنية الهاشمية...[18] وجدت الدولة العربية الفلسطينية التي أشار إليها قرار الأمم المتحدة نفسها في طريق مسدود بعد أن فقدت ثلث أراضيها نتيجة التمدد الإسرائيلي -ولولا إصرار الحزب الشيوعي الإسرائيلي على ذكرها في نصوصه لكان مآلها النسيان-. وهكذا أصبح الفلسطيني لاجئا في كل مكان، بل حتى في وطنه، وأصبح غريباً ومنبوذاً. وجرى السم الزعاف في شرايين مجتمعات المنطقة بأسرها.

٢٧ أكتوبر

أدى تعمد الخلط بين الشيوعية والصهيونية عند قيام الحرب، إلى اعتقال الزملاء من أصل يهودي، واحتجزوا في قاعدة عسكرية إنكليزية قديمه حولت إلى معسكر اعتقال باسم (هاكستب) ولم يتمكنوا من مغادرة المعتقل إلا بعد التوقيع على إعلان يقطعون فيه عهداً على أنفسهم ألا يعودوا مرة أخرى إلى الوطن... مصر. وأجبر هنري بعد الإفراج عنه من المعتقل -وهو يحمل الجنسية المصرية- على مغادرة البلاد... واستقل مكرها سفينة متجهة إلى إيطاليا.

وارتبطت في مصر اللجنة المصرية للسلام التي أنشأت في١٩٥٠ بالمجلس العالمي للسلام وأعربت عن مواقف محبة للسلام في مجلتها بالعربية "الكاتب". علما أنه في هذه الحقبة بالذات كان هذا هو موقف الحركة اليسارية بأكملها، ومنها أيضاً مجموعة الراية[19] ورغم موقفها ...قيل أنها تعارض تجنيد اليهود. وفيما يعنيني شخصيا فلقد ناضلت في جميع الميادين الأخرى[20].

وبمحض المصادفة البحتة- لأني وجدت نفسي في ذلك الوقت وكأني أسيرة في منفى من نوع ما...!-وبينما أناضل انذاك مع هنري ومجموعته في باريس، بدأت أهتم بالصراع الإسرائيلي العربي بعد حضور مناقشة عمل مشترك مع أفراد وفد إسرائيلي، وهذا أثناء انعقاد اجتماع المجلس العالمي للسلام في استوكهولم في ١٩٥٤. وكانت مجموعة باريس قد أوفدتني إلى المؤتمر، بعد حدوث الاشتباكات على الحدود بين المصريين والإسرائيليين. ثم ظهرت بوادر الحرب في نهاية عام ١٩٥٣، وقبلت بصفة

---

١٨ تكونت المملكة في ١٩٢٢ على الأراضي الواقعة تحت الانتداب البريطاني شرق نهر الأردن كإمارة شبه قائمة بذاتها، ليحكمها الأمير عبد الله، وهو أحد أبناء الشريف الهاشمي حاكم مكه الذي قاد التمرد على العثمانيين، وقد أصبحت مملكة الأردن بمناسبة حصول الإمارة على الاستقلال عام١٩٤٦، ولم تنفذ هذه الخطوات إلا بفضل حرب ١٩٤٨، وضمت الضفة الغربية، وأعقب ذلك إجراء انتخابات في إبريل ١٩٥٠. واغتيل عبد الله عام ١٩٥١، وخلفه ابنه طلال، ولكنه تنازل عن العرش بعد قليل ليحل محله ابنه حسين، وغزت إسرائيل الضفة الغربية عام ١٩٦٧، ثم تنازل الملك حسين في ٣١يوليو عام ١٩٨٨ عن جميع مطالبه في الضفة الغربية ، وعقد السلام مع إسرائيل في ١٩٩٤.

١٩ نظمها إسماعيل صبري عبد الله وفؤاد مرسي وهو الاسم الذي حملته مجلتهم.

٢٠ أنظر الكتاب الثاني الجزء الخاص بمصر.

مراقب -لم أكن في ذلك الحين عضوا في اللجنة المصرية للسلام - وكان ذلك بتزكية من توفيق طوبي[٢١] وإميل توما[٢٢] والاثنان من المسيحيين العرب من حيفا، أعضاء في اللجنة المركزية للحزب الشيوعي الإسرائيلي، ومندوبين في الكنيسيت. وحتى نتمكن من التفاهم فيما بيننا كنا نستخدم خليطا من العربية والإنكليزية، بينما كان يتحدث طوبي وتوما إلى أعضاء وفدهم الآخرين باللغة العبرية.

واختلط الأمر على أحد القساوسة الكنديين المشهورين، الذي كان جالساً في الصف أمامنا، عندما علم بأننا من مصر ومن إسرائيل، وتحدث عنا في بيانه الذي ألقاه بعد ذلك من المنصة: وأشاد بنا واعتبرنا مثالا للتآخي- دون أن تساوره ريبة في أنه ارتكب خطأً، لأن المفهوم السائد في العالم في ذلك الحين يرفض أن يسمح للمصرية، وهي أنا، وللعربي توما وطوبي وهما إسرائيليان بالإعلان عن مثل هذه المشاعر.

ولم تؤد التقارير والتوصيات التي أعدها هنري وأرسلها إلى المكتب السياسي لحدتو -تناولت أهمية إقامة العلاقات بين الديموقراطيين في مصر وفي إسرائيل- إلى أي نتيجة ملموسة. كما لم تؤد أيضاً إلى أي نتيجة ملموسة محاولة تشكيل "لجنة السلام" في باريس، وكانت قد تكونت أساساً من أعضاء في مجموعة روما منهم محرم، وزميل سوداني[٢٣] وأيضاً ويا للمعجزة... شابة إسرائيلية أنهت تدريبها وخدمتها العسكرية، وكانت تتابع دورة دراسية في باريس، وكانت هذه اللجنة أيضا على نفس مستوى الخيالات التي تمسكت بها "لجنة الجبهة الوطنية"[٢٤].

وغير وصول المتر يوسف حلمي من الوضع القائم.

وهو السكرتير العام وأحد مؤسسي اللجنة المصرية للسلام، ولم يكن فقط محامياً مشهوراً، بل كان شخصية ملتهبة حماسا وطنياً مستنيراً، وعضواً في الحزب الوطني.الذي أنشأه الوطنيون الأوائل، المتخرجين من كلية الحقوق في نهاية القرن التاسع عشر، وكانوا ينادون باستقلال مصر الرازحة تحت الاحتلال البريطاني .ويوسف حلمي ذو تقاليد ثورية، وبطل من أبطال التيار السياسي الليبرالي، معارضاً بلا انقطاع... وباستمرار في السجن. وأعتقل أثناء حكم الملك فاروق بعد حل اللجنة المصرية للسلام التي كانت تعد مؤتمراً يجمع بين مندوبين مصريين وإسرائيليين، وذلك في إطار الأحكام العرفية المفروضة بعد حريق القاهرة. ومرة أخرى، وتحت نظام حكم عبد الناصر ولا سيّما بمناسبة النضال من أجل عودة الحياة البرلمانية، أعتقل من جديد وهرب من المثول أمام

---

٢١ وهي شخصية مشهورة على الصعيد الوطني.
٢٢ توفي أخيراً، وكان منظر الحزب.
٢٣ عدنان أبو سينا الملقب بمارسيل.
٢٤ أنظر الكتاب الثاني الجزء الخاص بمصر.

المحكمة العسكرية -كانت أحكامها تتفاوت بين خمسة إلى عشر سنوات أشغال شاقة- وانتقل سراً إلى أوروبا. وقد تمكن من ذلك باستخدام أوراق شخصية مزيفة -ويحمل عصاه الشهيرة التي كانت جزءا مهما من الشخصية التي رسمها لنفسه- كما تمكن بعد ذلك من العودة إلى حياته العامة وممارسته النشاط السياسي العلني. فما كان بوسع يوسف حلمي أن يستمر في نشاط نضال سري، دون أن يصيبه الاختناق ...والإعياء .

جنيف، ٢٩ نوفمبر ١٩٧٩

اكتشف عبد الناصر في باندونغ[٢٥] قوة معسكر "الحياد الإيجابي" واعتمد عليه لتحديد ورسم سياسته الخارجية. وكان هذا المعسكر يعترض على عقد الأحلاف العسكرية مع القوى العظمى، ويحبذ التسوية السياسية للنزاعات بين الدول. وقدم عبد الناصر باسم الوفود العربية قراراً يتسق مع القرار الذي أصدرته الأمم المتحدة، من أجل تسوية القضية الفلسطينية. ويكرر هذا الموقف في مقابلة صحفية مع مجلة نيوزويك الأمريكية، وأعيد نشره، وهذا مهم، في الجريدة المصرية اليومية الجمهورية (في ١٩٥٥/٥/٢٣)، صحيح أنها شبه رسمية، ولكنها خاضعة مع ذلك مثلها مثل بقية الصحف إلى قلم الرقيب.....!! وصحيح ألقي الشيوعيون الفلسطينيون في غزة في غياهب السجون[٢٦] المصرية. ورغم ذلك كان من الضروري تعظيم الاستفادة من هذا الباب المفتوح. واغتنم يوسف حلمي بكل طاقته بصيص الأمل هذا: وتوجه مباشرة متحدثاً إلى الشعب الإسرائيلي منادياً إياه إلى السلام، مؤكداً بأن اتفاق شراء الأسلحة مع تشيكوسلوفاكيا (سبتمبر ١٩٥٥) كانت صفقة دفاعية بحتة، كما أرسل خطاباً يحمل انتقادات موجهة إلى الرئيس عبد الناصر، يطالبه فيه بالالتزام بسياسة فعالة تأييداً للسلام، وفقاً للقرار الذي صدر عن مؤتمر باندونغ. ويحمل النصان تاريخ ١٠ نوفمبر ١٩٥٥. كما نشر نداؤه إلى الشعب الإسرائيلي في الصحيفة اليومية بالعربية(الاتحاد) التي يصدرها الحزب الشيوعي الإسرائيلي في ١٩٥٥/١٢/٦.

وكانت كل الآمال المعقودة ممكنة التحقيق، لأنه فضلاً عما تقدم أقام وسطاء شبه رسميون جسراً بين عبد الناصر وناحوم جولدمان (رئيس الكونجرس اليهودي العالمي) وموشى شاريت وكان في ذلك الحين (رئيس الوزراء العمالي)، وهو من القادة الصهاينة

---

٢٥ مدينة في إندونيسيا عقد فيها من ١٨ – ٢٤ إبريل ١٩٥٥ مؤتمرا تاريخيا حضره ٢٩ بلدا من بلدان العالم الثالث من آسيا وأفريقيا وتبنت سياسة مشتركة مناهضة للاستعمار، ومن أجل التعاون الاقتصادي والاجتماعي والثقافي، وحضر المؤتمر قادة الحركة ورؤساء الدول: نهرو (الهند)، وشو إن لاي (الصين)، وسوكارنو (إندونيسيا)، واتكأ عبد الناصر على هذه القوة الجديدة من أجل تأميم شركة قناة السويس العالمية عام ١٩٥٦.

٢٦ بلغ عددهم ٦٨ من بينهم، الشاعر معين بسيسو، الذي كان مسجونا في القاهرة (٧٥٠ شيوعي مصري)، وقامت مجموعة باريس بالعناية بأسر المسجونين والمعتقلين وذلك باتصالها بالخط المفتوح ...الزميلة ميمي كانيل المسجونة.

القليلين الذين يتحدثون اللغة العربية، ومن الدارسين للحضارة العربية، وكما كان الحال مع ناحوم جولدمان، فلقد أدرك أهمية الشعور الوطني العربي الفلسطيني -كما كان الأمر في نفس الحقبة عندما كان المثقفون الفرنسيون على إدراك تام بأهمية الشعور الوطني الجزائري-. ولن أنسى ما حييت مدى ما شعرنا به من حماس جارف -يوسف حلمي، ومحرم وأنا- عندما جلسنا وآذاننا ملتصقة بالراديو، وإذ بنا نسمع أحد الصحفيين وهو يردد الجملة الشهيرة التي صدرت عن بن غوريون، *لم نكن ننوي أبدا أن نخوض الحرب من أجل الغرب"*، وتبعه بعد ذلك إعلان عبد الناصر بأن هذا الموقف إنما يثبت أن السلام مع إسرائيل أصبح أمراً ممكناً. ونعلم بالطبع ما آل إليه الوضع. وتأرجح في الفضاء مشروع المؤتمر الدولي الذي كان يرعاه روبير بارا، وكلود بورديه، وكلود مورجان، وبيير كوت، وإيمانويل داستبيه دى لا فيجري، وجان بول سارتر، وسيمون دي بوفوار، وفي إنكلترا، مايكل فوت ولورد فينر بروكويه، رئيس حركة التحرير من الكولونيالية ... وتوجد القائمة الكاملة في ملفاتنا[27].

ولكننا ... لا نعيد صنع التاريخ! .

وازدادت الاتهامات الموجهة ضد عبد الناصر لسلوكه مسلك الشيطان ...؟ إلى درجة أن حزب المبام رغم أنه كان متعاطفا مع قرار التقسيم، وكثيرا ما كان حليفا للماكي[28]، وافق في نهاية المطاف على العدوان المسلح. وصحيح- وهذا لأول مرة في التاريخ- فشلت حملة كولونيالية -العدوان الثلاثي- من الناحية السياسية. ولكنها لم تؤد إلى تحقيق السلام.

وصعد بطل آخر إلى القمة. في صورة الأستاذ يوسف حلمي... وهي من الشخصيات التي أحببتها بكل جوارحي: فلم يكن يدافع فقط عن نفس القيم العزيزة علي، بل كان يصدر عنه دفق من المشاعر الحارة حتى أني تمنيت أن يستمر الزمن بصورة أبدية. وكان ضخم الحجم، قوي، جذاب، ذو مزاج معتدل، يسمع صوته الجهوري ولكن هذا لا يقلل من رقة الشخصية نفسها، فكان صوته صوت يوسف وهبي ولكن بعد صقله (أعني يوسف وهبي). وكغيره من المحامين الكبار -مثل خطباء الثورة الفرنسية- كان يجيد تقمص حركات الشخصيات المسرحية المعروفة وهي بالأحرى مأخوذة عن المسرح الدرامي لأورسن ويللز، وكانت نبرات خطاباته -بلغة عربية لم أستوعبها تماما- تولد فينا الإعجاب الشديد. يا إلهي كم أحببت أيام الأحد عندما نجتمع فيها بعد اجتماع الصباح عند

---

٢٧ المعهد الوطني للتاريخ الاجتماعي بامستردام- International Institute for Social History
http://www>iisg>nl

٢٨ وهو الحزب الشيوعي الإسرائيلي قبل الانقسام.

يوسف حلمي- محرم وأنا ونحن أعضاء بلا أسر- في مجموعة باريس، لتذوق طبق من الملوخية. فلقد كان يجيد الطبخ. وكالساحر كان ناجحا عندما يضيف مذاقاً خاصاً يذكرنا بالوطن... يضيفه إلى ذلك المسحوق الكريه الذي كان يصلنا من مصر في أكياس صغيرة جداً.[٢٩] وقبل أن أعرفه، لاحظت ما تكنه زوجه ساميه راشد من احترام وإعجاب لشجاعته السياسية، وتعكس تقاطيع وجهها صور الرسوم الفرعونية المنحوتة على جدران المعابد . وتثير فينا مشاعر عميقة لحماسها عندما تشجب في المؤتمرات الدولية الاضطهاد في مصر ، فكانت تستثير حماس المستمعين حتى يقفوا ليصفقوا لها، والكثير منهم يحمل في يده منديلاً ليجفف به دموعه. توفيت بعد إصابتها بأزمة قلبية في بداية الستينات وبعد أن شاهدت يوسف حلمي منقولاً على محفة. أما هو فقد توفي بعدها بقليل بمرض السرطان. وكان ذلك قبل حرب يونيو ١٩٦٧.

وأدى الانفصال في ذلك التاريخ بين العرب واليهود إلى حدوث شرخ في صفوف الشيوعيين الإسرائيليين: وأصبحت في ١٩٦٥ "القائمة الشيوعية الجديدة" راكاح التي تؤيد مائير فيرنير وتوفيق طوبي أغلبيتها من العرب، بينما لم يضم "الماكي القديم" بين صفوفه إلا اليهود ، المؤيدين للعدوان العسكري في ١٩٦٧.

وأحتفظ أنا ومحرم بذكرى مريرة بسبب عدم تمكننا من الانضمام إلى المظاهرات الغاضبة التي ملأت الشوارع عندما أعلن عبد الناصر تنازله: بينما قامت المظاهرات في الجزائر ضده ولم تؤيد بقاؤه في السلطة على عكس الحال في القاهرة. وحدث العدوان -وكان ديغول رجل الدولة الغربي الوحيد الذي شجبه- بعد أن نادى عبد الناصر بتبني مشروع اشتراكي، دعمه الشيوعيون والتقدميون العرب. إلا أن الحجج التقليدية التي نادى بها حكام إسرائيل "الحفاظ على أمن الدولة" كانت قد غذتها تفاقم المزايدات الوطنية العربية التي تنادي بإلقاء إسرائيل في البحر، وكان عبد الناصر قد طلب من قوات المراقبة التابع للأمم المتحدة بشرم الشيخ الانسحاب وأغلق خليج العقبة في وجه حركة السفن الإسرائيلية، وانضمت الأردن والعراق إلى الحلف العسكري المصري السوري. وكان القائد العسكري الإسرائيلي يعلم تماماً أن هذه الخطوات ما هي إلا مجرد خدعة،[٣٠] ولكنه مع ذلك اغتنم الفرصة واحتل شبه جزيرة سيناء وغزة، ومرتفعات الجولان والضفة الغربية. ولأول مرة في تاريخ إسرائيل أصبح مناحيم بيجين، وهو من اليمين التوسعي، عضواً في مجلس حرب.

---

٢٩ اليوم بفضل الثلاجات، يصلنا مسحوق الملوخية الطازج وفي أكياس محكمة القفل.

٣٠ تأكد ذلك بعد أن أشار إليه الجنرال المتقاعد ماتي بيليد الذي اشترك في حرب ١٩٦٧.

كما استرشد الماركسيون بنظرية نادى بها-حجبت حتى ذلك الوقت عن الغـــرب- الاقتصاديون في أمريكا اللاتينية، بعد أن استيقظوا فجأة على الخراب الـذي تركتـه فـي أذيالها "المعجزة البرازيلية" ، وما ترتب على ذلك من آثار محرفة... وانتقدوا هوس النمـو في غياب تنمية... وألمحوا إلى افتقار المنتجين بسبب غبن...! معدلات التبادل التجـاري غير المنصفة على اتساع نطاق السوق العالمية، وتوجه التدفقات المالية نحو الشمال مـن خلال قنوات خدمة الدين، ودعم الديكتاتوريات بتحديث الجيوش، ووسائل القمع الأخـرى، علما بتحقق كل هذا -مهما كانت التوجهات الأيديولوجية للسلطات الحاكمة- على حسـاب البرامج الاجتماعية والاقتصادية.

كما طالب هؤلاء الاقتصاديون- حتى في ذلك الوقت- بتنشـيط عمليـة التحـول الاجتماعي بواسطة إقامة نظام اقتصادي دولي جديد.

وتطول قائمة الجنوح...

لاسيما عند العودة دون تفكير جدي إلى العمل بمبادئ نظرية ظهرت عـام ١٩٢٨ (مؤتمر الكومنترن السابع) ونعني بذلك نظرية طريق التنمية غير الرأسمالي[١٣]، ثم سـباق محموم لبناء صناعة ثقيلة على حسـاب مصـالح الجماهير العريضـة فـي المنـاطق الزراعية... مما أجبر عددا كبيرا منهم على هجر الزراعة، والتكدس في عشش الصفيـح الملتصقة كالسوار بالمدن الكبرى الجديدة.

وأخيرا... صورة سريعة ...!

رغم أدلجة الاقتصاد الذي صاحب مجانية التعليم، والعلاج الطبي المجاني، ودعـم الدولة للسلع الأساسية -حتى لا تمس الضرورات- وتوفـير فـرص العمالـة لحـاملي الدبلومات ...!! أدى كل ذلك إلى انتفاخ كبير في صفوف الفئات الاجتماعية المتوسـطة... وإلى ظهور نزعة أخلاقية قانونية...تطالب بتحقيق العدالة!!

وكانت هذه النزعة بمثابة المضمون الذي تكونت منه السياسة التـي وقفـت ضـد استخفاف الأجهزة السرية الغربية -في ذلك الوقت- بما تقترفـه مـن جرائـم (اغتيـال السياسيين في العالم الثالث... تدخل الولايات المتحدة الأمريكيـة المسـلح فـي أمريكـا اللاتينية، وحرب فيتنام)،

---

١٣ لنقل التجربة الناصرية ، التي حاولت حل القضايا الوطنية الأساسية

ويكشف أبو إياد، وهو المناضل والمقاتل المستنير[٣١]، في مقابلاته مع إيريك رولو أنه بعد النكبة العربية، أرادت فتح[٣٢] وأيدها كل من، فيصل، وبو مدين، وعبد الناصر، أن تشعل نيران مقاومة مسلحة مستقلة ذاتيا لتحرير الأراضي الفلسطينية. وكان هذا الوضع يفتقر إلى اتفاق نزيه بين الأردنيين والفلسطينيين. وبعد توجيه بيان إلى الشعب الإسرائيلي يعلن عن قبول التقسيم وكما ذكر لنا أبو إياد ...أعد القدومي تقريرا، إلا أن حركة فتح كانت تفتقر بشكل كبير في ذلك الوقت إلى المؤيدين، ولم يجرؤ عرض الموضوع للمناقشة. ونعلم ما حدث بعد ذلك: مذبحة الفلسطينيين التي نظمها الأردنيون في ١٩٦٠ – ١٩٧١، مما أدى إلى استفحال مرض السكر الذي أودى بحياة عبد الناصر -وإني متأكدة بأن مشاعره تجاه هؤلاء الثوريين كانت تعكس ما كان يكن لهم من حب عميق- وحدثت سلسلة من العمليات المثيرة القاتلة[٣٣]، استهدفت لفت انتباه المجتمع الدولي، ثم قصف الإسرائيليون مخيمات اللاجئين (في لبنان وفي الأردن وفي سوريا) ومنها يأتي معظم المقاتلين. وإذا كان الهجوم المصري السوري في أكتوبر ١٩٧٣ (لاستعادة سيناء والجولان) قد أحدث صدعا في أسطورة "تساحال الذي لا يقهر"[٣٤]، ورفع ذلك من الشعور بالكرامة العربية ...إلا أنه في نهاية المطاف لم يحل شيئا: بعد أن عبرت القوات الخاصة المصرية خط بارليف على قناة السويس "دربهم السوفييت"، قلبت إسرائيل الموقف رأسا على عقب[٣٥]. ولكن الحظر النفطي العربي كان قد مس وهدد المصالح الغربية، وأثر على الانتخابات الإسرائيلية التي جرت في ديسمبر ١٩٧٣ والتي حصل فيها راكاح على أربعة مقاعد في المجلس التشريعي، ومن بين أمور أخرى، حصل على رئاسة بلدية الناصرة، عاصمة العرب في إسرائيل.

---

٣١ أنظر: الفلسطينيين دون وطن: مقابلات مع إيريك رولو، باريس ١٩٧٨، اغتال الموساد أبو اياد في قرطاجنة في تونس في يناير ١٩٩٠.

٣٢ ترتيب لحروف ترمز إلى (حركة التحرير الفلسطينية) التي نظمت في الكويت.

٣٣ عمليات اختطاف، اعتداءات (قتل إحدى عشر رياضي إسرائيلي كانوا قد سافروا إلى ميونيخ للاشتراك في الأولمبياد في سبتمبر ١٩٧٢) وهي مذبحة قام بها القناصة من قوات الأمن الألمانية بضغط من جولدا مائير رغم أن اتفاق تم التوصل إليه لمواصلة المفاوضات لتحريرهم بعد نقلهم إلى مصر (أنظر مذكرات أبو داوود، وهو المنظم مع أبو إياد لعملية الاختطاف وذلك في كتابهم: فلسطين من القدس إلى ميونيخ – طبعة باريس ١٩٩٩).

٣٤ جيش الدفاع الإسرائيلي.

٣٥ كثر الحديث عن خيانة (أو سطحية) السادات، الذي يقال أنه أوقف الزحف المصري المتقدم قبل الاستيلاء على الممرات في شبه جزيرة سيناء...!؟

التعامل من أعلى ... !

مایاك[٣٦]، أغسطس ١٩٩١

تركز اهتمام الأمميين أثناء أعوام ١٩٦٤-١٩٦٧، على أشكال النضال الجديدة من أجل التحرير التي انتشرت في أمريكا اللاتينية[٣٧]، وحدث أن تحول الشيوعيين إلى وطنيين في العالم العربي دون أن يلتفت إلى ذلك أحد... ولقد كنت في الجزائر وهو مركز تفكير الوطنيين العرب، متأثرة بأيديولوجية الوحدة العربية[٣٨]، التي قام هنري بتطوير (في مقال له) إمكاناتها المناهضة للإمبريالية ومحتواها التقدمي، دون أن يعتبرها مع ذلك حلا لإشكالية الاشتراكية في المنطقة. لا أتذكر حججه، ولكن العالم العربي على أية حال يمثل كتلة جيوسياسية قابلة للفهم: فهو يتمسك بمجموعة إقليمية لغوية[٣٩]. وتظل مع ذلك مشكلة النزاع مع إسرائيل. وكان الشيوعيون وحلفائهم حتى العدوان الثلاثي في ١٩٥٦ يؤيدون حلاً توفيقيا (ولو أن إسرائيل مختلفة لغوياً إلا أنها قد تستطيع في ظل ظروف أخرى أن تصبح عاملاً ثقافياً مثريا). وبينما كان غالبية الزملاء في غياهب السجون حتى نهاية ١٩٦٣، ضعفت في مصر كما كان الحال أيضا في الجزائر (وكانت قيادة البلدين في ذلك الحين في طليعة العالم العربي)، قوى الشيوعيين بسبب الضربات المتلاحقة التي وجهتها لهم السلطة الوطنية. ومن ناحية أخرى، عندما عثروا فيما بعد على ذكر لمشروعهم بل أيضا مفاهيمهم (مثل مفهوم النضال الطبقي المعترف به في الميثاق الوطني المصري الصادر في ١٩٦٣، وإعلان الاشتراكية في مؤتمر جبهة التحرير الوطني الجزائرية في ١٩٦٤) انضم الشيوعيون فرادى إلى الحزب الواحد القائم، وفقدوا بذلك استقلاليتهم في العمل والتفكير الثوري.

---

٣٦ قرية في جنوب فرنسا عكفت الكاتبة على تدوين مذكراتها فيها.

٣٧ حقبة ثوار ستانلي فيل والإعداد لمؤتمر القارات الثلاثة بإسهام بن بركة.

٣٨ الوطنية، أيديولوجية، ولذلك لا تعتبر سرمدية.. قابلة للتغير ...في فترات المد الثوري ضد الإمبريالية تصبح إيجابية، وتفقد جذوتها في فترات أخرى وقد تتخذ شكلا من أشكال الشوفينية ولذا ينبغي العمل على متابعة قياس ثوريتها لرسم السياسات-المترجم

٣٩ مصطلحات مثل الجنسية/والوطن/ والعقيدة الوطنية/ والشعوب تفتقر كلها إلى مضمون محدد دقيق. ولقد بذل المنظرون الاجتماعيون الديموقراطيون في الامبراطوريه النمساوية الهنغارية جهودا في هذا الاتجاه (أسرة هاسبورج). أما داخل الحركة الماركسية فلقد اتجه التنظير إلى دعم الاستراتيجيات الطبقية...! وكان التعريف الذي أورده ستالين ينحو نحو التبسيط المفرط "*إن الأمة مجتمع إنساني مستقر، تكون تاريخيا، وقاعدته مبنية على وحدة اللغة، والأرض، والحياة الاقتصادية، والتكوين النفسي، ويعكس شراكه ثقافية*" (انظر أعمال جورج لبيكا وبن صوصان-قاموس الانتقادات الموجهة إلى الماركسية-دار النشر الجامعية، فرنسا ١٩٨٢).

وأضيفت إلى تلك المصطلحات مصطلحات أخرى مثل الإرهاب والمقاومة المسلحة -والفداء والشهادة لم يجتمع الرأي بعد على معنى محدد لها - المترجم

وكادت اطروحات المنظرين الماركسيين العرب[٤٠] والسوفييت الذين وصفوا الفرق العسكرية الموجودة في السلطة "بالديموقراطيين الثوريين"، أن تعتبر أن هذه الفئات الوسيطة في المجتمعات التابعة القديمة، تلعب دوراً خاصاً بسبب ضعف الطبقتين العمالية والبورجوازية، وأن نجاح الثورة الوطنية يعتمد على التيار الثوري في الجيش، ومن حيث الخط العام يتناول برنامج الحزب الواحد برنامج الشيوعيين. وكانت هذه الفترة من الفترات العظيمة التي ظهرت فيها برامج الأمم المتحدة للتنمية يدعمها الاتحاد السوفييتي. إذن من الذي كان بوسعه أن يفكر في ذلك الوقت في طرح السؤال حول إقامة علاقات بين الشيوعيين العرب والإسرائيليين ؟ وهذا شاهدناه من قبل، فقد انقسم إلى حزبين، أحدهما يهودي حصراً[٤١]، والآخر الذي نقيم ونحافظ معه على علاقات، وهو راكاح[٤٢]، مفتوح بابه للجميع، ولكن أغلبية أعضاؤه من العرب، مما يؤدي إلى تهميشه في المجتمع الإسرائيلي. بل تحول اهتمام هنري نفسه عن القضية الفلسطينية إلى الاهتمام بقضايا أخرى، وتوقف عن الحديث عنها.

واستجابة لرغبة أعرب عنها عبد الناصر عاد مرة أخرى ليهتم بهذا الصراع. ولكن من ذلك الوقت فصاعداً كانت الاتصالات تتم من أعلى.

وتتناول المذكرات التالية المذكرات التي أعددتها مع هنري حول القضية:

وفي الجزائر حيث لم أتعرض لخطر مقابلة الإسرائيليين أو الفلسطينيين المؤيدين للحوار !، قمت بشرح القضية لـ "فيكتور"، وهو زميل سوفييتي، وبينت له أهمية دعم التيارات التي تخاطر بالإعلان عن ضرورة عقد المقابلات للحوار.

وتختلط هذه المذكرات كما في كتابات أخرى مع مجموعة من الذكريات الشخصية.

الأحد ٢ ديسمبر ١٩٧٩

لدى وصولي إلى باريس في سبتمبر ١٩٧٦، بعد الانتهاء من إعداد الجزء الأخير من أطروحتي التي كان علي أن أسلمها إلى مديرة البحث، اتصلت فوراً بـهنري، وكان هنري يركز اهتمامه أساساً على قضية السلام في الشرق الأوسط. وامتلكت القضية جوارحه بالكامل منذ أن استأنف أحمد حمروش، وهو "ضابط من الضباط الأحرار القدماء" وزميل هنري[٤٣]، الاتصال به في ١٩٦٩[٤٤]، وبموافقة عبد الناصر، وهذا للمساهمة

---

٤٠ باستثناء قيادة الحزب الشيوعي السوداني الذي فقد في هذه الآونة عدد لا بأس به من الكادر (انظر الكتاب الثاني).

٤١ وهو ماكي القديم، الذي انتهى بالاختفاء.

٤٢ بالعبرية "القائمة الشيوعية الجديدة".

٤٣ كان مسئولاً عن قطاع الجيش في حدتو.

في تمهيد الطريق للحوار مع الإسرائيليين، بوساطة فرنسا. وكانت اتصالات المنظمة التي يقودها هنري (التضامن) مع الأوساط الديغولية معروفة كما أن منظمة التضامن كان لها موقفاً مؤيداً لحل القضية الفلسطينية منذ ١٩٦٧.[٤٥] ولدى الاتصال بليو هامون، وزير الإعلام في وزارة ديغول، اقترح عقد مقابلة بين الإسرائيليين والمصريين في باريس، تحت رعاية وزير فرنسي. وقبل عبد الناصر هذا المقترح. وإنما رفضته جولدا مائير. وبعد مضي عام رفضت أيضاً أن يقوم ناحوم جولدمان رئيس المنظمة الصهيونية العالمية (المحبذة لعقد تفاهم إسرائيلي عربي) بزيارة القاهرة، على إثر دعوة وجهها له عبد الناصر، وذلك بحجة أن الحكومة الإسرائيلية لديها قنواتها الخاصة للاتصال مع القادة المصريين. ومن ثم، ودون أي تفسير أو شرح، وافقت على مقابلة حمروش. ورفض حمروش الاستمرار بعد أن حذره هنري من احتمال وجود مناورة (وعندما ذكر لي هنري هذه القصة، كان لا يزال قلقاً لعدم تأكده من صحة ما أشار به).

ومع ذلك كانت الاتصالات التي نظمت بين حمروش واليسار الصهيوني مثمرة. ولا سيّما مع شخصيات أغلبها مستقل. مثل أمون كابيلوويك، مراسل لموند والمعقب المسموع، وناتان يالين- مور من القادة القدماء لمجموعة شتيرن[٤٦]، والذي أسس مع يوري أفنيري "منظمة العمل السامية"، وسمحه فلابان مؤسس ورئيس تحرير نيو أوت لوك[٤٧]، وعضو المكتب السياسي لحزب المبام، والمحرر المساعد للعدد الخاص حول الصراع لمجلة تون موديرن، وأموس كينان، الذي شارك أثناء "النضال من أجل التحرير" ضد المحتل البريطاني والمندفع إلى الأمام كالصاروخ وبلا كلل في جميع المقابلات والمظاهرات ضد مصادرة الأراضي العربية، وضد التمييز العنصري أو الاحتجاز السياسي. وأجري اتصالا مع خالد محي الدين بوصفه السكرتير العام للجنة المصرية للسلام، لعقد مؤتمر في بولونيا. إلا أن عبد الناصر توفى في سبتمبر ١٩٧٠، وألقى السادات القبض على اليسار الناصري في مايو ١٩٧١، ووضع خالد رهن الإقامة الجبرية. وعندما انعقد المؤتمر في نهاية الأمر في مايو ١٩٧٣، لم يحقق النجاح المتوقع.

ونفذ التحول السياسي الهام في١٩٧٤. اعترف سكان الأراضي المحتلة بمنظمة التحرير الفلسطينية وعلى رأسها عرفات بصفتها الممثل الوحيد الشرعي للشعب

---

٤٤ قبل مغادرة الجنرال ديغول.

٤٥ لنتذكر في الخرطوم (سبتمبر ١٩٦٧) عندما أعلن رؤساء الدول العربية عن موقفهم فيما يتصل بإيجاد حل سياسي للنزاع (مع استبعاد الاعتراف بالدولة اليهودية)، وفي نوفمبر ١٩٦٧ أيدت مصر والأردن ولبنان على أية حال القرار ٢٤٢ الصادر عن مجلس الأمن الذي ضمن أمن والاعتراف بدولة إسرائيل في مقابل استعادة الأراضي المحتلة.

٤٦ مؤلف كتاب حول المجموعة، نشرها دار بريس دي لا رينيسنس، باريس ١٩٧٨ (عقدنا اجتماع معه عشية اغتيال هنري).

٤٧ نشرة دورية بالإنجليزية لليسار الصهيوني في إسرائيل، امتد تأثيرها إلى اليهود الموجودين في الشتات الأمريكي.

الفلسطيني، وأعلن رؤساء الدول العربية الحاضرين في مؤتمر الربـــاط. وأثنـــاء انعقـــاد المجلس الوطني الفلسطيني في القاهرة في يونيو عن "سيادة السلطة الوطنية على كل جزء من الأراضي المحررة"[48] واكتسبت المنظمة في نوفمبر صفة المراقب في الجمعية العامـــة للأمم المتحدة، واستقبل عرفات بكل مظاهر الحفاوة والتكريم . أما في الأراضي المحتلـــة فتأسست "الجبهة الوطنية الفلسطينية" في أغسطس ١٩٧٣ - تضم بين صفوفـــها أحزابـا سياسية، وشخصيات سياسية واجتماعية وأعيان ... الخ، واشتركت في العمـــل السياســـي وأصبحت جزءاً لا يتجزأ من منظمة التحرير الفلسطينية.

واندلعت الحرب في أكتوبر.

وأعيد النظر في ١٩٧٦ في المشروع بمناسبة عقد مؤتمر دولي حضـــره يوســف حزان، ورفعت السعيد الذي كان في ذلك الوقت يعمل في مجلس الســـلام العـــالمي فـــي (هلسنكي)، وعبد الله حوراني عضو حركة السلام وعضو قيادة منظمة التحرير الفلسطينية (الذي كان قد حضر مؤتمر بولونيا). ويعلم الجميـــع أن وعـــوداً كثـــيرة تصـــدر أثنـــاء المؤتمرات...!! إلا أن حزان جعل من هذه المسألة شاغله الأول، ونلاحـــظ أن ظـــروف التوصل إلى حل توفيقي نضجت بفضل متابعة (أبو خليـــل، منـــدوب منظمـــة التحريـــر الفلسطينية في السنغال)، ولصدور قرارات. وتعلق الأمر في البداية بتنظيـــم مقابلـــة فـــي جنيف تجمع حوالي خمسة عشر إسرائيليا (أغلبهم من غير شيوعيين بغية توســـيع نطـــاق المناقشة العامة) وثلاثة فلسطينيين (الدكتور عصام السرطاوي، المكلف بـــالحضور إلـــى باريس للتحضير للاجتماع، وأبو خليل، وأبو فيصل مساعد الســـرطاوي). وكـــان علـــى مجلس الكنائس العالمي أن يرعى هذا الاجتماع[49]، وكانت منظمة التضـــامن قـــد أقـــامت صلات معها. وألغى الفلسطينيون الاجتماع بسبب الوضع في لبنان.

كنت قد مكثت عدة أيام في بيروت في فبراير ١٩٧٥، في الوقت الذي اندلعت فيـــه الشرارة الأولى التي أشعلت الحرب الأهلية. وتظـــاهر الصيـــادون اللبنـــانيون والعمـــال الفلسطينيون في صيدا ضد صاحب العمل......!! كميل شمعون رئيس شركة بروتيـــين وزعيم اليمين المسيحي. واستطاعوا أن يستولوا على المدينة ويخضعوهـــا لإدارة لجنـــة تتكون من "القوى الوطنية والتقدمية" وسدوا الطريق المتجه إلى بيروت. وتفـــاقم التوتـــر بتدخل الجيش وقتل عشرات المتظاهرين، ومنهم مندوب صيدا اليساري. أما في بـــيروت فكان الحي الذي يوجد فيه فندقي يحميه الفلسطينيون المسلحون، وكـــان صـــاحب الفنـــدق

---

٤٨ - أي الضفة والقطاع.

٤٩ مجلس الكنائس العالمي نشط جداً فيما يتصل بالمسألة الفلسطينية، نظراً لأهمية الجماعات المسيحية الموجـــودة في مدن الأراضي الفلسطينية المحتلة .

منهم. وكما ذكر ميشيل كامل (أحد القادة الشيوعيين المصريين في المنفى)، فلقد دفع الوجود الفلسطيني إلى تحول ديناميكي للمجتمع اللبناني (تأسست هياكله على الطوائف الدينية)، وفي اتجاه إعادة توزيع السلطات التي تفسح المكان لدخول أكثر الفئات المعدمة اجتماعيا (فكان فقر الطوائف الشيعية كلكمة مسددة إلى الوجه) ولكنها وسعت أيضا الطريق أمام الفئات المتوسطة، في داخل المشاركات الاجتماعية المسيحية.

وكانت لبنان بالنسبة للفلسطينيين (منذ مذابح الأردن) القاعدة الخلفية الوحيدة التي تسمح لهم بتوجيه الهجمات المسلحة داخل الأراضي الإسرائيلية. دعمت قواعد الكوماندوز (المقاومة في جنوب لبنان منذ نهاية ١٩٦٨) بالسلاح والرجال، وساندها المقاتلون في مخيمات اللاجئين -١٩٤٨-بحيث مثل الكل (الجنوب وبيروت الغربية) في نهاية المطاف دولة داخل الدولة. وشاهدت المخيمات التي كانت تحيط ببيروت: المسلحين الفلسطينيين يحمون أمن ذويهم ويحلون مشاكل الحياة اليومية... حلفاء "للتقدميين" اللبنانيين الذين كانوا يقاتلون المواقع المارونية المسلحة • بينما قررت قيادة منظمة التحرير الفلسطينية الاقتصار على عمليات دفاعية. وشاركت مجموعات صغيرة يسارية في المعارك، ولكن قام اليمين اللبناني في يناير ١٩٧٦ بسلسلة من الاعتداءات أعقبها بسلسلة أخرى من المذابح موجهة ضد مخيمات اللاجئين الفلسطينيين (تل الزعتر – ضبيه) وغيرها مع قيام منظمة التحرير الفلسطينية أيضاً بهجمة مضادة اقترفت فيها مذابح أيضا ...!. أما السوريون وكانوا في بداية الأمر حلفاء للفلسطينيين فقد صرفوا النظر عنهم وتدخلوا (تحت عباءة جامعة الدول العربية) بعد أن طالبهم بذلك الزعماء المسيحيون في لبنان. وأدت حملة دعائية ذكية غذتها وكالة المخابرات الأمريكية (قامت بتمشيط عناصر التيار الوطني اليساري الذي يعود تاريخه إلى الحرب العالمية الثانية) بالاشتراك مع الموساد إلى استخدام التحالف الفلسطيني التقدمي كهدف لتوجيه اتهام مزعوم بتنفيذ مؤامرة لمصلحة "الشيوعية الدولية"[٥٠]. وباختصار كان هذا هو أصل الوضع الذي يشوبه اللبس، والدراما في لبنان، ولكن حولته منظمة التحرير الفلسطينية إلى احتياطي لها: ولم تغامر بعزل نفسها عن جزء هام من المناضلين.

وقابلت عددا من الإسرائيليين، ولم يكن أحداً من هؤلاء أعضاء في المؤسسة الحاكمة. وتبين -دون تدمير أي جسور- أن من بين الإسرائيليين المعلن عن وصولهم، يوجد لوفا إيلاو، السكرتير العام القديم لحزب العمل والسفير السابق لإسرائيل في موسكو، وماتينياهو بيليد، "الصقر القديم" (الذي تلقى ميداليات شرف لأعماله البطولية "في حرب يونيو") ، والشخصية القريبة من رابين، وكان هذا الأخير في ذلك الوقت رئيسا للوزراء.

---

٥٠ أول مقال كتبه سوفير يشهّر فيه بهنري كان بتاريخ ٢١ يونيو ١٩٧٦، في الوقت الذي اتصلت فيه منظمة التضامن بمجلس الكنائس العالمي لرعاية مقابلة تجري بين اليسار الصهيوني وكوادر منظمة التحرير الفلسطينية.

فضلا عن السرطاوي القائد القديم لمجموعة تخريب عسكري ومستشار لعرفات، الذي كلفه بإجراء المقابلة في باريس.

وبخلاف متابعة ما يجري، لم تكن لي أي صلة بهذه المقابلات بما أن محل إقامتي الرئيسية كان دائما لا يزال في الجزائر، وهو مكان التيار "المتشدد لمنظمة التحرير الفلسطينية". ولكن لمجرد سد الفجوة التي تحدث أثناء العطلات، كان عليّ أن أهتم مع هنري ب"المقابلة الثانية في باريس"، بتاريخ سبتمبر ١٩٧٦ (الأولى انعقدت في شهر يوليو). وكنا عشية الاجتماع ما زلنا نناقش اختيار مكانها. واقترح ديديه موتشان من مجموعة اليسار في الحزب الاشتراكي عقدها في مكان إقامة أحد الأصدقاء: ورأى هنري مناسبة التحذير من إجراء المقابلة بواسطة أعضاء الحزب الاشتراكي. ولكن تقرر عقدها أثناء عطلة نهاية الأسبوع (بينما يتمتع الباريسيون بعطلتهم). وكان هنري يتخوف أيضاً من رد فعل الفلسطينيين: وأصر على توخي أكبر قدر من السرية. وبذلت مساعي لكي تنعقد في المنزل الريفي لريمون اسطنبولي وتقدمت إليه بهذا الطلب بالتليفون (من كابينة اللوفر) ... في الساعة الحادية عشر مساء ! ووافق دون تردد. وقد أفصح لي هنري عن القلق الذي يعيش فيه من جراء الإعداد لهذه المقابلة: وأخذ يهمهم مشيرا إلى مصير المناضلين الذين تقدموا في السن (أنا، وهو) المضطرين إلى الهيام على وجوههم في شوارع باريس ليلاً من أجل استعمال التليفون (لو كنت تعرف يا عزيزي مدى سعادتي عندما كنت أقوم بذلك معك)... والذين يضطرون رغم ضجرهم إلى التعبير بآيات الشكر لأن زميلا وافق على أن يعقد الاجتماع عنده. إلا أننا نعترف بأن استقبال ريمون وزوجه رينيه كان دائما لا مثيل له. كما نعترف بأننا لا نستطيع أبداً أن نجد أفضل منهم. وبهذا وبفاصل زمني يبلغ ٢٠ عاما (منذ السويس)، أجد نفسي من بين المجتمعين في اجتماع لمجموعة حدتو القديمة في باريس: فالواحد أو الآخر جماعة أو فرادى نجحوا في قطاع الأعمال، ويدعمون معنويا وماليا مشروعات هنري السياسية وبوجه خاص في قطاع عزيز عليهم [٥١] كان بمثابة الخطوة الحاسمة التي قررت مصيرهم في نهاية المطاف. وتعرفت أيضا بالمناسبة على يساري صهيوني: ارييه إلياف (لوفا)، والدكتور ياكوف أرنون والصابرة ماتينياهو بيليد. واستقبلناهم في صباح اليوم التالي، وقسمنا المهام، هنري ومايوه [٥٢]، وأنا. وكان ماتي [٥٣] أقربهم توددا: في غاية من اللطف، وبدا لي أنه أكثر اهتماما، وافتتانا بالأدب العربي (كان يدرسه في جامعة القدس) وبزراعة الزهور (كان يصطحبنا لساعات طويلة إلى حدائق النباتات) أكثر من اهتمامه بالسياسة، وأكثر

---

٥١ أي العلاقات العربية الإسرائيلية ، وكانوا قد ابعدوا في عصر الملك فاروق من مصر لموقفهم من هذه القضية.
٥٢ ساره بلو، التي وصلت من بروكسل (جويس كانت في رومانيا للاستشفاء).
٥٣ توفي منذ وقت قريب بداء السرطان.

اهتماماً وانشغالاً بوصول حقائبه في حالة جيدة من أن يكون ثورياً (فلا يستطيع كل الناس أن يكونوا مثل هنري... !).

لا أعرف شيئا عن صياغة ديباجة المقابلة الأولى، إلا أني أستطيع أن أقول أن ما تعلق بالمقابلة الثانية كان ينبئ بالفشل. فلقد كان الوفد الإسرائيلي يمثل المجلس الإسرائيلي للسلام –الإسرائيلي/الفلسطيني [54] –الذي تأسس في ديسمبر ١٩٧٥ على أساس وثيقة تنص على أن السلام يمر عبر التعايش بين دولتين ذات سيادة على هذه الأرض ...وهي وطن شعبين، وطالبوا الحكومة بالدخول في مفاوضات مع منظمة التحرير الفلسطينية، وهي الهيئة الممثلة والمعترف بها للشعب الفلسطيني. موقف واضح، يشبه موقف الشيوعيين، إلا أنه تميز بأنه صدر عن لجنة سلام (وليس عن حزب سياسي)، تدعمها مئات الشخصيات [55] التي تمسكت بالإعراب عن تأييدها وإخلاصها للصهيونية غداة صدور قرار الأمم المتحدة (الذي اعتبر الصهيونية "شكلا من أشكال العنصرية والتمييز العنصري"). غير أن الاجتماع بمندوب فلسطيني واحد كان يضايقهم. وقام حزان بالإشارة إلى أنه قد يكون المندوب الفلسطيني الوحيد، إلا أن هذا المندوب له ثقل أكبر بكثير، لأنه ينتمي إلى قيادة منظمة التحرير الفلسطينية، بالمقارنة بالمندوبين الإسرائيليين الأربعة، الذين لا تدعمهم قوى اجتماعية هامة (أصبحت هناك ضرورة لتغطية مصاريف السفر)، حتى ولو كان رئيس الوزراء رابين على علم بهذه المقابلة. إلا أنها وضعت في مصاف المقابلات الدبلوماسية وهذا قبل أن يبدأ الاجتماع نفسه.

وكأنها معجزة ...ففي نهاية اجتماع الصباح لم يسد فيه فقط جو من الصداقة والألفة ، بل تحول إلى حماس غامر. ولم نستطع أن نعلم في تلك اللحظة السبب فيما حدث ...حتى هنري لم يكن يحضر هذه الاجتماعات، لكن بينما كنا نجلس حول مائدة الطعام– ويالها من سعادة شعر بها ريمون ورينيه– فقد قرض السرطاوي بعض أشعار شاعر يهودي عربي (وكان يذكره عندما يكون مستريح البال... ولكني نسيت اسمه)، بل وصلت العلاقات بين المندوبين إلى مرحلة تبادل الدعوات لزيارة مسقط رأسهم... بل مشروعات لربط العلاقات مع ذريتهم ! وبعد ذلك أجريت الاتصالات التليفونية لفتح خط اتصال مع منديس فرانس، في منزله الريفي في منطقة جارد. وفي اليوم التالي استقبل الرسل. وتحقق نجاح كبير. وعلمت فيما بعد أن اقتراحا قدم بتسوية عامة شاملة على مرحلتين: مرحلة أولى تحقق وقف الأعمال الحربية، ثم تتبعها مرحلة ثانية تبرم فيها معاهدة سلام (مع اتفاق متبادل لرسم الحدود) وتسوية مشكلة اللاجئين إما بالعودة وإما بالتعويضات.

---

٥٤ أنظر شهادة بيليد عن مجلس السلام الإسرائيلي واتصالاته مع السرطاوي، لموند ديبلوماتيك، يوليو ١٩٨٤.
٥٥ نشرت الوثيقة في الصحافة الإسرائيلية تصاحبها توقيعات في فبراير ١٩٧٦.

أجريت مقابلات أخرى حضرت بعضها عندما كنت في باريس. وتمت المقابلة الثالثة في أكتوبر في نفس المكان. بحضور بيليد ويوري أفنيري٠٠٠٠٠ وهو دائماً يحمل الكثير من الأفكار ولكن غير قادر على منع نفسه من تحويل كل مبادرة إلى سبق صحفي (كان مديراً لجريدة هاأعلام هازيه، جريدة واسعة الانتشار)، ، ويوسي أميتاي، وهو شاب معرب من أحد الكيبوتسات في صحراء النقب، وحضر ضمن أعضاء الوفد الفلسطيني بالإضافة إلى السرطاوي، مساعده أبو فيصل، وصبري جرجس من الخليل٠٠٠ وقد فرغ لتوه من نشر كتاب في الولايات المتحدة الأمريكية عن أحوال عرب إسرائيل (وكان الكتاب الأصلي باللغة العبرية، وهي لغة يعرفها تمام المعرفة كما قالت لي جويس). وكانت مجموعة عجيبة حقاً تلك التي أحاطت بهنري: متحرراً من كل مصلحة وطنية أو تحيزية، ولذا كان يعمل بهدوء وبسرية (وكان هنري يعرف تماما كيف يتعامل مع من حوله)، وهذا دون أن يبحث عن أي دور آخر. ولم يتوقف السرطاوي عن محاولة إقناعه بالنضال بين صفوف اليهود الشرقيين، *الحلفاء الطبيعيين* للفلسطينيين كما كان يقول[56]. ولكن بلا جدوى. ولم يؤد هذا الاقتراح إلى تحريك شعرة واحدة في رأسه. وعلى العموم لم يكن أحداً مندمجاً في الطائفة اليهودية في فرنسا، ولا يحتاج الأمر أن يكون المرء أصلا من بلد عربي حتى يشعر "بالأخوة" مع فلسطيني: يكفي أن نرى ماتي جالسا (وهو من أسرة تعود أصولها إلى روسيا) مع السرطاوي !

وخيمت بعض الظلال مما أثبط همة هنري. وقد بذل كثيرا من الجهد في مناقشة لوفا إيلاف وماتي ٠٠٠٠٠فلقد قررا تأسيس حزب سياسي[57]، والاشتراك في الانتخابات. وكان من رأي هنري، وقد ذكر لهم ذلك، أن الخلط بين النضال من أجل السلام والنضال من أجل الاشتراك في السلطة إنما هو خطأ سياسي من الدرجة الأولى ٠٠٠يفقدهم مصداقيتهم[58]. فضلاً عن ذلك، وحيث أنهم يعدون للانتخابات التي كانت ستعقد قريباً، كانوا متلهفين على التعريف بنشاطهم السياسي، بينما لم يكن الفلسطينيون على استعداد بعد لإعطاء هذا النشاط الدعاية اللازمة. وبالرغم من هذه الظلال كان هذا الشهر من الشهور الجميلة في نهاية عام ١٩٧٦ (أليس كذلك يا جويس٠٠٠؟). وبالرغم من الآمال الكبيرة. كانت هناك عواصف (أشارت أحد الصحف الإسرائيلية إلى هذه المقابلات) إلا أن مناخ

---

٥٦ أقام عصام في العراق، وتعرّف عن كثب بأحوال اليهود العراقيين، ويقال أن جذور اليهود العراقيين تعود إلى تاريخ قيام الملك نبوخذنصر(٢) بترحيلهم إلى بابل بعد الاستيلاء على بيت المقدس في ٥٨٧ ق م، وهم ذوي ثقافة عربية أصيلة، كما واصل اليهود من أصل عراقي من المهاجرين إلى إسرائيل في الإعراب عن أنفسهم والكتابة بالعربية ولا سيما في جريدة الاتحاد.

٥٧ الشيلي، حصل على مقعدين في انتخابات ١٩٧٧ واختفى قبل انتخابات ١٩٨٤.

٥٨ كانت حجتهم الرئيسية هي الحصول على إمكانية ممارسة ضغط للتأثير على المناقشة العامة الدائرة في البرلمان ٠٠٠ وكل هذا مجرد تصور لا يعتمد على واقع محسوب ٠٠٠لم يكن لإسرائيل دستور ٠٠٠!! ثم انتشر العمل بالقوانين الاستثنائية ، مع وجود سلطة تنفيذية قوية ٠٠٠

التحرير الفلسطينية قاطعت "المقابلات" التي كان يؤيدها منديس فرانس وهو قرار لا يعتبر نهائي وهذا ما قاله ياسر عرفات في بيروت لموريس بارت (من اللجنة الفرنسية المرتبطة بمجلس السلام العالمي)، إلا أن الأمر يتطلب في البداية وقبل كل شيء القيام بعمل معمق داخل هيكل منظمة التحرير الفلسطينية نفسها، وعدم المخاطرة بقطع العلاقات مع سوريا (كان هناك قرار بوقف الحرب الأهلية في لبنان). وفي موازاة ذلك عموما أجريت مقابلات علنية منظمة. وانعقدت في لندن ندوة CAABU[٦١]، وهي رابطة حظيت بتقدير البرلمانيين البريطانيين الذين نجحوا في تجميع و-أول مرة وبصورة علنية- بين الإسرائيليين الصهاينة (بيليد وأفنيري ودارايا – دارا بيكين، وأمون كابلويك الصحفي) والفلسطينيين (ومنهم عصام السرطاوي وسعيد حمامي، ممثل منظمة التحرير الفلسطينية في لندن، وهم مصدر الجهود الأولى من أجل تمهيد الطريق لإجراء حوار بعد حرب أكتوبر. واهتم في باريس هنري مع جويس بالتحضير لمؤتمر ينظمه المجلس العالمي للسلام: وقد انعقد في ١٤و١٥و١٦ أكتوبر ١٩٧٧ وجاء انعقاده في إثر التصريح الأمريكي السوفييتي الذي يحبذ السلام الذي صدر في (أول أكتوبر).

وقد أعلمني هنري بالأخبار المطمئنة التي يعزيها جزئيا، إلى اتصالاتي مع "فيكتور": واستدعى عرفات -عشية مغادرته إلى موسكو في شهر أغسطس- السرطاوي إلى بيروت وأعلمه باهتمام السوفييت بعقد اتصالات مع المجلس الإسرائيلي، وتوقف قدومي وهو الناطق الرسمي مع السوفييت، عن انتقاد المقابلات التي تمت، ووافق على حضور المؤتمر، واعتبره خطوة إلى الأمام وأوصى المندوبين الفلسطينيين بالبقاء في أماكنهم أثناء إلقاء الإسرائيليين كلماتهم. وقام بزيارة لمنديس فرانس. وأبدى – كما قيل لنا- استعداده لمقابلة هنري، لو لم تظهر مقالات لو بوانت التي جعلت منه "الزعيم الإرهابي الدولي......!!" في فرنسا. ورغم ذلك فشلت هذه المحاولات، وكانت خسارة كبيرة للمجموعة التي غطت تكاليف سفر ونفقات إقامة "المراقبين" الذين أتوا من إسرائيل.

ويستطيع مكسيم غيلان[٦٢]، -وهو مشارك فعال -أن يحكي التغيرات المفاجئة الغير متوقعة لهذا المؤتمر. وحتى يكون للمؤتمر مصداقية دعي الصهيونيون للاشتراك فيه(كمراقبين) واتسع نطاق اشتراكهم حتى ضم حزب المبام بحضور(نفتالي فيدر، وهو الأمين العام للحزب) ومن يسار حزب العمل بحضور(يوسي ساريد). وهذا بشرط- كما أكدوا ذلك تحديدا لموريس بارت (أوفدته اللجنة الفرنسية مع عضو من اللجنة البلجيكية)- ألا تحدث عودة إلى المواقف المعتادة للوفود العربية فضلا عن ضرورة وجود تمثيل فلسطيني ملائم. وقام موريس بارت في بيروت بإعداد تقرير عن اتصالاته إلى الرئيس

---

٦١ المجلس المعني بتطوير التفاهم العربي البريطاني.
٦٢ رئيس تحرير مجلة (إسرائيل وفلسطين)، الصادرة بالإنكليزية في باريس منذ أكثر من ربع قرن من الزمان.

أضف إلى كل ذلك مظاهر الفشل السياسي في حقبة الستينات (وفي المقام الأول... النزاع الدائر بين الصين، والاتحاد السوفييتي)، وفي وقت إعداد مشروع القارات الثلاث[١٤].

وحدث ذلك في السبعينات أيضا (وهي نفس الفترة التي حدث فيها الانقلاب الشيوعي في السودان عام ١٩٧١ وأعدم بعدها قادة الحزب الشيوعي السوداني... وفشل تجربة بناء بلد ديموقراطي اجتماعي في الشيلي عام ١٩٧٣ وارتكاب بينوشيه المذابح الدموية) مع وجود جيوب ديناميكية تكونت في أفريقيا مثل (أنجولاMPLAو إثيوبيا/منجستو)، وفي أمريكا اللاتينية (نيكاراجوا/ الساندينية)، وثورة حاملي زهرة القرنفل الحمراء المركبة في فوهات البنادق في البرتغال.. التي لم تعمر طويلا...!

وأحداث السبعينات، والحروب الأهلية في أفريقيا... ثم تدخل الاتحاد السوفييتي[١٥] [١٦] في أفغانستان...

وفي أوروبا ...إستمرار ارتكاب السلطات الحاكمة جرائم اغتيال اليسار السياسي ...ومن بينها جريمة اغتيال... هنري.

حقبة الثمانينات تعنيني في المقام الأول... لماذا ؟

تمثل هذه الحقبة سنوات التراجع والانكفاء، وتميزت بهزال مردود المشروعات الكبرى التي ظهرت في العقود السابقة، وبانهيار عام في أسعار المواد الأولية[١٧]، وبانفجار ديموغرافي... وأيضا ظهور شبح المجاعة ...!!

ويتبين في هذه الفترة أيضا ما أصاب الجهود السابقة من تبديد، وتفريغ لمحتواها، واختفاء المنتجات الزراعية الضرورية من الأسواق المحلية لتصدر إلى الخارج لاستبدالها بالعملات الصعبة، ووضع الفكر المبدع جانبا وتحجيمه، وهجوم التنظيرات اللاهوتية المسيحية التي تتناول التحرير وقضاياه[١٨]،وازدياد حركة الهجرة الاقتصادية.

---

١٤ حركة القارات الثلاث(Tricontinental) : عقد مؤتمر هذه الحركة في كوبا في يناير ١٩٦٦ واعترف فيه بشرعية كفاح حركات التحرير الوطني في العالم الثالث، وكان ذلك بهدف وضع إستراتيجية نضال ضد الإمبريالية

١٥ بناء على اتفاقية الدفاع المشترك بين البلدين- المترجم-

١٦ في صراعه مع عملاء دعمتهم الولايات المتحدة الأمريكية لمحاربة السوفييت واستنزاف قواهم، وهم جماعة الطالبان السلفية، وفرق الإرهاب التي كانت قد مولتها ، وتزعم اليوم مطاردة أعضائها – المترجم -

١٧ قام المخرجان السينمائيان من أستراليا (Anderson &Conolly) بتصوير فيلم وثائقي باسم "المحصول الأسود" يتحدث عن انهيار أسعار البن : وفتور همة أعضاء قبيلة في بابواغينيا الجديدة بينما هم على وشك الاندماج ، وهجرهم العمل الزراعي، وتحالفهم مع قبيلة أخرى لشن الحرب من جديد – ولم يكن معلوما من هو المسئول، ولكن يقبع دائما في الظل صندوق النقد الدولي الذي لا يمكن أن يقف ضده لا رئيس القبيلة، ولا مدير المشروع.

١٨ وهي تنظيرات لاهوتية منشؤها الرسالة البابوية التي أعلن عنها البابا بولس السادسPopulorum progressio بتاريخ ٢٦ مارس ١٩٦٧ يدعو فيها الأساقفة إلى " القيام بعمل متضافر من أجل تطوير كامل للإنسان والتضامن من

الثقة تدعم بين ماتي والسرطاوي. بل كانت هناك بالونة اختبار بعد إنقضاء يومين من الاجتماعات (في ٣١ ديسمبر – ١ يناير) في باريس، عندما صدر إعلان في الصحافة الإسرائيلية، ذكر عن لسان بيليد و"عضو من قيادة منظمة التحرير الفلسطينية"، أنه اعترف بوجود منبر المجلس وهو أساس هذه المناقشة (وكان مزاج السرطاوي ينحو نحو ممارسة شيء من الضغط). مما أثار غضبة بين صفوف الفلسطينيين. وأنكر فاروق قدومي ذلك. وكذلك مكتب منظمة التحرير الفلسطينية في باريس. غير أن المباديء الرئيسية لم تلق جانباً. وما زال على الحكومة الإسرائيلية أن تتحرك وتلتقط الكرة وهي طائرة. ولكن رابين، كما قال لي هنري، "*لا يريد حقيقة دولة فلسطينية*".

وولد أمل جديد بظهور جيمي كارتر: الرئيس المنتخب للولايات المتحدة الأمريكية في نوفمبر ١٩٧٦، وأبدى تفضيله للاتفاقية الحزمة في مقابل تنازلات جزئية. وفي ملوس ١٩٧٧، بينما انعقد في القاهرة اجتماع المجلس الوطني الفلسطيني[٥٩]، صرح علنا بأن الفلسطينيين من حقهم الحصول على وطن، بينما أخذ ياسر عرفات في الدفاع عن السرطاوي (الذي هوجم لأنه اجتمع بشخصيات صهيونية) وقبل اشتراكا فلسطينيا في المفاوضات التي كان من المفترض أن تعقد في جنيف. وبناء على ما قاله أحد المحررين الصحفيين القريبين من كارتر، أن ياسر عرفات قد أخذ عهدا على نفسه أمام بريجنيف لكي يلغي الفقرة الواردة في ميثاق منظمة التحرير الفلسطينية التي تنص على "الدولة الديموقراطية العلمانية في فلسطين" (مما يعني تصفية إسرائيل نفسها) وهذا بشرط وجود "اعتراف متبادل ومتزامن بين إسرائيل ومنظمة التحرير الفلسطينية". وبانتصار التحالف الوطني اليميني في انتخابات مايو ١٩٧٧ لم تثبط همة هنري: فكان يقول أن تحيز مناحيم بيجين (وهو الزعيم السابق لمنظمة ايرجون) يمكن بسهولة أكبر من توقيع معاهدة سلام. واقترح في نهاية شهر سبتمبر كل من كارتر وبريجنيف متابعة مؤتمر جنيف. وتهلل هنري من الفرح. ونسى ...الذين لم يتركوا للاتحاد السوفييتي فرصة ليلعب دورا بمثل هذه الأهمية في المنطقة.[٦٠]

ديسمبر ١٩٧٩

مع وجود روزيت وجويس اتخذت العلاقات مع السرطاوي طابعا شبه عائلي "حتى أن هنري رشحني للعمل في المكتب الذي يفتتحه السرطاوي في باريس". ولكن منظمة

---

٥٩ المجلس الوطني الفلسطيني الذي يعتبر البرلمان الفلسطيني.

٦٠ هل هي صدفة ؟ أن يظهر في شهر يونيو ١٩٧٧ –وعندما تبدأ الأمور في السير سيرا حسنا– مقالا آخر لسوفير يخرف فيه حول أبعاد العلاقة الأسرية القائمة بين هنري وجورج بليك، العميل الإنجليزي الجاسوس لحساب الاتحاد السوفييتي (لو فيجارو في ١٩٩٣/٩/٨) .

ياسر عرفات وأبو جهاد. وكان ينبغي كما قال لي هنري إرجاء تاريخ عقد المؤتمر بغية تعميق الاتصالات. إلا أن مداخلاتنا ذهبت هباء. وقد استخلص هنري هذا الانطباع المؤسف... وهو أن آلة البيروقراطية التي تسيّر المجلس العالمي للسلام لم تتكيف بعد مع وضع الحركة الدائبة للأحداث وتطوراتها (وكان في تقديري أن هنري يكرس -في الحقيقة- وقتاً أكثر من اللازم لهذه المسألة).

وكان التمثيل الفلسطيني أكثر من مشرف: عضوان من اللجنة التنفيذية لمنظمة التحرير الفلسطينية (ياسر عبد ربه[٦٣]، وأبو ميزر)، وعبد الله حوراني (أستدعي السرطاوي إلى بيروت بعد أن وجه إليه نقدا، بسبب تصريحاته للصحافة). أما من الجانب الإسرائيلي، فلقد انكمش نطاقه التمثيلي. واقتصر على المشاركين المعتادين الذين لهم الحق الكامل في الحضور لأنهم ليسوا من الصهيونيين (أوزي بورنشتاين وتوفيق طوبي من راكاح، وأليعازر فيلر على رأس مجموعة من الشيوعيين المعارضين، وعضوين من أعضاء الفهود السوداء)، وحضر "مراقبون" من مجلس الكنائس العالمي و(ماتي، ولوفا إلياف، وناحومي كيس، ومائير بايل، أستاذ التاريخ في جامعة القدس والعقيد الاحتياط الذي شارك في الاجتماعات السرية)، ومن نيو أوت لوك (سمحة فلابان)، ومراسل النوفيل أوبزيرفاتور في إسرائيل، فيكتور سيجلمان. وتحديدا، بعد الهجوم المعتاد الذي يشنه العراقيون والليبيون ضد الصهيونية، وكان بيان الوفد الفلسطيني (الموجه إلى السوريين الذين مارسوا ضغوطهم لوقف الاتصالات منذ انعقاد ندوة مجلس تطوير التفاهم العربي البريطاني) بمثابة إعلان حرب باردة. وبعد قيامهم بهذا العمل، غادر كل من أبو ميزر وعبد ربه القاعة. وقرر عندئذ لوفا إلياف عدم التدخل وأخطر الصحافة بما حدث. ولاقت بيانات مائير بايل استحسانا، وتصفيقا حادا، فعلى العكس فإن الإعلان الختامي -وهذا ما قاله لي هنري، وهو يشعر بالأسف العميق- لم يكن أكثر من مجرد إدانة للصهيونية (ولهذا السبب، كانت خسارة حقيقية أيها الزملاء...) فبدلا من أن ينتظر هنري في أحد المقاهي حتى تتقشع غيوم الأزمة، يكتشفه جهاز الموساد في دهاليز المؤتمر وبواسطة المتطرفين المتشددين من هنا وهناك .

بعد مرور أسبوع من انعقاد المؤتمر... وبمناسبة اغتيال رئيس رابطة أصحاب العمل الألمان في ألمانيا ...وإثر المقال الذي صدر على صفحات ديرشبيجل[٦٤]، الذي اعتبر فرنسا مركز الإرهاب الدولي وتناول مرة أخرى أطروحة سوفير التي تتهم هنري بأنه منسق نشاط مجموعات الإرهاب في أوروبا... وضع هنري في الإقامة الجبرية في مدينة دين. وعندما ألقى السادات في ٢٠ نوفمبر خطابا أمام الكينيست، أجابني هنري على

---

٦٣ قاد المبادرة مع يوسي بيلين، وافرهام بورج من أجل التوقيع في جنيف نوفمبر ٢٠٠٣ على مبادرة جنيف للسلام الذي اقترحته مؤسسات المجتمع المدني الفلسطينية والإسرائيلية.

٦٤ في ٢٤ أكتوبر ١٩٧٧.

سؤالي ...ما هي تداعيات هذه المبادرة؟ قال أنها لا تحمل بتاتا فرصة إقامة السلام في المنطقة. اغتيل سعيد حمامي في لندن في ٤ يناير ١٩٧٨ وقام أبو نضال بتنفيذ الاغتيال، ولدى عودة هنري في ١٠ يناير من دين، استأنف نشاطه. ولكن رغم مقابلاته المنتظمة مع عصام ومناقشة الاتصالات السياسية مع القادة السياسيين (وهم بالإضافة إلى منديز فرانس... برونو كرايسكي، وويللي برانت، وليوبولد سيدار سينجور، وهوفويت بواني ...)، ابتلعه نشاط منظمة التضامن.

واحتلت المفاوضات التي جرت بين بيجين والسادات كل المساحة المخصصة لمسألة الصراع في الشرق الأوسط. وظل اليسار المصري بعيدا (نظرا لاعتراضه على السادات) عن مبادرة صفق لها الشعب المصري، والإسرائيلي، بل لم يستطع التحرك حتى لمجرد الإعراب عن احترام حقوق الفلسطينيين. فكان معنى ذلك أن نترك الحلبة لبيجين وكيسينجر ليسودا فيها.

اغتيل هنري في ٤ مايو (لأنه صديق العرب كما صرحت بذلك مجموعة الاغتيال "مجموعة دلتا") في جو اتسم باللامبالاة والهجر. كما نلاحظ أن المناضل القديم من أجل السلام عبد الرحمن الشرقاوي لم يجهد نفسه وغاب عن المنتدى الذي نظمته تون مودرن في باريس (مارس ١٩٧٩) لمناقشة (كما أراد ذلك السرطاوي)، المعاهدة المصرية الإسرائيلية. لأنه حتى لو افترضنا سلامة خطة كارتر، غير أنه لا يمكن الإعتماد على السادات ليقارع حجج كيسينجر. وأغرقت القضية الفلسطينية (بشطارة) في المفاوضات التي أدت إلى إبرام معاهدة سلام منفصلة بين مصر وإسرائيل (دون مشاركة الأمم المتحدة ولا السوفييت)، وبهذا انعزلت مصر عن المنطقة بأسرها[٦٥].

لجنة فلسطين وإسرائيل ستدوم[٦٦]

مايك، أغسطس ١٩٩١

اعترف الرئيس كارتر أن الفلسطينيين الذين- حتى ذلك الوقت- كان يشار إليهم "باللاجئين" لهم كيان، ويحق لهم تقرير المصير، كما صدر (قرار المجلس الوطني

---

٦٥ وهو أول وأكبر صدع في المفهوم السياسي للوحدة العربية وأصبح مصيرها بعد ذلك إلى العدم، فضلا عن نشوب الحرب بين العشائر المتنافرة في لبنان التي مولتها عمليات الاتجار بالأسلحة والمخدرات ومواقف الحكومات المختلفة من الحرب في الخليج، كل ذلك ترك منظمة التحرير الفلسطينية في حالة من الضعف يرثى لها .وقادها ذلك الوضع إلى التخلي عن اتفاق أوسلو الثاني.

٦٦ اسم منظمة غير حكومية فرنسية، من بين مؤسسيها يوسف حزان، وريمون اسطنبولي، وجويس بلو، وديدار فوزي روسانو ... الخ – المترجم.

الفلسطيني، الصادر في ٢٨ مارس١٩٧٧) الذي ينص على إقامة الدولة الفلسطينية المستقلة "على كل الجزء المحرر من الأراضي"٧. وتعلن من ناحية أخرى منظمة التحرير الفلسطينية وإسرائيل قبول البيان المشترك الأمريكي السوفييتي الصادر في أول أكتوبر ١٩٧٧الذي يعترف بإسرائيل• ولقد تم تحديد الأراضي الواجب تحريرها وذلك في مؤتمر قمة البلدان العربية المنعقد في بغداد(ديسمبر ١٩٧٨) وكذلك في المؤتمر الإسلامي المنعقد في الطائف (يناير ١٩٨١) ، على أنها الأراضي التي تم احتلالها في ١٩٦٧، وتحدد موقع الدولة الفلسطينية في الضفة الغربية وقطاع غزة. ولقد واجهت الأفكار الطليعية التي نادت بها منظمة التحرير الفلسطينية (ولم يشجبها المجلس الوطني الفلسطيني في ١٩٨١) في بداية هذه الفترة تشددا في المواقف المتخذة من المبادرات التي يقوم بها السرطاوي[٦٧] ، ثم تبين أهمية هذه المبادرة مما رفع بالتالي من مكانتها، كما أبرز الصحفيون المؤيدون لحل النزاع مزايا هذا الموقف الجديد (يوري أفنيري، وآمون كابيلويك، وإيريك رولو). إلا أن المؤسسة الإسرائيلية الحاكمة أعارت اذانا صماء. وسارت في خطاها الإدارة الأمريكية. أما الميدياقراطية "وسائط الإعلام الرسمية"، فلم تحتفظ بذاكرة يمكن الاعتماد عليها•••!! ولا ننسى أن الولايات المتحدة الأمريكية هي التي جمدت العلاقات مع منظمة التحرير الفلسطينية قبل أزمة الخليج ؟ ولم يكن ذلك بعد لقطات العناق بين ياسر عرفات وصدام؟ ومن تسعفه الذاكرة يسترجع حقيقة أخرى صارخة، وهي أن فكر كيسنجر، الذي أمسك بعنان السياسة الخارجية الأمريكية لنيكسون وفورد وكارتر، هدف أساسا إلى محاولة تسوية الصراع الإسرائيلي العربي بدون الاتحاد السوفييتي، وبدون ... الفلسطينيين؟!! وأن وزير خارجية إدارة ريغان (أثناء ولايته الأولى)، وهو الكسندر هيج، هو الذي غذى مع المحيطين به حملة التعتيم التي تناولت قضية الكفاح المسلح من أجل التحرير(صدر مؤلف كلير ستيرلنج في١٩٨١)[٦٨]، ثم وافق في نهاية الأمر على خطة شارون لغزو لبنان ؟

وصطدم السرطاوي، الذي كان مقتنعا اقتناعا جازما بأن الأمريكيين هم الوحيدين الذين باستطاعتهم فرض حل على الدولتين، وهو متناغم ثقافيا مع الولايات المتحدة (حيث تخصص في جراحة القلب هناك)• وبعد أن أعلن أيضا عن موقفه المؤيد للحوار مع الصهاينة -الذين قبلوا التفاوض مع منظمة التحرير الفلسطينية- إلا أن الإدارة الأمريكية طردته بذريعة عدم تطابق البيانات الواردة في جواز سفره (التونسي)، واضطر إلى قطع زيارته للولايات المتحدة••• ولم يحصل بعد ذلك على تأشيرة دخول إلى هذا البلد

---

٦٧ كان يود دعوة أعضاء شيلي إلى حضور دورة المجلس الوطني الفلسطيني في ١٩٨١ (وهم صهاينة يؤيدون الحوار ومبدأ الدولتين) وينتقدون علانية رفض مواطنيهم لذلك (مقابلة مع إيريك رولو، لموند، ٢٢ يناير ١٩٨٢).

٦٨ أنظر الجزء الخاص بعلامات على الطريق – قامت هذه الكاتبة بحشو مؤلفاتها بالنظرية التخريفية لسوفير وكان الهدف منها تعمد التشهير بالمناضل هنري.

(أمريكا) التي يتجول فيها أنصار الرفض بكل حرية ... ولم تؤد مداخلات شخصيات يهودية مثل ناحوم جولدمان إلى أي شيء ملموس، وعندما دعي لحضور ندوة من أجل السلام نظمتها (نيو أوت لوك)، اضطر عصام أن يملي مداخلته بالتليفون. وفشل مرة أخرى في السفر إلى الولايات المتحدة أثناء حرب لبنان .

ويذكر الكسندر هيج في مذكراته أنه اعترض على مشروع آريل شارون (وزير الدفاع الإسرائيلي بعد انتخابات ١٩٨١ وكان قد استمد شعبيته من الهجوم المضاد الذي قاده في ١٩٧٣) لغزو لبنان. إلا إذا حدث استفزاز صارخ[٦٩] ... . وعندما عدت نهائيا إلى أوروبا، علمت كما علم كل الناس، ما شرع فيه شارون: أي تدمير قواعد منظمة التحرير الفلسطينية، وطرد الجيش السوري، ليقيم مكانه ديكتاتورية تتكون من ميليشيات لبنانية مرتبطة بإسرائيل. علما بأنه تقرر عقد هدنة مع منظمة التحرير الفلسطينية، وجرى التفاوض بشأنها بصورة شبه رسمية (بوساطة الأمريكي فيليب حبيب) لصيانة السلام على الحدود الإسرائيلية اللبنانية. وتم احترام هذا الاتفاق. غير أن أبو نضال قدم المبرر لقيام الغزو: تمكنت مجموعته في ٣ يونيو ١٩٨٢ من إصابة السفير الإسرائيلي في لندن بإصابة خطيرة. وأعلنت الحرب على لبنان في اليوم الرابع (وقد يتضح لنا مستقبلا من الملفات إذا كان أبو نضال بالفعل مصاب بعته سياسي أم أنه فقط يعمل لحساب الموساد....!!). ولست أدري إذا ما كانت التيارات المؤيدة للحوار قد قامت بنقد ذاتي لفشلها في تعبئة الرأي العام الإسرائيلي ضد الحرب المعلنة التي لم يكن لها أي غرض دفاعي... ! أو أن هذه التيارات اعتمدت بعد ذلك على المبادرات الإعلامية لهؤلاء الذين فقدوا كل شيء... حتى يطمئن ويستريح ضمير مؤيدو الحوار الذين يعيشون في مجتمع مدجج بالسلاح، ومضطرب بسبب حصاره، وبسبب ماضيه الغريب عن المنطقة...(إسرائيل). وكأن الأمر يبرر ما حدث من فظائع وشنائع في صبرا وشاتيلا، ولكن تشير الحقائق الدامغة إلى مسئولية ساحال (جيش الدفاع الإسرائيلي) في كل ما حدث. ونظمت مظاهرة ضخمة تقودها حركة "السلام الآن" الإسرائيلية، وهي الحركة الوحيدة الموجودة في الميدان، وهذه حقيقة ساطعة في منطقة الشرق الأوسط العربي الملبدة بالغيوم ...الذي ينادي بالقومية....!! ويترك الفلسطينيون يواجهون بمفردهم الاجتياح الإسرائيلي. ونعلم أن الصدام بين الجيشين التابعين للطرفين الرئيسيين في الصراع قد حدث لأول مرة أثناء الحرب الأهلية في لبنان

---

٦٩ وكان اعتداء فريق أبو نضال على السفير الاسرائيلي في لندن هي الذريعة المطلوبة للسير قدما في مشروع غزو لبنان–المترجم

وفي باريس حيث كنت أتعاون في مجلة (شعوب المتوسط)، جذبني مشروع مونيك جادون[٧٠]، لإصدار عدد خاص حول النساء: وتمكنت من القيام بتحريات عن النساء الفلسطينيات ومقابلتهن في بلدهن. وفي محاذاة ذلك، ولأول مرة، أصبح لي نشاط علني، ارتبط حقيقة بالقضية الفلسطينية، أي بالمعنى الذي أصبغه عليها هنري٠٠ وتجمعت لي من هذه الرحلات وهذه الأنشطة مجموعة من الصور السريعة. مع شعور انتابني بحدوث تحول في أسلوب تكريس جهودي لهذه القضية. فكنت أسترشد حتى هذه اللحظة بموقف مبدئي، وأعير اهتماما وتقديرا لشخصيات عديدة على هذا النشاط[٧١]. ومن ذلك الوقت فصاعداً بدأت أن أشعر بقوة، وكأني أناضل من أجل أحبائي، من فلسطينيين وإسرائيليين على حد سواء. ومن اللافت للنظر أنه بدون المسافة الفاصلة التي فرضتها الظروف بصورة دورية، ما كان بوسعي أن أجد الشجاعة الكافية للعودة مرة أخرى إلى أشلاء كل هذه السنوات بمذابحها الرهيبة المنتظمة، ولكنها أيضا فترة تطل منها بشائر الأمل في حدوث تغييرات جوهرية. وقد يعود اهتمامي بها أيضا بكل بساطة إلى المعنى الذي أصبغه عليها بكل ما تحمل من اغتيالات، ومآسي.

الخميس، ١ إبريل ١٩٨٢

ترسخت في الوجدان ذكرى "يوم الأرض" وهي حركة معارضة استمرت لأكثر من عشرة أيام. وترك الإضراب في الضفة الغربية آثاره البارزة. ولم يحدث ذلك في الجليل الأعلى وهو في الأصل مكان الاحتفال السنوي بهذا الحدث أي في ٣٠ مارس ١٩٧٦، ومثل هذا الإضراب أول صدام عنيف منذ ١٩٤٨ بين الفلسطينيين، والإسرائيليين بعد أن أعلنت السلطات الإسرائيلية أنها ستشرع في مصادرة أراضي عربية موجودة في الجليل الأعلى. ومن اللافت أيضا أن يقوم من باب التضامن الفلسطينيون في الأراضي المحتلة بالاحتفال بهذا اليوم. ويشير الحجم الذي اتخذته هذه الحركة إلى وجود شعور بالضيق العميق.

الأحد ٤ إبريل ١٩٨٢

لم تخلق الدولة اليهودية "الإنسان الجديد" الذي كان ينادي به المشروع الصهيوني. ولكن في مكان ما مطمور في ذاكرتي وفي الجانب الذي تتراكم فيه المعلومات في رأسي،

---

٧٠ رئيسة محاضرين في جامعة باريس VIII، ونائبة مدير المعهد المغربي الأوروبي وعضو إدارة التحرير في المجلة، توفيت منذ قريب أثناء إعداد مؤلفها للنشر بعنوان" رحلة مثقفة في الجزائر،" دار آرتماتان للنشر ١٩٩٥.

٧١ يعتقد أن التوصل إلى إجراء حوار بين السلطة الفلسطينية وإسرائيل والدول العربية يفيد المنطقة بأسرها–المترجم

حملت معي من أيام الشباب فكرة ثابتة بأن اليهودي ينبغي أن يكون على حال غير هذه. وأنه من غير المعقول، مثلاً، أن يعتدي على من هو أكبر منه سنا –وقد أصابني الذهول من رد فعلى عندما سحبت الشاب –وكان من حركة بيطار [٧٢]– وأنا أصرخ فيه، أيفعل اليهودي ذلك ...!؟ أيفعل اليهودي ذلك !؟– لأنه انتزع بعنف اللافتة التي كان يحملها رجل متقدم في السن عليها شعار "شعبان، ودولتان" وعلى ما يبدو لم تكن تروقه هذه الشعارات. بل أكثر من ذلك، لم يكن من المعقول تصور وجود تفرقة عنصرية في الدولة اليهودية. وقالت لي بيرلا كوهين –وهي باحثة اجتماعية من أصل مغربي، مناضلة من أجل الحوار– بأنها تركت إسرائيل حتى لا تنزلق بحالتها الاجتماعية إلى وضع بروليتاري...!!! وهذا بسبب أصلها اليهودي المغربي... وهو المصير الذي ينتظر هذه الجماعة من اليهود العرب في إسرائيل...! وعلمت أن لدى وصول المهاجرين اليهود العرب إلى إسرائيل (ولم يسبق لأحدهم أن نجا بحياته من مذابح ولا إبادة عرقية أو حتى من مجاعات !!)، وزع اليهود من بلدان الشرق الأوسط بصورة تلقائية على أماكن كانت في بداية الأمر مجرد ثكنات وهذا بناء على خطة أعدتها الوكالة اليهودية مسبقا، ولم تر ما يدعو لإخطارهم بما سيحدث لهم عند الوصول ...وبدأت أتعثر في خطاي بسبب كل هذه الحقائق التي علمتها من أول زيارة لي مع سيلفي [٧٣] لإسرائيل في أكتوبر ١٩٨٠. وبمناسبة مقابلتي للصحفيين، ثم زيارة حي يقطنه سكان من شمال إفريقيا في تل أبيب. لا توجد صورة أكثر حزناً من صورة مأساة الاستلاب التطوعي لليهودي الشرقي [٧٤]، وغمر تاريخه، من أجل إدماجه في تاريخ اليهود المضطهدين في أوروبا (تضفي السلطة عليهم قيمة خاصة، بمناسبة احتفالاتهم) . بل لاحظت مظاهر إحباط أكثر قوة لدى اليهودي الشرقي "مقارنة بالعرب " –وهو التعريف الرسمي للفلسطينيين الإسرائيليين– الذي يحتفظون رغم كل ذلك بهويتهم الثقافية. وبما أن "العرب" لا يبعثون على الثقة...!! فإن اليهود السفراد الذين يتحدثون العربية محتقرون...!! ويشكل الأشكيناز الذين أتوا من أوروبا "الشعب المختار". ولقد اتضحت هذه الحقيقة في لمحة سريعة بينما كنت على السفينة التي أقلتنا إلى حيفا: كانت إحدى اليهوديات الإشكيناز تمتدح الحياة في إسرائيل أمام أفراد أسرة يهودية من إيطاليا– من الواضح أنها أسرة موسرة– وتحدثت عن الإمكانيات المتوافرة للإقامة في هذا البلد، وبعد أن أنهت تقريرها عن الحياة اليومية ...تتأوه حسرة، وهي تقول لهم، "*ألا تنظرون كيف هم غارقون في القذارة، جاهلون. غير منضبطين ... ويا للأسف فإن أعدادهم تتزايد كل يوم*". وهؤلاء !؟ كانت تعني بهم

---

٧٢ منظمة من اليمين المتطرف اليهودي ومقرها باريس – المترجم.

٧٣ بريبانت (اليوم أم لبنتين رائعتين وهي صحفية في القناة الأوروبية TV5، وكانت تقوم بتحريات لجيل برو في اوساط الشخصيات الإسرائيلية التقدمية التي كان يعرفها هنري.

٧٤ يصنف جميع اليهود الوافدين من أفريقيا،وآسيا، كيهود شرقيين(مزراحيم)

اليهود العرب الذين يشجعون على الهجرة إلى إسرائيل، ويوزعون "في المدن النامية".التي تحمي الحدود، أو أنهم يتكدسون في أحياء قذرة في مباني شعبية رخيصة، وتصبح بناتهن، عندما يتحلين بمسحة من الجمال، من يمنيات صغيرات نحيفات أو مغربيات رشيقات، "من بائعات الهوى". يتسكعن ذهاباً وإياباً في شارع ديسينجوف في تل أبيب[75]، وهذا هو ما نراه أيضا في هذا الشارع الذي يجمع باعة الوجبات السريعة والكافيتيريا، وحيث تباع فيه الفلافل قليلة المذاق في رغيف البيتاس . ويخطئ مع ذلك عصام عندما يصر في الاعتقاد بأن اليهود العرب يمثلون قوة حليفة للفلسطينيين (ولقد أعلن ذلك مرة أخرى في لموند في فبراير ١٩٨١، رغم نتائج الانتخابات التي جرت في إسرائيل في ١٩٧٧). وهم كيهود، حصلوا على حق المواطنة الكاملة بالقانون، ويمثلون أغلبية، وبذلك يمكنهم أن يتطلعوا إلى السلطة. ولكن يكفي أن نشاهد ما حدث لحركة "الفهود السوداء" الإسرائيلية، وكانت حركة واعدة في أعوام ١٩٧١-١٩٧٣ وكيف تم تصفيتها في نهاية المطاف... .

جنيف، الثلاثاء ١٣ إبريل

يا للأسف الشديد... كان الفلسطينيون غائبون عن مسيرة يوم الأحد ضد السلاح النووي. كان بودي أن تكوني معي يا سانية، ولكن لا زال عمرك ١٠ سنوات، وهي سن تعتبر صغيرة جدا لا تتحمل ساعات طويلة من السير على الأقدام ! وبذلك ذهبت مع صديقتي القديمة روزيت دو فال. وقد حضر المتظاهرون من جميع أنحاء سويسرا، وتوجهوا إلى مدينة بازل وعبروا الحدود الفرنسية الألمانية. إن ألمانيا يا نيفين ! مهرجان كبير بالفعل ! كنا نحتل مساحة واسعة على شاطئ نهر الراين. لم أكن أعرف هذا النوع من الحشود:فهي منظمة تنظيماً دقيقاً، ولو أنها لا تخضع لأي مراقبة حزبية أو نقابية. كنا بالفعل ٢٠ ألف متظاهر بالإضافة إلى المقاتلين من سلفادور، وفاقدو الأمل من غواتيمالا، والبروليتاريون الأكراد. ولكن لا يوجد فلسطينيون... إذا ضاعت فرصة!وصارت تذروها الرياح... للربط بين النووي والنضال ضد احتلال الأراضي

القطار من بروكسل إلى باريس ٦ مايو ١٩٨٢

بعد أن ناقشت في بروكسل مع ميشيل خليفي البحث الذي أعده حول المرأة الفلسطينية وأمامنا طبقين من الباميه. أحب أن أقص عليك يا نيفين الفيلم الذي أعده بعنوان "ذكرى حية". شاهدته عدة مرات. وبنفس المشاعر الجياشة التي تؤدي إلى تساقط الدموع... ولو أن منتج الفيلم لا يبحث عن الإثارة لمجرد الإثارة. فلا يوجد في الفيلم

---

٧٥ أدت أحد عمليات حماس في ١٩ أكتوبر ١٩٧٤ إلى مقتل ٢٢ وإصابة ٦٠ في عملية تفجير أتوبيس .

حدث مأساوي. كل شيء تقترحه شخصيات حقيقية. فيلم وثائقي يمكن أن يعتبر قصة خيالية. تتحدث فيه اثنتين من الفلسطينيات: إحداهن متقدمة في العمر، والأخرى شابة ناضجة، الواحدة يدوية، والأخرى مثقفة، واحدة تعيش في إسرائيل، والأخرى في الأراضي المحتلة. ولا يقدم لهم المنتج أي توجيهات، يتحدثن بكل حرية. الفلسطينية من إسرائيل، مسيحية من قرية في منطقة الناصرة، أرملة بعد أن وضعت في الحياة طفلين، صبي وصبية الآن متزوجان، تحمل هذه المرأة مشاكل الأسرة على كاهلها، متمسكة بالتقاليد، وتعمل رغم أصلها الريفي، كعاملة في ورشة لصنع الملابس. حافظت على قطعة أرض تمتلكها، وإنما ليس لها ولا لأفراد أسرتها الحق في استغلال هذه الأرض: فهي أراضي تعتبر جزءاً من الأراضي الواقعة في الجليل الأعلى التي تم دمجها في "مشروع التنمية" وذلك لمصلحة السكان اليهود. إلا أنها تعاند وترفض مع ذلك بيعها، وهذا رغم الضغوط التي يمارسها عليها حتى ابنها٠٠٠ ثم أنها تعمل من أجل المحافظة عليها. فهي متمسكة بهذه القطعة. تمسكها بالحياة وبأخلاقياتها الصارمة: تزوجت وهي شابة من رجل مسن، صارت أرملة تقريباً عندما بلغ عمرها ٢٦ عاما، وتحمل ضغينة ضد ابنتها لأنها تزوجت من جديد بعد موت زوجها الأول. كل شيء ينبغي أن يظل في مكانه: الأرض، والمرأة، وكدحها. وعندما تعود من المصنع، تساعد في إعداد الوجبة وفي أن ينام الطفل حفيدها، وتمضي أيام العطلة في دبغ الفراء، وفي غزل الصوف.

أما الفلسطينية التي تسكن الأراضي المحتلة فهي مثقفة مسلمة مطلقة ٠٠٠أي توجد على هامش مجتمعها، دون أن تنتهك أي قاعدة من القواعد٠٠٠!! ولا ترغب ميشيل أن توجه إليها أسئلة تتعلق بحياتها كامرأة لأنها لا تود أن تحرجها في خصوصياتها، فهي تريد على العكس المحافظة على بعض المسافة (عالم فسيح من الاختلافات بين حساسيتها المرهفة، وحب التطفل المرضي الذي نشاهده في شخصية مراسل التليفزيون). ومعنا اليوم سحر خليفة (التي طرحت عليها سيلفي بعض الأسئلة أثناء رحلتنا)، وهي أستاذة في جامعة بير زيت وكاتبة، وتقف في طريق مسدود٠٠٠ تعيش في مساحة صغيرة نشعر بها في الفيلم تماما٠٠٠ وكيف أنها وقد اشتد عودها في جو الاحتلال ولكن سوف ينتهي بها المطاف -وهذا بالتأكيد- إلى الهجرة.

باريس، الأحد ١٣ يونيو

٤ يونيو • حدثت الهجمة الجوية الإسرائيلية الموجهة ضد مقر القيادة العسكرية الفلسطينية في بيروت وبهذا وضعت نهاية لوقف إطلاق النار بين إسرائيل ومنظمة التحرير الفلسطينية، وهذا بعد محاولة الاغتيال التي حدثت في لندن (وقد نفا مكتب منظمة التحرير الفلسطينية نفيا قاطعا أي مسئولية له عن هذا الحادث) ضد السفير الإسرائيلي شولومو آرغوف. وأعلن الجنرال شارون: "*علينا أن نتحرك من أجل تدمير منظمة التحرير الفلسطينية نهائيا، وهذه هي الطريقة الوحيدة لكي نحقق بها الأهداف العملية التي*

بدأت في كامب ديفيد ولإبرام اتفاقات أخرى مع جيران إسرائيل الآخرين". وبعد أن قصفت القوات الإسرائيلية عشية يوم ٦ يونيو منطقة جنوب بيروت كلها برا وبحرا وجوا، غزت إسرائيل لبنان. وردت منظمة التحرير الفلسطينية بقصف منشآت تقع في شمال إسرائيل وكذلك دكت مواقع العميل سعد حداد، في جنوب لبنان. وللإقدام على مثل هذه الهجمة القوية لا شك أن إسرائيل كان عليها مسبقا أن تحصل على تأييد واشنطن[٧٦]، كما لو كان من الممكن أن تضع تصفية القواعد العسكرية لمنظمة التحرير الفلسطينية في الخارج نهاية للمقاومة المنتشرة ضد الاحتلال في الداخل !!. نحن في سبيل تنظيم مؤتمر صحفي لماتي ويوري أفنيري في باريس.

جنيف، ١٨ يونيو

تجاوزت عملية "السلام في الجليل الأعلى" ! مسافة ال٤٠ كيلومتر... وضرب جيش الدفاع الإسرائيلي (تساحال) حصاراً حول بيروت. وقد يكون ماتي وأفنيري من الشخصيات المتواضعة[٧٧] وأيضا السرطاوي... ولا شك لم تعوزهم الجرأة : يعقدوا معاً –والحرب مشتعلة– مؤتمرا صحفيا، ومنهم من هو مهدد بالمحاكمة والسجن (إسرائيل لا تعرف عقوبة الإعدام)، والآخر مهدد بتصفيته جسديا بواسطة أعوان أبو نضال الذين لا يكفون عن التجوال بحثا عنه. وكان علينا أن نتخذ احتياطات عديدة من أجل تنظيم هذا الحدث.

وعندما جاء ميعاد حضور حفل نهاية السنة المدرسية[٧٨] في مدينة جيكس في فرنسا تمكنت من تمالك نفسي، ومن استعادة صوابي... يا لشناعة الصور، وقسوة العدوان...!! وعندما أستعيد ذكريات هذه الأحداث أشعر بالهذيان : استراتيجية وحيدة ترمي إلى تخريب كل محاولات التوصل إلى حل... وحصد الليكود أصوات اليهود الناخبين الشرقيين... يا عصام...! ها هم يستهزئون بالرأي العام الأمريكي، بل وبتهديدات الأصوات الزاعقة التي تنادي "بالتشدد"، ومنهم السوري، الذي سارع بتوقيع اتفاق وقف إطلاق النار، والآخر الليبي الذي أصيب بالوهن، و ها هو الغرب

---

٧٦ استطاعت ممثلة الولايات المتحدة الأمريكية في الأمم المتحدة، جين كيرك باتريك، الحصول على تأييد للمبرر الذي عرضته إسرائيل وهو الدفاع عن النفس...!!

٧٧ لا يجنح إلى الراحة أبداً، الوحيد على قيد الحياة من بين ثلاثة – بدأ مع غيره في تنظيم المنظمة غير الحكومية (جوش شالوم) التي حددت كهدف لها تحرير السجناء الفلسطينيين، وانسحاب المستوطنين اليهود من وسط مدينة الخليل واعتبار القدس مدينة للجميع، للإسرائيليين وللفلسطينيين، وللمسلمين، وللمسيحيين ولليهود على حد سواء.

٧٨ حفيدة الكاتبة.

لم ينج المعسكر الاشتراكي من هذه الأزمة...!!

وهاهو الغرب الرأسمالي، رغم استفادته في الماضي من نهب ذهب أمم وشعوب أمريكا الوسطى، وتحويل الأفارقة إلى عبيد، واستغلال المستعمرات مباشرة، مع ضخ موارد الجنوب نحو الشمال، وتكديس أرباحه من مبيعات السلاح إلى بلاد العالم الثالث – مدعيا باستمرار بأنه المدافع الأول عن حقوق الإنسان – ثم يعلن أنه يواجه أزمة استمرت حتى الآن لأكثر من عشرين عاما، دون أن يتمكن أحد، هذه المرة، من تحديد نطاقها أو مداها ..!!!.

علما بأن الخط البياني للبطالة المستشرية يتجه إلى أعلى في صعود منتظم في ظروف النمو ...! ، وتنتشر جيوب الفقر في كل مكان... دون مساءلة النظام ومراجعته..!! وهذا تحت تبريرات تزعم أن هذا لمقتضيات الدفاع عن مبادئ الديموقراطية...!!!

وكل ذلك في الوقت الذي نجح فيه الإنسان في الصعود إلى الفضاء الخارجي في محطات فضائية، والخروج منها ليدرس الكوكب في شموله...!!

والسؤال الذي يطرح نفسه .. بلا انتظار ...!![19]

هل ما زالت هناك حاجة إلى مزيد من الجهود للقصم، والإعتاق !!؟... قبل أن تتمكن عولمة (كوكبة) الاقتصاد من خلق قوى جديدة قادرة على فرض الحلول من شأنها استفادة البشرية من محصلة التقدم الجديد المحرز في ميدان التكنولوجيا المتطورة...؟؟ !

فصم العلاقات، والإعتاق ...

مع وجود هنري، كان الأمر سهلا. بل كان كذلك حتى بدونه...! فقد صاحب هذا التحرر نوع من الشعور الجارف بالسعادة التي تسري في الأوصال. وأتساءل...؟ من لم يذق من حبايبي هذا الشعور؟.

أجل تنمية البشرية " (٥) مؤكدا على ضرورة اكتساب الشعوب الفقيرة القدرة على تحديد مصيرها . وأصدر الأب الفرانسيسكاني البرازيلي (ليوناردو بوف) في ١٩٨٥ مجموعة مقالات يؤيد فيها الاعتقاد بأن الكنيسة هي كنيسة الفقراء وأن لابد أن ينتهي بها المطاف إلى مساعدة الفقراء في الوصول إلى سدة الحكم . ووجه الكاردينال راتزنجر إصبع الاتهام إلى لاهوتي التحرير، واتهمهم بأنهم استعانوا بمفاهيم مستقاة من التعاليم الماركسية ، ولقد تبرأ منهم البابا يوحنا بولس الثاني، ولكن ظلت المجموعات الكنسية القاعدية نشطة في أمريكا اللاتينية، لا سيما بين الفلاحين المعدمين، والسكان الهنود، إلا أن عبارة " التحرير" استعوضت تدريجيا فيما بعد بعبارة " التضامن" .كما انتشرت هذه الحركة بأشكال مختلفة في قارات أخرى.

١٩ الصبر حيلة من لا حيلة له – المترجم !

المتقاعس!!؟ فلقد ساعدت الحرب في الشرق الأوسط يا أعزائي، على صعود الدولار حتى وصل ٨٧ر٦ فرنك فرنسي كما أن أسعار النفط[٧٩] هذه المرة لم تتحرك قيد أنملة.

٢٥ يونيو

بدأ قصف بيروت الغربية في الفجر··· ولم يتوقف··· إنهم يريدون إخلاء المدينة تماماً.

ونشاهد ياسر عرفات في التليفزيون الأمريكي. وقد شاب شعر لحيته ··· عدواني تهجمي. متغطرس مستهجن. متصلب الرأي. يحاول جهده تحويل الهزيمة إلى انتصار ديبلوماسي··· ويبعث تصميمه هذا على الشعور بالاطمئنان ···

نشاهد كل هذه الجماهير المنسية تقع تحت رحمة كعوب ميليشيات الكتائب الفاشست. ثم هؤلاء الدروز من جنوب شرق بيروت الذين نعت رؤسائهم بالتقدميين، ألقوا بأنفسهم أرضا أمام "جميل" بعد أن هزمتهم قوات (ساحال). استمر العدوان عشرين يوما كاملة. عشرين يوماً من القصف المستمر للسكان المدنيين العزل بلا هوادة···

منتصف الليل

لم أستطع النوم. اصطحبت معي حفيدتي سانية إلي حفل شعبي سويسري كمكافأة لها على تقرير عن نشاطها المدرسي ···كان أقل سوءا مما هو عليه في العادة. ولاحظت وأنا مندهشة مدى ما تشعر به من استقلالية، ورغبة في التعرف على الأشياء. جذبتني إلى مشاهدة مسرحية جعلتني أهذي تقريباً من الفرح··· عندما تمكنت ممثلة تتقمص شكل دمية (عروسه) من المطاط من إنقاذ هذه المسرحية من سطحيتها، وارتفعت في أدائها إلى أعلى درجات الإتقان: وتحاول بواسطة خيط متدل أن تمسك به دون نجاح، ويرتفع إلى موضع أعلى، وتسقط وهي مطوية، وتبدأ من جديد··· و هلم جرى. وفي موضع آخر رجال يحملون أقنعة أو مجرد أقنعة فقط، وراء كوة صغيرة لسجن تحيط بها أسماء المفقودين. وكانت منصة الفلسطينيين منصة مشرفة، تجد فيها الفلافل، لا بأس من مذاقها . وطلبت سانية وهي لا تعرف معنى كلمة "فلسطين" (يا لها من أسر تربي أطفالها دون أن تغرس فيهم الوعي بمشاكل عالمهم !) بل أصرت على تناول طبق من الجمبري المشوي في المنصة السويسرية···!! قدمها لها على أية حال أحد الزملاء الذين أقاموا مشروعا تعاونيا للإدارة الذاتية.

---

٧٩ لم تحرك البلدان العربية ساكنا هذه المرة.

٣ يوليو

نداء مشترك لوقف المعارك في لبنان وفتح باب المفاوضات من أجل سلام بين إسرائيل ومنظمة التحرير الفلسطينية أعلنه بيير منديس فرانس، وناحوم جولدمان وفيليب كلوتزينيك. ووافق عليه فورا السرطاوي الذي كان على علم بالموضوع. صحيح الشخصيات اليهودية كانت شخصيات ذات نفوذ معنوي كبير، ولكن الثلاثة " القدامى" (أحدهم مقاوم ورئيس المجلس بلغ من العمر ٧٥ عاما، والثاني مؤسس ورئيس الكونجوس اليهودي العالمي وقد بلغ من العمر ٨٧ عاماً، والثالث وزير في إدارة كارتر ويبلغ من العمر ٧٥ عاما)، كان يجمعهم شئ واحد وهو أنهم جميعا بلا سلطة٠٠٠!!!

تشعر الجاليات اليهودية في الشتات بالضيق. فلأول مرة تهاجم إسرائيل دون الاستناد إلى مبرر الدفاع المشروع[٨٠]: فلا يمكن أن يندفع الجيش إلى الهجوم على بلد مجاور، ولا أن يقصف السكان الآمنين لأن محاولة اغتيال ارتكبت ضد سفير بواسطة مجموعة هامشية. ولكن أين هي القوى التي تنادي بالتفاوض داخل إسرائيل ؟ ولماذا لا يخاطب عرفات أبدا الشعب الإسرائيلي ؟ فقط السرطاوي يقوم بذلك ... ؟ ! .

محطة ليون للسكة الحديد في باريس، السبت ١٠ يوليو

اتصل أبو فيصل أثناء اجتماع هذا الصباح بالتليفون من بيروت. ومن قوة التأثر والسعادة بدأت جويس في التأتأة في الكلام، وأصيبت سيلفي مونترون[٨١] بحالة من الضحك الهستيري، ولم تتمكن من التوقف، وتمسك جيهان بحكمته الأبدية "*لا أعرف إذا ما كنت تفهم ما أود قوله*". والتجأت إلى الحمام حتى لا أنفجر بدوري٠٠٠ ولكن من الغضب ٠٠٠هل تعلمن يا بناتي ما كان شعورنا عندما سمعنا في هذه اللحظة[٨٢]، صوت مراسلنا في بيروت ٠٠٠إذن أبو فيصل على قيد الحياة٠٠٠؟

---

٨٠ واليوم يستطيع شارون (وأي قائد آخر) أن يوقع العقوبات الجماعية، ويقوم بعمليات الاغتيال المستهدفة، ويقصف منازل الأسر، ويضمن بناء مستوطنات جديدة، ويلجأ إلى التعذيب بصورة رسمية دون أن يؤدي ذلك إلى إزعاج اليهود في الولايات المتحدة الأمريكية وفي فرنسا٠٠٠!!

٨١ تقريباً عضو دائم في سكرتارية لجنتنا، ضالعة بقوة في نشاط الحركة المناهضة للسلاح النووي.

٨٢ قام الإسرائيليون في العاشر والحادي عشر من يوليو بقصف مكثف للمنطقة، دون مراعاة لوجود المستشفيات والسفارات، وقمعت في الأراضي المحتلة مظاهرات مؤيدة لمنظمة التحرير الفلسطينية بقسوة شديدة، وفي إسرائيل، حشدت مظاهرة لتأييد الحكومة ما يقرب من ألفين شخص، وكان الحديث يدور حول ترحيل السكان الفلسطينيين إلى سوريا والعراق.

١٣ يوليو

سجلت ورقة البحث التي أعدها السرطاوي وألقاها أمام المعهد الفرنسي للبحوث الدولية، وكانت ورقة طويلة أكثر من اللازم ولكنها مدعمة بالحجج وتتناول اعتراف منظمة التحرير الفلسطينية – الضمني والعلني – بوجود دولة إسرائيل[٨٣].

٢٠ يوليو

مؤتمر صحفي مشترك لبيليد والسرطاوي برئاسة مكسيم رودنسون (يضطرك إلى الرجاء دائماً حتى يوافق... ولكنه بعد أن يوافق يسعده ذلك للغاية...!). كان هناك جمع غفير في قاعة فنون زراعة الحدائق، وكانت احتياطات الأمن ممتازة. ولكن ينبغي علينا أن نعد الهياكل والبنى إن أردنا الاستمرار في تنظيم المقابلات العلنية. و كانت الدعوات هذه المرة أيضاً معدة باسم المتحدثين في المؤتمر. وتطلب لتفريغ كل ما يوجد على أشرطة التسجيل مجهود كبير تتطلب عشرات الساعات من العمل المتواصل.

١٠ أغسطس

كوّنا "لجنة فلسطين وإسرائيل ستدوم". وفكرة التسوية من الأفكار التي أفرزها يوسف حزان من جعبته (وكان هنري دائماً يعتز بأفكاره الجيدة). وبالرغم من أنها منظمة غير حكومية فرنسية، إلا أني اشتركت فيها وعينت بالاسم (خفف وصول اليسار إلى الحكم من التصلب الوطني الذي كان سائدا قديما). ووضعنا أمامنا هدفين... وهما: تنظيم منتدى (في باريس أو في أي مكان آخر في أوروبا)، حيث يتمكن المثقفون الفلسطينيون والإسرائيليون من إجراء مناقشة متعمقة للمشاكل المسببة للنزاع والخصومة، وللتوصل إلى استنتاجات، وللتعريف بالأنشطة التي أنجزتها قوى السلام في إسرائيل مع دعم كل مبادرة تحبذ إقامة الاتصالات بين الطرفين. ويتكون المكتب من شخصيات، أما العناصر النشطة فتوجد في السكرتارية. وهم معروفون... ونشر بياننا في الصحافة. وقد قامت مجموعتي "الأسرية" في جنيف المكونة من (نيفين ومحرم) بسداد مبلغ ٥٠٠ فرنك كاشتراك شهري للمساعدة في تحمل مصروفات السكرتارية الشبه دائمة.

---

٨٣ كما قال أفنيري (في كتابه بعنوان" أخي عدوي"، باريس ١٩٨٦)، تم تصميم هذا البحث قبل حرب لبنان (ليلقى في ١٤ يوليو)، وكان على عرفات أن يصادق عليه، ولكن هيج وشارون قاموا بتخريب هذه المبادرة بإطلاق العنان للعمليات العدوانية.

١٢ أغسطس

قصف مكثف لبيروت الغربية. رغم موافقة منظمة التحرير الفلسطينية على خطة إجلاء الفدائيين التي عرضها فيليب حبيب[٨٤].

٢٠ أغسطس

تحتاج بيروت إلى مواد التموين والمياه، ووافقت إسرائيل على خطة فيليب حبيب[٨٥]. واتهم الوزراء شارون بأنه قد تجاوز حدود سلطاته.

وإني أتساءل ما هو نوع النسيج الذي يتكون منه هذا المواطن الإسرائيلي الذي يتمتع بالحريات الديموقراطية ويترك نفسه رغم ذلك رهينة ليحكم بواسطة هذا الوحش سفاك الدماء ؟.

جنيف، الأحد ١٩ سبتمبر

مذابح أخرى في مخيمات اللاجئين الفلسطينيين في جنوب بيروت. قامت بها ميليشيات الكتائب المسيحية اللبنانية. تحت نظر (تساحال). وبعد ثلاثة أشهر من الحصار والقصف بالقنابل ومغادرة (يوم ١٣ وهو يوم حزين... يوم عيد ميلاد هنري) الوحدة الفرنسية التابعة للقوات المتعددة الجنسية (غادرت شهرا قبل الميعاد المحدد) استمرت المذبحة لثلاثة أيام متواصلة . استخدمت فيها البلط الحادة، والسكاكين والمطاوي. وقاموا أيضا بسرقة المجوهرات والحلى الذهبية القليلة التي كانت تجمعها النساء البائسات لتعينها في تزويج بناتهن. وما كان بوسعهم أن يقترفوا مثل هذه الفظائع دون تأكيد مسبق بأن (تساحال) لن يتدخل. وأبلغ رجال شارون هؤلاء العملاء بأن الوقت مناسب للقيام بعملياتهم الإجرامية، وهذا بإطلاق قذيفة مضيئة في سواد الليل ...!! ومن يدري فقد يكون هذا المتعصب قد فكر في طريقة للتخلص من اكتظاظ السكان الفلسطينيين[٨٦]... ينتابني شعور قوي بالغثيان .

---

٨٤ رأت ضرورة نشر قوة دولية للفصل بين القوات المتقاتلة وتتكون من وحدات توفرها فرنسا، وإيطاليا، والولايات المتحدة الأمريكية للإشراف على إجلاء المقاتلين الفلسطينيين وضمان أمن السكان في بيروت الغربية، بما في ذلك مخيمات اللاجئين الفلسطينيين الباقية.

٨٥ تم الانسحاب الفلسطيني في الفترة بين ٢١ أغسطس و٣ سبتمبر (حوالي ١٤٥٠٠ مقاتل) وركب عرفات على متن سفينة في ٣٠ أغسطس مع العناصر القريبة منه ترافقها السفن الحربية الامريكية والفرنسية. وبدأت أعمال العنف مرة أخرى باغتيال بشير جميل في ١٤ سبتمبر (وهو رئيس لبنان المنتخب في ٢٣ أغسطس).

٨٦ فابتداء من يوم ٢٨ سبتمبر كتب آزييف شيف مراسل حربي لجريدة هاآرتس. أن عملية صبرا وشاتيلا كانت تهدف إلى إثارة حالة من "الرعب والهلع وتؤدي إلى هجرة ضخمة للفلسطينيين إلى سوريا" عندما يدركون بصورة وحشية أن أمنهم لم يعد مضمونا في لبنان.

٢٢ سبتمبر

نقطة اللاحتمال. وأقولها بكل جوارحي ... اللعنة على القتلة المغتالين وعلى أعوانهم المتآمرين ! تظاهروا يا نساء الناصرة وارفعوا قبضات أيديكن ! على الأقل اصرخوا إن لم تستطعن فعل شئ آخر ![٨٧].

٢٨ سبتمبر

لنتذكر بسرعة مسيرة ٤٠ ألف متظاهر في تل أبيب[٨٨] ... نشاهد الجنود والضباط الإسرائيليون يرفضون القتال في لبنان[٨٩]. ومظاهرات شالوم أكشهاف(السلام الآن). ويطلب دوريت شيكارسكي ١٦ عاما تقريبا في ١٩٨٠، من والديه الإذن لاستقبالنا، أنا وسيلفي، وكان على رأس مجموعة من الطلبة بلغ عددهم ٢٧ طالبا تقدموا بعريضة إلى وزير الدفاع يعلنون فيها رفضهم الخدمة العسكرية في الأراضي المحتلة ...لأنهم يرفضون استعباد شعب آخر.

تناولت خطة قمة البلدان العربية (ومنظمة التحرير الفلسطينية) المنعقدة في مدينة فاس القرارات الصادرة عن الأمم المتحدة. إذن ما هي المبررات التي سوف تتكئ عليها إسرائيل هذه المرة ؟ هل ستترك الولايات المتحدة الأمريكية العنان بصورة نهائية... حتى تسيطر إسرائيل على المبادرات[٩٠]، ويقوم السوفييت بمجرد الحديث عن المباديء دون أن يحركوا الوضع[٩١] ساكنا ؟.

---

٨٧ واكتفي بذلك ولن أسترسل !

٨٨ أجبر بيغين –في ٢٥ سبتمبر –على تشكيل لجنة التحقيق كاهان حددت استنتاجاهّا مسئولية قيادة الجيش غير المباشرة ، وعوقب شارون مع ذلك عقاباً خفيفاً وأصبح وزيراً للإسكان، ومارس سياسة الاستيطان مطلقة العنان في الأراضي المحتلة. وهي سياسة يستمر في ممارستها منذ أن انتخب رئيساً للوزراء.

٨٩ وقد نظموا في إطار حركة يشجوفول (هناك حدوداً) استمرت في العمل بعد انتهاء حرب لبنان.

٩٠ كان هذا يدور في نفس وقت انتشار الحرب الباردة وإرهاب إدارة المخابرات الأمريكية .

٩١ الوقت غير مناسب، لأنه بعد وفاة الرئيس العليل بريجنيف، توفى رئيس بعد الآخر.

اكتشاف من الداخل ... !

تل أبيب، أكتوبر ١٩٨٢

تفرض إحدى الحقائق نفسها بقوة على الواقع: مركز الحركة الدافعة في تاريخ الفلسطينيين يوجد في الأراضي التي احتلتها إسرائيل عام ١٩٦٧. ولفت ذلك نظري من الوهلة الأولى أثناء رحلتي عام١٩٨٠. وهذا هو سبب اختياري معالجة قضية النساء الفلسطينيات في الداخل دون الاقتصار على تناول قضيتهن في الشتات وذلك لإعداد مادة لمقالي، ولاستخدامها في بحثي حول النساء الذي نشر فيما بعد في العدد الخاص بشعوب المتوسط[٩٢]. وينصب التحقيق الذي قمت به -واستأنفته بعد الصدمة النفسية التي أعقبت حرب لبنان-، على أحوال الفلسطينيات في إسرائيل أيضاً، وهن اللاتي يناضلن في الرابطات مع أقرانهن اليهوديات وتظل علاقاتهن قائمة مع فلسطينيات الأراضي المحتلة. وفتشت في بطاقات الحفظ في المكتبات الجامعية في كل من تل أبيب والقدس (يا لها من مكتبة عظيمة تلك الموجودة في الجامعة العبرية المقامة على مرتفعات مونت سكوبيوس!) وقمت بهذا العمل على أمل أن تستريح نفسيتي وأن أحقق أقصى استفادة من زيارتي. وبفضل سميرة خوري- مناضلة شيوعية من زمن البطولة الأسطوري المسيحي(١٩٤٨) كما هو حال كثير من المناضلين الماركسيين (غالبيتهم من المناطق الحضرية)- وبعد أن طرحت عليها أسئلة عديدة - استطعت أن أحول بحثي الذي كان قد اتخذ شكلا رقميا إحصائيا إلى بحث يحمل مضامين إنسانية.

صحبتنا(أنا وسيلفي) في البداية الزميلة سميرة من القيادة ٠٠٠إلى مؤتمر وطني نسائي (في بيت ابا خوشي، في حيفا): وكان المؤتمر يسعى إلى محاولة فهم، واستيعاب معنى ظاهرة هجر الشباب التقليدي من "الحركة الديموقراطية للنساء" المرتبطة بحزب راكاح (فكما هو الحال في كل مكان لم تستطع القائمات بالتخطيط أن تستجيب للحقائق الجديدة الدامغة)، وانضمت إلينا يافا الرقيقة وهي أيضا من بين قادة الحركة، وهي يهودية. ولأول مرة وبوصفهن فلسطينيات استطاع "العرب" في إسرائيل الحصول على دعوة. ولأني لم يسبق لي مناقشة قضايا نسوانية، فلقد اهتممت بصورة أكبر بهذا الحدث. وشاركت الفلسطينيات في ورشتين: إحداها يتناول وضعهن في إسرائيل، والأخرى يتناول مشكلة المرأة والحرب. أما المناقشة (التي استطعت أن أتابعها بفضل ترجمة منها إلى العربية، وهي محامية شابة تحت التدريب من حيفا ومن مواليد عكا) فلقد دارت كلها بحماس. ومن بين المتحدثات صحفية متمرسة تبعث تصرفاتها على الامتعاض، بنبرتها

---

٩٢ تنسقه مونيك جادان، العدد رقم ٢٢-٢٣، يناير- يونيو ١٩٨٣، النساء الفلسطينيات في الداخل، الصفحات ١٣١-١٤٧ (ترجمته إلى الإنكليزية دار إيتاكا برس ١٩٨٦).

السلطوية التي تطفح منها نعرة الاحتقار المعتادة عند العنصريين، ولم أستغرب عندما علمت في اليوم التالي أن تقريرها في الصحافة أفرز سما زعافا ضد المنظمات اللاتي أعطين" *الكلمة للإرهابيين*" أي (منظمة التحرير الفلسطينية). ولم تتمكن الفلسطينيات من رفع شعارهن بين الشعارات أثناء المظاهرات التي سارت في شوارع حيفا وكانت كلها شعارات نسوانية بحتة. وهذا هو سبب رفضهن الاشتراك في المظاهرة، وقمنا بمتابعة هذه المظاهرة ونحن واقفون أمام قسم بوليس. وأستطيع أن أقول أن المؤتمرات النسوانية، من المناسبات الممتعة التي تمارس فيها الرياضة البدنية بوتيرة تمكن المرأة من تليين عضلات جسمها (مما أثار حفيظة سيلفي وفقدت أعصابها، وهي شديدة الحساسية من كل ما يمت للأمريكي بصلة).

واستطعت عن طريق سميرة طرح أسئلة على عدد من النساء من مدينة الناصرة. ولم أنجح تماما في تشجيع طالبة رائعة الجمال في جامعة بير زيت في الضفة الغربية في أن تتحدث معي(لا توجد جامعة عربية في إسرائيل): تسريحة شعرها كلها ضفائر على الطريقة الأفريقية، وكبقية الطالبات (من إسرائيل والضفة الغربية)، ترتدي بنطلون الجينز. شابة ذات ستة عشر ربيعا أذهلتني: متواضعة النشأة، داهية ومسلية في ان واحد تتحكم في أنفاس المستمعين عندما قصت قصة تحقيق الشرطة معها الذي استمر عدة أيام (وسجلت ما ذكرته وغيره من المقابلات لنشرها في مجلة مناضلة)[93].

ولقد انفعلت كثيراً عندما وافقت أم لأسرة عمالية تتكون منها ومن ثمانية أطفال (كانت قد حملت ستة عشر طفلاً في حياتها) على إجراء حديث معي وهي من حي يافات الناصرة حتى أني أجد صعوبة في التعبير عن نفسي. امرأة طويلة جميلة متناسقة القوام، استقبلتني في غرفة واسعة ذات أرضية مكشوفة وخالية من الرياش (إلا من أريكة وماكينة خياطة كهربائية تستعملها أحد بناتها، وهي عاملة يومية في مصنع للنسيج)، غرفة واحدة هي كل ما في المنزل المكون من أرضية تحيطه مساحة ترابية مليئة بالحصى. ومنه نستطيع أن نرى من على بعد الأراضي الغنية المزروعة جيدا في منطقة نامية تحتلها الأسر اليهودية. وتذوقت عندها المناقيش اللذيذة وهي من الخبز الذي يغمر في زيت الزيتون، ومن مكوناته أيضاً السمسم، ثم يسوى على نار من الفحم الخشبي.

ومن بين المثقفات، فضلا عن مها، أجريت حديثا مع ندى، من الطائفة الدرزية في الجليل الأعلى. وهي أم لطفلين، ومع ذلك فلقد استأنفت دراستها الجامعية في حيفا، وهي متزوجة من كاتب شيوعي (ولولا هذا ما كان بإمكانها مواصلة دراستها... إن القرييين من الطائفة الدرزية يستطيعون فهم ذلك... فلا يمكن حسب التقاليد أن يقوم لمثل هذا

---

٩٣ منشورة في عدد من أجل فلسطين (رابطة فرنسا – فلسطين) العدد الأول، الربع الأول من ١٩٨٣، الصفحة ٩ والرقم ٧، الربع السنوي الثالث ١٩٨٤، الصفحات من ١٤-١٦.

الوضع قائمة...!!) ولقد أجريت الحديث بالفرنسية. حالة نادرة تماما. وشرح لي المناضلين في الأرضي المحتلة استراتيجية، وأبعاد المخطط الحكومي الإسرائيلي: وهو خلق جماعة فلسطينية في الأراضي المحتلة لإدارة شئون السكان (تطبيقا لمبدأ الاستقلال الذاتي حسب ما نصت عليه اتفاقيات كامب ديفيد) ولكن على أن يقبلوا ان تظل الأرض إسرائيلية ![94]) ومن هنا نبعت الفكرة لدى السلطات العسكرية لخلق نوع من التجمعات القروية "أم القرى"، رؤسائها لفظهم السكان، مثل مصطفى دودين من الخليل، وبشارة خمسية من بيت لحم، ويوسف الخطيب من رام الله. وفي أول فرصة -وهذا لا شك فيه- سيغتالهم ذويهم... وبئس المصير. وتعتبر مجلتهم الأسبوعية بعنوان (أم القرى) ورقة لجمع القاذورات. وما زال يوجد في السلطة من يهذي: فلم تؤد الحرب في لبنان إلى حدوث أي تقهقر في صفوف الفلسطينيين .وفي الأراضي المحتلة لا زالت منظمة التحرير الفلسطينية دائما المنظمة الشرعية للسكان.

باريس ١٤ ديسمبر ١٩٨٢

ويلاحظ أن الفلسطينيات هن الوحيدات في منطقة البحر الأبيض المتوسط اللاتي يقدن نضالا... هنا في إسرائيل للاعتراف بأنهن أقلية ذات حقوق مواطنة كاملة، وهناك في الأراضي المحتلة يناضلن ضد احتلال من النوع الكولونيالي. هل سيتمكن يا ترى تجاوز الفكر الوطني الضيق المحدود، الذي لا يتوانى عن دفع طليعتهن إلى مواقع هامشية عندما تصبح بكل بساطة النساء حبيسة دور وهو المحافظة على القيم والتقاليد...؟؟!! لتشكل منها الشخصية الثقافية الوطنية...!! خطاب يضايق حقا ...يتشدق به حتى الجامعيون الغربيون المتعاطفون مع القضية الفلسطينية. علما بأن الشخصية الثقافية الوطنية تضم كما هو معروف عناصر متناقضة على مستوى الجماعة وكذلك على مستوى الفرد ...

إلا أننا على ما يبدو نطالب الفلسطينيين بأكثر من طاقتهم[95].

كانت رأسي ممتلئة بكلام الشباب -قبل حرب لبنان- عن الثورة العربية الشاملة التي يقودها فلسطينيون، وقد رفعوا إلى مرتبة الشعب الطليعي، وهذا بينما لم تزل توجد القيادة السياسية والمناضلين الصداميين في جنوب لبنان وفي غرب بيروت، وكان

---

٩٤ لم يستهدف الاستقلال الذاتي الذي تعهدت به اتفاقات ١٩٧٨ إلا السكان ، ولم يستهدف أراضى الضفة الغربية ، وقطاع غزه (ولذا نفهم السبب الذي دفع بيجين إلى الاعتراض بشدة على إشراك الفلسطينيين في مفاوضات السلام مع السادات)وقد أثرت أيضا سلبا النتائج المترتبة على اتباع سياسة الخطوة خطوة التي نجح كيسنجر في غرزها في المنظور العالمي للرئيس كارتر

٩٥ في فمهم ماء ، وهل ينطق من في فيه ماء...!!!--المترجم

الموجودين منهم داخل الأراضي المحتلة يمثلون قوة مكملة. وهذا دون إجراء أي تحليل لمظاهر التعقيد التي مست تطور القوى الاجتماعية. ومع ذلك جاءت إلى أبواب القدس جموع العمال لإجراء عملية فرز اليد العاملة الوافدة من الأراضي المحتلة لتشغيلها في المنشآت الإسرائيلية، ويقوم بعملية الفرز "ريس" فلسطيني. هل يا ترى هو أيضا ثوري أممي عربي...!! ؟ ما هذا الهراء ؟ ومناضلين يتشدقون بكلام في الاجتماعات المنعقدة في باريس... مجرد إرهاصات ...ليس لديهم الجرأة والجسارة الكافية لمخالفة القواعد المطبقة في بلادهم... وهذا على الأقل في محاولة منهم للإعراب عن تضامنهم مع المقاتلين الفلسطينيين، لا بل تركوا ليواجهوا وحدهم بطش الجيش الإسرائيلي.

وما قولكم في الحرب التي اندلعت في مخيمات الفلسطينيين في طرابلس، والحلف المعقود بين القوات المنشقة عن منظمة التحرير الفلسطينية وسوريا حافظ لأسد !! بالتأكيد خسر عرفات وأنصاره المعركة... ولكني تأكدت من اكتسابهم تقدير وإعجاب الفلسطينيين في الأراضي الفلسطينية المحتلة ... أليس هذا انتصار...؟ ولكن في معركة أخرى...؟

١٦ ديسمبر

يتطلب الأمر مراجعة المقولة التي تنص على ضرورة انضواء العمال في أوجه نضال "عادلة!!" وباعتبارها مقولة واضحة التي لا لبس فيها ...!!. ولكن في فرنسا مثلا، لو طلب الحزب الشيوعي الفرنسي من العمال المقاومة بكل الطرق الممكنة "الحروب الدائرة في الجزائر"، ما كان سيتبعه أحد، ومن اللافت للنظر أن المثقفين هم الذين نظموا شبكات المساعدة لجبهة التحرير الوطني الجزائرية. كما يلاحظ أن غالبية النشطاء في الحركة الحالية "المناهضة للحرب في لبنان" و"التضامن مع جامعة بير زيت" تعود أصولهم إلى الطبقة المتوسطة. ومنهم هنري روزينفيلد وجودي بلانك[٩٦]، وخطابهم عبارة عن توليفة تتكون من مختلف التيارات الإيديولوجية تشير إلى قيم الاشتراكية الوطنية، وإلى توجهات الإنسانية والأممية. وإذا كان مستوى حدة الاشتباك مختلفا (حيث لا يحتاج الإسرائيليون للدخول في أي نشاط سري لدعم القضية الفلسطينية)، إلا أنهم اختاروا مثل الفلسطينيين أن يضعوا موضع التنفيذ الدفاع عن مبادئهم، بل حتى إن أدى ذلك إلى قطع العلاقات القائمة مع التوافق الوطني العام في إسرائيل. وبالنسبة لهؤلاء فلا شك أنهم قد خصصوا وقتا كافيا للتفكير قبل اتخاذ هذه الخطوة. أما العامل فليس لديه هذه الإمكانية:

---

٩٦ وهم من العناصر النشطة في كتلة السلام (بات شالوم)، التي نظمت بعد مدريد وتضم مندوبين عماليين ومن حزب ميريتس (وهو انشقاق يساري في حزب العمل الذي يدعو إلى دولة علمانية)، ويناضل من أجل تطبيق اتفاقات أوسلو.

وهو مشغول بعمله لكل الوقت، وتقوم وسائل الإعلام بتأطير ما يتبقى من تفكيره المنطقي، وتنحصر آلية الفعل ورد الفعل في مجرد الدفاع عن مصالحه الآنية أو عن معاشه .

جنيف، ٢٥ ديسمبر

خبر وفاة آراجون (ذكريني يا بناتي أن أسمعكن أشعاره التي يغنيها ليوي فيري وجون فيرا) ولكن يصحب ذلك الخبر تعليقات جارحة تبث على أمواج الإذاعة الذليلة عندما تتحدث عن هذه الشخصيات العظيمة ...

لا شك أننا نشعر " بالآسي" لاغتيال قريب منا أو لاستمرار الحرب الدائرة في لبنان التي لا نعرف بعد نتائجها النهائية. ولا ندري ما هو المطلوب أكثر من ذلك ...؟ لتفكيك هذا التوافق الوطني العام السائد في إسرائيل؟ لقد تطلب الأمر اندلاع حربين عالميتين حتى تنهض الشعوب الأوروبية من كبوتها، وتهتز لتزيح جانبا خمولها، ولتخرج من حالة خمودها ولامبالاتها. سنوات عديدة من الفشل في فييتنام حتى يطالب الشعب الأمريكي رؤسائه بوضع نهاية لهذا العدوان (وفقط بعد هذه الغفوة الطويلة شاهدنا الأفلام السينمائية التي تعالج التوسع في الاتجار بالمخدرات، وتنتقد خشونة وغلظة القادة العسكريين الأمريكيين). ثم سنوات عديدة أخرى من الحرب ومذابح السكان. ويتقدم بطلب -وهذا صحيح- لتشكيل لجنة تحقيق، تتناول المحاسبة على المذابح المقترفة في صبرا وشاتيلا، ولكن رغم هذه المأساة لماذا لم تطالب المظاهرات الهامة في إسرائيل بعد ١٩٤٨ بإجراء الحوار مع منظمة التحرير الفلسطينية ؟

٣ يناير ١٩٨٣

طلبت مني فلورنس أن أعد بعض الملاحظات على التشكيلات السياسية الإسرائيلية: وكانت ضمن وفد يتكون من موريس بارت وبيرتران ماين من الوفد الفرنسي الذي أوفدته لجنتنا لجس نبض مشروع عقد المنتدى. هذه لحظة فريدة: يقف ميتران موقفا ممتازا يحترم فيه مصالح الطرفين[٩٧]، ويسير في خطاه المسئول الجديد للعلاقات الدولية في الحزب الاشتراكي جاك هانتيزجر. ومع ذلك كان ينبغي أن يرسل وجوها معروفة للمجتمع الإسرائيلي.

---

٩٧ أنظر لموند في ٣٠ ديسمبر ١٩٨٢.

كان خيار الإعتاق في مصر الأربعينات...التي كانت تغلي من الداخل، أمرا لا رجوع فيه.

فالشيوعية كانت محظورة...!؟ وأصبح سبر العلاقات، وفصمها مع الأوساط التي كنا ننتمي إليها أمرا محتوما ...

"كان الحط من شأن الفلاح وآدميته -وهو يمثل الغالبية العظمى من السكان العاملين- إلى مرتبة الدواب...! وعنجهية وغطرسة فئة الإداريين العسكريين الإنجليز، والفساد المستشري، حافزا على النضال، وفصم العلاقات مع تلك الأوساط.

وكان الإعتاق هو الخيار الذي فضله كثير من شباب الأقليات (لاسيما اليهود منهم، وقد اشتعل حماسهم للنضال ضد النازية، والفاشية) .

بل اختارت هذا التوجه أيضا جماهير الشباب المسلم... بسبب تردد ساد مواقف، ونشاط الأحزاب الوطنية، أو فضله الذين أصيبوا بالملل من الاستماع إلى الكلمات الطنانه، والخطب (الحنجورية_...!!) الرنانة دون أن يتبع ذلك فعل ملموس، وعلى سبيل المثال... ما كانت تتشدق به قيادة الإخوان المسلمين.

وكان عثمان من بين هؤلاء الشباب ...- رفيق الطريق، والضابط في سلاح الفرسان، في الجيش المصري، والمرشح لدخول الحرس الملكي-.

فور زواجنا-(جندنا)أحد المعارف القدامى-انضممنا إلى إحدى المنظمات الشيوعية الموجودة التي ازداد حماسها بعد الانتصارات السوفيتية الجبارة على قوى المحور.

وهدفت منظمتنا، التي ساهم في إنشائها هنري كورييل، إلى ربط النضال من أجل تحقيق أهداف التحرير الوطني، بأهداف التحرر الاجتماعي...

وكانت خطوة جسورة.

وبعد مرور عقد من النضال السري(١٩٤٣ - ١٩٥٣) بدأت تتحقق الأهداف..

جلت القوات البريطانية عن منطقة قناة السويس... وسقط النظام الملكي... - صحيح أنه انهار في أحضان انقلاب عسكري...-لكنه انقلاب قام به ضباط أحرار وطنيون ممثلون لفئات اجتماعية متوسطة، ومنهم من كان متعاطفا معنا، إن لم يكن عضوا في منظمتنا.

وقام الضباط الأحرار بأول إصلاح زراعي، ولكننا مع ذلك كنا نطالب بالعودة إلى النظام البرلماني، وإلى تعدد الأحزاب- تأييدا للتيار الذي مثله خالد محي الدين في مجلس الثورة-.

وشعر عثمان _الذي اشترك معه في الانقلاب- باللبس والتخبط، بسبب الصراعات الجارية داخل دهاليز السلطة الجديدة... وفضل الابتعاد... وعين ملحقا عسكريا في سفارة مصر في موسكو... واختار بعد ذلك السلك الدبلوماسي كمستقبل مهني.

١٨ يناير

وأخيرا أعلن ياسر عرفات وأبو مازن (وهو مستشار نشط جدا متعاطف مع مبدأ الحوار)[٩٨]، الموافقة على اجراء مقابلة رسمية: واستقبل عماد شكور، والسرطاوي وفدا من مجلس السلام الإسرائيلي (ماتي، وأوفنيري، وأرنون). وكانت نتيجة ذلك أن فزع القادة الإسرائيليون وشرعوا في إدخال تعديل على القانون الذي يفرض حظرا على مثل هذه المقابلات ... ومنع الحوار من أجل السلام !.

٢٣ يناير

كانت المقابلة سبقا صحفيا (أجريت في نفس وقت الاجتماع المنعقد "لجبهة الرفض" في ليبيا). وأيده يوسي ساريد. أما المبام[٩٩]، فلقد أنتقد ذلك ولكنه نادى بالاعتراف المتبادل والمتزامن للطرفين، وبإنشاء دولة أردنية فلسطينية، دون أن يستبعد -إلا مؤقتا- كل الفرضيات الأخرى. ولكن كيف نفكر في حلول عندما لم تعد توجد بنى للدولة في لبنان٠٠٠؟؟!! وبينما يقتتل الدروز والمسيحيون فيما بينهم في الشوف، وتجري الحرب سجالا بين العراق وإيران.

٦ فبراير

حقق اجتماعنا الإعلامي في المعهد الوطني للتنمية نجاحا. إلا أن الجولة التي قمنا بها في إسرائيل لم تسجل لمنتدانا أي خطوة إلى الأمام . فمن اللافت أثناء رحلتي الأخيرة٠٠٠ أن النشيطين من كل التيارات المنادية بالسلام كانوا ينتظرون إشارة: قد يتمكن المجلس الوطني الفلسطيني الذي يجتمع "أخيراً" ! في الجزائر، من أن يسجل تقدما

---

٩٨ وهذا بعد إنقضاء عقد من الزمن، عندما يصبح مخطط المفاوضات السرية مع شيمون بيريز هو الذي أدى إلى إبرام اتفاق ١٣ سبتمبر ١٩٩٣، -عينه مؤخرا ياسر عرفات رئيسيا للوزراء.وتم قبول خارطة الطريق التي اقترحتها اللجنة الرباعية المكونة من الولايات المتحدة الأمريكية وروسيا والاتحاد الأوروبي والأمم المتحدة. وتم الاتفاق على عقد (هدنة) لوقف العمليات التي تقوم بها حماس والجهاد الإسلامي، وتم احترامها لمدة ٥١ يوما ، وتوقف الهدنة بعد المحاولات التي نفذها شارون التي استهدفت اغتيال قيادتهم ٠ وعرض أبو مازن كشف حساب حكومته التي استمرت في السلطة ١٠٠ يوم. كما التزم بذلك في ٤ سبتمبر ٢٠٠٣ ،ثم قدم في ٦ سبتمبر ٢٠٠٣ استقالته لعرفات الذي قبلها٠٠٠ أتصور ان أبو مازن كان بطلا لتمكنه من تفادي اندلاع حرب أهلية بين الفلسطينيين رغم الضغوط الهائلة التي مارستها الحكومة الاسرائيلية٠

٩٩ الذي أنشأ في ١٩٤٨ متضمنا ثلاثة تيارات تدعي الاشتراكية توحدت داخل اليشوف وفي الهستدروت. وهي تعاطف إلى حد ما مع وجود دولة مزدوجة الجنسية وتعترض على قيادة المبام "حزب بن غوريون" وهو اصلا منشق عن حزب العمل.ويدعي الحزبان انتمائهما إلى الماركسية. وقد سعى حزب المبام بعد حرب ١٩٤٨ لضم الاراضي التي استولت عليها إسرائيل وضعف نشاط الحزب بدرجة كبيرة بعد حرب ١٩٥٦.

في هذا المنحى. بل مجرد انعقاد هذا المجلس يعتبر في حد ذاته علامة مطمئنة: ومؤخرا رفضت خمسة مجموعات فلسطينية خطة فاس كان قد وافق[100] عليها عرفات.

٢ مارس ١٩٨٣

عرض دومينيك فيدال[101]، هذه الشخصية الديناميكية ذات المعلومات الجيدة، بيانا عمليا لما دار في المجلس الوطني الفلسطيني الذي انعقد في الجزائر (كما كان متوقعا، ودون ضغوط خارجية على منظمة التحرير الفلسطينية). وحضر هذا الاجتماع كابو لويك بوصفه صحفي وذلك بفضل جواز سفره الفرنسي-واعتمدت خطة فاس. يا ترى هل سيكون لهذا الحدث أثر على إسرائيل ؟.

لاهاي، ١٩ مارس

بعد أن عانيت من الشظايا التي انبعثت من المكونات غير المتماسكة لحالتك يا مايرول[102]، ساعدتني الأقدار على أن أسير على قدمي على رمال الشاطئ بصعوبة، وضد ريح قاسية وعنيفة ، وذلك حتى مرت الأزمة ...وشعرت بتحسن . نسيت أدري كيف انتقلت من حالة الشعور بالضيق من هذا الوضع الشخصي الى مجال الذكريات التي غلفت رحلتي الأولى إلى إسرائيل وفلسطين. هل هي رغبة في الهروب...؟ أم هو صوت موج البحر؟

وقد يكون من المستحسن إعادة إحياء هذه اللحظة بالذات من وجهة النظر الجمالية: دخول السفينة ميناء حيفا، وتوقف محركاتها، في إحدى ليالي شهر أكتوبر ١٩٨٠ وكأنها تمخر عباب البحر كهمس مركب ينساب مع التيار دون مجاديف. وأمامنا أضواء المدينة المتدرجة. والهدوء المخيم والصفاء بالنسبة للبعض، وأم تسحب ابنتها من يدها (وهي من عمرك ياجوناويل): *انظري يا سارة. انظري لقد وصلنا إلى الأراضي المقدسة ! ولما لا*!.

ولم يكن يزعجني مثل هذا الكلام ...ولكن قبل ان أتعرف على فلسطينيي الداخل... ؟

وحتى أقلل من تكاليف السفر ... وأيضا وبكل سرور ... قطعنا المسافة بالقطار حتى ميلانو انكون، ثم ركبنا سفينة توقفت في رودس --يا إلهي ...كم هي جميلة هذه

---

١٠٠ قمة عربية انعقدت في فاس في سبتمبر ١٩٨٢ واعتمدت في بيانها الختامي مبدأ التعايش بين إسرائيل وفلسطين
١٠١ صحفي نائب تحرير لموند ديبلوماتيك مؤلف كتب كثيرة تناولت القضية الفلسطينية بالتعاون مع آلان جريس منها " المفاتيح المانة للشرق الأدنى" التي صدرت في كتب الجيب –هاشيت بلورييل ٢٠٠٣
١٠٢ ابنة الكاتبة

الجزيرة ... تنتشر فيها أشجار التين والعنب اللذيذ !- وكثيرا ما وعدني أبي أن يصطحبني لكي أزورها.

نزلنا في بادئ الأمر في فندق متواضع في حي حادار --ومنه جلبت معي حفنة من التراب لك يا منى- ويتكاثر في هذا الحي باعة الفلافل، ومحال يمكنكم فيها تناول الأطعمة والسندويتشات، وعصير الجزر والفواكه الطازجة المضغوطة وقوفا. كما هو الحال في القاهرة. ولكن تجدون هنا الفلافل، والطحينة وكل أنواع السلطات والخضروات المطبوخة المعروضة على أرفف في متناول أيديكم مما يمثل مع الإفطار الذي يقدمه الفندق كم من السعرات الحرارية اللازمة لتحمل يوم كامل من المشاوير. فضلا عن أنها لذيذة ! وهذه قضية تتعلق بثقافة فن الطبخ. فثقافتي قريبة الشبه من ثقافة الفلسطينيين. لا من ثقافة وسط أوروبا. رغم رغبتي في أن أتلاطف مع سيلفي --وهي محظوظة لأنها قادرة على تذوق الثقافتين-. وقد يكون كل هذا صحيح ولكن لا يرتقي إلى مذاق قرص الحلوى بالجبن، أو حلوى الشكولاته السائلة موضوعة فوق طبقة من القشدة... فحدث ولا حرج ...

استغرق إقامة الاتصال مع مناضلي الحزب الشيوعي الإسرائيلي يومان. وبمساعدتهم، أصبحت كل الأمور سهلة. فالحزب منتشر على طول البلاد وعرضها: نجد كوادره في جميع المدن -حيفا، وتل أبيب، والقدس، والناصرة بطبيعة الحال...- كما نجدهم أيضا في القرى العربية كما في سخنين، حيث أقيمت منصة أقيم عليها تمثال نحته اثنان من الفنانين، أحدهما يهودي، والآخر عربي، للتذكير "بيوم الأرض" التي روى القتلى والمصابون بدمائهم تربتها. وكان الغرض الذي هدفت إليه من هذه الجولة الأولى التي استمرت شهرا، هو أن أعكس صورة هؤلاء المنسيين من الجميع بنشر أخبارهم في المجلة، وفي مقال يلقي ضوءا على ما جرى --في أول كونجرس يعقده عرب إسرائيل مع اشتراك قوى السلام اليهودية والديموقراطية في إسرائيل-. ولكن رفضه فريق رئاسة التحرير المسئول عن إصدار هذا العدد في غيابي. كما صدمت بنفس الروح العدائية عندما حاولت نشر النصوص التي كتبها هنري عن السلام في الشرق الأوسط. ولكني كنت هذه المرة في الموقع نفسه، وكان لمساعدة بول فيي العامل الفيصل ... مع ذلك كان بإمكان مجلتي أن تستفيد استفادة كبيرة من تمثيل مجموعة غير معروفة من الفرنسيين فيها، كما لم يغب ما قامت به من نشاط هام عن عيون ومسامع المؤسسة الإسرائيلية، بدليل أنها سارعت برفض عقد الكونجرس.

مارس ١٩٨٣

إذا ما تناولت أعمال أي مؤلف يعالج اليهودية- وهو جوهر القومية الإسرائيلية الآن- فلن تعثر على ذكر لعنصر الفضاء الجغرافي. لأنه ببساطة ليس له مكان من الإعراب: بضعة عشرات الآلاف من الكيلومترات مقترة في عطائها ... قد لا يوجد

هناك سبب منطقي للصراع حتى الموت من أجل الاحتفاظ بها . إلا أنها رقعة توجد في منطقة تاريخية استراتيجية، وهي منطقة حقول نفط، ثم أن سكان -وهذا مهم - هذه البقعة ليس لديهم بلداناً أخرى بديلة يلجئون إليها[١٠٣]، وهذه كارثة بكل المقاييس. فكان الأجدر باليهود الذين فروا من الإرهاب النازي الانتقال إلى بلدان أخرى في أوروبا أو إلى الولايات المتحدة الأمريكية، وأن يكتسب اللاجئون الفلسطينيون حق المواطنة في البلدان العربية التي يرابطون فيها الآن. لا شك أن فلسطين وطن أسطوري مثالي لليهود الموجودين في الشتات، وللأقلية من الأرثوذكس المتطرفين من جماعة ميا شياريم في القدس --الذين يعتبرون أن الدولة الصهيونية دولة غير شرعية، وهم لذلك معفيين من الخدمة العسكرية، رغم استفادتهم من المعونات التي تقدمها الدولة لهم ٠٠٠ ولا شك أيضا أن الجليل الأعلى والسامراة، في داخل وخارج "الخط الأخضر"، أراضي جميلة، تتميز بالنضرة٠٠٠ كم هي جميلة أيضاً هضبة شرق الأردن٠٠٠!! كما تمتاز الأردن بوجود نهر بنياس، وبحيرة طبريا، ويا لعظمة البحر الأحمر، وما يربط الدروز ببعضهم، وجبل الكرمل. كلها مشاعر تتقاسم المناظر الرائعة بين البحر والصحراء، وينتشر عبق العطور والألوان الشرقية الجذابة٠٠٠ أما القدس٠٠٠ يا لها من مدينة ! ولكن في النهاية فإن محصلة كل ذلك، لا تستدعي أن يضحي المرء بحياته من أجلها لأسباب رومانسية٠٠٠!! يمكننا أن نزورها٠٠٠ وهذا ما فعلته بينما كنت أنتظر عودة سيلفي من تحرياتها في مصر وفي أماكن أخرى ٠٠٠ بل وصلت حتىإلى الجولان.

ترتكز إسرائيل وفلسطين المحتلة على ثلاثة عناصر جغرافية: سهل ساحلي، وهضبة تسير -من الجنوب إلى الشمال، النقب ويهودا، والسامراة، والجليل الأعلى، وصدع عميق يحتله البحر الميت، والأردن، وبحيرة طبريا. ويوجد في السهل الساحلي ليدا، وشارون، وتل أبيب، وجافا ...- تربة قليلة الخصوبة إلا أن الجفاف رهيب ومخيف. ويمتد الشريط الساحلي لصحراء النقب في إسرائيل جغرافيا في غزة--ويرتفع فجأة إلى أعلى السهل الساحلي حيث توجد منطقة إستبسية عشبية مجدبة ينتشر فيها سكان رحل، وتليها يهودا --جافة وقليلة الخصوبة- وبعد ذلك نأتي إلى السامراة -وهي ذات تنوع أكبر في التضاريس - ومنطقتين تكونان الضفة الغربية، تقضمها بطريقة مؤذية وضارة المستوطنات اليهودية المقامة على المرتفعات، وأخيرا الجليل الأعلى - وهي في إسرائيل الآن إلا أنه كان من المفروض أن تكون جزءا من الدولة العربية التي نادت بها منظمة الأمم المتحدة في ١٩٤٧-- ويحتلها سكان (عرب)، إلا أنها تعرضت إلى غزو تدريجي منذ ١٩٤٨ بسبب انتشار مناطق "التنمية" التي تتكون أساسا من سكان يهود. ويعتبر

---

١٠٣ البريطاني المقيم في كينيا أو الفرنسي المقيم في الجزائر يمكنه أن يشد عصا الرحال ويعود إلى بلده الأصلي-- المترجم.

الصدع العنصر الرئيسي في كل هذه التضاريس بسبب انتظام المياه الواردة من الأردن، والثروة المعدنية الموجودة في البحر الميت.

مارس ١٩٨٣

كان هناك شيء غريب تجاوز الواقع في محطة المياه المعدنية في طبريا. وهذا ليس فقط لأن ينابيع المياه الحارة تجاور "بحر" الجليل الأعلى، أو لأن المستشفون بالمياه الحارة يرتدون "البيكيني"، بينما يرتدي الرجال لباسا أسود، وينبشون الأرض بكد. في المواقع الأثرية التي توجد بها مقابر "حكماء صهيون" ولا لأن الفندق الصغير الذي نزلت فيه - بيت بيرجور، بعشر دولارات في الليلة ! - تتحدث فيه الأسر من اليهود العرب باللغة العبرية -بعد أن نسوا لغتهم الأم وهذا ما أكدته لي شابة مغربية، ولكنها مع ذلك لم تنس اللغة الفرنسية-... ولكن لأن المكان لا يمكن تصور ما يجري فيه ...يستقبل يوميا مجموعات لبنانية ... لست أدري كيف ومن أين تمر...!! وتستفيد أيضا واحده (مثلي أنا) من المياه الحارة لهذه الينابيع. وقبل أن ترتدي النساء لباس الحمام يضعن في خزائن صغيرة شخصية توضع تحت تصرف المستشفين لوضع ما خف حمله وغلى ثمنه، وتبدأ النساء في خلع مجوهراتهن التي لو شاهدها أرسين لوبين (اللص الظريف) لطمع فيها. أما الرجال فيفرغون في هذه الخزائن محافظهم المنتفخة بالأوراق المالية. وعلمت بعد طرح بعض الأسئلة أن الحدود الإسرائيلية اللبنانية مفتوحة في -ميتولا وفي غيرها- للسياح اللبنانيين، وعمال اليومية الذين يعملون في إسرائيل -وبدون شك فهو مفتوح أيضا لتجار السلاح —وفي كل هذا الخضم ما الذي تفعله إسرائيل؟؟ إنها تعيل وتتفق بسخاء على العسكريين والمدنيين في النتوء المحصور لما يسمى "بحداد لاند"، وهذا حتى قبل نشوب الحرب الأهلية في لبنان. ولكن لا تترك إسرائيل الحبل على الغارب لكي تنظم ضدها استراتيجيات سياسية شرق أوسطية. ولهذا جاء رفض بشير جميل حالما انتخب رئيسا لتوقيع معاهدة سلام منفصلة كان قد اشترطها الثنائي شارون - بيغين ومن هنا أيضا نفهم السبب في محاولة اغتياله في ١٤ سبتمبر ؟. وعلى ما يبدو تم التوصل إلى توافق وطني عام في الرأي لانتخاب أخيه أمين جميل[١٠٤] ... ولكن مدة الاحتلال الإسرائيلي الطويلة أثارت التمرد في الجنوب.

---

١٠٤ انتهت ولايته في ١٩٨٨ دون أن يجري انتخاب خلفه.

مارس ١٩٨٣

قد نتصور أننا تحررنا من الأفكار المنقولة، ومن البداية نتصور أيضا أننا اكتسبنا خبرة. وفي مكان ما ينتشر الاعتقاد بأن إسرائيل قابلة للنقد، بل رغم أنها مكروهة بسبب القضية الفلسطينية، لكنها من ناحية أخرى كيان فريد من نوعه...

وقد وجدت أنه من الطبيعي تماما انتشار هذا الجو الوادع في تل أبيب. وكنت في منتهى السعادة عندما أعلن عن انتمائي "العربي" وأسمع في داخلي المقولات العنصرية التي ترددت على ظهر السفينة—وفجاة عندما سمعت على شاطئ البحر من يهنئني على لياقتي البدنية وكان من اليهود الإشكيناز --كنت قد مارست رياضة الوقوف على الرأس قبل نزولي البحر للسباحة في الساعة السادسة صباحا--. ومر بعض الوقت قبل أن أستوعب ما يقوله الشاب العسكري الذي أوقفني في الطريق وطرح على أسئلة متعددة غير لائقة. ... يبدو واضحا أني لا زلت أعيش في الماضي، ولم يبتعد تفكيري كثيرا عن محيط الكيبوتس ذو التوجه الاشتراكي الذي كانت تقيم فيه أختي إيريس، المجندة... وكانت معسكرة في فلسطين أثناء الحرب العالمية الثانية...

وفي الحقيقة يفوق الكيبوتس حدود التصور ! ولا سيما في النقب. بعد انقضاء ساعات طويلة من السير على طرقات متربة، ومساحات جرداء نصل فجأة الى بحر من الخضرة تتكون أصلا من زراعات، ويسمى هذا الكيبوتس كيريم شالوم في منطقة جيفولو يعيش فيه يوسي أماتاي وعائلته –من بين الذين أجريت معهم حديث في باريس– وهناك افتتح مصنعا صغيرا ...تنظيم الكيبوتس تنظيم نموذجي: تتكون المجموعات حسب فئة العمر، ابتداء من حديثي الولادة حتى البالغين... أكواخ سكنية رائعة للمتزوجين، تحيط بها مساحات مزروعة بالنجيلة على الطريقة البريطانية. ورغم ذلك يترك الكثيرون هذه الحياة المشتركة للجماعة التي تكتم أنفاسهم --حتى الأمور الشخصية تناقش علنا في الاجتماعات—وأجاب يوسي بصراحة-- ولو أنه كان محرجا بعض الشيء-- على أسئلتي فيما يتصل بعمل العمال العرب. وصار الكيبوتس كما هو الحال بالنسبة لأي مشروع استغلالي رأسمالي، يخضع إلى مجموعة من قواعد المنافسة، ويسعى للحصول على هذه اليد العاملة لخفض تكاليف الإنتاج، دون محاولة إدماجها في الهياكل الاجتماعية. وبهذه الكيفية حرف، وزيف كل شيء. وحتى تستريح النفسيات... وحتى يستمر في المحافظة على الروح الأصلية التي نشأ عليها الكيبوتس، تستخدم حجة ... وهي أن العامل العربي يحصل على أجور جيدة، وأنه يتغذى تغذية يحسد عليها ...!!

وللحديث عن القضية الفلسطينية قام طبيب أطفال في حيفا، وهي شخصية عجيبة بتنظيم اجتماع يسهل لي الاتصال بامرأتين في كيبوتس ينتميان إلى تيار المبام. وهما انيا اميرمان وبيرلمان. والأولى ذات سيرة نضالية مثيرة: عضو في الحزب الشيوعي النمساوي، التحقت بعد ذلك بالألوية المقاتلة في أسبانيا، ثم بالمقاومة المسلحة اليوغوسلافية أثناء الحرب العالمية الثانية، لكي تجد نفسها بعد ذلك ملقاة في معسكر

اعتقال في الاتحاد السوفييتي ثم في يوغوسلافيا، وبغية الحصول علـــى الإفـــراج... لا لأسباب عقائدية -اختارت الهجرة إلى إسرائيل -وكان هذا هو شرط الإفـــراج عنـــها- وهناك انضمت إلى الحزب الشيوعي الإسرائيلي، وبعدها تركت الحزب دون أن تتوقـــف عن تقديم الخدمات، والمساعدات ذات الصلة الوثيقة بمهنتها، وحضور الاجتماعات العلنيـــة ...وفي إحداها تعرفت بها. ودون أن تشعر بشعور المرارة بسبب الضربات التي وجهها إليها أهلها. بل أستطيع أن أقول أنها كانت تشع منها سعادة غامرة، ورغبـــة قويـــة فـــي التمسك بالحياة، ولا تغيب عنها الابتسامة السهلة... والضحك، والسباحة، رغم المسئولية التي تحملتها بسبب مرض زوجها النفسي. وكنت قابلته صدفة في نهاية يـــوم مـــن أيـــام الخريف على شاطئ البحر في حيفا، وسجلت ما قاله على كاسيت. وقد تأثرت بقوة بجيلـــها وبمجتمعها ... ولكن ...عندما تعتزم مناقشة الاستراتيجيات العامة، فإنها تحيلنا إلـــى أفكار زوجها، كما لو كان جنسنا تعوزه القدرة العقلية اللازمة للتنظير...!!

ولقد تعلقت عاطفيا بآنيا، لكني لم أنجح في علاقاتي مع صديقتها من المبام، وكـــانت امرأة صغيرة الحجم عادية ولطيفة جدا. إلا أنها ضايقتني على الفور: فزعة من المحيـــط العربي، محتدة ضد الاتحاد السوفييتي والشيوعيين -وبدورها مرت هي أيضا بمعســـكرات الاعتقال... لغو خطابي ، وإسهال كلامي يدور فقط حول نفسها، عصابية مرضيـــة ... أما المرأة الثانية فهي بلجيكية غارقة في مجموعة من الصعوبات: رفيقة أحـــد أعضـــاء الكيبوتس ...التقته في عملية نضالية، تناهز الأربعين من العمر، وتريـــد الدفـــاع عـــن القضية الفلسطينية بالانضمام إلى جماعة من الواضح أنها لا تحتملها، بحجة أنها جماعـــة يوجد فيها رفيقها. ونصحتها بكل لطف أن تناضل في بلجيكا، فـــي مجموعتـــها، دون أن تحاول تقمص شخصية ورداء أجنبياً --فلسطينيا- وفي بيئة أجنبية --إسرائيلية-- ولـــم تكن حتى يهودية ! باختصار، وجهت المقابلة إلى المشاكل الإدارية. مما أحزن انيا، أمـــا أنا فلقد اكتشفت موطن الصعوبة في الحوار...

فمن جهة اليهود الإسرائيليين، قابلت عناصر من المثقفين الإشكيناز المتعاطفين مـــع التقسيم والمتمسكين بقيم الصهيونية ذات توجه اشتراكي: كوادر شيوعية من حزب راكـــاح -مثل إيزي برانشتاين- زميل قديم من مجموعتنا في باريس، وكأني أعرفه من قديم، أو -يافا جافيش المتألقة- عضو لجنة للدعم في بير زيت -وجودي بـــلان الرقيقـــة الهشـــة، المسئولة عن نشرة إسرائيل ليفت- من المجلس الإسرائيلي الفلسطيني للســـلام - ومـــاتي بيليد، ويوري أفنيري، وأمون زخروني، وناحومي كيس، وياكوب أرنـــون- وباســـتثناء سامي سموحة الأستاذ في جامعة حيفا لم أكن أعرف يهود عرب من قبل... المصنفيـــن "بالشرقيين" إلا في حالات خاصة وبمحض المصادفة: سائقو عيـــن شـــيروت (تاكســـي بالنفر)، والاسكندراني الذي يمتلك محلاً صغيراً لبيع الجرائد في طبريا، والقـــاطنين فـــي حي النازحين من شمال أفريقيا في تل أبيب ...يملؤ الحي صراخ الأولاد، وصور الفقـــر في كل مكان ...واصطحبني هناك تالي زاهافي، سكرتير توفيق طوبي في الكنيســـت،

وأبوه صديق إيمي بيريسي... أصلاً من مصر. وعلى العكس من ذلك تقابلت مع كثير من الذين صنفوا "كعرب".

هناك شيء من التجانس بين عرب إسرائيل، ويهود وسط أوروبا وشرقها: ولو أن كل واحد منهم يمثل جماعة بمفردها، إلا أنهم عاشوا معاً حتى قبل إنشاء الدولة العبرية. وينطقون بنفس اللهجة الغنائية عندما يتحدثون بالإنكليزية، ويقتربون من بعضهم البعض كزملاء عندما يناضلون في نفس المنظمة ودون أي شعور سلطوي أو نزعة بطريكية. ومع ذلك وجدت أن وضعهم لا يطاق... بل أكثر سوءا مما يعانيه الفلسطينيون في الأراضي المحتلة. والقضية ليست قضية فقر. فهم لا يعانون من البؤس، والقذارة في مدنهم وقراهم، كما نشاهده في الأحياء الشعبية في القاهرة أو أحياء نيويورك... !! حتى أني كتمت الإعراب عن استحساني عندما زرت شقة زهير ومها صباغ --زوجين ديناميكيين، هو شيوعي معارض، وهي مساعدة اجتماعية نسوانية ، يسكنان في مجمع سكني جديد بني على مشارف مدينة الناصرة. صحيح أن الطرق المؤدية إليه لا زالت مليئة بالحصى والحجارة، بينما في الناصرة إليت --وهي المدينة اليهودية الجديدة المبنية على المرتفعات—فقد عبد الطريق الموصل إليها بصورة تلقائية ودون تأخير. ولكنها مع ذلك تظل بكل المقاييس من المجمعات السكنية الشعبية لمتوسطي الدخول ...الشنيعة المنفرة التي تسكنها أسر يهودية من شمال إفريقيا.

ومن ناحية أخرى ...جمالية، ولا خلاف على ذلك : تلتصق الفيلات العربية بمناظر فلسطين التاريخية. فيلات صغيرة عجيبة - أفهم منها لماذا يحب العربي منزل أسرته- فيلات جديدة بشرفات خارجية كبيرة -مثل تلك التي يبنيها أحد المقاولين المتعاطفين مع راكاح الذي استضافنا أنا وسيلفي عنده- أو مثلا عندما يتخذ العقار مظهرا قديماً، مع وجود حوش داخلي مظلل -مثل منزل أم زهير، وقد مكثنا فيه ليلة نتفلسف مع الزوجين- كنا نشعر بسعادة. فالناصرة قلعة فلسطينية لليسار. وعندما ذهبت بمفردي، دون أن أخطر أحدا، لحضور احتفالات ذكرى المذابح التي أعقبت ذلك بأربعين يوما في ٢٣ أكتوبر ١٩٨٢- لم يتطلب الأمر مني إلا أن أجلس على مقهى *مركز الصداقة*، الموجود في مجمع المباني الذي يوجد فيه مبنى الحزب، حتى اهتموا بي فورا وأفسحوا لي الطريق. وتبين لي أن العمدة *توفيق زياد* وهو مسلم متزوج من مسيحية، وشاعر كلما سنحت له فرصة قرض الشعر... ينتمي إلى حزب راكاح ويصر أن يعلم الجميع بذلك...!

لا تعتبر من الأمور السهلة أن يباشر حزب شيوعي نشاطه بصورة مشروعة في وسط عربي. وغمرتني المشاعر لدى وصولنا ، استقبلنا جورج طوبي (أخو توفيق) في مقر الحزب في حيفا، وهو مقر متواضع هذا صحيح، ولكنه المقر الرسمي ومعلق فيه صورة لينين التي تغطي الجدار بأكمله، وعلى الجدار الآخر شعارات ثورية. وينتابني نفس الشعور بالتأثر عندما حضرنا مهرجان الصحافة الشيوعية -وأقف أمام صديقتي الشابة التي ترعرعت في فرنسا، وهي مستعجبة من مشاهدتي وقد تأثرت بسيل الذكريات

التي تعود بي إلى فترة الشباب-- نعم لم يكن هذا مثل احتفالات ليومانيتيه -- جريدة الحزب الشيوعي الفرنسي: مجرد احتفال صغير انعقد في ٢٥ أكتوبر ١٩٨٠ وفي غابة مترية بالقرب من خضيرة -- الواقعة بين حيفا وتل أبيب-- أما بالنسبة لي فهذا الحدث يصعب تصوره لمجرد أنه مصرح به، حضره مشاركون وفدوا من جميع أنحاء البلاد.

وبدعوة من يوزي برونشتاين قمنا بركوب الأتوبيس مع الزملاء من تل أبيب -وافتتح المهرجان يوم سبت، وهو يوم عطلة أسبوعية لا تسير فيها وسائل المواصلات العامة، وهذا بناء على رغبة المتدينين المتزمتين- وانتقدت أثناء الرحلة يوزي لأن زملائه اليهود لم يتمكنوا من التحدث والإعراب عن أنفسهم بالعربية، بينما نجد الفلسطينيين يتحدثون العبرية بطلاقة... غلبان يوزي... محكوم عليه طول حياته النضالية مقاومة التوافق العام في الرأي الذي ينتشر على الصعيد الوطني، وقد همشه فريقه الاجتماعي، ويجد نفسه من بين مجموعة تمثل أقلية في حزبه الذي أصبح غالبيته من العرب... حقا إنه بطل... ولكنه يهودي ...ويعيش في وسط يهودي. وسط كله حياة. أما الوسط العربي فهو وسط حزين متصلب ومتحجر: وشعرت بذلك بينما كنت أجول في القرى العربية في الجليل الأعلى، وفي "المثلث" --الذي يرتبط بشمال لبنان، والجنوب الشرقي، وفي جنين ونابلس، في الأراضي المحتلة-- التي رفعت بعضها --مثل أم الفحم وطيبه-- إلى مصاف المدن بسبب زيادة تعدادها السكاني ، وكان من الممكن تحقيقه بالنسبة لكل هذه المدن لو لم يكن يرتفع هذا الحاجز الذي تقيمه السلطات الإسرائيلية للتهرب من زيادة ما تنفقه كإعانة مالية عليها...

وتوجد طيبه في منطقة عربية هامة مسلمة مائة في المائة، حضرت اجتماع مختلط اشترك فيه يهود وعرب، نظم يوم السبت ١٦ أكتوبر ١٩٨٢ بمساعدة رابطة جيشر لو شالوم --جسر من أجل السلام--انعقد في دار العمدة، وهو عضو في حدش --الجبهة الديموقراطية للمساواة--التي يسيطر عليها الشيوعيون: وبعد عرض المشاكل التي تواجه القرية، وزعنا في مجموعات، واستقبلتنا أسر المناضلين. كان حدثا فريدا ! فلأول مرة حدث مبادرة من هذا النوع منذ إقامة دولة إسرائيل ! وحدثت أيضا في سخنين --وهي من تنظيم "يوم الأرض"--وفي القرى المحيطة بالناصرة --مثل القرية التي تمسكت فيها تلك المرأة العاملة بأرضها وهي قرية خليفة، أو تلك المسماة بدابوريا، حيث زرت فيها أم إحدى الفتيات المغتالات وابنها الجريح وكان هاربا، والاثنان قد هاجمهما شاب من القرية أصبح من عملاء المخابرات الإسرائيلية بعدما وقع في الأسر في بيروت. ونجد في كل مكان مباني لأفراد بعضها متواضع، وقد طليت بالجير الأبيض، وأحيانا فيلات. أما القرى الأخرى فهي مرابط وعنابر للنوم، دون منشآت، ولا توجد بها مراكز ثقافية، ولا أماكن للترفيه. ومدينة الناصرة في الجليل الأعلى ...- أغلب سكانها من المسيحيين- وهي مركز تجاري نشط في النهار، ولكن عندما يأتي المساء - وقد تجولت في أحيائها المختلفة- فإن السكون الرهيب، والظلام الدامس يخيمان عليها. وبما أني كنت أمر مرورا عابرا، فكان التجوال في هذا السكون أمرا محتملا ...! وهذا على طول

الطريق الذي يمر على منحدر التل الهابط نحو المدينة الواقعة أسفله، مع مها -المناضلة الرائعة التي قادت مظاهرة ضد المذابح، وقد ضاعت صورتها للأسف، مع مجموعة أخرى من الوثائق... وكان السبب سيلفي...!! صوت الريح ، والنجوم المتألقة في ظلام الليل البهيم، وهذا المجنون الذي يتحدث من فوق حجر كبير يقف عليه... وكانت هذه هي الترفيه الوحيدة التي صادفتنا في تجوالنا، ثم الآيس كريم المركب على حامل، الذي استحسنته "المفجوعة" مها ... ويبيعه متجر في الناحية. وبالنسبة لي كانت هذه الأمسية أمسية لا تنسى. وأتذكر ابنها ؟ الذي سارع فورا باتخاذ وضعه المرابض أمام جهاز التليفزيون بعد أن تأكد --وقد لحقنا بسيارة النصف نقل التي تملكها الأسرة-- من أننا نرغب في العودة من هذه النزهة سيراً على الأقدام

أعتقد أني لمست قاع البؤس عند هذا الشاب المدرس في مدرسة ابتدائية-- ذو الأنف الطويلة (أكثر طولاً من الأنف السامية أو القبائلية) بعينيه الزرقاوين الشفافتين، وهو النموذج الأكثر شيوعاً للفلسطينيين المسيحيين: عرض علينا الصعوبات التي يلاقيها في تنظيم عدد من الفصول لكي تستوفي بالكاد الطلبات المقدمة، ومشكلة العثور على سكن له، حيث أن الأولوية تعطى للشباب الذي أنهى خدمته العسكرية.ولفت انتباهي الاهتمام الكبير الذي توليه بحرارة جماعات السكان إلى العسكريين: فلم يكن ينتظرون كثيراً في محطات الأتوبيس، وتحملهم السيارات الخاصة برضاء تام. فهم الذين يدافعون عن الوطن...! ولأنهم محبوبون، فإنهم حقيقة يتميزون باللطف ... حتى هذا الشاب العسكري في مظاهرة ١٩ أكتوبر ١٩٨٢ الذي كان يحاول جاهداً أن يقنعهن "بالعودة إلى مطبخهن" يردد ذلك أمام ٥٠ امرأة حاملة للرايات عليها شعارات، يتظاهرن في صمت ضد الحرب في لبنان، مكررين ذلك كل يوم ثلاثاء، من الساعة الخامسة حتى الساعة السادسة مساء أمام بيت سوكولوف، وهي دار الصحافة في تل أبيب. "*ينبغي عليكن أن تدعمونا*"، ويقولها لهن برقة. وترد عليه المتظاهرات "*نحن نود أن ننقذ حياتكم*"، وأيضاً بكل لطف. الشباب والشابات والجنود كلهم محبوبون ومندمجون في مجتمعهم. أما الشباب العربي في إسرائيل، فقد تم تفريغه وتهميشه. وحتى لو أرادوا الانضمام إلى الجيش للخدمة العسكرية والانتفاع بالمزايا الأخرى ضاربين عرض الحائط بتهميش مجتمعهم... فلن يرضى بهم الجيش الإسرائيلي بل لا يستطيعون مجرد ممارسة حياتهم كشباب. وكمواطنين، يسافرون بجوازات سفر إسرائيلية، مما يوصد في وجوههم أبواب البلدان العربية. حتى باب الأردن المجاور. وعند القيام بمناسك الحج إلى مكة - على الأقل حتى تاريخ زيارة السادات إلى القدس- ويتبقى لهم ميزة واحدة... عندما ينتمي أفراد أسرة ما إلى الحزب الشيوعي، ويتلقون نتيجة لذلك منحاً دراسية في البلدان الاشتراكية --ففي إسرائيل تكلف الجامعة كثيرا-- وبدون هذه المنح الدراسية، فإن وصولهم إلى الدراسات العليا يعتبر طريق مسدود تماماً . كما أنهم أيضاً يواجهون شعوراً بعدم الثقة والاحتقار من الفلسطينيين الموجودين في الأراضي المحتلة. ولذا فمن أكثر

وقررت -بعد أن التحقت به في مكان عمله الجديد، مع ابنتاي المولودتين أثناء هـذا العقد- أن أغيّر اتجاه حياتي إلى وجهة أخري...

كان قرارنا ...فصم علاقتنا الزوجية في خضم البلبلة، والتخبط السياسي.

ونادت قيادتنا بعودة العسكريين إلى ثكناتهم. وأيدت الخط السياسي للحزب الشيوعي الفرنسي، والبريطاني، والسوفييتي...الذي تغير كلية فيما بعد .

وقامت القيادة بنقد ذاتي لدعمها "الانقلاب العسكري الذي رتبت له الإمبريالية"!!. وتغلب تيار عبد الناصر السياسي المعارض للنظام القديم -الذي اعتبر منتهيا- بفضل تأييد النقابات.

وكانت موجات الاضطهاد التي تعرضنا لها، من الضخامة، بحيث لم يسبق لها مثيل...!!!

وألقي القبض على زملائي في نهاية عام ١٩٥٣ وحكم عليهم بأحكام سجن مع الأشغال الشاقة لمدد تتراوح بين ٨ و١٠ سنوات...!!

ولم أستطع العودة إلى مصر لأني كنت من بين الموجودين على قائمة المطلوبين ...!! وانضممت إلى هنري في باريس في ربيع ١٩٥٤.

انتقل هنري إلى باريس سرا عام ١٩٥١ بعد نفيه خارج مصر أثناء الحكم الملكي، وكان قائداً مسموعاً، نظم في باريس مجموعة تكونت أعضاؤها من الزملاء الذين طردوا من مصر بسبب موقفهم من الحرب العربية/الإسرائيلية في ١٩٤٨...

وهي مجموعة دعمت الزملاء الذين استمروا في النضال في مصر.

وعندما أبدى هنري تحفظات (كتابية) على ما أصاب مواقف الزملاء في مصر من تحول كامل... لم يترتب على ذلك شئ... واستمر العمل السياسي للمجموعة بانضباط كامل في تنفيذ الخط السياسي الجديد للمنظمة في مصر والمعارض كلية للنظام القائم،

ونشطت مجموعة(روما) بكامل طاقتها في هذا الاتجاه.

اكتسبت خبرة كبيرة عندما اخترت النضال اليومي إلى جانب هنري ...

تلمست ما يمكن أن تكون عليه الحياة عندما يجري التعامل مع أحداثها على مستوى أعلى من الكفاءة...

لا يضاهي ذلك شيئا أخرا...؟

عندما تتفاعل مع مستوى ذكاء مناضل في حركة دائبة لا تهدأ ، يحبذ المبادرات، ويقلب القواعد الجامدة رأساً على عقب، محاولاً أن يرتقي دائما بالآخر إلى مستوى نشاطه...

الحالات المحزنة أن يكون المرء شاباً عربياً في إسرائيل. فمن المفضل أن يكون من الدروز[١٠٥] فهم الوحيدون الذين يقبلهم الجيش، أو من النساء... فوقع المأساة أقل.

وكما هو الحال في أماكن أخرى من العالم الثالث، يستغل العمال باليومية بقسوة، ولا سيما إذا جاءوا من الأراضي المحتلة، ويعملون في القطاع العربي الريفي في إسرائيل: وشاهدتهم ويتصببون عرقاً، يرتدون ثياباً مهلهلة، يعملون في مزارع الفراولة –تسوقها شركات يهودية—ومن حق العمال الدائمين في ميدان الصناعة وفي قطاع الخدمات الاجتماعية الانضمام إلى النقابات، ويشعرون برضاء نفسي عندما يصيرون مناضلين سياسيين. مثل تلك المرأة من طيبه، نجلاء أبو راس، التي استقبلتنا في منزلها... أمية... ولكنها تحصل على أجر، وهي مناضلة في القسم النقابي التابع لحزب العمل باختصار (نعمات) ...وهي شديدة الاعتزاز لقيامها بمناسك الحج. ومعلق على الجدار سجادة تحمل منظرا رئيسيا للكعبة يذكرها برحلتها، وهو الشيء الفاخر الوحيد في هذه الدار الجرداء، المفتوحة على الحقول-مما يجعل المرء يترك كل شيء، ويكرس نفسه للتفكير الصوفي- وهي مستريحة البال كأميرة من الأميرات أو هذه المرأة من دابوريا، تنبعث منها قوة هادئة رغم أنها تعيش مأساة... نساء أشداء، لا زلن يعشن بتقاليد الأرياف. وتبدو ساكنات المدن، وهن من المسيحيات في غالبيتهن قد سحقتهن بصورة أكبر أثقال العلاقات الاجتماعية. ويكنن مع ذلك بالإضافة إلى أزواجهن، غالبية كوادر حزب راكاح الضاربة جذوره أساسا في العاصمة العربية، وفي المدينة المختلطة في حيفا، وممثل أيضا في جميع المدن والمواقع الأخرى. ويذكرونني بالنساء القبطيات في مصر، يتشحن دائماً بالسواد، يرتدين لباساً غربياً إلا أنهن محصورات كالراهبات في جماعة تمثل أقلية. وتنجو أكثرهن شباباً من هذا الجو الخانق. بعضهن يواصل دراسته في الضفة الغربية -في جامعة بير زيت- أو في الدول الاشتراكية. ويتشبثن بمواصلة الدراسة أسوة بالشابات الجزائريات. وكما هو الحال في جميع المجتمعات العربية،لا يطلب رأي الشابات، ومع ذلك يلبسن الجينز . وعندما يتزوجن يكتسبن ثقلاً اجتماعيا بقدر عدد الأبناء الذكور من الذين ظلوا على قيد الحياة. ولا سيما أيضا عندما يحصلون على أجور منتظمة.

وبصورة عامة، إذا كان الفضل يعود إلى المنح الدراسية من البلدان الشرقية والقدرة على مزاولة مهن حرة... يواجه شباب العرب في إسرائيل اليأس أو يحاولون

---

١٠٥ وهم أساساً ريفيون، محاصرون في جبال سوريا (الجولان)، وفي لبنان (الشوف) وفي إسرائيل (هناك ١٨ قرية في جبال الجليل الأعلى)، ويتجمع الدروز في جماعات متميزة عن المسلمين السنيين والشيعة، وهم متضامنون ومتكافلون فيما بينهم (أثناء حرب لبنان، تم تسريع انسحاب القوات الإسرائيلية من الشوف حتى لا يؤدي وجودهم إلى حالة من عدم الرضاء)، أما دروز الجولان (التي استولت عليها إسرائيل في ١٩٦٧ وضمتها في ١٩٨٠) فقد صودرت بعض أراضيهم وهم الآن في حالة نزاع مستمر.

الهجرة إلى الخارج: وبدون توافر إمكانات مستقبلية - يستبعدوا من المناصب التقنية المتطورة-- تحاصرهم بإحكام حلقة محكمة الإغلاق من جراء عدم تقدم الوضع السياسي في مثل هذا الجو السائد، بل حتى لدرجة إفساد ثقافتهم. انظروا إلى يافا، هذه المدينة العربية القديمة الملتصقة بمدينة تل أبيب: وحيها الذي يقع على شاطئ البحر مضاء بالأنوار ورائع، وقد تحول إلى منطقة سياحية، ويقيم في المنازل العربية القديمة المرممة الفنانون والكتاب اليهود، أو تؤجر إلى الأجانب الذين يترددون على متاجر القطع الأثرية، ومعارض الفنون في الحي، الذي لا يذكر أي واحد منها بالفن العربي. وفي أماكن أخرى كما هو الحال في الحي السفلي في حيفا يوجد صف من المنازل والمباني كان تسكنها في الماضي أسر عربية اضطرت إلى هجرها أثناء حرب ١٩٤٨، وقد تحولت إلى خرائب. وبدون إستمرار وجود الأراضي المحتلة، لاختفى الفلسطيني العربي.

ويعترف في الأراضي المحتلة--باستثناء الإخوان المسلمين--المسئولون السياسيون بالقيادة في الخارج كرمز للمقاومة الشرعية على مستوى منظمة الأمم المتحدة، وكان المنتخبون في البلديات في ١٩٧٦ من المرشحين القريبين من منظمة التحرير الفلسطينية . ولكن عزل رؤساء البلديات بصورة منتظمة، وما زال مرتكبو محاولات الاغتيال في يونيو ١٩٨٠- ضد كريم خلف رئيس بلدية رام الله المعزول- وبسام شكعة -رئيس بلدية نابلس المعزول- طلقاء حتى الآن. ومع أن رؤساء هذه البلديات يؤيدون مشروع الدولة الفلسطينية في إطار حدود ١٩٦٧، لم أجد عندهم أي شعور بالعداء السافر الذي يحمله بين جنباتهم كثير من المناضلين الأوروبيين تجاه الدولة العبرية.

وفي رام الله، أجريت حديثاً مع زميلة -أمال، امرأة شابة رقيقة تذكرني بالمناضلة ميمي-تنتمي إلى اتحاد لجان النساء العاملات الفلسطينيات في الضفة الغربية وفي قطاع غزة، وتأسست أول هذه اللجان في رام الله في ١٩٧٨-. وكانت اللغة العبرية جزءا من نشاط ورشتهن للارتقاء بمهاراتهن اللغوية." *وسارت كل هؤلاء المناضلات في الشوارع، ويقمن بإعلان الإضراب في المواقع فورا، ويهاجمن بالحجارة سيارات الشرطة التي تحاول تفريقهن، ويتصدين للمحققين ومحاولاتهم، ويذهبن إلى السجن. وقد أصبحت من الأمور المعتادة أن يترددن على السجن في فترات متقطعة. يوضعن في الحبس الانفرادي، وتلاحقهن الإهانات، ويضربن، ويعذبن بأسلوب الموسكوبية*[١٠٦] *لكي يجبروهن على إعلان*

---

١٠٦ وهو سجن سمي بهذا الاسم لأن الروس قاموا ببناءه.

انتمائهن إلى منظمة محظورة[١٠٧]. *وبعضهن أدين وحكم عليهن بعشر سنوات سجن، وقسم آخر منهن يظللن قابعات في السجن مدى الحياة"*. ويضاف إلى عنف السلطات وقسوتها عنف وقسوة المستوطنين.وتستمر أمال *" لقد استولى المستوطنون على ٦٠ في المائة من أراضيهم ويحيطون بهم من أعلى المرتفعات، وهم أربعين ألف، بينما يهدف البرنامج إلى توطين مائة ألف*[١٠٨]. *بل بدءوا في بناء حي يهودي في وسط مدينة الخليل، بعد أن جزفوا المنازل. والكثير منهم يأتي من الولايات المتحدة الأمريكية وينتمي إلى جوش أيمونيم*[١٠٩] —ورغم كل شيء فمن الغريب حقاً أنهم لم يستطيعوا العثور على مكان اخر في بلادهم الشاسعة الأرجاء لكي يجتمعوا فيه ليمارسوا عباداتهم وطقوسهم . ولكننا شباب، وسنقاوم.

ولا تمنع المسافات ولا ظروف التوظيف المجحفة هجرة العمالة:*" تتنقل يوميا آلاف النساء ذهابا وإيابا للعمل في مصانع النسيج وإعداد الأغذية الإسرائيلية وبطبيعة الحال يقمن بالأعمال الزراعية الموسمية، ونتصل بهن حتى نعرفهن بحقوقهن. وتهجر العمل في النهاية النساء اللاتي يعنين بالأطفال: لأنه ينبغي عليهن ترك المنزل في الساعة الخامسة صباحاً والعودة مساء، ولا توجد حضانات أطفال، ولا روضات أطفال. ومواصلة الدراسة عمل غير سهل: كل شيء معد لوقف الفصول الدراسية"* --المؤسسات التعليمية مغلقة باستمرار، يجبر المدرسون على توقيع تعهد بعدم الانتماء إلى أي منظمة معادية لإسرائيل، ويطردوا إذا ما رفضوا ذلك، حتى عندما يحملون جوازات سفر أجنبية. *"ولقد أغلقوا في العام الماضي جامعة بير زيت لمدة سبعة شهور متواصلة. ولكننا نظمنا أنفسنا: تعطى الدروس سرا في المساجد والكنائس، وفي الشركات التجارية وفي كراجات السيارات. ونجح كثير من الطلبة في امتحاناتهم في شهر يونيو الماضي. بعضهم جاء من إسرائيل: للدراسة، أو لإعطاء الدروس، أو لمساعدتنا في افتتاح روضات الأطفال"*. وكما هو الحال في أماكن أخرى في الأوساط العربية، اندهشت من ارتفاع درجة الوعي السياسي للبنات الشابات ومدى شعورهن بالمسئولية.

---

١٠٧ وقد قدمت فيليسيا لانغر، المحامية الإسرائيلية المعروفة شهاداتها عن هذه الأعمال أمام اللجنة الخاصة للأمم المتحدة المكلفة بتقصي الحقائق عن الممارسات الإسرائيلية في الأراضي الفلسطينية المحتلة.

١٠٨ ومنذ ذلك الوقت بلغ عدد المستوطنين في نهاية ٢٠٠٢ أكثر من ٢٢٦ ألف مستوطن في٢٠٠٣ .

١٠٩ حرفياً "جيش المؤمنين"، وهي منظمة دينية يمينية متطرفة خارج البرلمان نشطة جداً منذ أعوام الثمانينات ...مؤيدة للاستيطان في الضفة الغربية (يهوذا والسامراة)، وهي منظمة مسلحة، وقد نجحت شبكاتها السرية في اغتيال الطلبة الفلسطينيين والهجوم على رؤساء البلديات المعزولين في الضفة الغربية.

البحث عن أشكال نضال جديدة

جنيف، مارس ١٩٨٣

كان يجدر أن تصاحب أعمال السبق الصحفية تطورات النشاط السياسي ٠٠٠لا أن تحل محله. إن التقاء منظمة التحرير الفلسطينية – ولجنة السلام الفلسطينية الإسرائيلية في ١٨ يناير في تونس، كان لقاءا شبه رسمي، ونشر على نطاق إعلامي واسع، وحضره من الناحية الفلسطينية مسئولون من أعلى المستويات (الرئيس ومعاونيه) إلا أنه لم يحقق في نهاية الأمر أثر كبير في إسرائيل. كما تمكن أيضاً المتشددون في منظمة التحرير الفلسطينية من سد الطريق أمام دعوة الإسرائيليين إلى حضور دورة المجلس الوطني الفلسطيني في فبراير. ولم يتبق إلا الولايات المتحدة الأمريكية وأوروبا اللتان تستطيعان أن تستخدما ثقلهما في التأثير على إسرائيل. وكان السرطاوي يعي ذلك تماماً، وإن لم يستطع أن يسافر إلى الولايات المتحدة الأمريكية، ولكنه استمر في التأثير على رجال الدولة الأوروبيين.

الأحد ١٠ إبريل ١٩٨٣

دعي السرطاوي بصفة مراقب إلى حضور المؤتمر الاشتراكي الدولي، الذي ينتمي إليه الحزب الحاكم في إسرائيل من ١٩٤٨ حتى ١٩٧٧، وبذلك حقق اختراقاً، بالرغم من محاولات شيمون بيريز قطع الطريق عليه وقدم التماسا يتضمن ٦٠ توقيعاً يضفي الشرعية على منظمة التحرير الفلسطينية، ويطالب رئيس المؤتمر ، ويللي برانت، بإعطائه حق الكلمة. وقرئ خطابه بعد وفاته٠٠٠ كما قام شيمون بيريز بإلقاء كلمة تأبين حيا فيها شجاعته. وفي دمشق، ادعى أبو نضال أنه هو الذي اقترف جريمة الاغتيال، وفي بغداد وزع أفراد مجموعته منشورات أمام الجامعة تدعي "أنها اغتالت الخائن عصام السرطاوي". وفي الواقع يحتاج الأمر إلى إمكانيات كبيرة لإنجاز عملية اغتيال في أوروبا لفلسطيني يتعاطف مع الحوار دون أن يقع مرتكبيها في قبضة الشرطة٠٠٠ وعلى عكس ما جرى عندما ارتكبت جريمة اغتيال هنري لدى خروجه من مصعد منزله في يوم من أيام العطلة الاسبوعية٠٠٠ تمت هذه الجريمة في بهو فندق يعقد فيه مؤتمر. حتى ولو كانت البوفيرا[١١٠] ليست باريس، ولا البرتغال هي فرنسا. ويتبقى أن نكشف إذا من الذي اشترك في اقتراف هذه الجريمة٠٠٠ عملاء سريين إسرائيليين، بصورة أو بأخرى ٠٠٠بناء على النتائج وهي لا تختلف كثيرا عن تلك التي توصلت إليها

---

١١٠ مدينة في البرتغال – المترجم

لجنة التحقيق في عملية اغتيال ممثل منظمة التحرير الفلسطينية في روما عام ١٩٧٢ ... الذي كان يعارض علنا جميع أعمال العنف. ولم تتحدث وسائط الإعلام عن هذه الجريمة. كم هي حجم الجهود المهدرة ؟! ...لم يكن السرطاوي "معتدلا" كما تصوره الصحافة، كان وطنيا سياسيا فطينا ومندفعا إلى الأمام. لأنه أدرك وفهم أن الحوار مع الوطنيين الإسرائيليين سوف يخدم بصورة أفضل قضية أهله ومجتمعه، ويضع حدا لاعمال العنف. وتحلى بالشجاعة الكافية في عرض معتقداته. ولكنه كان حزينا وحيدا ومن السهل تصفيته. واستمر السرطاوي يناضل في الصفوف الأمامية، ولو أنه كان متأثرا في أعماق نفسه من جراء عدم فهم من هم أقرب الناس إليه لما يسعى إلى تحقيقه. فلنبكيه كما بكت الخنساء صخرا... ففي الليلة الظلماء يفتقد البدر...

باريس، الاثنين ١٨ إبريل ١٩٨٣

كلما تحقق تقدما قصفت مخيمات اللاجئين بالقنابل، عملية إرهابية، اغتيال، حرب. وفي إسرائيل لا حركة شبه تامة كرد فعل سياسي . ولا اعتقد أن النظام الانتخابي النسبي مفيد : يقسم المجموع إلى أشكال صغيرة لتلتهم بعضها بعضا من أجل التمثيل في البرلمان. ورفض اليسار المصري إجراء مقابلة رسمية مع الصهاينة المنتمين إلى اليسار المتعاطفين مع الحوار، وذهبت الجهود التي بذلتها لجنتنا من أجل الحصول على الضوء الأخضر لمشروع تنظيم مقابلة بين المثقفين من الطرفين أدراج الرياح ...هباء منثورا.

ومن جانبي أؤيد دعم تنظيم المقابلات دون دعوة ولا مدعوين. ولكني لم أتمكن من إثارة اهتمام أعضاء لجنتي للقيام بهذا النشاط في إطار الأمم المتحدة.

١ مايو١٩٨٣

إن فرنسا تثير الامتعاض. مثلها مثل أوروبا. وإن لم يؤد عدم اكتراثها إلى منع انعقاد الدورة التسعة والثلاثين للجمعية العامة للأمم المتحدة -التي تكونت معظم دولها من دول العالم الثالث-ولا أن ترجئ المؤتمر الدولي حول القضية الفلسطينية عاما أخرا. ولكن بدء شق اللامبالاة ينحر نحرا في العمق متناولا ما يحدث في الأمم المتحدة وفي إطار توجهات الرأي العام. ويبدو وكأن -أتجاسر بقول ذلك يا يوسف حزان- من يقوم بحملة تأييد هذا المؤتمر يمارس نوعا من التطرف اليساري ! إني أصر على اتخاذ جميع المبادرات إذا ما حصلت على تأشيرة دخول للولايات المتحدة (ولكن الحاسب الآلي اللعين رفضني، ورفضت بدوري أن أملأ الاستمارة التي طلبها مني القنصل، وكأنها تطلب مني أن أقص عليهم قصة حياتي !.) وعبأ بيجين كل طاقته لتخريب المؤتمر، مع ممارسة أقسى الضغوط على فرنسا -عشية الانتخابات البلدية. وكانت هذه هي خطته ! بينما فرنسا تؤيد دعم الشعب النامبيي، في المؤتمر الذي تنعقد جلساته في اليونسكو (تخلصنا

من ملف آخر معلق)، ويبدي بيجين أسفه علناً من أن الأمم المتحدة قررت عقد المؤتمر المعني بالقضية الفلسطينية على الأراضي الفرنسية[111].

ولا نعرف حتى اليوم إذا كانت الأمسية التي أحتفل فيها بإحياء ذكرى السرطاوي قد حصلت على موافقة منظمة التحرير الفلسطينية، بينما وضع سيسيل غولديه[112] تحت تصرفنا قاعة من قاعات مجلس الشيوخ. كما لم نتسلم أيضاً أي رد فيما يتصل بمشروع المنتدى.

نيويورك، الجمعة ٢٧ مايو

هكذا مرت أسابيع ثلاثة في هذه المدينة العجيبة. أسابيع مثمرة وناجحة بفضل آلان سولومنو من "مشروع الشرق الأوسط"، وهي منظمة غير حكومية صغيرة ٠٠٠هذا صحيح ولكنها نشطة جداً في صفوف المنظمات غير الحكومية. ومن المثبط للهمة حقاً يا عزيزي آلان :عندما يتعلق الأمر بالحرب في فيتنام، تقدم الطائفة اليهودية معونات مالية ودعمها، وبالتليفون، ويشتكي بعد ذلك من أنه لم يتلق شروى نقير من أجل وضع نهاية للصراع الإسرائيلي الفلسطيني. ويعتبر المسئولون في الشرق الأوسط داخل المجلس العالمي للكنائس- وكان آلان قد حدد لي ميعادا معهم- أن منتدانا يستطيع أن يكون بديلا للمؤتمر الدولي في حالة إرجاء تاريخ انعقاده. ولم يغلف النسيان الصراع بفضل جهود آلان، وأثناء الصلوات الجماعية في دار سانت جوزيف (العامل الكاثوليكي) حيث يمكن لكل مشارك أن يبارك اسم نضال في مكان ما من العالم أو يحيي ذكرى شهيد مناضل. وكان المنظر مؤثرا حقا.

وعرضت مشكلة توجيه دعوة إلى حضور مؤتمر المنظمات الغير حكومية الإسرائيلية، بما فيها – إن تجاسرت على قوله -المنظمات الصهيونية، وهذا ما اقترحته على دون بيتس المكلف بالأعمال التحضيرية للمؤتمر الدولي، ويعرفه الآن معرفة وثيقة. وأعطت منظمة التحرير الفلسطينية ضوءها الأخضر. وعندما علمنا بهذا الخبر، انتقلنا من مجرد الملاطفات بين الأصدقاء إلى عناق. ومرة واحدة وكأني استحسنت المطبخ الهندي --لم أكن أميل إليه كثيرا-- في مطعم مدراس، الذي دعاني إليه دون بيتس الدقيق، والذكي، والوسيم. واصلت الحديث انتظارا لوصول جوني ماكاتيني -- ممثل المؤتمر الإفريقي الوطني في نيويورك منذ عدة سنوات- الذي يود الآن أن يعرض عليه مشروعا٠٠٠، وفي رأيي كان مشروعا وهميا. ولكنه عنيد٠٠٠ العزيز آلان.

---

١١١ انعقد المؤتمر في جنيف، في ٢٩ أغسطس إلى ٧ سبتمبر ١٩٨٣.
١١٢ سيناتور عضو في مجلس الشيوخ الفرنسي-المترجم.

جنيف، الأحد ١٠ يوليو

اختتم الاجتماع الإقليمي الأوروبي، الخامس أعماله، وهو الاجتماع التحضيري الأخير للمؤتمر الدولي المعني بقضية فلسطين. وافتتح أعماله ببيان أبو موسى (منشق عن منظمة التحرير الفلسطينية) نشرته إحدى الصحف يقول فيه" *أن الدولة الإسرائيلية ينبغي أن تصفى، وعلى اليهود أن يتركوا فلسطين ! "* وماذا بعد ! ورغم صعوبة الاجتماع إلا أنه كان منتجاً . مثله مثل الاجتماع الإقليمي الأمريكي. إلا أننا لا ينبغي أن ننتظر شيئا من ريغان (عروسة المولد المترهلة): الذي يسير في خطا بيجين وشامير وشارون ٠٠٠سيصرح بنفس التصريحات. والشيء الذي عانيت فهمه هو أني مضطرة للنضال من أجل الحصول على موافقة العديد من المنظمات غير الحكومية الأوروبية لقبول وجود المنظمات غير الحكومية الإسرائيلية[١١٣] . واصبح نداءنا وثيقة من وثائق المؤتمر الدولي. ويبدو أنها المرة الأولى في تاريخ الأمم المتحدة تلعب فيها منظمة غير حكومية مثل هذا الدور. كما أنها المرة الأولى التي تتمكن فيها منظمة غير حكومية صغيرة (مثل منظمتنا)- وهي غير مسجلة في الأمم المتحدة- من التدخل في الجلسات العامة وفي أعمال اللجان السياسية.

جنيف، سبتمبر ١٩٨٣

وأنتهي إعداد محضر اجتماع مشاركتنا في أعمال المؤتمر الدولي[١١٤]، علما بأن الهدف، والميزة الوحيدة لمحضر الاجتماعات هو أنه يترك أثرا لعملية نضالية تمت، ولا يعكس الجانب المعاش. ولم تشترك أبداً لجنتنا المتشائمة في هذا العمل، ويقول موريس بارت، وهو يدمدم متذمرا" *أنه لا ينسجم مع هذا العمل*"، وبكل أدب" *ومع العقلية الشرقية* "(كان مولعاً بنيكاراغوا وأمريكا اللاتينية)، وافق في النهاية أن ينضم إلينا٠٠٠ ونظمنا مقابلة (بأسرع ما يمكن) بين ماتي وممثلا من منظمة التحرير الفلسطينية، لا أكشف عن اسمه حتى لا يتعرض بدوره إلى محاولة اغتيال.

هذه أول مرة أحضر فيها رسمياً مقابلة دولية تحت رعاية الأمم المتحدة. عندما أقول حضرت فقد تكون مبالغة مني بعض الشيء٠٠٠ كان علي أن أبحث عن أماكن إقامة مجانية لسبعة مندوبين إسرائيليين (في منازل عائلات يهودية في جنيف لتوسيع نطاق اتصالاتهم)، وأن أضمن استمرار استقبالهم، ونقلهم إلى محال إقامتهم لدى وصولهم،

١١٣ وبلغ عددها ١٠.

١١٤ جمعت ١٣٧ دولة و١٠٤ منظمة غير حكومية، و هذا رغم التصعيد الهستيري للحملة المعادية التي وصفت المؤتمر بأنه عملية "الهدف الرئيسي منها دراسة إمكانية تصفية إسرائيل"، وهذا هو ما أعلنه سفير إسرائيل في مؤتمر صحفي، عقد في قاعة ملحقة مباشرة وفورا بعد أن ألقى ياسر عرفات بيانه.

واندماجهم في أوساط المنظمة الأمنية التي يحاصرها العسكريون، ثم مصاحبة ماتي في كل تنقالاته (وبكل سعادة) مع الانتظار حتى ينتهي من طباعة مداخلتــه أمـام المؤتمر (دقيق لدرجة أنه انتهى منها في الفجر!) لكي أصطحبه بعد ذلك إلى فندقه، وأنظم خـارج المؤتمر استقبال المندوبين الإسرائيليين بواسطة المنظمات الغير الحكومية اليهوديـة في جنيف ... باختصار عمل مضني .

وطوق ٢٦ ألف شرطي وفدوا من جميع أنحاء سويسرا مكـان المؤتمـر، ونقل المسئولون في منظمة التحرير الفلسطينية بواسطة المروحيات، انطلاقا من سـطح فندق إنتركنيننتال حتى مقر منظمة الأمم المتحدة المجاور. مما عقد من الاتصالات. وتبين لـي أن الاضطلاع بمفردي بهذه المهمة يسر من عملية التخطيط اليومي للمـهام وإنجازهـا. ولكني شعرت أن الانغماس العاطفي في هذه العملية كان له آثار محرفة: فقد غلت دمـائي عندما قرر عزيزي أوفنيري (ولكن كان محقاً عندما قال بأنه ينبغي أن يسجل الـهدف) أن يعقد مؤتمراً صحفياً مدويا ليشكو فيه من تفادي مقابلة المندوبين الفلسطينيين المندوبيـن الإسرائيليين، ثم الإهانات التي وجهها يوري دافييز إلى ذكرى السرطاوي، وأيضاً لعـدم دعوة المجلس الإسرائيلي (ولا لجنتنا أيضا) إلى الحفل الـذي نظمتـه منظمـة التحرير الفلسطينية على شرف رئيسها. لكني تابعت المناقشات العامة... واختتم المؤتمر أعمالـه بنجاح: ودفعتنا الطاقة الخارقة المعجزة لياسر عرفات إلى أن نقف تعظيما (فجأة وجـدت نفسي واقفة وأشير بعلامة النصر) عندما حيا قوى السلام الإسرائيلية، وجعلت الشخصيات الإسرائيلية المدعوة للمؤتمر والمتواجدة في الردهات المجاورة لقاعـة المؤتمـر تعـانق بعضها البعض. ومنها ماتي وأفنيري. يا الله ! . يجب أن أعود مرة أخرى إلى ممارسـة اليوجا حتى تهدأ أعصابي: فلقد أدت كل هذه الأحداث إلى توتر الأعصاب إلـى درجـة ظهور ألم النسا.

عالم من الصم...

مايك ، أغسطس ١٩٩١

وفقا لما كان يفكر فيه كثير من المراقبين السياسيين الذيـن يتـابعون عـن كثـب الأحداث تبين أن دخول قوة فلسطينية إلى لبنان مدججة بالسلاح وتحمل علـى رؤوسـها أكاليل الغار بعد قتالها دفاعا عن العروبة، متجاوزة بذلك إطار الصراع الطائفي العقـائدي الخاص بالمجتمع اللبناني، إلى انهيار التوازن الطائفي القديم في لبنان وإلى إذكاء النعـرات الطائفية، ونشوب الحرب الأهلية. ولا ينبغي أن نغفل تسلط وسواس الولايـات المتحـدة الأمريكية الذي يهدف إلى استبعاد- وهذا بكـل الوسـائل والطـرق الممكنـة- الاتحـاد السوفييتي عن المنطقة، ودعمها لسياسة ترسمها إسرائيل التي يحكمها منذ ١٩٧٧ أنصـار الميول الوطنية التوسعية والرفض التام لأي شكل من أشكال مشاركة منظمـة التحريـر

الفلسطينية في أي نوع من المفاوضات أيا كانت. ولا تستعيد بيروت هدوئها بعد مغادرة منظمة التحرير الفلسطينية[115]، كما أن خطة الكتائب المارونية لحكم لبنان مع دعم إسرائيلي عمق من الهوة: حرب طائفية، حصار لطرابلس (بواسطة السوريون والإسرائيليون)، وصراع مسلح بين المخيمات حتى يوافق رئيس الوزراء البريطاني على استقبال وفد أردني/فلسطيني (صوّت الكنيسيت مؤيدا قانون ينص على منع إجراء اتصالات مع منظمة التحرير الفلسطينية). وقبل ذلك، أدانت الاتصالات مع مصر مما أدى إلى إغلاق مكاتب منظمة التحرير الفلسطينية في القاهرة. ثم أعقب ذلك اختطاف سفينة أخيل لارو، والعمليات العسكرية ضد المستوطنين، واختطاف الغربيين، ورفض الاتفاق الذي توصلت إليه لبنان مع إسرائيل ولا سيما تحت ضغط الطائفة الشيعية أمل... ومذابح كثيرة. وارتطم مناضلونا المؤيدون للحوار في هذا السياق بجدار من الخرسانة المسلح.

وبذلت جهود كثيرة بعد اختتام أعمال المؤتمر الدولي بغية هيكلة عمل المنظمات غير الحكومية (تشكلت في باريس لجنة للتنسيق). بينما يلاحظ تجمع الكثيرون للإعراب عن تضامنهم مع الشعب الفلسطيني، وخلت الساحة ولم يبق فيها أحد عندما تعلق الأمر بتشجيع الحوار. فلنتذكر أحد المنتديات التي نظمت في باريس في مايو ١٩٨٦، ... قام بتنظيمها جون بول شانيولو[116]، بمساعدة رابطة التضامن الفرنسية العربية: وقد غطت الصحافة أحداثها، وكان ذلك قبل نهاية فترة تناوب شيمون بيريز منصب رئيس الوزراء (وافق في خطابه في ٢٢ أكتوبر ١٩٨٥ الذي ألقاه في منظمة الأمم المتحدة، على مشروع عقد مؤتمر دولي واستقبله ملك المغرب وحسني مبارك). وكان هذا هو أول اجتماع علني حضرته شخصيات من الأراضي المحتلة، وصهاينة ممثلين لمجتمعهم. مثل ميرون بنفينيست، مستشار قديم في بلدية القدس، مؤلف دراسة حول الاستيطان في الضفة الغربية، و ممثل المبام في أوروبا، وأربيه جافييه وأيضا ديديه زكر مندوب من حزب راتس وهو حزب إسرائيلي صغير من اليسار. وكانت النتيجة كما قيل لي (حيث كنت مشغولة بدراسة جماعية في حلقة بحث تناولت قضية السودان، ولم أحضر هذا المنتدى). أنه في الوقت الراهن لا يمكن عمل شيء.

وباستثناء الشريط الساحلي الجنوبي[117]، انسحبت إسرائيل من لبنان في ١٩٨٤، ولو أن انتخابات هذا العام لم تؤد إلى اكتساب سوى ميزة ضعيفة لتيار العمال ...قام ابتداء من أكتوبر ١٩٨٠ إسحاق شامير- أصبح رئيسا للوزراء -بتخريب كل مبادرة لحل أزمة

---

١١٥ بدأ ذلك في ١٩٧٥، وانتهت حرب لبنان في ١٩٩٠.

١١٦ أستاذ ومدير سلسلة مؤلفات في التاريخ والمنظور المتوسطي، دار لارمتان للنشر.

١١٧ ومنها انسحبت القوات الإسرائيلية مؤخرا باستثناء مزارع شبعا التي تقع على الحدود مع إسرائيل ...وتطالب بها كل من سوريا ولبنان

منظمة التحرير الفلسطينية "الحرب بين المخيمات" . وفي الحقيقة أحدث التوازن بين أنصار الحل التوفيقي الإقليمي والذين ينادون "بإسرائيل الكبرى" لا حركة سياسية. كما لو كان التوافق الوطني العام يدور حول الوضع الراهن السلبي فقط : لا حوار مع منظمة التحرير الفلسطينية، وتطبيق سياسة اليد الحديدية التي أبتدعها رابين، وعدم تطبيق قرار تعليق المضي قدما في سياسة إنشاء المستوطنات الجديدة في الأراضي الفلسطينية المحتلة. بل لم تنجح واقعة اكتشاف شحنة من الأسلحة مرسلة من إسرائيل إلى إيران بتمويل أمريكي (إيران جيت) في إثارة هذه الأزمة.

أما الجانب الفلسطيني، فلم يقاسي فقط من"حرب المخيمات " في لبنان. بل أدت كل المبادرات إلى كارثة. مثل كارثة ياسر عرفات ...الذي تقرب من مصر والأردن للتوسط في إجراء المفاوضات مع إسرائيل بمساعدة أوروبا، وقد تحولت هذه الخطوات إلى قطيعة عندما رفض المندوب الفلسطيني اعتماد قرار رقم ٢٤٢ . بينما كان قد اعتمده المندوب الأردني حسب الاتفاق المعقود بينهم وبين رئيس الوزراء البريطاني لكي يوافق على استقبال وفد أردني/فلسطيني... وقبل ذلك أدت إدانة الاتصال مع مصر إلى إغلاق مكتب منظمة التحرير الفلسطينية في القاهرة، بالإضافة إلى اختطاف سفينة "اخيل لاورو"، وتصويت الكينيست على قانون حظر الاتصال مع منظمة التحرير الفلسطينية. والعمليات الثأرية ضد المستوطنين والجنود الإسرائيليين... كلها عبأت وسائط الإعلام الغربية. وبطبيعة الحال أضف إلى ذلك نشوب الحرب العراقية الإيرانية. ولكن رغم ذلك كله تمت المقابلة بين ريغان وجورباتشوف.

أما على مستوى لجنتنا، فكانت المنافسات بين راكاح، والقائمة التقدمية (وهي مجموعة جديدة تم تشكيلها بمساهمة أقرب المتعاونين معنا وهو ماتي بيليد) قد تسببت في تسميم الجو. ولكني استطعت في جنيف أن أناضل في جميع الاتجاهات دون إزعاج: في لجنة التنسيق بين المنظمات غير الحكومية السويسرية، ومن أجل إشراك أنصار التسوية في إطار منظمة الأمم المتحدة في لجنة السلام المعنية بمقابلة ريغان وجورباتشوف، بل حتى من أجل تشكيل لجنة لدعم أسر الرهائن اللبنانيين في لبنان، وذلك مع الراعي البروتستنتي لينوار (الذي تعرفت عليه أثناء جمع المعلومات فيما يتصل باختطاف ابن جيل بيرو في لبنان). وعلى أية حال، فلقد أنهت منظمتنا غير الحكومية دورها الوسيط: وبفضل جورباتشوف، استطاعت التيارات الفلسطينية أن تنجح في التوفيق بين مواقفها المختلفة في الدورة الستة وعشرين للمجلس الوطني الفلسطيني (المنعقد في الجزائر في ١٩٨٧) والذي نادى بالحوار "مع القوى الديموقراطية الإسرائيلية التي تعترف بالحقوق الوطنية للشعب الفلسطيني". واعترف ياسر عرفات في الاجتماع السنوي الدولي العادي للمنظمات غير الحكومية "في ١٩٨٧"، بجميع القرارات الصادرة عن منظمة الأمم

بل أعتقد أن المجموعة أنقذت من الوقوع فريسة الاكتئاب المعتاد الذي يشعر به المنفيون السياسيون، بفضل أسلوب هنري العملي.

ماذا كان رد الفعل ...؟

على الرغم من قرار القيادة الحزبية الجديدة في مصر حل المجموعة بصورة تعسفية (بعد أن عملت المجموعة بكل طاقتها لتقدم الدعم أثناء أزمة السويس)

لم يدع هنري المجموعة للانشقاق... فقد كان ذكياً... وجه أعضاء المجموعة إلى أنشطة محددة تضامنية... تتناول الدفاع عن قضايا الزملاء المسجونين السياسيين في مصر، ونظم لقاءات مع المؤيدين للحوار الإسرائيلي/العربي، ومن ثم الإسرائيلي/الفلسطيني بعد ذلك.

وأعلن عن مبادرات جديدة، اشتركت فيها بكل ما أملك من طاقة.

لا يعتبر إنشاء منظمة التضامن لمساندة نضال تحريري انطلاقا من عاصمة البلد المستعمر أمراً هيناً..!!.

واعتبر البعض أن هذا العمل موجهً ضد أمن الدولة الفرنسية، وأعني بهذا العمل الخيار الذي يؤيد جبهة التحرير الوطني الجزائرية

ومجرد تبني هذا الموقف ...خطوة تحررية أخرى. سارعنا لاتخاذها دون تردد. وأصبحت هذه القضية شغلنا الشاغل.

ألقي القبض عليّ مع هنري في أكتوبر ١٩٦٠.

وبعد ذلك هربت من السجن بعد قضاء عدة شهور، مع مجموعة من السجينات السياسيات (غير العاديات المذهلات...!!!)، ولم يسقط، فيما يخصني، قرار الطرد من فرنسا بعد صدور العفو (كنت أجنبية... ولست بلا وطن، مثل هنري).

لذلك كان علي أن أختار مكاناً أخرا أتحول إليه خارج فرنسا.

واخترت الإقامة في الجزائر بعد أن عرضت عليّ ذلك إحدى الشخصيات التاريخية المذهلة ، وهي شخصية الرئيس بن بيللا... -المندفع كالثور الهائج، مهاجماً بقرنيه... يخوض مغامرة مع مناضلين متطوعين لا يكفون عن التشاجر فيما بينهم بصورة لا نظامية- معتقداً اعتقاداً راسخاً، بأن كل شيء ما زال ممكناً في هذه الجزيرة "الجزائر" التي يفد إليها الثوريون من جميع أنحاء العالم.

ولكن... لم تكن الجزائر كوبا أخرى، حتى رغم حضور الكوبيون الثوار إلى الجزائر لدراسة أساليب تدريب الشباب في معسكرات المتطوعين (وهي العملية النضالية الوحيدة الملموسة في مجال بناء الدولة بعد الاستقلال التي اشتركت فيها، وأعتز بذكرياتها كل الاعتزاز).

المتحدة "بما في ذلك القرار رقم ٢٤٢ والقرار رقم ٣٣٨" [١١٨] *ويظل رغماً عن ذلك اللاحراك الإسرائيلي على حاله.*

تتناول المذكرات التالية أعوام الركض في اتجاه اللاحركة.

باريس ١٠ أكتوبر ١٩٨٣

وبحصار ياسر عرفات في طرابلس. يتبين من الصور المعروضة أهمية ما يتمسك به من قيم إنسانية ومدى تعلق المقاتلين به. وقد نجح المخرج السينمائي السوري المبدع عمر أميرلاي من نقل الصور فنياً، صور حقائق مغلفة بالضباب حتى ذلك الحين بفضل إعلام تليفزيوني سطحي تافه. وبذلك يفاجئ هذا "السوري الحاذق" الجميع بإبداعه مرة أخرى رغم انعزاله. وتركت دون أن أعقب على ما تقوله سيدة عضو في مجلس الشيوخ الفرنسي -ادعت أننا توقفنا عن الإعراب صراحة في نصوصنا عن تأييدنا لمنظمة التحرير الفلسطينية-.

جنيف، الأحد ٣٠ أكتوبر

لم يطبع بعد المشروع الذي تناول المؤتمر الدولي والذي أعدته لجنتنا. يا لها من ساعات كثيرة قضيناها في إعداد التقرير، وإعادة تنقيح النص في إطار المجموعة ... وهذا قليل الأهمية بالمقارنة بحالة الانشقاق التي تنحر جسد فتح، ويؤيدها في ذلك السوريون للتحكم والسيطرة على منظمة التحرير الفلسطينية. لدرجة حصار عرفات في طرابلس. وبطبيعة الحال انعقد المؤتمر دون حضور الفلسطينيين ٠٠٠ وسيفتتح مؤتمر القادة اللبنانيين غداً في جنيف. ويحضره السوريون والسعوديون كمراقبين رسميين، أما الباقين "الأمريكان، والسوفييت، والفرنسيين ..." فيقبعون في الردهات الملحقة. وتضم "جبهة الإنقاذ الوطني" مجموعة من القوى المتباينة: الحزب الاشتراكي التقدمي "دروز" لوليد جنبلاط، وحزب أمل "الشيعي" للمحامي نبيه بري (ينبغي ألا نخلط بينه وبين الأمل الإسلامي في بعلبك تحت سيطرة السوريين)، ومجموعات مختلفة من المسيحيين المارونيين والمسلمين السنيين الذين سيطروا حتى هذه اللحظة على مقاليد السلطة بكاملها. وكلي أمل أن يتمكن رولو، (المحرر الوحيد الكبير في فرنسا الذي يستطيع أن يفهم القضايا الشرق أوسطية) أن يغطي أحداث المؤتمر. ويعكس هذا المؤتمر مع ذلك رغبة عامة في التوصل إلى حل بعد أن وقعت مذابح الشوف (الدروز) وانفجار السيارات المفخخه، والعمليات الثأرية.

---

١١٨ انظر الملحق الخاص بنص القرارين

٤ نوفمبر ١٩٨٣

وكان مارشيه على حق: دافعت الأحزاب الداخلة في حلبة الصراع حول القضايا اللبنانية عن مصالحها دون أن تهتم بالفلسطينيين. وما زالت مظاهر السعادة تنتشر في كل مكان عندما تحدث ميتران من منصة الأمم المتحدة عن "الجنود الفلسطينيون". وعندما تحدث كلود شيسون في اجتماع وزراء خارجية البلدان المشتركة في إعداد القوة المتعددة الجنسيات، وصرح بأن" فرنسا مثل شركائها الأوروبيين تنادي بحل شامل لمشكلة الشرق الأدنى مروراً بتسوية المشكلة الفلسطينية"[١١٩]. تسوية ؟ وبعد... هاكم في طرابلس تقصف في الوقت الراهن ضيعة رشيد كرامي بالقنابل. يبدو أن هناك شحنة كبيرة من الأسلحة تم إنزالها على شواطئ لبنان. وأن عرفات سيبرم تحالفات مع السلفيين. كيف بالله عليكم...!!؟ نعم ...يمكن أن نسمع ذلك في حضرة سفير إسرائيلي سطحي. ثم من حق السفير السوري الظهور على شاشة التليفزيون في شكل عملاق...!! كيف هذا وسوريا تشن الحرب على قيادة منظمة التحرير الفلسطينية.

الأربعاء، ١١ يوليو ١٩٨٤

وتؤيد علنا قيادة منظمة التحرير الفلسطينية"قائمة التقدميين" الإسرائيلية التي يتكون نصفها من العرب (ومنهم محمد معاري) والنصف الآخر من اليهود ومنهم (ماتي). وكرر ياسر عرفات -بعد أن أجرت معه القناة السويسرية الفرنكوفونية لقاء على الهواء- ما كان قد صرح به إلى فيلاج فويس (نيويورك). وتلقى منبر هذه القائمة تأييداً من راكاح، لفكرة وجود دولتين (إلا أن إسرائيل أصيبت بالصمم). أما بقية المقابلة فهي مقابلة تقليدية. فلقد أضعف منظمة التحرير الفلسطينية- في ممارساتها العملية- احتلال الأراضي الفلسطينية، وتعكس المنظمة قدرا من التخبط بسبب التيارات المتناقضة المرتبطة بالقوى الحاكمة في الدول العربية، ولذلك أصبح من الضروري المحافظة على قيادة سياسية مستقلة في الخارج.

٢٤ يوليو

انتخب معاري وبيليد. وحصلا على مقعدين يمثلان ٤٠ ألف صوت. وتعتبر مجموعتنا الصغيرة (في هذه المرة - تقلص عددها إلى أن وصل إلى اثنين فقط جويس، وهي تقريبا مناضلة دائمة في باريس، وأنا في جنيف) أن جهودها لم تذهب هباء...!! ولكن... يا له من إحراج أمام هجوم راكاح المتواصل ضد القائمة والعكس. وقد حصل

---

١١٩ لموند، ٢٩ أكتوبر ١٩٨٣.

حدش (التي يسيطر عليها الشيوعيون) على المقاعد الأربعة المعتادة (توفيق طوبي وتوفيق زيـــاد ومايير فيرنر، وشارلي بيتون من الفهود السوداء). وكان ماتي على حق عندمـــا قال *أن القائمة "لن تجتذب الناخبين المتعاطفين مع الشيوعيين، وأن هذه المشايعة ســـوف تفقده بحمق وضعه الذي كان فوق المصالح المتضاربة"*. وكان حساب المقاعد التي كسبها التيار المتعاطف مع الحوار: (٤ من حدش) + (٢ من القائمة) + (٣ من راتـــس) + (٣ من شينوي) ليصبح المجموع إثنى عشر مقعدا من مجموع كلي يبلغ ١٢٠ مقعدا ويعـــبر عن ٢٤٠ ألف صوت من مجمل أصوات يبلغ عددها ٢ مليون صوت. هـــذا قليـــل... فضلاً عن أن معظم الناخبين كانوا من العرب. لكن إذا ما أضفنا ٧ من المبام ومن جزب العمل المتعاطفين مع الحوار فضلا عن القوى الاحتياطية مثـل (يوســي ساريد)، فـإن المجموع الكلي يتخذ شكلا أفضل. ولكن على أية حال حاز السلفي رابي كاهـــان (علـى مقعد واحد وهو الذي يجلس فوقه بنفسه) ورفعه التليفزيون الغربي إلى مصاف النجـوم. وأتابع القنوات التليفزيونية في جنيف وفي فرنسا وأستمع إلى قناة الإذاعة فرانـس أنتـير وإلى البي بي سي: ولم أسمع إلا مرة واحدة فقط ذكر فيها اسم حدش ومرة أخـرى فقـط إشارة إلى القائمة. لم يكن هناك كلام إلا عن رابي! شيء غريب حقا بعد حرب لبنان لـم تحصل المعراخ "العمالية" إلا على ٤٤ صوت (ضد ٤١ صوت لليكود). هذه عملية سباق جديدة في اتجاه اللاحركة والصمم.

٣١ أغسطس

لم يستطع المعلق الفرنسي التليفزيوني موروزي أن يمارس دوره في النقد عندمـــا حان دور الحديث عن إسرائيل. ففي نشرة أخبار الساعة الواحدة بعد الظهر علـــى قناة (TV1) لم يحاول ولو لمرة واحدة أن يزحلق هذا السفير الإسرائيلي الجاهل الفظ، سيئ النية ويتخلص منه... تنتاب المرء رغبة طاغية لإلقاء حذاء على هذه الشاشة...ولا سـؤال واحد يتحدث عن نسبة الـ ١٢ في المائة من الأصوات المتعاطفـــة مـــع الحـــوار مـــع "الإرهابيين!". ولا حول رفض إسرائيل أي مفاوضات على أساس قرارات الأم المتحـــدة (وهذا مهما كانت المبررات والذرائع). بل حتى عبارة "فلسطيني" محظورة الاســـتعمال لغوياً. أما في الأخبار فلا يوجد أقل ذكر لاجتماعنا السنوي (اجتمـــاع المنظمـــات غـير الحكومية). رغم تدخل صاحب القداسة هيلاريون كابوتشي[١٢٠]، ولا يوجد كـــلام إلا عـــن ساخاروف (كلام دار بلا علمه، دون شك... على الأقل فهو حي يرزق). أو كلام عـــن ذكرى أيام جادنسك في بولندا. لا شك أنها مهمة جدا...!!. إلا أنها تعود إلى ٤ ســـنوات

---

١٢٠ وهو مطران مالكي حكم عليه القضاء الإسرائيلي في ١٩٧٤ باثني عشر سنة سجناً ... لأنه ساعد في نقل أسلحة مرسلة إلى المقاومين الفلسطينيين.

مضت، أما احتلال الأراضي الفلسطينية فهذا أمر واقع اليوم، وحادث الآن. وهذا رغم أهمية المنطقة بوجه خاص التي تعتبرها فرنسا مسئولة عنها تاريخيا .

باريس، ٢٧ مارس ١٩٨٥

يغلف الغموض ما حدث لابن جيل بيرو(مدير المركز الثقافي الفرنسي في طرابلس) . اختطفته "مجموعة الجيش الثوري للمقاومة اللبنانية". ويبدو أن هذه المجموعة ذات توجه حباشي، ولكنها منشقة، وقامت بهذه العملية في قرية تقع على بعد ٨٠ كم شمال طرابلس، إذا على الحدود السورية (هذا ما أخبرني به باتريس بارات[١٢١]). وهم يطالبون بالإفراج عن سجين، أعتقل في مدينة ليون الفرنسية في أكتوبر ١٩٨٤ لأنه كان يحمل أوراق شخصية مزورة، وستنظر قضيته أمام المحاكم الفرنسية في شهر أبريل، ومن المفروض أن يفرج عن هذا السجين في غضون ستة شهور. وأبرزت في إطار اتصالاتي من أجل الإفراج عنه، موقف جيل من المقاومة اللبنانية الذي لا غبار عليه .

جنيف، الخميس ١١ إبريل ١٩٨٥

هاجمت سناء مهيدي، وهي لبنانية رائعة٠٠٠ شيعية ذات السبعة عشر ربيعا،- وقد صففت شعرها وارتدت بيريه أحمر واللباس العسكري- وهي تقود سيارة مملوءة بالمتفجرات، نقطة عسكرية إسرائيلية في شمال جزين (على بعد ٤٠ كيلومتر جنوب شرق بيروت)، وقتلت جنديين إسرائيليين، ومدني لبناني. وقد صورت قبل هجومها الثأري وهي تقف تحت راية حمراء وبيضاء وسوداء للحزب الوطني الاجتماعي السوري[١٢٢]. وهي تقول "*أرجو أن تنضم روحي إلى أرواح الفدائيين الآخرين لكي تنزل كالصاعقة على رؤوس جنود الأعداء*"، وطلبت الصفح من أمها لأنها تركتها دون وداع ٠٠٠

جنيف، الأحد ١٧ نوفمبر ١٩٨٥

واصلت المظاهرة سيرها بالأمس كما كان متوقعا. وحسب التقديرات كنا حوالي ١٠ آلاف متظاهر. وهذا عدد مهم بالنسبة لمدينة جنيف. ويبدو أن جورج دوبال، ٧٨ سنة

---

١٢١ ابن روبير بارات، مدير مكتب إعداد أفلام وثائقية

١٢٢ الحزب الوطني الاجتماعي السوري (غير عقائدي)، أسسه مسيحي لبناني عام ١٩٣٢، ويهدف إلى توحيد البلاد وصبها في قالب واحد "الهلال الخصيب" (سوريا - ولبنان - والعراق - والأردن). في سوريا الكبرى، وهو أحد مؤسسي جبهة المقاومة الوطنية (اللبنانية) ويتطلع أعضاؤها إلى التضحية بحياتهم من أجل استقلال لبنان (ولا للاستشهاد والصعود إلى جنة الخلد كما يفعل الشيعة المتأسلمين).

وقد بلغها بالفعل، مريض بالقلب، ومصاب بشلل وترتعش يديه، ويبدو وكأنه من آلهة الإغريق، لا يريد أن يتقاعد قريبا : فلقد شاهدته يصورنا من على رصيف مون بلان، وهو يحمل كل أجهزة التصوير وفي جو قارس البرودة. خصصت الصفوف الأمامية في المظاهرة لإبراز الشعارات الرئيسية *"لا: ريغان – جورباتشوف، العالم ليس ملكا لكما !" "لا للصواريخ النووية سواء في الشرق أم في الغرب !" " لا لحرب النجوم !"* لتخرج الولايات المتحدة الأمريكية من أمريكا الوسطى !" "ليخرج الاتحاد السوفيتي من أفغانستان !" وبينما كنا أكثر عدداً (تقريباً حوالي ١٠ أفراد) وأكثر نضالية، استطعنا[١٢٣] أن نحتل مكاناً متقدماً في الصفوف. ولكن فريق لجنة السلام في جنيف أخذ في الاعتبار طلبي لإعداد النداء بإيجابية... وبفضل جنفيف جاك[١٢٤] طبع النداء لعقد مؤتمر دولي من مئات النسخ، إلا أنه لم يوزع توزيعا كافيا على طول مسيرة المظاهرة لأننا كنا نحمل اللافتات والشعارات التي تمنعنا من الحركة بحرية. ولقد اهتم الدكتور شارلز هنري رابان رئيس جمعية سويسرا وفلسطين بكل شيء (في جنيف نجد الأطباء ملتزمون جدا في حركة التضامن)، وهو لطيف إلى أقصى الحدود وكان يغطي نشاطي المؤيد لعقد المؤتمر... بينما يعترض هو عليه (ويتولى كل شيء من إعداد وصناعة اللافتات التي تحمل الشعارات إلى إعداد وتحضير الخطابات الرسمية)، ولقد أجري معه حديث مطول في الإذاعة الحرة (راديو ليبر) التي تبث مباشرة مقابلاتها. وكان علينا أن نسلم البعثات الدبلوماسية رسالة تطالب القوتين العظميين بإدراج قضية السلام في الشرق الأوسط على جدول أعمال مناقشاتهم ، وتسلمتها أيضا (الصحافة والبعثات الدبلوماسية باسم القسم الوهمي في لجنتنا...!!) قيل لي أنها حظت بتقدير كبير من السوفييت.

وبسبب اللافتات التي تحمل الشعارات لم أتمكن من التجوال على طول امتداد المظاهرة لمشاهدة المتظاهرين من حاملة الأقنعة (وهي من الأعمال الرمزية الناجحة جدا في جنيف). إلا أني شاهدت اللوحة التي تحاكي لوحة جيوكندا لبيكاسو --رائعة يا نيفين-- وبمناسبة حدوث ثغره في كتلة الأجساد البشرية للمتظاهرين، استطاع فريقنا أن يدلف إلى شارع جانبي (حتى نتخلص من الملل الذي بسببه التقدم البطيء للمظاهرة على رصيف ويلسون) ووجدنا أنفسنا خلف مجموعة من أمريكا الوسطى، تصاحبها جوقة موسيقية ويحملون مكبر صوت، وكل ذلك محمول على جرار قديم عدل حتى اتخذ صورة عربة حربية منتصرة، تبث المعلومات المتقطعة، ويتخللها رقصات السامبا الشيطانية. حقا أن اللاتينيين الأمريكيين تجري في عروقهم العروض المسرحية، وشعر فريقنا بالدفء عندما اتصلنا بهم. وانتهت المظاهرة كالعادة: خطابات ألقاها جان زيجلر (ما الذي يمكن أن نفعله بدون وجوده !) وبيان يناهض السلاح النووي لبيترا كيللي، عضو البوندستاج.

---

١٢٣ المنظمات غير الحكومية المتضامنة مع القضية الفلسطينية.

١٢٤ وهي حاليا سكرتيرة عامة في منظمة غير حكومية للتنمية سيماد.

ولم أحضر الأمسية التي نظمت في الجامعة. ولا حتى لكي أشاهد ما يجري. ولقد كان التأييد الذي يوليه اليسار في جنيف للسلفيين الأفغان يحرق دمي .

ونظم اجتماع اللجنة الاستشارية بين الأديان (التي أنشئت في جنيف في ١٩٦٨) هذا الصباح في كاتدرائية سانت بيير وترأس القداس الراعي هنري بابل. وحضرت جميع الفرق الدينية: من مختلف الكنائس المسيحية ومنها الكنيسة الأرثوذكسية لموسكو والأمريكية أيضاً، واليهود والمسلمون، وأنصار سوامي هندو ، شنشويين ... وأمت صلاة السلام في الشرق الأوسط امرأة. ولم يهتم التليفزيون بهذا الحدث ولكنه اهتم بموضوع ثلاثة أو أربعة أفغان جاءوا من ألمانيا، ونجحت شابة عضو في إحدى المنظمات غير الحكومية المؤيدة للمجاهدين... !! في مساعدتهم في الوصول إلى مكان متوسط في المظاهرة وهي تحمل لافته في يدها. وقمت بتوزيع نداءنا عند مكان الخروج. ويقهقه محرم : فيجدني أشبه كوبيليو ، المناضل في حركة تحرير جزر الكناري الذي كان يقيم في الجزائر العاصمة (وفي العالم كما كان يقول هنري ...وهو ينحني من كثرة الضحك) الممثل الوحيد إلا أنه نجح في الحصول على اعتراف منظمة الوحدة الإفريقية بوجوده (قبل أن تصيبه رصاصة غادرة أجبرته على الارتماء في سرير ملقى في إحدى المستشفيات).

٢٢ نوفمبر

لا شك من روعة متابعة التليفزيون مباشرة، وقبل أن تستبعد بعض اللقطات الحساسة. مكثت البارحة لأتابع الجلسة الختامية لمقابلة القمة والمؤتمر الصحفي لجورباتشوف. وحاول مترجم ريغان الخاص وبهدوء ...أن ينبه جورباتشوف حتى يعدل عن التصفيق، بالطريقة السوفييتية المعتادة، عند توقيع البيان المشترك لشيفرنادزة وشولتز (وزراء الخارجية). وتلقى رفضاً غاضبا، وتغتاظ هذه العبيطة نانسي عندما طلب منها التوقيع على السجل بعد رايسه زوج جورباتشوف. ولأول وهلة، شعرت بسبب بساطته وهدوئه بالتعاطف معه. ولم يعد يتخذ صورة (عروسه المولد المترهلة). إلا أنه فيما يبدو لم يعد يسيطر على مقاليد الأمور في منصبه. بل يبدو وكأنه خرف بعض الشيء. أما جورباتشوف فهو متمرس. هادئ متحكم. مسئول . ولكن على ما يبدو مازالت تتعلق به بقايا تصرفات تعكس قلقا شبابيا (رأيته يتوقف في مدخل أحد قاعات الاستقبال، ويخرج مشطاً صغيراً من جيبه، ويرفع قبعته، ويسرح به ما تبقى من شعيرات رأسه الصلعاء) واستمر المؤتمر الصحفي –كأنه محاضرة في العلوم السياسية –...سيل لا يتوقف من الكلام موجهة إلى الروس، ولمدة ساعة كاملة من الزمن. قال فيها كل ما يمكن أن يقال، وهو تقريبا لا شيء...!! ولم يترك فسحة أو مكانا لتلقي الأسئلة المتوقعة من الصحفيين. الذين لم ينتظروا لا خطابات رنانة ، ولا تغييرات حاسمة. ولا نعرف شيئا عن مداخلة ريغان أمام الكونجرس. وفي جنيف قام شولتز بعقد مؤتمر صحفي لم يبث على التليفزيون

مباشرة. واستنتج من تقرير البي بي سي صباح هذا اليوم، أن جورباتشوف أكد على ضرورة- ومن أجل بقاء البشرية- العمل على تعايش النظامين، أما ريغان، فأكد على ضرورة تغيير النظام السوفييتي ! ويكفي هذا التصريح ليتولد عنه مستوى من السطحية[125] رددتها وسائط الإعلام . وأعد كل شيء للتقليل من أهمية المقابلة ومن مغزى المظاهرات التي سارت تأييداً لها. ولأول مرة يتوفر للصحفيين مثل هذه الحلقات الإذاعية الهامة، ولعدة مرات في اليوم، ولم يستفد منها الصحفيون للتفكير في النواحي التاريخية. بل لم يعقبوا حتى على المظاهرات التي نظمت في العواصم الغربية (لندن، ولا هاي، وباريس، وجنيف، وبروكسل ...). ولم تجر مقابلات مع المناصرين للسلم المجتمعين في جنيف في المجمع المسكوني للكنائس، ولا مع النساء ورجال الدين الأمريكان والسوفييت، وبصورة أقل لم يعد بث ما جرى في المؤتمرات الصحفية التي نظمت لجيسي جاكسون[126] ، ولم يفعلوا شيئاً سوى الشكوى والتذمر، أو السير في أذيال رايسه ونانسي. كان الأمر محزناً ومخيباً. و سوف تؤخذ في يوم من الأيام هذه المقابلات من ملفات التاريخ ويعلق على صورها مثلا في جريدة تام بربزان السويسرية أو في جريدة إستوار دان جور ٠٠٠لحسن الحظ ظل مزاح جورباتشوف مستمرا(بث مباشرة): عندما تحدث "عن البلدان النامية" التي أفلست (المكسيك والبرازيل) وكان عليها رغم ذلك أن تسوي عملية خدمة الدين حتى تستطيع الحصول على ائتمان جديد، وعندئذ تحدث التقلبات الاجتماعية العنيفة، وسوف يشاهدون- كما كان يقول للصحفيين- بأن موسكو مرة أخرى سيوجه إليها إصبع الاتهام، وتعد مسئولة عن ذلك.

التحول الحاسم ...

جنيف، فبراير ١٩٨٨

سجلت الانتفاضة التي بدأت في السابع والثامن من ديسمبر ١٩٨٧ تحولا حاسما. انتفاضة جزئية ، متزامنة ومستمرة، منتشرة على نطاق الأراضي الفلسطينية التي احتلتها إسرائيل منذ عام ١٩٦٧، أي على مساحة تبلغ نسبتها ٢٢ في المائة من مجمل الأراضي الفلسطينية التاريخية. واعتبر أسلوب تحدي السكان الذين يتمسكون بتربتها- لجبروت المحتل رجما بالحجارة كسلاح وحيد - حدثا فريدا من نوعه. ومهما كانت التعاويذ اللغوية

---

١٢٥ لم استغرب عندما علمت أن أثناء سنوات "تعقب الشيوعيين"، كان ريغان عندئذ ممثلاً في هوليود وأصبح عميلاً لحساب مكتب التحقيقات الفيدرالية يتجسس على اجتماعات لجنة المواطنين الفنية واللجنة العلمية والمهنية التي كان من بين المسئولين عنها (أنظر أنتوني سامارز: الحياة السرية لإدجار هوفر، نيويورك ١٩٩٣

١٢٦ رجل دين سياسي أفرو أمريكي.

المستخدمة والتحليلات المغرضة فلن تتوصل أبداً إلى تغييب حقيقة ثابتة ألا وهي وجود كيان وطني فلسطيني.

استدعاني جان ماري لونبار. -وهو العضو الدائم الوحيد في مكتب اللجنة الدولية لتنسيق نشاط المنظمات غير الحكومية المعنية بقضية فلسطين، ويدير نشاط المكتب، وتساعده مارتين زوجه، وبلا مقابل، وتقريبا لكامل الوقت- وأراد أن أشارك في إعداد كتيب يتناول الأيام المائة الأولى للانتفاضة. وقبلت ذلك. وبشروطي أي: أختار الفصل الذي أكتب عنه على أن أعالجه كيفما يحلو لي. وستكون فرصة لا شك لملء فراغ المعلومات المتصلة بقوى السلام في إسرائيل وفي الشتات اليهودي، وهي قوى من الضروري الحصول على دعمها حتى تحقق الانتفاضة نهاية الاحتلال. علما بأن الصحافة الإسرائيلية تتحلى بكثير من الموضوعية: لديها معلومات جيدة، وموضوعية... إنها معجزة حقا أن تكون موجودة في خضم التخلف الذي تسبح فيه منطقتنا...

تنهدت الصعداء... سلمني جان ماري كم هائل من الصحف، وطلب مني تقديم عمل جاهز للطبع ليستخدم فوراً. وأمامي حوالي عشرة أيام قبل أن أستقل القطار إلى باريس، وهذا لأنتهي من قراءة ، وتصنيف وتبويب، وأعداد رؤوس أقلام، وللطباعة على الآلة[١٢٧] الكاتبة... إني سعيدة حقا لأني أعرب عن تضامني مع الانتفاضة بإنجاز عمل (وليس فقط بالتظاهر في الطرقات وإبداء العواطف الجياشة) . شكرا يا جان ماري على ما فعلت. من بين من خاب ظنهم في سحر الأساطير التي ساعدوا في خلقها، برنار هنري ليفي وآندريه جلوكسمان، وكلاهما من المدافعين بحرارة عن جميع القضايا من كل الاتجاهات، وقد شعروا بحرج شديد أمام هول القمع الإسرائيلي المستمر في الأراضي الفلسطينية المحتلة لمدة فاقت عشرين عاماً.

أيعقل بعد مأساة المحرقة أن يقوم جيش يهودي بإطلاق الرصاص على سكان يدافعون عن أرضهم بالحجارة؟؟ وفي خارج إسرائيل ودائما باسمها ، يؤيد قائد إسرائيلي- مهما كان عنصرياً - استمرار مثل هذه الممارسات ؟ هذا هو سبب شعوري باحترام شديد للصحافيين، وللمثقفين ولألوف جنود الاحتياط في الجيش الإسرائيلي، الذي يواجهون على أرض الواقع ضغوط المتعصبين الإسرائيليين، ويطالبون بوضع نهاية للاحتلال. وبكل بساطة باسم القانون الدولي وباسم حقوق الشعوب والأفراد.

جنيف، مارس ١٩٨٨

الكتيب سوف يظهر قريباً . عكست ترتيب العناوين التي تتصدر رؤوس الأقلام في الصحافة الغربية، وذلك في الفصل الذي أعالجه: إنها كارثة حقا... فهذه العناوين

---

١٢٧ في ذلك الوقت، وا حسرتاه، لم أملك سوى آلة طباعة يدوية.

تبرز المعاناة النفسية لليهود (في إسرائيل وفي الشتات) لأنهم مضطرون إلى قمع الانتفاضة الفلسطينية !!! اخترت كعنوان للفصل الخاص بي : "*أمام المأساة الفلسطينية يدور الحديث عن الإسرائيليين واليهود في الشتات...!!*" وطلب مني جان ماري أن أستمر في التعاون معه في إعداد النشرات القادمة للجنة الدولية لتنسيق نشاط المنظمات غير الحكومية فيما يتعلق بالقضية الفلسطينية... طبعا وبكل سعادة !

جنيف، مايو ١٩٨٨

قررت المنظمة غير الحكومية سويسرا/فلسطين أن تصدر نشرة. ووافقت على التعاون معها: إن نقل المعلومات هو الأسلوب الوحيد الذي يوجد تحت تصرفي من أجل دعم الانتفاضة. تولى مهاند طوبي طبيب نفسي قبائلي /سويسري إعداد الترتيبات اللازمة لصدورها. وبدأت بمقال حول نشاط هنري من أجل الحوار. تخليدا لانقضاء عقد على اغتياله (متى سنحتفل بميلاده !؟)، ترك تجمعنا في بيير لا شاس (مقبرة في باريس) أثرا لطيفا. طلب مني جاك شاربي أن أصوره (مما جعل أحد زملائنا يعاني من هوس أمني). وظهر مقالي الذي أرسلته إلى كتيب/م [١٢٨] تناولت فيه ذكرى هنري، وسقط مقطع جعل من عنوانه عنوانا بلا معنى (هنري كوربيل، هذا غدا). إلا أن الصورة التي اختارتها ان والمصاحبة للمقال (وهي من الكنوز التي تحتفظ بها جويس) صورة رائعة !

باريس، أكتوبر ١٩٨٨

أعاتب نفسي لأني لم أتحدث عن الانتفاضة في المقابلة الإذاعية لقناة فرانس- كلتيور التي كرسها فرانسوا ما سبيرو لجيل (وكنت من بين المدعوات). ومع ذلك كنت مرتاحة وأنا جالسة في الغرفة ...تشبه تلك التي أعددتها في الجزائر: لوح واسع وكبير من الخشب مركب على أربع حوامل (كانت طاولتي في الجزائر حواملها من جذوع الأشجار الكبيرة)، كتب وملفات في كل مكان في الغرفة...) مستريحة البال عندما وجدت ما سبيرو على حاله مثلما عرفته أثناء حرب التحرير الجزائرية، ولن يستغرب أي مناضل من إفلاس دار النشر التي أسسها والمكتبة التي نظمها ...كل شيء (ببلاش) مجانا... يا للخسارة ...فلو سئلت عن الانتفاضة في هذه المناسبة فما كان بوسع قلم الرقيب من أن ينال من إجابتي [١٢٩]!

---

١٢٨ الكتيب الشهري الماركسي الذي يديره جلبير وازرمان.

١٢٩ عندما استجوبت في التليفزيون عن أحداث وملابسات اشتراكي في نشاط التضامن أثناء حرب الجزائر، كنت دائماً أنجح في أن أضيف كلمة أذكر بها القضية الفلسطينية وكان هذا المقطع يتعرض دائما إلى قلم الرقيب.

جنيف، نوفمبر ١٩٨٨

عدد جديد خاص لسنة الانتفاضة. ترددت في المشاركة (وصل عدد الدائمين في مكتب اللجنة الدولية لتنسيق نشاط المنظمات غير الحكومية فيما يتصل بالقضية الفلسطينية إلى ثلاثة أعضاء): ويتطلب مشروع "مقابلات حول هنري كورييل" تفكيراً، وتخطيطاً، ثم القيام باتصالات، ومراسلات، وتنقلات كثيرة جداً. فضلا عن أني أحتاج لتغذية الباب المخصص لي أن أباشر بعض النشاط على أرض الواقع.

وفي الجزائر وافق المجلس الوطني الفلسطيني صراحة على الحل القاضي بإقامة دولتين، وتبع ذلك إعلان استقلال فلسطين. إنها الانتفاضة التي أحدثت هذا التحول التاريخي الحاسم .

جنيف، ديسمبر ١٩٨٨

حضر ياسر عرفات دورة الجمعية العامة للأمم المتحدة حول قضية فلسطين (وبسبب الأمريكان لم تعقد في نيويورك)، وحضرت مؤتمره الصحفي -هذه المرة جميع الدول- (باستثناء إسرائيل والولايات المتحدة الأمريكية) ووافقوا على الدعوة إلى عقد مؤتمر دولي...

ولكن عرفات لم يتحدث بعد إلى الرأي العام الإسرائيلي.

جنيف يناير ١٩٨٩

لم يظهر بعد العدد ٣/٤ من نشرة فلسطين[١٣٠]. طبعاً حاولت الاستمرار في حضور منتظم كل شهرين للاشتراك في إعداد عدد من أعداد النشرة ويمثل هذا في الواقع نوع من أنواع الهذيان بسبب ضغط العمل. أما من ناحية زملائي، ألان ودومنيك، وغيرهم فلقد أرسلوا مقالاتهم في الوقت المحدد ودون أدنى تأخير. ولم أفعل شيئا سوى تنقيح مقالتي التي تناولت فيها حركة السلام الإسرائيلية. وكان المقال الذي تناول الإستراتيجية الإسرائيلية لتدمير البنى التحتية التي شيدها الفلسطينيون في الأراضي الفلسطينية المحتلة قد أغاظني إلى أقصى درجة. وهنا بدأت في الاستعداد للقيام برحلة إلى هناك...

---

١٣٠ التي أصدرتها المنظمة غير الحكومية سويسرا / فلسطين، وكانت مساهمتي في هذه النشرة أكثر مما كان متوقعاً إلا أنها توقفت عن الصدور.

ورغم عدم اقتصار الجزائر على تقديم العون إلى حركات التحرير في المستعمرات وشملت أيضا نضال حركات التحرير في العالم أجمع ٠٠٠ إلا أنه حدث تحول...

أجبر انقلاب الجيش بقيادة بومدين في يونيو ١٩٦٥ على اقتصار نشاطي التضامني على حركات التحرير المناضلة في المستعمرات... دون أي مساهمة نضالية مقدمة محليا.

مع اتصالي الدائم – بالطبع – بزملائي في باريس.

أقمنا مكتب اتصال في الجزائر العاصمة تابع لمنظمتنا المعروفة باسم التضامن[٢٠] Solidarité (دون قبول اشتراك جزائريين حتى لا تختلط الأمور، وتتعقد...).

وطردت من الجزائر بعد ذلك مرتين، إلا أن تدخل وزير الخارجية الجزائري في ذلك الوقت عبد العزيز بوتفليقه[٢١] هو الذي ساعدني على العودة إلى الجزائر مرة أخرى.

ونجحت المحامية الديغولية (المتر/ نيفو)عام ١٩٦٩ في الحصول على حكم قضائي بإلغاء قرار الطرد من فرنسا، الذي كان مازال ساريا... تمكنت بعدها من قضاء فترات طويلة في باريس. اشتركت أثناءها في أعمال، ونشاط الأمانة، وفي اجتماعات اللجنة القيادية للتنظيم.

وكان هذا دائماً محل اختيار شخصي– ودون فصم للعلاقات مع النظام هذه المرة–. ورغم ممارسة المنظمة النشاط السياسي السري، لم يمس ذلك بأي صورة من الصبور، مصالح فرنسا. بل أكثر من ذلك تضافرت المصالح، وتواءمت عندما أصبحت فرنسا ديغولية... !

ولكن تغير الوضع عندما جاء الرئيس جيسكار ديستان[٢٢] إلى الحكم...!!!

وهنا، أثيرت مسألة نشاط هنري كورييل ...لماذا ؟

لنوجز بعض الشيء في سرد تفاصيل هذه المسألة... رغم أهميتها...

في البداية نشر مقال بدون إمضاء في المجلة الأسبوعية Le Point بتاريخ ٢١ يونيو ١٩٧٦ وصف هنري بأنه –زعيم الشبكات التي تقدم المساعدة لحركات الإرهاب الدولية– ويعمل لحساب موسكو.

---

٢٠ منظمة التضامن **Solidarite** منظمة سرية لتقديم المساعدة العملية لجميع حركات التحرير في العالم . أسسها عام ١٩٦٢ في باريس هنري كورييل . واستمرت في نشاطها حتى اغتياله عام ١٩٧٨

٢١ أصبح رئيس الجمهورية الجزائرية– المترجم .

٢٢ رئيس الجمهورية الفرنسية (١٩٧٤–١٩٨١) وأصبح رئيس الاتحاد الأوروبي .

احتلت انتفاضة الحجارة المساحة كلها ...

الأربعاء، ١٥ فبراير ١٩٨٩

الساعة ٢٫٤٥ بعد الظهر

وأخيراً أقلعنا من زيورخ. ساعة تأخير وساعتان لتفتيش المسافرين. تقوم جهات الأمن الإسرائيلية بإفراغ جميع حقائب اليد. ويقال أن إسرائيل تتربع على قمة التكنولوجيا المتطورة ؟!! الدليل الوحيد على وجودهم في هذا العصر: قفازات يرتدونها للقيام بالتفتيش. وما بالك بالأسئلة الغبية فحدث ولا حرج: "*هل أعطاك أحدا شيئا قبل المغادر ؟ هل قمت بنفسك بإعداد حقيبة السفر ؟*" وهنا يتبين لنا السبب فيما تنتجه البلاد من زعامات سياسية بما أن المستوى بهذا التدني !.

تختفي تدريجياً آخر خيوط الأشعة الوردية على سطح البحر الأبيض المتوسط. وردية بمثل لون حجارة غابات الفوجي (منطقة في فرنسا). يا لها من سعادة ...مازلنا إلى الآن على قيد الحياة !

استعاد قائد الطائرة الوقت الضائع . وعند الوصول كان كل شيء سهلا... لا تفتيش حقائب سفر ... ولا أسئلة (إلا فيما يختص بالعنوان في إسرائيل)... تأشيرة دخول منفصلة بناء على الطلب... دون مشاعر عدائية... شابات لطيفات. تردد بسيط عندما طلبنا من سائق سيارة الأجرة الجماعية (شيروت) أن يوصلنا إلى القدس الشرقية، وإلى فندق جمعية الشابات المسيحيات... علامة على ما يدور: الفندق خالي من النزلاء. وتستقبل المديرة فريقنا (وهي التي شاهدتها في الرحلة السابقة) بحرارة. هذا شيء طبيعي ! لأن جان ماري لانبير راعي كنيسة في فريقنا... وهي من أتباع الكنيسة الإنجليكانية. واستغرقت رحلتنا في إسرائيل/ وفلسطين ما يقرب من الشهر. ومن ناحيتي، لم أحدد أي تاريخ للعودة.

أيقظت تكفا هوني- بارناس[131]، لم يكن أمامي خيار: فلقد وقع للصديق الإسرائيلي -الذي كان عليه أن ينظم المقابلات لجان ماري- حادث سيارة. وتكفا مناضلة إسرائيلية من يسار اليسار. جوهرة نادرة كانت من أعضاء الوفد الإسرائيلي في المؤتمر الدولي، وكنت مسئولة عن العناية بها. حددت لنا ميعاداً لصباح الغد.

وأضفى بيتر كوت هاوس لوناً خاصاً على الفريق. وهو عضو دائم في الرابطة البرلمانية للتعاون الأوروبي العربي، وموجود معنا ابتداء من صباح اليوم وسوف يظل

---

١٣١ محررة المجلة الشهرية بعنوان "أخبار من الداخل" التي يصدرها مركز المعلومات البديلة. القدس/ بيت لحم.

لعدة أيام أخرى. تحدثنا بالمصرية (زوجه من الشرق). وانبهرت عندما علمت بأنها أصلا من أسرة فلاحية ألمانية. اعتقدت أنها يهودية إشكيناز.

تحقق انسحاب القوات السوفيتية من أفغانستان (أخيراً !) وهـذا وفقا للاتفاقات المعقودة. ليت شعري متى سيأتي دور الصراع الإسرائيلي العربي، وتتحقق تسوية في إطار إشكالية الحوار السوفيتي – الأمريكي ؟ إنشاء الله !

الخميس ١٦ فبراير

مع جان ماري لا نقف مكتوفي الأيدي. فالمناضلين المسيحيين مثلهم مثل الشيوعيين.

ميعاد لمقابلة إبراهيم دقاق، وهو مهندس، ومسئول عن التنسيق بين المنظمات غير الحكومية الفلسطينية. لا بد من الذهاب إلى الأراضي الفلسطينية المحتلة... سمع فقط عن هنري كوريل. وفجأة أحاطت بنا عشرات النساء، ومنهن أم خليل الشهيرة، ولم نتمكن من الاسترسال في الحديث فيما بيننا فلقد أردنا التعرف على المواقف المختلفة للشيوعيين العرب.

الحادية عشرة صباحاً

حددت مقابلة مع تكفا في بهو نوتردام وهو مجمع (مصنف كمعهد للبابا) يحتوي على فندق ومصلى. وهو في الأصل مركز لتنشيط المزارات الدينية الفرنسية. مواجه للباب الجديد (القدس)، ويمكن التعرف عليه من على بعد من التمثال المنصوب أمامه. وهو مكان ممتاز لعقد الاجتماعات (ولتغيير العملات دولار/ شيكل ٤٠٠٠!!! لمن هم مثلي ٤٠٠٠أقوم بتمويل شخصي لمجهودي النضالي). بعد الاستماع إلى بيان عملي انتقلنا إلى مركز المعلومات التابع لميشيل فارشفسكي[١٣٢] (ميكادو) حيث تعمل تكفا: تساعدنا في استعمال التليفون (دفتر التليفون بالعبرية!). عشرات المكالمات التليفونية بدون نتيجة. ميكادو ليس موجوداً: يمنع القانون دخوله. متهم بإقامة علاقات مع "منظمة إرهابية!!". وأفيفدور فيلمان يتولى الدفاع عنه، ويحظى باحترام وتقدير كبيرين.

علي جده مواطن إسرائيلي عربي يعمل في المركز وظل في السجن ١٧ عاما. ضايقه بعض السوقه الذين يرتدون الزي العسكري، وضرب حتى سالت دماؤه، واتهم بأنه

---

١٣٢ نشر ابتداء من ذلك الوقت سلسلة من الأعمال أذكر آخرها: على الحدود، دار النشر ستوك ٢٠٠٢، إسرائيل – فلسطين التحدي للثنائية الوطنية، دار النشر تيكستويل ٢٠٠١، قبر مفتوح، أزمة المجتمع الاسرائيلي، دار النشر فابريل ٢٠٠٣، وكلها أعمال تغوص في حقائق (بدون أمل ؟) الوضع القائم.

حاول خطف سلاح أحد الجنود، وهدد بالقتل ... ومن الصعب بسبب لون سحنته (السوداء) أن يمر مر الكرام دون أن يلاحظه أحد. وتتولى ليا تاسمان الدفاع عنه، وهي محامية لا تكل، تدافع عن حقوق النساء الفلسطينيات وزوج ميكادو.

شارع كوريش مركز مجموعة كبيرة من مكاتب الشخصيات اليسارية. ومن بينها مكتب فيليسيا لانغر بالطبع. يمكنها أن تستقبلنا... ولكنها استغرقت قبل ذلك بعض الوقت لتتجمل... قصة شعر قصيرة آخر موضة... ثياب ذات ألوان ذهبية براقة... أضافت إلى وجهها المساحيق... بهرتني... يا ترى ما هو سنها ؟ كلامها متشائم : تخشى وقوع حرب جديدة قصيرة، تعتبر ذريعة لترحيل الفلسطينيين بالجملة. وحدثتنا عن قضية أخ وأخته طردوا إلى الأردن، بعد أن أوهموهم بأن وضعهم سوف يسوى (وكانت هذه القضية جزء من مقال ظهر في جريدة الفجر في ١٩ فبراير). مكتب اخر. ثم اخر. لا أحاول أن أسجل عددها. لقد أضناني التعب. وفي هذا اليوم الجميل بشمسه الساطعة ، كم كان من المستحسن (وبالفعل هذا ما أشعر به !) أن أتجول في المدينة القديمة، وأزور مرة أخرى المسجد الأقصى[١٣٣] بقبته المذهبة، والجدار الغربي للمعبد القديم[١٣٤] عندما لا توجد مظاهرات... يوجد إضراب يومي ابتداء من الثانية عشرة ظهرا.

حفل عشاء، واجتماع في نفس الوقت في مطعم الفندق الدولي. وهو فندق فلسطيني. خال تقريباً من النزلاء إلا من يهودي أرثوذكسي يرتدي قبعة عريضة الحواف، ورداء وشرابا أسود اللون، كأنه خارج لتوه من لوحة رسمها الفنان فلليني. ولكن ها هو خليفي ! - حضر ليلتقط صوراً لفيلم- وينتظر أفراد فريقه من المصورين . وها هو بيريتس كيدرون، صحفي، في حدود الخمسين من عمره، شعر أبيض طويل، يرتدي سروال جينز ، يمثل حركة يشجوفول في القدس، يفرغ أمامنا أدبياته. وهذه الحركة لا تعارض أداء الخدمة العسكرية، ولا ضرر من أن يكون لإسرائيل جيش قوي للدفاع عن نفسها، وإنما تطرح الحركة مشكلة أخلاقية أساسية وهي: مدى حق الفرد سواء كان جنديا أم غيره في رفض الخضوع لأوامر يعتبرها غير شرعية[١٣٥]، وفي حالتنا هذه نعني احتلال الأراضي الفلسطينية بقوة السلاح. ويؤيد كل من حزب المبام والراتس هذه الحركة، ولا تستحسن حركة شالوم أكشهاف هذا الرفض، ولكن تعترف أن للفرد الحق في الاختيار حسب معتقداته وتندد بتصرفات شين بيت (المخابرات الحربية)• وأخبرته بأن لجنتي

---

١٣٣ وأمامه اغتيل الملك عبد الله ملك الأردن.

١٣٤ المعروف باسم حائط المبكى، وهو مكان مقدس للديانة اليهودية على نطاق العالم، ومن التقاليد المتبعة كتابة بعض نصوص الصلوات على قطع من الورق وتحشر بين الفواصل والفتحات التي توجد بين قوالب الطوب التي يتكون منها الحائط، ويقال أن أحد الحاخامات في العصور القديمة فضل الحصول على تصريح من الرومان لانشاء مدرسة تلمودية مفضلاً ذلك على المحافظة على المعبد، اعترافا منه بأفضلية الثقافة على الممارسات الطقسية الدينية التقليدية.

١٣٥ صورة من الماضي ...نص ١٢١ الذي جمعنا توقيعاته أثناء حرب الجزائر • أنظر الملحق•

ترعى وتتكفل بأحد أعضاء روفيشنيك[١٣٦] ولقد تأثرت بشدة من وجود هذه الحركة الرافضة داخل الجيش (بعدما تصورنا أنهم جميعا "أشرارا" وهي تسمية أطلقت على العسكر في الكونغو !)، وقمت بحفز الناس للحصول على معونة مالية لصالح حركة يشجوفول، وتتكون هذه الحركة من احتياطي الرتب العسكرية المتوسطة (ضباط الصف والضباط)، وتتميز عن حركة الشباب الفرنسية أثناء حرب الجزائر وكذلك الحركة الأمريكية التي وجدت أثناء حرب فيتنام: لأنهم لا يهربون من الجندية، ولكنهم يرفضون الخدمة العسكرية في أي مكان لا يوجد داخل حدود إسرائيل . وقد بدأت الحركة أثناء حرب لبنان، عندما تجاوز مسافة الأربعين كيلومترا المشهورة للأمن (ومنها اشتق اسم الحركة بالعبري ومعناه "هناك حدودا ...")، وتستمر الحركة في مجهودها تندد بالاحتلال الأراضي الفلسطينية (وتتمشى ارتباطاتها ومواقفها مع مواقف دوريت شيكارسيكي ومجموعتها[١٣٧] قبل حرب لبنان).

(مقتطف من جريدة جيروسالم بوست) قتل أكرم هلال رشيد ٢١ عام، من قرية خربة المصباح (رام الله) من جراء إصابته برصاصة في رأسه[١٣٨]. أطلقها عليه جنود إسرائيليون يقومون بغارة على القرية، وكان قد رفض أن يخفض من علم فلسطيني[١٣٩] يرفرف أعلى أحد الصواري.

الجمعة ١٧

الساعة العاشرة صباحاً تحدد ميعاد لمقابلة أرييه لافييه، السكرتير الدولي لحزب المبام، في مقر الحزب. يبلغ من العمر ستين عاماً تقريبا، ولكني ذهبت لأسجل ما يقوله ...لا لأحلل. نشعر بشيء من الفخر: وهو يقدر بأننا أخذنا بعين الاعتبار في نشرة اللجنة الدولية لتنسيق نشاط المنظمات غير الحكومية المعنية بالقضية الفلسطينية... نشاط أنصار السلام الإسرائيلي (إذا مجهودي قد حقق فائدة).

---

١٣٦ أي الذين يرفضون الخدمة العسكرية في الأراضي الفلسطينية المحتلة، وهو نزيل أحد السجون حالياً، ومن هنا يتبين ضرورة القيام برعاية وكفالة ومساعدة أسرته.

١٣٧ حركة رفض واصلت النضال مع ريفيوزنيك أثناء الانتفاضة الثانية. ودفعت فوق الأحداث بسبب ظهور إعلان أحدث دويا هائلا وقعه ٢٧ طيار من القوات الجوية الإسرائيلية يرفضون فيه تنفيذ أوامر لا أخلاقية، وغير قانونية مما يؤدي لو نفذت إلى قتل المدنيين كما تنتهي فقرا ت الإعلان بانتقاد الاحتلال الذي ينشر الفساد في إسرائيل ويعرض أمنها للإصابة بالهشاشة.

١٣٨ حسب تقدير أحد الخبراء العسكريين المصاحبين لمقرر حقوق الإنسان التابع للأمم المتحدة ...أن هذه الطلقات الموجهة للرأس وللرقبة وهي محكمة تدل على عملية ينفذها قناصة ...والقناصة لا يتصرفون إلا بعد صدور أوامر عليه لهم ...مما يثبت أنها جزء من سياسة متعمدة للاغتيال. المترجم.

١٣٩ وكان هذا العلم يرفرف عالياً بصورة مشروعة منذ ١٣ سبتمبر ١٩٩٣ ولكن بطء المفاوضات أضعفت صورته الرمزية.

أما بالنسبة لآرييه جافييه... تتحدى الانتفاضة الاحتلال وتجبر القيادة الخارجية لمنظمة التحرير الفلسطينية أن تتوخى الواقعية. ومواقف حزبه مواقف تاريخية: فحركة هاشومير هاتاهير، وهي مدرسة لحركة الكيبوتسات التي تخرج منها، تحمل معها المفهوم الذي يقول بأن أرض فلسطين يمتلكها شعبان[١٤٠]. وتعتبر الحركة الدولية للمنظمات غير الحكومية متأخرة بالمقارنة بالوضع الجديد ...وهذا ما أفصح لنا عنه، "*توقف الحوار ولم يعد حواراً سرياً ليصبح علنيا*" (وهو محق في قوله). *كما يمكن للاجتماع السنوي- الذي سينعقد هذا الصيف- أن يساعد في التوصل إلى حل توفيقي عندما يفرق ويميز بين مقاومة الاحتلال في مناخ يسوده العنف ...ويتوسع نطاقه مما يؤدي إلى استحالة الدخول في مفاوضات من أي نوع*" (هذا واضح تماما ... ولكن من الناحية الأخرى فإن الرفض البليد للحكومة الإسرائيلية في أن تتفاوض هو الذي يغذي الانتفاضة). وأخيرا، وهذا ما يقوله، "*إن انتهاك حقوق الفرد مشكلة أخلاقية ينبغي على الإسرائيليين أن ينددوا بها*" (ولكن المشكلة مازالت مشكلة الأسر الفلسطينية التي تبعد وترحل، أو التي تجد نفسها ملقلة على قارعة الطريق عندما تفجر ديارها، ويجري اغتيال واعتقال شبابها ...).

ويحبذ حزب المبام عقد مؤتمر دولي ولكن لا يعتبر ذلك هو الأسلوب الوحيد للسير في طريق إحلال السلام. فالحزب يعتقد من ناحية أخرى "*أن مستقبل الدولة الفلسطينية يرتبط بالأردن، على أن تصبح الضفة الغربية وقطاع غزة من المناطق المنزوعة السلاح (ايه كمان !). أما فيما يتصل بمشكلة القدس (فهي مشكلة نفسية....!!)، ينبغي مناقشتها في نهاية العملية، آخذين بعين الاعتبار أنها مدينة الأديان الثلاثة، وعاصمة إسرائيل كلها... !! على أن توجد بها بلديات عربية* (يا للهراء !). وأخيرا ينبغي التوصل إلى هذا الحل التوفيقي بين حركتين وطنيتين، على ألا يتضمن السلفيين (من اليهود والمسلمين) حيث أنهم يرفضون حتى مفهوم إقامة دولتين".

انتهى آرييه جافييه من كلامه واستعد للمغادرة... هناك اجتماع اخر. ويحل داوود إيدين مدير مكتبه محله. وهو شاب يميل إلى السمنة يحاول تطوير الاستنتاجات المترتبة على الانتفاضة: ويقول طبعاً "*إن التعرض للحجارة المنهمرة على رؤوسنا ...أو خطر التعرض لها يسبب صدمة نفسية يعاني منها شباب الجيش*، وهذا ما يقوله لنا....!! *كما أنه ينبغي أن نلاحظ أن هذه الحجارة قد تقتل ... ثم أن عدد كبير من الأسر الفلسطينية المسيحية تهاجر إلى الخارج بينما يتزايد أعداد المسلمين دون توقف ....!!*" (أنهض من مكاني، لا أستطيع أن اسمع أكثر من ذلك.... للصبر حدود ... وقد تجاوز الحدود. لحسن الحظ كانت توجد مراحيض بقرب من مكان الاجتماع).

---

١٤٠ ولكن حزب المبام (يتكون من المبرتس الحالي) يمثل تيارا من تيارات الأقلية في الحركة (كيبوتس آرتيتزيه)، ولكن مواقف تيار الأغلبية الذي ينعكس في المبام (وهو أصل حزب العمل الحالي) كان بالأحرى محبذا لاستخدام القوة كحل.

الساعة ١٢,٣٠ ظهراً

في مقر حزب راكاح. أعد لنا أوزي برنشتاين مقابلة مع تمار جوجينسكي، وهو في حدود الأربعين، من أصل بولندي، مندفع إلى الأمام، مسئول عن حركة دايلا كيبوش[١٤١] تأسست في إبريل ١٩٨٧ لتسجل إنقضاء ٢٠ عاماً على احتلال الأراضي الفلسطينية. ولقد ولدت هذه الرابطة من بين اللجان السابقة (التضامن مع بير زيت، وضد الحرب في لبنان ...). ولكن، كما قالت لنا" *فهي أول رابطة قامت بتحديد وتعريف البرنامج السياسي (شعبين/ دولتين، التفاوض مع منظمة التحرير الفلسطينية، انسحاب قوات الاحتلال الإسرائيلية). ولقد أدت التغييرات الحادثة في المجتمع الإسرائيلي إلى قبول هذا البرنامج. ومع ذلك وفي محصلتها النهائية نجد أن حركة السلام الإسرائيلية متأخرة الخطى بالمقارنة بالتغييرات الحادثة. ومن هنا جاءت الجهود المكرسة لتشكيل لجنة للتنسيق بين قوى الحوار... ولم تحقق النتائج المتوقعة(تجمع عملية التنسيق التي أعلنت عنها الصحافة فعاليات نفس التيار،في شالوم أكشهاف - ومبام - وراتس).* دعانا تمار جوجينسكي إلى حضور مقابلة مع فيصل الحسيني في مركز الصحفيين (بيت سوكولوف) مساء يوم الأحد.

الساعة الثامنة مساء

تناولنا طعام العشاء في الفندق الدولي في صحبة إبراهيم دقاق وفيصل الحسيني. يكثر الحديث عنه... وهو ابن أحد الوطنيون الذين اشتركوا في الثورة الفلسطينية في أعوام ١٩٣٦ - ١٩٣٩ توفى وهو يقاتل في ١٩٤٨ ولد في القدس ويقيم فيها... وفيصل الحسيني هو من مؤسسي منظمة التحرير الفلسطينية. أفرج عنه منذ وقت قريب ... كان مسجونا، ويدير الآن مركزاً للدراسات العربية. مع ساري نسيبه... من جامعة بير زيت، والمحامي زياد أبو زياد وغيرهم ، يتقابل مع الصهاينة: من اليسار (يائير زابانزابان من حزب المبام، اشترك في ندوة باريس التي نظمها الان جريش وجان بول شانيولو) مع اشتراك مركز (أمنون روبينشتاين وأفراهام فوراز من شينوي)، وأيضا مع اشتراك "حمامات" من حزب العمل(يوسي بلين، وحاييم رامون، وأفراهام بورج، وهو ابن وزير... ومن حركة الرفض- ريفيوزنيك- للحرب في لبنان). وشخصية فيصل الحسيني... شخصية متواضعة ولطيفة ذات نزاهة أخلاقية عالية[١٤٢].

---

١٤١ اي لا للاحتلال.

١٤٢ توفى فيصل الحسيني مؤخرا، وواصل جهوده لوضع نهاية للصراع الفلسطينيون الذين وقعوا على مبادرة جنيف الجديدة للسلام وهدفها توسيع قاعدة الحل التوفيقي بالاعتماد على مؤسسات المجتمع المدني الفلسطيني ،والإسرائيلي

(مقتطف من جريدة جيروسالم بوست)كفر الديك في منطقة نابلس، توفى عمار ذو ١٨ ربيعا بينما كانوا ينقلونه إلى المستشفى، تلقى رصاصتين في الرقبة أطلقها أحد الجنود الإسرائيليون، بينما كان يهم بالعودة إلى قريته. واختفى منذ الأمس الجندي الإسرائيلي صامويل أفي سابورتاس.

السبت ١٨

البيرة... جولة تفقدية لزيارة الجمعيات الخيرية (المسيحية في البداية). ونستمع إلى خطاب يحمل أرقاما قاطعة: أرقام، ومنجزات مع علاوات في حالة تحقيق إنتاجية... جمعية إنعاش الأسرة التي تعتبر من أكثر الجمعيات الخيرية أهمية، والمسئول عنها، أم خليل، ذات طاقة هائلة ... ساعدها الأيمن امرأة تتقن ثلاثة لغات شغفت بأعمال المركز. وتأسس المركز عام ١٩٦٥ بعد الحصول على ١٠٠٠ دولار كقرض من رئيس البلدية، واليوم يمتلك ورشا للتطريز (أعجوبة حقا)، وقاعات لتعليم اللغة الإنكليزية للفتيات، وحاسبات آلية جديدة تماما (وإنما تنتظر وصول المدربين لتشغيلها...). كما تتكفل المنظمة الغير الحكومية سويسرا/فلسطين بالتعاون مع الرابطة الفرنسية الطبية – برعاية المركز وبسداد مصاريف دراسة الأطفال الذين يوجد آبائهم في السجن. وطلبت من أم خليل أن تتأكد إذا كان ابننا رامي (الذي كفلناه) -وهو من مخيم جبالية في قطاع غزة- يتلقى بالفعل المبالغ الشهرية التي نرسلها له. وأخذت بعض الصور لكي يشاهدها محرم لمدخل المركز الذي كان لا زال مغلقا بالشمع، مما يدل على مدى ما يتعرض له المركز من مضايقات من السلطات الإسرائيلية (بأسلوبها السادي الذي يدعو للرثاء). وما من شك في أن أصوات المعارضة الدولية الصادرة عن المنظمات غير الحكومية قد أجبرتهم على إعادة فتح أبواب المركز. وينشد فيه الأطفال أناشيدهم. واغرورقت عيناي (يبدو أني تقدمت في السن يا نيفين).

رام الله

نزلنا من التاكسي قبل الوصول إلى مدخل المدينة. حدثت صدامات في ساحة السوق. زرنا المنظمات غير الحكومية الحديثة: يطالبون بالمساواة بين الجنسين في نفس وقت المطالبة بحق تقرير المصير. وتزدهر اللجان في كل مكان (شكلت اللجان في جميع أقسام منظمة التحرير الفلسطينية). وينسق المجلس الأعلى للمرأة فيما بينها (نلاحظ أن التوافق العام في الرأي لوضع نهاية للاحتلال يتجاوز المصالح الآنية للفصائل). أرجأت مقابلاتي مع أعضاء تللدمو تلمستئيو إلى ٨ مارس حتى بعد مغادرة الفريق. ولذلك احتفظت بمقابلاتي مع مها ناصر (من رام الله) ولانا أبو حجلة، المهندسة المعمارية (من القدس الشرقية)، وهن من الجيل الجديد.

الساعة الخامسة مساء.

جولة وزيارات أردت القيام بها سيراً على الأقدام. بمصاحبة ريشارد شوارتز من الاتحاد اليهودي الدولي، وهذا رغم البرد. يا إلهي ما أجمل الفيلات ومدن الضفة الغربية المحتلة. لم أشاهد في زياراتي السابقة سوى منطقة السوق في رام الله. وفي أعالي المدينة، العيش في رغد وبحبوحة. وقدم إلينا جون زارو من المجلس المسكوني للكنائس كوباً من الشاي الذي استحسناه جداً. وهبطنا بعد ذلك نحو أسفل المدينة. وكان مرشدنا فلسطيني متزوج من فرنسية تعمل في القنصلية. زوجين بسيطين صدوقين، أنجبا طفلين. وتابعت الأخبار المصورة بالتليفزيون بالفرنسية على القناة الأردنية. تناولنا العشاء عند بعض أصدقاء جان ماري: ريتا جاكمان، من جامعة بير زيت، وزوجها الطبيب. يسكنان مبنى يوجد في مدخله تليفون –أنترفون– متصل بالشقق.

(مقتطف من جريدة جيروسالم بوست) عبد الله خليل اليزوري، ١٤ سنة، من مخيم اللاجئين في رفح (حيث كنا بالأمس فقط ٠٠٠!!نتسلم أنا وأبوكم في الماضي ، الكتب الماركسية التي يرسلها لنا الرفاق الفلسطينيون)، توفى في مستشفى تل هاشومير برصاصة أطلقت على رأسه بينما كان يتظاهر، أما أخوه فقد قتل برصاصة في العام الماضي .

الأحد ١٩

العاشرة صباحاً. جامعة تل أبيب، منافسة للجامعة العبرية في القدس، وأقل شهرة منها. انتظرنا في استراحة الأساتذة في كلية العلوم الاجتماعية، قسم اجتماع، انتظرنا وصول أفي شاي يريليش من حركة أدكان أي (توقف عندك). لا يوجد أحد ليرشدنا. و ها هو يصل بعد تأخير بلغ أكثر من ساعة تقريبا٠٠٠!! (هذا أفضل حالا مقارنة بالكوبيين). لم يبلغ بعد الأربعين. تربية أنجلوسكسونية، خطاب مفتوح. لياقة بدنية كاملة. " *أعضاء هيئة أساتذة الجامعة ليسوا من اليسار*" هذا ما يقوله، "*بكل صراحة كليات الطب والعلوم البحتة رجعية، أما كلية الحقوق فهي تسبح بين التيارات. وعندما وزع في مارس ١٩٨٨ نصا معتدلا جدا بمناسبة زيارة الأمريكي شولتز وتم جمع ٦ آلاف توقيع من الجامعتين، أمتنع القانونيون عن التوقيع وأثاروا مشكلة الدستور* (ليس لإسرائيل دستور بعد). *أما الدارسون لعلوم الرياضيات فهم بالأحرى من اليسار*" . وتضم اللجنة بين صفوفها أساتذة وموظفين في الجامعة. و"*حتى قبل نوفمبر ١٩٨٨ كانوا مناصرين للحوار مع منظمة التحرير الفلسطينية*" (وهذا بفضل الصلات القائمة بين الجامعة *الإسرائيلية والفلسطينية وبفضل حضور نفس المحاضرات في الجامعات الأجنبية)*. ونظم ما يربو على ٤٠ عضوا اجتماعات تردد عليها فلسطينيون من الأراضي الفلسطينية المحتلة: اجتماعات إعلامية مفتوحة للجمهور العام (كل ستة أسابيع تقريباً ٠٠٠وتمتلئ القاعة عن بكرة أبيها)، واجتماعات أخرى نظمت للعاملين (حوالي ١٥٠ فردا). وبذلت جهودا عملية من أجل

إعادة افتتاح المراكز الجامعية في الأراضي الفلسطينية المحتلة. ويلاحظ أن الاتصالات مع حركة شالوم أكشهاف تمثل إشكالية: لا يوجد تمثيل نشط في تل أبيب (يوجد قسم فقط في جامعة القدس) ...ويرفض تمثيل المجموعة العربية الإسرائيلية في لجنة تنسيق المنظمات غير الحكومية. واستغربت عندما علمت أن العرب اكثر عددا من اليهود الشرقيين في الجامعة (١٢ إلى ١٤ في المائة من المجموع الكلي على التوالي، منهم ٤ في المائة فقط يحصلون على درجة الدكتوراه العلمية).

الساعة ٢ بعد الظهر

هجوم على مكتب أمنون زخروني. انتهزنا هذه الفرصة لنقوم باتصالات تليفونية،وتناول السندويش، وإعداد القهوة (قهوة تركية... ولكن يسكب الماء المغلي مباشرة على البن في كوب كبيرة). وينضم إلينا لطيف دوري ...عضو متميز بعض الشيء في حزب المبام (يتحدث العربية المنقحة بمصطلحات مستخدمة في المؤتمرات الدولية) : ويقص قصة اشتراكه في الندوة التي نظمتها في القاهرة في ديسمبر الماضي رابطة التضامن الأفرو آسيوية. ورئيسها مراد غالب. (صورة فلاش تعود بنا ٤٠ سنة إلى الوراء عندما كان طالباً في موسكو قبل أن يصبح سفيراً لمصر في الاتحاد السوفييتي).

الساعة السادسة مساء

عقدنا اجتماعاً في مقهى قريب من بيت سوكولوف مع أعضاء منظمات غير حكومية صغيرة: يوسف شيلوا (ممثل) ومائير أمور، من الجبهة الشرقية، وأميرة هاس[١٤٣]، وآشر دافيدي من حركة شاس (اليسار الاشتراكي) ... يشتكون من التميز الإثني[١٤٤] ... منذ قيام الإضرابات في الأراضي الفلسطينية المحتلة... يقوم بتجميع (الزبالة) الآن اليهود السفراد. وهاكم البرهان على أن أسطورة الإنسان الجديد في إسرائيل قد وإدت... !.

الساعة التاسعة مساء.

بيت سوكولوف... الاجتماع الذي نظمته حركة داي لا كيبوش ملأ القاعة حتى كادت تنفجر . فيصل الحسيني نموذج للبساطة، والذكاء، والدقة الصارمة. وتتخوف ريتا

---

١٤٣ فيما عدا الخطأ... تقيم اليوم في الأراضي الفلسطينية المحتلة وتغطي بذلك بوصفها صحفية الحياة اليومية للفلسطينيين في الداخل تحت الاحتلال.

١٤٤ لأنها من اليهود الشرقيين—المترجم

جكمان من تناول الكلمة. وها هي يافا الرقيقة جاءت لتحيتي. تركنا مكان الاجتماع في الساعة العاشرة مساء: كانت المناقشات العامة دائرة بالعبرية (سنعلم غدا على أية حال ما جرى من صحيفة جيروسالم بوست).

(مقتطف من جريدة جيروسالم بوست)حدثت صدامات عنيفة في قرى ومدن عديدة وفي مخيمات اللاجئين. وبدأ الإضراب العام بالأمس استجابة لنداء القيادة الوطنية الموحدة... ويستمر حتى الآن.

الاثنين، ٢٠ فبراير ١٩٨٩

يكرس برنامج اليوم للجان الإغاثة الطبية (اتحاد لجان الإغاثة الطبية الفلسطينية). أوصلتنا سيارة نقل صغيرة أولا إلى المقر الرئيسي، في القدس الشرقية. وقدم لنا الدكتور مصطفى برغوثي (زوج ريتا جكمان) بيانا، بالإضافة إلى صور مصاحبة، تبين الآثار المترتبة على إطلاق الغاز المسيل للدموع داخل المنازل، واستخدام الهراوات في الضرب، والاستخدام الحر من الآن فصاعداً للطلقات المعدنية المغطاة بالمطاط. ويتبين أن مشاكل إعادة تأهيل الجرحى، وتشغيل المراكز الطبية مشاكل خطيرة: حظر التجوال لفترات طويلة متكررة... ندرة التجهيزات الطبية، خفض المخصصات المالية الإسرائيلية المقدمة للمستشفيات العامة إلى النصف. إنهاء العمل بنظام التأمين الطبي الإسرائيلي الذي اعتمدت عليه المستشفيات لفترة العشرين سنة الماضية. أقيمت بنى تحتية مرنة فلسطينية في القرى الزراعية في وادي الأردن كمحاولة تعويض... لمواجهة خطورة الوضع الذي تولد عن القمع.

عين دوك. وهو الاسم المشتق من اسم النبع الذي لا يبعد كثيرا عن أريحا، وهذه هي محطتنا الأولى. ونرى بوضوح "جبل الإغواء" (الذي حاول فيه إبليس إغواء المسيح)، ويوجد الدير اليوناني الأرثوذكسي القريب من الكهف الذي صام فيه المسيح أربعين يوما وأربعين ليلة كاملة بعد تعميده. قرية بها ملكيات زراعية صغيرة جدا : اقتصاد اكتفاء ذاتي، ألفين نسمة، يعمل عدد منهم في المنشآت الإسرائيلية. وتتمثل المشكلة الكبرى في توفر مياه الشرب: لم تنجح اللجنة في الحصول على تصريح لاستخدام شبكة المياه، بينما يتم الحصول على المياه مباشرة من العين الذي يوجد (على بعد ٣ كيلومتر صعودا). ويقيم المستوطنون اليهود على بعد ١٠ كيلومترات، ويتمتعون بشبكة مياه ذات دائرة مغلقة. وانتظارا ... يجري رفع درجة جودة المياه بترشيحها عبر الرمال. مشكلة أخرى ...عدم توافر بيوت الخلاء (المراحيض) . ويعمل مركز دائم- بمساعدة نساء القرية- ولكن باسم شخص عادي وهذا للحصول على تصريح بفتح أبواب المركز (نسيت أن الاحتلال لا يمكن إلا أن يكون حقيراً دنيئاً بينما يتمتع بدرجة كبيرة من الخسة).

العوجة. وهو اسم أيضاً مشتق من اسم العين التي تقع على بعد (٨ كيلومتر). أكثر كثافة : ٣٥٠٠ نسمة وعدد كبير من المزارع المتوسطة. وحفرت الآبار بالقرب من

وتكرر نفس الاتهام مرة أخرى في ٢٨ يونيو... ولكن هذه المـــرة بتوقيـع أحـد الصحفيين المعروفين باسم جورج سوفير. وبعد انقضاء عام من هذا التاريخ نشـر مقـال جديد كتبه نفس الصحفي السابق (٦ يونيو ١٩٧٧) يؤكد فيه هذا الادعاء- معتمدا علـى أن هنري لم يرفع ضده في المرة السابقة قضية تشهير، وإساءة سمعة- (كيف يمكـــن لــهذا الصحفي أن يفهم أن حماية الزملاء الأصدقاء العاملين النشطاء مع هنري كان أكثر أهميـة من الدفاع عن نفسه...!!!).

وكان على هنري- إن كان سيدافع عن نفسه- أن يقدم القرائن التي تثبت براءته.

وهنا.. يضطر إلى استدعاء الشهود للمثول أمام الجهات القضائية...

أي بمعنى آخر الكشف عن شخصية المناضلين...!!!

بل اعتقد سوفير أنه إذا تبنى مخطط الخلط بين المسائل المختلفة، سـيتمكن مـن إقناع القراء بنظريته، أي أن هنري إرهابي عميل لموسكو، مضيفا إلـى ذلـك هذيانــه، وتحريفاته حول نتائج تأثير العلاقات الأسرية التي ربطت بين هنري وجورج بليك[٢٣].

تعاود قضية هنري إلى الظهور بسبب بعض الكوارث...!!

الأستاذ الياباني... كان يحمل قائمة بأسماء أعضاء منظمة الجيش الأحمر اليابانيـة الإرهابية، ومنها اسم فيوروايا يوتاكا الذي ألقي القبض عليه في مطار أورلي في بـاريس في يوليو ١٩٧٤.

وأخطر من ذلك قصة إلقاء القبض على برايتن باخ[٢٤] في أفريقيـا الجنوبيـة عـام ١٩٧٥، وهو شاعر، وكاتب جنوب إفريقي، تزوج ...وانتهكَ قوانين الفصـل العنصـري (كانت زوجه من أصل فيتنامي[٢٥]..!!)، ألقي القبض عليـه وهـو يحمـل أوراق إثبـات شخصية مزورة[٢٦]. حكم عليه بالسجن تسعة أعوام، حاول أثناءهـا الاتصـال بالخـارج بواسطة أحد حراس السجن الذي تصور أنه انحاز إلى صفه... تبين من التحقيق في هـذه

---

٢٣ وهو الجاسوس البريطاني الشهير الذي اعتنق الشيوعية، واستنكر الدعم الذي قدمته السلطات البريطانيـة للنظـام الفاسد لسيجمان ري في سيول (كوريا الجنوبية) بينما كان يباشر عمله الدبلوماسي هناك، وأسر في الحـرب الكوريـة. وعندما اكتشف أمره، حكم عليه وهو في سن ٤٢ سنة بالسجن في إحدى سجون مدينة لندن. ونجح في الهرب منها عـام ١٩٦٦ في عملية هروب مذهلة . وهو بالفعل ابن عم هنري، وأقام لبعض الوقت في منزل الأسرة في الزمـالك أثنـاء الحرب العالمية الثانية وتراوح عمره في ذلك الوقت ما بين ١٤ إلى ١٦ سنة...!! ونشرت مذكراته في لندن وبـاريس بعنوان **No other choice**

٢٤ أطلق سراحه في ١٩٨٢ بفضل تدخل الرئيس ميتران وألف كتبا عن ذكرياته في السجن، ترجم ونشر في بـاريس (مرآة واعتراف إرهابي - دار نشر **albanos stock 1984**).

٢٥ تعتبر ملونه ...!!! - المترجم

٢٦ت صاريح تصدرها السلطات تسمح بتنقل المواطنين السود من مكان إلى أخر داخل جنوب افريقيا

مكان تجميع المياه الخارجة من النبع لارتواء المستوطنين اليهود الواصلين حديثا، مما أدى إلى هجر عدد لا بأس به من القرويين قريتهم أو تحولهم إلى عمال زراعيين. وأفتتح هناك أيضا مركز دائم (تحت اسم أحد الأفراد العاديين). توقفنا لتناول بعض الأطعمة اللذيذة: عيش بلدي وزيتون أخضر، وزيت زيتون طبيعي. واستخدمنا سطح جرار كان واقفا بالقرب منا كطاولة. إني معجبة كثيرا بالجرارات: تجعلني أحلم بالمجتمعات التي يتوقف فيها الإنسان عن العمل كدابة لنقل الأحمال.أخذت صورة للجرار...

جفتلك. آخر محطة في الوادي، على الطريق الموازي للنهر وفي اتجاه نابلس. قرية بها ملاك أراضي كبار يسكنون مدينة نابلس. ويزرع الفلاحون أراضيهم ، أقاموا بها منذ ١٩٤٨. ديارهم مبنية من الحجر، جرفت وحطمت تماما بحجة أنها بنيت دون تصريح، حلت محلها ثكنات، جرفت بدورها. ولذلك هم مضطرون للإقامة والسكن على بعد ٤٠ كيلومتر من مكان العمل... نلتقط صور ما تبقى من ركام. قيل لي أن قوات الاحتلال تسعى جاهدة لاقتلاع هؤلاء السكان من المزارعين المعوزين المحتاجين الشبه جياع من أجل الاستيلاء على هذه الأراضي الزراعية الغنية. يا ترى متى سيتوقفون ؟ ! لقد صادروا حتى الآن المرتفعات والأماكن المتاخمة لها، وأقاموا نقط تفتيش عسكرية على أبواب القرى، وحولوها إلى شبه معازل يجبر على السكن فيها عندما يأتي وقت حظر التجوال. ألاحظ كثرة الأراضي المزروعة "بالباذنجان" وهذا بسبب ما يتمتع به هذا النبات من قدرة على مقاومة درجة ملوحة التربة العالية التي تسببها مياه الري، ولكن تتهاوى أسعاره بسبب المنافسة الأردنية. وفقد المحصول بأكمله هذا العام بسبب الصقيع. ولكن توجد حقيقة واضحة تماما لا غبار عليها... لا يوجد شيء يمكن أن يقتلع القرويين من هذه الأراضي... وإلى أين سيتجهون حتى إذا حدث ذلك ؟

تؤكد المعلومات التي جمعت- رغم المضايقات التي تتعرض لها اللجان الشعبية ومع ذلك تواصل العمل-: يخدم ٢٣ مركزا دائما ١٠٨ قرية كما توجد مراكز متنقلة لخدمة ١٨٢ قرية أخرى. ونجح فريق شباب من النشطين في إقامة مؤسسة موازية للإدارة العسكرية الإسرائيلية، بل نجحوا في طرد هذه الإدارة بركلة قدم (شلوت) إلى خارج هذه القرى. وننتقل من قرية إلى أخرى ونجول فيها طولا وعرضا، دون أن نرى أثرا للعسكر. بل يمكننا أن نقول أن الخط الفاصل بين إسرائيل والأراضي الفلسطينية المحتلة (حتى هذه اللحظة لم يكترث بوجودها) وكأنها بنيت كجلمود صخر. أما المشكلة الحقيقية فهي مشكلة المياه. وتسيطر الحكومة الإسرائيلية على جميع موارد المياه منذ ١٩٦٧، ويستخدم الإسرائيليون اليوم ٨٠ في المائة من المياه الجوفية، وداخل الخط الأخضر. ولا يحق للفلسطينيين حفر آبارا للري (فقط للاستهلاك المنزلي)، أما المستوطنون اليهود فهم يحصلون على مياه الري والاستهلاك المنزلي من حوالي ٢٠ بئرا، منها أربعة يملكها ملاك غائبون قبل ١٩٦٧. وسوف يتلقى المستوطنون اليهود في العام القادم في الضفة الغربية (وهم الآن أقل بقليل من مائة ألف نسمة)كمية من المياه

أكثر مما يتلقاه الفلسطينيون المقيمون في المنطقة- ١٦٠ و١٣٧ مليون متر مكعب على التوالي- وزرنا في القدس الشرقية مستشفى المقاصد، ٢٠٠ سرير. ويطلعنا المدير على عينات من الطلقات الخاصة "المطاطية" التي تنتج في إسرائيل. وبالمعدل الحالي سيتحول الفلسطينيون إلى سكان مصابون بالعرج والتشوه الخلقي. ولا يبالي الغرب حقيقة الذي اغرورقت عيناه بالدموع عندما يستمع إلى ما يتفوه به خطبائه من خطابات رنانة، بينما لا يكترث في الواقع لما يحدث٠٠٠ وتعكس التسويات الجديدة المساعدات المالية المقدمة(يوجد في رام الله مشروع اقامة مركز للمعاقين، تموله الحكومة السويدية، وهو مشروع يسير الهوينا منذ عام). وينتظر في قاعة الاستقبال في المستشفى صبي بلغ من العمر ١٤ عاماً، جرحت ساقه وبجانبه أبوه، ويرفض تسجيل اسمه من الخوف: فهو يخشى أن يصطادوه ويعتقلوه. وجريح آخر اخترقت الطلقات أحشائه. ويطلب من المنظمات غير الحكومية أن توفر عدداً من الإحصائيين للعلاج في الموقع.

(مقتطف من جريدة جيروسالم بوست) شلومو كوهين. جندي إسرائيلي، ٢١ عام، دفن بمظاهر التشريف العسكري: هاجمه خمسة من الشباب الفلسطيني مسلحين بالسلاح الأبيض بينما كان يتجول مع صديق له بالقرب من حائط القدس، على مقربة من باب صهيون.

الثلاثاء ٢١ فبراير

التاسعة والنصف صباحاً.

تحدد مكان اجتماعنا مع يائيل تامير من حركة شالوم أكشهاف (حضر الندوة في باريس التي نظمها جريش وشانيولو) في مركز جمعية الشابات المسيحيات (القدس الغربية). وهي شابة بسيطة مشدودة بعض الشيء تشجع (ككل الناس) الاتصالات مع الصهاينة المعتدلين (وحتى مع الليكود نفسه، مثل دان ميريدور، وزير العدل وهو أكثر استعدادا كما قالت ، لاحترام المباديء بالمقارنة مع المنظرين الآخرين). استقبل رابين بالأمس وفدا من حركته، إلا أن خطابه لم يتغير (منظمة التحرير الفلسطينية منظمة إرهابية، الخ الخ ...). نحن على علم بتحفظات شالوم أكشهاف (أي السلام الآن) عندما يأتي الحديث عن تنظيم أعمال مشتركة مع مجموعات المعارضة الأخرى وعندما يطلب تأييد حركة يشجوفول، يخشى من التهميش. وتعتبر هذه الحركة أن عملية الرفض وكأنها عملية شخصية، بل تعتبر كارثة لأنها تترك الميدان مفتوحا للمتعصبين من كاهانا، ويرددون ويصرون على عدد عمليات القتل التي كان من الممكن تفاديها لو كان الضباط أكثر استنارة (فيوجد من هم مع٠٠٠ ومن هم ضد كما كان الحال أثناء حرب الجزائر). ويقوم الآن بتنظيم "تجمع من أجل السلام"عقد اجتماعا في الرابع من مارس القادم.

الساعة ٣٠ر١١ صباحاً.

نزهة قمنا بها في الحي الأرمني في الجنوب الغربي من المدينة القديمة بحثاً عن ألبير أغاساريان (غادر سكنه القديم ولكن الجميع يعرفه). حاجز تفتيش. يستخدم جهاز يدار من على بعد بواسطة عربة جيب عسكرية في محاولة لبقر كيس من القمامة متروك في الشارع استغرق الأمر عشر دقائق، أو خمسة عشر دقيقة، حسناً تم كل شيء وانتهى. تنفجر في بعض الحالات أكياس القمامة (لست أدري إن كان صحيحاً ٠٠٠لماذا يقوم الفلسطينيون بتفجير مدينتهم !). وهذا ما يقال٠٠٠ ومن يدري٠٠٠!! وكل ما يوجد حول الحي الأرمني جميل ويغلفه شعور بالسلام. سماء صافية. نسيم عليل. يا إلهي كم أحب القدس ! وينفتح المنزل على باحة يبدو أنها خاصة. كنت أحب أن أكون أكثر علماً بتاريخ هذه المدينة، ولكن الانتفاضة تشغل كل المكان. وتتفاقم المضايقات. حتى بالنسبة لأولياء الأمور الذين ينظمون فصولاً دراسية لمجموعات صغيرة من اجل التغلب على مشكلة غلق المدارس (عملت المدارس لمدة ٢٦ يوماً فقط خلال خمسة عشر شهراً٠٠٠ وهي الفترة التي شغلتها الانتفاضة).. وافتتاحها معلق بزعم أنها تؤدي إلى حدوث تجمعات ممنوعة !

الساعة ٢ بعد الظهر.

نحن في مقهى الكينيست حيث حدد لنا جان ماري ميعاداً. أولاً مع ديدي زكر ٠٠٠ من حركة الحقوق المدنية (راتس). وهو في احسن حال. متفائل: قامت منظمة التحرير الفلسطينية بالإعلانات المنتظرة، ووافق جورباشوف على هجرة اليهود، "*والكرة الآن في ملعب الحكومة الإسرائيلية لاتخاذ المبادرات*". كما ينبغي أن يتلاءم برنامج الاجتماع الدولي مع الوضع الجديد. إن الإصرار على أهمية مشكلة انتهاك الحقوق الفردية يؤدي إلى التمويه على المبادرات الفلسطينية الأخرى ٠٠٠وما يحدث من تغييرات في الرأي العام الإسرائيلي، وهذا ينعكس في الكينيست: وأصبح الليكود أكثر واقعية عندما علم بالثمن الذي سوف يدفعه للحفاظ على استمرار الاحتلال. ينبغي ايلاء وتخصيص مكان اكبر للمتخصصين (المهنيين من نقابيين وقضاة وأطباء) في صفوف مجموعات الخبراء. ويبرز محمد معاري (من القائمة التقدمية) أهمية أثر الانتفاضة، وأهمية الرأي العام الإسرائيلي والأمريكي وتأثيرها على شخصيات مثل دان ميريدور، وأرينز (وزير الشئون الخارجية) وحزب رجال الدين المعتدلين (ديجل هاتورا ويمثله مندوبان في الكينيست)، ويعرض علينا جدولاً بالإمكانيات المتاحة: فمن بين ١٢٠ نائباً، يتعذر تخفيض عددهم إلا بـ ٢٥ نائباً من اليسار و٢٥ نائباً من اليمين.

الساعة الثامنة مساءً

فندق موريا في القدس الغربية. فندق حديث، مع وجود ذوق خاص في اختيار أحجار البناء. وينظم فيه المركز الدولي للسلام في الشرق الأوسط ندوة. بدأت أفتش مع جان ماري جوبير في مجموعة الصور السياحية انتظارا لوصول ريتشارد شارتز الذي كان ما زال تحت الدش ... (وهو يغادر غداً ... ويقيم هذا المساء هنا لحضور الندوة). وهو يهودي من موزمبيق، ثقافة أنجلو سكسونية أشول (مثل جميع المثقفين الأنجلوفون الذين أعرفهم)، يقيم في لندن، ويحب التريض سيرا على الأقدام. زرنا جميع مكتبات المدينة بعد مغادرتنا مبنى الكنيست، وكدنا نفقد الطريق ونضيع في ضوضاء، واتساع صخب الحي العلوي في المدينة.

يفتتح موردوخاي بار أون وهو من اللجنة التنفيذية التابعة للمركز، أعمال الندوة. وتذكرنا لوفا إيليو بالجهود التي بذلها (عصام السرطاوي، وبيير منديس فرانس، وناحوم جولدمان، وسمحة فلابان) ولكنها تنسى هنري. والمح يوري أفنيري بين المستمعين. وجاء دور من يوجد في الشتات: دروا كاس (من الولايات المتحدة الأمريكية، اشتركت في مقابلة استكهولم مع عرفات، وأندريه أزولاي (منظمة غير حكومية "الهوية والحوار" في باريس) وتعلن عن المقابلة القادمة (في ٢٩إبريل) للكتاب الناطقين بالعربية (من اليهود والفلسطينيين)، ودافييد سوسكيند من (بلجيكا)، والحاخام ريتشارد حرش (من الولايات المتحدة الأمريكية/ إسرائيل) يذكر بحقوق وواجبات اليهود في الشتات... لكي تسمع أصواتهم.

(مقتطف من جريدة جيروسالم بوست) محمد سعيد رزق. ٥٧ عاما، من قرية عيزرية، قتله الجنود الإسرائيليون عند مدخل القدس الشرقية... وتم احترام اليوم الثالث للإضراب العام.

الأربعاء ٢٢ فبراير

الساعة التاسعة صباحاً

فندق موريا. أول متحدث صباح اليوم هو شلومو افنيري أستاذ في جامعة القدس يعكس فوراً نقاط الندوة المتميزة: انسحب السوفييت من أفغانستان -وهم مثلهم كما يقول- مثل فرنسا في الجزائر والولايات المتحدة الأمريكية في فيتنام- لذلك ينبغي على إسرائيل أن تنسحب من الأراضي الفلسطينية المحتلة، كما ينبغي على منظمة التحرير الفلسطينية أن توجه رسالة سلام إلى الشعب الإسرائيلي ...لا مجرد إجراء الاتصالات مع رجال الدولة... على أن توجه كذلك رسالة إلى الشعب الأمريكي وإلى الأوروبيين. ونجحت الانتفاضة في بلورة الوضع فلم يعد ممكنا الاحتفاظ بالأمر الواقع... الجيش لا يتحكم بالمرة في الانتفاضة. علماً بأن تغيير سياسة منظمة التحرير الفلسطينية يعقد من المناقشة العامة الدائرة في داخل المجتمع الإسرائيلي، وبين هؤلاء الذين يستشيطون غضبا

ويرفضون بإصرار . وبعناد مغادرة الأراضي المحتلة. رغم قلقهم على أمن إســرائيل !!
... وقد أصبحوا منذ انعقاد المجلس الوطني الفلسطيني، ومنذ جنيف أيضا. يرغبون في مناقشة المستقبل. ينبغي أن تحدد الحدود وترسم بوضوح حتى نضع نهاية لفكرة إيرتس إسرائيل (إسرائيل الكبرى) وفلسطين التاريخية. ويوجد في إسرائيل عدد يقترب من نصف السكان من الذين يرغبون في إنهاء الاحتلال، ويبنون موقفهم لا اســتنادا إلــى التــاريخ والأساطير، ولكن قياسا بحقائق الوضع الحالي. ولذلك ينبغي أن نوجه الكلام إلى هؤلاء.

والشخصية الثانية التي تناولت الكلمة هي شلومو جازيت وهو لــواء احتيــاط... يلعب العسكريون دورا سياسيا بارزا في إسرائيل، كما يقــول: "*بعـد انتـهاء الخدمـة العسكرية يكرس كل مواطن من الاحتياط شهرين من وقته في العام للتدريب العسكري في الجيش*". ويصر على أهمية التعايش الدولي، وعلى ما يمكن أن يمارسه الاتحاد الســوفييتي من ضغط على الولايات المتحدة الأمريكية من أجل حل النزاع. وهنا يتبين لــي بجـلاء تنوع التيارات الصهيونية المتعاطفة مع الحوار. وتصل بريتس كيدرون لكي أسلمها المبلغ الذي جمعناه في باريس من الزملاء وهو (٥٠٠ دولار أمريكي) لمساعدة ورعاية أســرة أوفير كاسيف، ٢٤ عام، الذي رفض في العام الماضي الخدمة العسكرية فــي الأراضــي الفلسطينية المحتلة، وطلب من جديد للخدمة العسكرية ورفض وهو قابع الآن في السجن.

نعود في الوقت المناسب للاستماع إلى أندريه سوميشـــين (الاتحـاد السـوفييتي). مستواها جيد وتتحدث الإنكليزية بطلاقة. ولو أنها تؤكد أنــها ليسـت متخصصــة فـي القضية، إلا أنها تصر على أهمية عقد مؤتمر دولي لحل الــنزاع (أسـوة بالصراعـات الإقليمية الأخرى)، كما تصر على أن يقوم مجلس الأمن التابع للأمم المتحــدة برعايـة المؤتمر، وتصر على أهمية إشراك جميع الدول في مبادرة جديدة للســلام دون محاولـة استبعاد الاتحاد السوفييتي. وتعكس مداخلتها دمجا "للأفكار الجديدة" لجورباتشـوف حـول الصراع في الشرق الأوسط: وهي محاولات صغيرة وغير متتابعة لإقامة العلاقـــة مـع إسرائيل (قطعت بحماقة عام ١٩٦٧، مما حرم الاتحاد السوفييتي من كل محاولـة فعالـة لممارسة ضغط ما في المنطقة)، كما تصر على أهمية التعجيل بالتوصل إلى حل بإشــراك الولايات المتحدة الأمريكية وحلفائها من الغرب.

ويأتي بعدها من المتحدثين جاليا جولان من حركة شالوم اكشهاف، أستاذ جـامعي. انضم إلينا في وجبة الغذاء (كان حساء البصل ممتازا وثمنه معقول بالنسبة لي)، اريبــه ياعاري، أحد مدراء المركز في تل أبيب ...ينصح بعدم عقد اجتماع مسبق للمنظمــات غير الحكومية الإسرائيلية: وقال أنه "*سوف تفشل ... ثم يهمس قائلا أن شخصية هامـة من منظمة التحرير الفلسطينية سوف تتحدث في الساعة الرابعة بعد الظهر...*"

وتناول الكلمة كل من جيرشون باسكين ، وسامي جريسي، وأمير بيريتز (نائب من العمال، ورئيس بلدية سديروت) خرجت لارتشاف القهوة...

الساعة الرابعة بعد الظهر.

جمع غفير في القاعة (على الأقل ألفين من الحاضرين). وركبت أجهزة التليفزيون والإذاعة. ويوجه أبو اياد الشخصية الثانية في منظمة التحرير الفلسطينية كتاب (اريك رولو-*فلسطيني بدون وطن*)الذي يعتبر في إسرائيل من الصقور ، ومن الجناح المتشدد- حديثه إلى الإسرائيليين بالفيديو كاسيت. يناشدهم بعدم ترك الفرصة التاريخية تفوتهم لوضع نهاية لعمليات سفك الدماء [١٤٥] وذلك بدعمهم قيام دولتين. لم يكن المؤتمر الدولي هدفا في حد ذاته: فهو يستهدف دعم الترتيبات المتخذة في ميدان الأمن، على أن تضمنها الأسرة الدولية. ويعترف بشرعية الدولة اليهودية عندما قام بنقد ذاتي للمواقف السابقة التي تستند إلى إستراتيجية إقامة الدولة الواحدة التي تتعايش فيها الطوائف الدينية الثلاث الكبرى . وينادي المنظمات غير الحكومية الإسرائيلية الصغيرة والكبيرة أن تعمل كوسيط لدى الشعب الإسرائيلي لكي يؤكدوا لهم أن الفلسطينيين يرغبون في السلام ، وأن تعايش الدولتين جنبا إلى جنب هو الأسلوب الوحيد الكفيل بضمان السلام ...سلام دائم لأنه عادل واستمر حديثه بدون تفخيم ومبالغة لأكثر من عشرين دقيقة. وهنا وصلت القيادة الفلسطينية إلى المستوى الفيتنامي عندما كانت الولايات المتحدة الأمريكية تشن حربا ضروسا مستخدمة بوحشية أسلحة دمار شامل وفتاكة مثل النابلم. وتأثرت جدا. خرجت بعدها لأتنزه قليلا حتى وقت العشاء بينما استأنف المؤتمر أعماله بكلمة ألقاها لوفا إلياف(حزب العمل) وأعقبه ران كوهين من حزب (راتس) واليعازر جرانو(حزب المبام)، وأمنون روبنشتاين(شنوي) وجميعهم من النواب.

الساعة الثامنة مساء

المتحدث الأول فيصل الحسيني. ويتعالى صراخ، وصياح خمسة من المتوترين الموجودين في القاعة. يجرى إخراجهم منها... قبل أن يحدث ما لا يحمد عقباه ...وتهرول وراءهم أجهزة التليفزيون: ويظهرون بصور مكبرة على شاشاتها(خمسة ضد ٢٠٠٠ !!) مما يضيف جديدا لعملية شرذمة التفكير . ولحسن الحظ ما زالت الصحافة المكتوبة موجودة: أنا متأكدة أن صحيفة جيروسالم بوست ستولى الندوة حقها من الاهتمام. ويرفض فيصل الحسيني إجراء انتخابات في أراضي واقعة تحت الإحتلال. ويؤكد أن الطريق الوحيد المفتوح هو طريق المفاوضات، وإذا أرادت الحكومة الإسرائيلية التفاوض فعليها التوجه إلى قيادة منظمة التحرير الفلسطينية ...هذا واضح تماما... وعندما جاء دور أبا إيبان... كلي آذان صاغية... ولكن فضل جان ماري اضررنا إلى العودة إلى الفندق... فليكن...

---

١٤٥ وهذه الشخصية اغتالتها أجهزة الموساد

مخيم الشط . (مقتطف من جريدة جيروساليم بوست) تلقى طفل في الخامسة من عمره طلقة رصاص مطاطية ... وآخر يبلغ من العمر ١٢ عاما كسرت عظام حوضه...

الخميس ٢٣ فبراير

تقول تيكفا ..."*نستيقظ مع الانتفاضة ومنظمة التحرير الفلسطينية ، ونأكل مع الانتفاضة ومنظمة التحرير الفلسطينية، وعندما يأتي وقت الرقاد ننام مع الانتفاضة ومنظمة التحرير الفلسطينية*".

الصحف ، والإذاعة، والخطب ...الكل يتحدث عن نفس القضية ...

رانا نشاشيبي مديرة مركز الإرشاد الفلسطيني (طبي تثقيفي) تدرس آثار العنف الممارس على ١١٥ طفل من الضفة الغربية، والقدس الشرقية. حقا هذه ظاهرة جديدة ... أن تهتم مناضلة بالصحة العقلية للسكان. وكذلك عندما نشاهد مكاتب مناضلين وبها أجهزة الكمبيوتر والفاكس. ويقال أن ذلك يسمح بتلقي الرسائل وتفادي الحشريين (عالم آخر يختلف عن عالمنا بمنشوراتنا المطبوعة على الجيلاتين وتعدد العناوين لاستلام الرسائل السرية، إلا أني أشك أن الأجهزة السرية سوف تنجح بسهولة في فك الشفرة التي تصممها التكنولوجيا الحديثة).

ظهيرة كمال... تمثل اتحاد المرأة في لجنة النشاط التي تتضمن ١٠ الاف امرأة تزيد أعمارهن عن ١٨ سنة منتشرات في ٢٥٠ قرية، ومخيم، ومنطقة، وقد افتتحوا ٢٩ حديقة أطفال ، وتعاونيات إنتاج (مثل فابريكة البسكوت في خان يونس في قطاع غزه التي بدأت العمل عام ١٩٨٦، أو ورشة النقش على الفضة التي تقوم بها نساء قرية عيساوية، في قضاء القدس. وفابريكة لإنتاج الأطعمة للأطفال الرضع ...مازال مشروعا لم ينفذ. وتعرض علينا ظهيرة مشغولات الفضة وتطلب منا اختيار إحداها للذكرى.

والحكواتي مسرح صغير جدا (مسرح جيب) وبفضل سيلفي (شاهدت أداء فريقه في إحدى المسارح في ضاحية من ضواحي باريس ، وحقق نجاحا باهرا في لندن). الإعلانات ممتازة، إلا أني تركت الكاميرا في الفندق. ويذكرني إدوارد معلم الذي استقبلنا... بالجزائريين عند الاستقلال، ليست لديهم أي مشاعر ثأرية ولا ضغينة ضد المحتل: *فلقد عانى يهود العراق الكثير، هذا ما قاله لجان ماري، الذي لا تفوته مناسبة ... ويقص عليه القصة الشنيعة لسائق التاكسي من أصل عراقي، وهو ينفذ السم والكراهية ضد العرب ...* (لم يختر إلا هذا الوقت بالذات ليقص هذه القصة...حقا...!!).

قلقيلية.(مقتطف من جريدة جيروسالم بوست) وضعت تحت حظر التجوال لمنع
سير المظاهرات أثناء جنازة رئيس البلدية حاج أمين نصر، الذي وافته المنية بالأمس.
وبعد رؤساء البلدية المعزولين- (مثل رشيد الشوا من قطاع غزة)، أو من بين الذين
اعتدى عليهم الإرهابيون اليهود وأصيبوا بعاهات مثل (بسام الشكعة من نابلس وكريم
خلف من رام الله)، أو المرحلون المبعدون مثل (محمد مليحلم من حلحول)- لم يتبق أي
أثر لرؤساء البلديات المنتخبين عام ١٩٧٦.

الجمعة ٢٤ فبراير

تركنا القدس بمصاحبة مرشدنا إسماعيل لنقوم بجولة نزور فيها اللجان الزراعية
التي تتبع *لجنة الإغاثة الزراعية*. ودون أن نخاطر... وحتى لا تتعرض رؤوسنا إلى
سيل منهمر من أبابيل... وبمنتهى الحذر قام سائق المني باص بلف كوفية فلسطينية
تقليدية على الواجهة الأمامية للسيارة باللونين الأسود والأبيض. ولم نتمكن من زيارة
منطقة الخليل بسبب حظر التجوال. وقمنا بزيارة المشروعات الطليعية في قضاء رام الله
(تغطيها المنظمات غير الحكومية الدولية التي نأمل أن يزداد عددها ...إلا أنها لا
تحصل على التصاريح اللازمة من سلطات الاحتلال).

شوفات. وهو أكبر مخيم للاجئين الفلسطينيين في الأراضي الفلسطينية المحتلة.
ونشاهد في وسط الشارع الرئيسي وفي أعلى منطقة العلم الفلسطيني مثبت على الأسلاك
الكهربائية ... والتعاونية التي نقوم بزيارتها هي تعاونية أو مزرعة دواجن حديثة
اتخذت شونة غلال في دار أحد الأسر مكان لها: مشروع رائد يتضمن ٤٠٠ دجاجة
لإنتاج البيض الذي يباع بأسعار مخفضة للعائلات. يا معين وبك نستعين ...! قوققة
الدجاج ...حقا جحيم لا يطاق. كيف تستطيع بالله عليكم أن تقوم هذه الأم الشابة بالعناية
بهذا المنزل والحصول على قسطها من النوم في مثل هذه الأجواء المجلجلة! وكانت
اللجنة تود- وكجزء من نشاطها- أن تنتج اللبن للأطفال ...غير أن المكان لم يتسع
لتربية الأبقار. وينتظر مشروع افتتاح مزرعة للخضراوات على الأراضي المحيطة
بالمخيم استخراج تصريح بذلك. وتعمل بنفس الجهة تعاونيتان : إحداهما تنتج الكسكسي
والأخرى تنتج اللوف. ويصدر مركز الدراسات والبحوث الزراعية كتيبات إرشاد تتناول
تقنيات استزراع الأشجار وغيرها: ويتبين لي... وأنا في ذهول أن الملوخية (مجرد
ذكرها ... يسيل لها لعابي) تصدر إلى هولندا من أجل استخدامها كمادة ملونة للشعر! ليه
كده ...؟؟ وعند مغادرتنا، صورت العلم الفلسطيني الذي يرفرف في الهواء (وبهدوء
حتى لا أثير حفيظة الأطفال... ويسارعون بالتقاط الحجارة، ويتعرضون للضرب من
الجنود الإسرائيليين المجاورين).

كفر عين. تقع في الشمال الغربي من بير زيت (ونراها من على بعد)، عندما نمر
بالغابة الطبيعية ...غابة الصفا (وهي حسب علمي الغابة الطبيعية الوحيدة التي لا تزال

تقوم لها قائمة)، وفاقت هذه القرية في شهرتها الجميع ...لروحها النضالية. فلقد قاتلت، كما قال لنا مرشدنا، جميع المحتلين:البريطانيين، والأردنيين، والإسرائيليين، (إلا أنه لم يذكر العثمانيين... ولكن ذكرهم الشيخ الهرم الذي احتفظ بهذه الذكريات، وتكلم عنها في فيلم العرس في الجليل الأعلى للمخرج السينمائي المبدع خليفي).

بني زيد. تنقسم المنطقة إلى ١٣ قرية. وتوجد في كل مكان شجرة الزيتون: وحتى لا تصادر الأراضي، ينبغي أن يوجد في كل دونم[١٤٦] على الأقل ١٥ شجرة زيتون مزروعة وعمرها ثلاثة أعوام. ولا توجد زراعات مروية في المنطقة (تتلقى ما بين ٤٠٠ إلى ٦٠٠ ميليمتر/ ثانية من الهطول). ولا توجد بها مخيمات لاجئين. والمواصلات بين القرى ورام الله لا بأس بها. ويحوز ملاك الأراضي ما بين ١٠ إلى ٢٠٠ دونم من الأرض الزراعية التي كانوا يستزرعونها بأنفسهم من قبل، ولكن اليوم يأجرونها إلى فلاحين مقابل ٣٠ إلى ٥٠ في المائة من الإنتاج، وهي ظاهرة جديدة نشأت بسبب الصعوبات. وتقوم الأسر باستزراع الأراضي التي تمتلكها إلا أنه هناك ميل لإنشاء تعاونيات. وهم من أفراد التعاونيات التي تجمع أعضاؤها لاستقبالنا (قدمت إلينا وجبة لذيذة تتكون من أسياخ الكفتة مع السلاطة) وتديرها لجنة من رؤساء الأسر... جالسين بوقار على مقاعد ودكك غير ثابتة مهتزة موضوعة حول جدار قاعة فارغة من الأثاث والرياش (وكانت في حاجة إلى طلاء بالجير الأبيض). وتشرف التعاونية على رقعة أرض تبلغ ٨٠ دونم، مزروعة بنباتات وبقول (القمح، والذرة)، وتنتج علف المواشي. وتحصل اللجنة على الحبوب والسماد. وعندما يكون المحصول جيداً، ينتج الدقيق والخبز لسد حاجة ٢٥ أسرة هي الأسر المكونة للتعاونية. وتمتلك النساء -بكل حرية قطعة أرض صغيرة لزراعتها- توجد حول دار الأسرة (مع فارق كبير عند مقارنتها مع "القرية الاشتراكية" الجزائرية التي لم تحقق نجاحا). وكان أغلبية أعضاء الأسر تعمل قبل الانتفاضة في المصانع الإسرائيلية. وفقدوا نتيجة لطردهم بالطبع مصدر رزقهم . ومن بينهم اثنان من المدرسين يساعدون في تنظيم الحسابات. ويعمل الأعضاء الأربعة أو الخمسة في هذه التعاونية من الذين يمتلكون قطع أرض زراعية صغيرة كالآخرين دون فرق. جلس أحدهم إلى جانبي ينظر إلي وهو يشعر بالفخر لأننا نتذكرهم... ومرافقنا كالسمكة في الماء في هذه القرية، يحدثنا عن كل حجر فيها، فهنا أيضا ترك الماضي اثاره (فهنا يا نيفين كانت نتائج التنقيب عن الآثار التاريخية ستخلب لبك). وقلت له أن هذا اليوم ...ولجمال المنطقة يجعلني أفهم المعنى العميق لعبارة الصمود. أي نعم، إنها حقا جميلة هذه الأرض المرغوبة ! وإسماعيل محدد في كلامه: لا يكل في مطالبة منظمة التحرير الفلسطينية مساعدة الملاك الصغار، لتسويق زيت الزيتون، وإنشاء نقابة

---

١٤٦ الدونم = ١ر٠ هكتار (أو ٩١٩ متر مربع)، الفدان = ١٠٠٠ متر مربع.

للمزارعين ... فمن الواضح أن القرى تسيطر عليها القيادة الموحدة (رغم محاولات حماس[١٤٧] للالتفاف والتجاوز). وتنقلت فيها طولا وعرضا دون أن أعثر على أثر للعسكريين الإسرائيليين، وتغطي الشعارات جدران المباني (في المدن وفي ضواحيها تجبر قوات الاحتلال الإسرائيلية الشباب على مسح وغسل الجدران كلما ظهرت عليها هذه الشعارات). وتعرب الشعارات المدونة عن مواقف الفصائل السياسية لمنظمة التحرير الفلسطينية (فتح، والجبهة الديموقراطية لتحرير فلسطين، والجبهة الشعبية لتحرير فلسطين، والحزب الشيوعي الفلسطيني). نتنفس في هذه المنطقة عبر "المنطقة المحررة"حتى رغم قيام سلطات الاحتلال باقتلاع الأشجار من جذورها (١٠٠ ألف شجرة حسب تقدير خليل محشي مدير مدرسة ثانوية في رام الله). صورت الشعارات المكتوبة. وكلي أمل أن تستمر هذه المعارضة في الإعراب عن نفسها بالطباشير وبالكلمة! .

الساعة الخامسة مساء.

أجبرنا في رام الله على النزول من الميني باص. لنجتاز سيراً على الأقدام نقطة التفتيش العسكرية الإسرائيلية. واستقبلتنا حنان ميخائيل عشراوي في فيلتها : وهي سليلة أسرة مسيحية عريقة، وعميدة كلية الفنون في جامعة بير زيت٠٠٠ في الأربعينيات من عمرها ٠٠٠وقسمات وجهها بارزة تعكس ما يجول في أعماقها، ذات ثقافة سياسية عالية. هذه نقلة صاعدة ٠٠٠من قاعة الاجتماع في لجنة زراعية إلى صالون واسع في فيلا تمتلكها إحدى العائلات الكبيرة، من شقة في عمارة حديثة البناء يسكن فيها أستاذ في جامعة بير زيت، إلى دار لأسرة في تعاونية في الشوفات، وتجار يغتنون بفضل الانتفاضة ويحصلون على مساعدة هائلة (هذا هو ما قيل لي) من فتح ، مرورا بالمساكن المبنية من الحجارة في مخيمات اللاجئين الذين يتلقون معونة من وكالة (أونروا)[١٤٨] ومن المتأسلمين، وعدد كبير من العشائر في اتصال مع القيادة الموحدة، مهما كانت انتماءاتها الدينية أو السياسية. فضلا عن سلطات قبلية أو قروية، وجمعيات خيرية، ومراكز عناية أو تكوين وتأهيل، وصحافة مكتوبة، وتأليف وإصدار ... كلها تنعكس بشكل أو بآخر الممارسات التي لا شك أنها تعود إلى العصر العثماني، مرورا بفترة الانتداب البريطاني. ونعلم من ذلك الوقت السبب في عدم فقد هذه الانتفاضة -الشبه عامة- أنفاسها ولا زخمها.

(مقتطف من جريدة جيروسالم بوست) التقى بالأمس ياسر عرفات في القاهرة صحفيين إسرائيليين، وبواسطتهم تحدث إلى مجموع الشعب الإسرائيلي. هذا سبق صحفي

---

١٤٧ حركة المقاومة الإسلامية، فرع متطرف من الحركة الإسلامية الفلسطينية (تعود أصولها إلى تنظيم الإخوان المسلمين في مصر)، ولا يعتبر فصيلا من فصائل منظمة التحرير الفلسطينية، يتعاون مع القيادة الموحدة منذ ١٩٨٨.

١٤٨ وكالة الأمم المتحدة لغوث وتشغيل اللاجئين الفلسطينيين- المترجم

مذكرات مناضلة

القضية اتصاله بأعضاء منظمة التضامن (التي قدمت له المساعدة لتنظيم منظمة أفريكان[٢٧] (من البيض) لدعم نضال (الكونجرس الوطني الإفريقي ANC).

ولعبت بعض العوامل غير الموضوعية تماما (كان يتمتع بروح شابة ووجه صاف، وينبعث من علاقاته دفء إنساني) في أن يفلت برايتن من يقظتنا... وأعقب ذلك بعض التراخي في تطبيق قواعد الأمان -وقال لي هنري ... بدون وجود برايتن يكاد الملل أن يقتله ...-وكنت أخلق له الأعذار- كان ذلك حال الآخرين- لتبرير عجزه شبه المرضي عن احترام مواعيد اللقاءات السرية التي حددتها له في جنيف.

وهنا، اكتشف عملاء المخابرات في جنوب أفريقيا (BOSS) وجود هنري... وحملوه وزر قضايا أجنبية غريبة كل الغرابة عن نشاط منظمتنا السياسي[٢٨].

واكتشفته مخابرات إسرائيل(الموساد):

عندما بدأ يتردد على دهاليز أحد المؤتمرات التي ناقشت قضية الصراع الإسرائيلي/العربي -وكان قد أبعدني عن هذا المؤتمر لدواعي أمنية!!!

وباختصار... قررت السلطات تحديد إقامة هنري... بعد اغتيال رئيس رابطة رجال الأعمال الألماني هانز مارتن شيللر، وفي أعقاب صدور المقال الذي نشرته الصحيفة اليومية الألمانية دير شبيجل في ٢٤ أكتوبر ١٩٧٧ التي تناولت فيه مرة أخرى الجوانب المتعلقة بتخريفات سوفير

ووضعته تحت المراقبة حتى يناير ١٩٧٨ في مدينة (ديني)[٢٩].

الإرهاب، والكفاح المسلح

عندما تتعذر البدائل، يعلم من كان معاصرا للاحتلال النازي، وأحداث حرب الجزائر، ونظام الفصل العنصري، والحرب الباردة ... لماذا يلجأ المناضلون في حركات التحرير الوطني إلى الكفاح المسلح لتحقيق أهداف حركتهم..؟.

نعم، كنا في منظمة التضامن ندرب المناضلين الثوار على أساليب التخريب الحربية. وأثبت التحقيق الذي أجراه جيل بيرو[٣٠] ، بما لا يدع مجالا للشك، أن منظمتنا لم تتصل أبدا بمجموعات الإرهاب التابعة لتيار اليسار المتطرف... وقد تزايد عددها في

---

٢٧ منظمة من المواطنين البيض في جنوب أفريقيا (الأفريكان سكان من أصل هولندي) -المترجم

٢٨ لاسيما بعد الاستيلاء على وثيقة تثبت مساعدة فرنسا جنوب أفريقيا في الميدان النووي – في وقت صدور قرار الأمم المتحدة بمقاطعة نظام الفصل العنصري في هذا البلد-

٢٩ مدينة جبلية صغيرة في شمال فرنسا-المترجم

٣٠ مؤلف كتاب حول كفاح هنري كورييل: وعنوانه (رجل من طراز خاص، دار النشر الفرنسية **Barrault**، ١٩٨٤ وترجم بعض أجزائه إلى العربية لطيف فرج، ونشرها دار (شركة الأمل) للطباعة والنشر والتوزيع-القاهرة ١٩٨٨).

بسبب وجود القانون الإسرائيلي لعام ١٩٨٦ الذي ينص صراحة على حظر جميع الاتصالات مع منظمة التحرير الفلسطينية ونشرت شهادات لضباط إسرائيليين في جريدة جيروسالم بوست.

فرض حظر التجوال على نابلس : قتل جندي إسرائيلي بعدما ألقى عليه حجر كبير من فوق سطح أحد المباني.

السبت ٢٥ فبراير

نخصص نصف يوم للذهاب إلى البحر الميت مع مارتين وفريدريك ٠٠٠وأخيرا عرفت أسمائهم الحقيقية لأن جان ماري كان يقدمهم لنا دائما على أنه "ابني". تعهدنا أن نعود إلى هذا المكان مرة أخرى بعد أن يستتب السلام: مع فريدريك لكي يتسلق مع أقرانه المهابط الحادة للجبال القديمة ذات اللون الترابي الأصفر الصلصالي لون صحراء يهوذا [١٤٩]، وهي تثير الحذر عندما تضرب الشمس بأشعتها الحارقة، أما أنا فإني أتسلقها لمشاهدة غروب الشمس وأشكال التكوينات المالحة. ولما لا ؟؟ كنت أقوم بزيارة استشفاء.

قمران [١٥٠]. وهي موقع فرقة الإثنيين التي تطل على الحوض، وهي أدنى نقطة على ظهر المعمورة (٤٠٠ متر تحت سطح البحر كما تدل عليه اليافطه). وكانت تقطن في هذه الكهوف فرقة على درجة من التقدم حتى أنها سجلت معتقداتها كتابة، وحافظت على مخطوطاتها القديمة من الدمار من جراء الحروب بحشرها في آنية فخارية، ولم تزل هذه المنطقة محظورة على السواح. واكتشفت المخطوطات القديمة الأولى النادرة في عام ١٩٤٧ أثناء الانتداب البريطاني٠٠٠ عثر عليها راعي غنم شاب كان يبحث عن ماعز ضالة من قطيعه، وهو محمد الديب من القبيلة البدوية العامرية وباعها لأحد هواة اقتناء الآثار القديمة[١٥١]، (وما من شك باعها بشروى نقير) ٠٠٠وكنا الوحيدين الذين استفادوا من هذا المشهد الرائع، بعد أن أصبحت هذه المنطقة محظورة منذ الانتفاضة.

عين جيدي. استحسنت جمال المياه ولكني فوجئت بكثافة الترسبات الملحية التي تمنع المرء من أن يغوص في الماء. ولم نتمكن من السباحة المدربة وكل ما استطعناه هو أن نطفو على بطوننا٠٠٠ مع رفع الرأس إلى أعلى لحماية العيون. شعرت بضيق في

---

١٤٩ مكان مملكة يهوذا القديمة في الضفة الغربية بين البحر الميت والبحر الأبيض المتوسط -المترجم

١٥٠ خربة قمران تل في فلسطين يشرف على البحر الميت اكتشفت فيه مخطوطات قديمة نادرة سنة ١٩٤٧ وأطلال دير لفرقة الإثنيين اليهودية تعود إلى القرن الأول ق.م، واشتهرت هذه الفرقة بالإعلان عن ظهور المسيح المنتظر ويعتقد البعض أنها تمت إلى الديانة المسيحية الأصلية - المترجم.

١٥١ كثر الحديث عن المخطوطات النادرة القديمة التي اكتشفت في البحر الميت، ومن بين آخر التقارير حتى تاريخه أنظر كتاب مايكل بيجن وريتشارد لي: خيبة أمل مخطوطات البحر الميت، لندن ١٩٩١.

التنفس ونوع من الجزع بعد البهجة والانشراح الذي شعرت به بعد هذا الاكتشاف الجديد. ويؤمه السائحون الألمان لعلاج التهاب المفاصل أو الأمراض الجلدية. عين فشكة. واحة تقع بالقرب من قمران، تتمتع بمصادر مياه عذبة للاستحمام وإزالة الأملاح. سأقوم بهذه الزيارة مرة أخرى. ودون أن نمر على مساده... اتجهنا فورا إلى القدس للاشتراك في جولة ما بعد الظهر.

بيت لحم. أعد جون ماري سلسلة من المقابلات في المدينة. وكانت الجامعة التي تديرها فرقة الرهبان الكاثوليك، مغلقة الأبواب. وتمت المقابلات عند الدكتور حمزة الشيوعي عضو المجلس الوطني الفلسطيني، وأحد مؤسسي اتحاد لجان الإسعاف الطبي. وأحاطنا أحد النقابيين علما- ولأول مرة - بأن مكتب العمل الدولي قام بتحقيقه السنوي عن الوضع في الأراضي المحتلة بالاتصال بالفلسطينيين (حتى هذه اللحظة كان يتصل فقط بالهستدروت واتحاد النقابات العربية) ، وأصبح الرأي العام الإسرائيلي أكثر تعاطفا مع الانسحاب من الأراضي المحتلة، ولكن حزب (مولي فيت) وهو الحزب الذي ينادي بالترحيل الجماعي للفلسطينيين، يضايق العمال، دون أن تعترض عليه القيادة المركزية للهستدروت، وأصبح من هنا فصاعدا استخراج الترخيص من وزير العمل إجباري على الفلسطينيين المقيمين في الضفة الغربية، من الذين يعملون في فنادق ومنشآت القدس الشرقية. ويعرض الدكتور حمزة العديد من المشاكل الصحية، وأهمية إقامة مراكز للأبحاث للعناية الطبية، مثلاً لمكافحة أحد الفيروسات التي تنقلها الحيوانات، وأيضاً مشاكل الحليب غير المعقم الذي ينشر "حمى مالطة". كما يتحدث إلينا عن مشروع مركز آخر لعلاج السرطان، وقد عرض هذا المشروع على الاتحاد الأوروبي. ويصر مع ذلك وفي انسجام وتناغم تام مع النقابيين على أهمية العمل السياسي الواجب القيام به في إطار منظمة الأمم المتحدة لوقف عمليات الترحيل.

بيت ساحور (أي منزل الراعي)، يقع في شرق بيت لحم، مشهور لدرجة كبيرة : أعلنت في هذا الموقع الملائكة ولادة المسيح على أسماع رعاة الغنم، ولقد استقبلت هذه القرية المسيحية ذات الـ ١٢ ألف نسمة عشية أعياد الميلاد وفداً من شالوم أكشهاف بالرغم من التطويق الذي يضربه الجيش الإسرائيلي على المنطقة، وعقد الاجتماع داخل الكنيسة... سأعود لكي أرى "آبار داوود"، وخزانات المياه الأثرية المحفورة في الصخر.

الوضع متفجر في كل مكان... في المدن تتحكم فيها الطوائف المسيحية متخذة شكل مؤسسات موغلة في القدم، وفي مخيمات اللاجئين حيث يجند المناضلون من بين السكان المسلمين، وفي المناطق العلوية التي يصل إليها المستوطنون اليهود في بعض الأحيان بعد اجتياز المدينة الفلسطينية. وهذه هي حالة المستوطنة المقامة أعلى بيت جالا، وهي مدينة صغيرة مسيحية عرفت بنزوح وهجرة كبيرة إلى أمريكا الوسطى والجنوبية.. ويؤدي تعقيد الوضع إلى زيادة وتفاقم التوتر بين المسئولين عن جمعيات الإسعاف والإنقاذ. إنه وضع مصاب بالعصاب المرضي...!!

وحتى لو أردنا أن نضع قضية المستوطنات السكانية الإسرائيلية جانبا ٠٠٠فإن حياة السكان الفلسطينيين لا تطاق، ومسلط على رؤوسهم كابوس يومي ٠٠٠وإذا استمر الحال بدون إيجاد اتحاد بين البلاد الثلاثة[١٥٢]: لأنه باستثناء قطاع غزة، تملك إسرائيل كل الساحل، وشطرت القدس إلى قسمين ٠٠٠ كما أن الخليل وبيت لحم وأريحا كلها مدن فلسطينية ٠٠٠ولكن في مواجهة الخليل توجد مستوطنة كريات عربة الإسرائيلية، وناحية الشرق يمتلك الأردن نصف المنخفض ... وإذا استمر سحب المياه من الأردن بالطريقة التي يسير عليها الأمر الآن ٠٠٠ سيتحول البحر الميت قريبا إلى مجرد مسطح مالح خال ليصبح قاعا صفصفا...

يبدو أن مدن الضفة الغربية – وبسبب تزايد المستوطنات اليهودية السكنية التي تطل عليها وتحيط بها من كل ناحية– لا تكف عن الزيادة عدداً ومساحة، ويقترب موقعها من موقع وحدات متميزة تسيطر عليها العشائر المرتبطة بالأسر الفلسطينية الكبيرة.

غزة٠ تلقى محصلو ضرائب إسرائيليون سيل من الحجارة بينا كانوا يطوفون في حي الشيخ رضوان وهم يرتدون الكوفية الحمراء، وقتلوا بالرصاص احمد العبيج محرم الذي يبلغ من العمر ٢٠ عاما٠٠٠ وتحولت جنازته إلى مظاهرة كبيرة٠

وفي رفح (مقتطف من جريدة جيروسالم بوست) وقعت مصادمات مع الجنود الإسرائيليين الذين حاولوا منع التجار من فتح حوانيتهم أثناء فترة الثلاث ساعات اليومية المعتادة، وألقوا على تلاميذ المدارس القنابل المسيلة للدموع.

وفي نابلس، حظر التجوال لليوم الثالث، وفجرت أحد المنازل الأثرية القديمة في المدينة.

الأحد ٢٦

حيفا. عاصمة الشمال، ولقد توسعت المدينة ونمت على ثلاث مستويات ابتداء من الميناء الواقع على البحر الأبيض المتوسط والساحل، حتى تلال جبل الكرمل، حيث يوجد المركز التجاري الجديد وحي سكني، مرورا بحي آذار وهو حي سكني قديم أصبح حيا تجاريا الآن. واعتقدت عندما شاهدته بأنه حي بروليتاري بسبب كثرة رفوف الفلافل التي لا تنقطع والخضروات والسلطات ومنها سلطة الطحينة، التي تنساب من الساندويتش. ومجموع صور الحي اليوم تعكس صور حياة فاخرة وموسرة: ولم يمر التاكسي على منطقة الميناء ذات البنايات الصناعية البالية القديمة، ولا حتى اجتاز الأحياء الموجودة في أسفل المدينة، وبها المباني التي هدمت أثناء حرب ١٩٤٨ وأجلي عنها سكانها العرب.

---

١٥٢ أي الأردن ودولة فلسطين وإسرائيل–المترجم

وهي متروكة مهملة. وكان مكان الاجتماع مع المنظمات غير الحكومية الإسرائيلية في الموقع الذي يتوسط أعلى المدينة، في مكان "البارتنرشيب" وهي مجموعة من المربين البيداغوجيين اليهود والعرب الملتزمين بالنضال من أجل السلام، ومن بين أعضائها النشطين نبيلة إسبنيولي من حزب راكاح. ومدينة حيفا مدينة مختلطة وهي الوحيدة التي توجد بها لجنة تنسق بين أنشطة المنظمات غير الحكومية. بل يشترك الفرع المحلي لشالوم آكشهاف في هذا النشاط ويوجد فيها أناس كثيرون. دانييل بادنوس، الذي نظم الاجتماع من الجيل الجديد الإشكيناز يبلغ عمره من ٣٠ إلى ٤٠ عام وهو على رأس حركة السلام المكونة من مثقفين إنسانيين ٠٠٠عادة أنجلوفونيين، لا أدري المدة التي مكثها في إسرائيل . أما السفراد فحتى الآن ليسوا إلا أصواتا في الانتخابات٠٠٠ مفاجأة٠٠٠ أحد المناضلين من أصل مصري (يوسف تويج) ذكر لي أسماء بعض الزملاء (روبي جونسبان، وجويس بلو).

يسعدني أن أعثر مرة أخرى على سلمان ناطور، الكاتب، والصحفي في اليومية الشيوعية الاتحاد (وزوج المرأة التي أجريت معها حديثا في ١٩٨٢)، وهو عضو في لجنة الدروز التي تناضل ضد اشتراك أفرادها في المجهود الحربي (لا سيما الخدمة على الحدود): يوجد حوالي ٤٠ إلى ٦٠ من الدروز الروفسنيكس (الرافضين) في السجن.

ينشط سلمان أيضا في اللجنة المشتركة للكتاب والفنانين (اليهود والعرب الإسرائيليين)، كما يشترك فيها أيضا فلسطينيون من الأراضي المحتلة. ويعد حاليا كتيبا يتناول أوضاع المعتقلين الفلسطينيين في معتقل أنصار ٣. وتشترك تيبورا شلروني (زوج جورج طوبي، وهو زواج مختلط)، امرأة جميلة متأنقة للغاية تناضل في نقابة للمعلمين مرتبطة بالهستدروت٠٠٠ تندد باحتلال الأراضي الفلسطينية، مما يؤدي إلى إفساد القيم الديموقراطية٠٠٠ وتدفع إلى هجرة الكوادر الجامعية الأكاديمية. ويمثل الدكتور ربيع ربيعة مجموعة تتكون من حوالي ١٠٠٠ طبيب عامل في المستشفيات، وقد ولدت هذه المجموعة مع ولادة الانتفاضة، وتعالج مشاكل محددة ملموسة: الإغاثة والإسعاف العاجل٠٠٠ وإرسال التجهيزات والمواد الطبية للقري الواقعة تحت حظر التجوال. ويشارك أيضا في اللجنة المختلطة التي تجري تحقيقات حول الأوضاع الميدانية مع الفلسطينيين من سكان الضفة الغربية. أما المتدخلين الآخرين فينتمون إلى مجموعات تقليدية اكثر: دوف يرمياه، ومجموعته (الخط الأحمر ضد الاحتلال) يرحب به الجميع (الشيوعيون والصهيونيون) المتعاطفين مع الحوار٠٠٠ حنه سفرون، ومجموعتها (النساء المتدثرات بالسواد) يتظاهرن كل يوم جمعة من الساعة الواحدة حتى الثانية بعد الظهر في حيفا وفي القدس وفي تل أبيب، والدكتور عيسى نيقولاس من لجنة إغاثة ضحايا الاحتلال، والدكتور أرنولد بارعون من مجموعة تعالج مشاكل الضمان الاجتماعي، وعصام مكلول من حركة داي لا كيبوش، والبرفسور هيبير ليون (من معهد تكنيكون في حيفا) من مجموعة شاسي، وروث دويك وآفي باشات من شالوم أكشهاف ...

واكتشفت ساعة الغداء -بشيء من الضيق- أني نسيت مفكرتي وبها أرقام التليفون (كنت أود أن أتحدث إلى أنيا بيير لامان). دعينا لحضور حفل عشاء في مطعم صغير جميل. وبدأ الاجتماع فوراً بعد ذلك. وفهمت بصورة أفضل السبب في غياب خط فاصل في إسرائيل بين الحزب السياسي والمنظمة غير الحكومية: يمكن لكل حزب يحصل على ١٨ ألف صوت أن يمثل في البرلمان، حتى ولو كان برنامجه السياسي لا يحوي إلا على هدف واحد: التشجيع على الحوار (قائمة التقدميين) أو التشجيع على الترحيل الجماعي مثل حزب (موليديت). ومن هنا ظهرت المزايدات الضاغطة التي مارستها المجموعات التي كان من المفترض أن تكون متحالفة. ولا ينبغي توقع تنظيم اجتماع للوحدة بين المجموعات الإسرائيلية الممثلة في اللجنة الدولية للتنسيق بين المنظمات الغير الحكومية من أجل فلسطين. ولا أن تمثل التيارات الصهيونية الهامة وفعالياتها (شالوم أكشهاف، والمركز الدولي للسلام في الشرق الأوسط) في اجتماعنا السنوي الذي يضم المنظمات غير الحكومية. وللأسف فإن نداء أبو إياد لن يكون له نفس الأثر الذي اكتسبه مشروع عقد مؤتمر ترعاه منظمة الأم المتحدة

عندما عدنا إلى القدس، تناولنا العشاء مع روبين كامينير من حزب شاسي: وهو مثل إليعازر فيللر، ولطيف دوري، ويائيل لوتان، متهمون بالاتصال بمنظمة التحرير الفلسطينية في رومانيا. وانضم إلينا ستان كوهين من حركة دا لا كبوش ليعطينا فكرة عامة سريعة ...والقدس... وهذا طبيعي ...أكثر توتراً وأكثر راديكالية من حيفا.

(مقتطف من جريدة جيروسالم بوست) قام شاب فلسطيني بطعن جندي إسرائيلي في سوق (البيرة)، ومساعد مدير مستشفى (الشفاء) جرح بطلقة رصاص، قد تكون طلقة طائشة، وقتل محصل ضرائب (في غزة) شاب فلسطيني يبلغ من العمر ٢٠ عاما ، الخ ... الخ ...

الاثنين ٢٧

تحولت القدس الشرقية إلى خلية نحل تمتلئ بالمنظمات غير الحكومية والصحفيين.. وننتقل من مكتب إلى آخر... من مكتب رضوان أبو عياش إلى مكتب زياد أبو زياد، ولمقر تحرير الصحيفة العبرية الوحيدة في الأراضي المحتلة (جيشر) الصادرة عن مركز الإعلام الفلسطيني لحقوق الإنسان الذي يديره جان أبو شقرا. وكانت مقابلتنا في الفندق الدولي مع يائيل أورين من منظمة غير حكومية للنساء أغلبهن من اليهوديات اللاتي يعنين بالسجينات الفلسطينيات وقد شكلوا لجنة من المحامين لكسر جدار الصمت، باشتراك شلومو كوهين وتامار بيليك. وعندما طرحت سؤالاً عابرا عن نوع النشاط السياسي الذي تقوم به المنظمات غير الحكومية بين المستوطنين قوبلت بجو من الفتور. مهما يكن من أمر حتى مع وجود الفاسدين والصالحين ... فهذا العمل في تصوري لا يمكن غض النظر عن أهميته، وضرورته.

(مقتطف من جريدة جيروسالم بوست) لطيف صبحي ٠٠٠من الدروز يعمل في فرق الشرطة الحدودية، تلقى طعنتين في كتفه في السوق في وضح النهار في رام الله. كان في دورية مسلحة مع أفراد قوته٠ يكون الدروز كيانات مستقلة متميزة داخل قوات حفظ الأمن.. ورئيسها كاتب زار الدين . أطلق النار على المهاجم (أحمد تميمي ١٩ سنة من قرية دير نظام في شمال رام الله)، تعقبه وطرحه أرضاً وانهال عليه ضرباً. ويوجد الدروز في أرض ليست غريبة عليهم، يتحدثون نفس اللغة، ويعرفون كل الأماكن والزوايا، ومثلهم مثل الحركيين أثناء حرب الجزائر.

غزة المقاومة ...

٢٨ فبراير

لقد حذرونا: غزة برميل بارود قابل للانفجار. ومنها بدأت الانتفاضة. لا يمكننا أن ندخل إليها إلا إذا ادعينا أننا من منظمة الأونروا. قمنا بالرحلة في سيارة يقودها سائق يعمل في القنصلية الفرنسية وضع تحت تصرف جان ماري. وحتى يظل في الأراضي الإسرائيلية، سلك الطريق الذي يوصل إلى عسقلان، ويهبط من أعلى مرورا بياد - موردوخاي ، وينزلنا أمام شبكة الأسلاك الشائكة التي تحيط بالنقطة العسكرية عند مدخل الأراضي الفلسطينية المحتلة. وصلنا مبكرين عن الموعد المحدد، وانتظرنا في المكان المخصص الذي أعد خارج سيارة نقل صغيرة معطلة تستخدم كمكتب وكمقهى. دخلت إليها لكي أثرثر قليلا مع الشابة التي تقوم بإدارتها وهي من جماعة الميزراهيم[١٥٣] ولم تتوقف عن إلقاء الأسئلة. هل أذهب إلى غزة ؟، هل أنا صحفية في التليفزيون ؟ (الحقيبة التي أحملها تشبه الحقائب المستخدمة لحمل آلات التصوير الصغيرة) ولا أرد عليها رداً واضحاً. وتستمر : كانت تسكن قطاع غزة ولكنها تسكن الآن في عسقلان. فهي خائفة ٠٠٠ "*لا أخاف بدوري أن أذهب إلى غزة ؟* لا لا أخاف ... وأسأل إذا كان الجندي الواقف داخل النقطة سيطلب مني فتح حقيبتي لتفتيشها ؟. فهي تحتوي على ما هو ضروري لقضاء ليلة، وآلة تصوير صغيرة وأفلام تصوير، ومفكرة لم أدون فيها شيئا. لا يتحرك الجندي. ويناديني جان ماري. ينتظرنا الميني باص على الجهة الأخرى.. نمر عبر الحدود سيرا على الأقدام وسط جدار الأسلاك الشائكة، وعبرنا بالسيارة مدينة مهجورة. وأصبح الإضراب إضراباً عاماً في جميع الأراضي الفلسطينية المحتلة تأييداً للمقاطعة العربية للانتخابات الإسرائيلية في القدس. وفيما بعد ذهبنا لزيارة منطقة

---

١٥٣ وهي عبارة عبرية تشير إلى اليهود الأوروبيين الذين أتوا من الشرق ويعرفون اليوم بالشرقيين.

المخيمات. وهذه أول مرة أفاجأ فيها بمشاهد طبيعية تذكرني بالساحل المصري في العريش: انتشار النخيل، ورائحة البحر، وهالة الرمال الدقيقة المتناثرة في الهواء.

ونعقد أول اجتماع لنا في مقر منظمة الأونروا: ويقلب (المندوب النرويجي) الأوراق الموضوعة أمامه المملوءة بالأرقام. *"عدد أيام حظر التجوال ١٥٨ يوم منذ بداية الانتفاضة، وقد يحدث أن تستمر بلا انقطاع لمدة ثلاثة أسابيع، ولا تتمكن النساء من الولادة في المستشفيات كما ينتهك كثير من الفلاحين الأوامر العسكرية ويذهبون سرا إلى حقولهم تحت جنح الظلام، وبذلك تتزايد الحوادث بينما إمكانيات الإسعاف العاجلة متوقفة. وتتكاثر مخاطر انتشار الأوبئة. أبلغنا السلطات: لم تعد تجهيزاتنا، ومعداتنا تستجيب لاحتياجاتنا. وفي مدينة غزة وحدها ومنذ الانتفاضة سجلنا ١٠٥٩٥ حادث، هذا دون حساب الذين يختفون ولا يسجلون أسماءهم في المستشفيات حتى لا يتعرضون للتحقيق. وقبل الانتفاضة لم يكن لدينا أكثر من ١٢٠ مريضا في اليوم. وتفتح المدارس أبوابها عندما لا يكون هناك حظر تجول. لقد حصلنا من القيادة الموحدة على تعهد بعدم استخدام المدارس كأماكن للصدام كما أن فرقنا من الإونروا تقوم بدوريات بصفة دائمة لمراقبة ١٤٦ مدرسة يتردد عليها ٩٠ ألف تلميذ فيما بين عمر ٦ و ١٦ عاما. ويلاحظ أن وجود هذه الدوريات أثر على سلوك وكيفية تعامل الجنود وأسلوب معاقبتهم للأطفال، كما يتمكن الفريق من التدخل عندما يلقى القبض على بعض الأطفال"*. وقبل أن ننتقل إلى ميعادنا التالي قمنا بزيارة مكتب مضيفنا في غزة، وهو الأمين التنفيذي لمجلس رجال الكنائس من أجل شغل اللاجئين في الشرق الأدنى. وقد اجتذب نظري لوحة مأخوذة من الكتاب المقدس بالألوان الحية مرسومة على ورق كرتون وبهرتني، وبخجل، التقطت صورة لها، وكان فخوراً بذلك.

وكان الدكتور حيدر عبد الشافي المسئول عن الهلال الأحمر الفلسطيني في غزة ينتظرنا[١٥٤] في مكتبه . وبالنسبة له يحل الجانب الإنساني محل الأرقام (وعلمت فيما بعد وبدون أن أستغرب أنه شيوعي)٠٠-ابنه (١٥ عام) مسجون في معتقل أنصار ٢. وتغطي خدماته الطبية مجموع الأراضي المحتلة، بما في ذلك مستشفى القدس (بل استطاع أن يرسل كمية صغيرة من الدم إلى أرمينيا أثناء كارثة الهزة الأرضية). وحتى يسهل العمل أثناء حظر التجوال يقيم اثنان من الأطباء بصفة دائمة في العيادات التي أنشئت في

---

١٥٤ ترأس الوفد الفلسطيني في الاجتماعات التي بدأت بناء على مبادرة المسئول عن الشئون الخارجية في الإدارة الأمريكية جيمس بيكر، في ٣٠ أكتوبر ١٩٩١ في مدريد، واستمرت هذه الاجتماعات بعد ذلك في واشنطن وكان ذلك أثناء إدارة الليكود ومن ثم العمال للحكم (بعد انتخابات ١٩٩٢)، واستمرت حتى الاتفاقات السرية في أوسلو (المعلن عنها في أغسطس ١٩٩٣) التي انتقدها لأنها لا تسوي مشكلة المستوطنات اليهودية في الأراضي الفلسطينية المحتلة، وبالرغم من تحفظاته، فإنه لم ينضم إلى جبهة المعارضة لاتفاقيات وإنما يفضل بأن ينادي بوحدة الفلسطينيين وبإدارة أكثر ديموقراطية داخل منظمة التحرير الفلسطينية (أنظر حديثه مع نيوز فروم وز إن -الأنباء من الداخل- المجلد التاسع رقم ١٢، ٤ ديسمبر ١٩٩٣، الصفحات ٤ إلى ٦).

مخيمات جبالية ورفح. وهنا فإن الحالات الطارئة والخطيرة المعروضة على هذا المركز تجبر القيادة الموحدة وحماس على التعاون . ويقول لنا الدكتور زكريا الآغا من اللجنة الطبية العربية بأن المشكلة الكبرى تتمثل في عدم إمكان إجلاء المرضى نحو المستشفيات المجانية ومنها مستشفى المقاصد ويضطرون إلى إرسالهم إلى مستشفى الشفاء، حيث يطلب دفع مبلغ ١٥٠ دولار أمريكي للإقامة يومياً بها.

نضع أغراضنا في فندق مارنا وتقدم لنا وجبة خفيفة. وفي الخارج يوجد شاطئ من الرمال الناعمة. وخلاف ذلك فهو جحيم: العمال العاملون في إسرائيل منعوا من التحرك بسبب حظر التجوال، والقيود المفروضة على حقوق الصيد (بالله عليكم كيف يمكنهم العيش في مثل هذه الظروف، والبقاء على قيد الحياة ؟)، دوي الطلقات٠٠٠ ورمي بالرصاص بصورة منتظمة ٠٠٠وتختفي تدريجياً المادة المطاطية التي تحيط بالرصاصة وتصبح رصاصة معدنية وذخيرة حية تماما(عرض علينا مدير مستشفى المقاصد بعض العينات). يبلغ عدد الجرحى من ١٠ إلى ١٥ جريحاً ومتوسط ثلاثة وفيات يوميا. كما قمنا بزيارات أسر عديدة. ويقص علينا صبي يبلغ من العمر ١٥ عاماً، وضعت ساقه حتى أعلى الفخذ في الجبس، أنه "*عندما اصطحبوه مع زملائه في سيارة جيب عسكرية معصوب العينين، أوقفوا السيارة وضربوه ضربا مبرحاً بواسطة أحذيتهم العسكرية، وعضته امرأتان منهم، وهددوه بتقطيع أوصاله، وحرقوه بعقب سيجارة في قدمه، ثم ألقوه أمام باب مستشفى الشفاء، بينما بقية الفريق أعتقل في معتقل أنصار ٢*". و"*يلاحظ أثناء الانتداب البريطاني لم يكن يعتدي بالضرب على الناس، فكانوا يحتجزونهم في السجون ولكن لا يضربونهم*"، وهذا ما حدثنا به الرجل الذي كان يصاحبنا. وكشف لنا هذا الصبي عن مكان التئام الجروح التي تركت ندبة واضحة على ذراعه، وبطنه، وساقه بالكامل بعد أن رفع جلابيته، وأعد نفسه للتصوير. لا شك أنه ضخم بعض الشيء مما جرى له. إلا أنه رغم ذلك ٠٠٠فهي "مأساة بكل المقاييس٠٠٠ عثرنا في أسرة أخرى على طفل مجروح لم يتعد عمره ٩ سنوات، وضع ذراعيه في الجبس حتى التقاء الكتف: ونظراته مرتابة كنظرات القروي ٠٠٠ وهذا رغم كل التأكيدات والتطمينات التي أعطيت له من المصاحبين لنا ٠٠٠هم أكبر منه سناً ٠٠٠ رفض حتى النهاية أن يفصح عن اسمه. فإن أشكالنا تشبه إلى درجة كبيرة هيئة العدو الذي بوسعه أن يتحدث بليونة ولطف عندما لا ينهال بالضرب على الناس. وتحول تحفظه إلى شعور عدوانيٍ عندما ضغطنا عليه بالأسئلة. وببلاهة، وكأني أرتكب سرقة، ألتقط له صورة.

وآخر من استضافنا في هذا اليوم كان يدير فرع المجلس المسكوني للكنائس في غزة. وكرئيس للأسرة تعود على الاحترام نظراً لمركزه الاجتماعي. يقوم بسكب أكواب الشاي وتقديم الحلويات العسليه التي أعدتها بناته ووضعها أمامنا، على طاولة في الشوفة، حيث تمتعنا بتذوقها. وقطع الهدوء والصفاء الذي أحاط بهذه اللحظة٠٠٠ وبشكل همجي ٠٠٠بعد أن سمعنا طرقا عنيفا جنونيا على الباب: ويدخل اثنان من الجنود الشباب الإسرائيليين يصيحون ميه ميه !! ويفتح الباب قليلاً ويتظاهر بالاعتقاد بأنهم يطلبون ماءً

للشرب ويأتي لهم بكأس من الماء. ميه ميه !! هؤلاء البلداء الصغار يريدون أن يخرجوه من فيلته كي يرش الماء على بعض عجلات السيارات المطاطية التي أشعلت فيها النار... وهو عقاب جماعي منظم، من بين وسائل أخرى، يهدف إلى السخرية وإهانة كرامة صفوة القوم. بغضب تقدمنا نحو الباب. وتراجعت الأصوات وهدأت ...إنهم جبناء حقاً: يعرفون تماماً أن وجود شهود أجانب قد يعرضهم إلى اللوم (وتأكدوا إذا استمرت الأوضاع على هذا المنوال فالضحية القادمة ستكون من الأجانب)[١٥٥]. ولكن مضيفنا تمكن من المحافظة على هيبته دون أن تمسها ذرة من الغبار..

أول مارس

رفع حظر التجوال. نبدأ بجولة في المدينة. أمامكم السلخانة. وهو المبنى المشهور الذي يمارس فيه الضرب بالهراوات حتى تهشم العظام. إلا إذا فضل الجلادون تعليق المعتقلين من القدمين أو الذراعين. ويتولى توفيق أبو غزالة المحامي إدارة مركز الدفاع عن الحقوق، وتقديم استشارات قانونية للدفاع عن المعتقلين... ضرب بدوره لدى اعتقاله داخل السيارة العسكرية التي نقلته إلى غرفة التحقيق، وضرب مرة أخرى عندما أعادوه بالسيارة. وتطبق أحكام القانون فقط بعد فترة الاعتقال هذه . وقامت اللجنة التي أنشأها في تل أبيب ديدي زكر للدفاع عن المعتقلين بعمل جيد وكان مصاحبنا يقدر تماما مواقفهم السياسية. وكذلك مواقف يوسي ساريد أيضاً. ولا يوجد متسع من الوقت أمامي لكي أسترسل : يتعلق رجلين بالميني باص ويدعوننا "*بسرعة ...الوضع متفجر في المدرسة القريبة منا* ". ويكفي أن يقترب ميني باص الأونروا حتى يترك الجنود الإسرائيليون البلداء الأطفال في حال سبيلهم، وفي سلام.

مخيم جبالية، ٥٥ ألف لاجئ و١٨ مدرسة ابتدائية وهو من المخيمات الصلدة... كغيرها. إلا أنه على الأرجح أقل بؤساً وأقل قذارة إذا قارناه بحي من الأحياء الشعبية في القاهرة. ويسير مرشدي في مختلف الطرقات والأزقة ...النظيفة إلى حد ما وتنحدر بميل خفيف لتصريف المياه حتى وصلنا إلى مكان إقامة أسرة رامي . حكم على أبوه بالسجن ١٨ عاماً، وكان قد أمضى ثلاثة أعوام في سجن عسقلان. وتستقبلني الأم بلطف مع ابنتها الصغيرة، ومن الواضح أنها محرجة وخجولة... تحدثت إليها بالعربية دون أن أنجح في تلطيف الجو. لا شك أن ذلك بسبب شكلي وملبسي الذي يختلف عما تعودت هي عليه... نعم تصلهم المساعدة المالية بانتظام. يا للخسارة لم نوفق في خلق خيط

---

١٥٥ وهذا هو ما حدث بالفعل منذ اندلاع الانتفاضة الثانية.

يربط بين مشاعرنا. وفي طريقٍ العودة، طرحت بعض الأسئلة على أسرة معين بسيسو[156]
... كل هذا من زمن بعيد جداً... فيض من الذكريات... لا طعم ولا رائحة للحـــي
الذي يوجد به الفندق، مثل الأحياء الصغيرة التي تعيش فيها البورجوازية المصريـــة.فـــي
الإسكندرية. فالبحر بعيد. وترتدي الفتيات الشابات ثوبـــا يميل لونه إلى الرمادي الكئيـــب
مثل اللون الذي ترتديه الراهبات الكاثوليكيات في الشرق، ويثبت الحجاب حـــول الـــرأس،
ويتدلى على الكتفين. مع أن الحجاب الفلسطيني أفضل من ذلك بكثير : يـــترك لـــيرفرف
بحرية.

زيارة سريعة إلى المستشفى الأهلي: مديره يورغان روزندال... شخصية تتـــوء
بأحمال ثقيلة لا تتوقف لحظة عن العمل لإطلاعنا على ما يجري. ومـــا هـــو الـــذي لـــم
يضيفوه....؟ ولا نعرفه بالفعل الآن ؟ ولكننا استجوبنا في الفندق طبيبة شابة تعمـــل فـــي
المستشفى. وهي الدكتور سوي شاي آنج وتقول لنا مديرة الفندق" *أنها قد تموت جوعـــا إن*
لم نعتني بها". ولدت هذه الطبيبة في ١٩٤٨ في سنغافورة (لا يبدو أنها بلغت ٣٠ سنة من
عمرها)، وهربت من ماليزيا بعد عملية تطهير عرقية... وهي متخصصة في جراحـــة
العظام، تخرجت عام ١٩٨٠ من المعهد الملكي للجراحين في لندن، ثم عينت لعدة شـــهور
خبيرة استشارية في الأمم المتحدة في المستشفى الأهلي،. وطلبت تمديد إقامتها نظرا لعـــدد
الضحايا الكبير الذين في حاجة إلى إجراء عمليات جراحية. ولقد بدأت عملها عـــام ١٩٨٢
عندما كانت في مستشفى صبرا في لبنان، واضطرت إلى أن تعـــالج ضحايـــا الحـــرب.
وكانت حتى هذه اللحظة من المعجبات بإسرائيل... لكنها غيرت موقفـــها بعـــد مذابـــح
صبرا وشاتيلا (أدلت بشهادتها أمام اللجنة الخاصة، لجنة كاهان)، وشهدت على الأعمال
الوحشية التي اقترفت -بلا مبرر- في مخيمات اللاجئين، وفي غزة، واســـتخدام طلقـــات
الرصاص (المطاطية) ضد الأطفال، واستمرار عملية الاستجواب البوليسي في المستشـــفى
...عندما يكون المريضِ تحت تأثير المخدر أو حتـــى عندمـــا يوضـــع علـــى طاولـــة
العمليات... والمضايقات اليومية المنتظمة التي يتعرض لها السكان .... كل ذلك جعـــل
من هذه المرأة الصغيرة الحجم شعلة حارقة... لا شك ... سوف تنهار من الإرهـــاق.
ولا شك أيضاً يحتاج السكان الذين يتعرضون لهذه الصعوبات إلى وجود الدكتورة ســـوي.
وبصعوبة ورغماً عني نصحتها أن تغير الجـــو لبعـــض الوقـــت، وأن تقـــوم بتدريـــب
متخصصين فلسطينيين في جراحة العظام، وأن تقوم بجولة في العواصـــم الغربيـــة، وأن
تقص الجحيم اليومي الذي يتعرض له الفلسطينيون. وتقدم لها مديرة الفندق قطعة الســـمك
المغلفة بالدقيق التي وضعتها جانباً خصيصاً لها.

---

١٥٦ أحد الزملاء الفلسطينيين الذين قبعوا في سجون عبد الناصر واعتنت به مجموعة باريس (أنظر الكتاب الثـــاني)، يعرفه مرافقي بالاسم ولكن لا يعلم إذا كانت أسرته لا تزال مقيمة في غزة اليوم.

الغرب في الستينات والسبعينات مثل (الألوية الحمراء، وبريما لينيا، وبـــادر ماينــهوف، وروتين فراكتيون، وويذر مان ...).

وإرهابيون... لماذا ؟

لأنهم على النقيض من ثوار حركة تحرير وطنية، لا يعيشون في بلد يســـود فيـه الأجنبي... ولا يرزحون تحت نظام ديكتاتوري محلي يرفض حقهم في التمتع بالحريـــات الديموقراطية، وتنظيم أحزاب معارضة شرعية في بلدانهم...

وكان هنري يردد دائما...!!!*هذا الإرهاب الأعمى هو شكل من أشــكل الفاشــية"*.

ويقشعر بدنه لوجود هذه المجموعات المتطرفة التي يديرها متقفون يقفون علـــى أعتــاب الأحزاب الشيوعية والنقابات... واستند إلى ما قاله (إنجلز، ولينين) *"بأنــــها تغــذي نفـاذ صبرها بحجج بيزنطية نظرية..."*

بعد أن عاد هنري إلى باريس من مدينة (ديني) التي أبعد إليها، تحدث إلـــى أحـد الصحفيين العاملين في القناة الثانية الفرنسية، (ولكنه عاد وطلب من الصحفي في صبــاح اليوم التالي أن يرجأ نشر ما صرح به حتى ميعاد آخر)...

وكان ما قاله ... *"لم أخبر أبداً السلطات عن أحد...ولكن بصراحة... لست متــأكدا مما سأقوم به إذا ما اكتشفت وجود أحد الإرهابيين ...!!!"*

عندما أطلعني على الكتاب الذي أدعى أنه من المتعاونين مع الإرهابي (كارلوس[٣١]) ظهرت عليه علامات الحزن، والألم الشديدين...

لم تقم منظمتنا أبدا بشراء أسلحة لحساب حركات التحرير.

وكان موقفا ذكيا :

لم يعرف عن تجار الأسلحة التنظير أو المثالية..!!

يعرضون المجموعات الصغيرة للخطر ليحموا العصابات الكبيرة التي تتولى إنجـاز الصفقات الكبيرة المربحة. وتتطلب هذه العمليات موارد، وإمكانيات ضخمـــة، وعلاقــات قوية مع شبكات مافيا السلاح..! وما لنا وكل ذلك ...

ولم نبلغ أبدا هذا الحجم من الأهمية،إن جاز القول

ولا كنا بهذه القوة.

---

٣١ مرتزق أكثر منه ثوري ...سلمته حكومة السودان إلى فرنسا ، وحكم عليه بالسجن.

ويأتي فايز أبو رحمة رئيس مكتب غزة بآخر الأنباء... اجتمع عشرة من أعيان المدينة الفلسطينيين مع القائد يتسهاك موردوخاي في مقر القيادة العسكرية للإدارة "المدنية" وتحققت بعض النتائج... بل قد ترفع القيود المفروضة على الصيد البحري ويتم تخفيفها. وبالتليفون ...ودون أن يذكر أسمه... عرض أحد الرجال -الذي زعم أنه من الجيش الفلسطيني- أن يتوسط لهم لدى السلطات الإسرائيلية للتفاوض بشأن تحرير الجندي الإسرائيلي آفي سابورتاس مقابل الإفراج عن بعض المعتقلين الفلسطينيين...

تزداد أهمية النشاط النضالي الإسلامي ويحتل موقعاً هاماً إلا أنه يتفادى الصدام المباشر مع السلطات المحتلة (التي تعتبرهم بدورها ثقلاً مضاداً التأثير على منظمة التحرير الفلسطينية). تخرجت كوادرهم من الجامعة الإسلامية في غزة. وبما أن هياكلهم سرية... لا نعلم الكثير عن حماس(حركة المقاومة الإسلامية)، إلا أنها ترتبط بعلاقات معينة مع المتأسلمين في مصر، وأنهم يتلقون أسلحة مهربة عبر شبه جزيرة سيناء (كما كان الحال بالنسبة لنا في سالف الزمن عندما كانت تهرب الأدبيات الماركسية !).

أجبرنا الإضراب وحظر التجوال على قطع زيارتنا للمخيمات الأخرى. ويا للغرابة، فإني أغادر هذا الجحيم السكني الذي يعيش فيه قرابة ٨٠٠ ألف نسمة بأسف شديد. فهناك توجد روح المقاومة ويمكن لمسها . لذلك فهي قادرة على أن تفسر بشكل أفضل السبب في السلوك الذي تنتهجه الدكتورة سوي الذي لا يعتمد على منطق العمل الخيري المسيحي . فهنا المساعدة فورية ، محددة، دون حاجة إلى عقد اجتماعات، ولجان. وأنا بلا وطن ... دون انتماء طائفي أو اجتماعي، لا مسيطر على ... ولا أسيطر على أحد... ومع ذلك لم أشعر من قبل بمثل هذا القرب . إلا أني ارفض بتاتا أن أبرر تأييدي لها: فالعمل يؤسس على موقف مبدئي يلزم صاحبه دون اعتبار آخر... ودون أن نحكم على ما سوف يتمخض عن هذا العمل من نتائج فيما بعد مما قد يؤثر على العملية النضالية من أجل التحرير. ومن يدري... قد نتمكن من تفادي أضرار تصفية الحسابات الداخلية بين الفصائل الرامية إلى الاستيلاء على السلطة.

داخل الخط الأخضر ...

الخميس ٢ مارس

الناصرة. هذا البلد لا يمثل إلا مساحة صغيرة للغاية: تبلغ المسافة من القدس الشرقية حتى الناصرة، عاصمة الجليل الأعلى وعاصمة الفلسطينيين في إسرائيل ١٣٠ كيلومترا، مروراً بوادي جيرزيل[١٥٧]... حيث تنبأ "بانتصار قوى الخير على قوى الشر في المعركة الأخيرة التي سوف تخوضها البشرية في آخر الزمان ...". وكانت الرحلة بالتاكسي رحلة جميلة... وأنا جالسة بالقرب من السائق، أشبع نظري بالمشاهد الخلابة. ويجلس في المقعد الخلفي جان ماري وهو يقلب صفحات ملفاته. ولم يتبق من أفراد المجموعة التي بدأنا بها النشاط سوانا. وها هم الإسرائيليون الذين يعشقون الأشجار وقد انتابتهم حالة من الهيجان المسعور ... يستأصلون أشجار الزيتون واللوز في الأراضي الفلسطينية. وسجلنا حوالي مائة شجرة استأصلت من جذورها تماماً منذ بداية إقامتنا... تحددت المقابلة مع توفيق زياد (رئيس بلدية الناصرة) في مكتبه، في فترة بعد الظهر. ويريد مقابلة جان ماري لكي يستشيره لأنه لا يستطيع الاشتراك في الاجتماع التحضيري للمنظمات غير الحكومية الإسرائيلية. ومكثنا ليلة في الفندق الكبير الجديد المريح، وهو مقام على منحدر التل. ولا يوجد أمامي ما يحجز المنظر الذي أشاهده من شرفة غرفتي في الفندق... وعندما بزغ الفجر... يا لعظمة المشهد..

هبطنا هذا المنحدر في الطريق الموصل إلى وسط المدينة. يسير جان ماري بسرعة أكبر من هنري. وحاولت أن أجاريه في سرعته بسعادة ... "تباً لك! آسف يا جان ماري". سقطت على ظهري بعد أن زلت قدمي على الحصى، كما لو كان الطريق منحدر للثلوج، وكأني أقوم بتزلج على الجليد، وكدت أفقد الوعي من شدة الألم. وقام جان ماري معتذرا بمساعدتي على الوقوف بحذر. وتركزت قوة السقطة على العرقوب، وهذه المرة الألف التي ينكسر أو يحدث فيه شرخ. ولو أني احتطت وارتديت حذاء للجري. ولذلك أتذكر الآن أنه عندما نهبط منحدر مغطى بالحصى لا ينبغي التحرك بدون حساب ... وينبغي أن نتعلم عدم تجاوز الحدود... وما هو ممكن سواء في السياسة أو في المشي...!!! واحتسينا في مكتب رابطه حقوق الإنسان - التي تتكون أساسا من محامين، وتنسقها في الناصرة صديقة قديمة لجان ماري وهي شابة إنكليزية- فنجان

---

١٥٧ يوجد به جبل جيرزيل الواقع جنوبي شكيم أو نابلس وشكيم عاصمة مقاطعة السامرة وهي عاصمة مملكة إسرائيل القديمة وعلى أنقاضا بنيت مدينة نابلس "فلسطين" . ولا يخلط بينها وبين السامراء الواقعة على ضفة دجلة اليمنى وهي عاصمة المعتصم العباسي ٨٣٦ ميلادية أسكن فيها الجنود الأتراك، وسكنت من الألف الخامسة ق.م أي أثناء حضارة سومر، وحرف المعتصم اسمها إلى العربية (سر من رأى) - المترجم.

الشاي الذي تعود تناوله البريطانيون الساعة الخامسة بعد الظهر. وقد ساعدني ذلك وتناولت بعض حبوب الأسبيرين لكي أخمد الأوجاع والآلام وأخفض من درجة حرارتي المرتفعة. وبالكاد أتابع ما يقال حول حدث اليوم السياسي : الانتخابات البلدية. وبخطى بطيئة قطعنا المسافة إلى البلدية. الألم شديد [158]! ولحسن الحظ فإن الأرائك الموجودة في البلدية لينة الملمس. وإذ بتوفيق زياد مشغول في محادثة تليفونية طويلة.

من الغريب أن انتخابات البلديات تحبذ ظهور التيارات المتطرفة... من ناحية اليهود، انتصر الليكود (لأول مرة) على معراخ (العمالي): وسيطر على الجزء الغالب من المدن الكبرى، وتقريباً سيطر عمليا على جميع المدن النامية. وزاد الحزب الأرثوذكسي المتشدد السفرادي من تمثيله في العديد من مجالس البلديات، لا سيما في تل أبيب والقدس، وحصل حزب الشاس على ثلاثة مقاعد، مثله مثل حزب ديجيل حاتوراه، وهو حزب أرثوذكسي متشدد متطرف من الأشكيناز. وتحتفظ القائمة العمالية رغم كل شيء بالأغلبية في القدس، مع أحد عشر مقعداً، أما قائمة اليسار الصهيوني، راتس شينوي، فقد حصل على ثلاثة أو أربعة مقاعد. أما الجانب العربي فالظاهرة الجديدة التي طفت على السطح تتمثل في الاشتراك النشط للإخوان المسلمين في الانتخابات. وإن ظلت سخنين شيوعية... فإن الناصرة مع ذلك لم تحقق القائمة الشيوعية فيها سوى نسبة ٥٠٫٧ في المائة من الأصوات، ونصف المقاعد تعود للقائمة الإسلامية في المجلس البلدي، وفي مدينة أم الفحم ثاني المدن العربية من حيث الأهمية، وذلك في عقر دارهم، وينتصر الإخوان المسلمون فيها على الشيوعيين، الذين كانوا يسيطرون منذ ثلاثة عشر عاماً، كما ينتصرون أيضاً في بلديات أربع قرى وهي (جلجولية، وكفر بارعة، وكفر قاسم، وراحات، وهي منطقة بدوية في النقب). أما القائمة التقدمية، التي كانت صغيرة أصلاً، فقد انقسمت إلى مجموعتين. وينتشر الوجوم في معسكر اليسار: ٧٢ في المائة من الأصوات للإخوان المسلمين في أم الفحم!

ولا أحاول أن أزيد من الضغط على موطن الألم: فالمقاومة التي استمرت لأكثر من أربعين سنة تخللتها الإهانات والمضايقات تضعها في مصاف البطولات. ولا أعتقد بأقل من ذلك. وكما هو الحال في أماكن أخرى... انتصرت الحركة الإسلامية المحلية، بفضل أعضائها الذين يعيرون الاهتمام إلى نشاط السكان وبأحوالهم المعيشية. أما الزملاء الذين استهلكتهم الصعوبات يعيشون كمواطنين من الدرجة الثانية، يتهربون من وعودهم... ويستبدلونها بالخطاب الرنان، ودون تحديث لمواقفهم... ويتحول المندوب المنتخب إلى باشا صغير. يكفينا أن نشاهد صاحب المطعم وهو يلهث منذ أن وصلنا ليقدم لنا خدماته لأننا كنا بمصاحبة رئيس البلدية. صحيح لا بأس من تذوق الجبن الأبيض

---

١٥٨ ومنذ تلك اللحظة وبفضل نصائحك المفيدة يا ... جوانيل، أخفف الآلام باستخدام فولترين.

المشوي الذي كانت تجيد صنعه أمي، وهذه الكنافة التي خرجت لتوها من الفرن تتساب منها القشدة الطازجة (يا هل ترى هل كنت سأتحول شخصية أخرى إذا ما كنت أعيش في نفس الظروف ؟) وجاء إميل حبيبي الكاتب النابغة لتحيتنا. وارتفعت الحرارة والآلام حتى سيطرت على وعيي. وفي حديث انفرادي طلبت من النادل أن يطلب لي تاكسي. وحسب تقاليد الضيافة – وهي تفرض نفسها– على أن أبلغ رئيس البلدية بطلبي ... ونهض الجميع مع رئيس البلدية الذي أوصلنا حتى باب الفندق. يا للعجب ٠٠٠من رقة ولطف الفلسطينيين.

الجمعة ٣ مارس

العرقوب مكسور، وإلا كنت سأشعر بتحسن بعد الصدمة النفسية التي أعقبت السقوط. لا توجد خطورة: هذا النتوء الضامر عظمة لا معنى لها، وليست مرتبطة بشبكة الأعصاب. ولا يتبقى لي إلا أن أتناول أقراص الأسبرين التي أبتلعها بقهوة رديئة. وجاء يبحث عنا في الفندق الراهب المقدس الشرائعي رياح أبو العسل (وكنا أنا وجويس– بناء على طلب من ماتي – قد رافقناه في باريس بسيارتنا). وأنزلنا في تقاطع الطريق المؤدي إلى مطار بن غوريون. وكانت نتائج الانتخابات قد رفعت من حرارتي وعصبيتي إلى أقصى الحدود.

وصلنا بشيء من التأخير إلى اجتماع المنظمات غير الحكومية في إسرائيل، وينعقد اجتماعها كما هي العادة في مكتب زيخروني. وهو مشغول دائماً إلى درجة لا يستطيع أن يشارك في أعمال الاجتماع مشاركة كاملة. ولم يحضر يوسي أميتاي. وأضيف إلى الوجوه المعروفة (يوزي برونشتاين، وإليزا فيلر، ولطيف دوري)، دانييل باتنوس. لا شك أن هذا التواجد تواجد ديناميكي مطمئن ولكنه منعزل ووحيد٠٠٠ الذين تنبؤا بفشل المبادرة كانوا على حق. إلا أني موجودة فقط لتحرير محضر الجلسة لإدراجه في النشرة القادمة التي تصدرها اللجنة الدولية للتنسيق بين المنظمات غير الحكومية من أجل فلسطين. وحددت اللجنة التحضيرية التي شكلت على إثر الاجتماع ٠٠٠تاريخ الاجتماع القادم٠٠٠ في ٤ إبريل، وميعاد المؤتمر القادم٠٠٠ في أول شهر يونيو.!

(مقتطف من جريدة جيروسالم بوست)انتشر الإضراب العام في قضاء بيت لحم للتنديد بوفاة محمد أبو هنية، ١٧ عام، من قرية دار صلاح: ضرب على رأسه حتى تهشمت جمجمته، وكان قد ظل قعيدا ونزيل المستشفى لشهرين مضى. ألقت بعض الدوريات العسكرية الإسرائيلية في منطقة القدس قنابل مسيلة للدموع، وطلقات مطاطية ضد المتظاهرين. كما أطلق الجنود الإسرائيليون النار على ثلاثة فلسطينيين في الخليل وعلى واحد آخر في رام الله. وهدمت الإدارة العسكرية ثلاثة منازل في قرية بيت أمين، واثنان في سنايره، وواحدة في مسفره، الخ ... الخ ...

السبت ٤ مارس

مرة أخرى العرقوب٠٠٠!! هل كسر أم لا٠٠٠؟؟ لن تفوتني المسيرة التي نظمتها شالوم أكشهاف. فهي ليست مسيرة تقليدية: ستنقل مجموعات من الإسرائيليين الوافدين من القدس وتل أبيب وحيفا وبير شيبا واثنين من كيوتسين، إلى مختلف القرى الفلسطينية في الأراضي المحتلة. وهذه مناسبة لإثبات أنه عندما نتحدث عن السلام لا نقابل بسيل من الحجارة. وفي القدس كانت نقطة الالتقاء أمام مركز الشرطة، على الطريق المؤدي إلى نابلس (الحدود القديمة بين إسرائيل والأردن). وعلى بعد ١٠ دقائق بالكاد من الفندق. تصطحبني مارتين إلا أنها لا تظل معي وتغادر. وصلت مبكرة. أقوم بتصوير اللافتات وعليها شعارات مثل "لا لإطلاق الرصاص ! نعم للحوار !" وهو الشعار العام في المسيرة الذي كرر بالعبرية والإنكليزية. السكان من الشباب: أعمارهم تتراوح بين العشرين والأربعين سنة. زوجين عجوزين فقط، بعض الفتيات ٠٠٠ تتراوح أعمارهن بين ثلاثة عشر أو أربعة عشر عاماً.. ألمح بين المنظمين ، يائيل تامير، ورانا نشاشيبي والزوجين كامينار، واقفين مع أحد الصحفيين. ويحلم شارون أن يكمم أفواه الصحافة، وهي حلقة الوصل الوحيدة التي تعكس قضايا الإثنيات اليهودية التي تثيرها المجموعات المختلفة في إسرائيل وفي الشتات، وهي التي تتصدى للقمع الشنيع الذي يصيب من يتجاسر ويرفع رأسه ضد الاحتلال. وبناء على نتائج استطلاع للرأي العام ٠٠٠أجري مؤخرا٠٠٠ توجد نسبة ٦٥ في المائة من الإسرائيليين (بما فيهم العرب) متعاطفين مع السلام. ولا يعني ذلك بالضرورة أنهم يحبذون الحوار مع منظمة التحرير الفلسطينية، فلا تزال توجد نسبة ٢٨ في المائة من المتشددين اللاتساهليين الذين يجبرون السلطات على الالتزام بتطبيق أوامر منع العبور إلى الأراضي المحتلة.

تنتظم الأتوبيسات، والسيارات الخاصة في قافلة. وبالمصادفة: وجدت نفسي في المقدمة٠٠٠ في سيارة لإسرائيلية من أصل فرنسي، تتميز (بشطارة) غير عادية. وتميزنا عن غيرنا الملصقات التي توجد عليها شعارات شالوم أكشهاف ٠٠٠وسلام الآن (بالعربي وبالعبري) عن الراكبين الآخرين. وأصدرت القيادة الموحدة للانتفاضة أمرا للسكان باستقبالنا بحفاوة وود. توقفنا عند نقطة المرور الإسرائيلية. وكان العسكريون قد تلقوا أمرا بعدم السماح لنا بالمرور. ولا يفيد إذا ما حاولنا العبور من نقطة أخرى، فالأمر صادر بالنسبة لجميع نقاط المرور. وعلى ما يبدو قام الجنود الإسرائيليون في رام الله بتشتيت وفد فلسطيني كان في استقبال موكب السلام بإلقاء القنابل المسيلة للدموع. ولكن انتشرت بعض الإشاعات التي تقول بنجاح بعض المجموعات الصغيرة في الالتفاف حول مراكز التفتيش التي تسد طريق الدخول إلى الأراضي الفلسطينية المحتلة وأنهم بالفعل قد انضموا إلى مجموعات الفلسطينيين التي كانت في انتظارهم.

ويبتسم القائد الإسرائيلي الذي يقف في نقطة العبور أمام إصرارنا. ويستخدم رانكوهين في حديثه مكبر للصوت. وألتقط صورة له ... هذه فصيلة النادرة (أصلاً من العراق٠٠٠ هرب من البلاد ليأتي إلى إسرائيل، شارك في عدد من الحروب العربية

الإسرائيلية، وينتمي الآن إلى اليسار، وانتخب نائباً عن حزب الراتس)... يتهم رابين باعتراضه على تنظيم يوم للسلام من بين الـ ٣٦٥ يوم التي تتكون منها السنة وتلقى فيها الحجارة.. وتصفق مجموعة من الفلسطينيين. ويقف ميشيل خليفي فوق سيارة لالتقاط صور الفيلم. نذهب إلى مرآب الأتوبيسات المواجه لباب دمشق، وكان قد أخلته من قبل قوات الشرطة. وتقاسم معي بسخاء الزوجان قطعة السميط بالسمسم (كالذي يباع في القاهرة). أمرنا بالجلوس في حلقة دائرية على الأرض: فالبوليس لا يسمح للخطيب أن يتحدث واقفاً ...! أو أن يصعد فوق حجر. شيء غريب!!. وبعد الاستماع إلى الخطاب (أمر محبط للغاية... لا أعرف اللغة العبرية)، رفعنا عقيرتنا بالنشيد مكررين المقطع العاطفي الذي تمخض عن النضال من أجل الحقوق المدنية للسود الأمريكان (سوف نتغلب سوف نتغلب). ويواصل خليفي التقاط صور الفيلم ...ونسيت تماماً عرقوبي.

الأحد ٥ مارس

وجبة مع جان ماري ومارتين، أقرر أنه لا داعي للاستمرار وصرف مزيد من الدولارات بينما أعيش كمعاقة. وإذ بي في المطار أخضع لعملية استجواب قامت به فتاة شابة وأخرى... وأخرى ... وأخرى تناولت تأشيرة المدونة على جواز السفر (كنت نسيت تماماً المهمة التي كلفني بها ماتي ...مقابلة أبو مازن في تونس). لم أسهل لهم الأمر بالمرة (علماً بأن جان ماري جوبار لم يستطع اللحاق بطائرته المغادرة)... يصيبهن في النهاية الإعياء والملل: سني لعب دوراً، وتذكرة الخطوط الجوية السويسرية... وجهة العودة إلى جنيف ... ياله من أمر صعب أن نبدأ من جديد هذا الإيقاع الرتيب للحياة. ستنهض الدولة الفلسطينية كالعنقاء من الرماد والركام، رغم أن جماهيرها تعاني من صدمات نفسية. ومثلما حدث في فيتنام ... سيتأسف الناصحون من هذه الأفعال الخ ... الخ... ولكن بالله ... ما الذي دفعني إلى الاهتمام من جديد بأشكال النضال هذه التي أكل عليها الدهر وشرب ...!!!

ويعرف المثقفون الإسرائيليون مجتمعهم بأنه مجتمع إنفصامي بسبب (وهذا ما يقولونه) البيئة العربية العدوانية المحيطة. وحتى هذه اللحظة زاد تطورها التقني العسكري المتقدم من غطرستها (حتى بالرغم من صدمة ١٩٧٣ استطاعوا أن يتغلبوا بسهولة في عملية العودة مرة أخرى وبسرعة إلى وضعهم السابق)، ويختلف الوضع منذ حرب لبنان، وهم لا يشعرون بأي راحة نفسية منذ الانتفاضة في الأراضي الفلسطينية المحتلة بوجه خاص،: أسلحة وبنادق ضد حجارة ! ثم ينتابهم القلق ...وماذا بعد !! : فلقد ولّدت عملية الاستيطان الزاحفة ظاهر فاشستية مع وجود هؤلاء المستوطنون المدججون بالسلاح، فقد يصعب السيطرة عليهم (بعد انتخابهم شامير وشارون ... وهي في حد ذاتها ظاهرة مقلقة للغاية). صحيح يمر تكوين وتدريب الكوادر بالضرورة بالكيبوتس، والجيش جيش شعبي، والنظام القائم نظام ديموقراطي، والمجتمع الإسرائيلي أكثر

المجتمعات مساواة في المنطقة. ولكن في داخل إسرائيل أيضا يجعل نفس هذا النظام من العربي مواطناً من الدرجة الثانية، ويخنق مدنه، ويحيطها بمدن إسرائيلية جديدة تطل عليهم من أعلى المرتفعات، وتقوم إسرائيل بالنحر التدريجي لأراضي الفلسطينيين التي احتلتها بالقوة منذ عام ١٩٦٧ وتجزء الأراضي ،وتعزل بعضها عن بعض ببناء مستوطنات جديدة وتوسيع القديمة منها. كل هذا يولد إنفصام حاد في الشخصية داخل المجتمع الفلسطيني. ولا حاجة للبحث بعيدا عن تبريرات وتفسيرات أخرى لاندلاع الانتفاضة الفلسطينية في الداخل.

الشتات ...

باريس، الثلاثاء ٢ مايو ١٩٨٩

تدفقت المشاعر العدوانية بالأمس في شارع الروزييه في باريس –تذوقت هيلين الفلافل لأول مرة – عندما قامت مجموعة من السوقة بالزعيق والصراخ الهستيري... وإلقاء التهم اعتباطا *"بأن منظمة التحرير الفلسطينية نظمت محاولات إرهابية في باريس عام ١٩٨٦"*. تحقيقات إعلامية مزيفة ومحرفة. ولكن تمثل التغطية الإعلامية لممثل دولة – ولو أنها ما زالت في علم الغيب ومتناهية الصغر– حدثا استثنائيا. ومارست منظمات غير حكومية فرنسية الضغط منذ أعوام لكي توافق فرنسا على استقبال ياسر عرفات. وعلى أية حال قام ميتران ببذل مساعي جبارة... صديق إسرائيل، وإنما تعهد في مداخلة له في أول اجتماع في البرلمان في بداية الفترة السبعية لحكمه بضمان إجلاء القيادة الفلسطينية عن بيروت. واشترك مع جورباتشوف، في ١٩٨٦، في مشروع تشكيل لجنة تحضيرية تتكون من أعضاء مجلس الأمن من أجل عقد مؤتمر دولي. وبدون انعقاد هذا المؤتمر، كان الاتحاد السوفييتي وفرنسا سيلقيان مصيراً صعبا... ويلقى بهما خارج الحلبة السياسية في الشرق الأوسط ضرباً بالأقدام بواسطة الولايات المتحدة الأمريكية.

حتى ننجح في تفادي المظاهرة الهامة المناهضة التي بدأت في منطقة إتوال في باريس (تؤيد المنظمات غير الحكومية اليهودية الحوار مع منظمة التحرير الفلسطينية... يا لجسارتهم)، انتقلت مسيرة الترحيب بياسر عرفات التي كانت ستبدأ من ميدان حقوق الإنسان، إلى ميدان دنفير روشرو الذي يوجد به معهد العالم العربي. وتجمع عدد غفير من الناس قبل الساعة السادسة مساء في الميدان. ودفعت إلى الأمام بواسطة جان ماري جوبير... ووجدت نفسي مع هالة الشرف، وأمسك بذراع جان بيرك[١٥٩]، الذي لم أكن قد

---

١٥٩ كان أثناء حرب الخليج يأسف لغياب سياسة عربية تنتهجها فرنسا.

ورئيسة نساء الولايات المتحدة الأمريكية، ودرورا كاس من القسم الأمريكي في المركـــز الدولي من أجل السلام في الشرق الأوسط) والإنكليزية (جون جـاكويز، عضــو اللجنــة التنفيذية لمجلس اليهود البريطانيين)، والفرنسية (إليزابيث بــادنتير وفراســواز فـابيوس كاسترو)، وأيضاً بالطبع بلجيكيات ... وأنا، إلا أني لا أستطيع أن أقول بأي صفة دعيــت إلى هذا المؤتمر: قمت بتطوير البحث الذي سأعرضه في المؤتمر بعنوان "حث المجتمـــع الدولي على التدخل الذي لا غنى عنه من أجل إيجاد حل للصراع الإسرائيلي الفلســطيني" وقد فضلت ذلك على مجرد تقديم شهادتي على ما مضى من نشاط سياسي (ولكن يا تــرى هل كنت محقة في ذلك أم مخطئة ؟).

وكان آخر يوم في المؤتمر ... يوم أحد ...عانينا فيه الكثير. وكان يــوم عمــل مرهق ومكثف. لست أدري كيف ولماذا بينما كنا مجتمعين في المركــز نقــوم بصياغــة ووضع اللمسات الأخيرة لبرنامج عمل مشترك، وننتظر حضور الصحفييــــن المدعويــن للمؤتمر الصحفي لكي نختتم أعمال المؤتمر، ظهر الاقتراح بإصدار بيان سياسي مشــترك. وكلفت حنان عشراوي وناحومي شازان (الأستاذة في جامعة القدس ونائبة رئيس مجلــس النساء الإسرائيليات) بصياغة هذا البيان باشتراك شولاميت آلوني، ونوفا آراد، وشــيمون سوسكيند. وانتقلوا في قاعةٍ في الطابق العلوي، لمناقشة صيغة النص. ولم ينتهوا من هــذا النقاش. ومن بين اللاتي لم يستطعن القيام بأي شيء، وانتابهن القلــق مــن طــول فــترة الانتظار وضرورة الاعتناء بالصحفيين الذين يصلون تباعا ويوجهون كل أنواع الأســئلة الممكنة، مع الصعود والنزول من وإلى الطابق الأعلى، وضرورة اختــلاق موضوعــات جديدة للمناقشة لجذب الصحفيين الإسرائيليين إليها وقد انتابهم شعور بالتشــاؤم. وكــادت الدموع تسقط من الغضب ضد كل هذه الأجهزة: نوفا آراد رفضت أن توقع على النــص الذي يتجاوز موقف حزب العمل... بذكر قيام الدولة الفلسطينية ، أما حنــان عشــراوي فإنها لم تستطع التنازل وتوافق على نقاط مناقشة تتصل اتصالا وثيقاً بالبرنامج السياســي لمنظمة التحرير الفلسطينية. أستطيع تماماً أن أقول الآن فيما أكتب أن من الخطورة بمكان مثل هذا الإصرار على صياغة بيان مشترك بينما التمثيل الإسرائيلي قد بــدأ لتــوه فــي التوسع: حتى لو كان هناك اتفاق على ذلك ... فنحن نواجه بخطورة شيء سيعلن عنــه في وقت لاحق، مما قد يعمل على تفاقم الوضع الآن. ومن رأيي أن هــذه المقـابلات لا ينبغي أن تتظاهر بأنها تقوم بمفاوضات، وينبغي أن ينحصر هدفها الرئيسي في دعم مبــدأ تسوية سياسية للصراع الذي ترعاه منظمة الأمم المتحدة[١٦٣].

---

١٦٣ كنا في هذه اللحظة التاريخية متميزون، بفضل مشروع جورباتشيف، تم التوصل إلى توافق عام في الرأي علــى الصعيد الدولي الذي بدا وكأنه سيعمل بفعالية لحل المشاكل الرئيسية التي تواجه كوكبنا.

حققه بالمقارنة بتصوراته فيما يتعلق بما يسمى "بإسرائيل الكبرى". وكما هو الحال في أماكن أخرى فالكساد هو الشاغل الأول. وتهم في الواقع القضية الفلسطينية المستوطنين اليهود المتعلقين بقمم التلال الواقعة في قلب الأراضي المحتلة [١٧٨]: ويحمل المستوطنون في الضفة الغربية وقطاع غزة السلاح، ويقومون بأعمال الشرطة، ويعارضون كل مشروع لرد الأراضي المحتلة (ويعتبرون أن من حقهم التوراتي احتلال إيرتس إسرائيل بمعنى إسرائيل الكبرى !) ويوسعون من رقعة مستوطناتهم. وكانت هذه هي العقلية السائدة بين "منظمة الجيش السري الفرنسي في الجزائر" وهي العقلية السائدة أيضاً بين صفوف اليمين المتطرف الأبيض في أفريقيا الجنوبية.

وتتراجع... مرشدتنا السياحية مترنحة قليلا وهي من فرقة الإشكيناز ومن الطبقة الوسطى وتكاد تسقط... عندما سمعت عبارة "الحوار" : *مع من ؟ مع الإرهابيين ؟ ولكنهم يتقاتلون فيما بينهم* ! ونوجد في المكان الذي يقيم فيه فيصل الحسيني الذي يدعو للسلام بالعبرية، ومدريد لم يمر عليها زمن كبير . " نحتل الأراضي" ؟ لا نحتلها، "نديرها". ندير منطقة يهودا والسامراة وييشا "غزة بالعبرية". وطوال الزيارات التي يصاحبنا فيها المرشدون نستمع إلى هذا الكلام القديم الذي لا يتغير: "*كانت أرضا صحراوية ... جعلنا منها حديقة، نحن ندمج مهاجرينا وهم يرفضون دمج مهاجريهم، الأمن (في الجولان وفي جنوب لبنان ...) ولهذا نضطر للقيام بعمل ... ومهما يكن من أمر فمن حقنا الوجود في أراضينا التي استعدناها*" . ولا يوجد مكان ولو كان مكانا متناهيا في الصغر إلا ويعيدنا إلى تاريخ اليهود. سلوان ؟ *منابع للشيلوه حيث أقام فيها شعب يفوسيس وهو من اليهود الأوائل في عصر إفراهام، وجعل منها الملك داوود عاصمته*. مدريد ؟ *فإنها مجرد دواعي انتخابية، وللحصول على ائتماننا ماليا أمريكيا*. هكذا طق على قمة الرأس !.

أما الآخرون ؟ فلا يتجاوز عددهم بضعة آلاف يتظاهرون في مظاهرات تنظمها حركة شالوم أكشهاف، وهو بارومتر الروح المعنوية للمجتمع الإسرائيلي. وفي طريق العودة من قرية سلوان ألقيت بعض الأسئلة على المسئول عن سيارتنا ...عن مصير اليهود السوفييت السابقين. ولوح بيديه في الهواء علامة عدم الاهتمام، يقول: "*عددنا قليل جداً ولا يمكننا الاهتمام بهذه العملية، وسوف ترين أنه مع روحهم البيروقراطية سوف يصوتون من أجل الليكود لأنه الحزب الذي ساهم في إحضارهم إلى إسرائيل، وهم رغم ذلك من الكوادر، وبذلك سوف يصبحون على رأس الدولة بعد عدة سنوات*"، هذا ما قاله (٣٤ في المائة من المهاجرين السوفييت جامعيين ومن رجال العلم، أما المافيا الروسية

---

١٧٨ لا ينبغي الخلط بين هذه المستوطنات وحركة الكيبوتس التي ظهرت في القديم على طول نهر الأردن والتي كان الهدف منها ضمان أمن البلاد، ولا مع تلك --التي كانت لأسباب اقتصادية- قد أنشئت على طول الخط الفاصل بين الضفة الغربية وقطاع غزة.

والجورجية التي يتحدث عنها كثيراً والتي تنافس المافيا اليهودية المغربية فإنها لا تمثل إلا أقل من ١ في المائة). ويعتقد البعض أن حركة السلام لا تفيد إلا في راحة بال اليسار وذر الرماد في عيونه . ولكن ينبغي إيعاز هذه الكآبة إلى أحداث حرب الخليج. وإلى وجود أغلبية معادية وأقلية ركنت إلى السكون، وإلى المصرين على الحوار مع منظمة التحرير الفلسطينية من الذين لم يغيروا من مواقفهم أثناء حرب الخليج، والأحزاب المختلطة اليهودية العربية (أربعة نواب شيوعيون ونائب واحد من القائمة التقدمية). ولكن بعد خسارة الأصوات اليهودية، فإنهم يتركون المجال مفتوحاً ليدخل منه المتأسلمون، وينشغل المواطن العربي من الطبقة الوسطى في إسرائيل أساساً بالمهاجرين الذين يتنافسون معه، وليس بمستقبل الأراضي المحتلة. مثل سائق الحافلة في الناصرة، قلعة الحزب الشيوعي الإسرائيلي، الذي استحوذ على فكره نزوح اليهود السوفييت.

وتكسب التيارات المتشددة في منظمة التحرير الفلسطينية الأرض. وبسبب ذكرى سخرية حرب الخليج وبسبب بلوغ السيل الزبى بعد أن استقال جورباتشوف، فإني لم أكن مستعدة نفسياً لمناقشة هادئة صافية لقضايا "الثورة"، و"المقاومة المسلحة"، و"الهدف طويل الأجل". باختصار العودة مرة أخرى إلى المربع الأول. ويصر زميلي من يسار اليسار : لماذا نقيم دولة فلسطينية وهي الأداة التي لن تستفيد منها سوى البورجوازية، وهم لم يفعلوا شيئاً لتأييد الانتفاضة، ولا لتكوين وإنشاء المنشآت، والمؤسسات لتحرير ذويهم من العمل في قطاع البناء في إسرائيل[١٧٩] ولتوسيع المستوطنات، ولا هم خفضوا من تكلفة المنتجات التي حلت محل غيرها أثناء حملة المقاطعة (بيعت كبضاعة إسرائيلية مرة أخرى بعد تغيير علاماتها التجارية). إني أعرف تماماً هذا الكلام الذي يردده المناضلون الواقعون تحت الضغط، وقد أصابتهم قرحة من جراء غياب الوسائل الكفيلة باستمرار حياة السكان من الأهالي. ومنذ مدريد، بدأ هذا التيار في كسب أرضية جديدة له بين صفوف يسار منظمة التحرير الفلسطينية (مثل الجبهة الشعبية لحبش، والجبهة الديموقراطية لحواتمة، والحزب الشيوعي الفلسطيني وحتى بين صفوف فتح) فلقد تبين أن قوى السلام الإسرائيلية غير قادرة على وقف عملية قضم الأراضي الفلسطينية. ويجتذب حماس إلى صفوفه الذين خاب ظنهم ويواجهون المستوطنون المدججون بالسلاح الذين يسدون طرق ومنافذ الدخول إلى غزة، فالواحد أو الآخر يتصرف في إطار علاقات بدأت في إظهار مظاهر التشدد. وبدون المنظمات غير الحكومية المختلطة الإسرائيلية الفلسطينية، مثل سيليم في القدس، التي تتعاون مع الأونروا والهلال الأحمر وتتدد

---

١٧٩ وتنتشر القصة الآتية في إسرائيل: رجل عجوز يهودي يتنزه مع أحد أحفاده الصغار، ويقول له هل ترى هذه البناية، قمت أنا ببنائها بيدي ... هل ترى هذا المتحف الذي يوجد أمامك، وضعت أول أحجاره .. يقاطعه حفيده قائلاً جدي هل كنت عربيا عندما كنت شابا ؟

بل لم ننجح في تنظيم عملية لتوجيه مسار شحنة من الأسلحة إلى أحد الموانئ البحرية الموجودة في أفريقيا الجنوبية...؟!! كان قد تعاقد على شرائها الكونجرس الوطني الإفريقي ANC

ولهذه الأسباب جمعاء...رفض هنري تماماً طلب بوضياء[٣٢] المساعدة في إعداد العمليات الخاطفة... التي قام بها الفلسطينيون فيما بعد لجذب الأنظار إلى قضيتهم، مع إدراك هنري تماما السبب الذي يدعو المناضلين أحيانا إلى القيام بهذه العمليات... وهذا عندما يهدفون إلى كسر جدار الصمت القاتل الذي تنسج خيوطه حول أهداف نضالهم من أجل التحرير.

لن أتسرع في الحكم على الطرق، والأساليب التي يختارها المناضلون الثوار للكفاح ضد السلطات الحاكمة التي تقصف بالقنابل مخيمات اللاجئين، وتخطط لتحطيم القوى المنتجة، وتقذف المناطق الزراعية بالنبالم، وتبيع الأسلحة المتطورة إلى النظم الديكتاتورية، مستخدمين التقنيات الجديدة لدعم قوى القمع، وغسل أموال المخدرات، يمولون،ويدربون أفراد العصابات المسلحة المناهضة للشيوعيين في أفغانستان... وفي نيكاراغوا، وأنجولا ...

وهنا كثيرا ما نجد مجموعات اليسار -التي اختارت ممارسة العنف السياسي لإضعاف استقرار النظم الحاكمة في الدول التي توجد بها حريات ديموقراطية... وهي نظم رغم كل شئ، تفتح الباب للتنظيم، وإبداء الآراء والتوجهات- ولكن هذه المجموعات اليسارية بدورها مخترقة ...حتى أن نشاطها بدأ يتلاعب به هؤلاء الذين كانت تناضل ضدهم[٣٣]،

وأدت العمليات التي قام بها أبو نضال في الغرب- والتي قيل أنها كانت بدعم من الدولة السورية، والعراقية- إلى إضعاف وضع منظمة التحرير الفلسطينية لأنها أثارت غضب الرأي العام الدولي واستيائه... ووقفت ضد القضية الفلسطينية-وحكمت عليه المنظمة فيما بعد بالإعدام- .

لم تُعَرف بعد الأمم المتحدة مصطلح الإرهاب[٣٤]...

---

٣٢ مناضل سابق في جبهة التحرير الوطني الجزائرية هرب من الجزائر عندما وقع الانقلاب العسكري ، وانتهى به المطاف إلى العمل مع أحد المنظمات الفلسطينية المناضلة،واغتالته الموساد في باريس عام ١٩٧٣،نقل جثمانه إلى الجزائر حيث وارى التراب بمظاهر الاحتفال والتشريف. وكان أيضا الرواد الأوائل للمسرح الوطني الشعبي في الجزائر.

٣٣ تكشف تحقيقات قام بها أحد الصحفيين أن الفريق الذي نظم عمليات الألوية الحمراء كان مخترقا ويتكون من عملاء سريين (مجلة كوربيه انترناسيونال، يونيو ١٩٩٢).

٣٤ لا أدل على ذلك من الاجتماع الأخير الذي انعقد في شرم الشيخ حيث تغلبت فيه النظرة الأمنية، وبدا وكأن هذه النظرة قد حلت محل الاهتمام بالأساليب اللازمة للقضاء على الأسباب المتأصلة لنشوء الإرهاب...!.

بالقمع... وبدون الحوار والمتعاطفين معه فلن تقوم قنوات الاتصال على مستوى القاعدة بين الشعبين[١٨٠].

باريس، ١٧ مارس ١٩٩٦

ترعى اليونسكو المنتدى الدولي المعني بمشكلة الوضع القانوني لمدينة القدس، وقام بتنظيم المنتدى شخصيات من منطقة البحر الأبيض المتوسط، وبدأت أعمالها في اليوم الخامس عشر وانتهت مساء اليوم. خصص لقضية الحوار مكان اقتطعه بالمصادفة بعض الذين يشغلهم أحوال المجتمع الإسرائيلي والفلسطيني. ولقد سهل عودة حزب العمل إلى مقاليد السلطة في ١٩٩٢ القيام بعملية المصافحة العلنية الشهيرة في اليوم الثالث عشر من سبتمبر ١٩٩٣ في واشنطن، ولكن استمرار عمليات العنف القاتلة تنفخ في هشيم التيارات السلفية الظلامية في المعسكرين. وكانت صدمة اغتيال إسحاق رابين (يوم السبت ٤ نوفمبر ١٩٩٥، أثناء تجمع من أجل السلام) قام بها شاب يهودي سلفي، إيجال آمير، "من أصل يمني ، كان يدعي" *أن ما فعله ضروري من أجل إنقاذ حياة اليهود المعرضة للخطر، وينبغي أن تتم بيد عضو من أفراد الشعب المختار*" ، وقد دفعت الجريمة المروعة المجتمع الإسرائيلي إلى أن يلتحم ولو مؤقتا. ومن ناحية أخرى أضفت المشاركة الهائلة للفلسطينيين في الانتخابات في ٢٠ يناير ١٩٩٦ بالرغم من مقاطعة القيادات "القوى الرافضة في منظمة التحرير الفلسطينية" (الجبهة الشعبية، والجبهة الديموقراطية وحماس) الشرعية على ياسر عرفات وعلى اتفاقات السلام. كما أن انتخاب حيدر عبد الشافي في غزة فأل طيب لانتصار الديموقراطية الفلسطينية. ولكن سبب المجزرة الرهيبة التي حدثت في العامين المنقضيين[١٨١]– وهذا تبعاً لما صرحت به السلطات الفلسطينية-- فلا تسأل عنها حماس ولكن يسأل عنها قسم متمرد يتلقى تعليماته من الخارج) وكل ذلك أفضى إلى إحياء إستراتيجية "الفصل الدائم". وبالاتفاق على الاستقلال الذاتي للأراضي الفلسطينية،

---

١٨٠ أبرمت اتفاقات أوسلو وهي محاطة بالسرية من على أعلى، دون أن تناقش حتى على مستوى الأفرقة المكلفة بالتفاوض.

١٨١ بدأت المذبحة يوم الجمعة ٢٥ فبراير ١٩٩٤ باغتيال ٢٩ فلسطينياً كانوا يصلون صلاة الفجر في مسجد الخليل، وجرى ذلك تحت قبة البطارقة في الخليل ...قام بها باروخ جولدستاين، الذي انتحر بعد فعلته، وهو طبيب من أصل أمريكي، كان يرتدي زياً لأحد الضباط، وهو من مستوطنة كريات عاربة، رفعه أقرانه إلى مصاف الحكماء. وكان ذلك على إثر عمليات ثارية نظمتها في داخل إسرائيل حماس للثأر من المذابح... وقامت كتائب قسام (وهو اسم رجل دين سوري قاتل الصهيونيون، والفرنسيون، والإنكليز في أعوام ١٩٢٠ – ١٩٣٠)، بعمليات ثأرية، مثل عمليات موجهة ضد الأوتوبيس في أفولا (٦ إبريل ١٩٩٤، ثمانية قتلى)، وفي تل أبيب (١٩ أكتوبر، ٢١ قتيل)، وفي بيت لد (شمال تل أبيب في ٢٢ يناير ١٩٩٥، ٢١ قتيل)، وفي رامات جان (بالقرب من تل أبيب، ٢٤ يوليو، ٥ قتلى)، وفي القدس (في ٢١ أغسطس، ٤ قتلى)، وأخيراً ٤ عمليات في ٩ أيام في فبراير ومارس ١٩٩٦ (ضد أتوبيس في القدس وفي عسقلان وضد مركز تجاري في تل أبيب) مع سقوط حوالي ٦٠ قتيلا ومئات الجرحى.

وفقاً لما نصت عليه اتفاقات أوسلو ٠٠٠ حوصرت هذه الأراضي، وكونت جزائر صغيرة منفصلة الواحدة عن الأخرى، ولم تسلم صلاحيات مدينة الخليل إلى السلطات الفلسطينية، وتلقى الجيش الإسرائيلي إشارة خضراء "لاستئصال التطرف المتأسلم" والدخول إلى هذه الأراضي المفترض أنها محررة من الاحتلال. وقد أثار اختناق السكان الفلسطينيون إلى معاودة ظهور العمليات الثأرية، قام بها شباب تتراوح أعماره (بين ١٥ و ٢٥ سنة)، ومن سكان مخيمات اللاجئين أو من الأسر الفقيرة. ولم يتبق لنا إلا المقابلات.

انعقد مؤتمر القدس في نوفمبر الماضي- كان قد أرجأ من قبل بسبب المذبحة- ولكنه انعقد بالرغم من اعتراض المجلس التنفيذي للمؤسسات اليهودية في فرنسا، واعتراض رابطة فرنسا – إسرائيل وانتقادات سفير إسرائيل في فرنسا (ولم يحضرها مسئولون فرنسيون بالرغم من رعاية اليونسكو لها). ومع ذلك تم التخطيط والاستعداد للمفاوضات المعنية بالوضع القانوني للمدينة٠٠٠ وجاء ذكرها في صلب اتفاقات أوسلو ٠٠٠ التي كان من المفروض أن تبدأ في شهر مايو. وارتفع مستوى النقاش وتنوعت وجهات النظر، مع رغبة المشاركين الإسرائيليين، والفلسطينيين، والأوروبيين، والدوليين التقدم باقتراحات تحوز على موافقة البعض، ولتكتسب القدس وضعها كمدينة عالمية. وقدرت بوجه خاص الشروح التي تقدمت بها سارة كامينكير، العضو السابق في لجنة التعمير التابعة لبلدية القدس، والمداخلة الممتازة التي تقدم بها داني زيدمان ممثل أحد المنظمات غير الحكومية المحلية (إير شالوم). وتدخل فيصل الحسيني(وهو من سكان القدس ويتولى العناية بهذه القضية داخل القيادة) وذلك في آخر فترة أعمال فريق الخبراء: ولست متأكدة تماماً من فهمي لما تستند إليه منظمة التحرير الفلسطينية من خطوط رئيسية، إلا أن الحسيني أزال هالة التقديس التي تحيط بمدينة القدس وأرادها موحدة بدون حدود ولا أسلاك شائكة، مؤكداً بأن الحلول التي تلجأ إلى القوة لن تضع نهاية للإرهاب الذي تؤججه الإهانة التي يشعر بها شعب ما، واليأس الذي يشعر به شباب بلا مستقبل.

ووزعت بعض الوثائق التي تعالج هذا الموضوع على المشاركين في المؤتمر، منها مقال مهم لحنه سنيورة (رئيسة تحرير اليومية الفلسطينية الفجر)، كما يشترك موشى أميراف (مستشار بلدية القدس والعضو السابق في حزب الليكود) وأيضا باحثة نمساوية، سيسيليا ألبين التي تعد أطروحة دكتوراه حول القضية. والموضوع موضوع شائك لأن غالبية السكان التي تسكن القدس الشرقية اليوم من المستوطنين اليهود، إلا أن الفلسطينيين يمكنهم الإعتماد على دعم من القوى الخارجية: العربية والأوروبية والمسلمة والمسيحية، وتأييد الحكومات والشعوب وجميعهم يعتبر المدينة تراث ثقافي." *القدس لنا، ينبغي أن تتحد، وأن تعود إلى جميع سكانها، وأن تظل مفتوحة أبوابها للجميع، وأن تصبح عاصمة السلام*"، وهذا ما يصرح به نداء لغوش شالوم / كتلة السلام، وهي منظمة غير حكومية (ينبغي دعمها تماما) يمثلها في المؤتمر يوري أفنيري وهو في أتم صحة مثلما كان عليه منذ ٢٠ سنة مضت.عرض علينا ملخصا للمؤتمر ٠٠٠ واستمعت له أنا وإيلان هاليفي

(عضو منظمة التحرير الفلسطينية ومندوبه في الدولية الاشتراكية). وحقاً سعدت جدا للقائه، وأن أتابع المناقشات مع جيرولد، وسيلفي، وابنهم لوران الذي يغلي بالثورة. إلا أن اللايقين ما زال يهيمن ويحلق فوق رؤوسنا: القدس الشرقية معزولة عن بقية الأراضي منذ ما يقرب من ثلاثة أعوام. وفقط ٠٠٠يعتبر نجاح تعبئة الرأي العام هو العامل الفعال القادر على معالجة حالة عدم المساواة القائمة بين القوى المتصارعة المختلفة.

***

الخاتمة

أصابت الأزمة الجزائر في بداية الثمانينات بعد الانخفاض الحاد في سعر برميل البترول وأعترف رسمياً بحدوث الأزمة في ١٩٨٦: ووصل سعر البرميل في فبراير إلى ١٢ دولار ... وامتدت طوابير الانتظار أمام متاجر المواد الغذائية للحصول الاحتياجات الأساسية من(بن،وسكر،وزيت)٠واتجهت المؤشرات الصناعية إلى أدنى درجة من الانخفاض، ونادى الخطاب السياسي بإعادة الهيكلة الاقتصادية التي كان من المفترض أن تؤدي إلى ظهور نموذج جديد للتنمية. واتجهت كل المؤشرات هبوطاً مع تزايد البطالة، وعكست التوجهات الإقليمية وجود قوة اجتماعية نشطة... وفقدت الانتخابات محتواها وأطلق العنان للعنف. دون أن يوجد تفسير للمذابح الشنيعة التي أحيطت بجو من السرية والكتمان لا يمكن النفاذ إليه... هل هو إرث من العصر الكولونيالي ؟ هل هو حرف لسلطة مسيطرة ولّدها الكفاح المسلح ؟ هل هي نزعة للعودة إلى حالة من النقاء الأسطوري!!.

ويحدد المراقبون السياسيون بدء التصدع ومركز الشرخ في المناطق الحضرية... عندما حدث تمرد أكتوبر ١٩٨٨ ... الذي ردمته بعنف قوات حفظ النظام... وأعقب قمع التمرد بسبب ندرة المواد الضرورية اضطهاد النقابيين، والمعارضين الآخرين لخيار اقتصاد السوق. وأفضت الأزمة إلى اعتراف قانوني عام ١٩٨٩ بشر بقرب نهاية نظام الحزب الواحد. ونجد من بين الأحزاب المعترف بها، ظهور جبهة التحرير الوطنية في رداء جديد بعد فصل مسعدية، وحزب جبهة القوى الاشتراكية الذي كان حتى ذلك الحين محظوراً، وهو حزب حسين آية أحمد، مع ظهور حزب جديد، وهو حزب جبهة الإنقاذ الإسلامي الذي يقوده أحد الأعضاء القدامى في جبهة التحرير الوطني، عباس مدني... والشاب علي بلحاج، اللذان سعا إلى تجنيد أنصارهم من بين الشباب الذي يتردد على المساجد. وكسبت جبهة الإنقاذ الإسلامي جولة الانتخابات الأولى عام ١٩٩١ (تلتها في الترتيب جبهة التحرير الوطني ثم جبهة القوى الاشتراكية) مع ملاحظة أن نسبة الامتناع عن التصويت بلغت ٥٠ في المائة. وبدعم من النقابيين، واليسار الشيوعي وتيارات أخرى[١٨٢]، ألغى الجيش الانتخابات، وحظر نشاط جبهة الإنقاذ الإسلامي، وألقي بقادته في السجون وصدرت ضدهم أحكاما بالسجن [١٨٣]. وهنا بدأت حرب أهلية قاتلة، وتكونت

---

١٨٢ من تجمع معسكر " المستأصلون"

١٨٣ أطلق سراحهم عام ٢٠٠٣ بعد أن قضوا مدة العقوبة التي بلغت ثلاثة عشر عاماً.

مجموعات الإرهابيين التي لا سيطرة لأحد عليها. حرب استمرت قرابة عشرة أعوام... عقد بأكمله من الزمن!! دفع السكان فيه ثمناً باهظاً [١٨٤] بما فيهم المثقفون [١٨٥].

جرت محاولات من أجل وضع نهاية لهذا الكابوس، ولا سيما المحاولة التي تمثلت في المطالبة بعودة محمد بو ضياف من منفاه في المغرب، ولكنه اغتيل بدوره. كما تكونت أيضاً ميليشيات شعبية مسلحة من الأهالي ساندتها السلطة من أجل حماية قراهم. ودفع الإرهاب الأسر لهجر أراضيها حتى تتجمع مرة أخرى في أماكن المعسكرات الفرنسية القديمة لتجميع المواطنين. وأجتمع أخيراً عام ١٩٩٥ أنصار الحل السياسي في روما بمبادرة من الطائفة الكاثوليكية لسانت أوجيديو. ومثلت - وهذه أول مرة في العالم العربي- الأحزاب شخصيات سياسية مثل عبد الحميد مهري من جبهة التحرير الوطنية، وحسين آية أحمد من جبهة القوى الاشتراكية، وبن بيلا من أجل الحركة الديموقراطية الجزائرية وظهرت أيضا أحزاب جديدة، وحزب العمل ذو التوجه التروتسكي الذي تساهم فيه لويزا حانون، وحزبين إسلاميين وهما النهضة، وعلى نحو خاص تماماً جبهة الإنقاذ الإسلامي مما يمثل سابقة في العالم العربي. واشترك في هذه الاجتماعات رئيس رابطة حقوق الإنسان علي يحيى عبد النور. ولقد أعد المنبر الموحد عرضا للسلام قابل للتفاوض ...تم التوقيع عليه بعد سبعة أيام من المناقشات، إلا أن السلطات رفضته كما رفضه أيضاً "المستأصلون".

ومع ذلك لم تؤد التجربة إلى ظهور إمكانات جديدة... ما عدا تجديد فترة رئاسة الدولة، وموافقة الجيش أو اختياره للرئيس. وروج الرئيس عبد العزيز بو تفليقه سياسة "التوافق الأهلي" مع المتأسلمين مما عمل -على أية حال وبنجاح- على تخفيض المعارضة المسلحة، وحولها إلى عمليات مشتتة لجماعات متشرذمة. إلا أن المشاكل اليومية (زادت حدتها من جراء سلسلة الكوارث الطبيعية التي ضربت البلاد في الأعوام الأخيرة) خلقت جوا يجسد الافتقار إلى وجود مشاريع للمستقبل ... ولا تزال هذه المشاكل تقض مضاجع أغلبية الشباب الذي لا يفكر إلا في شيء واحد وهو مغادرة البلاد. وهذا هو الحال في كل مكان آخر ؟ ولا ينبغي أن نركن إلى هذا القول... ولكن الجزائر غنية بمواردها المعدنية، وبأحيائها الجميلة في المدن ...وأنها تؤمن للشركات المتعددة الجنسية عملية الاستغلال بدون التعرض إلى أي مخاطر في المناطق الصحراوية في

---

١٨٤ ١٥٠ ألف قتيل

١٨٥ وقد نشطت في باريس "لجنة دولية للتضامن مع المثقفين الجزائريين" تأسست في مايو ١٩٩٣ برئاسة عالم الاجتماع بيير بورديو استمرت في نشاطها أثناء هذه السنوات القاتمة السواد مستندة إلى منبر ينادي بالسلم المدني. وقام مؤسسو هذه اللجنة "فاني كولونا، وماري فيرول، وكاترين ليفي، وجان ليكا، ومحمد حربي ..." وعددا أخرا من المناضلين النشطين الذين انضموا إليهم منهم "جان لوي إيرست وأنا " بتنظيم حملة للمناداة بتحقيق سلم مدني، وأخذت على عاتقها في باريس حل المشاكل الخاصة بالذين استطاعوا أن ينجوا بحياتهم من أتون المجازر.

جنوب البلاد، وتوفر كمية من النفط تباع على نحو جيد منذ انتهاء الحرب الثانية ضد العراق... حوالي ثلاثين دولار للبرميل ! (أما في السودان... يخلي الجيش المناطق المحاذية لآبار البترول من سكانها، باستخدام الإرهاب، لضمان هذا التأمين ! وفي نيجيريا... وهي من المنتجين الآخرين الكبار للنفط، تتعايش مجموعات من الناس بفضل بيع كميات نفط في السوق السوداء بعد أن ينقبوا خطوط أنابيب البترول مما يتسبب في حدوث انفجارات وسقوط قتلى !) ولكن لم تقم بعد الحركة المناهضة للعولمة بمعالجة مسألة استغلال النفط. ويتضح جليا مصلحة الدولة، والشعوب في ضمان استغلال، وبيع منتج يمثل ربحية عالية، بشرط فرض التزام على شركات النفط فيما توقعه من عقود مع الدولة المنتجة لتخصيص نسبة من الربح لتمويل مشروعات تنموية تديرها مباشرة لصالح جماعات السكان.

ورغم أن أرض فلسطين التاريخية خالية من النفط. وكاد الصراع الإسرائيلي الفلسطيني أن يفقد زخمه وعنفه بعد التوقيع على اتفاقات أوسلو التي صادق عليها في واشنطن في ١٣ سبتمبر ١٩٩٣ رئيس الولايات المتحدة الأمريكية، بيل كلينتون... ثم شاهدنا المصافحة التاريخية بين رئيس الوزراء الإسرائيلي، إسحاق رابين، ورئيس منظمة التحرير الفلسطينية الرئيس ياسر عرفات، وبذلك استطاعت القيادة الفلسطينية وعلى رأسها ياسر عرفات في العودة إلى فلسطين في أول يوليو ١٩٩٤. ونجحت أسلو ٢ المبرمة في واشنطن في ٢٨ سبتمبر ١٩٩٥، في مد نفوذ السلطة الفلسطينية الذاتية التي بدأت في قطاع غزة ثم شملت الضفة الغربية . ولكن كل ذلك لم يمنع من تعثر العملية في ذلك الوقت بسبب الاستمرار في زرع المستوطنات الإسرائيلية في الأراضي الفلسطينية بل اتسع نطاقها بلا توقف، ثم جاءت العمليات الثأرية الفلسطينية التي أصابت المدنيين الإسرائيليين، مما قوى من ساعد حركة الاستيطان في الأراضي الفلسطينية. ولم يجرؤ إسحاق رابين وهو جنرال مخطط استراتيجي قادر على اتخاذ مواقف متسقة مع الواقع على الوقوف أمام المد الاستيطاني، خوفا من اشتعال نيران حرب أهلية في اسرائيل. غير أنه نجح مع ذلك في خلق تجمع هائل لدعم اتفاقات السلام الإسرائيلية /الفلسطينية في ٤ نوفمبر ١٩٩٥ .

وعندما انتخب الفلسطينيون عن طريق مجلسهم التشريعي الذي أسس في يناير ١٩٩٦ ياسر عرفات رئيساً للسلطة... لم يكن قد سيطروا بعد في مارس ٢٠٠٠على أكثر من ٤٠ في المائة من مساحة الضفة الغربية. وأصبحت الحياة اليومية للفلسطينيين بوجه خاص غير محتملة (بسبب الاحتلال، وتوسيع نطاق المستوطنات، وقضم الأراضي، والاستيلاء على المياه ...) أما بالنسبة للإسرائيليين فإنها أصبحت أيضا بدورها غير محتملة (بسبب العمليات الثأرية).

وحاول بيل كلينتون -الذي اهتم شخصياً بمحاولة التوصل إلى حل للصراع- اللجوء إلى الضغط . وفي يوليو ٢٠٠٠ أصر على اجتماع يهودا باراك، وياسر عرفات في كامب ديفيد من أجل التوصل إلى تسوية نهائية. وبعد إنقضاء أسبوعين من المناقشات،

تعثرت المفاوضات٠ وأدت زيارة آربيل شارون في ٢٨ سبتمبر ٢٠٠٠ إلى ساحة المسجد الأقصى إلى اندلاع الانتفاضة الثانية. واستأنفت المفاوضات رغم ذلك، ولكن بصورة غير رسمية، وذلك في طابا من ٢١ حتى ٢٧ يناير ٢٠٠١. وكان بوسعها أن تؤدي إلى توقيع اتفاق ٠٠٠ إلا أن الانتخابات الإسرائيلية الوشيكة أوقفت العملية. وامتنعت القيادة الفلسطينية حتى عن ممارسة الضغط على أصوات الفلسطينيين في إسرائيل. وفي ٦ فبراير أنتخب آربيل شارون لرئاسة الحكومة، ورفض تماما ما تمخض عن أوسلو. وهو عضو من أعضاء الليكود٠٠٠ حزب ينادي "بإسرائيل الكبرى" الذي يدعمه المستوطنون، واعتبر شارون هذه الاتفاقات غير مقبولة في حد ذاتها، بينما وافقت القمة العربية المنعقدة في بيروت في ٢٨ مارس ٢٠٠٢ على اعتماد المبادرة السعودية لوضع خطة للسلام تأخذ بعين الاعتبار اعتراف جميع البلدان العربية بإسرائيل في مقابل انسحاب الأخيرة من الأراضي المحتلة في ١٩٦٧.

وفي أعقاب الحرب التي شنتها كل من الولايات المتحدة الأمريكية، وبريطانيا العظمى ضد العراق (الذي وجه إليه اتهام حيازته لأسلحة دمار شامل)٠٠٠ قام الرئيس جورج دبليو بوش باقتراح"خارطة للطريق". علماً بأن هذه الوثيقة قد اشترك في إعدادها كل من الولايات المتحدة الأمريكية، والاتحاد الأوروبي، وروسيا، ومنظمة الأمم المتحدة، وأعلن عنها يوم ٣٠ إبريل ٢٠٠٣ وكان من شأنها أن تفضي إلى إقامة دولة فلسطينية مستقلة صالحة للبقاءفي٢٠٠٥؟ صالحة للبقاء ؟ ٠٠٠ ولكن منذ انتخاب ٠٠٠وإعادة انتخاب شارون، عرف الفلسطينيون الاحتلال العسكري مرة أخرى لأراضيهم، ونهب المؤسسات التي أقامتها السلطة بمساعدة الأموال التي تسلمتها من الجماعة الأوروبية.

وتحت ضغوط خارجية، وداخلية تم تصحيح انفراد الشخصية السلطوية في القيادة الفلسطينية عندما انتخب رئيس للوزراء. ووقع الخيار على محمود عباس (أبو مازن)، وهو نصير الحوار مع الإسرائيليين منذ السبعينيات. وباتفاق مع قيادة السلطة الفلسطينية، تم اعتماد خطة بوش التي تحدد خطوات إجلاء الجيش الإسرائيلي عن الأراضي الفلسطينية المحتلة منذ اندلاع الانتفاضة. وانتهى الأمر بموافقة شارون "على خارطة الطريق" معلقاً تنفيذها على تحقيق "أربعة عشر تحفظا".

ولم تترتب أية نتائج فورية٠٠٠ وكان شهر يونيو ٢٠٠٣ بوجه خاص من الأشهر التي انتشر فيها القتل: الدائرة الدموية للاغتيالات المستهدفة بواسطة الإسرائيليين/وعمليات الثأر الفلسطينية بدأت مرة أخرى في ١٠ يونيو ولم تتوقف . ويشير استطلاع جديد إلى أن ٦٧ في المائة من الإسرائيليين يحبذون انسحاب الجيش الإسرائيلي من الأراضي الفلسطينية المحتلة. بل لم يتوان شارون عندما ألقي خطابه أمام أعضاء الليكود عن استعمال مصطلح *كيبوش أي (الاحتلال) !!*. أما الضغوط الأمريكية فقد فعلت فعلها. ونجح بوش في الجمع بين شارون وأبو مازن في اجتماع عقد في واشنطن، ووافقت كل من حماس والجهاد الإسلامي، -عشية زيارة جونديزا رايس لمحمود عباس (في أريحا يوم السبت ٢٨ يونيو ٢٠٠٣)- على أن تعلن (من طرف واحد) ٠٠٠توقف العمليات

العسكرية لمدة ثلاثة شهور (هدنة)، والهجمات الفلسطينية المسلحة (كانت أساساً عمليات ثأرية) موجهة ضد العسكريين، والمدنيين الإسرائيليين، في إسرائيل، وفي الأراضي الفلسطينية المحتلة. ومن اللافت أن هذه أول مرة يقوم فيها قادة المنظمات الراديكالية (الذين أشاروا في برنامجهم على ضرورة إخلاء أرض فلسطين التاريخية من جميع اليهود)، بإعلان هدنة. ولعبت أربعة عناصر في إنجاح المفاوضات السياسية: المقاومة التي مارسها المجتمع المدني الفلسطيني ضد الاحتلال، وفشل مشروع الكفاح المسلح الفلسطيني، وأيضا بسبب وطأة عبء الصعوبات اليومية التي يواجهها السكان منهوكي القوى، وبسبب ضغوط مارستها مؤسسات المجتمع المدني على حكامها. وهذا بشرط توقف دائرة عمليات القتل، والاغتيال الإسرائيلية المستهدفة، والعمليات الثأرية الفلسطينية.

ولا تنحصر القضية في إعداد كشف حساب المؤيدين، والمعارضين ... ولا في كشف الدوافع الخفية وراء الخطاب الذي يتمسك به البعض أو البعض الآخر. وإنما تتعلق المسألة بتحقيق حقوق الشعوب التي عرفها المجتمع الدولي. ولقد أصدرت منظمة الأمم المتحدة القرار القاضي بتقسيم أرض فلسطين التاريخية إلى دولتين، وصادقت على إقامة الدولة اليهودية. وبينما تعترف لإسرائيل بحقها في الأمن، ترفض الأمم المتحدة مبررات إسرائيل لاحتلال الأراضي الفلسطينية التي غزتها في حرب ١٩٦٧ (قطاع غزة والضفة الغربية، والقدس الشرقية). كما أن مبدأ التقسيم، والحدود التي وضعت لدولة فلسطين القادمة قد قبلها أغلبية الفلسطينيون، والإسرائيليون، غير أنها رفضت من جانب المتأسلمين الفلسطينيين، والمستوطنين الإسرائيليين الذين زرعوا في الأراضي الفلسطينية المحتلة، وهللوا خلال انتفاضة الأقصى عند بناء الجدار الفاصل على الأراضي الفلسطينية المحتلة.

ووضعت لجنة رباعية "خارطة الطريق "، وقدمها بوش وبلير ... بينما اندلعت الحرب ضد العراق[١٨٦] : ولأول مرة تتحدد معالم صريحة ستؤدي إلى وضع نهاية للاحتلال الإسرائيلي، وإلى إقامة دولة فلسطينية صالحة للبقاء في وثيقة يؤيدها المجتمع الدولي بالإجماع، بما في ذلك الولايات المتحدة الأمريكية... وثيقة تنص صراحة على الخطوات المؤدية إلى وضع نهاية للاحتلال الإسرائيلي، وإقامة دولة فلسطينية صالحة للبقاء. ولكن توقفت العملية عندما استقال رئيس الوزراء الفلسطيني محمود عباس في ٦ سبتمبر ٢٠٠٣ . وتفيد الوثيقة، ومحضر اجتماع طابا[١٨٧] كأساس لعمل المناصرين

١٨٦ أعلن بلير –في كلمته أمام البرلمان البريطاني– بقوة اشتراكه في هذه المسألة وطلب من جمهوره أن يحمله مسئولية تنفيذ هذا المشروع وإنجاحه.

١٨٧ ذكره مؤلف شارل امبرلان: بعنوان" الحلم المحطم" تاريخ فشل عملية السلام في الشرق الأدنى–١٩٩٥– ٢٠٠٠ دار فيار ٢٠٠٠
وحتى نتبين الطريق، من الضروري الإشارة إلى مؤلف الآن جريش، ودومينيك فيدال" المفاتيح المائة للشرق الأدنى، وهي صيغة منقحة ، ومستكملة نشرت في كتيبات الجيب، باريس ٢٠٠٣

لوضع نهاية للصراع. واعتبارا من ٢٧ يونيو٢٠٠٢ وقع كل من الإسرائيلي آمي أيالون قائد بحرية سابق، ورئيس سابق لجهاز المخابرات،باشتراك الفلسطيني ساري نسيبه من النخبة الجامعية، وأحد أفراد عائلة هامة في القدس على "إعلان مبادئ". وتوجه هذا الإعلان إلى مؤسسات المجتمع المدني ...ووقع عليه حتى اليوم ما يربو على ١٠٠ ألف لكل من الفلسطينيين، والإسرائيليين .

ويعلم مناصرو الحوار، والحل التوفيقي أنه لا يوجد طريق آخر. ولن يؤدي عنف الدولة الإسرائيلية، والعمليات الثأرية الفلسطينية إلا إلى إطالة قائمة القتلى. بلا داع. وسوف تطرح المشكلة إن ظلت على هذا الحال على كل جيل من جديد... وكان هنري كورييل على حق : ففي حالة الصراع الإسرائيلي/ العربي ثم الإسرائيلي/ الفلسطيني ...يتلخص الموقف الثوري الوحيد في الحوار، وبعد نصف قرن من الحروب، والانتفاضات الفلسطينية التي أعقبت إقامة دولة إسرائيل أصبح جليا ما قاله هنري، فضلا أنه في مصلحة التغلب على أعناق الزجاجة التي تسد طريق تنميتهم، وأن هذا بالفعل في مصلحة الحركة الوطنية الفلسطينية تحقيقا لبناء دولتها، وفي مصلحة الحركة الوطنية الإسرائيلية مع توجهها نحو آفاق أخرى غير عسكرة المجتمع.

وفي أوروبا -التي أعيش فيها منذ ما يقرب من ربع قرن- أنهت الدولة/ الأمة في القرن التاسع عشر، حروب الغزو الكولونيالي، وأشكال العنف التي وصمت جبين القرن العشرين. كما أدت هزيمة النازية، وتقدم الديموقراطية في أوروبا إلى تحبيذ بناء الدولة الاجتماعية.وقد نجحت من ناحية أخرى حركات التحرير الوطنية في العالم الثالث -التي عبأنا أنفسنا للمساهمة في دعم نضالها - وهذا بلا جدال في تحرير الشعوب من السيطرة السياسية، والعسكرية المباشرة للقوى المهيمنة.

إلا أن هذا التحرر بني على قاعدة وطنية، دون محاولة جادة لإحداث تغييرات اجتماعية عميقة. ولقد تبين في هذا البلد أو ذاك عدم كفاية المعايير الثقافية سواء كانت (اثنيه، أو لغوية، أو دينية ...) . أما الحروب الوطنية، والمذابح، ونقل وترحيل السكان، وبناء الحواجز ... فإنها لم تفد في المحافظة على كيان وطني مبني على أساس أثني. وتناضل اليوم المنظمات غير الحكومية الممثلة لمؤسسات المجتمع المدني الأوروبية، والدولية على أساس توسيع قاعدة الدعم لاجتذاب مزيد من المواطنين.

وقد مست أيضا الأزمة الاقتصادية التي بدأت في أعوام السبعينات، والثمانينات سكان الدول ذات الاقتصاديات المهيمنة، وكذلك الدول ذات الاقتصاديات التابعة، بما في ذلك إسرائيل، والأراضي الفلسطينية المحتلة. ولقد استوعب مواطنو هذا الكوكب، وحركاتهم السياسية فحوى هذه الرسالة... ويسعون حثيثا لاكتشاف أساليب جديدة يقترحونها لإحداث عولمة من نوع آخر، مع تحول أنظارهم نحو المستقبل... متجاوزين قصور آفاق الإطار الوطني المحدود.وفي حالة إسرائيل وفلسطين قد يكون مستقبلهما مشروطا بوضع نهاية للاحتلال، وبالتالي الصراع نفسه ...في إطار منظمة الأمم المتحدة، وبمشاركة فعاله من المواطنين الإسرائيليين، والفلسطينيين ...

ولقد تبين من المقابلات التي أجريت مع مناضلي المنظمات غير الحكومية ما حققوه من نجاح أثناء الانتفاضة الأولى عندما استطاعوا المحافظة على/ واستمرار تشغيل الخدمات العامة، كما يلقى على عاتقهم عبء الاشتراك بفاعلية في الحوار. إن ترك الحبل على الغارب للقادة وحدهم لم يؤد بعد انقضاء عقد من الزمن – منذ التجربة التي بدأت في أوسلو- إلا إلى تحويل المنطقة إلى برميل بارود مشتعل.

ولقد انتابتني طوال مدة إعادة قراءة وثائق الماضي/الحاضر دائما مشاعر قوية: فلقد توفى كثير من المناضلين المناصرين "للحوار بين الأعداء !"، وسقط كثير منهم ضحية الاغتيال مثل حمامي، والسرطاوي، وكوربيل إلا أن من تبقى منهم ظل نشطا، كما انضم إليهم مناضلون جدد .كما هو الحال مع يوري افنيري الذي لا يكل، ولا تفتر همته أبدا، وقد نشرت المنظمة غير الحكومية التي يقود نشاطها في أغسطس ٢٠٠١ مشروع اتفاق سلام بعد التشاور مع شخصيات فلسطينية، وها هي مبادرة جديدة تجمع بين شخصيات فلسطينية هامة (ياسر عبد ربه) و (يوسي بيلين) من اليسار الصهيوني الإسرائيلي قد تحققت في الأردن في ١٢ أكتوبر ٢٠٠٣، وتنادي المبادرة بوضع نهاية للعمل بإستراتيجية الخطوة خطوة، والشروع في حل شامل لجميع المشاكل والقضايا. وقد نشر النص بالإنكليزية [١٨٨] كما عرض على المواطنين الإسرائيليين ووافق عليه (إمران ميتزنه) ودعمه الفلسطيني(مروان برغوثي). وكان من المنتظر التوقيع عليه في جنيف في أول ديسمبر ٢٠٠٣ . ولقد أعرب كل من سيجي فليجيل الرئيس الفخري للطائفة الإسرائيلية في زيورخ، وتوني بلير رئيس الوزراء البريطاني، ومن الولايات المتحدة الأمريكية كولين باول من إدارة بوش عن موافقتهم على نص المبادرة. ونعتقد انه مع الانتقال من اقتراح إلى آخر لا شك أننا سنصل إلى تحقيق توقعات الأمم المتحدة في قيام دولتين على أرض فلسطين التاريخية.

جنيف في١٣ سبتمبر٢٠٠٣ .

---

١٨٨ يمكن العثور على النص على صفحة لموند ديبلوماتيك على شبكة الانترنيت:
www. monde diplomqtique. Fr/cahier proche-orient 910414

رغم استمرار الحوار والمناقشة مدة خمسة عشر عاماً، إلا أن الاعتراف القانوني الدولي الذي حصل عليه الكونجرس الوطني الأفريقي، ومنظمة التحرير الفلسطينية داخل المنظمة الدولية يدل على أن المجتمع الدولي أصبح يفرق بين الحركة المسلحة من أجل التحرير، ونشاط المجموعات الإرهابية.

الأولى تؤيده، وتدعمه الجماهير، وهو يمارس لأسباب ضرورية، وبسرية ضد المحتل الأجنبي (حالة جبهة التحرير الوطني الجزائرية) أو ضد ديكتاتورية محلية (الحركة التحريرية التي قادها كاسترو ضد الديكتاتور باتيستا)

من يستطيع أن ينكر ذلك...؟

وقد جاء هذا النشاط في وقته، وكان الهدف منه بناء الدولة القومية المستقلة.

أما المجموعة الثانية... المجموعات الإرهابية فهي تمارس العنف السياسي كشكل وحيد للنشاط، والعمل السياسي...

وتهدف المجموعات اليمينية إلى إقامة أركان الدولة القمعية، أو "استعادة عظمة، ومجد الأمة..."

وتلك من اليسار المتطرف تهدف إلى بناء مجتمع بدون دولة... لأن النخبة، حسب تقديراتهم[٣٥]، تخون حالما تتولى مقاليد السلطة...!!

وبصورة عامة طبعاً: كان إرهاب اليسار في السبعينيات أكثر تعقيدا.

كانت العمليات التي نفذتها الألوية الحمراء، وبريما لينيا، تمثل ردا على إستراتيجية -المحافظة على استمرار التوتر- التي نفذها اليمين المتطرف، واستجابة أيضا لرغبة الوقوف ضد كبار أصحاب العمل الذين كانوا يلجئون بدورهم إلى العنف.

كما نادت هذه التيارات أيضا بمطالب اجتماعية، وجندت بعض أعضائها من أوساط عمالية، مما دفع الشيوعيين الإيطاليين إلى تعميق تحليل العلاقات التي تمارسها الطبقة العاملة تحت ظل الديموقراطية البرجوازية...

واعتبرت النقابات هذه الحركات حركات مناهضة للثورة، وأعلنت ضدها الإضراب، احتجاجا على ممارستها العنف السياسي.

كيف يجرؤ جورج سوفير ويزعم انتمائه إلى مهنة الصحافة دون أن يكون لديه إمكانيات للوصول إلى مصادر المعلومات...؟ مما حدا به إلى الإدعاء أو التجاهل بأن أعضاء قيادتنا كانوا إما من المتعاطفين المسيحيين أو من الشيوعيين...

---

[٣٥] لم تظهر بعد في ذلك الوقت عمليات إرهابية يرتكبها إرهابيون متأسلمون.

الملاحق والصور

بمناسبة الذكرى العشرين لاغتيال هنري كورييل

رسالة من الحزب الشيوعي الفرنسي
بمناسبة لقاء لإحياء ذكرى هنري كورييل،
والشهادة على ما جرى

كان مبعدا من مصر ، بلا وطن، مطرودا من إيطاليا، شخص غير مرغوب فيه في فرنسا، حيث أقام "بدون أوراق شخصية" تحت المراقبة المشددة، ومع ذلك حمل هنري كورييل بين جنباته روح مضيافة، برزت من خلال موقفه التضامني ، وأكثر من ذلك من خلال ما تحلى به من روح أممية

...لقد كان هنري شيوعيا.

ومع ذلك ينبغي أن نعلن بصراحة ...أن حزبنا لم يفهم في الخمسينات، أو لم تكن لديه الرغبة في فهم من يكون هنري كورييل ، وارتاب منه. وتغيرت جذريا فيما بعد تقديرات الحزب الشيوعي الفرنسي بشأن هذا المناضل الكبير.

ولكن الضرر كان قد حدث...

وارتفع جدار من عدم الفهم استمر مدة طويلة بين هنري كورييل، والشيوعيين الفرنسيين

• نحن المسئولون عنه

• ونحن نأسف لذلك .

وكان من الضروري أن نصرح بذلك اليوم بمناسبة الذكرى العشرين على اغتياله.

لقد شرع الشيوعيون الفرنسيون في إعادة النظر في تاريخهم، برغبة صادقة للكشف عن الحقيقة بكل جلاء. ولذا ففي سياق هذا الفهم نحيي ذكرى هنري كورييل مؤسس الحزب الشيوعي السوداني، ومن مؤسسي الحزب الشيوعي المصري، ومنظم عملية التضامن الثمينة مع جبهة التحرير الوطني الجزائرية ، ومع الشعب الفلسطيني ، وشعوب منطقة الشرق الأوسط، وأيضا مع جميع من يناضل من أجل الاستقلال، وقد دفع حياته ثمنا لهذا الالتزام الاستثنائي.

ونود أن نؤكد أيها الأصدقاء، والرفاق الأعزاء، المقربون له بأن الحزب الشيوعي الفرنسي يسعده أن يكون بينكم للاحتفال بذكرى هنري كورييل. كفاحه كفاحنا. ويواصل هذا الكفاح في عالم اليوم، بما يوجد فيه من اضطهاد، وأزمات، وحروب، ولكن أيضا بما فيه من مقاومة، ونضال، وآمال.

وسيظل الفكر الشيوعي، والهدف الشيوعي حيا أبدا، وضروري.

نتقدم إليكم بمشاعر التضامن الأخوي

٣٠ مايو ١٩٩٨

بيان ١٢١

إعلان حول الحق في رفض الخضوع للخدمة العسكرية في حرب الجزائـــر(٤ سـبتمبر ١٩٦٠)

بدأت حركة هامة جدا في الظهور في فرنسا، وأصبح من الضروري أن يحاط الرأي العام الفرنسي والدولي بما يدور بعد أن أخذت الحرب الدائرة في الجزائر منعطفا يدعونا إلـــى إعادة النظر، ورفض نسيان عمق الأزمة بعد مضي ستة أعوام على اندلاع الحرب.

ويتزايد عدد الفرنسيين الموضوعين تحت المراقبة، والمسجونين، والمحكوم عليـهم لرفضهم الاشتراك في هذه الحرب، أو لأنهم سارعوا إلى مد يد العـــون إلـــى المقـاتلين الجزائريين. وهم الذين حرف الخصوم من طبيعة موقفهم، وخففـــوا أيضـا مـــن حـدة معاناتهم، بل ساهم في ذلك أيضا هؤلاء الذين كان يتوجب عليهم الدفـاع عنـهم، وتظـل دوافع هؤلاء بصورة عامة غير مفهومة. بينما لا يكفي أن يقال أن هذه المقاومـــة ضـد السلطات العامة هي مقاومة مشروعة ومحترمة. لأن اعـــتراض النـاس الذيـن مسـت كرامتهم، وذلك في التصور الصحيح للواقع يتجاوز السياق الذي نشأ فيه، ولذا فمن المـــهم الاهتمام به مجددا مهما كانت النتائج المتمخضة عن الأحداث الجارية.

ويستمر كفاح الجزائريين دون لبس أو غموض سواء بـــاللجوء إلـــى الأسـاليب الحربية، أو الدبلوماسية ... إنها حرب تحرير وطني من أجل الاستقلال. ولكن ما هـــي طبيعتها بالنسبة للفرنسيين ؟ وهي لم تهدد أراضي فرنسا أبدا. بل فضلا عن ذلك : تشـــن هذه الحرب ضد أفراد شعب زعمت الدولة أنهم فرنسيون، ولكن ينـــاضل الجزائريـــون بدورهم حتى يلغى هذا الزعم.

بل لن يكفي أن نصف هذه الحرب بأنها حرب غزو، وحرب إمبريالية، تصاحبـــها العنصرية. فهذا هو الحال في كل الحروب، وقد ينجم عن ذلك نشر اللبس والغموض.

وقامت الدولة في الواقع باعتماد قرار يمثل انتهاكا أساسيا ... وهذا عندما عبـأت طبقات كاملة من المواطنين بغرض وحيد ألا وهو ما وصفته بنفسها بأنها مجـــرد عمليـــة للشرطة ضد سكان مضطهدين، ولكن تبين أن السبب الذي دفع هؤلاء السكان إلى الثـــورة كان للمحافظة على كرامتهم، وهو مطلب أساسي، فضلا أنهم طالبوا في النهاية بالاعتراف بهم كجماعة مستقلة.

وبما أن هذه الحرب لم تكن حرب غزو، ولا حرب "دفاع وطني" ولا حربا أهلية، لذلك أصبحت حرب الجزائر شيئا فشيئا عملا يقوم به فقط الجيش، وفئة معينة منه ترفـض التنازل والتراجع أمام عصيـــان، بينمـــا تعـــترف السـلطة المدنيـــة بانتـــهاء، وانـــهيار الإمبراطوريات الكولونيالية في كل مكان، وأصبحت على استعداد للاعتراف بما آل إليـــه الوضع.

ويتولى اليوم، ومن حيث الأساس الجيـــش... وبإرادتـــه إدارة عمليـــات القتـــال الإجرامي، اللامنطقي، كما يتصرف هذا الجيش في إطار سياسي تدفعه إليه قياداته العليـــا بصورة علنية وعنيفة، وخارج كل إطار مشروع، وبذلك يخون الأهداف التي كلفتـــه بـــها

الأمة، ويورط،كما يعرض الأمة لمخاطر الانحراف، وذلك عندما يجبر المواطنون- بناء على أوامر- على الاشتراك في عملية تآمرية أو مذلة.

هل يستدعي الأمر مرة أخرى أن نذكر أنه بعد إنقضاء خمسة عشر عاما على تدمير النظام الهتلري فإن العسكرة الفرنسية، بمقتضى متطلبات هذه الحرب وتداعياتها قد نجحت في استعادة العمل بأساليب التعذيب، وجعلتها مرة أخرى مؤسسة قائمة في أوروبا؟

وفي مثل هذه الظروف رأى كثير من الفرنسيين ضرورة مراجعة المفهوم التقليدي للقيم والواجبات .

ولنا أن نتساءل ما هو مضمون مفهوم المواطنة والإخلاص للوطن، عندما تتحول في سياق معين إلى مجرد خنوع مشين؟ ألا توجد حالات يصبح فيها رفض الخدمة العسكرية واجبا مقدسا وتعني " الخيانة" الاحترام الشجاع للحقيقة؟ كما أن الجيش يؤكد عصيانه وتمرده العلني أو الضمني ضد المؤسسات الديموقراطية، ويشترك في هذا المجهود من يستخدم الجيش كأداة للهيمنة العنصرية أو الأيديولوجية، ويتخذ بذلك العصيان والتمرد ضد الجيش طابعا ومفهوما جديدا؟

ولقد برزت حالة من الإدراك والوعي في بداية الحرب. وعندما طالت الحرب أصبح من الطبيعي أن تتبع حالات الإدراك الواعي تحديدا ظهور مواقف متزايدة تعلن رفض الخضوع، والهروب من الجندية، فضلا عن عمليات توفير الحماية، وتقديم العون للمقاتلين الجزائريين. وهي حركات حره ظهرت، وتطورت على هامش جميع الأحزاب الرسمية، وبدون مساعدتها. وأخيرا ورغم التنصل والتنكر، وأيضا خارج الأطر، والشعارات المعدة مسبقا، ولدت مقاومة، مبنية على أساس إدراك واعي تلقائي يبحث عن تصميم أشكال للعمل السياسي، ووسائل نضال على صلة وثيقة بالوضع الجديد الذي تعرفت عليه الجماعات السياسية، وصحف الرأي سواء على بصورة سلبية أو بنوع من التردد المذهبي، أو بناء على مواقف ذات نزعة وطنية مسبقة أو أخلاقية، لكي تتفادى عدم الاعتراف بالمعنى الحقيقي، والمتطلبات الحقيقية للوضع القائم.

تعتبر الشخصيات الموقعة فيما بعد أن كل واحد منها عليها أن تتحدث معترضة على أعمال لم يعد من الممكن وصفها على أنها ذات طابع عام، أو مجرد مغامرة فردية، وعلى اعتبار أنها بنفسها، وفي محل الآخرين وحسب إمكانياتها أن من واجبها التدخل، لا أن تقدم النصح لمن عليه أن يتخذ قرارا شخصيا في مسائل بمثل هذه الخطورة، ولكن عليها بالأحرى أن تطلب من الذين يصدرون أحكاما ألا ينزلقوا في المتاهات، والتباس العبارات والقيم ... وهذا بالإعلان عن تأييدهم لما يلي:

- نحترم ، ونعتبر أن هناك مبررا لرفض حمل السلاح ضد الشعب الجزائري.
- نحترم ونعتبر أن هناك مبررا لسلوك الفرنسيين الذين يعتقدون أن من واجبهم تقديم العون والحماية للجزائريين المضطهدين ، وذلك باسم الشعب الفرنسي
- إن قضية الشعب الجزائري، الذي يسهم بطريقة حاسمة في هدم النظام الكولونيالي هي قضية كل الأحرار
- وقعت ١٧٩ شخصية فرنسية من جميع مناحي الحياة الاجتماعية، والثقافية الفرنسية على هذا البيان في ٢٩ سبتمبر ١٩٦٠

إعلان مبادئ

(وقعه آمي إيلون، وساري نسيبه في ٢٧يوليو ٢٠٠٢)

١- دولتان لشعبين: اتفق الطرفان على أن فلسطين هي الدولة الوحيدة للشعب الفلسطيني، وأن إسرائيل هي الدولة الوحيدة للشعب اليهودي.

٢- الحدود: يجري الاتفاق على حدود دائمة على أساس خطوط ٤ يونيو١٩٦٧، والقرارات الصادرة عن الأمم المتحدة، والمبادرة العربية للسلام المعروفة باسم (المبادرة السعودية).

* تجرى تعديلات الحدود الإقليمية على أساس تبادل منصف، ومتفق عليه(١:١) وفقا للإحتياجات الحيوية لكلا الطرفين بما في ذلك إيلاء النظر للاعتبارات المتصلة بالأمن، والسلامة الإقليمية، والعوامل الديموغرافية.

* تقام وصلة بين المنطقتين الجغرافيتين للدولة الفلسطينية بين الضفة الغربية وقطاع غزه.

* بعد إقامة الحدود المتفق عليها، لن يسمح لأي مستوطن البقاء في الدولة الفلسطينية.

٣- تصبح القدس مدينة مفتوحة، وعاصمة الدولتين. ويضمن للجميع حرية التعبد، والوصول الميسر للأماكن المقدسة.

* توضع الضواحي العربية في القدس تحت السيادة الفلسطينية، وتوضع الضواحي الإسرائيلية في القدس تحت السيادة الإسرائيلية.

* ولن يمارس أي طرف من الطرفين السيادة على الأماكن المقدسة، وتعين الدولة الفلسطينية حارسا للحرم الشريف لصالح المسلمين. وتصبح إسرائيل حراسا للحائط الغربي لصالح الشعب اليهودي. ويظل العمل بالأمر الواقع فيما يتصل بالأماكن المقدسة المسيحية.

لن تجرى أي أعمال تنقيب في /أو تحت الأماكن المقدسة دون اتفاق متبادل.

٤- الحق في العودة : اعترافا بعذاب، ومعاناة اللاجئين الفلسطينيين، يقوم المجتمع الدولي، وإسرائيل، والدولة الفلسطينية بالشروع في/ والإسهام في إقامة صندوق دولي لتعويضهم.

* يعود الفلسطينيون فقط إلى دولة فلسطين، ويعود اليهود فقط إلى دولة إسرائيل؛

* يعمل المجتمع الدولي على التعويض من أجل تحسين أحوال اللاجئين الذين يودون البقاء في محال إقامتهم الحالية في بلدان الاستضافة، أو الذين يرغبون في الهجرة إلى بلدان ثالثة.

٥- الدولة الفلسطينية دولة منزوعة السلاح على أن يضمن المجتمع الدولي أمنها، واستقلالها.

٦- نهاية الصراع " بناء على التنفيذ الكامل لهذه المبادئ وتنتهي جميع المطالبات من الجانبين، وكذلك الصراع الإسرائيلي/الفلسطيني.



الجدار العازل

المصدر : جوش شالوم

وهم إذن من حيث المبدأ معارضين للإرهاب.

ولكن كيف حدث هذا ؟

ما هو مصدر كل هذا الحماس، والإصرار على نشر كتاب سطحي دون المتوسط من حيث المستوى؟!! -وصفته مجلة فيليج فويس النيويوركية- (بأنه أدب رخيص) ألفه كلير ستيرلنج الذي ارتبط بفريق الكسندر هيج[٣٦] ، ومع ذلك ترجم الكتاب إلى كل لغات (العالم الحر...)[٣٧]!!، مكررا شطحات سوفير عند تناول قضية كوريل،

أنها مجرد حملة مغرضة للتعتيم الإعلامي...

وتحاول أيضا أن تلصق صورا شيطانية بحركات التحرير، وهي نفس الحملة المغرضة التي قامت بها في ذلك الحين وسائط الإعلام، لازدراء حقيقة معاصرة... -لا يمكن دحضها- وهي أن انتصار هذه الحركات كان بفضل الدعم الذي تلقته من الاتحاد السوفييتي... ولما لا ؟!!! وهي القوة الاشتراكية العظمى.

وحارب فريق -هيج- سياسة التعايش السلمي، واتهمها بنقل عدوى منهج التفكير الماركسي إلى عقول المسيحيين عندما عارضت الكنائس تدخل الولايات المتحدة الأمريكية في أمريكا اللاتينية.

وكان سوفير يدافع في ما يكتب من مقالات عن نفس هذه التنظيرات السيئة النية.

أما في فرنسا، وفي عصر اتهم فيه رئيس الدولة الفرنسية إسرائيل في يونيو ١٩٦٧بإضرام نار العمليات العسكرية العدوانية المتعمد، واتهم أيضا الولايات المتحدة بإلقاء القنابل على فيتنام، وهو الرئيس الذي جال في كل أنحاء العالم مناديا باستقلال الأمم من سيطرة القوى العظمى، وهو الذي التقى في حفل كبير في تاهيتي برفاق تشيه جيفارا الهاربين من بوليفيا، مدافعا عن موقع بلاده على خريطة هذا الكوكب عندما أيد (مقاطعة كيبيك الحرة)...

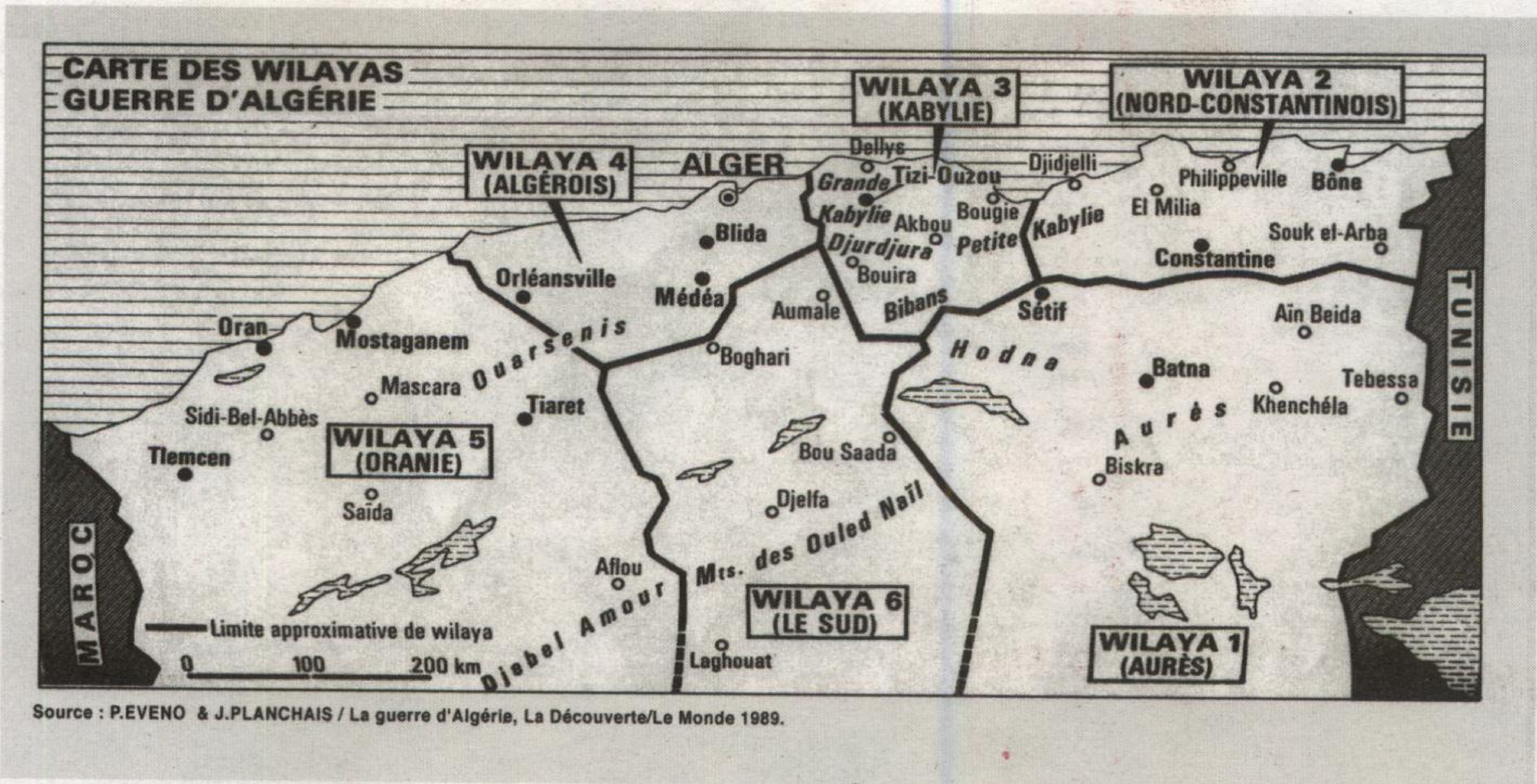
انتهت هذه الحقبة الزمنية بانتهاء نشاط الرئيس ديغول (وأسفنا على ذلك كثيرا) !

وبدأنا في ظروف التوتر التي كنا نناضل فيها منذ ١٩٧٤، في اقتفاء الأثر الذي تركه لنا (قتلة) هنري في رسالتهم الموقعة (دلتا)[٣٨] . وهي من الآثار التي يستدل عليها منطقيا...

من مؤسسة الحزب الجمهوري، وينتمي إلى فريق إدارة رونالد ريغان بعد انتخابه لمنصب الرئاسة عام ١٩٨١.

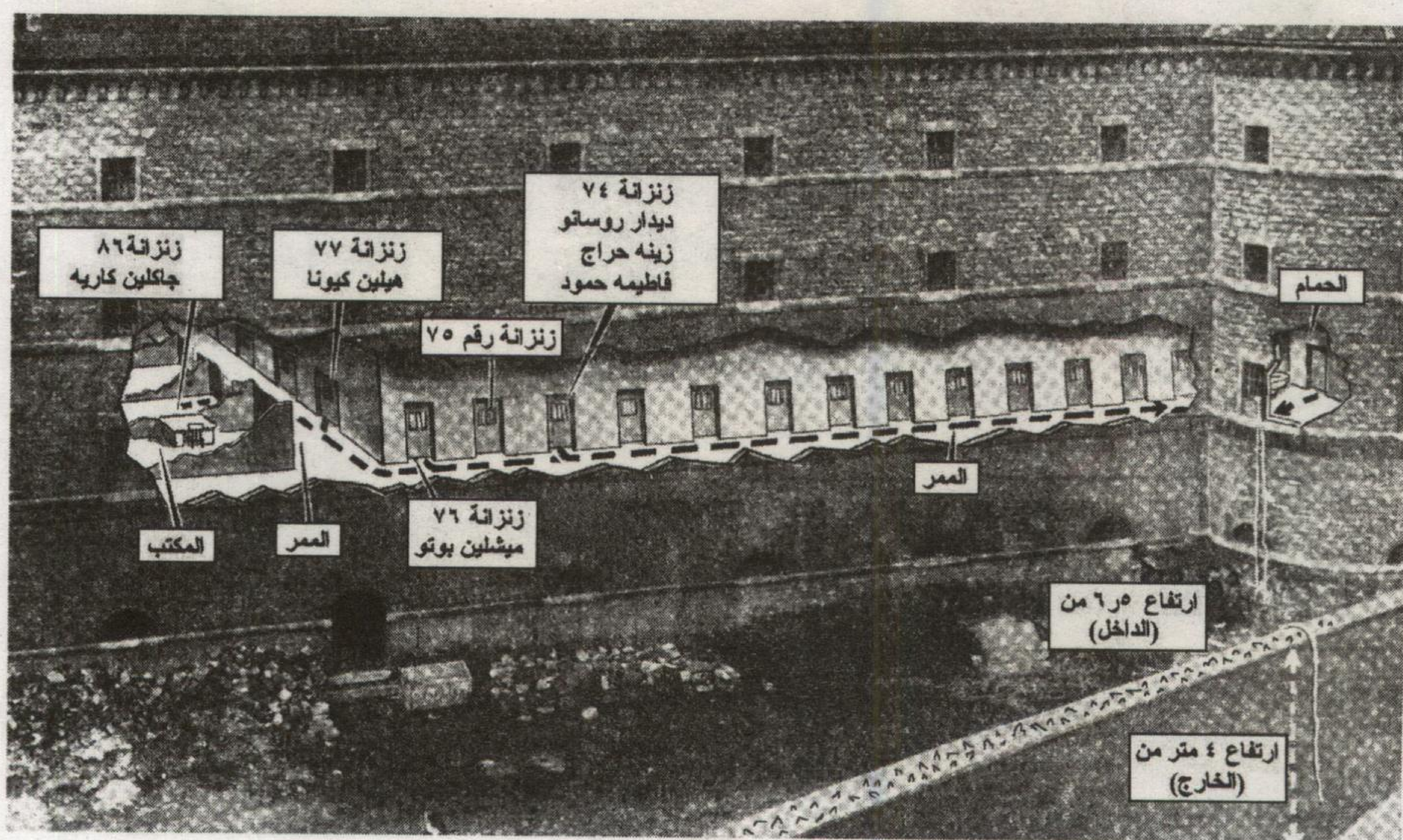
٣٧ شبكة الإرهاب - الحرب السرية التي يشنها الإرهاب الدولي، هولت، رينهارت آند وينستون، نيويورك ١٩٨١.

٣٨ أعضاء سابقين في OAS (مجموعة إرهابية كانت تنادي بالجزائر فرنسية) المترجم.



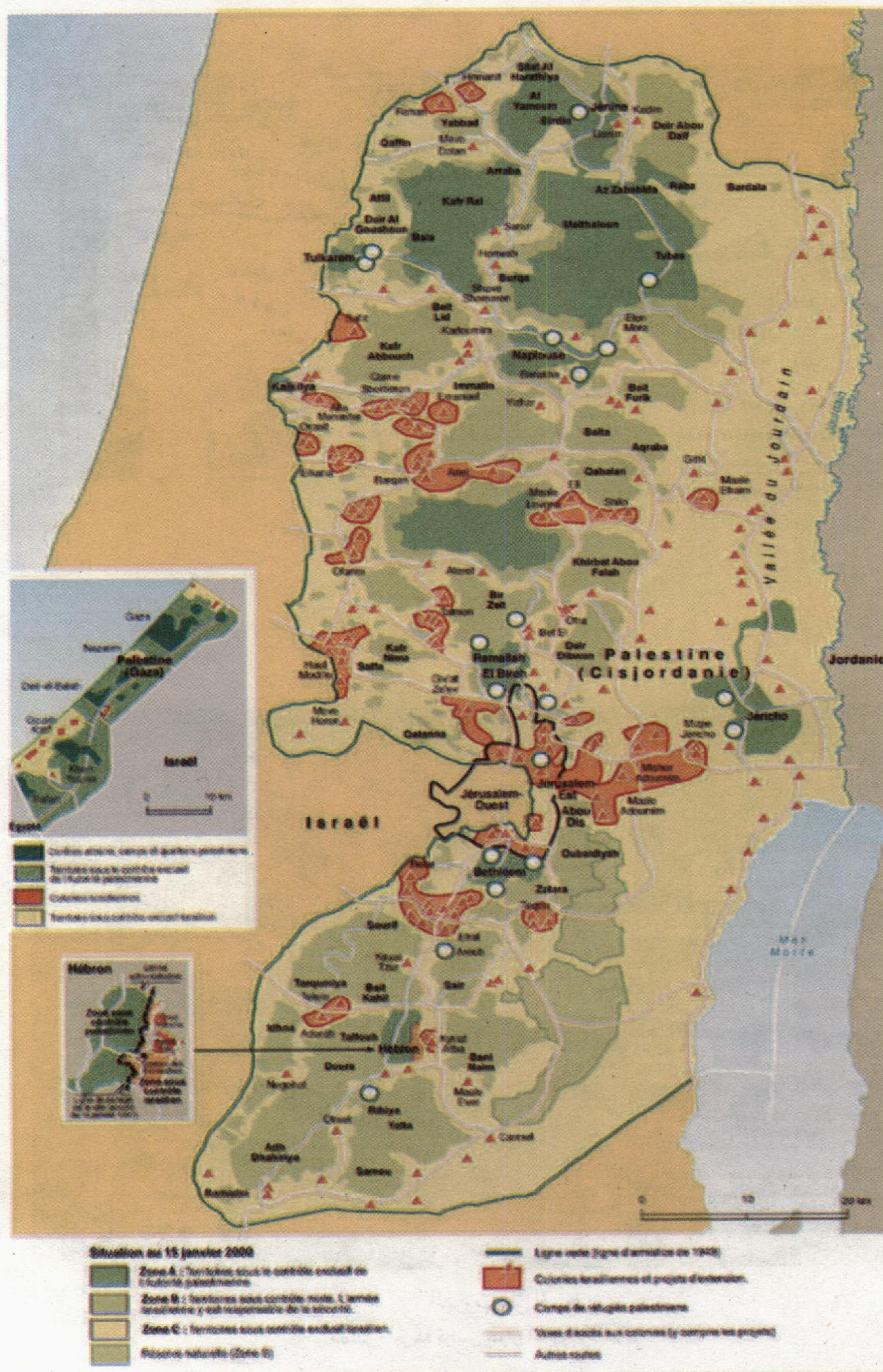
حرب الحزائر : الولايات

مصدر : حرب الجزائر دار النشر لاديكوڤرت



الهروب من السجن

مصدر : جريدة فرانس سوار ٢٦ / ٢٧ فبراير ١٩٦١



فلسطين المجزئة

مصدر : لموند ديبلوماتيك



الانتفاضة الأولى : شعارات فصائل المقاومة

تصوير : ديدار فوزي



زمن السلام

مؤتمر صحفى مشترك مع فيصل الحسينى

تصوير ديدار فوزى



مجموعة من النصوص المحررة بعد اغتيال زميلها، وصديقها هنرى كورييل. مؤلفة كتاب «رسائل إلى حبايبى» جمعتها من واقع مجالات النضال الأساسية التى شارك فيها هنرى. نشر المؤلف دار لامرتان باريس ١٩٩٧.

تتركز القضية المحورية فى نضال ديدار فوزى، وهنرى كورييل حول المساهمة فى تحرير الشعوب من الاحتلال الأجنبى، والسيطرة الكولونيالية.

مولودة فى القاهرة فى ١٩٢١ من أسرة برجوازية متوسطة يهودية. بدأت نضالها فى مصر أثناء الحرب العالمية الثانية، وواصلت هذا النشاط فى باريس لدعم نضال الشعب الجزائرى، ثم انطلاقا من موقع إقامتها فى الجزائر لمدة عقدين من الزمن، لدعم شعوب أخرى، وبالاشتراك دائما مع هنرى كورييل، واتجه نشاطها النضالى إلى دعم التيار المؤيد لإقامة الدولة الفلسطينية، فى إطار قرار الأمم المتحدة لتقسيم فلسطين التاريخية إلى دولة يهودية، ودولة عربية. واعتمد هذا النضال على ما يعرف بمبدأ «تحقيق الحوار بين الأعداء».

ولقد حاز هذا النشاط النضالى الذى انتهى بعقد اتفاق بين عرفات/ورابين على اهتمام الشيوعيين اليهود من مصر أعضاء الحركة الديمقراطية «حدتو» اللاجئين إلى فرنسا بسبب الصراع العربى/الإسرائيلى.

يا له من كتاب غريب؟ كأنه مرآة للواقع مسلطة على مقاطع معتمة من التاريخ الرسمى... يجمع فى سلة واحدة وصف، وذكريات، ومشاعر جارفة، كل ذلك مختلط بتحليلات، ومشاعر شخصية، وشواهد على حقائق عارية، مستقاة من ثنايا ما يكتنف الكل من ظلام... كل شيء واضح، وكل شيء غامض فى هذا السرد؛ وهذا هو أفضل الكلام لوصف هذا العمل، لأنه فى نهاية المطاف يمثل خيط آريان الأسطورى الذى يربط ديناميكيا الزمن العابر للحياة، والعابر لعالم المتوسط، بل فيما يتجاوز ذلك.

وهو سرد يكشف بحرارة الرجال، والنساء، والشعوب فى حركتها، وصور الأوغاد، والأبطال...

لعبت ديدار فوزي دورا رئيسيا فى الشبكة التي نظمها هنرى كورييل لدعم جبهة التحرير الوطنى الجزائرية، وعدد كبير من حركات التحرير على نطاق العالم...

كانت نزيلة فى سجن لا بيتيت روكيت، حيث نجحت فى إنجاز عملية هروب مثيرة... كما نجحت ديدار فوزى أيضا على ما يبدو فى تقديم شهاداتها دون محاولة للتنظير الذى كثيرا ما يصبح غير مفهوم فى خضم التعقيدات التى تربط كل العناصر التفصيلية فى حياتنا مع التاريخ الجماعي للبشر. وقد يكون هذا هو السبب فى أنها قد تركت لدي أثرا عميقا، بينما أصابنا عمى رأسمالية العولمة البراقة. ولذا يقدم لنا هذا الكتاب فهما لوجه آخر لهذه العولمة: وهو وجه مقاومة للقمع، والاضطهاد، والظلم، والاستغلال، الذى يتلمس طريقه عبر آلاف المتناقضات فى محاولة لتنسيق حركته، وتوسيع قاعدة تضامنه.

مارك أوليفية - مقتطفات من مجلة ريشيرش انترناشيونال العدد ٥٠ - خريف ١٩٧٧



دار العالم الثالث
٣٢ ش صبرى أبو علم - باب اللوق - القاهرة
جمهورية مصر العربية
ت و فاكس : ٣٩٢٢٨٨٠
Email: Elguindimohamed@hotmail.com

نعلم أن اليمين المتطرف عرف كيف يمارس إستراتيجية التوتر في البلـــدان التـــي تمتعت بنظم برلمانية، واعتبرها بلدانا غير قادرة على المحافظة على معايير الأخلاق فــي المجتمع...!!!

ودفع الخوف قوى اليمين- بسبب التوقيع على البرنامج المشترك عـــام١٩٧٣ بيـــن الاشتراكيين، والشيوعيين الفرنسيين- إلى الاعتقاد بأن البرنامج يحمل في طياتـــه تغييـــرا جذريا في هياكل المجتمع...

وكان ذلك من الأسباب التي شجعت المنادين بممارسة الإرهاب السياســـي علـــى قطع الطريق على اليسار.

وكانت التوقعات تشير إلى انتصار اليسار عشية انتخابات مارس ١٩٧٨...

وهي من الأسباب التي أكدت الإشاعة التي تقول بضرورة التنفيذ الفوري العملـــي لبرنامج الاغتيالات السياسية المعد مسبقا...

وعندما انتصر اليمين في هذه الانتخابات- خلافا لما كان متوقعا-

لم يتسع الوقت لوقف تنفيذ هذا البرنامج... ودارت عجلة الاغتيـــالات...وســـقطت الضحايا...

أفلم نتوقع ذلك ... فلقد سبق اغتيال هنري في شـــهر ديســـمبر ١٩٧٧ اغتيـــال حارس مقر - الودادية الجزائرية في أوروبا-

وعقب ذلك اغتيل بيير غولدمان[٣٩] في سبتمبر ١٩٧٩.

وتناولت عمليات التصفية شخصيات لم يترتب على اغتيالها إثـــارة الـــرأي العـــام الفرنسي...!!!

جزائري من هنا... وشخص بدون وطن من هناك... وآخر مغامر ثـــائر عـــرف نفسه على أنه -يهودي بولندي ولد في فرنسا- وهكذا... كلها صور مغرضة، ومحبوكة بدقة، تستخدمها مجموعات النازيين الجدد في وقت هبوط زخم الحركة العمالية.

ومع ذلك، وبسرعة كبيرة أصبحنا على قناعـــة تامة بأن اغتيال هنري لا ينـــدرج تحت مخطط منظمة الجيش السري الفرنسي، وأن العملية قررت أجهزة المخابرات السرية تنفيذها (MOSSAD – CIA -BOSS -) ... الذين تحكموا تماما في كل شيء نظرا لما يتمتعون به من أساليب دقيقة، ووفرة الوسائل المستخدمة، ولذا تعذر تنفيذ هذه الاغتيـــالات بـــدون

---

٣٩ عنوان كتابه (يهودي بولندي ولد في فرنسا) وهو مناضل يساري انضم إلى المقاومة المسلحة في أمريكا اللاتينية

تعاون العملاء الفرنسيين –ويعتبر الرسم الكاريكاتوري للرسام الساخر لولينسكي في جريدة ليومانيتيه[40] ٦ مايو ١٩٧٨ غني عن البيان–

وكشفت تحقيقات جريدة لموند في ١٨ يوليو أن –SDEC وهي من أجهزة المخابرات الفرنسية– كانت قد قدمت المادة الإعلامية الأساسية للمقال الذي كتبه سوفير–.

وكان الدرب الذي سلكه هنري دربا غير عادي، استغل بعد تشويهه، لإطلاق حملة تعتيم إعلامية دولية النطاق، مكنتهم بكل المقاييس من التخلص من أحد المناوئين ليس إلا...!!

ولم تستهدف حملة الخداع نشر الاعتقاد بأن هنري الشيوعي... كان عميلا لموسكو! ولكن بالأحرى أرادت اتهامه بزعامة حركة إرهابية دولية يقودها الاتحاد السوفييتي...!!

ويا للسخرية...!! رغم علم الجميع أنها دولة لا ترعى الإرهاب...!! وكان حري على من يشير بإصبع الاتهام أن ينقد نفسه ذاتيا... بداية ..!.

العالم الثالث... والمدافعين عنه من خارجه.

بناء على الاعتقاد الذي يؤكد –أن تأييد نشاط سياسي من أجل التحرير لا محالة سيؤدي إلى قيام نظام سياسي يعقب النصر "يتسق مع الجهود المبذولة، والتضحيات السابقة"– فلم يكن غريبا أن يقرر المثقفون الغربيون من اليسار (المدافعين من الخارج) أنه لم يتحقق شئ ...!! وأنهم قد خدعوا... –وبوجه خاص بعد دعمهم حركة النضال الفيتنامي... ثم مقارنة هذا النجاح وما حققته هذه الحركة عندما وظفت طاقاتها الهائلة في مقاومة العدوان الجوي والبحري والبري الذي شنته القوات العسكرية التابعة للولايات المتحدة الأمريكية، وأجبرت على أثره القوتين الاشتراكيتين المتنازعتين منذ ١٩٥٨ على دعم حركة التحرير الفيتنامية.

وعرفت هذه الفئة من المدافعين فيما بعد باسم (مدافعي العالم الثالث الذين خاب ظنهم).

وحسب علمي لم ينتمي بأي شكل من الأشكال أي من كوادر (التضامن) إلى هذه الفئة ...

---

[40] جريدة الحزب الشيوعي الفرنسي... أعيد نشره في النشرة الأولى الخاصة بجمعية أصدقاء هنري كورييل

عندما ظهر تنظيمنا لأول مرة في نهاية حرب الجزائر، كانت الفكرة السائدة عن(العالم الثالث) في ذلك الحين تؤكد أنها قوة سياسية -مناهضة للكولونياليه منذ مؤتمر باندونج- غير منحازة لأي من القطبين العظميين.

فضلا عن ذلك، تبنت هذه القوى السياسية مفهوما ثوريا مناهضا للإمبريالية مع ظهور حركة كاسترو الكوبية، والاستعداد لعقد مؤتمر القارات الثلاث، وانضمت إلى أمريكا اللاتينية -التي تحررت من النظام الكولونيالي- كل من آسيا وأفريقيا.

قدر هنري أهمية هذه اللحظة بنجاح... ووضعها في إطارها السليم في دائرة اتصالاته مع المهدي بن بركة رئيس اللجنة التحضيرية لمؤتمر القارات الثلاث-الشخصية الدولية التي ظهرت على الساحة السياسية منذ النجاح الذي تحقق في رأب الصدع، ومد الجسور بين القوتين الاشتراكيتين المتنافستين-

بذلنا جهدا كبيرا في منظمة التضامن لكي تدعى إلى حضور هذا المؤتمر كل حركات التحرير التي كنا نقدم إليها العون، وهو المؤتمر الذي انعقد في مدينة هافانا الكوبية يناير ١٩٦٦ بعد اغتيال القائد المغربي في باريس في٢٩ أكتوبر ١٩٦٥.

لم يؤمن هنري كثيرا باحتمال ظهور فيتنام أخرى... خلافا لما كان يقوله تشيه جيفارا...

فكان يردد" *أن ما تحقق بالفعل في فيتنام ظل حتى الآن بكل المقاييس في عرف المعجزات ...!!!*"

ظهر تميز هنري في هذه الفترة من نضاله، عندما تفرد بالتفكير في تأسيس هذه المنظمة في فرنسا -أي في الغرب- لتقديم المساعدة العملية لحركات التحرير المنتشرة على صعيد القارات الثلاث -أضاف فيما بعد المساعدة العملية المقدمة إلى المناضلين المناهضين للفاشية في جنوب أوروبا ...-

بل حاولت هذه الشخصية الفريدة أن توسع نطاق النشاط النضالي حتى مشارف اليابان لتغطي حركات التحرير الآسيوية.

لم يكن هنري فرنسيا، ولا مرتبطاً بحزب فرنسي... بل لم يكن مرتبطاً حتى بالمجلات الثقافية الفرنسية ذات الحظوة والنفوذ(المنابر).

لم تعمر كثيرا محاولته تنظيم حركة مناهضة للكولونيالية الفرنسية أثناء حرب الجزائر.

وكانت هذه بالفعل من الأحداث التي لم يكن لها صدى ...

حاول ذلك ...بينما كانت تحف الأحزاب السياسية والنقابات بالمجتمع الفرنسي من كل جانب... ولم توجد أي حركة أو تنظيم يقف مستقلا عن هذه الكيانات على اتساع الساحة السياسية في فرنسا.

كانت هناك محاولات سابقة...دون شك... مثل محاولة تأسيس حركة مؤتمر الشعوب المناهضة للإمبريالية عام ١٩٤٨ في لندن برئاسة فينر بروكوي، وجان روس أمينا عاما. وإنما في بريطانيا استمرت حركة تحرير المستعمرات، وأصبحت تعرف فيما بعد بـ (ليبيريشن).

أما في فرنسا، فلقد اقتصر مناهضة الكولونيالية على مثقفين مشهورين غير منظمين استمروا في العمل الثوري، متجمعين حول نواة مجلات ثقافية سياسية مثل Esprit-Temps Modernes ومجلات أسبوعية – Temoignqge Chretien, و L´express و صحف رأي يوميه مثل Le Monde, Liberation.

وأعتقد أن سبب نجاح هذه التجربة..يعود إلى عدم وجود صفة علنية للحركة، ولا مكاتب مفتوحة...ولم ترتبط بصورة أو بأخرى بقوى سياسية نشطة، ولهذا لم يكن لها أي مصالح في اتجاه سير الانتخابات.

وتعود أساسا نظرة التقدير والثناء التي حصل عليها هنري من العناصر السياسية المندمجة في المجتمع الفرنسي إلى فهمه العميق لما يجري في العالم الثالث:

فمصر التي بدأ فيها حياته السياسية، كانت من البلاد المتسمة بالتعقيد الشديد... تواجدت فيها عناصر جاءت من كل القارات الثلاث المناضلة من أجل التحرير. ويتكون العالم الثالث كما نعلم من سلسلة من المجتمعات المحددة المعالم تعيش على مستويات مختلفة من التخلف...!!! وتفرز قطعاً إمكانات ثورية -عندما لا تستشري فيها المجاعة...!!!- إلا أنها لا تفرز هذه الإفرازات من تلقاء نفسها كما تزعم "أسطورة العالم الثالث"...!!!

ولم توجد ضرورة لوجود أسطورة... حتى تجذب النساء، والرجال من ذوي النوايا الإنسانية الطيبة- المقيمين في الغرب المسيطر، والمهيمن إلى العمل النضالي...-ولم يكن هناك مانع يمنعهم من الاستيعاب السريع لأهداف قضايا النضال من أجل تحرير الشعوب المقهورة أو الخاضعة لنظم ديكتاتورية فاسدة التي يدعمها قادتهم...! كما اكتسب كثير منهم خبرة عميقة في مكافحة النازية، وفي مناهضة حرب الهند/صينية، وأخيراً في حرب الجزائر.

لهذا تركزت الخدمات التي نقدمها في شكل خدمات أمنية، وخدمات أخرى مثل – تحوير الوثائق، والتنكر- ووسائل الاتصال المختلفة مثل الحبر السري والراديو- ووسائل طباعة فنية أولية- .

ووضعت هذه الإمكانيات موضع التنفيذ العملي... وفورا، وكانت متسقة مع أساليب تشغيل الوحدة التي تكونت في الجزائر العاصمة.

كما كانت الاستجابة للطلبات استجابة فورية، ودون مناقشة ...

وقدمت المساعدة العملية للشباب الهارب من الخدمة العسكرية... والرافض الانضمام إلى جيوش البلدان المهيمنة -واستمر ذلك في البرتغال حتى سقوط الديكتاتور سالازار، وأيضا أثناء العدوان الأمريكي على فيتنام- مع تدريب مجموعة التعاون (الأفريكان) التابعة لمنظمة الكونجرس الوطني الإفريقي (أوكالا) في أفريقيا الجنوبية.

وكانت هذه التجربة ، تجربة رائعة ...

وأضفنا...- كلما تطور العمل -قطاعاً خارجيا لمتابعة المشروعات التي عادة ما تتبناها المنظمات غير الحكومية مثل-تشغيل مراكز للطباعة والدراسة، بل حتى مشروعات التنمية-.

وبهذا نستطيع أن نقول أن منظمة التضامن منظمة فرنسية شبه سرية على اتصال دائم بمجموعات أوروبية مستقلة (في سويسرا، وفي السويد، وفي إنكلترا، وفي بلجيكا ...) وهي مجموعات من المدافعين عن العالم الثالث تتكون من بضع مئات من الأشخاص النشيطين المنظمين في فرق تتبعهم مكاتب إقليمية في الضواحي، والأرياف في فرنسا، ومكتب في الجزائر العاصمة.

وكانت فعلا منظمة تختلف من حيث هيكلها عن تكوين المجموعة التقليدية، لأسباب من بينها تنوع خلفيات أعضاء القيادة الذين أتوا من كل حدب وصوب. كل منهم مرتبط بصورة، أو بأخرى باليسار... ولكنه يسار يتميز بقاعدة متسعة العضوية.

ولم تشارك المنظمة في الحياة السياسية الفرنسية...

كما لم تتدخل في الحوار الذي جرى داخل حركات التحرير التي توفر لها المساعدة العملية.

وهنا جرت مناقشات مشتعلة حماساً من جانب... وترك على إثرها البعض- من جانب أخر- المنظمة بمحض إرادته، ولم تحدث أبداً انقسامات... هذا المرض الخبيث الذي ينهش مجموعات الثوار...

فمن كان يبحث عن دور تبشيري، أو انضم ليكتسب خبرة مباشرة سريعة في النضال الثوري... كان يترك صفوف المنظمة لينضم إلى المجموعات الأخرى -كانت كثيرة جدا، وعددها كبير في فرنسا- وهي تساند هذا أو ذاك من حركات التحرير. وتلتزم بتوفير المساعدة العملية... ولكن على نحو فردي... "مثل الذين انضموا إلى الكتائب الدولية أثناء الحرب الأهلية الأسبانية. أو الذين انضموا إلى جبهة التحرير الشعبية الفيتنامية أو الجزائرية، أو إلى قوات المقاومة المسلحة في أمريكا اللاتينية"... ومنهم

" مذكرات مناضلة "

رسائل إلى حبايبي

(الكتاب الأول)

الجزائـــــر وفلسطـــين

تأليف :

د. ديدار فوزي روسانو

نقله إلى العربية :

د. مراد عثمان خلاف

الطبعة العربية الأولى

٢٠٠٤

الناشر :

دار العالم الثالث

٣٢ صبري أبو علم/ باب اللوق، القاهرة

ت وفاكس : ٣٩٢٢٨٨٠

هذه ترجمة للجزء الأول والثاني من كتاب المؤلفة :

Mémoires d´une militante communiste

1942-1990

du Caire a Alger, Paris et Génève

lettres aux miens

الناشر عام ١٩٩٧ :

Editions L´Harmattan

5-7, rue de l´Ecole-Polytechnique

75005Paris

ISBN: 2-7384-5744-4

رقم الإيداع: ٢٠٨٩٠/٢٠٠٤

الترقيم الدولي (I.S.B.N): 977-5222-45-1

(شكر خاص)

يسعدني أن أوجه شكري وامتناني لكل من

" **سانية إمري، وحسام عنتر خلاف، وإروان إمري** "

لمساعدتهم الفنية القيمة

في إعداد ومعالجة الخرائط والصور

المخرجة السينمائية ميشيل فيركيه التي انتهت حياتها في الميدان[٤١] نهاية مأسوية، وبيير غولدمان الذي اغتيل في باريس، وريجيه دوبريه وهو من أشهر[٤٢] هؤلاء الأفراد، كما أعلم بانضمام يهودي واحد على الأقل من أصل إسرائيلي إلى عضوية منظمة التحرير الفلسطينية[٤٣].

وجه هنري نشاطنا وجهة أخرى...

كنا بلا شك -نكّون في ذلك الوقت تجمعاً فريداً من نوعه- تطور بعد ذلك وبلغ عدده ٣٠٠ عضو في غضون عقد من الزمن فقط، ودون رعاية حزبية...

الأزمة الأولى...؟

حدثت أزمة أولى في ١٩٧٢ عندما عثر أحد الأعضاء على رسالة تدل على أن هنري كان يبحث عن وسيلة -دون الحصول على موافقة القيادة العليا للمنظمة "الكونجرس"-... للاتصال بالحزب الشيوعي في الاتحاد السوفييتي.

كما ظهرت في الوقت نفسه على صفحات أحد الصحف مقالات تزعم أن -مجموعة كوريل- تقوم بدعم جبهة التحرير الشعبية التي يتزعمها جورج حبش...!

وألغي في نهاية المطاف اجتماع (الكونجرس) ٠٠٠أي المؤتمر العام للمنظمة بسبب قيام عملاء جهاز المخابرات الفرنسية بتفقد مكان الاجتماع قبل انعقاده، مما أدى إلى زرع الشكوك في حدوث اختراق، ولظهور عدم إخلاص أحد أعضاء الأمانة...

وكان هناك من ترك المنظمة... ومنهم بوجه خاص الأمين العام... الذي استبدل، واستمر النشاط...

ولكن تقلص النشاط بشكل كبير نتيجة الهجوم المنصب على المنظمة، ورغم ذلك استمرت في توفير الخدمات- لا سيما تلك اللازمة لتأمين استمرار دورات تدريب مناضلي العالم الثالث-.

وتحملت شخصياً، وعلى مضض هذه الأزمة. وفي أعقابها، ورغبة مني في استعادة توازني كرست وقتي للقيام بالبحوث.

---

٤١ مخرجة سينمائية، عملت أولاً مع المعهد الكوبي للسينما، ثم اشتركت في النضال الميداني مع قوات الجيش المتمردة (FAR) في غواتيمالا حيث انهارت عام ١٩٥٤ محاولات الإصلاح الزراعي، والتأميم التي قام بها الرئيس (آربنز) المنتخب ديموقراطيا بعد عملية قمع عسكرية دموية استمرت لمدة طويلة. وأطلقت ميشيل فيريكيه رصاصة على رأسها في ٨ أكتوبر ١٩٦٨ عندما هاجمت قوات البوليس السري المكان الذي اختبأت فيه لاعتقالها.

٤٢ فيلسوف وكاتب فرنسي يتمتع بثقافة عالية وخبير إعلامي قدم حياته بلا تردد من أجل نشر مبادئ الحركة الثورية بقيادة كاسترو بصفته مثقفاً ومناضلاً، ومعجباً أشد الإعجاب بفيدل كاسترو وتشيه جيفارا. أعتقل عام ١٩٦٧ بينما كان يجري اتصالاً بين كاسترو وتشيه جيفارا وكان الأخير يحاول تنظيم حركة مقاومة مسلحة في بوليفيا، وحكم عليه بالسجن (أنظر مذكراته في كتابه بعنوان

-Loues soient nos seigneurs- Une education politique — دار جلمار للنشر ١٩٩٦).

٤٣ وأعني بذلك إيلان هاليفي يهودي، عضو نشط في منظمة التحرير الفلسطينية.

المناضلون ليسوا آلات...

عشنا جميعا فترات صعبة...

وفقدنا بتقدم العمر المقدرة على اجترار هذه العواطف الجياشة... التي تقلل الشعور بالملل عند ممارسة نشاط سياسي في ظروف السرية لفترات زمنية طويلة.

لم أشكو كثيرا من النضال السري... لأني تغلبت على هذا النوع من الأزمات بانهماكي الشديد في البحث الأكاديمي...

صحيح، عندما استأنفت دراستي بعد وصولي إلى باريس، حصلت على تصريح إقامة كطالبة. ولكن لم يكن ذلك كل شئ ...فلقد عوضتني الدراسة أيضا عن تطلعات، وآمال رافقتني منذ حداثة عمري، دون أن أجرؤ في الماضي أن أفصح عن هذه الرغبة الدفينة...!!! -يصعب على المرء، "عندما يتمتع بالامتيازات في بلد ينوء تحت ثقل الفقر والفاقة والبؤس" أن يتخلص من شعور دفين بارتكابه ذنبا...- إذا ما عن له أن يتزود بزاد إضافي، حتى لو اقتصر ذلك على مجرد زاد روحي...!!!.

ولكني كما ذكرت، اضطررت... بسبب ضغط الظروف إلى القيام بهذه الدراسة في نهاية الأمر.

وكان هنري -هذا الرجل العزيز- ينقل ويوزع على كل معارفه من الزملاء الدارسين مثلي خلاصة ما أعده من دروس...

مع ذلك يبدي تضرره بسبب انغماسي الشديد في الدراسة دون موجب لذلك!. وكان محقاً:

فقد شغفت عندما كنت في باريس بأعمال جون دريش[٤٤]. وعندما كنت في الجزائر من ١٩٦٥ إلى١٩٦٩ أتابع الدراسة فيها للحصول على ليسانس في التاريخ -اشتركت أحيانا ابنتي الكبيرة في حضور بعض المحاضرات- وكنت مأخوذة بمحاضرات أساتذتي ومنهم إستورج، وبرينون، وجاليسو، ولا بيكا، وإبراهيمي، وفيفريه.

دون مبالغة، بدأت تقريبا مشروع الدراسة، وأنا على أعتاب التقاعد، واستهوتني أعمال البحث في قضايا السودان.

وكانت رئيسة هيئة الأساتذة المشرفة على بحثي هي السيدة/كاترين كوكري-بيدروفيتش... سيدة جميلة في قمة الذكاء... لم تكن تزعجني بكثرة المطالبات الأكاديمية،

---

٤٤ جون دريش عالم جغرافيا، ومناهض ضد الكولونيالية.

تمكنت أثناء إقامتي بالجزائر من إعداد رسالة علمية للحصول على درجة دكتوراه الدولة من جامعة السربون في Jussieu. وتزامن هذا التحول في المجهود مع مستوى نشاطنا في منظمة التضامن الذي صار محبطاً ومخيباً.

وعندما أعود بذاكرتي إلى الماضي... لم يكن نضالنا السري في مصر مخيباً:

فمن ناحية استجاب لمطلب داخلي... أي الابتعاد عن بعض الأوساط الاجتماعية، ولفظها من جانبنا– وهي أوساط كانت تتمتع بامتيازات فاضحة– أما الآخرون فكان دافعهم... نوازع انتهازية سطحية.

ودفعنا شعور جارف، واعتقاد راسخ، بأن عملنا النضالي... بينما قد لا يؤدي إلى ولادة عالم جديد...!! -كما كانت تقول بذلك خيالات مجموعة سبارتاكوس -وهي مجموعة من الاشتراكيين الثوريين الألمان كانت موجودة أثناء الحرب العالمية الأولى- لكنه على الأقل سيضع نهاية لاحتلال عسكري، ونظام اجتماعي يتفنن في قمع الجماهير الكادحة.

صحيح كان عملنا النضالي محصورا في نطاق محدود..

ولكن كانت القاهرة آنذاك معبراً وملتقى لأناس كثيرين-كما كانت الجزائر العاصمة بعد الاستقلال-.

تعرفنا في القاهرة أثناء الحرب العالمية الثانية على أفراد المقاومة الفرنسية،وبالثوار اليونانيين، والشيوعيين الإنجليز، واللبنانيين، والسويسريين ... واندمجنا في حركة تاريخية حية... ودفعنا دفعاً شديداً لتنفيذ المهام العاجلة... وحققنا انتصارات في تآزر مع الحركة الوطنية.

ولم نشعر بالإحباط عندما كنا ندعم عملياً، وسراً في فرنسا نضال الجزائريين من أجل التحرير. بل شعرنا بالفخر لانتمائنا إلى المعسكر الأممي الذي شارك في النضال الثوري الأوروبي (الكومونة)، وفي الحرب الأهلية الإسبانية واتسع نطاق هذا المعسكر ليشمل تأييد حركات النضال في المستعمرات ومنها مستعمرات كل من فرنسا وإنكلترا.

وزاد انشغلنا، بسبب طبيعة المهام العاجلة التي كانت تصلنا من جميع الاتجاهات، مدركين تماما ثقل المسئوليات، والأعباء التي قبلنا تحملها...

وكثيراً ما كانت هذه المسئوليات تهدف تأمين عدم تعرض حياة المناضلين الجزائريين الذين كنا نساعدهم للخطر... وكانت من الضخامة حتى لم يتسع الوقت للتفكير في شئ آخر .

وتجدر مره أخرى الإشارة إلى أننا كنا ننشط في إطار عملية نضالية على وشك أن تحقق أهدافها.

وبعد بضعة أعوام من الجهود فقط ...

ظهرت السمة البارزة لذكاء هنري، عندما عرف كيف يحدد للذين عملوا معه في كل مراحل مساره كمناضل، أشكال النضال القصيرة، والمتوسطة الأجل[٤٥].

ولكن تسربت مع ذلك إلى السطح بعض مظاهر الإحباط...

عندما وقعت أول أزمة تعرضت لها منظمة التضامن. وكانت المنظمة التي تأسست عام ١٩٦٢في باريس –قد بدأت باسم "المنظمة المناهضة للكولونيالية والفاشية"، إشارة إلى النضال الذي كان دائرا في البرتغال وإسبانيا– وهذا لدى خروج هنري من السجن، وباشتراك مناضلين فرنسيين مؤيدين لجبهة التحرير الوطني الجزائرية FLN. وكانوا من المناضلين القدامى ضد النازية.

وأعرب الجزائريون، ومنهم بشير بو معزة، الوزير القادم... الذي كان مسجوناً مع هنري، وجيهان دي فانجن، عن تقديرهم الكبير لما قدمته المنظمة من مساعدة فنية لدعم نضال حركة التحرير الجزائري... واستمر هذا التقدير قائما حتى انقلاب يونيو ١٩٦٥.

ومول أول رئيس للجزائر المستقلة هو الرئيس بن بيللا نشاط المنظمة. ثم قامت بعد ذلك بتمويل نفسها ذاتيا.

وتطورت في غضون عقد من الزمن فقط ، وأصبحت منظمة غير حكومية حقيقية تقدم الدعم للنضال التحريري، وانتشرت على النطاق الدولي، ولكن دائما بهياكل سرية.

المشروع المتعثر...!!

تعثر في ١٩٧٣ مشروع عرضه هنري لتدريب كوادر الكونجرس الوطني الإفريقي. وقرر نصف أعضاء الأمانة، ممن كانوا بالفعل سببا في التضخم العددي في صفوفنا ... التوجه نحو الأنشطة العلنية، ولا سيما عندما نظموا ملجأ في فرنسا لإيواء اللاجئين الشيليين الذين نجوا من المذابح الرهيبة التي نظمها بينوشيه[٤٦].

وكان سبب هذا التوجه في تصوري– وما زلت أعتقد ذلك– هو الحاجة إلى إطفاء ظمئهم السياسي، ولكن من منابع أخرى ليست لها صلة بالنضال السري الذي يهدف أساسا حماية، وتدريب، وتكوين المناضلين العابرين، والمشتركين في عملية نضالية تدور في أماكن أخرى من العالم، قد لا نراها أبدا..!! .

---

٤٥ ضعف الرؤى البعيدة عندما تطول فترة النضالٍ بدون تحقيق نتيجة جذرية، ويكون التحول إلى أهداف أكثر التصاقاً بالواقع المعاش قصيرة أو متوسطة الأجل مفيدا – المترجم.

٤٦ ونعني بذلك جيرونج وسيلفيان دي فانجن مع اشتراك القس كلاسبرج، الذين أسسوا مركز استقبال اللاجئين فرانس تير دي أزيل.

وخلفوا وراءهم في المنظمة حالة من الارتباك، والتشويش... تأثرت منها... ولكني مع ذلك تفاديت –في آخر لحظة– سقوط طفلة صغيرة على الأرض كنت أغير (حفاظتها) ... وكانت هذه الطفلة هي أولى حفيداتي.

بعد ذلك قمت بمفردي بتأمين استمرار الاتصال الدائم بين مكتب الجزائر، وأعضاء الأمانة في باريس.

ثم قدمت استقالتي من آخر وظيفة دائمة لكي أتمكن من التردد بحرية أكثر على مقر قيادة المنظمة في باريس وذلك في إطار تكليفاتي.

وكنت مسئولة في هذه الوظيفة الدائمة عن مهام مؤقتة تتطلب مني تنسيق خدمات فنية لتنظيم مؤتمرات دولية تعقد في الجزائر، وكان مرتبها يغطي كل احتياجاتي، ومصروفاتي، ويسمح لي بالبقاء في الجزائر لمتابعة مجريات الإحداث، والتطورات في العالم الثالث.

كانت من بين نتائج الأزمة تقلص الخدمات التي كنا نقدمها إلى أعضاء حركات التحرير... وتحول نشاط مكتب الاتصال إلى مكتب للترجمة التحريرية، والفورية التطوعية للمناضلين الناطقين بالإنكليزية... –وما زلت أحتفظ بذكرى، ومشاعر حارة عندما أتذكر العلاقات المميزة التي كانت بيننا وبين هؤلاء المناضلين الملهمين النابغين من أعضاء الكونجرس الوطني الإفريقي الذين كانوا يديرون نشاط مكتبهم في العاصمة الجزائرية[٤٧]–.

وحالفني التوفيق من حين إلى آخر... وبفضل علاقاتي... في مساعدة المناضلين غير المنتظمين سياسيا للاندماج مرة أخرى في أوساط اجتماعية مهنية، وللعمل فيها، ومنهم أعضاء منظمة الفهود السود بلاك بنترز[٤٨].

---

٤٧ منهم جوني ماكاثيني، الذي توفي قبل أن يرى انحسار النظام الذي كان يناضل ضده، ومنهم أيضا الرئيس أوليفر تامبو، وكان موجودا في الخارج تنفيذا لتعليمات الكونجرس الوطني الأفريقي لكي يطور عمليات دعم نضال الكونجرس الوطني الإفريقي –حتى قبل سجن نلسون منديلا في جزيرة روبن ١٩٦٤– وكثيرا ما مر بالجزائر العاصمة، وتوفي غداة نهاية النظام العنصري. وتامي سيندلو الشجاع، الذي أصيب بالشلل رغم صغر سنه، ويقوم بتدوين ذكرياته النضالية على الكومبيوتر مستخدما ما تبقى له من أصابع يده المشلولة.

٤٨ حزب من الأمريكان السود أنشأ عام ١٩٦٦ في أوكلاند، قرر أن يحمل السلاح من أجل وضع نهاية للاضطهاد العنصري في الولايات المتحدة الأمريكية، وقد تأثر بتعاليم مالكوم إكس وكتابات فرانس فانون، وأسس قادة الحزب هيوي نيوتن، وديفيد هيلارد، وبوبي سين، وإليدرج كليبر ... وهم يعيشون في مجتمع متطور تقنيا، أيديولوجية تنادي بأن أشباه البروليتاريا من الأمريكان الأفارقة هم طليعة الثورة الأمريكية، وفصلت قيادة الحزب عن قاعدته بعد عدة سنوات، وجاء ذلك في أعقاب عملية قمع دموية، وانقسامات داخل القيادة. وحكم على موميا أبو جمال رئيس جمعية الصحفيين السود في فيلادلفيا، وعضو الحزب، وهو متخصص في الشئون الاجتماعية والثقافية، بالإعدام لقتله أحد رجال الشرطة عندما أوقف في الطريق أثناء عملية تحريات، وتحقيق شخصية لم تتم بشكل سليم، وكان عضوا في هذا الحزب – أنظر كتابه "مباشرة من عنبر الموت"، ريدنغ، ماساشوسيست، ١٩٩٥).

وكان نشاطا كثيفا، ومرهقا للغاية، تطلب أكبر قدر من السرية -كانت الجزائر مسرحا لنشاط عدد كبير من أجهزة المخابرات الأجنبية، وتعج بالعملاء- .. وتطلب هذا النشاط حضوراً مستمرا في كل ساعات الليل والنهار... وفي عاصمة... ويا للأسف، لم تعد لا عظيمة، ولا مذهلة...!!

وأنقذني البحث الأكاديمي من الوقوع بين براثن الملل والاكتئاب.

تعبئة القدرات، والخبرات من أجل إنجاح التدريب

أدى نشر مقالة جورج سوفير الكاذبة في مجلة Le Point الصادرة في باريس في ١٦ يونيو ١٩٧٦ -لم يوفق هنري في منع صدورها... بالرغم مما قدمه روبير دافيزيه[٤٩] من مساعدة - إلى هجر بعض الأفراد صفوفنا... كما ضاعفنا جهودنا الأمنية عند الاتصال بالمناضلين العابرين.

واهتم هنري لبعض الوقت أيضا بمشروع لنشر الكتاب المدرسي الفرنسي[٥٠] في أفريقيا عرضه عليه زميله يوسف حزان -من دار النشر ناتان- ... لم يدم هذا الاهتمام طويلا- وقبل ذلك أبلغني بإلحاقي بالمشروع- عندما كان راضياً عنه، وعن تقديرات نجاحه.

لم يستمر المشروع، وهجره هنري بمرارة، وألم ؟! عندما تغلب الجانب التجاري على المحتوي الثقافي للمشروع.

وهنا، انتقل هنري إلى وضع الخطوط العريضة لبرنامج يحمل طموحات أقل... ولكنه أكثر دقة في تحديد توجهات نشاط منظمة التضامن... وكأنه مخرج مسرحية، مفضلا العمل في العمق، وبفريق محدود العدد... بعد سنوات تميزت بإعداد مشاهد ضخمة على مسرح العمليات النضالية غطت جميع الاتجاهات.

لقد كتبت كثيراً يا جيل[٥١]...وتحدثت عن الجهود التي بذلها هنري لتيسير الاتصالات بين منظمة التحرير الفلسطينية، والتيار السياسي اليساري في المؤسسة الصهيونية[٥٢].

---

[٤٩] قسيس كاثوليكي من اليسار العامل وسط العمال

[٥٠] عندما تقلصت إمكانيات النضال بسبب الهجوم، والتشنيع الذي لم يتوقف على هنري، ولدت فكرة إعداد مجموعة كتب مدرسية لتلاميذ البلدان الإفريقية الناطقة بالفرنسية المستقلة حديثا كخطوة للارتقاء بمفهوم ضرورة التقارب بين الشعوب، ودعما لها في مسيرتها- المترجم

[١] لكاتب الفرنسي جيل بيرو

[٥٢] أ نظر الجزء الثاني عن فلسطين

ولكن لم يحظ نشاط التدريب، والتكوين السياسي للشباب الثوري الإفريقي باهتمامك. ونحن لا نستغرب إذ نعلم أن الاتصالات المثيرة بين بعض الشخصيات هي بطبيعة الحال القابلة للنشر في وسائط الإعلام التي تنزع مادتها للإثارة...

وقد يختلف الأمر بالنسبة للمحتوى التقني للتكوين، والتدريب، فلا يحظى بنفس الاهتمام رغم أن هذا النوع من النشاط من الأنشطة الكبيرة التي استهوت هنري، وشغف بها. وهذا يثبت بما لا يدع مجالاً للشك وجود رغبة داخلية قوية لديه للنقل، والتحوير، كما هو حال جميع الثوريين، ولم لا...؟، وقد ترتقي هذه الرغبة إلى مرتبة الانجذاب القوي، والافتتان.

وكرس -مهما كانت الظروف- طاقاته للتكوين، والتدريب وإلقاء محاضرات شفوية بناء على خبرته الغنية المتراكمة، كما كان حال كبار أساتذة ذلك العصر -شيد داخل وخارج السجن جدار آخر عال، لمنعه من القيام بأي نوع من النشاط التعليمي الثقافي قد يؤدي -في اعتقاد البعض- إلى حدوث تغير جذري في العقليات، وأساليب التفكير .

وهنا مرة أخرى تتسق عملية تيسير الاتصالات بين الإسرائيليين والفلسطينيين مع المبادئ التي تنادي بها منظمة التضامن...

أما التدخل في تكوين إطارات من الشباب الإفريقي بغرض إنشاء نواة شيوعية في المناطق المحررة من الكولونيالية فهي من الأعمال التي تتعدى اختصاصاتنا.

وحافظنا بالطبع على الإرتباطات مع UPC -حركة النضال المسلح للاتحاد الشعبي الكاميروني- ومع قوى المعارضة في المغرب،

كما استجبنا أيضاً لطلبات الشيوعيين المصريين، والسودانيين، ونظمنا دورة كاملة لتكوين، وتدريب الشيوعيين العراقيين. واستمر العمل في المناطق المحررة من الكولونيالية السابق الإشارة إليها، لتكوين، وتدريب أعضاء مجموعة من المعارضين للسلطات المحلية الموجودة في أفريقيا الشرقية. وفي المناطق التي لا توجد بها أحزاب شيوعية. ومن منطلق أن هذه الأرض أرض خصبة، لا يوجد بها نظام يفتح الباب للمعارضة المنظمة.

وكانت بمثابة عودة... -ولكن بشكل مختلف- إلى العمل بالمشروع القديم لتكوين كوادر الكونجرس الوطني الإفريقي.

وتسبب هذا المشروع في حدوث أزمة داخل صفوف منظمة التضامن عام١٩٧٣.

تمسك المعارضون على هذا المشروع في ١٩٧٣بحجج رئيسية منها... -يجب أن يؤخذ في الاعتبار معارضة الذين لا يودون التدخل ميدانياً... باعتبار أن الحزب الشيوعي في جنوب أفريقيا هو المسئول عن اتخاذ مثل هذا القرار...- ثم عدم الكفاءة النسبية للمدربين الموكل إليهم تنظيم الدورات التدريبية لكادر ينتمي إلى مثل هذه الحركة السياسية الكبيرة ذات الهيبة والنفوذ.

تولى هنري إدارة الجزء الأساسي من عملية التكوين بعد ١٩٧٦ ...ويحمل بالطبع المؤهلات والكفاءات المطلوبة... ولم يبق في منظمتنا معارضين لأي شئ وكل شئ...

ومضى هنري إلى الأمام بحماس...

ورافقته في صباح يوم من أيام الخريف الغارقة في الضباب، وتوجهنا إلى أحد أبواب الدخول إلى العاصمة الفرنسية الواقعة على الطريق الدائري السريع... لكي أعرض بعض جوانب خبرة الحركة العمالية السودانية، وكان ذلك عام ١٩٧٧.

وكانت محاضرات هنري، تخلب اللب...! وفكر في وضع إستراتيجية لتنظيم جبهة في أفريقيا لا تستبعد أحدا، ولا حتى، كما كان يقول- زعماء القبائل- وكانت هذه الفكرة دون شك من الأفكار المبتكرة الأصيلة.

واعتقد اعتقادا راسخا بأهمية اشتراك جميع الممثلين السياسيين للقوى الاجتماعية في بلد متخلف، بما في ذلك القوى القبلية، في عملية السير قدما بالبلاد.

ولم تكن هذه الأفكار محدودة على أناس دون آخرين أو مقصورة على قوى سياسية دون الأخرى...

وعندما تستولي عليه المشاعر الفياضة...!!! يقارن بين شكل، وشخصية المسئول عن مجموعة الأفارقة التي كانت تحت التدريب، وشكل وشخصية الأمين العام السابق للحزب الشيوعي السوداني[٥٣] وقد يكفي هذا دليلا على مدى ارتباط مشاعره ووجدانه، وانهماكه التام في هذه التجربة...!!

وقد تختفي ابتسامته إذا ما طلب منه الزملاء المصريون العابرون على باريس للمرة الألف ...!!!بجمع وتدوين خبرته وتحليل الأحداث الثورية في فترة ١٩٤٣ – ١٩٥٠ وهي الفترة التي ولدت فيها الحركة الشيوعية المصرية...

فالوقت لا يتسع...!

وعندما حددت السلطات الفرنسية إقامته في مدينة ديني، كتب حوالي مائة صفحة تناولت مجموعة أولى من الأحداث ولم تسنح له فرصة مراجعتها.

وبينما كان ينوء بثقل الأحداث وإيقاعها، أعد دفاعه أمام لجنة الاستئناف المعنية بالنظر في قضايا اللاجئين بدون وطن.

وبعد عودته إلى باريس... نظرت اللجنة المعنية -في مجلس الدولة- الملف الذي حمل اتهامات ضده، وقررت إلغاء الدعوى المقامة ضده...

---

٥٣ عبد الخالق محجوب الذي كون وتدرب في مصر في حدتو، -الحركة الديموقراطية للتحرر الوطني- وأعدمه النميري عام ١٩٧١.

واعد عريضة دعوى ضد تشهير مجلة دير شبيجل، وطالب من قام بالتشهير بإثبات ادعاءاتهم -وكسب القضية، وظهرت نتيجة الحكم في صالحه ... وكان ذلك بعد مرور عدة أيام من اغتياله-.

وكان هنري، بدون أدنى شك- بما تحلى به من عزيمة ،وإصرار، وجلد على العمل، ومنهج منطقي تركيبي في معالجة الأمور، وما يمتلك من حواس دفينة- قادرا على مسح التربة الإفريقية بعد الاستقلال، مبلورا فكرة مستقطبة، ودافعة قوية.

لم يكن منظرا...

كان مطورا، وقادرا على عرض العالم في صورة يسهل فهمها، وبالتالي تتجمع إمكانات المساعدة في تحقيق التحرير.

النشاط النافع

أردت أن أسجل ما استرعى انتباهي من جوانب نشاط هنري في مجال التكوين والتدريب العملي:

فالنشاط النافع هو النشاط الذي لا يتخلله مشاعر ارتياب، ولا يحمل أفكارا وهمية خداعّه، مع التشبث بمبادئ أساسية تمثل حق الشعوب في التصرف، والعيش بكرامة، ومن منطلق وقائع حيه -كل حالة بمفردها - والسير قدماً بضمير سياسي لا ينتظر مقابل، والتشبث بعناد دون تقديم أي تنازلات قد تتعلق بأغراض شخصية، مع التضحية بتقديم أي تنازلات عندما يتعلق الأمر بحياة الشعوب... وممارسة النشاط الثوري آخذين بعين الاعتبار النواحي الأمنية الخاصة بمناضلي العالم الثالث الذين يواجهون التعذيب، والضرب المفضي إلى الموت، بل الاغتيال إذا ما ألقي القبض عليهم.

ومن هنا جاءت عبادة الكورياليون للدقة، والنهوض بمستوى الكفاءة النضالية من أجل المساهمة في كسر القيود والأغلال.

ولم نختلف بصورة أساسية عن المثقفين الملتزمين الآخرين:

فأسوة بهم...وجهنا كل طاقاتنا إلى خدمة مجموعات لم تكن تملك الوسائل الكافية للدفاع عن نفسها... ومثلهم كنا نتقدم في نشاطنا، ونطوره من خلال هذه الاتصالات. ونختلف عنهم من حيث الشكل.

إن دور المثقفين المناهضين للإمبريالية هو الدفاع بالقلم، والإعراب عن مواقفهم كتابة، وبشكل علني. أما نحن فكنا ننظم نشاطنا سرا لضمان استمرار النضال.

ويعود أصل هذا الاختلاف أحيانا إلى المزاج الخاص. والنهج المتبعة:

يفكر المثقفون في مختلف جوانب المشاركة، والمساهمة، أما نحن فكنا نفكر فقط في المهام المحددة تنفيذها عملياً.

وفي مصر... التي بدأ هنري نشاطه ثوري فيها، حذر القادة العمال من قوة الاستقطاب الجذابة لأسلوب التفكير العقلاني للزملاء المثقفين... وكان ذلك في عصر مضى... في إطار واقع مختلف... وأهداف مباشرة من نوع آخر.

أمسك المثقفون الفرنسيون بزمام مبادرة دعم النضال السري لحركة التحرير الجزائرية، وهم الذين قرروا مع التنفيذ -أن وجود فكر دون فعل لا يعنى شيئا- ونجد في عواصم البلدان المهيمنة- بصورة فردية أو في شكل مجموعات- مثقفون عرضّوا حياتهم المهنية للخطر دفاعا عن مبادئهم، وأهمها المبدأ الذي- يرفض أن يضطهد أحدا الآخر- وعندما دافعوا عن قضية الجزائر نظموا أنفسهم بصورة مستقلة دون دعم حزبي، وكان ذلك في بيئة مشربة بالعجرفة، والغطرسة الكولونيالية... ومن أجل مساعدة هذا الآخر على إنجاز مهام التحرير... وبناء على طلبه.

لا أدرى إذا كان هناك -على امتداد التاريخ الكولونيالي بأكمله- أمثلة بمثل هذه الروعة، تعكس مثل هذا التضامن السخي ...!!.

ويتبقى أن نحاول فهم سبب فشل محاولة تنظيم حركة مناهضة للكولونيالية في فرنسا- رغم اكتساب الشبكات الفرنسية شهرة كبيرة في مجال نشاطها واعتبرت سندا يستعان به على مستوى النشاط العملي الملموس...- مثلا طلب مثقفون أمريكيون المشورة من "التضامن" تنظيم عمليات هروب الجنود من جيشهم أثناء حرب فيتنام..!!.وقد يلقي ما يأتي ضوءا على ما حدث:

بعد اعتقال هنري، وبعد اغتياله، -أتاح النشاط النافع!- استمرار الأمانة في أداء نشاطها.. وإنما بعدد أقل من الأعضاء.

وتحتشد مرة أخرى- في الأوقات العصيبة- الإرادات الطيبة القديمة، وتنضم إلينا. ولكن أين نعثر مرة أخرى على مثل هذا النجم الساطع...؟!! على أهبة الاستعداد دائماً، ذو الخبرة الواسعة، يحمل صدرا منفتحاً، وعلى استعداد لتنسيق النشاط السري للمجموعة بأسرها..؟!!

وعندما أعاره- أقل الشباب سناً - من ذوي الخبرات، آذاناً صماء... لم نكن نفهم بعد أن الأجيال الصاعدة التي ولدتها المجتمعات الغربية قد فقدت الاهتمام بمصير الشعوب... بعد أن أعيد تحديد مواقعها على خريطة المنظور الواسع للنضال المشترك ضد عملية جديدة للدمج الاعتباطي في الاقتصاد الرأسمالي العالمي...وهي عملية لا تخضع لأي رقابة...!! .

واستمر رغم ذلك وصول طلبات التدريب، والتكوين. ونظمنا أيضا اجتماعات للمدربين، والمكونين الراغبين :

وفدوا بأعداد كبيرة، ونظمنا عدة ورش لتدريبهم. وطالت المناقشات بدون داع...

د. ديدار فوزي روسانو

مذكرات مناضلة

رسائل إلى حبايبي

(الكتاب الأول)

الجزائر وفلسطين

نقله إلى العربية:

د. مراد عثمان خلاف

الناشر:

دار العالم الثالث

وانقسم هذا الكل -على إثر وقوع مأساة جديدة[٥٤]-،إلى أجزاء مبعثرة، كل يمارس أو لا يمارس أنشطة بفضل التزام الصمت إزاءها، وتعقد لجنة إدارية اجتماعات مصادفة، وهي عاجزة تماما عن حل المشاكل التي تواجه المناضلين في حركات التحرير.

وواصلت قافلة التضامن مسيرتها إلى محطتها النهائية، وتوقفت نبضات قلبها، عندما صفيت من الداخل...

تولت جمعية أصدقاء هنري كوربيل -التي نظمت بعد اغتياله- متابعة الجوانب القانونية لهذه القضية، وأيضا للعمل على وضع نهاية لأساليب التشهير.

وأقام جيهان دي فانجن في باريس مرة أخرى... بعد أن بدد ممتلكاته في عمليات تجارية مؤسفة، لا تتسم بالتعقل ...!!! وأمسك بزمام أموره مرة أخرى. وبفعل هذه الظروف والتغيرات المناسبة ...انجذب مرة أخرى إلى الوسط القانوني الفرنسي، ونشط مرة أخرى في الأجواء التي اعتاد عليها.

وكان ساعده الأيمن -صديقة تتحلى بكفاءة عالية، وتواضع كبير-[٥٥]. أما بقية الأعضاء، فلقد قدم بعضهم المساعدة بصورة رسمية عندما كان يحمل الجنسية الفرنسية... وساعد الآخرون في الظل، وتحولت الأنظار إليهم بسبب هذا النشاط السري مثلي أنا ..! وأماليا[٥٦] - وهي مناضلة مسئولة عن إعداد الوثائق- وغيرنا.

لقد أثارت القضية على المستوى القانوني نفحة هواء منعشة...!؟ وكانت دفعة لنشاط الجمعية.

ولم يكن الأمر كذلك بالنسبة لي...؟

نجح أحد الأصدقاء القدامى بعد ١٩٨١في فتح الطريق أمامي إلى مكتب بيير جوكس[٥٧] ...

لم أخدع، ولم أتوقع احتمالات كبيرة لنجاح قضية ما عندما تكون أجهزة البوليس طرفا فيها... وكان جهاز البوليس السري السيديك السابق غارقا فيها من قمة رأسه إلى أخمص قدميه.

---

٥٤ ألقي القبض على مجموعة مكلفة بإعداد وثائق تحقيق شخصية في ١٩٨٠وتم سجن بعض المسئولين، ولكن أكرمهم الرئيس ميتران فيما بعد عند خروجهم من السجن وعلق على صدورهم أوسمة خاصة لمن قدم خدمات كبيره في صالح الإنسانية....

٥٥ فلورنس روزنستيل، من الأعضاء القدامى في التضامن المسئولة عن الحملة من أجل الإفراج عن برايتن باخ، امرأة جميلة وذكية، تشع بالنور، ماتت للأسف بمرض السرطان في سبتمبر ١٩٩٠.

٥٦ وهي ماريا أمارال من المسئولات ألقي القبض عليها في ١٩٨٠-المترجم

٥٧ وزير داخلية ميتران.

ولتبين صحة هذه المقولة، يكفي أن نعود إلى ما واجهته قضية بـن بركـة[٥٨] مـن عرقلة وتسويف متعمد...

ورغم النتائج الضئيلة، جذبني العمل السياسي من أجل رفع هذا التشنيع الذي لطـخ نشاط هنري السياسي.

لم يكن ذلك فقط بغرض استعادة مكانة مناضل مترابط الأفكار، ولا لأنه كان رفيـق الطريق، وصديقي الشخصي.

ولكن، وقبل أي شئ آخر... لأن التشنيع بهنري هو مساس بأكثر التوجهات، وأكثر الأفكار انفتاحاً في الحركة الشيوعية المصرية.

وهنا بدأ الركض للحصول على الملفات، وعلى تجميع شهادة الشهود، مع العـودة مرة أخرى لإلقاء الضوء على هذا الجانب أو ذاك من نشاطه.

وعبئنا جميعاً لتحقيق هذا الهدف...

واتخذنا قراراً بتحديد من سيكون الكاتب الذي سيتولى تقصي الحقائق، والكتابة عـن الأحداث، وكشف العناصر الكفيلة باستيعاب وفهم الجوانب المختلفة في ملف قضيته المثقل بالاتهامات، والتشنيع والقذف في حق نشاطه السياسي...-وإلقاء هذه الافتراءات في مزبلـة التاريخ- وكأنها عودة إلى أكثر أعوام المكارثية بشاعة...!!! مع غياب حتى مجرد بعـض التحفظات... سنقول الحقيقة كاملة،ولن يمنعنا مانع..

إني أفضل أن أكتب مذكراتي بأحداث حياتي المتغيرة، والمتفرقـة، وهـي حيـاة، وذكريات نشاط مناضلة سياسية ثوريه التحمت، بحياة المناضل هنري كوربيل وكنت ألـزم له من ظله... وهذا هو ما يدعوني لذكره في كل ما أكتب...!.

المادة المتوفرة، والخيط الموصل

يفترض أن تكون عملية تصنيف، وترتيب المواد فـي ملفـات، عمليـة سـهلة... ولكن... كيف يعالج حدث لا يمثل سوى شهادة بسيطة محدودة على نشاط هنري الواسـع النطاق، والمتعدد الاتجاهات..؟ وكيف نعطي من خلال ذلك صورة جامعة شاملة؟!.

أصبح هنري في النهاية، وبكل تأكيد الشخصية السياسية المحورية في حياتي، بـل حل في بعض الأحيان محل اهتمامي بأسرتي..! مع أن اشتراكي اليومي معه في النضـال لم يستمر سوى بضعة أعوام فقط.

---

٥٨ شاركت مع ذلك على إثر المنتدى المنعقد في عام ١٩٩٨ حول " قصة نضال واغتيال هنري كوربيل" في تأسـيس الجمعية بعنوان (ذكرى، وحقائق، والعدالة " حول الاغتيالات السياسية.

وتشبثت بهذا الذكاء الثوري الدافع لإنجاز المشاريع، مفتونة بهذا الثوري المحترف الذي عرفته عن كثب.

ولكني ناضلت قبل ذلك وبعده في ميادين أخرى، ومع مجموعات أخرى في مصر والجزائر – مكثت فيها الجزء الغالب من حياتي – وأيضاً في الرباط، ووجده[٥٩]، وفي جنيف، ومن حين إلى آخر في الخرطوم، ودكار، والقدس، ونيويورك...

لا شك ستكون عملية تنظيم ما أكتبه في شكل رسائل أبعث بها إلى هذا أو ذاك من حبايبي، سواء من أعضاء أسرتي أو من زملائي الأحياء أو الأموات... عملية صعبة، لا سيما عندما أتعرض لبعض ذكريات شبابي في القاهرة[٦٠].

ومن الواضح كانت لدي رغبة...ولما لا ؟...!! أن أشرح لبناتي السبب الذي دفعني إلى ما اخترته من توجه... لأقلص مساحة الشعور بالمرارة... بعد أن قررت ترك والدهم... وأيضاً لتعريفهن بهذا الأب عندما كان ثوري.

وعلى العكس، كان من السهل أن أسرد– قمت بذلك مرة واحدة– تفاصيل اعتقالنا في باريس، وهروبنا من السجن، وكان الغرض من ذلك تجميع مادة لإلقاء محاضرات لدورة تدريبية للمناضلين الذين نساعدهم.

ولا ننكر أن عملية نبش الماضي عملية ممتعة.

وإنما يعتصر الألم أحشائي كلما أثيرت قضية الصراع الإسرائيلي/الفلسطيني[٦١] وما ينوء به كاهل شعوب المنطقة من آلام بدون داع...!! وتزرع العراقيل الضخمة في طريق نضالهم التحريري.

ولأسباب مفهومة، يتبين لماذا لم أكشف عن أشياء كثيرة... عندما أكتب عن نشاط كان يستهلك أقصى ما يمكن من طاقاتي..!.

ولكني أستطيع اليوم أن أتحدث عنه بصيغة الماضي.

ومع ذلك فسنوات عمري معدودة...

وأشعر بحاجة إلى الانتقال إلى الحديث عن شيء آخر.

وتظل مع ذلك بعض المناطق قابعة في الظلال، ولن أتجاوزها أبداً... لأني لست الوحيدة المعنية.هناك آخرون...

أما ما تبقى ؟ فهي بعض المذكرات التي أدونها أحيانا، وتمس هذا العمل.

---

٥٩ وجده مدينة مغربية على الحدود مع الجزائر–المترجم

٦٠ أنظر الكتاب الثاني من مذكراتي.

٦١ الذي لا يتوقف تصعيده باستمرار دون أن يؤدي ذلك إلى تعبئة للمجتمع الدولي ضده.

من يعلم ...؟ قد يكون هذا العمل أسلوبا للتفريغ والتنفيس عن ثقل كبير يصعب علي تحمله... كنت في الماضي ألقيه على عاتق هنري...!

أو محاولة الارتباط بذكرى حية...؟

ماذا سيحدث إن أخفقنا في هذا المسعى...؟

ستنمحي على أية حال ذكرى الأحداث إن لم نوثقها...!

فالكتابة إذاً يا صغيراتي... عمل عادي بالنسبة لمن هم من جيلي. طريقة وأسلوبا في التفكير... اليوم يحل التليفون محل القلم...! والصورة المتحركة .. تكشف الستار عن المشاعر.

لم يتبق أي شيء مما كتب قبل اغتيال هنري. ولا حتى خطاباتنا الشخصية.

فكان شبح التهديد بالتفتيش على غرة... جاثماً على صدورنا. وكان الوسواس متسلطاً ... قد نترك وراءنا سهوا شيئا يستخدمه الأعداء ضدنا، بل قد تحرف الأمور، وتستخدم مادة للتشنيع -ففي بلادنا يتهم الشيوعيون بسهولة بالانحلال الخلقي-..!!! . لذلك كان التخلص من الآثار المكتوبة التي قد تأول وتستخدم استخداما أخرا من بين أسس العمل السري.. وتظل الذاكرة باقية فقط .

وتعود هنري أن يرفع من قدر جميع الزملاء، ويذكرهم بأعمال جليلة، وبدونه تظل طي النسيان.

ومع ذلك أوجست خفية من هذه النقلة، والحديث عن بعض جوانب حياتي الشخصية:

يتطلب لإعداد أطروحة، أو رسالة أو مقال، كم من العمل لضمان التحكم في أركان الموضوع... ولكن عند إثارة أحداث ماضية في بضع سطور، تصبح المادة المكتوبة هي العنصر المتحكم.

ولنتحدث قليلا عن الخيط الرابط بين كل هذه الأحداث .. أي عن:

هنري، والمشروع الشيوعي...

علما بأني لم أقع فريسة الرفض أو البلبلة بعد ما وقع من أحداث...

ولم تسبب التغيرات التي جرت على الساحة الدولية أي شعور عندي بالمرارة بسبب خياراتي السابقة التي وجهت إليها الجزء الأهم من حياتي...

بدون الاتحاد السوفيتي، ودعمه... ما كان بوسع حركات التحرير الوطني أن تحقق اختراقاتها -كما أنه من غير المعقول تصور حدوث الانتصارات الاجتماعية التي حققها العمال في الغرب الرأسمالي بدون تنشيط الثورة البلشفية-

وهي الثورة التي تدور حولها التساؤلات الآن...!! بسبب تغير موازين القوى محليا، ودوليا .

وتعتبر الجرائم التي اقترفها ستالين والتي شجبها القادة السوفييت منذ ربع قرن من الزمن، ليست أكثر بشاعة من المذابح والاستغلال الكولونيالي لكل من فرنسا وإنكلترا، التي يشجبها فقط المثقفون... أو الجرائم التي اقترفتها الدولة الفرنسية تحت زعامة المارشال بيتان، وبشاعة جرائم الحرب الجزائرية، ومنذ وقت ليس ببعيد تلك الأعمال الوحشية الفظيعة التي نجمت عن التصعيد الأمريكي ضد شعب فيتنام.

لم ينتظر خروتشوف أن يتحرك الغرب لكي يكشف النقاب عن أعمال ستالين عام ١٩٥٦، ولم يتأخر غورباتشوف في الكشف عن البيروقراطية الاشتراكية في ١٩٨٥.

متى سيشجب، ويدين القادة الغربيون المساوئ الاجتماعية الناجمة عن إدارتهم لأجهزة عصرية يعيش تحت وطأتها في حالة من الفقر المدقع ثلثي سكان العالم الثالث، بينما يرزح الثلث الآخر في حالة من الفاقة والعوز، يصعب وصفها؟

أما... شاهدت الوضع في الولايات المتحدة الأمريكية...أغنى بلد في العالم!! نسبة ١٨ في المائة أو أكثر من السكان تحت خط الفقر...!!!

عندما كنت في نيويورك شعرت وكأني موجودة في عالم ثالث معولم...!!.

وأكثر من ذلك ...!!

بدأت الفجوات تزداد عمقا واتساعا . بل يعاد مناقشة فكرة إلغاء الحظر على عمل الأطفال... وهو نوع من العمالة القائمة بالفعل الآن في العالم الثالث.

ومن الواضح بطبيعة الحال، سهولة استيعاب الجانب الإيجابي من المشروع الشيوعي... وبذلك تفاديت مشاعر الحسرة والمرارة:

ولم أكرس جهودي كلها للمساهمة في بناء حزب... وضعنا كان -فريدا من نوعه؟؟؟- إلا أنه كان على أقل تقدير وضعا ضاربا جذوره في العمق .

عندما كنا نتدرب مع الزملاء في مصر على وسائل النضال السري... وكان تدريبا أوليا اشترك هنري فيه... لم تكن قد اعترفت موسكو بعد بالمنظمات التي كانت تنادي بالشيوعية في مصر، ولا اعترفت بها الأحزاب الشيوعية الأخرى في عواصم البلاد المستعمرة، والمهتمة على نحو خاص بمنطقتنا.

لذلك كان من الضروري التصرف، والعمل بدون تعليمات، وتوجيهات وبدون تأييد.

لم يكن هذا اختيارنا -كما كان حال المجموعات الماركسية الموجودة خارج الحزب الشيوعي الفرنسي- إلا أننا قبلنا هذا الوضع. وكنا بذلك، على أقل تقدير، من الذين

ساهموا مع هنري في منظمات الدعم دون وجود خط أيديولوجي، ودون توجيهات من الخارج، ودون مصالح سياسية.

وهنا ولد الحزب الشيوعي المصري من جديد...

ولم يكن مخططنا الاشتراك في السلطة، ولم نمثل حتى مجموعة ضغط -لوبي-

لم يمنع هذا الوضع هنري من أن يصرح بأنه ينتمي ولو بصفة فردية، إلى تيار الأرثوذكسية الشيوعية. وأنا أيضاً..!!.

ودون أن أفهم تماما ما كان ينتظره المتذمرون من الاتحاد السوفييتي..!!؟ .

هل كانوا ينتظرون من الاتحاد السوفييتي أن يشعل الثورة لصالحهم ...!!؟

وأن يعلن حرباً نووية ضد الولايات المتحدة الأمريكية للدفاع عن كوبا أو فيتنام !!؟

ثورة عالمية...! غريبة تلك التي تبدأ أولى خطواتها بتدمير جزء من البشرية.!!

كنا في ذلك الوقت قد وضعنا -بطبيعة الحال- الاشتراكية السوفييتية في إطار أسطوري- وتغطي هذه الفترة ذكريات مؤثرة ومثيرة تعود بي إلى أيام الشباب- حتى ظهور تقرير خروتشوف.

لم يبني هنري حول نضالنا أي سياج أسطوري:

فلم يتجاوز الأمر الاعتقاد بتحرير الأراضي المحتلة، وإضفاء طابع إنساني على ظروف معيشة الجماهير الكادحة.

دون محاولة القيام بإسقاطات على مخططات مستقبلية مضيئة...

كنا على أية حال في مصر... سندفع لا محالة الثمن غالياً، باعتبارنا من الفئات الاجتماعية صاحبة الامتيازات..!!.

وما من شك كانت هناك لحظات انزلقت فيها بعيدا... إلا أن الأساس ظل يضرب جذوره في وجداني،

فتردي الأوضاع الإنسانية بالنسبة لي أمراً لا يحتمل، لأن الفاقة والعوز والجهل تحول دون إستمرار معيشة الإنسان اجتماعيا.

لم يكن ذلك سهلا... هكذا بمجرد أن قررنا الوثبة الثورية...! ضد استخفاف سلطة المال ٠٠٠حتىلو كان ذلك استنادا إلى الاعتقاد في وجود تاريخ سرمدي يحتكر الحقيقة

إنني أقدر المشروع الشيوعي ٠

ولكن مع ذلك أحب تلك التماثيل الضخمة التي تشرأب أعناقها نحو السماء، وينظر إليها الآخرون شذراً هازين أكتافهم.

كما أحب الأسلوب المعماري لمآذن المساجد الإسلامية في الشرق، والأيقونات، والرسومات الدينية التي تعبر عن الولع الشديد بالديانة المسيحية وينصرف، ويتحول عنها البعض دون اكتراث،

كما أحب موسيقى السفراد وهي من موسيقى العصور الوسطى. وموسيقى الزنوج البلوز، والتانغو، والأوبرا، في وقت اعتبرها البعض نوعاً من الخرف أو العته.

وأبغض ما عندي هي شوفينية الأمم:

فهي تفرز مجتمعات منغلقة، منكفئة على مشاريع تحديد هوية خطيرة تعمل على تفريغ المحتوى الإنساني من مادته الحية.

أحدد مرة أخرى في كلمة موقفي من النضال النسوي... كيف أستطيع أن أشرح لك يا ماري إيميه[٦٢]؟.

أشعر برغبة جامحة للتصرف بحرية فيما أختاره من نشاط... إني مستعدة دائماً للدفاع عن حقوق الجماعة، ولكن لا حيلة لي بالمرة في فهم نفسية الأفراد، وسلوكياتهم...

لكل مجال نضاله... ولا يمنع ذلك من أن أقدر مجال نضالك... فأنت تدركين لاشك أن إسهامك يضيف شيئا إلى مشروع التحرير الكامل للبشرية ..

أما الحب ؟... والوله ؟... والضحك؟ ...آه ...وآه... يا أحفادي هل ستعثرون على سبيله ... ؟!

***

---

٦٢ منسقة شبكة اتصالات بين جماعات النساء في منظمة غير حكومية.

الجزء الأول

الجزائـــــر...

تخيل رشيد -الذي ألقي في السجن بعد فراره من الخدمة العسكرية- وهو جـالس فـي زنزانته، أنه سمع في ذلك اليوم سي مختار يبوح بانفعال ببعض أسراره ...وهو يتحدث مـع نفسه قائلا "ينبغي أن تفكر في مصير هذا البلد الذي نحن منه ... قد تفكر دائماً فـي الجزائـر المكتسحة المحتلة، وماضيها المبهم المعقد، ... ولكن نحن لسنا أمة...! لم يحدث ذلك بعـد... أما تعلم ٢٠٠٠؟ لا نعدو أن نكون سوى قبائل ممزقة"

كاتب ياسين " نجمة "

أول خطوة ضرورية... هي خطوة المطالبة باستقلال المستعمرات ...

روبير بونو " أين يتجه التاريخ " ؟

محترفو الدعم...
خبرة كفاح من نوع خاص

نعم للذكرى الحية الملتزمة، والبر بالوعود...[1]

لا للكبت الحركي ..![2] وخرف الشيخوخة[3]...

وأخيرا ...اعترف المندوبون الفرنسيون في المجلس الوطني الفرنسي في ١٠ يونيو ١٩٩٩ بأن ما حدث في الجزائر كان بالفعل في عرف ما يسمى بالحرب الضروس..!!. بل هي تعتبر إلى الآن... من أكثر الحروب ضراوة، ووحشية في القرن العشرين كله...

أطلق الفرنسيون عليها في الماضي مسميات كثيرة منها... "الأحداث"، أو "عمليات أمنية تقوم بها الشرطة"، أو "مشاريع فرض السلم" ...

ولم يحمل المواطن الجزائري من الأهالي اسما يسمى به... هكذا !

يطلقون عليه تارة "العربي"، أو "إفريقي شمالي"، أو تارة أخرى "المسلم" أو "الفرنسي المسلم" !... وحمل اللقب الأخير عندما اكتسب المواطنة الفرنسية...!

ورغم ذلك لم يسمح له بالتصويت إلا في مدارس مخصصه له وحده توضع فيها صناديق الإقتراع... وبمعزل عن الناخبين الآخرين...!

فضلا عن ذلك، وحتى يكتسب المواطنة الفرنسية يجب الإشارة إلى منشأه الأصلي... وأن يكون ذلك على أساس ديني...!

ثم عليه أن يتنازل عن تطبيق الشريعة الإسلامية

ولا يظهر عدد المهاجرين الجزائريين منفصلا في التعداد الرسمي الفرنسي، لأن "الجزائر هي فرنسا...!!". وباندلاع الحرب أصبح "لمن لا يحمل اسما" جنسية...!

بدأت الحرب في أول نوفمبر ١٩٥٤ -بارتكاب سلسلة من الاعتداءات- وهو يوم عطلة دينية لدى المسيحيين يعرف بعيد "جميع القديسين" أو" يوم الموتى"،

---

[1] تصارع رغبات الكاتبة بين معاودة الحديث عن الماضي، وما يشدها بعيدا... للحديث عن المستقبل ... ورغم ضيق الوقت!! فإن من لا يعرف ماضيه ... كيف له أن يستوعب الحاضر ، وكيف يمكنه تصور المستقبل ...!!!- المترجم

[2] وهي الملنخوليا أي نوع من الكآبة 'لانفعالية.

[3] خرف الشيخوخة، أو ذهان الشيخوخة هو مرض عقلي يصاحب الشيخوخة ولا ينتج عنها بالضرورة- المترجم

تقديم الناشر

عرفت ديدار فوزي، وزوجها عثمان فوزي الذي كان من الضباط الأحـرار في منتصف عام ١٩٥٠. وكان ذلك قبل قيام الثورة في ٢٣ يوليو ١٩٥٢. وكنت وقتها هارباً من السجن قاطعاً تنفيذ حكم بالسجن خمس سنوات في قضية شيوعية، أمضيت منها ستة عشر شهراً. وكنت أتخفى في بيوت الأصدقاء والزملاء في القاهرة. وكان منزل ديدار وعثمان فوزي هو آخر منزل ألجأ إليه. وكان لديهما طفلتين في السنين الأولى من عمرهما.

وكانت ديدار وزوجها مناضلان من أجل حرية مصر وتقدمها وتخليصها من الحكم الاستبدادي والظلم الاجتماعي.

ومن أشكال هذا النضال تطوعهما بإيوائي وحمايتي بعد هربي. ولقيت منهما كل رعاية وعناية رغم المخاطر التي يمكن أن تلحق بهما خصوصاً وزوجها كان ضابطاً في الجيش. وبعد أن رتبت سفري إلى الخارج عن طريق بور سعيد تطوع بنقلي بسيارته إلى هناك.

وديدار فوزي مصرية مناضلة منذ شبابها حتى اليوم وقد تعدت الثمانين من عمرها ولكنها في نشاط الشباب وحماسه. ومازالت مشتعلة رغبة في مواصلة النضال والإنتاج. وقد حصلت على الدكتورة من جامعة باريس في رسالتها عن السودان وقد أصدرنا لها كتاب " السودان إلى أين ؟ ". و" مذكرات مناضلة " هو الكتاب الثاني الذي نصدره لها. صدر منذ عدة سنوات عن دار أرماتان بالفرنسية. ونصدر ترجمته العربية. وهو يتحدث عن نضال شاركت فيه لمساندة جبهة التحرير الجزائرية ثم تتحدث بعد ذلك في الكتاب عن نضالها من أجل الشعب الفلسطيني ومن أجل السلام العادل، وتحكي من خلال سيرتها الذاتية عن ذكرياتها أثناء ممارستها لهذا النضال.

ويوضح هذا الكتاب وهذه السيرة أن ديدار شخصية متميزة بل ومناضلة تستحق حياتها ونضالاتها أن تكون دروساً للشباب وللمناضلين.

محمد يوسف الجندي

وانفجرت بعد ذلك انتفاضة فلاحية في ٢٠ أغسطس ١٩٥٥ في شمال ولاية قسنطينة.

أرسلت وحدات عسكرية فرنسية إلى الجزائر بعد التصويت على تنفيذ الأحكام العرفية في مارس ١٩٥٦،

تظاهر بعدها المجندون الفرنسيون في شهر مايو في مظاهرة ضخمة سارت في شوارع باريس- وهي الوحيدة من نوعها- ووقف المتظاهرون على خط السكة الحديد لمنع ترحيل الجنود.

كما توقفت الخدمات المدنية[٤] في الجزائر العاصمة عن العمل بسبب تكاثر الاعتداءات المسلحة...

استخدمت فيها المتفجرات، والقنابل... وبمباركة من حكومة ـ "جي موليه" الاشتراكية... !!

انتقلت السلطات القمعية من أيدي الشرطة بعد ذلك إلى رجال المظلات ... وأصبح للعسكريين – ابتداء من ذلك الوقت- مطلق الحرية للتخلص من "القتلة واضعي القنابل، والمتفجرات"[٥]..!!.

وأقام الجنرال جاك ماسو وفريقه من كولونيلات الجيش الفرنسي مقر أركان حربهم في حي "القصبة" الشعبي في العاصمة.

ومضت الاستعدادات على قدم وساق لشن ما عرف فيما بعد بـ "معركة الجزائر العاصمة " التي اندلعت في يناير ١٩٥٧.

بدأت جلسات الاستجواب "الجهنمية" مع المشتبه فيهم في شهر يناير ١٩٥٧.

واعتقل في ليلة واحدة ١٥٠٠ شخص...! منهم أوروبيون من رجال ونساء كانوا قد انضموا إلى صفوف جبهة التحرير الوطني الجزائرية[٦].

وسرعان ما انتشرت ممارسات التعذيب...

كان أول من تحدث عن التعذيب في فرنسا هو روبير بونو.

---

[٤] استخدم العسكريون لأداء الأعمال بسبب عجز الخدمات المدنية عن الاستجابة للإحتياجات

[٥] من بين الضحايا إيفتون من" الأقدام السوداء" أي المستوطنين الأوروبيين- أعدم في سجن الجزائر العاصمة بالمقصلة في ١١ فبراير ١٩٥٧... ليضرب به المثل للآخرين !-وضع قنبلة في مصنع لتعبئة الغاز في حما، وثبت أنه نظم توقيت الانفجار في وقت لا يتواجد فيه أحدا...

[٦] واشتركوا كغيرهم في أعمال النسف بالمتفجرات أثناء "معركة الجزائر العاصمة".

وهو شيوعي أستدعي للخدمة العسكرية في الجزائر، ويحمل درجة علمية عليا Agrege في التاريخ، وصدر له مقال بعنوان "السلم في ننمشاس"[٧] نشرته مجلة Esprit في إبريل ١٩٥٧. وتحدث المقال بإسهاب عن قضية موريس أودان، مساعد أستاذ في كلية العلوم في الجزائر العاصمة وعضو في الحزب الشيوعي الجزائري... اعتقله رجال المظلات في إبريل ١٩٥٧، وعذب حتى الموت..!! وزعم بعد ذلك أنه كان من بين المفقودين[٨] في ٢١ يونيو١٩٥٧...!!!

وكثيرا ما نشاهد اليوم... التليفزيون الفرنسي يعرض أفلاما وثائقية كثيرة تكشف وقائع، وأحداث حرب الجزائر، وجلسات التعذيب التي مارسها العملاء البغاة.

بينما يدعي البعض أن الحديث عن التعذيب قد استغرق ثلاثين عاما حتى يطفو على السطح...!!

وهذا كذب فاضح وبهتان.

فضلا عن مقال بونو واختفاء موريس أودان، ظهرت عام ١٩٥٧ بعض البوادر، والمؤشرات...

أدان الأستاذ جاك فيرجس المحامي أعمال التعذيب٠٠ وهو الذي دافع عن المناضلة الجزائرية جميلة بوحريد[٩]٠٠ ضحية الأساليب الوحشية المشينة التي استخدمت ضدها من أجل حملها على الاعتراف على الآخرين.

بعدها، قدم بول تيتجن السكرتير العام لبلدية الجزائر العاصمة، استقالته، وأعلن "أنه عثر محفورا على أجساد بعض المعتقلين آثار التعذيب الشديد..." كان قد عرفه هو شخصيا عندما كان ملقى في أقبية التعذيب التابعة للجستابو".

كما استقال الجنرال ديل بولاردير رافضا "أن تضرب عرض الحائط القيم الأخلاقية التي كانت ركيزة شيدت عليها عظمة الحضارة الفرنسية.".

وفي ١٩٥٨ نقل المؤلف الذي وضعه هنري آليج بعنوان "المسألة" وهو في السجن، سرا إلى الخارج ونشر، وتم مصادرة نسخ الكتاب بعد ذلك -ويتكرر ظهور الكتاب مرة

---

[٧] اسم قبيلة موجودة جنوب ولاية قسنطينة شرق الجزائر.

[٨] رفض بيير فيدال-ناكيه ، عالم التاريخ في كتابه عن قضية اودان ما صرح به الجيش الفرنسي عندما ادعى أن "موريس اودان هرب من سيارة (جيب) كانت تنقله إلى عملية استجواب • وقال أنه بالأحرى قتله أحد الجلادين العسكريين خنقا في جلسة تعذيب • أطلق أسمه بعد الاستقلال على أحد ميادين العاصمة الجزائر • وقام الفنان أرنست بنيو أرنست -- بمناسبة يوم الجزائر٢٠٠٣ برسم لوحة الفقيد وتم سحبها (سينوغرافيا) لتلصق على الجدران وفي مكان إقامته سابقا لإحياء ذكرى هذا العالم الشاب أستاذ الرياضيات وعلقت أيضا على مبنى البيار وهو المكان الذي عذب فيه المحامي على بو منجل قبل أن يلقوه من الطابق الخامس بناء على أوامر الجنرال أوسارس٠٠

[٩] أنظر الكتاب بعنوان" من أجل جميلة بوحريد" دار نشر منوي

أخرى عام ١٩٦١- ونشر أيضا في إنكلترا،وايطاليا عام ١٩٦٣ كتاب بيير فيدال- ناكيه بعنوان "التعذيب في داخل الجمهورية"، أعادت دار ماسبيرو للنشر طباعته وتوزيعه عام ١٩٨٣

وصدرت -خلال كل هذه الأعوام- مقالات عديدة حول التعذيب ظهرت على صفحات صحف كثيرة منها "لموند، وليومانيتيه، والاكسبريس، وفرانس- اوبزيرفاتور، وتوم موديرن، وإسبري ..." ودائما كان هناك من لا يود معرفة شئ عما يجوي...!! - وأيضا الذين يجدون في البحث دوما عن الحقيقة.

انتشرت مقولات مرددة، ومحذرة من -أن العنف يولد العنف...؟!-، وحري بالشعب الجزائري أن يتوقف عن الكفاح المسلح...!! ليبحث عن طرق أخرى..!!.

ولكن هل تركوا له حرية الاختيار؟! الغزو، والاجتياح، وفرض السلم الدموي، وتزوير الانتخابات ...هذا كل ما ناله... أفلم نكن نعلم ؟

لم يعترف فرحات عباس في بادئ الأمر بوجود أمة جزائرية واقترح خطة لتحرر الجزائريين، ونشر المساواة بين الجميع تطبيقا للقانون. ولكن، لم يتوقف أعضاء المجتمع الكولونيالي في الجزائر عن بناء الحواجز الفاصلة طوال الأعوام التي عاشتها هذه المأساة التاريخية...

بدأت أولى فصول هذه المأساة بخروج مظاهرة في٨ مايو ١٩٤٥.

اشترك في ذلك اليوم المشهود في الاحتفال بالانتصار على النازية الجزائريون والأوروبيون ، وطالبوا بالمساواة بينهم في ظروف المعيشة.

وجاءت نهاية ذلك اليوم سريعا...؟ في أعقاب طلقة نارية هائمة... سيئة الحظ.. وكما يقال -رب رمية من غير رام ...!!!

ارتكبت بعدها حمامات دم في مدينة سطيف[١٠]،

وتعالت الأصوات بشدة على امتداد عقد من الزمن مطالبة بالمساواة، ثم تحولت هذه المطالبات إلى مطالب وطنية، وأصبح الكفاح المسلح هو السبيل الوحيد إلى الاستقلال...- فقد بلغ السيل الزبى- كما كان الحال في فيتنام...

وتلقي المطالبات المشروعة للشعبين الفيتنامي والجزائري، الضوء على تطور حركة المعارضة الفرنسية ضد هذه الحروب الكولونيالية... وتفسرها.

---

١٠ مدينة جنوب القبائل الصغرى

ولكن في حالة الجزائر بالذات- وهي الأكثر قربا من حيث المسافة، والأكثر كثافة من حيث أعداد المستوطنين الكولونياليين- نشأت مجموعات المعارضة في الموقع ذاته، وظهرت في فرنسا أيضا لتقدم المساعدة العملية المحددة إلى مناضلي جبهة التحرير الوطني الجزائرية.

ونفذت هذه المساعدة سرا... فالأمر يتعلق بحرب لم يعترف بوجودها أصلا...!!! والجزائر تعتبر في ذلك الحين جزءا من فرنسا ..

مع بعض الاختلاف في الفهم:

""كان المناضلون من أصل أوروبي في الجزائر أعضاء في جبهة التحرير الوطني الجزائرية""،

أما في فرنسا ""انتظم المناضلون في شبكات فرنسية للمقاومة- وأكثرها أهمية تلك التي أسسها فرانسيس جانسون -...وأعاد تنظيمها فيما بعد هنري كورييل.

ساعد فرنسيون كثيرون بصورة منتظمة في فرنسا الكفاح السري الذي قام به المناضلون من أعضاء جبهة التحرير الوطني الجزائرية. وأغلب من انتظم في هذا النشاط كان من فئة المثقفين، من مسيحيين، وقساوسة كاثوليك، بل أيضا أعضاء من أحزاب اليسار ممن أصابهم الإحباط بسبب المواقف التي اتخذتها قياداتهم.

فمن ناحية كانت الحكومة التي تشن الحرب، حكومة اشتراكية...!!،

ومن ناحية أخرى، نعلم أنه رغم اتخاذ الحزب الشيوعي الفرنسي موقفا ضد الحرب في الجزائر، صوت مؤيدا تطبيق الأحكام العرفية إلى جانب الحزب الاشتراكي الحاكم...!!!

بل لم يوافق على هجر أعضائه الخدمة العسكرية، أو أن يمارسوا نشاطا سريا لدعم جبهة التحرير الوطني الجزائرية...!!

ومن بينهم فرانسيس جانسون، وهو فيلسوف، ومرجع متخصص لأفكار سارتر الفلسفية.

فضل في شبابه أن ينتقل إلى المنفى عن أن يخضع للجنرال بيتان... ولألمانيا النازية.

ذهب إلى الجزائر -بعد إبرار القوات الأمريكية في شمال أفريقيا أثناء الحرب العالمية الثانية- واصطدم أثناء قيامه بجولة في الجزائر لإلقاء مجموعة من المحاضرات -تناولت مؤلفات جان بول سارتر- بالخطاب العنصري للمجتمع الكولونيالي...

وانتقد عدم بر الجنرال ديغول بوعده- الذي أعلن عنه أثناء الحرب العالمية الثانية- للشعوب المستعمرة. وأصبح على يقين بعد اتصاله بالسياسيين الجزائريين ""أن استقلال

الجزائر أمرا لا مناص منه"". وعبر عن ذلك في الكتاب الذي ألفه بالاشتراك مع زوجه، ونشر في ديسمبر ١٩٥٥، بعنوان "الجزائر الخارجة على القانون"

وقرر التحول الكامل بعد نتيجة التصويت -على تطبيق الأحكام العرفية- إلى النضال العملي. وفي هذا السياق التقى جانسون وكورييل وكانت حلقة الوصل روبير بارا

كان روبير بارا محررا صحفيا كبيرا مناهضا للكولونيالية، ينتمي إلى اليسار المسيحي. أصيب بالمرارة من السياسة الفرنسية التي تمارس القمع بلا هوادة ضد السكان عندما يتظاهرون من أجل الحرية سواء في الجزائر، أو في مدغشقر، أو في الهند الصينية،

وكان يبحث رغم ذلك عن السبل الممكنة، والوسائل الكفيلة للتوفيق بين المتصارعين، في محاولة لتفادي مذابح الدم عديمة الفائدة... وبالفعل كان هذا جزءا مما نفذه عندما زار قوات المقاومة في الجزائر في سبتمبر ١٩٥٥ وأجرى تحقيقا صحفيا مع مجموعة تكونت من ١٥ مقاتلا في محاولة للتعرف على الظروف الكفيلة بوقف حرب بلا نتيجة ظاهرة استمرت ثمانية أعوام[١١]...

وواصل عرض أفكاره، والأسباب التي دفعته إلى رفض هذه الحرب "وإعادة الغزو الكولونيالي للجزائر" مفصحا عن قراره النهائي برفض الاشتراك فيها إذا ما استدعي للخدمة العسكرية، وردد ذلك في عدد من المقالات، نشرتها له المجلات والنشرات المسيحية.

صادرت هيئة القضاء العسكري جواز سفره... إلا أنها تفادت محاكمته علنيا. ووقع في أغسطس ١٩٦٠ على "بيان ١٢١" الذي أيد الحق في عدم الخضوع للخدمة العسكرية وكان واحدا من الذين صاغوا هذا البيان ...

إذن لم تكن "جريمة!!" مساعدة المناضلين أثناء حرب التحرير الجزائرية، قضية جزائرية فرنسية فقط...

عندما ألقت الشرطة الفرنسية القبض علينا في ٢٨ أكتوبر ١٩٦٠، كان هنري موجودا في المنظمة... وهو مصري... أصبح بلا وطن...!! كما ألقت الشرطة السويسرية القبض على زوجه في جنيف، وقبض على جيهان دوفانجان وهو فرنسي، وزميل سويسري هو كريستيان موتيه، ومصرية ... وهي أنا.

---

١١ نشر تحقيقاته الصحفية فيما بعد في المجلة الأسبوعية" فرانس أوبزيرفاتور" الصادرة في ١٥ سبتمبر ١٩٥٥ بعنوان "صحفي فرنسي بين صفوف الجزائريين الخارجين على القانون".

وقبل ذلك بعدة شهور، ألقي القبض في هولندا على الأممي اليوناني ميشيل فربتيس المعروف باسم بابللو، وهو الذي فتح في المغرب ورشة سرية لصنع السلاح وصيانته لخدمة جيش التحرير الوطني الجزائري. ووقع في قبضة البوليس في نفس الوقت في ألمانيا المصور النقاش على الجرافيت الهولندي أوندريخ، وهو من أعضاء المقاومة القدامى ضد النازية، وضبط المناضل مشغل جهاز المطبعة في أمستردام باسم جوب سوارت مع أجهزة للطباعة أوفيست تستخدم تحت إشراف جبهة التحرير الوطني الجزائرية. كما قام في بروكسل يهودي أرجنتيني باسم أدولفو كامينسكي، المعروف باسم جوزيف، بإنتاج البطاقات الشخصية المزورة من أجل شبكة جانسون، وانتشرت على طول الحدود المختلفة بين بلدان أوروبا فرق لمساعدة المناضلين على عبور الحدود البلجيكية، ومن لكسمبورغ، ومن ألمانيا، وسويسرا ... كلها ساهمت في مساعدة المناضلين الجزائريين التي تتعقبهم السلطات الفرنسية، ومنهم أحيانا من صدر ضده حكم غيابي بالإعدام .

وفي مدينة لوزان قام نيلز أندرسون وهو سويدي ومدير لا سيتي بطباعة المنشورات وغيرها من المطبوعات الممنوعة، كانت تعدها جبهة التحرير الوطني الجزائرية، كما قدمت مساعدات للرافضين، والفارين من الخدمة العسكرية من الفرنسيين.

كل هذا يدل على وجود أفراد، ومجموعات لا هي جزائرية فقط، ولا فرنسية متعاطفة مع القضية ولكنها مجموعات لم تكن معنية مباشرة بهذه الحرب. وعلى مستوى آخر قامت مجموعات برلمانية، ورابطات مدنية بممارسة الضغط على حكوماتها من أجل تنشيط قضية استقلال الجزائر أمام الأمم المتحدة، دون أن يكون لبلدانهم صلة ببلدان أخرى، مثل مصر عبد الناصر، التي كانت تقدم العون المادي، من أموال، وسلاح، ومعسكرات تدريب، ووسائل دعاية للنضال الجزائري.

ولم يختلف موقف الدعم عن الموقف الذي كان موجودا أثناء الثلاثينات... عندما دافع الأوروبيون المناهضون للفاشيست عن أسبانيا الجمهورية. ففي كلا الحالتين، كان هناك شعور بأن القضية قضية أممية، وعالمية... قضية مد يد المساعدة، والتضامن. مع وجود هدف محدد، وهو السعي لوقف -صعود التيار الفاشستي في أوروبا-.

وعرض بعض صغار الشباب مساندتهم للقضية... بسبب خيبة الأمل من-الطريق المسدود الذي سلكته الثورة البروليتاريه في الغرب- أو بسبب الشعور بالاشمئزاز، والتقزز من -غطرسة، وعجرفة مواطنيهم الآخرين-: وكثيرا ما انضموا كأفراد إلى صفوف جبهة التحرير الوطني الجزائرية، وإلى حركات التحرير الأخرى التي تمارس الكفاح المسلح، وحملوا معهم إلى هذا الميدان الجديد من الكفاح السياسي آمالهم الثورية.

وهنا ... نتبين البعد الجديد الذي اكتسبه نشاط المساعدة العملية للنضال الجزائري عندما ظهر في الحلبة قادة أمميون جاءوا من بلدان العالم الثالث أيضا... ومنهم هنري كورييل.

كانت المساعدة العملية المحددة المقدمة إلى نضال التحرير الوطني من موقع داخل البلد المستعمر الأم المهيمن، تنسجم مع تعاليم لينين...، ومع تقاليدنا الكفاحية، وأساليب عملنا النضالي.

إلا أن وضع مجموعة المنفيين الشيوعيين المصريين من أصل يهودي في باريس كان مختلفا... وكان عليهم تقديم مساعدة عملية محددة -أغلبهم بدون وطن، متزوجون يعولون أطفالا، ولو طردوا تصبح مأساة حقيقية...-.

أما هنري...فجأة ٠٠٠وجد نفسه متفرغا[١٢] - وكرس كل وقته لهذا النضال -ولم يخطر بباله أبدا ولو للحظة واحدة هجر مهنته كمحترف ثوري-.

وكان يتمتع بخبرة أكتسبها من الكفاح السري في مصر ... وعلى معرفة عميقة بقضايا شعوب العالم الثالث، كما كان يملك ثقافة فرنسية أفادته في ظروف النضال من أجل تحرير الجزائر.

واصطحب معه في هذا المشوار.. ثلاثة من زميلاته، أنا منهن[١٣] ...

تأثرت بقيمه وأخلاقه النضالية العالية. فضلا عن رغبتي المتأججة للمساهمة في دحر النظم التي تحط من شأن آدمية الإنسان٠٠٠ ويقبع على قمة هذا الهرم٠٠٠ النظام الكولونيالي.

طبعا ! تميز الوضع بسهولة كبيرة في حالتي ...؟

فلم أكن فرنسية، وكانت هناك تجربة مريرة ... أي تجربة العدوان الثلاثي على مصر التي لم يمض عليها وقت كبير

""فعندما وطئت أقدام رجال المظلات الفرنسية أرض بورسعيد كان ذلك بالنسبة لك يا "جيل" مجرد "نزهة" جميلة""[١٤]. ..!!

أما بالنسبة لي فكان معناه مزيدا من جثث القتلى...

وقد تأثر كثيرون بسبب الأوضاع المرعبة التي سادت الجزائر عندما تولى رجال المظلات مقاليد الأمور، وعندما مارس البوليس الفرنسي أعمال التعذيب. كنت أستطيع تصور حدوث ذلك في مجتمع متخلف...! ولكن كيف يمكن أن يحدث هذا في فرنسا ...؟!!

---

[١٢] قرر الحزب الشيوعي المصري في ١٩٥٧ الذي جاء بعد اندماج مجموعة منظمات منها حدتو استبعاد هنري من القيادة طالما ظل في الخارج، وقرر حل المجموعة المعروفة باسم مجموعة روما التي كانت تمثل حدتو في الخارج

[١٣] كانتا روزيت زوجه وجويس بلو.

[١٤] كان يطلق الفرنسيون على الحملة العسكرية اسم "نزهة" إلى بورسعيد.

أدين هنري أليج في نوفمبر ١٩٥٧، وهو شيوعي من -الأقدام السوداء... أي من المستوطنين الفرنسيين في الجزائر- وهو من أصل يهودي، ومدير الصحيفة اليومية الصادرة في العاصمة الجزائرية، والمنتشرة على نطاق واسع باسم "الجزائر الجمهورية" لماذا...؟ لأنه مس أمن الدولة.

نظم روبير بارا أول اتصال بين جانسون وكوربيل.

لا شك هناك لحظات ترسخ في الذاكرة: كنت مع هنري عند روبير عندما تناول الحديث المشاكل الفنية التي كان يتعرض لها فرانسيس جانسون في نقل أموال الاشتراكات التي يسددها العمال الجزائريون إلى مكان آمن خارج فرنسا.

لعب هنري في أول الأمر دور "المستشار التنفيذي" عندما أعاد تنظيم الشبكة مضيفا إليها أعضاء جدد، ثم تولى إدارة النشاط -بعد اعتقالات فبراير ١٩٦٠-. وساعدته خبرته النضالية -كان قد مضى عليها في ذلك الوقت ١٥ عاما- وقد بلغ الأربعين من العمر، فضلا عن طبيعته الأصيلة -تفويض المسئوليات إلى الآخرين- وما تحلى به من أفق واسع -عكس ميول التشيع، وضيق الفكر- أن يكون على درجة عالية من اليقظة عند تطبيق قواعد الأمن في إطار نشاط الشبكة السرية، مع الاستفادة من أقل الإمكانيات المتاحة لتطوير الحركة المناهضة للحرب داخل فرنسا.

وهذا ما دعاه إلى إيلاء أهمية قصوى لمقابلات -جانسون وكازانوفا -عضو أكبر حزب في فرنسا يتمتع بخبرة نضالية منظمة في ذلك الوقت، وهو الحزب الشيوعي الفرنسي.

وشجع بهذه الخطوة التطور المستقل "لحركة المقاومة الفتية"، وانكب على خلق حركة فرنسية مناهضة للكولونيالية لوضع نهاية للمذابح.

خرج هنري من تحت عباءة التجربة المصرية الغنية... لذا كان محصنا من تسلط أي نوع من الأوهام، أو الخيالات على فكره -وهذا فيما يتصل بمسار الثورة الجزائرية...- وأنا كذلك...

ويختلف الأمر بالنسبة للثوار المنحدرين من المجتمعات المرفهة عندما يطالبون المجتمعات المستنزفة والمستغلة أن تستجيب كلية لخيالاتهم وأحلامهم...

ولم تكن مساهمتي العملية مجرد مغامرة، أو فصلا من فصول مسرحية درامية، ولكن على العكس من ذلك... كانت أمرا ضروريا ومطلوبا.

هذا رغم الاستجابة في بعض الأحيان -في إطار العلاقات الإنسانية في ظروف النضال- إلى حاجة دفينة قد تكون محاولة لجس النبض لقياس القدرة على التفوق على الذات والتحكم فيها...

تمتعنا ولو لفترة زمنية بسيطة بهذه اللحظات.. أي عندما تتخلل نزهة مسائية في باريس -ندور فيها بالسيارة- لتوزيع منشورات الدعاية، وهي لحظات أثارت فينا شعورا بالانشراح، وخفة الروح...!

طالبنا هنري وجانسون بتوخي أقصى درجات الكفاءة والفعالية. ولم يكن ذلك لدرء الخطر عنا...! فنحن ندافع عن قضايا عادلة، لا عن مصالح شخصية ولا نسعى إلى الهروب بجلدنا من مأزق ما.

هل يحتاج الأمر أن نكرر مرة أخرى كل هذا الكلام ؟!! أليست الأمور واضحة ؟ ما الذي دفع الثوار الجزائريون إلى الكفاح المسلح؟!! ألم يكن هذا نتيجة موقف المجتمع الكولونيالي الرافض لحق المواطنة المتساوية ؟

إن كان المناضلون الفرنسيون قد نظموا شبكات المساعدة العملية لهذا النضال، ورفضوا قبول الخدمة العسكرية..؟ ألم يكن هذا بسبب شن حكومتهم باسم الشعب الفرنسي حربا كولونيالية، وممارستها التعذيب؟. وعندما واجهوا سلطات الدولة المستمرة في استعباد الشعوب التي بدأت في النهوض من كبوتها ...أصبحوا عناصر نشطة في ملحمة تاريخية... ملحمة النشاط النضالي المبني على اتخاذ القرار الإيجابي، والتنفيذ العملي، لا مجرد المعارضة السلبية التي لا نعرف لها بداية أو نهاية...!! أليست هذه صورة قد تكون أقل معاناة مقارنة بنضال طويل الأجل...؟! وتسير أيضا في اتجاه تاريخنا المباشر؟؟.

أنهيت الكتابة في غضون شهر واحد... وأعددت مواد دورة تدريبية بناء على خبرة معاشه (إلقاء القبض، السجن ، والهروب منه)

فضلا عن نسخ كراسات تدريب لمناضلي حركات تحرير أخرى، واشتركت في إعداد سيناريو طلبه -المكتب الوطني الجزائري للسينما- .

وتمخض عن كل هذا النشاط النضالي كم ضخم من التفاصيل سجلت، وخزنت في خلايا المخ...، وحدث ذلك دون أن أشعر.

ولم يتبق أمامي إلا استعادة هذه الذكريات، وتدوينها.

ونجح "جيل" في استخلاص بعض الملامح ليعد بها مؤلفه عن هنري.

لم تعد اليوم هذه التفاصيل تفيد من الناحية الفنية في شئ، مع التحوط من كثرة ترديدها حتى لا يؤدي ذلك إلى الشعور بجنون العظمة...!!

ربما يتفوق آخرون في سرد تفاصيل حياة شخص ما[15]... ولكن كيف لنا أن نتفادى رغم ذلك الشعور بالضيق... عندما نشاهد القريبون منا يتحدثون عن الكاتب ...كما لو كان هو الذي يسرد تفاصيل وأحداث حياته ...!! كأنه هو الذي عاش أحداث حياتك...!! وقد تظهر عناصر أخرى تذكر الآخرين وتساعدهم على إعداد مشاريع أخرى للكتابة عن هذه التجربة النضالية الخاصة التي كانت هي تجربتك أنت...!!

الجزائر، مارس ١٩٨٠

ولكن هنا كما كان الحال في مناسبات أخرى... لم أستطع الامتناع عما قررت الكلام عنه ...إن العلاقات التي تقوم أثناء العمل النضالي التي لا يؤثر فيها البعد المادي، ولا التوترات التي قد تحدث من حين إلى آخر، ولا تترك أي شعور بالمرارة تمثل دافعا قويا.

لن أنسى ما دمت... ما شعرت به من انشراح، وسعادة في أول لقاء لنا، ومظاهر الفرح التي صاحبها صخب وأصوات عالية فرحة... تردد في منتصف الطريق... عندما تقابلت وهنري في باريس ...كان ذلك في خريف ١٩٥٧.

لم نحتاج إلى استعراض شئ... كانت مراسلاتنا منتظمة للغاية.

وكان هنري في احسن أحواله... كله حماس ...رغم قرار الحزب إبعاده عن قيادة الحزب الشيوعي المصري الجديد ...

طالما يظل بصفة مستمرة في الخارج،

وطالما لم تعدل جريدة ليومانيتيه عن وصفه -بالشخصية المريبة ...!! المشكوك فيها..!!- وتتكر ذلك تماما[16] ...

وطالما لم يوجه الحزب بعد أي إنكار لما ينشر عنه..

---

١٥ "الطريق رقم ١ الولايات المتحدة الأمريكية"، فيلم وثائقي ممتاز أخرجه روبيرت كرامر، ترك لدي رغم كل شيء مذاقا مرا: فبطل الفيلم في المشهد الأول ... طبيب مؤثر كان يحلم بالثورة، وبدا وكأنه يتحمل عبئا كبيرا. وكان مدمنا بعض الشيء على الكحول، أما باقي المشاهد فهي تصور أناسا متقدمين في العمر طريحي الفراش ... ولم تكن من المشاهد التي أرغب في إحيائها ... فضلا عن تصويرها مشاهد تجري في مجتمع في الوقت الحاضر. وكان حري بأن يكون فيلما خياليا. أو أن يجمع الوسائل اللازمة لتصوير مناضلين قدامى يكافحون ... يتشابكون بسواعدهم مكونين سلسلة تلف حول جدار مدينة القدس القديمة ... إعرابا عن رغبتهم في تحقيق السلام... مشتركين في مظاهرة ضد الحرب في الخليج، جريا على الأقدام... وأكتافنا متلاصقة وممددين لدقيقتين من الزمن على الأرض المتجمدة من البود مع رينيه دومون تضامنا مع السكان العراقيين الواقعين تحت نير القصف. وعند هذه النقطة ينعكس الشعور الجارف في نبضات درامية عالية يصعب قياسها... مهما كان عمر المرء، واعتقد أن ميشيل خليفي، الذي تنبع من جوفه مشاعر حساسة يمكنه النجاح في تصوير مقاطع من هذا الفيلم.

١٦أعرب الحزب الشيوعي الفرنسي في مايو ١٩٩٨ بمناسبة الذكرى العشرين لاغتيال هنرى عن عدوله عن موقفه السابق من هنري وقام بتأبينه . أنظر الملحق رقم ١

(الكتاب الأول)

المحتويات

ودون الاسترسال في ثرثرة لا لزوم لها... حافظ هنري على الاستمرارية في نشاطه النضالي، ولم يعرقل مساره قرار الحزب الشيوعي المصري بحل "مجموعة روما".

وافق الزملاء في باريس... أي أعضاء "مجموعة روما"، قبل وصولي، على طلب لطباعة المنشورات الخاصة "باتحاد الجزائريين في فرنسا" التابع لجبهة التحرير الوطني الجزائرية. ونقلت روزيت كوربيل "بلانش" -وهو اسمها الحركي عند الجزائريين- هذه المنشورات بالسيارة في حقيبة ورقية للمشتريات، وسلمتها في أحد أركان شارع مهجور إلى مناضل من جبهة التحرير الوطني الجزائرية هو طالب إبراهيمي[١٧].

وحسب تقاليدنا في العمل، كان مبدأ تقديم المساعدة العملية إلى جبهة التحرير الوطني الجزائرية أمرا منتهيا منذ البداية.

لم نجد أي رغبة تدفعنا إلى طرح أسئلة تتناول طبيعة الانتماء الطبقي للقيادة الجزائرية، ولا التساؤل عن مستقبل النضال الجزائري.

أما الحزب الشيوعي الفرنسي فلقد وضع فوق الرف كل تحفظاته حول الطبيعة البرجوازية الصغيرة للقيادة الجزائرية، ولكنه، دون شك ولحسابات تتعلق بالسياسة الداخلية في البلاد عارض تهرب الفرنسيين الشيوعيين من الخدمة العسكرية، كما اعترض أيضا على المساعدة العملية المقدمة إليهم لتنفيذ هذا الفرار.

وحصلنا بواسطة مجهود الزميل حزان -وهو الفرنسي الوحيد في المجموعة- على الضوء الأخضر من جاك دو كلو. كانت المشكلة في الواقع هي المحافظة على أمن هنري ... وهو ممنوع من الإقامة في فرنسا. وكانت هذه محنته الكبرى...

لا يحق للمحترف الثوري أن يقتصر نشاطه فقط على كتابة التقارير ""وكلنا يعرف أنها قد لا تفيد... وأنها تمثل بهذه الصورة نوعا من البطالة الثورية المقنعة!!""

لم يكن لهنري رغبة في ذلك. وبسرعة... عندما انتدبته المجموعة -أو عندما شرع بنفسه- في الاتصال بجانسون، كرس لهذا العمل كل وقته.

- ولا ننسى... كنا مجموعة مساعدة مستقلة ذاتيا.

أما فيما يخصني... وباستثناء متابعة المحاضرات في مدرسة اللغات الشرقية -لتجديد إقامتي في فرنسا- أو غيابي لفترات قصيرة من الزمن أقضيها إلى جانب ابنتاي في مدينة فانس، لم أعد أترك هنري بالمرة...

---

١٧ أصبح وزيرا في عدة حكومات بعد الاستقلال.

ولكني لم أكن أعمل في السر مما تتطلب مضاعفة يقظتي والدقة المتناهية في تطبيق قواعد الأمان.

كمجموعة مستقلة ذاتيا، قدمنا كل أنواع المساعدات المادية الملموسة إلى شبكة جانسون: مثلا الغطاء الواقي للشقة التي نزل بها في شارع أكاسيا -دبرتها الزميلة مارسيل جروتييه من جنيف- والزميل المشغل للمطبعة الذي يعد النشرة السرية باسم الحقائق فريتيه[١٨]، ومخابئ حقائب الاشتراكات النقدية، وأماكن عقد الاجتماعات ... وكان أهم الخدمات المقدمة هي خدمة نقل الأموال التي جمعتها جبهة التحرير الوطني الجزائرية من فرنسا إلى الخارج.

ويقدم البيان العملي بإنجاز المهام إلى عبد الكريم سوسي[١٩]، وأصبحت "بلانش" المسئولة عن النواحي المختلفة للعملية:

قدمها أحد الأشخاص الذين يحملون تزكية قوية، ولا تدور حوله أي شبهات، إلى مدير اتحاد البنوك السويسرية، وزعمت له أنها مسئولة عن تهريب رؤوس أموال الأسر اليهودية سرا خارج مصر -في أعقاب حرب السويس- وهو نوع من -التدفق المالي المعروف لهذه البنوك...!- يتجه من الجنوب إلى الشمال رغم عدوان هذا الأخير على الجنوب...!!"، ومن بين هذه الأموال والثروات ...التركة التي ورثتها من حماها... هكذا زعمت !!

تعودت البنوك السويسرية وفروعها القيام بهذا النوع من عمليات التهريب... فيكفي -حتى تسير الأمور على ما يرام- أن تحكي قصة متماسكة الأركان تحمل شيئا من المصداقية، ويتم الاتفاق على دفع عمولة معقولة... -بلغت العمولة في تلك القصة نصف في المائة من مجموع المبالغ الموردة-!!

وكانت عملية سهلة...

تنقل المبالغ المحصلة شهريا ٥٠٠ مليون فرنك فرنسي في صناديق كرتون كبيرة عليها العلامة التجارية لمصمم الأزياء الفرنسي المشهور كريستيان ديور ! وتودع في مكتب أحد فروع الاتحاد المصرفي السويسري في باريس. وعندما يكون السائق المناضل مشغولا في عملية أخرى، أستقل أنا وبلانش سيارة أجرة -ونحن نرتدي ملابس من كرستيان ديور ...كلها هدايا من أختي-!!

---

[١٨] جاك دو بون أصبح مشرفا على تشغيل مطبعة بعد انتهائه من دراساته الطبية ! وهو دائما رهن التصرف وذو ميول فوضوية.

[١٩] عين مسئولا عن (ودادية الجزائريين) بعد الاستقلال.

ثم تسافر بلانش بعد عدة أيام إلى جنيف لتسحب نفس هذه المبالغ من حساب مفتوح باسمها في ذلك البنك، وبعدها تسلم هذه المبالغ في جنيف إلى مندوب جبهة التحرير الوطني الجزائرية.

لحظات عصيبة...؟

يتغير المندوب في كل عملية تسليم... ويجب التعرف عليه جيدا، ثم عليها تسليم الحقيبة في عرض الشارع... !

كوابيس وأحلام مزعجة... هذا هو ما سببته هذه الأموال للمناضلين العاديين...!!

كان عليهم أن يجمعوا ويركزوا في مكان واحد في باريس المبالغ المجمعة من كل أنحاء فرنسا، وإيجاد المخابئ السرية للاحتفاظ بها إلى أن يتم نقلها إلى خارج فرنسا، ثم تنظيم جلسات لتجميع هذه الأموال وعدها يدويا. وكنا معرضين لارتكاب الأخطاء في عملية العد، ونظهر بمظهر - المشكوك في نزاهتهم-!! وبكل بساطة يتم تصفيتنا جسديا... وبكل هدوء...! فلم يعرف عن "الأخوة الجزائريين" رقة المشاعر ...!

أما الأوراق النقدية فقد فاحت منها رائحة عرق وشقاء العمال المهاجرين، وكان بعضهم يفضل أن يضيف شيئا مكتوبا على بعض الأوراق مثلا " لتحيى جبهة التحرير الوطني الجزائرية!".

وكنا نتبادل النكات عندما نجلس ثلاثة أو أربعة أشخاص لعد الأوراق النقدية وتصفيفها في رزم متساوية. وكانت الحقائب مليئة لأقصى حد.

ويدق ناقوس الخطر - لو سار في أعقابنا أحد ٠٠٠بينما حقيبة السيارة الخلفية مليئة تماما بالرزم...!

وعندما ألقي البوليس القبض على أحد المناضلين الشباب في إحدى عمليات نقل الأموال، أطلقوا علينا من ذلك الوقت اسما اشتهرنا به، وهو "حملة الحقائب".

ومع كل هذه المخاطر ٠٠٠ لم نتوقف عن العد أثناء الأمسية الشهيرة أمسية ١٣ مايو ١٩٥٨ [20] وقطعنا العهد على أنفسنا ألا -تمر الفاشية أبدا-.... ولم نتوقف عن العد

---

[20] عندما قررت مجموعة من الجنرالات في الجزائر ومنهم الجنرال جاك ماسو مع المستوطنين - الأقدام السوداء- الذين كانوا يؤيدون فكرة "الجزائر فرنسية" أن يشكلوا لجنة للإنقاذ العام تتكون من عسكريين، ومدنيين، وبعثوا رسالة بهذا المعنى إلى رئيس الدولة كوتي، ونادى الحزب الشيوعي الفرنسي بالتجمع من أجل وقف الانقساميين وكسر شوكة المؤامرة الفاشستية إلا أن هذه الأزمة لم تجد لها حلا إلا عندما تولى الجنرال ديغول مقاليد السلطة بتفويض من الجمعية العامة الفرنسية، في ١ يونيو .

حتى عندما ألقى ديغول خطابه[٢١] بعد أن فوضته الجمعية الوطنية لتولي السلطة. بل لم نتوقف لا في أيام الأحد، ولا في العطلات.

ونشرت طريقة استخدام "الأستيك" المطاط لتغطية السبابة لتسهيل قلب الأوراق النقدية عند عدها. وكنت أستخدم هذه الطريقة في عملي في البنك في الماضي[٢٢]!!٠٠٠ ويستغرق هنري في الضحك!!

وأذكر لحظة أخرى من لحظات الانشراح، والسعادة في نهاية شهر مايو وأوائل أيام يونيو ١٩٥٨... لا أدري كيف تمكن هنري من ترتيب الاتصال بين فرانسيس، ولوران كازانوفا.

اعتقد هنري دائما أن الحزب الشيوعي الفرنسي هو الحزب الوحيد القادر على تطوير المقاومة ضد الحرب المشتعلة في الجزائر حتى تتخذ شكل حركة جماهيرية. وبذلك توضع نهاية للتصفيات الجسدية، ولأعمال التعذيب.

فقد تناقلت الألسنة قضية هنري آليج[٢٣] وعرفت تفاصيلها المأسوية...

وفي المرة الثانية ..

رافقت هنري إلى مكان الاجتماع المحدد للتأكد من النواحي الأمنية، وتأكدنا من أن كل شيء على ما يرام.

لم يكن يشارك بطبيعة الحال في المناقشات... وعشت نفس الأوضاع في سنوات لاحقة، كلها مجهودات بذلها هنري لتعزيز هذا الاتصال، وجهد بذله لتنظيم هذا الاجتماع السري الهام، وغيره من الاجتماعات بينما يظل قابعا خلف الستار دون أن يشارك في المناقشات الحاسمة...

وهذا موقف نضالي مرن٠٠٠ في أنقى حالاته، مكنه من متابعة النشاط السياسي، وهو ما كان يسترعي انتباهه في المقام الأول٠٠٠ لأنه يعلم من واقع تجربته -أن تقديم المساعدة إلى مجموعة نضالية- لا يعني تلقائيا اكتساب الحق في تمثيلها ...!!!

لم ينجح اتصال جانسون بكزانوفا في إعداد اجتماع بين مسئول اتحاد الجزائريين في فرنسا-عمربن داوود وبين فالديك روشيه عن الحزب الشيوعي الفرنسي ... واستمر

---

[٢١] لم يمثل الجنرال ديغول خطرا فاشستيا بالنسبة للحزب الشيوعي الفرنسي ،ولجانسون-إنما كانت القوى التي حملته إلى السلطة تقدم له النصح فيما يتصل بالقضية الجزائرية ٠٠٠ وكانت هذا هو مكمن الخطر

[٢٢] كنت في ذلك الوقت موظفة في البنك الأهلي في القاهرة " وانتشر في ذلك الوقت خطر الإصابة بالجرب أو بأي مرض جلدي آخر، ولكن في فرنسا٠٠٠ حتى وسط المهاجرين٠٠٠ لم يتعرض هذا المجتمع أبدا إلى ما يتعرض له بلد من بلدان العالم الثالث...!!".

[٢٣] كتاب يحكي قصة الأساليب المستخدمة ضده لحمله على الاعتراف .

هذا الأخير في التمسك بمواقفه الحذرة ... مكتفيا برفع شعارات تنادي " بالسلام في الجزائر"...

وفي آخر صيف ١٩٥٨، أمضيت مع بناتي العطلة المدرسية في مدينة فانس، ثم ركبت السفينة المتجهة إلى مصر.

فكر الزملاء في تهريب الكوادر المسجونة في مصر...

كان ذلك في أعقاب التغييرات التي حدثت في النظام الحاكم في العراق – قلب العسكريون النظام الملكي الهاشمي الذي سيطر عليه نوري السعيد، وهو النظام الذي كان محورا لحلف بغداد الموجه ضد الاتحاد السوفييتي- وتضاعف نشاطهم، بعد أن تحالف الرئيس عبد الكريم قاسم مع الشيوعيين العراقيين.

وكان شريف[٢٤] وهو طبيب محبوب -يتمتع بملكة بناء علاقات اجتماعية بسهوله...!- وبالقدرة على الحركة بحرية نسبية، أمضى مدة لا بأس بها مسجونا ...وقامت بينه وبين الآخرين " شرطة الحراسة" علاقات، وسلوك وتصرفات عادية...

وافق أحد الزملاء القدامى الذي كان يعمل في كلية الطب على ترك باب مكتبه في المستشفى مفتوحا، وفي اليوم المحدد، وأثناء تناول إفطار الصباح، يترك الباب مفتوحا ليتسلل منه شريف إلى المكتب ويغير (بيجامته) ويرتدي بدلا منها بدلة عادية للخروج. وباختصار، لم تلعب مساعدتي له على الفرار دورا كبيرا ...!!!!

كنت أدخل، وأخرج من المستشفى كأني من أعضاء هيئة التدريس -لم أستغني عن حقيبة اليد من الجلد من صنع أجنبي فاخر-. وساعدني محرم في العثور على أماكن اختباء مؤقتة، فقد كان شريف يناضل داخل مصر .ويشترك مع "يونس"[٢٥] في تنسيق النشاط السياسي ، وهو الذي أصر على عودة يونس إلى مصر. ولكن غيرت قيادة الحزب رأيها في تنفيذ عملية الهروب.

كثرت المناقشات في مصر حول ضرورة ممارسة الحريات الديموقراطية... بل إمكانية تعاون السلطة مع الكوادر الشيوعية، واحتمالات قريبة للإفراج عن المعتقلين. ولم يعني شريف بذلك بالطبع... صدر ضده حكم قضائي بالسجن.

ولكن القضية تمس مئات الزملاء المعتقلين...

وكان الهروب من السجن يمثل في تلك الظروف خطوة تهدد بإعادة النظر في مجمل ما يجري من توقعات. واتفقنا على أن نعود إلى بحث الموضوع بعد عدة شهور.

---

[٢٤] الكاتب الطبيب المعروف شريف حتاتة.

[٢٥] الاسم الحركي لهنري كوريل في مصر.

وحدثت بعد مرور شهر واحد من مناقشة الاحتمالات والتوقعات... عملية التمشيط الكبرى ٣١ ديسمبر/ أول يناير ١٩٥٩ [٢٦] وبدأت السلطة تمارس عمليات التعذيب من جديد... ! وصدرت أحكام بالأشغال الشاقة نفذها الزملاء في تكسير الحجر في محاجر "ليمان طره وغيره". وأضربوا عن الطعام حتى الموت، واعتقلت المناضلات... بطولات كثيرة وانقسامات في الوقت نفسه. وبعد الانتهاء من اعتقال الكادر النشط تبعهم الآخرون. وحذرني كمال [٢٧] ...

اقترح شريف أن أغادر البلاد دون تأخير.

ورغم الأحوال السيئة، والجو المظلم...، شعرت بالطمأنينة وأنا أشاهده يتمتع بتذوق المأكولات الشهية الجاهزة التي كنت أحضرها له من محل "لاباس"... كان شريف يحب الحياة، ومباهجها. ولكنه رأى ضرورة مغادرة مكان اعتقاله في المستشفى مفضلا العودة إلى زملائه في السجون والمعتقلات... دون أن يغير موقفه من قضية يونس:

وكان يكرر قائلا " لا ينكر أحدا أنه من المفيد مساعدة النضال التحريري للجزائر، إلا أن واجبي الأول هو دعم التوجه الثوري للحركة الشيوعية المصرية".

واتخذ إعداد، وتنظيم عودة يونس بصفة سرية إلى البلاد طابعا ملحا.

ومر كل شيء بسرعة...

تأشيرة الخروج "وقع عثمان على طلب التأشيرة... فضلا عن أني صاحبة حظ !"

وبسرعة سافرت إلى الإسكندرية، وصعدت على ظهر السفينة، وبدأت تتحرك... وتنفست الصعداء !

كنت أرغب في معاودة نشاطي النضالي في فرنسا ...

وعندما تركت محرم على رصيف الميناء ...شعرت أني لن أراه قريبا

أبلغت جانسون فور وصولي إلى باريس، بطلب زملائي عودة يونس:

وسألته هل يستطيع أن يساعد في عودة هنري إلى مصر، والحصول على جواز سفر له ؟

---

٢٦ دعم الشيوعيون في مصر وسوريا عبد الكريم قاسم قائد مجموعة الضباط الأحرار العراقيين، الذين أسقطوا النظام الملكي وأيدهم الحزب الشيوعي العراقي الذي رفض الذوبان في الجمهورية العربية المتحدة الحديثة الولادة التي قررت مصر وسوريا إنشاؤها.

٢٧ كمال عبد الحليم أحد الزملاء المسئولين في منظمة حدتو وسكرتير عام المنظمة في فترة من فترات تاريخها

وصرح لي أن مغادرة هنري تعتبر خسارة لا تعوض لشبكة "الدعم"... ولكنه يعلم الأهمية التي يوليها زملائه في مصر لعودته، وتحامل على نفسه... ووعد بالبحث عن جواز سفر. غالبا جواز سفر مغربي.

وتأثرت كثيرا مما قاله جانسون حتى دمعت عيناي ... ثم نسينا تماما قضية العودة! دون أن أعترف بذلك لنفسي، كنت أعلم...كما أتصور أن هنري كان يعلم أيضا...

أنه لن يعود أبدا إلى مصر مرة أخرى...

وأنه لن يستطيع عمل شيء بالمرة هناك.

لذلك انهمك حتى أخمص قدميه في تنظيم قنوات المساعدة العملية للنضال الجزائري من موقعه في فرنسا. فهنا في باريس كان يشعر كالسمكة في الماء...

ولم نكن نجهل الصراع الدائر من أجل السلطة بين الجزائريين في منظمة الحركة الوطنية الجزائرية MNA التي يتزعمها مسالي حاج، وقيادة جبهة التحرير الوطني الجزائرية، فلقد غطت صفحات الصحف أخبار اغتيالات الأخوة الجزائريين بعضهم بعضا في فرنسا، وأيضا في الجزائر.

ونظريا، كان علينا أن ندعم الحركة الوطنية الجزائرية MNA نظرا لقاعدتها العمالية[٢٨]*، ولكنها خسرت المعركة السياسية في ١٩٥٧ ، وبدأت الوشايات... وتسليم المناضلين من جبهة التحرير الوطني الجزائرية إلى البوليس الفرنسي.*

واهتزت مشاعر هنري بقوة ...

هاله الأمر... عندما تنامى إلى علمه -أن الذي يتولى عملية اصطياد المناضلين الجزائريين، في ظلمة الليل في باريس، هم من الجزائريين الآخرين- :

كانوا يتعرفون بسرعة على وجوه مواطنيهم ويسلمونهم... ويتفوقون في عملية الاستجواب والتعذيب للحصول على اعترافات.

---

٢٨ تطورت حركة الهجرة بين الجزائر، وفرنسا على إثر صدور قانون يلغي في يوليو ١٩١٤ تصاريح سفر العمال الجزائريين ولم تتوقف موجات الهجرة بسبب تزايد الاحتياج إلى اليد العاملة أثناء الحرب العالمية الأولى. وساعد الحزب الشيوعي الفرنسي "العمال الوافدين من المستعمرات"، في ولادة أول حركة سياسية ذات توجه وطني وثوري، وهي الحركة التي عرفت باسم "نجمة شمال أفريقيا" ، وتزعمها الأمين العام مسالي حاج. وكلف ابتداء من ١٩٢٧ بعرض مطالب الجزائريين وبرنامج حزبه الذي طالب بالاستقلال الكامل للجزائر، على مؤتمر الشعوب المضطهدة المنعقد في بروكسل. وأصبح هذا الحزب بعد حله وإعادة تنظيمه عدة مرات أول حزب إسلامي يحمل اسم "حزب الشعب الجزائري" BBA ، قبل أن ينهار تماما، ويعاد تنظيمه بالكامل تحت اسم الحركة من أجل انتصار الحريات الديموقراطية TLD، ليتحول لمنظمة سريةOS للعمليات المباشرة دون موافقة مسالي حاج الذي أراد أن يظل زعيما، وأسس من جانبه الحركة الوطنية الجزائرية MNA التي كان هدفها قتال جبهة التحرير الوطني الجزائرية.

لكم أن تتصوروا النتيجة لو كانت شبكة "الدعم" قد وقعت أثناء نشاطها تحت تأثير حماس من نوع درامي...لذا توجب الحذر الشديد؟!

فلن يعفى أحد حتى لو تذرع بالجهل بالحقائق وبقسوة النضال المسلح من أجل التحرير.

ومما لا شك فيه... لولا الجو الذي تسود فيه علاقات حارة بين الزملاء ...والذي تتولد نتيجة الانتماء إلى قضية عادلة... وبدون الموقف الدولي الذي لا يعترف بعدالة هذه الحرب التي تقودها فرنسا، لأدى ذلك لا محالة إلى ازدياد عدد من يهجر الصفوف .

كثرت الواجبات بعد وصولي إلى باريس، واتسع نطاقها...

فضلا عن عمليات عد الأوراق المالية، والعثور على مخابئ وأماكن آمنة، وإصدار نشرة الحقائق "فيريتيه" لشبكة جانسون "أضفنا إليها فيما بعد نشرة أخرى، وهي نشرة "فريتيه المناهضة للكولونيالية"، وتولى طباعتها الصانع الماهر الحرفي الفوضوي الذي عرفنا به الزميل يوسف حزان.

وكانت فرصة لتعلم الطباعة على الآلة الكاتبة اليدوية، مع ضبط الهوامش على جهة اليمين...!، والتنفيذ الدقيق للمقاسات الذي يتطلبه الطابع الحرفي، وأقسمنا يمينا بالا نعود إلى ذلك النوع من العمل أبدا[٢٩]... ساعات لا تحصى، وانتقالات من أجل استعادة الصفحات المطبوعة، ومراجعتها، والطباعة على الآلة الكاتبة، والسحب على الاستنسل، وتوزيع هذه الأوراق " عرفت فرانسوا ماسبيرو في ذلك الوقت، تحت اسم حركي لا أتذكره، وكان مسئولا عن إصدار المقالات".ساعات كثيرة للتحقق، واستكمال العناوين في قائمة لا تنتهي من بطاقات الحفظ بالرموز السرية لو ظلت موجودة حتى الآن، لأصيبت أجهزة الكمبيوتر بالغيرة...!!

كنا نوزع نشرة جبهة التحرير الوطني الجزائرية -إضافة إلى الوثائق الأخرى- في وحدات تتكون من فردين، أحدهما يقود السيارة، والآخر يوزع على -صناديق البريد- المطبوعات التي يخرجها من حقيبة ورقية لحمل المشتروات من السوق. ونمر علي كل مكاتب البريد المركزية، وصناديق البريد المتناثرة في الشوارع لكي نوزع المطبوعات مقللين عدد النسخ في كل صندوق، حتى لا نسترعي انتباه المراقبين. وكنا نغطي كل

---

[٢٩] لن أستوفي "آلان" حقه من الشكر والامتنان لتشجيعه لي للعمل على الكمبيوتر.

أحياء باريس. وبالطبع في فترات الليل. وعلمت فيما بعد أن طالبة الطب الرقيقة التي كنت أتنقل معها حتى الفجر في شوارع، وطرقات باريس هي لورانس باتاي[٣٠].

ونمر بالسيارة على مباني الآثار المضاءة ليلا في الساحات، ونسير في الطرقات المهجورة لمدينة من أجمل المدن التي تنبض بالإنسانية، وتتتابنا رغبة في المزاح والسخرية من أقل حدث يعترضنا، ثم نغير المسار للتمويه ونقفل راجعين من الطريق المؤدي إلى نهر السين... وهنا نصادف المرة تلو الأخرى تلك الصور الرائعة عندما تتراقص ظلال الفوانيس المضيئة التي تزين جسور باريس الغجيبة على سطح مياه النهر، ونتدثر بدفء مشاعر الزمالة، ودماثة الخلق التي تتولد من ممارسة نشاط نضالي داخل مجموعة مترابطة.

يا "لورانس" ...يا عزيزتي...

هل توجد حاجة لمزيد من التقارب بيننا حتى أستعيد بسهولة ويسر هذه اللحظات الرائعة...؟؟! لقد ترسخت في وجداني إلى الأبد.

ويتلاشى فيض المشاعر الدافئة، عندما يزداد التوتر، ويبلغ أشده ...! لدى إنجاز عملية دخول أو خروج مناضلين جزائريين جاري البحث عنهم في فرنسا. وبعضهم صدر ضده حكم بالإعدام.

ولم يكن ذلك سهلا ...لأنه يتجول بلا انقطاع على الحدود والممرات، ومناطق العبور قوات الأمن الخاصة CRS[٣١] المسلحة التي تقوم بدوريات راكبة على دراجات نارية.

ولم تكن نقاط العبور من اختصاصنا حتى حدثت حملات الاعتقال الضخمة التي تعرض لها أعضاء شبكة جانسون في فبراير ١٩٦٠.

بعدها أصبح من الواجب أن نتولى تأمين هذه الخدمة...

وفي البداية، جندنا عناصر جديدة. ودرسنا نقاط عبور جديدة. وحددنا بدقة المسالك، والدروب، حاملين الخرائط. ونحن على يقظة تامة عند الاشتراك في عملية ما...

"... المحافظة على المسافة الأمنية الفاصلة بين السيارات، واحترام السرعة القانونية في قيادة السيارات –٦٠ كم في الساعة– وتأمين الطريق عندما تمر سيارة –عاملة-– حتى لا تغيب عنها السيارة –الحاملة–ولكي تعود أدرجها بسرعة لإنذارنا، أو الكشف عن حواجز التفتيش من على بعد عندما نعمل في سيارة –عاملة–حتى يتاح لنا

---

٣٠ ابنة الكاتب جورج باتاي وزوج الابن من جهة أمه، وهو الطبيب المحلل النفسي المشهور جاك لاكان. توفت لورانس بسبب إصابتها بمرض السرطان منذ عدة سنوات، وتركت وراءها ذكرى عاطرة سيظل يحملها لها أصدقاؤها دائما.

٣١ فرقة جمهورية للأمن، وقوة متحركة راكبة من الشرطة يعهد إليها حفظ النظام.

الوقت اللازم لتغيير المسار الرئيسي والعودة، والإشارة إلى السيارة الأخرى بوجود خطر، باستخدام الأضواء الكاشفة، ثم تغيير خط السير إلى نقطة الالتقاء التالية، والتصرف دائما بهدوء تام، حتى لا يفقد "الأخ الجالس في المقعد الخلفي للسيارة" أو الذي يتناول القهوة معنا في مكان نقطة الاتصال، الثقة ويبدو عليه الارتباك

ونخفي ذلك عنه... حتى لو ارتفعت داخلنا درجات التوتر إلى حالة تقترب من الذعر والهلع.

يا للروعة ...!

الاستيقاظ في الفجر، والسير على القدمين في الطريق الذي لا يزال مبللا بمطر الليلة الماضية، ثم عبور الحقول المبلولة على الأقدام عندما نصل مكان الالتقاء مبكرا أكثر من اللازم "ونحن في سيارة عاملة"، نرهف السمع فقط ولا نتبين سوى حفيف أوراق الشجر المتساقطة على الأرض وقد بعثرتها الرياح ...

يا إلهي ...!! كم أحببت هذه اللحظات السعيدة التي لا تنسى... لحظات تسبق التوتر... ! عندما يسمع صرير أوراق الخريف تحت عجلات السيارة على امتداد الدروب التي نسلكها بعد خروجنا من الطريق الرئيسي[٣٢]...حفل صاخب من الورود، والرياحين العطرة تعمل على تهدئة فعل المواسم الأخرى.

تعرفت من خلال عمليات التمرير هذه على الطرق التي يغلفها الضباب المتجهة إلى الشمال، نحو بلجيكا، ولكسمبورغ، وألمانيا. كما تعرفت أيضا على الطرق الأخرى المنشرحة، نحو الجنوب... نحو سويسرا تتمدد أمامنا حتى الأفق في يوم من الأيام الأخيرة لفصل الصيف التي لا تزال دافئة.

نتوقف في اتجاه الشمال والجنوب في أماكن محددة مسبقا حتى نغير السيارات وننتقل إلى سيارات ذات أرقام بلجيكية، أو لكسمبرجيه أو سويسرية -وليست ايطاليه أبدا بسبب صعوبة، ووعورة نقاط المرور الجبلية-.

وتعرفت بعد استقلال الجزائر على نقطة عبور آندور، وتقع في المنطقة الجبلية الإسبانية،

وعندما منعت من الدخول إلى فرنسا، ساعدني موريان على العبور من هذا الطريق. بشرط معرفة خط السير واقتناء أحذية جيدة. وكانت نقطة عبور آمنة تماما ، ونبدو بسهولة كأننا سياح في الصيف. ومما يسهل من عملية المرور على الأقدام من خلال النقطة الصغيرة في أندور حمل وثيقة سفر: لم يدقق موظفي الحدود فيها كثيرا.

---

٣٢ يفهم بالطبع في ذلك الوقت عدم وجود طرق سريعة مثلما يوجد اليوم.

***

وعندما يتعرض المناضل لتهديد خاص، فأفضل الطرق لتأمين مروره هي بواسطة أحد القاطنين على الحدود، وقد يكون قسيسا أو راهبا، ولكن بشرط أن يستقل دراجة نارية!. وكان هذا هو الأسلوب الذي عبر به مسئول المنظمة الجزائرية للعمليات الخاصة OS في فرنسا[٣٣] الحدود، وكانت جميع أجهزة البوليس تبحث عنه، وصدر الأمر بإطلاق النار عليه فورا، ووزعت صوره على كبريات الجرائد الصادرة في باريس قبل ذلك بأسبوع تقريبا. وكان محكوما عليه بالإعدام، ولم نستطع تأخير العملية.

وكأن هنري عاد عشرين سنة إلى الوراء عندما أعلن لنا، بابتسامته التي أضاءت وجهه الذي أصبح نحيفا... بأن الأخ قد نجا. وبمحض المصادفة، كنا أربعة ينتظرون. هذه المكالمة التليفونية التي أعلنت نجاح عملية التمرير !

ولم نكن نساعد البشر فقط في عبور الحدود. بل مررنا في بعض الأحيان موادا للدعاية. وعندما يتعلق الأمر بتمرير مراسلات، وخطابات، كان السفر ليلا بالقطار، في الدرجة الأولى، في عربة النوم، وعند ذلك نترك مقدما جوازات السفر لدى مراقب التذاكر حتى لا يزعجنا أحد بالليل -هو الذي يتولى الإجراءات اللازمة عند وصول القطار إلى الحدود، وهذا يعفينا من الرد على أسئلة قد تكون محرجة-. ولا ينبغي أن تكون وثائق السفر مزورة... ويجب ارتداء الملابس المحافظة والاعتناء بالهندام لتفادي إثارة الشكوك والتفتيش على البطاقات الشخصية في محطات القطار، وإذا نجحنا في الذوبان في البيئة المحيطة، نستطيع أن نتقابل علنا حتى حول طاولة إحدى المقاهي الرئيسية. ومن المعروف أن المحطات والمقاهي يكثر فيها رجال البوليس والمخبرين، إلا أن ما يلفت نظرهم إلى الأفراد هو مظهرهم العام...

وينبغي أن يقوم برحلة القطار فرد واحد للاحتياط، حتى لا نفقد مناضلين في المرة الواحدة إذا ما حدثت مشكلة. ولم تحدث مشاكل... وبكل تأكيد لم نكن على وشك أن نفقد شيئا مهما إلا إذا ارتبط ذلك بتوقف حياتنا المهنية عند الاعتقال. ثم قضاء فترة صغيرة في السجن، قبل الطرد خارج البلاد .. لا يمكن أن نقارن كل هذا وما كان يلقاه أفراد المقاومة ضد النازية، والشيوعيون المصريون من تعذيب... فلم يمارس ضدنا لا تعذيب، ولا أشغال شاقة. فلم تكن هذه الحرب حربنا تماما...

لم يتسع الوقت أمامي لمناقشة المسائل النظرية مع المسئولين الجزائريين:

وانحصرت العلاقة مع بدرو، ورباح بو عزيز -مسئول المنظمة الجزائرية للعمليات الخاصة في أوروبا- في مراجعة المصروفات... أطلقنا عليه اسم مستعار وهو "الأشقر". ونادرا ما اشترك معنا عمر بو داوود -مسئول اتحاد الجزائريين في فرنسا- في

---

٣٣ نصر الدين عقلي مختار -هل هناك داعي لأذكر بأن فرنسا هي التي كانت تشن الحرب على الشعب الجزائري-؟!

مصاحبة المناضلين الذين كنا نؤمن مرورهم خارج فرنسا، أو تأمين أماكن إقامتهم لعدة أيام داخل مدينة باريس، ولم نكن نتحدث معهم عن أي شيء. وأحيانا كانوا صغار السن جدا.

مثل هذا الشاب القبائلي ...

بدا، وكأنه نزل لتوه من أعالي جباله، وكان من السهل إخفائه... لأنه أشقر اللون... شريطة أن يظل صامتا ولا يفتح فمه "كما أننا تكفلنا بجميع طلباته، ومشترياته". ولنخفف من قلقه في هذا الوسط الذي كان غريبا عليه، أستمع إلى كلامه، وبكائه المتواصل لافتقاده أمه... وهو يتكأ برأسه على كتفي وكنت أعلم مسبقا أنه لن يعود إلى حالته الطبيعية... وأن تفاصيل عمليات القتل التي قام بها ستظل دفينة في صدره وتمثل له هاجسا لن يبوح به أبدا. اللعنة على الأوغاد ...!

لم نشعر بخيبة أمل من النشاط السياسي في هذا الإطار الجديد ...

قرر هنري نهائيا، أن يقتصر نشاطنا على توفير الخدمات لدعم قضايا المصالح الأساسية للشعوب، ولا يتوقف ذلك عند مصلحة هذا أو ذاك من القادة مهما عمل ومهما قال.

ويتولد عندي شعور خاص بالرهبة بسبب المخاطر التي يواجهها المناضل العادي... أقل ما فيها التعذيب، وكثيرا ما أفضى التعذيب إلى الموت. ولكن قد ينجو القادة بحياتهم، ويؤكد لهم النظام القائم بعد ذلك صعود السلم الاجتماعي. ولذا كانوا يركزون اهتمامهم فقط على ذلك ؟!!

أما نحن...؟ فكنا نركز على تنفيذ الجدول الزمني للمهام اليومية... العملية وراء الأخرى، وفي يقظة تامة حتى لا ننسى شيئا من المعلومات التي قد لا نستطيع تدوينها، - وبالذات لا ندون عناوين أو أرقام تليفون- ... نتوخى الحذر، ونحتاط من احتمالات تعقبنا، آخذين في الاعتبار ما يتوفر لدى أفراد البوليس من إمكانية تبديل بعضهم البعض لتعقبنا... وفضلنا استخدام المترو، وتغيير المحطات، والخطوط عدة مرات. إلا أن ذلك لم يكن ممكنا دائما.

ولم توجد في ذلك الوقت شبكة للقطارات السريعة لخدمة الضواحيRER... وكان يوجد فيها كثير من مخازننا ومخابئنا...

تقدم رجل بلطف ليساعدني على فصل وصلات البطارية في سيارتي التي بدأ يتصاعد منها الدخان، ولا أستطيع تركها لأي سبب لأنها تحمل أشياء في الحقيبة الخلفية...

وكان هذا الرجل من العملاء السريين !!؟...

اصطبغ العمل النضالي ببعض ألوان المرح... مثلا عندما نتصور وسيلة جديدة لخداع الذين يتعقبوننا...!

مثلا الدراجة النارية ! والكونتيسه ...!

كم مرة حكيت يا جان ماري[٣٤]، قصة دخول هذه "الأميرة الرومانية" ذات الشكل الغريب، يصاحبها سائق دراجتها النارية...! لمراجعة تقدم العمل معك في منطقة الأرياف..؟.

كانت المناقشات تدور حول المخابئ ... لم نكن نتحدث أبدا عن مستقبل الثورة الجزائرية. فلم يكن هذا شاغلنا ولا عملنا.

باشرت نشاطي السياسي دون الاضطرار إلى الاختفاء... حتى تفجرت موجة الاعتقالات في فبراير ١٩٦٠

وأرسلت في طلب بناتي للحضور إلى باريس... شعرت أن ابنتي الصغيرة تجد صعوبة في استيعاب المواد المدرسية واحتاجت أختها الكبيرة إلى وسط أكثر تطورا. ونزلنا في فندق كلونيه في شارع فيكتور كوزان أمام السربون، وكانت تديره امرأة رقيقة جدا وافقت أن تلعب ابنتي الصغيرة مايرا في حجرتها بعد عودتها من المدرسة حتى أعود أنا من العمل. وتمكنت من تسجيل ابنتي نيفين في ليسيه فونتين... بناء على تزكية. وانتقلت بسرعة إلى الفصل الأعلى -أولى ابتدائي- ابتداء من الفترة المدرسية الثانية.

وكان وقتي مقسما تقسيما جيدا :

كنت أعمل ثلاثة أيام في الأسبوع كقارئة/مراجعة، ومترجمة في مجلة أوريون، وثلاثة أيام أكرسها للنشاط السياسي، وأقضي أيام الأحد والأمسيات مع بناتي. ونحتفظ بذكريات طيبة من هذه الفترة.

وكان هنري، كأي كفيل يقدم النصح والمشورة... يمر قبل وجبة العشاء، ويسأل عن تفاصيل ما حدث في يومهم الدراسي... يستمع إليهم مبتسما وناصحا بضرورة: اقتناء أحذية طبية لأقدامهم المفلطحة قليلا، وجلسات علاج نفسي، وأساتذة مخصوصين لابنتي مايرا يوفرها أعضاء الشبكة، ومنهم مونيك ديزاكور[٣٥].

قدمت استقالتي من عملي مضطرة بعد حملة الاعتقالات:

نما إلى علمي أن مارسيل كولومب رئيس تحرير مجلة أوريون، وأحد المتعاونين مع المكتب الثاني الفرنسي -وكان أستاذي في مدرسة اللغات الشرقية- قد نبهه عملاء المكتب الثاني إلى أني متعاطفة مع جبهة التحرير الوطني الجزائرية.

---

٣٤ جان ماري بوجلان مسئول عن شبكة ليون، وكان سكرتيرا عاما لمسرح المدينة الذي كان يديره بلانشون وحكم عليه غيابيا بالسجن عشرة أعوام -كرست القناة التليفزيونية الثالثة الفرنسية فصلا خاصا للحديث عن شبكته-.

٣٥ أصبحت فيما بعد مديرة سلسلة كتب -منتخبة- في دار النشر ساي، وهي متقاعدة اليوم.

وعلى أية حال لم أتمكن من الاستجابة لجميع احتياجات الواجبات الجديدة.

وأصبحت بعد ذلك عضوا محترفة في شبكة الدعم أتلقى منها راتبا بسيطا يكفي تماما قضاء احتياجاتي، وكان يسلمه لي هنري، الذي أصبح في ذلك الوقت المسئول الأول عن الشبكة،

ولقد رفضت -مع شعور هنري بأسى شديد- مبلغا مؤقتا كان اتحاد الجزائريين في فرنسا يريد أن يصرفه لي كمرتب أسوة بالمناضلين الآخرين. ولم أضطر بعد إلى الغوص في العمل السري تماما.

لم يسجل أسمي في مفكرة الاتصالات التي حملها جانسون -ارتكب خطأ جسيما عندما استخدم شفرة وحيدة قام جهاز المخابرات الفرنسي بفكها-

وفضلا عن ذلك كان لدي غطاء ممتاز -كنت في السنة الدراسية الأولى -ليسانس لغة العربية في جامعة السربون، وفي عامي الدراسي الأول في اللغة الكردية في مدرسة اللغات الشرقية، وأعد في الوقت نفسه شهادة في جامعة لندن- وتتلقى بناتي إعانة مالية مضمونة من والدهم الدبلوماسي....

واتخذت احتياطاتي المعتادة للتنظيم الفني للمؤتمر الصحفي الذي عقده جانسون أثناء أعياد الفصح:

غادرت باريس مع بناتي لكي أصطحبهن إلى مدينة فانس، وسافرت بعد ذلك فورا إلى جنيف لتسوية بعض التفاصيل المتعلقة بنقل الصحفيين... كانت قد -جمعتهم إيزابيل فيشينياك[٣٦] ورافقتهم حتى مكان انعقاد المؤتمر- انعقد المؤتمر الصحفي سرا- وعقد الاجتماع التنظيمي الأخير في كافيتيريا الصحافة في المقر الأوروبي للأمم المتحدة في جنيف، في المبنى ٦-٢٣ !

وعندما عدت إلى باريس... اختفيت في حي بعيد عن مكان فندقي...

صبغت شعري باللون الأشقر "وصففته بشكل يقترب كثيرا من شكل الأخوة ماركس !" ، واستطعت معالجة بعض التفاصيل -مكان وطرق توصيل الصحفيين- بمشاركة كريستيان فيليب[٣٧]. وانعقد المؤتمر الصحفي دون عقبات[٣٨]. وكان له دوي انفجار هائل... اشترك فيه جورج آرنو وتمكن من نشر جدول أعمال المؤتمر في الجريدة اليومية باري

---

[٣٦] كانت في ذلك الوقت صحفية في جريدة لموند تقوم بتغطية المؤتمرات الدولية التي تعقد في المقر الأوروبي للأمم المتحدة في جنيف.

[٣٧] وهي ابنة آندريه فيليب الذي عرفه هنري أثناء العدوان الثلاثي على مصر، وكانت مثل والدها ملتزمة في النضال ضد هذه الحرب أيضا، وتزوجت فرانسيس جانسون.

[٣٨] انعقد هذا المؤتمر في ١ شارع شين في ١٥ إبريل ١٩٦٠.

بريس لانترانسيجنت في ٢٠ إبريل ١٩٦٠ "ألقي القبض عليه لأنه لم يدل على مكان جانسون... الجاني...!!"[٣٩].

ولم ينجم عن سلسلة اعتقالات شهر فبراير... أي مشاكل فنية في إطار نشاط المنظمة...!

وسارت عملية نقل الأموال في الطريق المعتاد ...كما كان في الماضي[٤٠]. ولكن أصبح من الضروري مضاعفة الاتصالات مع المسئولين الجزائريين...

أما الباقي فكنا على أتم استعداد للقيام به على النحو المطلوب... لقد صقلت إمكانياتنا.

وبعد سماع صيحات الغضب، والاستنكار التي تصدر عادة في مثل هذه الظروف... بسبب"حملة الاعتقال" التي يسقط ضحاياها نتيجة استخفاف بعض المناضلين -بطريقة غير مقبولة- عندما يتجاهلون تنفيذ قواعد الأمان بدقة، ويضاعف المناضلون - الذين لم يسقطوا -جهودهم، ويتدافع المناضلون المجندون الجدد إلى حلبة الصراع... لا يعرفون بعضهم، ويصبح من السهل العودة إلى احترام مبدأ الفصل بين الوحدات للمحافظة على إستمرار النشاط.

وكانت هذه هي فرصتي للتعرف بصورة أفضل على روبيير دافزييه الذي أشعر نحوه بمشاعر صداقة حميمة[٤١]. وهو قسيس من إحدى الإرساليات في فرنسا، على وعي تام بما يدور، مثل القسيس بودوريسك وغيره.. معروف باتصالاته المباشرة مع العمال المهاجرين، وبكتاباته عن التعذيب، كما تعرفت أيضاً على القس الدومينيكاني غير العادي الأب كالين[٤٢]، وهو صديق بلانش، وكنت قد تعرفت عليه في جنيف مع هنري.

---

[٣٩] نشرت الوثيقة التي عرضها فرانسيس على الصحافة في مؤلف بعنوان -لي بورتير دي فاليز-حملة الحقائب-- للمؤلفين هيرفي آمون وباتريك روتمان، دار النشر ميشيل ١٩٧٩- وكان هذا الكتاب من أكثر الأعمال كمالا تناول هذه الحقبة من النضال والمقاومة ذات الأشكال المتعددة التي عرفتها .

[٤٠] حسب ما ذكره علي هارون، تمكنت شبكة كوريبل أن تؤمن نقل ٩ مليون فرنك سويسري خارج فرنسا في ثمانية شهور (الولاية السابعة، مطبوعات دار النشر ساي SEUIL ، ١٩٨٦).

[٤١] سجن مع كوريبل وأصبح فيما بعد عضوا في منظمة التضامن واستطاع الكاتب ريتشارد كوبان في فيلم وثائقي "أخوة الأخوة" أن يلمس مشاعر الصداقة الحميمة إلا أنه فاته أن يذكر روحه المرحة، حتى أني اندهشت عندما علمت أنه قسيس، وكنت مسئولة عن إعداد كتابه -لوفرون- أي "الجبهة" للنشر، ضمن مطبوعات دار النشر مينوي.

[٤٢] الأب كالين، هو الذي قدم بلانش إلى البنوك في جنيف، ويستكمل اليوم إرساليته الدينية في إحدى كنائس مدينة فريبورج السويسرية، وأعيد الاتصال به المرة تلو الأخرى للقيام بهذا أو ذاك من الخدمات، وذكر أنه كلما استجوبه البوليس طرح عليه أسئلة تتعلق بي ...

"وكم كنت سعيدة عندما أرى هنري يجلس متخذا أوضاعا تعوّد عليها أيام شبابه.. الذراعين متشابكتين كأنه يقف للصلاة، ناسيا حتى أن يضع قدما فوق الأخرى كما تعـود". وتعرفت أيضا في هذه الفترة على جيهان ديفنجان"[٤٣] ، وتفاهمت معه فورا كما لو كان أخا أصغر مني عمرا يحتاج إلى دعم معنوي في مشروعاته. وكان ذكيا، وعلى مستوى عال من الكفاءة، متواجدا دائما، ومحددا، رغم كل ذلك كان ينبغي السهر على أن نتفادي ميله الطبيعي لنسيان تطبيق أبسط قواعد الأمان ..!!. وبدأنا الاستعداد فورا لتولي نشاط " العبور".

أما إيتيان بولو[٤٤]، وهو عضو آخر من الأعضاء الدائمين... كنت أراه كثيرا.. شخصية مختلفة تماما... لم يرتقي إلى أي مستوى من مستويات المعايير والقيم التي حددتها مقدما للمناضلين الثوريين المحترفين...! ليست به ذرة من التقشف... هوائي مزاجي إلى أقصى درجة. وعلى العكس كانت طاقته وجلده في العمل لا يباريه فيها أحد... ويمتلك قدرة على التحكم في قيادة السيارة بصورة تامة...!! وخبرة كبيرة مكتسبة من عمليات التمرير عبر الحدود. كل شيء عنده مبالغ فيه "[٤٥]...!! وهو الوحيد الذي كنت أوبخه بشدة بعد كل عملية تمرير.

ويتلخص دوري من حيث المبدأ في متابعة العمليات مع جيهان. دون أن أشترك فيها. ولكن حدثت فراغات كبيرة أثناء عطلات نهاية الأسبوع في فصل الصيف. قمت بسد هذه الثغرات دون أن أسترعي الانتباه... سيارات عاملة للمراقبة، بل، ويا للهول...!!! سيارات حاملة للنقود.

نجحت في تمرير أحد المناضلين الجزائريين البؤساء عبر حدود بلدين فرنسا - لكسمبورغ،/ ولكسمبورغ- ألمانيا عن طريق مصحة للأمراض الصدرية...!! تقع على الحدود الفاصلة، وكنت أقود هذا المناضل الصغير ممسكة بيده، أرتدي لفحه مزينة بالألوان أغطي بها رأسي حتى أبدو أصغر من عمري.

لم يهدأ غضب هنري حتى بعد مرور عدة أيام من هذه الواقعة...

---

[٤٣] كان ابتعاده المؤقت المتكرر سببا دائما في خفض مستوى نشاطنا، ونستطيع أن- نشاهده في المعرض الذي تناول أعمال كاتب ياسين الذي انظم في معهد العالم العربي IMA في مارس - إبريل ١٩٩٤- في صورة تعود إلى ١٩٥٨ ، يقف فيها إلى جانب كاتب ياسين والمخرج المسرحي جان ماري سيرو، الذي كان يتعاون معه قبل أن ينضم إلينا . وللأسف توفي ديفنجان مؤخرا بمرض سرطان الرئة.

[٤٤] أستاذ الفلسفة وعضو الحزب الشيوعي الفرنسي، أنضم لأول نواة أسسها جانسون منذ ١٩٥٦، وانضم فيما بعد إلى شبكة كوريبل عندما أنهى عمله في المغرب في ١٩٥٨-١٩٦٠، وأعتقل بعد شهرين من اعتقالنا وسجن مع كوريبل.

[٤٥] وهو بريء من تهمة إشعال النار، كان مثالا حيا ومحرضا ذكيا ينجح صغار النفوس بسهولة في مناوشته ومضايقته ، وانتهى الأمر به إلى الانتحار، من الغم في سيارته التي كان قد أوقفها في موقف السيارات داخل جامعته.

وأعترف اليوم بأني كنت أبحث عن المخاطرة... يحتاج هذا النوع من المهام إلى شخصية قوية جدا حتى تقاوم الشعور بعقدة الذنب التي تنشأ عندما تقتصر المشاركة على إعداد برنامج خطير، وينفذه الآخرون... دون الاشتراك في تحمل المخاطر كلها... وساد جو من الاستخفاف بالمخاطر عندما وزعنا الواجبات في صيف عام ١٩٦٠.

ولم توجد عثرات، ولا شك أن تطور النشاط السياسي كان سببا في مضاعفة اهتمام أجهزة المخابرات الفرنسية ال DST .

أراد هنري أن يذهب إلى أبعد من مجرد تنظيم شبكة فنية. وانطلق إلى الأمام دون أن يعبأ بالتفاصيل.

صحيح كنا نشعر بالأممية الثورية...،

ولكن أن تكون من واجباته تنشيط المنظمات الفرنسية ...فهذا أمر آخر تماما...!! فضلا عن أن هنري ممنوع من التواجد على التربة الفرنسية!

واحتفظنا في الشبكة بالكادر الفرنسي بعد مغادرة جانسون، وعارض هنري الاندماج الهيكلي للشبكة مع جبهة التحرير الوطني الجزائرية. كما رفض هنري أن يسلم أسماء الرافضين الخدمة العسكرية من أعضاء الشبكة إلى اتحاد الجزائريين في فرنسا.

ولم يكن ذلك بسبب ارتيابه، ولكن لحذره البالغ...

فجبهة التحرير الوطني الجزائرية حركة جماهيرية ذات قاعدة عريضة... وبالطبع مخترقة، وأيضا هناك احتمال قوي باعتراف المناضلين تحت وطأة التعذيب. وتحت إمرة قيادة جبهة التحرير الوطني الجزائرية عدد كبير من الأفراد الجزائريين يمكن استدعاء عناصر منها لتحل محل الخسارة الحادثة في الأفراد... ولكن في حالة الشبكة الفرنسية، وهي مجموعة متباينة من الناحية الأيديولوجية، وتعمل في وسط معاد، فإن عملية القبض على أعضائها بصورة متكررة سيؤدي إلى تصفية الشبكة تماما.

ومنذ بدأنا نشاطنا في شبكة جانسون، أصغى هنري دائما إلى ما يقوله الشباب الفرنسي الرافض والمتهرب من الخدمة العسكرية ... وكان الموضوع شديد الحساسية...!!

طلب الحزب الشيوعي الفرنسي من هؤلاء الشباب مناهضة الحرب وهم في الميدان...!! ورغم ذلك تأسست في١٩٥٩ حركة -المقاومة الفتية- وعكس ظهورها - مع افتقار الخبرة لدى المطلوبين للخدمة العسكرية- الطابع الطوباوي الخيالي لهذه المواقف...!!

أيد هنري مشروع التطوير المستقل للحركة الفتية، التي اهتمت بالمتهربين من الخدمة العسكرية، والرافضين لها ...ولأن بعضهم ليس لديه بالضرورة استعداد لتقديم اكثر من ذلك كمساعدة ملموسة لجبهة التحرير الوطني الجزائرية.

ولكي تبدأ هذه الحركة نشاطها...

ينبغي الإعداد المسبق للبنى اللازمة لاستقبال هؤلاء الشباب -وهم ليسوا على درجة عالية من الوعي السياسي - ثم العمل على تسوية أوضاعهم، وإيجاد عمل لهم أو توفير الوسائل الكفيلة بمتابعتهم أثناء الدراسة.

ناقش هنري هذه المسألة- قبل حملة الاعتقالات- في جنيف مع مارتن دافنجان ومع موريان جان لوي هيورست الذي كان منذ ذهابه إلى الجزائر يحمل ذلك البلد في قلبه ووجدانه، وهو واثق من تحكمه في الأمور، وكان ذلك واضح من نظرات عينيه. وأكمل قصته بعنوان "المتهرب من الخدمة العسكرية"[٤٦]. وأثار اهتمامي طوال سهرة كاملة.

ولم أكن أعرف شيئا عن حركة الرافضين والمتهربين من الخدمة العسكرية، وتولى مارتن فيرليه الذي جندته شبكة كوربيل مسئولية هذه الحركة فيما بعد.

ماذا عن الحركة المناهضة للكولونيالية الفرنسية...؟

كانت من أكبر القضايا السياسية الفرنسية MAF.

طور هنري استراتيجية طموحة: توجه الطاقات في قنوات مناهضة للكولونيالية بهدف الإسراع في وضع نهاية للحرب -ولم يساوره الشك من نجاح هذا النضال التحريري في إحراز النصر النهائي -. وأيد دون تردد أن تقدم مجموعة من الناس المساعدة إلى المناضلين الجزائريين في جميع أنحاء فرنسا سواء بصورة فردية أو جماعية... معتقدا أن رفض الرأي العام الضمني لهذه الحرب في البلد الأم المستعمر قد يتحول إلى حركة قوية إذا ما استطاع الديموقراطيون الفرنسيون الإستفاده من وسائل العمل -بناء على اتخاذ مواقف مطابقة لمبادئهم...- وأن ينتظموا دون تحيز... وعلى أساس قبول موقف مشترك، سواء كانوا من المؤيدين للدعم أو المعارضين له.

ربما فكر هنري في حركة مشابهة للجركة من أجل تحرير المستعمرات -كونها نواب من البرلمان البريطاني، وأفراد من النقابات، ومناضلين من مختلف الميول، والتوجهات في إنكلترا- وهي أيضا مثل فرنسا قوة استعمارية كبرى، وأصبحت هذه الحركة تمثل مجموعة ضغط -لوبي-...

وهي حركة مشروعة تماما في ويست منستر -مع تغذية مستترة للنشاط تقدمه مجموعة مساعدة محدودة الأعضاء تعمل في السر-.

أما في فرنسا... اضطرت الشبكة أن تعمل دائما في جو شبه سري.

ومع هذا قرر هنري أن اللحظة مواتية...

---

٤٦ نشرت القصة في مطبوعات دار النشر منوي في إبريل ١٩٦٠ -منعتها الرقابة وتم مصادرة نسخها- أعادت طبعها ونشرها دار النشر مانيا، باريس ١٩٩١.

وانعقد الاجتماع التأسيسي في بلدة سان سيرج في جبال سويسرا في يوليو ١٩٦٠ شارك في ترتيبات انعقاده اثنان من أصدقاء جيهان -كانا يديران مركزا لتأهيل الشباب الذين يواجهون صعوبات مدرسية-.

وكانت عملية جسورة للغاية... لا حدود لطابعها السخي!

هدفها وضع نهاية- بأسرع ما يمكن- لحرب بشعة على أن تنتقل الشعلة فيما بعد إلى منظمة جماهيرية.

ورأى جانسون أن القضية بهذا الشكل مخالفة للصواب...

وتفجر عند هذه النقطة الخلاف حول تفسير الدور الذي حدده الواحد أو الآخر لما ينبغي أن تقوم به الشبكة الفرنسية.

وبناء على موقف جانسون الذي استرشد بنظرية فانون في تقدير الدور الحاسم الذي يلعبه الفلاحون في العالم الثالث، اعتبر أن هذا التشخيص ينطبق على أهداف "الثورة الجزائرية". وعليه فإن الموقف الريادي للشبكة سيثري النضال في فرنسا إن ارتبط بالحركة العمالية...

أما كورييل، فإنه اعتقد أن ما يجري في الجزائر هو نضال من أجل التحزير الوطني بالمعنى الحرفي لهذه العبارة.

تجسدت في الجزائر فكرة "الأمة" ؟!![47]

وانحصر الهدف -من لم شتات المكتسبات التي أفرزتها قضية جانسون وشبكة الدعم[48] بما في ذلك "بيان ال ١٢١" [49]- في تصعيد المقاومة ضد الحرب في الجزائر... في فرنسا .

لم تكن جنيف بالنسبة لنا مجرد مستودع مصرفي... بل استخدمت أيضا كمركز للاجتماعات. واستضافت أسرة جروثير هنري، وأنا ... وغيرنا ولا سيّما دافيزيه بل أيضا حفيد الأمير عبد القادر!!، وهي أسرة مكونة من ثلاثة أفراد أختين،"فاني وهي الأكبر سنا، والوحيدة التي لديها وعي سياسي، متزوجة من جان، وهو عامل يدوي أقام ورشته في قبو المنزل، ومارسيل الأخت الثانية وهي موظفة في مكتب بريد. وكثيرا ما كان جان يختفي لشهر أو لشهرين، وبعدها يعود إلى عمله في القبو دون أن ينبس ببنت شفة... ودون أن توجه إليه أي أسئلة! عرفناهم دائما متقدمين في السن. وكانت فاني

---

[47] بعد تفكك المجتمع القديم ، ومع اتساع نطاق حركة الهجرة ...

[48] كان لقضية جانسون ... صدى كبير في فرنسا بسبب نشر تفاصيل المحاكمة يوميا في الصحافة، وكانت حديث الناس

[49] اشترك في صياغة -بيان ال ١٢١ - نخبة من المثقفين الفرنسيين المعروفين... وكان له وقع شديد

مسئولة عن تنظيم يقدم المساعدة إلى المعتقلين اليونانيين. وبناء على طلبنا... قدمت مساعدة -من وقت لآخر- إلى المعتقلين المصريين.

وكثيرا ما تقابلنا في ذلك المنزل مع خالد محي الدين. ونستطيع أن نقول أن هذا المنزل كان يعمل بكامل طاقته في كل الأوقات. وبإصرار قمنا، حتى نبقي على هذه "المؤسسة..." والمحافظة عليها ...بسداد جميع الفواتير!!!.

موضوع ثانوي ولكن لا ينبغي إهماله...!!

نعلم أن المتعاطفين مع قضية من القضايا لا يثيرون هذه المشكلة... ولا يطالبون بشيء رغم حاجتهم...!!!

ويدير ماري لويز ديبو المسئول عن الأكراد مركزا للاجتماعات، والاستضافة... ومركزا آخر مشغل بكامل طاقته..

ولكننا نتفادى التردد على أماكن أخرى يستخدمها أيضا المناضلون الوافدون من أي مكان؟ فقد تكون مراكز مخترقة .

تعرض هنري لضغوط كثيرة أثناء الفترة الصيفية بأكملها بسبب الحركة المناهضة للكولونيالية الفرنسية MAF. وبدأ زملائه المقيمين في باريس، ممن خرجوا معه من مصر "لا سيّما حزان، المسئول عن الاتصال بالحزب الشيوعي الفرنسي- وكنا نأخذ رأيه دائما في الاعتبار-" يشعرون بالقلق من اتساع نطاق اهتماماته، والتزاماته الكثيرة.

بدون شك كنا أمميين...

وبدون شك كان هنري ثوريا محترفا...

وبدون شك بذل قصارى جهده حتى يلفت انتباه الشيوعيين الفرنسيين إلى شبكة الدعم والحركة المناهضة للكولونيالية الفرنسية MAF

ولكن تقديم الخدمات إلى حركة تحرير يعتبر شيئا... والانتقال إلى صفوف المنشطين لشبكة دعم فرنسية لهذه الحركة شيء أخر... ليس من المؤكد فهمه... علما بأن تنظيم مقاومة من الفرنسيين المناهضين للحرب التي تشنها حكومتهم في الجزائر يتجاوز كل الحدود الممكن تصورها.

وكانت مجموعة الزملاء على صواب، من حيث المبدأ... ولم تتوفر لهم واجبات أخرى بديلة في ذلك الوقت... وظلت المجموعة على هذا الموقف -وأقل ما يقال في هذا الصدد، لم تكن المجموعة بكل المقاييس ضيقة الأفق-.

بالكاد نلتقط أنفاسنا اللاهثة، وعلينا أن ندفع إلى الأمام مرة أخرى الاستراتيجية الكوريالية، للاستفادة من نضال التحرير الجزائري لتمهيد طريق الوصول إلى حل للصراع الإسرائيلي-العربي.

تمهيد

الخميس، ٤ مايو ١٩٧٨

الساعة ٢ر٢ بعد الظهر

أصابت هنري كوربيل ٤ رصاصات أطلقها عليه اثنان من القتلة يتحدثون الفرنسية (تبين أنهم من المحترفين لما صاحب هذه العملية من دقة في التوقيت)، لحظة توقف مصعد العمارة رقم ٤ شارع رولان في باريس في الطابق الأرضي. وفي الساعة الثالثة بعد الظهر، تلقت وكالة أنباء فرانس بريس بالتليفون رسالة من مجهول نصها كالآتي: " *في تمام الثانية من بعد الظهر اليوم توقف عميل الكي جي بي هنري كوربيل، المناضل من أجل القضية العربية، الخائن لفرنسا التي تبنته عن نشاطه نهائيا. نفذ فيه حكم الإعدام تحية لذكرى أمواتنا. ولقد حذر من أنذر قبل تنفيذ هذه العملية الأخيرة*" هذا هو نص بيان كوماندوز دلتا الذي أعلن مسئوليته عن عملية الاغتيال.

أطلقت الرصاصات من مسدس من نوع كولت ٤٥ شبيه بالسلاح الذي قتل به في باريس لعيد سباعي في ٢ ديسمبر ١٩٧٧ ، حارس مقر ودادية[١] الجزائريين في أوروبا، وسقط ضحية تشابه شكله مع شكل رئيس الرابطة عبد الكريم غريب، المسئول السابق عن اتحاد الجزائريين في فرنسا التابع لجبهة التحرير الوطني. وأعلن أيضا الكوماندوز دلتا مسئوليته عن عملية الاغتيال. وكان هذا هو الشعار الذي استخدمته المجموعات الإرهابية القديمة لمنظمة الجيش السري الفرنسي في الجزائر OAS ، التي تكونت في الجزائر من أنصار "الجزائر فرنسية" واعترضوا على تطبيق مبدأ الحق في تقرير المصير للشعب الجزائري. وبناء على مجموعة من المعطيات المتجمعة نعتقد أن عناصر قديمة من منظمة الجيش السري الفرنسي في الجزائر جندتهم الاستخبارات الفرنسية، هي التي قررت وأعدت لهذه الجريمة، من باب الثأر، وعلى إثر حملة التشهير التي نالت من نضال هنري كوربيل وكان رأس الحربة فيها جورج سوفير الصحفي في مجلة *لو بوان* الأسبوعية الباريسية الهامة... أرسلت باقات الزهور وأكاليل الورود عندما وري جثمان هنري كوربيل في مثواه الأخير في ١١ مايو في مقبرة بير لا شيز وحملت إحداها كلمة تحية رسمية: من الجزائر تحية لذكرى نضال هنري كوربيل أثناء الكفاح من أجل التحرير".

لم يعتقد كثير من الصحفيين المتخصصين في الجرائم السياسية التي ارتكبت في تلك الآونة، بأنها عملية ثأرية لعناصر قديمة من أنصار "الجزائر فرنسية" فلقد انقضى

---

[١] عبارة مستخدمة في الجزائر نستبدلها في مصر –برابطة الصداقة– المترجم

قبل بداية حملة الاعتقالات، أرسلني إلى المغرب لمناقشة شيوعيين من أصل يهودي مغربي في إمكانية تنسيق نشاطهم مع نشاط يهود الجزائر –عثرت على بيان وقعه إفراهام صرفاتي[٥٠]، وجوزيف ليفي من الحزب الشيوعي المغربي– ومعه بيان من فرحات عباس –الذي كان يعرفه هنري– يشير إلى عقد اتصالات في الرباط، والدار البيضاء، ومكناس، وحتى في الجنوب التي ما زالت توجد فيها مجتمعات طائفية:

صرح فرحات عباس بأن اليهود– سوف يشعرون أنهم يعيشون في ديارهم في الجزائر المستقلة...! اجتماعات كثيرة، وصياغة وثائق... (وا حسرتاه... كل هذا بدون نتيجة)[٥١].

لم ينته الأمر عند هذا الحد...؟

فكر هنري مرة أخرى في الاستفادة من تيار اليسار الصهيوني الإسرائيلي الذي ينادى بدمج إسرائيل في الشرق الأوسط ٠٠٠؟

واستفاد في الوقت نفسه المناضلون الجزائريون من تقنية متطورة في أساليب التخريب الحربي التي برع فيها الإسرائيليون أثناء الاحتلال البريطاني لفلسطين. وتعرفوا في هذا السياق بيوري أفنيري[٥٢]، مؤسس المجلة الواسعة الانتشار هاعولام هزيه، وهو من أكثر النجوم شهرة في بلاده.

وإذا كان الجزائريون قد غضوا الطرف، ولم يعيروا انتباها –دون أن يرفضوا...– تحققت رغم ذلك نتيجة صغيرة عندما نظمت لجنة من اليساريين في تل أبيب في ديسمبر ١٩٦٠ لدعم استقلال الجزائر

"سمعت هذا الخبر من إذاعة أوروبا (١) ، وأنا موجودة في السجن".

تضاعفت الاتصالات، والواجبات الفنية التي وصلتنا من كل حدب وصوب، واضطررت الاحتماء بالظلال تماما.

---

٥٠ أفرج عنه مؤخرا من السجون المغربية، بفضل تدخل السيدة العظيمة التي تحمل اسم دانييل ميتران.

٥١ كنت واقعة تحت تأثير نفس الخيالات وأنا أحاول حجب حقيقة لا يمكن الالتفاف حولها: *"لا، لن يشعر اليهود بأنهم يعيشون في ديارهم في أمة ما زالت في مرحلة التكوين والتطور، حيث العنصر الموحد فيها هو الدين، فهؤلاء الذين يؤمنون بأديان أخرى مختلفة لا يمكن إلا أن يصبحوا مواطنين من الدرجة الثانية، كما أن الحروب الإسرائيلية العربية واحتلال الأرض الفلسطينية بالقوة من جانب إسرائيل، لن يسهل من اندماجهم بكل تأكيد. ففي فرنسا لم يحصل اليهود على مواطنة كاملة إلا بعد إسقاط الكنيسة عن عرشها، ونتذكر سقوط هذا الحق المكتسب تحت نظام فيشي أثناء الحرب العالمية الثانية، وبموافقة أغلبية الفرنسيين...!! ألا نتذكر التاريخ ٠٠٠!!*

٥٢ أنظر الجزء الثاني فلسطين.

أرسلت بناتي إلى منطقة أرجلس-جازوست لقضاء عطلة فصل الصيف، في معسكر صيف تديره اثنتان من اليهوديات النمساويات يمتلكن ثقافة واسعة... فروا في الماضي من الاضطهاد النازي، تعرفت عليهن عن طريق الزملاء المصريين في باريس.

ومع اقتراب نهاية الصيف كان علي أن أتخذ قرارا:

إما الانتقال إلى سويسرا مع بناتي، والمضي في نشاط الدعم، ولكن بأشكال أخرى... -كانت هناك أنشطة كثيرة في جنيف، ولوزان-، أو ترك بناتي في أرجلس جازوست والذهاب إلى فرنسا. واضطررت كبقية الأعضاء الدائمين في "شبكة الدعم" بعد أن تنبه إلينا البوليس وقاموا بتعقبنا أن أغير باستمرار من مخابئي ومن شكلي... وعقدنا اجتماعا مع هنري، وجيهان، وروزيت تناول هذا الموضوع. وأصرت روزيت أن أغادر فرنسا، على اعتبار عدم وجود شخص لا يمكن الاستغناء عنه أبدا.

أما هنري فقد ترك لي فرصة الخيار... إلا أنه أشاد بحلقة المناضلين المتواجدين لكامل الوقت القادرين على الاضطلاع بالمسئوليات، والمعيشة في الخفاء، وكان يقل عددهم كلما ضيق البوليس الخناق علينا.

وهو بكل تأكيد ما كنت أتوقعه منه تماما .

وترددت السيدتين في الإبقاء على بناتي -خارج موسم العطلات، فلم يكن عملهم يتناول رعاية الصغار باستمرار- إلا أنهن قد وافقن بصورة استثنائية على ذلك.

وكان من أصعب الأمور -أن أشرح لبناتي كيف لا أستطيع إلا أن أتصرف على هذا النحو... -وبكينا نحن الثلاثة.

هل هذا مستوى من مستويات الوعي السياسي ؟ أم رغبة عارمة في عدم الابتعاد عن النشاط العملي ؟! هل هو تحدي !؟ لا أعرف...؟ كل ما أعرفه..أني لم أتمكن من اختيار اتجاه آخر خلاف ذلك. وحتى اليوم لو سنحت لي فرصة العودة مرة أخرى إلى الوراء ...لن يكون بوسعي التصرف إلا على هذا النحو.

مع خفوت حدة النشاط وتقلص نطاقه... يمكننا أن نقول أن البيانات العملية، عن نشاطنا التي ظهرت في الصحافة -وبوجه خاص في جريدة لموند-اتصلت بتداعيات قضية شبكة جانسون، ثم نشر بيان ال ١٢١[٥٣] وكانت كلها ذات أثر حاسم في الارتفاع بالوعي السياسي وإدراك أهمية نضال شبكة الدعم في مجال تقديم المساعدة لقضية التحرير الجزائري.

وفهم هنري ذلك فورا، وردد قائلا..-"*لقد دخل فرنسيس سجل التاريخ*".

---

[٥٣] أنظر الملحق.

وأيد المناضلون المقبوض عليهم نشاط شبكة الدعم، وأصبحوا شهودا عيان على ما يقترفه النظام من جرائم في مواقفهم عند محاكمتهم أمام القضاء... منسجمين تماما مع القيم الأخلاقية العليا، وكان دفاع النساء بوجه خاص دفاعا رائعا وواضحا بجلاء، وقد صوبن إصبع الاتهام إلى النظام. وظهر بيان الـ ١٢١ في نفس الفترة. ويعود الفضل في ذلك- إلى حد كبير- إلى مساهمة روبير بارا -كان أيضا من بين "الراعين" لتنظيم الحركة الفرنسية المناهضة للكولونيالية-. واتخذ الصحفيون الكاثوليك المشتركون... زمام جميع المبادرات حتى قبل العصيان في١٩٥٤ وذلك لإدارة حوار بين الحكومة الفرنسية والقادة الوطنيين. ومنهم آندرييه ماندوز الديناميكي، الأستاذ الجامعي، والمناضل الكاثوليكي المتخصص في دراسة أعمال الفيلسوف سانت أوغستان[٥٤] القديس اوغسطين. كما حاول ذلك أيضا فرانسيس، وكوليت جانسون، المثقفين المستقلين في مؤلفهم -الجزائر خارج القانون ١٩٥٥-. عندما أدركوا جميعا، مثلما أدرك الشيوعيون مثل جان دريش عالم الجغرافيا ومارسيل برينو عالم التاريخ، قوة الشعور الوطني المغاربي، وكانوا يخشون إذا استمر الاحتلال بقوة لمدة طويلة،أن يؤدي ذلك إلى عسكرة، ودعم التيارات الفاشستية في المجتمع الفرنسي[٥٥].

انضموا إلى هذا النشاط -بلا شك -بدافع من الشعور الإنساني، وأثر أيضا في اتخاذ هذا القرار المخطط السياسي:

إقامة صلات، وروابط صداقة بين الشعبين. وتأثر- بوجه خاص- هنري عاطفيا بروبير -يضاف إلى ذلك إجماع الجميع على تقديره- وكنا قد تعرفنا عليه -مع زوجه دينيس[٥٦]، التي اتهمت أيضا في قضية شبكة جانسون- أثناء اشتراكنا في حملة للإفراج عن المعتقلين المصريين.

وإذا نظرنا إلى الوراء -ربما لا يعتبر ذلك من باب المبالغة...- نقول أن الحوار الذي أثارته الصحافة في باريس كان له أثر قوي على المظاهرات التي سارت في شوارع الجزائر العاصمة في ديسمبر ١٩٦٠،

وشاهدة في مرحلة لاحقة صورها الرائعة. وكنا في السجن في تلك الفترة

---

٥٤ القديس أوغستين أوغسطين ٤٣٠ - ٣٥٤ م. وهو أسقف هيبو ، وهي مدينة عنابة الآن في شرق الجزائر. جمع أطروحته السياسية في كتاب (مدينة الله) دافع عن دور الكنسية المسيحية ضد الوثنيين وأفكارهم التي كانت لا تزال منتشرة على نطاق الدولة الرومانية. ومعنى أسمه المبجل ، ومن أشهر حكاياته ما سمي (برؤية أوغسطين) ونقصها لطرافتها(بينما كان يتأمل في أسرار التثليث ترك ذلك ليتجول على شاطئ البحر وغاص في تأملاته ورأى طفلا حفر حفرة في رمال الشاطئ وراح يملؤها بماء البحر فسأله لماذا يفعل ذلك، فقال أريد أن أفرغ ماء البحر كله في هذه الحفرة ، وكان رد القديس أن ذلك يعتبر ضربا من المستحيل، فما كان إلا أن أجابه الطفل ليس أكثر استحالة مما تفعله أنت عندما تحاول تفسير سر التثليث". -المترجم

٥٥ يخشى اليسار الإسرائيلي من إستمرار الانتفاضة الفلسطينية وسد الطريق على عملية السلام.

٥٦ كانت مؤثرة جداً بسبب إخلاصها الكبير، وافتها المنية بعد أن ناضلت وكرست حياتها كلها لمساندة قضية الصداقة الفرنسية الجزائرية، وكانت قد نشرت المذكرات الخاصة بروبير بارا التي سلمها إياها حول حرب الجزائر (دار نشر تيمونياج كريتيان، والانتبريز ألجيريان دي برس ١٩٨٧).

بلا تروي... بلا تفكير٠٠٠

لا أتذكر التفاصيل... لا أعرف كيف أستدل البوليس عليه!! غادرت زوجة هنري إلى تونس بعد اعتقالها في جنيف.

أتذكر فقط أن هنري كان على وشك الوقوع بين أيديهم

ألقي القبض على زميلته جويس سائقة سيارته، بعد هروبه... وتعرضت لاستجواب استمر ليلة كاملة، وقمنا بإخفاء هنري عند زوجين متعاطفين، في ضاحية قريبة،

وكان يرجونا أن نعمل على إجلائه عن هذا المكان -كانت تصيب الزوجة نوبات من القلق والإغماء المرضي، وهي بدون خبرة ... ولم يكن هنري يتحمل أبداً أن يكون سببا في معاناة شخص آخر- وأخيراً دعاه المسئولون الجزائريون لحضور اجتماع في ألمانيا، وكان علينا أن ننظم مغادرته،

وقررنا أن تكون مغادرته نهائية -وعرض في هذا الاجتماع موضوع إجلائه، وأنا معه إلى تونس-. وظل باقيا يتأكد من توزيع الواجبات المعلقة، ويقوم باتصالاته قبل المغادرة.

وبعد ظهر يوم الخميس ٢٠ أكتوبر ١٩٦٠، ولدى عودتي بعد مقابلة مع مارتان فيرلي...

أسرعت الخطى لكي أتحدث مع هنري، وجيهان، وأنا أفكر في أن أؤكد لهم رفضي مغادرة باريس مع هنري إلى تونس.

كان عددنا قد انخفض ...

بسبب حالات الإنذار المتكررة، والإجلاء القسري لهنري.. وصعوبة تجنيد عناصر بديلة قادرة على تأمين الاتصالات.

وكان هنري يضيف الكثير في جميع المواقف ...أما أنا فلا أستطيع المساعدة إلا في نطاق محدود.

ولكن٠٠٠ كيف أبلغه بقراري دون أن يتأثر ؟

وصلت أخيراً إلى مدخل العمارة... أستطيع أن أعيد وضع نظارتي. ولكني أتساءل... لماذا تأخر كريستيان كل هذا التأخير[٥٧] !!؟ وهنا أسمع من يقول لي

---

٥٧ كريستيان موتييه اليوم صحفي في إذاعة التليفزيون السويسرية.

"أوراقك"!... مخبرين وبوليس في كل مكان. كم هي الساعة الآن ؟ صعب أن نحدد ذلك بسبب هطول المطر بشدة.

وجاش قلبي بالغضب، فهمت فورا... لم يتعرف علّي المخبرين باللباس المدني من علي بعد!!

شعري لونه أحمر... مقصوص حسب الموضة... -وانتشرت في ذلك الوقت موضة القصة القصيرة..! أضع على رأسي بيريه مثل ما يرتديه المظليون... وكان هذا دارجا مع الموضة السائدة في فترة سبقت نهاية حرب الجزائر... وبدون نظارات...مظهري كان أصغر من سني -أفضل دائما أن أقوم بهذا التغيير في مظهري عندما تكون هناك حاجة ضرورية - لم يلتفتوا إلى وجودي إلا عندما هبطت من سيارة كريستيان، -هو الذي استأجر الشقة باسمه في شارع جرينيل، حيث ألقى البوليس القبض فيها على هنري وجيهان... كان يكفي أن نتوخى بعض الحذر. مثلاً ترك السيارة في مكان بعيد. وتطبيق قواعد الأمان المتبعة في المقابلات مع المناضلين الجزائريين،

رغم نتائج عدم التروي فلا وجه لمقارنة حالتنا بالآخرين... ولكن تناقص عددنا يقلل من إمكانية المحافظة على مستوى تأمين جيد للعمليات. كان يكفي أن أتمهل بعض الوقت لأدور حول المبنى قبل دخوله وكان جورج ماتييه[58] على وشك أن يلتحق بنا، ولكنه شعر بحدوث شيء غير عادي، ونجى من الفخ المنصوب، وأستمر يناضل حتى نهاية الحرب. ولكن لم آخذ حذري... قد تكون حالة الإرهاق التي وصلت إليها!!؟.

تكاثرت منذ عدة أيام علامات الإنذار. وكنت مضطرة، -لأن الشرطة استدلت علي- أن أضع في الكراج السيارة الصغيرة ماركة-دو شوفو- التي استأجرها زميل إنجليزي باسمه [59]... وألا أستخدم وسيلة أخرى للانتقال سوى خطوط المترو.

بل أكثر من هذا لم أحصل على كفايتي من النوم لذلك لم أستعد نشاطي تماما... وكان مخبئي الأخير في ورشة مهجورة، توجد في الطابق العلوي في مبنى قريب من دار البلدية، لا توجد به تدفئة، وبدون مرحاض، وبدون مياه -كما كانت الحالة في غرف الخادمات الملحقة بشقق الأغنياء- تطفح على جدرانه الرطوبة، ونافذة مكسورة تدخل منها الرياح الباردة. وكان فصل الخريف هذا في باريس فصلا باردا [60]، وأول شيء كنت أقوم

---

٥٨ مناضل يساري اشترك في المظاهرة الكبرى ضد مغادرة المجندين إلى الجزائر عام ١٩٥٦، أصبح ذراع هنري الأيمن في دعم جبهة التحرير الوطني الجزائرية، ورغم عدم انضمامه فيما بعد إلى منظمة التضامن حافظ على صلاته مع هنري ولا سيما فيما يتعلق بنشاطه في أمريكا اللاتينية.

٥٩ سام بارديل... حافظنا على اتصالاتنا معه منذ الحرب العالمية الثانية عندما كان في مصر.

٦٠ لا شك أن ذكرى المعاناة الجسدية من البرد هي التي جعلتني لا أستطيع تحمل ذكرى عبور العمال البؤساء الصحراء في أقصى درجات برودة الشتاء، ودون مأوى بعد أن لفظتهم أزمة الخليج.

به لدى وصولي هو الاستلقاء على السرير، وأزحف تحت الغطاء الكهربائي الذي اشتريته من أحد المتاجر الكبيرة ملتمسة الدفء، وأستمع إلى غناء، وموسيقى فرقة كورال الجيش الأحمر على جهاز اسطوانات وأنا تحت الغطاء، وأستمر في الاستماع إلى الموسيقى دون أن أجرؤ على إخراج يدي من تحت الغطاء... ولو لقلب صفحات كتاب.

وكثرت الإنذارات ونفذت المخططات لحماية هنري ، والبحث عن أماكن آمنة للاختباء، ومناقشة قرار الإجلاء.

كان جيهان سيؤكد لي يوم الخميس... ميعاد الاجتماع النهائي،عندما نتقابل في الميدان الملاصق لشارع إيكول- مونج، في الساعة التاسعة والنصف مساءا.

ويتميز المناضلون كقاعدة عامة بدقة مواعيدهم...

بعد أن تصفحت جريدتي، وأنا جالسة على أحد المقاعد، سرت حول الميدان، اتصلت بالتليفون دون نتيجة... نجحت أخيرا... ورد كريستيان على التليفون وقال *"إنهم يطلبون منك الحضور ... الجميع سيكون حاضراً في بداية فترة بعد الظهر"...!!!*

لا أتذكر إذا كنت قد فوجئت في ذلك الوقت بهذا الكلام..!. ولو أذكره... سأثير مشكلة عندما أقابل كريستيان.

من القواعد الذهبية المطبقة في النضال السري، قاعدة عدم استخدام الاتصال التليفوني لتحديد مكان اجتماع.

تقابلت مع جيهان مرة واحدة –لهذا كنت أعرف العنوان–، وقررت عدم تكرار هذا الخطأ. وبالذات لأننا اكتشفنا صوت خشخشة في التليفون عند الاتصال بأرقام معينة، ومنها الاتصال برقم كريستيان.

اعتقد أن إهمالنا كان بسبب تفاؤلنا وثقتنا الكبيرة... كان البوليس يقوم بتفريغ أشرطة التسجيل، حسب تقديراتنا في نهاية اليوم على الأقل . ولم نتصور أنه رفعنا إلى مرتبة العدو رقم واحد إلا إذا كنا قد أصبنا– ولم نكن ندري!– بهوس مرضي من البوليس!

لكن أشرطة التسجيل كانت مع ذلك مراقبة على هذا الخط على الدوام ويتم تفريغها أول بأول...

كنت قد تأخرت بسبب مقابلة تمت في أول الفترة المسائية عند باب خروج المترو مع إيفون[٦١] لاستلام جوازات سفر معدلة... لم يسعفني الوقت... كتبت وأنا واقفة –الساعة

---

[٦١] **ناضل في شبكة"الدعم"، وناضل في صفوف منظمة "التضامن"، وكان من المناضلين الصداميين في جمعية فرنسا – فلسطين.**

٧ مساء- وحرفي ل/م على الصفحة الأخيرة من مفكرتي. وبعد نصف ساعة منّ ذلـــك، وقد استعجلت الأمور، وتراكمت في الوقت نفسه أخطائي ...رافقـــت كريســـتيان إلـــى الميعاد المتفق عليه مع مارتان فيرليه.

وبعد أن رافقني هنري إلى الباب، رجاني بحزن شديد ... فقد كان علينا أن نتحـدث -بعد عودتي من مقابلة ايفون - مرة أخرى في موضوع خط الرجعة إلى تونس.

واعتقدت للحظة قصيرة من الزمن أنهم سيتركنني لحال سبيلي ... كنت أتجول فـي باريس، وأنا أحمل أوراق تحقيق شخصية صحيحـــة ... اسـتوفيت كـل المسـوغات لاستصدارها. ولم ينجح البوليس بالضرورة في أن يلصق اسماً على الصور التي يلتقطـــها في الشارع. فضلاً عن أني غيرت شكلي.

ولكن ... سمعت الريس *يقول "هذه هي..."*. وفي مرحلة لاحقة، وأنا مغتاظة مـــن ضعفي، وعدم وجود ردود فعل سريعة- ولا أنكر ذلـــك- قـــررت مزاولـــة مصارعـــة الجيدو..!!!

هكذا أندفع منكسة الرأس إلى داخل العمارة، وبهذا الشكل وبدون تروي!!؟

ولكن ما الذي أستطيع أن أراه جيدا دون نظارات ؟. لم أقم بأقل مناورة للـهروب - كان عمري في ذلك الوقت ٤٠ عاما، وأنتعل حذاء بكعب عال- كيف أهرب من البولـيس الذي يقود سيارات سريعة!.

باختصار، أول ما ركبت سيارة البوليس السريDST أفهموني بأنهم ينتظرون سـقوط "الشخص الرابع الذي أتصل بالتليفون ؟".

وهنا حاولت أن أتذكر محتويات حقيبتي ..."على الأقـــل هـــذا !"... مجموعـــة منشورات للحزب الديموقراطي الكردي لاستنساخها "كنت على اتصال بشريف فانلي فـــي لوزان، وبالدكتور بدير خان في باريس، وهو أستاذي في العام الأول من دراســـتي فـــي القسم الكردي.

وماذا بعد ذلك ؟

لحسن الحظ ويا.. لسعادتي لم تكن الجوازات موجودة معي، لو ضاعت لكان مـــن الصعب الحصول على مثلها.

مفكرتي ؟... لا توجد بها أسماء، ولا عناوين، ولا أرقام تليفـــون. ولكنـــي كنـــت أفضل ألا تكون معي حتى أتفادى أسئلة لا لزوم لها. إذن أحاول التظاهر بـــالبحث فـــي حقيبتي عن علبة السجائر "كنت أحتاجها بالفعل"... سأتظاهر بأني أحاول إخـــراج علبـــة السجائر، وأثناء ذلك أمسك بمفكرتي وأتركها تنزلق وتسقط إلـــى الأرض بجـــانب بـــاب السيارة ... ولكن رجل البوليس الذي كان يراقبني - وكان محرجا في ذلك - لم يـــترك

لي فرصة القيام بهذه الحركة، ولم يكن من حقي أن أفتح حقيبتي. وما من شك -في ذلك الوقت- أنه تصور وجود مسدس في داخلها...!!

تركت لندن عندي انطباعا، وكأنها مدينة البروليتاريا، وباريس مدينة للبرجوازية الصغيرة. ولم أفهم أبداً السبب الذي دعي تجار حي لا تور موبور إلى مساعدة مخبري الجهاز السري الفرنسي DST على جمع قصاصات ورق التقرير الموجه إلى جبهة التحرير الوطني الجزائرية، الذي مزقه هنري، وجيهان، وألقوه من النافذة قبل فتح الباب للبوليس -وكان قد شاهدهم جيهان وهو يهم بالنزول لشراء علبة سجائر، وهم يصعدون الدرج ...وعاد وصعد مسرعا-". ولحسن الحظ عمل المطر على إزالة الكتابة بالحبر، وأصبح من الصعب قراءة النص.

لم تمارس لندن وسائل التعذيب التي نفذت في شارع سوسيه في باريس...

سمعت عندما كنت في حجرة الاستجواب في ذلك الشارع، جهاز للاسطوانات يصدر عنه موسيقى السامبا الصاخبة وبأعلى صوت .... لم يتعرض أحد من مجموعتنا للتعذيب. ولم نمس بسوء. صحيح... وهذه النقطة لا يمكن إهمالها، لم يكن أحد منا استفزازي.

وعندما نظرت من النافذة في آخر يوم من أيام استجوابي رأيت هنري ...وكأنه يلقي إحدى محاضراته على السادة العاملين في الجهاز السري الفرنسي حول حق الشعوب في تقرير مصيرها... متقمصا مظهر -أبونا-... وقد تقابلنا مصادفة في صباح يوم القبض علينا في حجرة مخصصة للتصوير، ولإعداد ملفاتنا. غمزا...! وقبلات نرسلها في الهواء..! هذه هي اللحظات الوحيدة الجيدة التي تمر بعد عملية اعتقال.

توجد لحظات أصعب كثيرا، وكانت المعاملة أكثر قسوة نحوي...

كان من حق الرجال الاستلقاء على سرائر...!! ولكني لم أحصل إلا على (دكه)...

ولم يهمني ذلك بالمرة، كنت أفضل النوم على أي شيء صلب .

تقديرات سخيفة يتمسك بها محللين معتوهين...

لأني امرأة من أصل شرقي ... سأكون أكثر ليونة وقابلية للترويع بسهوله ! أو هذا ما تصوره البعض...مما يدل على عدم فهمهم لحقيقة المرأة المصرية:

المستقلة اقتصاديا -لم تكن في حاجة، كالمرأة الفرنسية، للحصول على توقيع زوجها للسماح لها بفتح حساب في البنك- وهي تحتل مكانة هامة في المجتمع المصري... يمكن أن تصبح أيضاً الفتوة في الحي الشعبي الذي تسكن فيه "بمعنى أنها تضمن بشخصها الأمن"!!

رأيتها من نافذتي تمسك بتلابيب أحد الأشخاص، وتقبض بيدٍ حديدية على عنقه، وتوسعه لطماً وضرباً بيدها الأخرى "كان قد تصرف تصرفاً خليعاً نحو الفتاة الصغيرة

التي كانت تصحبها"، حتى جثي على ركبتيه تدريجياً متضرعا إليها..يعدها بأنهّ لن يكرر ذلك أبداً".

عندما ننتمي إلى مجموعة ترفع من شأنك، لن يتمكن أحد عملاء البوليس الفرنسي –وكان أصلا من مصر– أن يؤثر فيك بأي شكل من الأشكال[٦٢].

وكان هذا الشخص التعيس يقلد الممثل المصري يوسف وهبي بصوته وحركاته المسرحية... يستأسد، ويزمجر من الغضب، كان مثيراً للسخرية حقاً... يغمغم هذراً، ويقول "*حقاً كيف تساعدين العرب وأنتي من أسرة محترمة!!* " ولكنه لم يكن إلا فاصلا ترفيهيا صغيرا... غادر بعدها غرفة التحقيق يجر وراءه أذيال الهزيمة ...

وهو الذي نشر قصة إلقاء القبض علي بين أوساط المهاجرين من مصر، ولم أعرف حتى الآن اسمه.

تصورت في بادئ الأمر، أن الغرض من حجزي– طوال هذه المدة– كان لاستكمال ملء الاستمارات الضرورية لطردي من الأراضي الفرنسية.

وعندما واجهوني بالمنشورات التي كنت أحملها في حقيبتي... اقتنصت هذه الفرصة، وأسهبت في عرض القضية الكردية !!!وتحدثت عن حق الإثنيات في التمسك بثقافاتها، وباستقلالها الذاتي، بل حقها في إقامة دولتها المستقلة في محاولة للتملص من المسائل الأخرى الحساسة...

وحاول المحققون تلخيص محاضرتي على الورق...

حتى صاح أحدهم –كان لا شك يشعرُ بالنقص بسبب شحه معلوماته عن هذه القضية، أو لأنه علم لساعته عدم وجود قرار بطردي من البلاد، ولكنه استمر في التحقيق– قائلاً "*تبا لك... فلتذهب قضية الأكراد للجحيم ..هذا ليس شأننا !* ... ولم أكن أشك في ذلك. بعد ذلك التزمت الصمت، وقمت بالرد على جميع الأسئلة... مكررة بدون تغيير عبارة *ليس لدي ما أقوله*" ...لقنني هنري هذا الدرس. وحقيقة لم يكن لدي شيئاً أضيفه. فكل المعلومات التي كانت مسجلة في ذاكرتي محيت تماما!. لم يتبق شيئاً.

وفجأة ، كما لو كانت قد ظهرت لي قرون استشعار. ما زالت مفكرتي بين أيدي أحد المحققين الذي كان يقلب صفحاتها. كان هذا متوقعاً ، مهما بذل من محاولات للكشف على رموزها، فلن يتوصل إلى شيء –

---

[٦٢] كان هذا المحقق العميل المصري الأصل يهودي يعمل في جهاز المخابرات الفرنسية.

ولكن مع ذلك عثر -كما تهيأ له- على اسم إليس ٠٠٠ومصادفة كان هذا اسم حركي لإحدى المناضلات ٠٠٠ وكانوا قد استدلوا على متعاطفين منتشرين في جميع أوساط المجتمع الباريسي...وعلى أعلى مستوياته-

علمت أن ابنة عمي "أليس"[٦٣] الرقيقة٠٠٠

التبس عليهم الأمر واعتقدوا أنها هي المناضلة إليس التي تتولى الإشراف على حسابات مصروفات إحدى العمليات النضالية...

اصطحبوا قريبتي٠٠٠ ولكن باحترام كبير ! إلى مكاتب التحقيق في شارع سوسييه SAUSSAIES[٦٤] ...

نعم٠٠٠ كل هذا لا بأس به... ولكن على آخر صفحة ..."الساعة السابعة مساء مترو LM". وتابع تقليب صفحات مفكرتي، وقلت لنفسي سيلقون القبض على إيفون لا محالة ... -حامل جوازات السفر المعدلة- مازال هناك متسع من الوقت أمامهم ...

وهذه المرة، ومضة ذكاء سريعة... المحقق الآخر، يحمل أوراق السيارة، ويلقي أسئلة تتعلق بمكان تركي لها في أحد الكرلجات ... تظاهرت بأنني أتعثر... وأتلعثم في الرد "... وقلبي يدق بعنف، لأن المحقق الآخر، كان قابعاً في ركنه، مستمراً في قلب الصفحات بعناية، وتزايد تلعثمي، وترددي !!!عندئذ رفعني من مقعدي أربعة من رجال البوليس، وقادوني إلى هذا الكراج- استدلوا عليه من قسيمة للكشف على المحرك بها العنوان-. واستغرب صاحب الكراج من التفتيش الدقيق للسيارة. لم يتركوا شيئاً إلا وقلبوه وفتحوه.

وعندما عدنا، كانت عقارب الساعة تشير إلى الساعة الثامنة مساء تقريبا- إلى مقر الجهاز السري DST. استؤنفت عملية فك رموز الصفحات في مفكرتي، وفجأة سمعنا من يقول *"يا أبله !"*[٦٥]. وابتهجت كثيراً لأني كنت حريصة على عدم ترك شيء يظهر من هذه المفكرة.

مررنا جميعاً بتجارب مماثلة: الشعور بحاجة للسخرية من العدو... سلوك غريب علي...! أجدت أداء دوري ... الاستجواب المتواصل لأربع أو خمس أيام لم تنهك قوانا... ويجب أن نتذكر في هذا النوع من المواقف وعند الوقوع في قبضتهم... أنهم الذين يتحكمون ويسيطرون بالقوة... ولا يتبقى أمامنا سوى التصرف بذكاء -ففي السجن يعتمد المرء على قوة الجماعات وترابطها، وتأتي من الخارج أخبار التطورات، أما في مكاتب المخابرات DST فأنتم لوحدكم تماما ٠٠٠ تواجهون عددا ضخما من أسئلة يطرحها عملاء عديدون٠٠٠ يجري استبدالهم دوريا٠٠٠

---

٦٣ وهي قريبة عائلة منديس فرانس

٦٤ مكاتب التحقيق وتعذيب المناضلين الجزائريين المقبوض عليهم في باريس. وكان في السابق مركزا للتعذيب تابعاً للجستابو-المترجم.

٦٥ مضى ميعاد المقابلة -التي كانت في الساعة السابعة-مساءا- بسبب التأخير في تفتيش السيارة-المترجم.